

تاریخ الاندلس من الفتح حتى السقوط

إعداد

دكتور / رجب محمود إبراهيم بخيت

بطاقة الفهرسة

اسم الكتاب:	تاريخ الأندلس من الفتح حتى السقوط
إعداد:	د/ رجب محمود إبراهيم بخيت
الطبعة:	ط أول / 1430هـ - 2009 م
الناشر:	مكتبة الإيمان - مكتبة جزيرة الورد
رقم الإيداع:	
الترقيم الدولي:	

مكتبة الإيمان - المنصورة

أمام جامعة الأزهر ت : 050/2257882

مكتبة جزيرة الورد - القاهرة

ميدان حلیم خلف بنك فيصل - شارع 26 يوليو من ميدان الأوبرا

010/0104115 - 02/27877574 - 012/9961635

010/0004046

مكتبة جزيرة الورد - القاهرة

شارع محمد عبده - أمام الباب الخلفي لجامعة الأزهر

ت : 02/5114371 - 012/2108493

حقوق النشر:

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب في أي صورة من الصور (ورقية - أقراص مدمجة - على شبكة الإنترنت الدولية - على الشبكات الداخلية في المؤسسات التعليمية أو خلاف ذلك) وأيضاً لا يجوز اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأية طريقة إلا بموافقة الناشر على هذا . وبصورة مُسَجَّلة وموثقة في الشهر العقاري بجمهورية مصر العربية.



{ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

{ ١٦٢ } لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ { ١٦٣ }

[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

* * *

المقدمة

الحمد لله وحده، لا شيء قبله ولا شيء بعده، أحمدته سبحانه وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

استفتح بالذي هو خير: {رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [المتحنة: ٤].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ} [١٠٢] {إل عمران: ١٠٢}.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ} [النساء: ١].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا} ٧٠ {يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} ٧١ {الأحزاب: ٧٠ - ٧١}.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ} ٣٣ {لقمان: ٣٣}.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} ١ {الحج: ١}.

أما بعد:

إن التاريخ دروس وعبر، وتوضح العبرة، وتتجلى الصورة، وتعم الفائدة حين تنظر الأمة في ماضي تاريخها، لا في تاريخ غيرها، وحين تكون التجربة قد مرت بها لا بغيرها. فتتعلم الدروس، وتأخذ العبرة والعظة، وتعلم مكن الداء وتعمل جاهدة على إيجاد الدواء، ولكن ما أكثر العبر وما أقل الاعتبار! وما أشبه الليلة بالبارحة.

ومن أجل ذلك فإن دراسة تاريخ الإسلام في الأندلس من الفتح إلى السقوط ملء بالدروس والعبر والعظات، بل هو درس ثقيل، وتجربة مرة في فردوس مفقود؛ في أرض بقي فيها المسلمون ثمانية قرون، ثم خرجوا منها بل أخرجوا، وكأن لا أثر لهم فيها ولا عين ما الذي أدخلهم؟ وما الذي أخرجهم؟

إن نصوص الشرع ودروس التاريخ تقول: إن العرب والمسلمين بغير الإسلام لا قيام لهم، وإنهم بغير الدين لا عز لهم، فإن الإسلام وحده ولا شيء غيره هو الذي يربي ويبني ويقوي ويزرع العزة والمسؤولية لله والعهدة لرسوله. وللمؤمنين ولكن المُنْفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [المنافقون: ٨] ولقد جسد ذلك عمر ☺ في مقولته

المشهورة: (لقد كنا أذل قومٍ فأعزنا الله بهذا الدين، ومهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله).

فإن أسلافنا وأجدادنا لما دخلوا بلاد الأندلس، دخلوها بالإسلام فاتحين، وبالعقيدة مستمسكين، ومن عالي الأخلاق متمكنين لأوامر ربهم متبعين، وعن مناهيه ومساخطه متباعدين، حتي لقد بعث أحد الجنود الأسبان برسالة إلى ملكه يصف فيها جيش المسلمين الذين عبروا إلى بر الأندلس بقيادة طارق بن زياد: لقد نزل بأرضنا قومٌ لا ندري أهبطوا من السماء، أم نبعوا من الأرض؟

لقد سار المسلمون في الأندلس في عزة وقوة ومذعة ووحدرة وتماسك على هذا النهج.

يذكر ابن تغري بردي: أن المذصور بن أبي عامر كان يسهر على مصالح رعيته، وكانت متابعتة لأمر رعيته تستنفذ كل وقته، حتى أنه كان لا ينام إلا سويغات متفرقات، فقليل له: لقد أفرطت في السهر وبدنك يحتاج إلى نومٍ أكثر من هذا.

أجاب: إن الراعي لا ينام إلا إذا نامت الرعية، ولو استوفيت نومي لما كان في بيوت هذا البلد العظيم عينٌ نائمة.

هذه هي صورة القوة، وحسن الرعاية، وصدق الحماية، وحفظ البلاد، ولقد بقوا على ذلك قروناً طوالاً محافظين على دينهم، معتزين بإسلامهم، متوحدين في كلمتهم، يجسد ذلك قول بعض المؤرخين من المسلمين: بقينا في الأندلس ما بقينا مع الله، وضاعت الأندلس منا لما أضعنا دين الله.

لقد بدت وبدأت عوامل الضعف، واندلجت الدولة الأموية الواحدة الكبرى إلى دويلات وملوك وطوائف تنافس فيها أصحابها على السلطة، وتناحروا من أجل كراسي الحكم؛ فانتشر بينهم الغدر المستحکم، والخصام الدائم، والكيد المستمر؛ فلا همٌّ لأحدهم إلا تحقيق مصالحه الذاتية، وإشباع أنانيته المفرطة، وكان الأندلس إنما وجدت لمصلحته الخاصة مهما كان ذليل المكانة مهزوز القواعد.

إن كل تقدم حضاري، وسموٍ فكري، وثقل سياسي، وارتفاع معنوي، وعز سلطاني، إنما مرده إلى التمسك بدين الله، وهو مرهون بمقدار الالتزام بشرع الله والبعد عن حياة اللهو والمجون والسافر والحقوق المهذرة يقول ابن خلدون: إذا تأذن الله بانقراض الملك في أمة حملهم على ارتكاب المذمومات، وانتحال الرذائل، وهذا

ما حدث في الأندلس وأدى إلى ضياعها.

بل قد أدرك ذلك كاتبٌ من الخصوم يدون لذلك العصر فهو يقول: العرب هـوا وسقطوا عندما نسوا فضائلهم التي جاءوا بها، أصبحوا على قلبٍ متقلبٍ يميل إلى الخفة والمرح والاسترسال بالشهوات.

وكتاب ربنا يقول: { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا } [الإسراء: ١٦].

إن سنن الله في الأمم لا تتخلف، بل لقد ذكر ابن حزم شيئاً خطيراً في بيان الحال التي وصل إليها حكام دويلات الأندلس في سبيل مصالحهم الذاتية، وما يقدمونه للأعداء من تنازلات خطيرة، حتى قال: والله لو علموا أن في عبادة الصليبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون الأعداء فيمكنوهم من حرم المسلمين وأبنائهم، وربما أعطوهم المدن والقلع طوعاً فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس، فلا حول ولا قوة إلا بالله!

أيها الإخوة: لقد انحرف هؤلاء الأسلاف عن دين الله، ووالوا أعداء الله، وتركوا الجهاد في سبيل الله، وقعدوا عن الدفاع عن حرمة المسلمين، وابتعدوا عن أسباب التآلف والاتحاد، وحدثت الأثرة محل الإيثار؛ ثم من بعد ذلك تكالبت عليهم القوى المعادية، فتمكنت منهم ومزقتهم شر ممزق.

لقد ابتغى حكام الأندلس الآخرين العزة والنصر والوحدة بغير دين الله؛ وفي غير مرضاة الله، ابتغوها في مهادنة النصاري، ودفع الأموال لهم، وعقد المعاهدات التي لا يرضي الله ورسوله ولا المؤمنون عنها، وفي التغافل عما يبديت لهم بليل، وفي تدبير الدسائس والمكائد لبعضهم البعض من أجل عروش زائلة، وظل زائل، فماذا كانت النتيجة؟ لقد ضاعوا وأضاعوا الأندلس.

تبكي الحنيفة البيضاء من أسف	::	كما بكى لفراق الألف هيمان
على ديار من الإسلام خالية	::	قد أفقرت ولها بالكفر عمران
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة	::	حتى المنابر ترثي وهي عيدان
يا غافلاً وله في الدهر موعظة	::	إن كنت في سنة فالدهر يقطان
تلك المصيبة أنست ما تقدمها	::	ومالها من طوال الدهر نسيان
يا راكبين عتاق الخيل ضامرة	::	كأنها في مجال السبق عُقبان
وحاملين سيوف الهند مرهقة	::	كأنها في ظلام النقع نيران

ورائعين وراء البحر في دعة :: لهم بأوطانهم عز وسلطان
(أبو البقاء الرندي)

حقاً إن دراسة تاريخ الأندلس عمل يدمي القلب ويدمع العين ويحير العقل ولكن وبالرغم من قساوة وعتاوة درس الإسلام في الأندلس، يجب المسلم أن يتعلق بربه، يؤمن بو عده ووعيده، والمتبصر بالسنن ونواميس الكون، يرى من وراء ذلك كله فتحاً قريباً، وليس هذا تحدثاً من سياسة قاصرة، ولا من منطق وهم زائل، ولا هو من معطيات واقع مريب، ولكنها روح الأمل الدافع، والفأل الدافق الذي تغرسه في أهل الإسلام حقائق الوحي، وهداية الذبوة المحمدية الخاتمة، وشواهد التاريخ تؤكد أن للإسلام جولة وصوله من جديد بإذن الله في ديارنا التي سلبت من أيدينا وسيكون ذلك قريباً عندما يمكن الله لهذه الأمة وإنها لتدمر في مراحلها المعاصرة نحو وعد الله بالنصر والفوز والفلاح، {وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً} [الإسراء: ٥١].

إن القرآن الكريم والسنة المطهرة والتاريخ المدفوظ، يحدثوننا وينبئوننا أن أمة الإسلام أمة متجددة وعودة، كالغيث لا يدرى الخير في أوله أو في آخره، إنها أمة غير منقطعة بل متصلة مستمرة بإذن الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وفي حالة الهجوم على ديار الإسلام، يقيض الله له من يرده على أعقابها.

هذا هو الإسلام، وهذا هو التاريخ، وهذه دروسه وعبره، وذلك هي سنن الله في الغابرين والحاضرين، فأبشروا وأملوا، وبدينكم فاستمسكوا، وربكم غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

أخيراً:

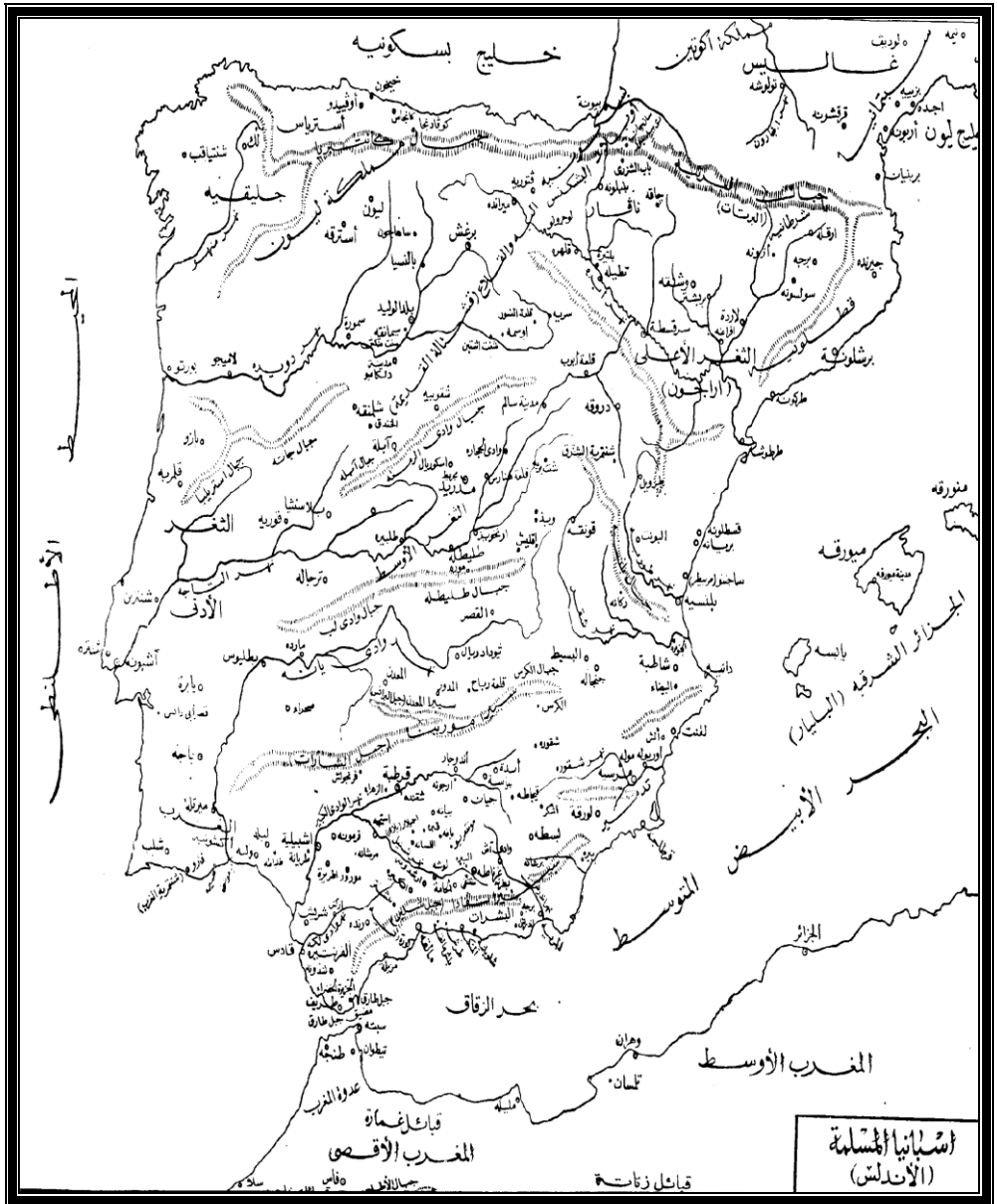
أسأل الله أن أكون قد وفقت في إتمام هذا العمل، وأن يكون خالصاً لوجه الكريم، وأن يتقبله مني وأن يثيبني عليه، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم العرض عليه، وأسأل كل من قرأ هذا الكتاب وانتفع به أن يدعو الله لي بحسن الخاتمة وأن يرزقني الشهادة في سبيله، وأن يدخلني الجنة بغير حساب ولا سابقة عذاب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

ورضوانه

رجب محمود إبراهيم بخيت



النمھید

الفتح الإسلامي لإفريقية والمغرب:

أولاً: فتح مصر

مسیر الفتح الإسلامي لمصر:

فتح بلبيس:

فتح الفرما:

معركة أم دنين:

معركة حصن بابليون:

فتح الإسكندرية:

فتح إفريقية:

بطولة عبد الله بن الزبير في فتح إفريقية:

فتوحات الشمال الأفريقي في عهد معاوية ☺ :

عقبة بن نافع وفتح إفريقية:

بناء مدينة القيروان:

الخصائص المتوفرة في موضع القيروان:

عزل عقبة وتولي أبي المهاجر دينار سنة 55هـ:

فتوحات أبي المهاجر دينار 55 - 62هـ:

إسلام كسيلة:

ولاية عقبة بن نافع الثانية 62 - 63 هـ:

جهاده من القيروان إلى المحيط:

- استشهاد عقبة بن نافع وأبو المهاجر رحمهما الله تعالى:

أثر معركة تهوذة على المسلمين 63هـ:

فتح قرطاجنة:

هزيمة حسان أمام الكاهنة:

استعادة البيزنطيين قرطاجنة وانسحاب حسان إلى سرت بليبيا:

مقتل الكاهنة: 82هـ

سياسة حسان مع البربر:

أ - إدخالهم في قيادة الجيوش:

ب - المساواة بين البربر والعرب المسلمين:

ج - الاهتمام بالتنظيم الإداري:

عزل حسان عن ولاية إفريقية:

فتوحات موسى بن نصير 85هـ:

نظرة جغرافية علي الأندلس:

إسبانيا قبيل الفتح الإسلامي:

فتح جزيرة طريف:

* * *

الفتح الإسلامي لأفريقية والمغرب:

أولاً: فتح مصر

كان الصراع الذي نشب بين الدولة الإسلامية الناشئة، وبين الدولة الرومانية الشرقية، يضطرم حينما تبسط الدولة الشرقية سلطانها، وكانت بسائط الشام مهاد المعارك الأولى بين الدولتين، وكانت أول قطر غنمته الخلافة من أراضي الدولة الرومانية⁽¹⁾ ثم بدأ التفكير الجدي في فتح مصر وهي أيضاً ولاية رومانية.

كانت دوافع فتح مصر عند المسلمين قوية، فهناك العقيدة التي يريدون التمكن لها في كل مكان، ومصر تتصل بفلسطين فمن الطبيعي بعد فتح فلسطين أن يتجه المسلمون إلى مصر، وقد قسم المسلمون الإمبراطورية البيزنطية إلى قسمين لا يصل بينهما سوى البحر وذلك باستيلائهم على الشام، وفي مصر وشمال أفريقية جيوش ومسالح رومية، وليبنظة أسطول قوي في البحر، ولن يأمن المسلمون في الشام ومصر تحت النفوذ الروماني، ومصر غنية، وهي مصدر لتموين القسطنطينية فإذا فتحها المسلمون ضعف نفوذ بيزنطية كثيراً وأمن المسلمون في الشام والحجاز حيث يسهل اتصال الروم بالحجاز عن طريق مصر⁽²⁾ ومن العوامل أيضاً أن (القطب) أنفسهم يعانون من اضطهاد الروم، وأن هؤلاء لا يعيشون في مصر إلا بمثابة حاميات عسكرية، فلماذا لا تنتهز هذه الفرصة خاصة أن عدل المسلمين لا بد أن يكون قد سبقهم إلى مصر، أما الحامية نفسها فإن الرعب لا بد أن يكون قد تملكها حينما رأت ملكها هرقل يترك بلاد الشام لتصير جزءاً من الدولة الإسلامية كل هذا كان يدركه عمرو بن العاص وخلص إلى نتيجة وهي: أن الروم في مصر سيكونون عاجزين عن الوقوف في وجه المسلمين بينما لو تركت مصر دون فتح فستظل مصدر تهديد لهم، وهذا ما صرح به عمرو بن العاص نفسه وبالرغم من تعدد الروايات حول أول من فكر في فتح مصر: عمرو بن العاص أم الخليفة نفسه دون تدخل من عمرو، أم أن الخليفة وافق تحت إلحاح عمرو⁽³⁾، بالرغم من ذلك الاختلاف فإن العوامل السابقة كلها تنفي أن تكون خطة فتح مصر هي مجرد خاطرة من عمرو وأن الخليفة غير راضٍ عن ذلك، أو أنهم لم يكن لديهم التصور الكامل عن

(1) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1 / 14.

(2) علي محمد الصلابي، أمير المؤمنين عمر، ص 493.

(3) أبو المحاسن بن تغريدي، النجوم الزاهرة، 4/1 - 7، أمير المؤمنين عمر، ص 493.

مصر وأرضها وحجم قوة أعدائهم فيها وقد جاءت الروايات التاريخية تؤيد ما ذهبت إليه فقد بين ابن عبد الحكم: أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص بعد فتح الشام أن أندب الناس إلى المسير معك إلى مصر، فمن خف معك فسر به، وجاء في الطبري... أقام عمر بإبلياء بعدما صالح أهلها ودخلها أياماً، فأمضى عمرو بن العاص إلى مصر، وأمره عليها، إن فتح الله عليه، وبعث في إثره الزبير بن العوام مدداً له ويؤكد هذا تلك الإمدادات التي أرسلها عمر إلى مصر ووصل عددها إلى اثني عشر ألفاً، وكذلك أمره بفتح الإسكندرية دون خلاف في ذلك، فهل من الممكن أن يتوغل عمرو في مصر دون رضا من الخلافة؟ ونحن نعرف المسلمين قادة وجنوداً كانوا غاية في السمع والطاعة والالتزام ومن ثم نكرر أن فتح مصر لم يكن إلا استجابة لخطة مرسومة سلفاً عند الخليفة وقواده، ولم تكن استجابة لرغبة عابرة (1).

* * *

مسير الفتح الإسلامي لمصر

يعتبر فتح مصر المرحلة الثالثة من الفتوحات بالنسبة لمحور الدولة البيزنطية ولقد كانت مسيرة عمرو من فلسطين إلى مصر محاذياً البحر فصار من رفح إلى العريش إلى الفرما واستمر فتحه للقاهرة فالإسكندرية وهذا يدلنا على موهبة عمرو العسكرية حيث سار في هذا الخط ربما لأنه لم يكن للروم ثقل عسكري في هذا الخط كما كان في بلاد الشام وربما لأن الدرب كان معروفاً لعمرو بن العاص، فكان تسلسل الفتح كما هو مرتب فيما يلي مع بيان أوجه الاختلاف والاضطراب حيث لم يخل سير الفتح من اختلاف كما حدث في فتح بلاد الشام (2).

* * *

فتح الفرما

تقدم عمرو غرباً ولم يلاق جيشاً رومانياً إلا في (الفرما) أما قبل ذلك فقد قابله المصريون بالترحاب والتهليل، فكان أول موضع قوتل فيه كان في (الفرما) فقد تحصن الروم في المدينة لمواجهة المسلمين، واثقين من قدراتهم على الذود عنها ورد المسلمين بعد أن علموا أن المسلمين الذين جاءوا مع عمرو قلة في العدد والعدة وليس

(1) تاريخ الطبري، 84/5 - 93، أمير المؤمنين عمر، ص494.

(2) د. عبد الرحيم محمد، عمرو بن العاص القائد والسياسي، ص79، أمير المؤمنين عمر، ص495.

معهم عدة للحصار، عرف عمرو عدد الروم، واستعداداتهم وأنهم يزدون على جنده أضعافاً، فكانت خطته في الاستيلاء على الفرما هي المهاجمة وفتح الأبواب أو الصبر عليها إلى أن يضطر الجوع أهلها فينزلوا إليها، واشتد حصار المسلمين للمدينة واشتد عناد الروم ودام الحصار شهوراً، وكانت بعض القوات الرومانية تنزل إلى المسلمين بين الحين والآخر لقتالهم فيجهز عليهم المسلمون وكان عمرو يشد أزر المسلمين بكلماته القوية، فمن قوله لهم: يا أهل الإسلام والإيمان، يا حملة القرآن، يا أصحاب محمد، اصبروا صبر الرجال واثبتوا بأقدامكم ولا تزالوا صفوفكم، واشرعوا الرماح واستتروا بالدرق، والزموا الصمت إلا من ذكر الله، ولا تحدثوا حدثاً حتى آمركم.

وذات يوم خرجت فرقة من الرومان من القرية إلى المسلمين ليقاتلوهم وكانت الغلبة للمسلمين والدائرة على الروم فلاذوا بالفرار إلى القرية، وتبعهم المسلمون، وكانوا أسرع منهم، فملكوا الباب قبل أن يقتحمه الرومان، وكان أول من اقتحم المدينة من المسلمين هو (أسميعق) فكان الفتح المبين، ومما هو جدير بالذكر أن أقباط مصر الذين كانوا بالقرى عاونوا المسلمين ودلوهم على مناطق الضعف وتلقوا المسلمين في (أتميدة) بالترحاب، وبعد تمام احتلال الفرما قام المسلمون بهدم أسوارها وحصونها حتى لا يستفيد منها الروم لو رجعوا إليها لا قدر الله ثم خطب عمرو في الجيش قائلاً: أيها الناس، حمداً لله الذي جعل لجيش المسلمين الغلبة والظفر، والله عظيم حمى بالإسلام ظهورنا، وتكفل به طريق رجوعنا، ولكن إياكم أن تظنوا أن كل ما نرغب فيه قد تحقق، وأن تخذعوا بهذا النصر، فلا يزال الطريق أمامنا وعرأ شاقاً والمهمة التي وكلها لنا أمير المؤمنين بعيدة المنال، وعليكم بالصبر والطاعة لرؤسائكم، فسيعلم القوم هنا أننا جنود السلام، لا نبغي فساداً في الأرض بل نصلحها وكونوا خير قدوة للرسول ؟ (1).

اطمأن عمرو إلى أن المدينة لم تعد صالحة لحماية جيش يأوي إليها، وتفقده جيشه وما فقده في المعركة وتآلم لفقد رجال كانوا حريصين على فتح مصر فعاجلتهم المنية، وخشي إن استمرت المعارك على هذا النحو مع وقوع الخسائر في الجيش القليل العدد ألا يستطيع مواصلة الزحف، ولا يتمكن من بلوغ الغاية ولكن الله تعالى قد عوضه عن فقده فانضم إلى جيشه كثير من رجال القبائل العربية من راشدة ولخم

(1)، فتح مصر، ص 20، أمير المؤمنين عمر، ص 495.

وكانوا يقيمون بجبل الحلال، ومضى عمرو بجيشه لا يلقى شيئاً من المقاومة متجهاً غرباً حتى وصل القواصر (القصاصين) ومن هناك اتجه نحو الجنوب حتى أصبح في وادي الطمبلان بالقرب من التل الكبير ثم اتجه إلى الجنوب حتى نزل بلبيس. قال صاحب النجوم الزاهرة: فتقدم عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى بلبيس (1).

فتح بلبيس

وعند بلبيس برز الروم في قوة كبيرة قاصدين صدّ عمرو عن التوجه نحو حصن بابليون وأرادوا منزلة المسلمين، فقال لهم عمرو ☺ : لا تعجلونا حتى نعدركم وليبرز إلى أبو مريم وأبو مريام، وعندئذ كفوا عن القتال، وخرج إليه الرجلان، فدعاهما إلى الإسلام أو الجزية، وأخبرهما بوصية النبي صلى الله عليه وسلم بأهل مصر، بسبب هاجر أم اسماعيل: روى مسلم في صحيحه أن رسول الله قال: **إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ، وَهِيَ أَرْضٌ يَسْمَى فِيهَا الْقِرَاطُ** (2)، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم **دَمَةً وَرَحْمَةً**؛ أو قال: **دَمَةٌ وَصَهْرًا** (3)، فقالا: قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء، أمداً حتى نرجع إليك. فقال عمرو: مثلي لا يُخدع: ولكني أوجلكما ثلاثاً لتنتظرا فقالا: زدنا، فزادهما يوماً، فرجعا إلى المقوقس عظيم القبط، وأرطوبون الوالي من قبل الروم، فأخبراهما خبر المسلمين، فأما أرطوبون فأبى وعزم على الحرب، وبيت المسلمين، فهزموه هو وجنده إلى الإسكندرية، ومما هو جدير بالذكر، ما يدل على شهامة المسلمين ومروءتهم أنه لما فتح الله على المسلمين (بلبيس) وجدوا فيها ابنة المقوقس واسمها (أرمانوسة) وكانت مقربة من أبيها، وكانت في زيارة لمدينة بلبيس مع خادمتها (بربارة) هرباً من زواجها من قسطنطين ابن هرقل (وهو فيما بعد والد قنسطنتر) صاحب موقعة ذات الصواري وكانت غير راغبة في الزواج منه، ولما تمكنت مجموعة من الجيش الإسلامي من أسر أرمانوسة جمع عمرو بن العاص الصحابة وذكرهم بقوله تعالى: **{ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ }** (٦٠) [الرحمن: ٦٠]. ثم قال: لقد أرسل المقوقس هدية إلى نبينا وأرى أن نبعث إليه بابنته وجميع من أسرناهم من جواريها وأتباعها، وما أخذنا من أموالهم، فاستصوبوا رأيه، فأرسلها عمرو إلى أبيها معززة مكرمة ومعها كل مجوهراتها وجواريها ومماليكها وقالت لها خادمتها

(1) أبو المحاسن بن تغريدي، النجوم الزاهرة 7/1، 8، أمير المؤمنين عمر، ص 498.

(2) القيراط: معيار في الوزن وفي القياس، اختلفت مقاديره باختلاف الأزمنة.

(3) مسلم، ك فضائل الصحابة رقم 2543.

(بربرة) أثناء سفرهما: يا مولاتي إن العرب يحيطون بنا من كل جانب فقالت أرمانوسة: إني آمن على نفسي وعرضي في خيمة العربي، ولا آمن على نفسي في قصر أبي، ولما وصلت إلى أبيها سرَّ بها وبتصرف المسلمين معها (1).

* * *

معركة أم دنين

ذكر ابن عبد الحكم في روايته أن عمراً مضى بجيشه حتى فتح (بليبس) بعد قتال دام نحواً من شهر، ثم مضى حتى أتى (أم دنين) وتسمى المقسس وهي واقعة على النيل فقاتل المسلمون حولها قتالاً شديداً وأرسل عمرو إلى أمير المؤمنين يستمده فأمدّه أمير المؤمنين بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل يقوم مقام الألف، وهم الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعباد بن الصامت، ومسلمة بن مخلد، وقيل الرابع خارجة بن حذافة، وقال عمر في كتابه له: اعلم أن معك اثني عشر ألفاً، ولن تغلب اثنا عشر ألفاً من قلّة، وقد خرج الروم مع الأقباط لمواجهة المسلمين، وجرت بينهم معركة حامية استعمل فيها عمرو بن العاص دهاء العربي كما صنع خالد بن الوليد في حروب العراق، وذلك أنه جعل جيشه ثلاثة أقسام، حيث أقام كميناً للأعداء في الجبل الأحمر، وأقام كميناً آخر على النيل قريباً من أم دنين، وقبل أعداءه ببقية الجيش، ولما نشب القتال بين الفريقين خرج الكمين الذي في الجبل الأحمر وانقضَّ على الروم فاختل نظامهم وانهزموا إلى أم دنين فقابلهم الكمين الذي بقربها فأصبحوا بين جيوش المسلمين الثلاثة وانهزموا وتفرق جيشهم ولجأ بعضهم إلى حصن بابليون الحصين، وهكذا كسب المسلمون هذه المعركة ووقاهم الله شر أعدائهم بفضلته تعالى وذلك بتوفيق قائدهم المحنَّك إلى هذه الخطة المحكمة التي شنت بها قوات الأعداء (2).

* * *

معركة حصن بابليون

تقدم عمرو وجيشه إلى حصن بابليون وحاصروه دصاراً محكماً ودام الحصار سبعة أشهر، وأرسل المقوقس خلال ذلك رسله إلى عمرو بن العاص للمصالحة فاستجاب عمرو بن العاص على الشروط: الإسلام أو الجزية أو الحرب فاختر

(1) صبحي ندا، فتح مصر، ص24.

(2) الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين ص218، أمير المؤمنين عمر، ص499.

المقوقس الجزية، وكتب المقوقس إلى هرقل يستأذنه في ذلك، فلم يقبل منه بل حنق عليه ولا مه لو ما شديداً واستدعاه إلى القسطنطينية ثم ذفاه، ولما أبطأ فتح حصن بابلين قال الزبير بن العوام: إني أهب نفسي لله وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين، وراح عمرو بن العاص يحاصر حصن بابلين ثم تسوروا الحصن في الليل واشتبكوا مع الجنود في قتال عذيف وكان أول من تسور الحصن الزبير بن العوام فوضع سلمات من ناحية سوق الحمام ثم صعد وأمر المسلمين إذا سمعوا تكبيره أن يقتحموا الحصن، فما شعروا إلا والزبير بن العوام على رأس الحصن يكبر ومعه السيف، فكبر تكبيرة فأجابه المسلمون من خارج الحصن، ولم يشك أهل الحصن أن المسلمين قد اقتحموا جميعاً الحصن فهربوا، فعمد حواري رسول الله بأصحابه إلى باب حصن بابلين ففتحوه، واقتحم المسلمون الحصن وفتحوه عنوة، ولكن عمرو بن العاص أمضى الصلح على أن يخرج جند الروم ما يلزمهم من القوت لبضعة أيام، أما حصن بابلين وما فيه من الذخائر وآلات الحرب فتبقى غنيمة للمسلمين ثم خرب أبو عبد الله أبراج الحصن وأسواره (1).

* * *

فتح الإسكندرية

رابط عمرو بن العاص ورجاله عدة أشهر في حصن بابلين ليستجمل الجنود ويصله الإذن من أمير المؤمنين عمر بالسير لفتح الإسكندرية، فلما تحقق ذلك ترك عمرو في الحصن مسلحة قوية من المسلمين، وفصل بجنوده من بابلين في مايو سنة 641م، الموافق جمادى الآخرة سنة 21هـ، وخرج معه جماعة من رؤساء القبط الذين اطمأنوا إلى أن مصلحتهم باتت في مساندة القوة الإسلامية المظفرة، وقد أصلحوا لهم الطرق، وأقاموا لهم الجسور والأسواق، وصارت لهم القبط أعواناً على ما أرادوا من قتال الروم، وقد أثر عمرو السير على الضفة اليسرى للنيل حيث محافظة البحيرة لنتيح له الصحراء مجالاً واسعاً لحركة خيله وجنوده، وكي يتجنب ما كان سيعترضه من الترع الكثيرة لو سار في دلتا النيل، ولم يلق عمرو إلا قتالاً يسيراً عند مرفوط أو (الطراثة) كما يسميها المؤرخون العرب، ثم عبر النهر إلى الضفة الشرقية حيث تقع مدينة نقيوس الحصينة، وكانت ذات حصن منيع فتخوف عمرو أن يتركها على جاذبه ويسير عندها، ولكن الروم بدل أن يتحصنوا من المسلمين في

(1) د. عبد العزيز الشناوي، الفتوحات الإسلامية ص91، أمير المؤمنين عمر، ص500.

حصنهم ركبوا سفنهم ليحاربوا المسلمين فيها ويمنعوهم من الاقتراب من مدينتهم، فرماهم المسلمون بالنبال والسهام وطاردهم في المياه، فولوا الأدبار في سفنهم نحو الإسكندرية، وسرعان ما استسلم من بقي في الحصن ودخله المسلمون ظافرين، وأمضوا عدة أيام يستبرؤون ما حوله من أعدائهم، وأرسل عمرو قائده شريك بن سمي ليتعقب الروم الفارين، فالتقى بهم وليس معه إلا قوة معدودة، فطمع فيه الروم وأحاطوا به، فاعتصم بهم في نهج من الأرض عُرف فيما بعد بكوم شريك، فأرسل إلى عمرو يطلب الأمداد، وما إن علم الروم أن المدد في الطريق إلى المسلمين حتى لاذوا بالفرار، وعند سُلطيس على ستة أميال جنوبي دمنهور كان اللقاء التالي بين عمرو والروم، وجرى قتال شديد انهزموا فيه وولوا الأدبار، ومما يؤسف له أن هذه المعارك التي خاضها المسلمون بقواتهم المحدودة ضد قوات تفوقهم عدة أضعاف من الروم عدداً وعدة، والتي استمر بعضها عدة أيام لم تظفر من مؤرخي المسلمين سوى بأسطر قليلة أو كلمات معدودة، في حين أفرد بعضهم عشرات الصفحات للحديث عن القادسية أو اليرموك أو نهاوند (1)، ومن هذه المعارك الكبرى التي لا تشفى فيها مصادرها العربية غليلاً معركة كزيون وهي آخر تلك السلسلة من الحصون التي تمتد بين بابلون والإسكندرية وقد تحصن بها تيودرو قائد الجيش الرومي ودار قتال شديد استمر بضعة عشر يوماً، ورغم ذلك فلم يظفر من ابن عبد الحكم سوى بهذه الكلمات: ثم التقوا بكريون، فاقتتلوا بها بضعة عشر يوماً، وكان عبد الله بن عمرو على المقدمة، وحامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو، وصلى (عمرو) يومئذ صلاة الخوف، ثم فتح الله للمسلمين، وقتل منهم المسلمون مقتلة عظيمة واتبعوهم حتى بلغوا الإسكندرية، وفي أثناء ذلك أورد قصة عن بطولة عبد الله بن عمرو ووردان مولى أبيه، وقد كانت الإسكندرية عند فتح المسلمين لها عاصمة البلاد وثانية حواضر الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية، وأول مدينة تجارية في العالم، وكان البيزنطيون يدركون خطورة استيلاء المسلمين عليها ويحملون همّ ذلك، حتى قال هرقل: لن ظهر العرب على الإسكندرية إن ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم، وقد زعم الرواة أنه تجهز ليخرج إلى الإسكندرية بنفسه لياشر قتال المسلمين بها، فلما فرغ من جهازه صرعه الله فأماتته، وكفى الله المسلمين مؤذته، واضطربت أمور الدولة البيزنطية بعد موت هرقل إذ تولى الحكم ابناه قسطنطين وهرقل الثاني (هرقليانوس) وشاركتها الإمبراطورة مارتيانة أم هرقليانوس، لكن قسطنطين

(1) الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين ص 224 - 25، أمير المؤمنين عمر، 2 / 1 - 2.

سرعان ما وافته منيته بعد مائة يوم من وفاة أبيه مما جعل أصابع الاتهام تتجه إلى الإمبراطورة التي كانت ترغب في أن ينفرد ولدها بالحكم، فاشتعلت الثورة ضدها، واستمرت الفتن ضاربة في البلاد عدة أشهر، حتى تولى كودستانس بن قسطنطين الحكم شريكاً لعمه هرقلينوس.

وكانت الإسكندرية فضلاً عن متانة أسوارها و ضخامة ووفرة حمايتها تمتاز بموقعها الدفاعي المميز فكان البحر يحميها من شمالها؛ حيث السيطرة آنذاك للروم، وكانت بحيرة مريوط تحميها من جنوبها، وكان اجتيازها عسيراً، بل غير مستطاع، وكانت إحدى تفريعات النيل قديماً واسمها نزع الثعبان تدور حولها من الغرب، وبذلك لم يبق إلا طريق واحد من الشرق يصل إليها؛ وهو الطريق الواصل بينها وبين كزيون.

وطال الحصار عدة أشهر مما أثار مخاوف عمرو من ملل جنوده أو شعورهم بالعجز أمام عدوهم، فقرر أن يبث كتائبه تجوس خلال بلاد الدلتا وقرى الصعيد، غير أن طول حصار الإسكندرية أثار حفيظة الخليفة عمر، وأثار في نفسه الهواجس والظنون حول استعداد جنوده للتضحية والمبادأة، ورأى أن ذلك ما كان إلا لما أحدثوا، وشرح ذلك في رسالة إلى عمرو بن العاص يقول فيها: (أما بعد، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، إنكم تقاتلونهم منذ سنتين ذلك إلا لما أحدثتم، وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نيّاتهم، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر، (يعني الزبير وصحبه)، وأعلمتكم أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف، إلا أن يكون غيرهم ما غير غيرهم، فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس وحضّهم على قتال عدوهم، ورغبهم في الصبر والنية، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس، ومُر الناس جميعاً أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة، فإنها ساعة تنزل فيها الرحمة ووقت الإجابة، وليعجّ الناس إلى الله ويسألوه النصر على عدوهم، فلما أتى عمرو الكتاب جمع الناس وقرأه عليهم، ثم دعا أولئك النفر فقدمهم أمام الناس، وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين، ثم يرغبوا إلى الله ويسألوه النصر، ففعلوا ففتح الله عليهم (1).

ويروى أن عمرو بن العاص استشار مسلمة بن مخلد الأنصاري فقال: أشر علي

(1) حمدي شاهين، الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، ص226.

في قتال هؤلاء فقال مسلمة: أرى أن تنظر إلى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فتعقد له على الناس، فيكون هو الذي يباشر القتال ويكفيه، فقال عمرو: ومن ذلك؟ قال: عبادة بن الصامت، فدعاه عمرو إليه، فلما دنا منه أراد النزول عن جواده؛ فقال له عمرو: عزمت عليك إن نزلت، ناولني سنان رمحك، فناوله إياه فنزع عمرو عمامته عن رأسه وعقد له وولاه قتال الروم، ففتح الله على يديه الإسكندرية في يومهم ذاك، وقد جاء في رواية: إني فكرت في هذا الأمر فإذا هو لا يصلح آخره إلا من أصلح أوله يريد الأنصار، فدعا عبادة بن الصامت فعقد له ففتح الله على يديه (1)، ويروي ابن عبد الحكم: أن حصار الإسكندرية استمر تسعة أشهر وأنها فتحت في مستهل المحرم سنة عشرين للهجرة، وهي ما يوافق 21 ديسمبر سنة 640م بينما انتهى بتلر في دراسته عن فتح مصر إلى أن حصار المدينة قد بدأ في أواخر يونيو سنة 640م وأنها استسلمت في 8 نوفمبر سنة 641م وهو ما يوافق 7 ذي الحجة سنة 21هـ، وقد يرجح هذا القول ما ورد في رسالة عمر الفاروق إلى عمرو بن العاص: إنكم تقاتلونهم منذ سنتين، فما بين وصول عمرو العريش في ديسمبر سنة 639م وتسليم الإسكندرية في نوفمبر 641م ما يعادل سنتين هلاليتين واستبقى عمرو أهل الإسكندرية فلم يقتل ولم يسب وجعلهم أهل ذمة، كأهل بابلون... ثم ترك في الإسكندرية حامية من قواته بعد أن اطمان إليها ونشر بقية كتائبه لتفتح بقية حصون الروم وجيوبهم في مصر، فاستكمل فتح ساحل البحر المتوسط ومدنه الكبرى مثل رشيد ودمياط وغيرها: وكذلك بسط سيطرته على كل دلتا مصر وصعيدها (2).

* * *

فتح إفريقية

بدأ المسلمون فتوحهم في إفريقية عقب إفتاحهم لمصر مباشرة. ففي سنة اثنتين وعشرين من الهجرة، سار عمرو بن العاص غرباً إلى برقة، فافتتحها وصالح أهلها علي الجزية، ثم افتتح طرابلس بعد أن حاصرها شهراً ولجأ سكانها إلى سفنهم في البحر، ولكنه تركها بعد ما غنم ما فيها، وفي خلافة عثمان بن عفان ☺ توغل العرب في قفار

(1) أمير المؤمنين عمر، 2/ 4 - 5.

(2) الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين ص229. علي محمد الصلابي، أمير المؤمنين عمر، 2/ 4 -

إفريقية (1).

وكان من مقاصد حملة عمرو بن العاص ☺ لبرقة وطرابلس وبقية مناطق ليبيا، فتح البلاد وإزالة الطاغوت الروماني عن قلوب العباد حتى تتضح لهم السبل وتفترق لهم الطرق، وتصبح حرية الاختيار في تناول تلك الشعوب، بعد تلك الحملة المباركة التي كانت سببا في دخول ذلك النور إلى تلك المناطق المظلمة بعبادة الأصنام والتقرب إليها بالقرابين، واتخاذ الأنداد والأرباب من البشر من دونه سبحانه وتعالى، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. وعن حملة عبد الله بن سعد على إفريقية، يقول الدكتور صالح مصطفى: وفي سنة 26 هـ/646م عُزل عمرو بن العاص ☺ عن ولاية مصر، واستعمل عليها عبد الله بن سعد ☺، وكان عبد الله بن سعد يبعث جرائد الخيل كما كانوا يفعلون أيام عمرو بن العاص فيصيبون من أطراف إفريقية ويغنمون⁽²⁾، وكانت جرائد الخيل تقصد إفريقية (تونس) تمهيدا لفتحها ومعرفة وضعها، فكان حال هذه الجرائد أشبه ما يكون بكتائب الاستطلاع التي تعتبر مقدمة الجيش وعيونه، فلما اجتمعت عند عبد الله بن سعد معلومات كافية عن إفريقية من ناحية مداخلها ومخارجها، وقوتها وعددها، وموقعها الجغرافي الاستراتيجي كتب حينئذ إلى الخليفة الراشد عثمان بن عفان يخبره بهذه المعلومات الهامة عن إفريقية، يستأذن بناء على تلك المعلومات بفتحها، فكان له ما طلب.

يقول الدكتور صالح مصطفى: ولما استأذن عبد الله بن سعد الخليفة عثمان بن عفان في غزو إفريقية، جمع الصحابة واستشارهم في ذلك، فأشاروا عليه بفتحها، إلا أبو العور سعيد بن زيد، الذي خالفه متمسكا برأي عمر بن الخطاب في ألا يغزو إفريقية أحد من المسلمين، ولما أجمع الصحابة على ذلك دعا عثمان للجهد، واستعدت المدينة - عاصمة الخلافة الإسلامية - لجميع المتطوعين وتجهيزهم، وترحيلهم إلى مصر لغزو إفريقية تحت قيادة عبد الله بن سعد. وقد ظهر الاهتمام بأمر تلك الغزوة جليا، وهذا يتضح من الذين خرجوا إليها من كبار الصحابة، ومن خيار شباب آل البيت، وأبناء المهاجرين الأوائل وكذلك الأنصار؛ فقد خرج في تلك الغزوة الحسن والحسين، وابن عباس وابن جعفر وغيرهم.

هذا وقد خرج من قبيلة مهرة وحدها في غزوة عبد الله بن سعد ستمائة رجل، ومن

(1) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1 / 15.

(2) صالح مصطفى مفتاح المزيني، ليبيا من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، ص 49، علي محمد الصلابي، عثمان بن عفان، ص 250.

غنث سبعمائة رجل، ومن ميدعان سبعمائة رجل، وعندما بات الاستعداد تاماً خطب عثمان فيهم، ورغبهم في الجهاد، وقال لهم: لقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم إلى أن تقدموا على عبد الله بن سعد فيكون الأمر إليه، وأستودعكم الله. ويقال: إن عثمان ☺ قد أعان في هذه الغزوة بألف بعير يحمل عليها ضعفاء الناس، وعندما وصل هذا الجيش إلى مصر انضم إلى جيش عبد الله بن سعد، وتقدم من الفسطاط تحت قيادة عبد الله ذلك الجيش الذي يقدر بعشرين ألفاً يخترق الحدود المصرية الليبية، وعندما وصلوا إلى برقة انضم إليهم عقبة بن نافع الفهري ومن معه من المسلمين، ولم يواجه الجيش الإسلامي أية صعوبات أثناء سيرهم في برقة؛ وذلك لأنها ظلت وفيه لما عاهدت المسلمين عليه من الشروط زمن عمرو بن العاص، حتى إنه لم يكن يدخلها جابي الخراج، وإنما كانت تبعث بخراجها إلى مصر في الوقت المناسب. ومما يؤكد بقاء برقة على عهدهما لعمرو بن العاص، ما ذكر أنه سمع يقول: قعدت مقعدي هذا، وما لأحد من قبض مصر علي عهد إلا أهل أنطابلس⁽¹⁾، فإن لهم عهداً يوفي لهم به، كما أن عبد الله ابن عمرو بن العاص كان يقول: ولولا مالي بالحجاز لنزلت برقة، فما أعلم منزلاً أسلم ولا أعزل منها⁽²⁾.

وهكذا انطلقت هذه الحملة المباركة نحو إفريقية، وكان ذلك بعد انضمام قوات عقبة ابن نافع إليها، إلا أن عبد الله بن سعد قائد الحملة ما فتئ يرسل الطلائع والعيون في جميع الاتجاهات لاستكشاف الطرق وتأمينها ورصد تحركات العدو وضبطها؛ تحسباً لأي كمين أو مباغطة تطرأ على حين غفلة، فكان من نتائج تلك الطلائع الاستطلاعية أن تم رصد مجموعات من السفن الحربية تابعة للإمبراطورية الرومانية، حيث كانت هذه السفن الحربية قد رست في ساحل ليبيا البحري بالقرب من مدينة طرابلس، فما هي إلا برهة من الزمن حتى كان ما تحمله هذه السفن غنيمة للمسلمين، وقد أسروا أكثر من مائة من أصحابها، وتعتبر هذه أول غنيمة ذات قيمة أصابها المسلمون في طريقهم لفتح إفريقية.

وواصل عبد الله بن سعد السير إلى إفريقيا، وبث طلائعه وعيونه في كل ناحية، حتى وصل جيشه إلى مدينة سبيطة بأمان، وهناك التقى الجمعان؛ جيش المسلمين بقيادة عبد الله بن سعد وجيش جرير حاكم إفريقية، وكان تعداد جيشه يبلغ حوالي مائة وعشرين ألفاً، وكان بين القائدین اتصالات مستمرة ورسائل متبادلة، فحَوَّاهَا

(1) أنطابلس: معناها برقة.

(2) ليبيا من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، ص39، الصلابي، عثمان بن عفان - (1) / 251.

عرض الدعوة الإسلامية على جرجير ودعوته للدخول في الإسلام، ويستسلم لأمر الله سبحانه، أو أن يدفع الجزية، ويبقى على دينه خاضعا لسيادة الإسلام، ولكن كل تلك العروض رفضها وأصر واستكبر هو وجنوده، وضاق الأمر بالمسلمين، ونشبت المعركة بين الجمعين وحمل الوطيس بينهما لعدة أيام، حتى وصل مدد بقيادة عبد الله بن الزبير، وكانت نهاية هذا المستكبر الطاغى جرجير على يديه (1).

ولما رأى الروم الذين بالساحل ما حل بجرجير وأهل سبيطة، غارت أنفسهم وتجمعوا وكاتب بعضهم بعضا في حرب عبد الله بن سعد إياهم، فخافوه وراسلوه وجعلوا له جعلاً على أن يرتحل بجيشه، وألا يعترضوه بشيء ووجهوا إليه ثلاثمائة قنطار من الذهب في بعض الروايات، وفي البعض الآخر مائة قنطار، جزية في كل سنة على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم، فقبل ذلك منهم وقبض المال، وكان في شرط صلحهم أن ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم، وما أصابوه بعد الصلح رده عمر.

إن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن سعد: إن أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في أمداد متصلة وبلاد هي لهم وذبح منقطعون عن المسلمين وبلادهم، وقد رأيت أن نترك غدا جماعة سالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين ونقاتل نحن الروم في باطن العسكر إلى أن يضجروا ويملوا، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ونقصدهم على غرة، ففعل الله ينصرنا عليهم، فأحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوه على ذلك، فلما كان الغد فعل عبد الله ما اتفقوا عليه، وأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم وخبولهم عندهم مسرجة، ومضى الباقيون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالا شديداً، فلما أذن بالظهر هم الروم بالانصراف على العادة فلم يمكنهم ابن الزبير وألح عليهم بالقتال حتى أتعبهم، ثم عاد عنهم والمسلمون؛ فكل الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعباً، فعند ذلك أخذ عبد الله بن الزبير من كان مستريحاً من شجعان المسلمين وقصد الروم فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم وحملوا حملة رجل واحد وكبروا فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون، وقتل جرجير، قتله ابن الزبير، وانهزم الروم وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأخذت ابنة الملك جرجير سبية، ونازل عبد الله بن سعد المدينة وحاصروهم حتى فتحها، ورأى فيها من الأموال ما لم

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، 158/7، عثمان بن عفان، (1 / 252).

يكن في غيرها، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار. ولما فتح عبد الله مدينة سببيلة بث جيوشه في البلاد فبلغت قصبة فسبوا وغنموا، وسيّر عسكرا إلى حصن الأجم، وقد احتدى به أهل تلك البلاد فدصرهم وفتح بالآمان فصالحه أهل إفريقية كما مر معنا، ونفل عبد الله بن الزبير ابنة الملك وأرسله ابن سعد إلى عثمان بالبشارة بفتح إفريقية (1).

* * *

بطولة عبد الله بن الزبير في فتح إفريقية

هذا ولقد كان لعبد الله بن الزبير ☺ موقف عظيم في البطولة والشجاعة، وقد ذكره الحافظ ابن كثير حيث قال: لما قصد المسلمون - وهم عشرون ألفا - إفريقية، وعليهم عبد الله بن سعد بن أبي السرح، وفي جيشه عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير، صمد إليهم ملك البربر جرجير في عشرين ومائة ألف، وقيل: في مائتي ألف، فلما تراءى الجمعان أمر جيشه فأحاطوا بالمسلمين هالة، فوقف المسلمون في موقف لم ير أشنع منه ولا أخوف عليهم منه.

قال عبد الله بن الزبير: نظرت إلى الملك جرجير من وراء الصفوف وهو راكب على بردون، وجاريتان تظلالنه بريش الطواويس، فذهبت إلى عبد الله بن سعد بن أبي السرح فسألته أن يبعث معي من يحمي ظهري، وأقصد الملك، فجهز معي جماعة من الشجعان، فأمر بهم فحرموا ظهري وذهبت حتى خرقت الصفوف إليه، وهم يظنون أني في رسالة إلى الملك، فلما اقتربت منه أحس مني الشر، ففر على بردونه فلحقته فصفعته برمحي وذففت - يعني أجهزت - عليه بسيفي، وأخذت رأسه فنصبت على رأس الرمح وكبرت، فلما رأى ذلك البربر فرقوا وفروا كفرار القطا، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فغنموا غنائم جمّة وأموالا عظيمة وسبيّا عظيماً، وذلك بلد يقال له: (سببيلة) على يومين من القيروان.

قال ابن كثير: فكان هذا أول موقف اشتهر فيه أمر عبد الله بن الزبير ☺ وعن أبيه، وعن سائر الصحابة الكرام أجمعين (2).

إن ما قام به ابن الزبير نوع من الطموح نحو المعالي المحفوفة بالأهوال بدون تدرج سابق، لقد كان عمره آنذاك سبعا وعشرين سنة، ولم يذكر له قبل ذلك مواقف

(1) ابن الأثير، الكامل 45/3، 46.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية 158/7، عثمان بن عفان، ص 254.

بطولية من نوع المغامرات، فكيف أقدم على هذه المغامرة الهائلة التي يغلب على الظن أو يكاد يقرب من اليقين في عرف الناس العاديين أن فيها الهلاك؟! وإن الاحتمالات التي يمكن أن ترد في مثل هذه المغامرة أن يدور في خلد المغامر أمران:

1 - أن ينجح في هجومه فيقضي على ملك البربر، ويتفرق جنده كما هي عادة الكفار، وفي ذلك نصر مؤزر للمسلمين، وكفاية لهم عن خوض معركة شرسة قد تخوف منها المسلمون.

2 - أن يتقبله الله شهيداً، وفي ذلك الوصول إلى أسمى الأمان، وأبلغ الدرجات التي يطمح إليها الصالحون ويتنافسون على بلوغها، كما أن في ذلك من إرهاب الكفار وإثارة الرعب فيهم الشيء الكثير؛ حيث سيتوقع الكفار أن المسلمين الذين سيقاثلونهم كلهم من هذا النوع الجريء الفتاك؛ إذ أنه يكفي المغامر شجاعة أن يقذف بنفسه في وسط المعركة الملتهبة، إنه لا يقدم على هذه الوثبة العالية إلا العظماء الذين يتصورون الجنة من وراء تلك الوثبة ويشتاقون للعيش فيها. ولقد كان ابن الزبير وثب تلك الوثبة متجرداً من علائق الدنيا وأثقالها المثبطة، طامحاً إلى ما أعده الله تعالى للمجاهدين في سبيله على قدر طاقتهم، سواء انتصروا على أعدائهم أو نالوا الشهادة (1).

وقد جاء في هذا الخبر: أن البربر بعدما قتل ملكهم فروا من جيش المسلمين كفرار القطأ، وأن المسلمين تبعوهم يقتلون ويأسرون منهم من غير مقاومة، وإن هذا الخبر دليل على أن الله تعالى مع أوليائه المؤمنين، وأنه يقيض لهم إذا صدقوا ما يخلصهم من الشدائد وينقذهم من المآزق، فإن المسلمين قد وقعوا في معضلة كبرى؛ حيث أحاط بهم أعداؤهم الذين يفوقونهم ست مرات في العدد أو أكثر، وكان على المسلمين أن يقاتلوهم من كل جانب، وهو أمر عسير على جيش صغير بالنسبة لكثرة عدوه، كما جاء في قول الراوي: فوقف المسلمون في موقف لم ير أشنع منه ولا أخوف عليهم منه، فقيض الله لهم هذا البطل المغوار الذي أقدم على مغامرة نادرة المثال، فأنقذ الله به ذلك الجيش الإسلامي من عسرة كان يعاني منها.

ولا ننسى موقف الأبطال الذين كانوا مع عبد الله بن الزبير يحمون ظهره، فإنهم قد شاركوه في تلك المخاطرة، ولئن لم يذكر التاريخ أسماءهم فإن عملهم الفدائي قد بقي مخلداً في الدنيا برفع ذكر هذه الأمة حينما تفاخر بأبطالها، وفي الآخرة بما

ينتظرون من وعد الله للمجاهدين الصادقين.

هذا وقد قَدَّم المسلمون الغالي والرخيص في فتوحات إفريقية، واستشهد منهم الكثير، وممن توفى من غازيا بإفريقية في خلافة عثمان: أبو ذؤيب الهذلي وكان شاعراً مشهوراً، وهو الذي قال:

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها :: ألفت كل تميمة لا تنفع
وتجلدي للشامتين أربهم :: أني لربب الدهر لا أتضعع⁽¹⁾

فتوحات الشمال الأفريقي في عهد معاوية ☺

هذا وقد انشغل المسلمون بفتنة عثمان وما تبع ذلك من اضطرابات، ولم يقوموا بعمل حاسم لفتح إفريقية منذ سنة 28 هـ حتى سنة 35 هـ / 654 م، وهي السنة التي قتل فيها عثمان بن عفان، وخلفه علي بن أبي طالب، فلما انتهت الفتنة واستقر الأمر لمعاوية بن أبي سفيان - والي الشام في عهد عثمان -، أعاد عمرو بن العاص علي مصر للمرة الثانية، فاستأنف عمرو غزواته السابقة علي برقة وطرابلس، فكان يبعث إليها جندا يغنمون من أراضيها ماشاء لهم ذلك، ويعودون من حيث أتوا دون الاشتباك مع الوم في مواقع حاسمة⁽²⁾.

ومن واقع تاريخ إفريقيا في عهد معاوية نجد أنه في أول سنة من حكمه 41 هـ أرسل معاوية بن حديج على رأس حملة إلى إفريقيا ثم أرسله ثانية سنة 45 هـ على رأس حملة من عشرة آلاف مقاتل، فمضى حتى دخل إفريقيا وكان معه عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير، وعبد الملك بن مروان، ويحيى بن الحكم بن العاص، وغيرهم من أشراف قريش، فبعث ملك الروم إلى إفريقية بطريقاً يقال له: نقفوراً في ثلاثين ألف مقاتل، فنزل الساحل، فأخرج إليه معاوية بن حديج عبد الله بن الزبير في خيل كثيفة، فسار حتى نزل على شرف عال ينظر منه إلى البحر بينه وبين مدينة سوسة، اثنا عشر ميلاً، فلما بلغ ذلك نقفوراً أقلع من في البحر منهزماً من غير قتال، ورجع بن الزبير إلى معاوية بن حديج وهو بجبل القرن، ثم وجه ابن حديج عبد الملك بن مروان في ألف فارس إلى مدينة جلولاء فحاصرها وقتل من أهلها عدداً كثيراً حتى فتحها عنوة، وأغزى معاوية بن حديج جيشاً في البحر إلى

(1) الذهبي، تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين، ص 359.

(2) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس وآثارهم، ص 31.

صقلية في مائتي مركب، فسبوا وغنموا وأقاموا شهراً، ثم انصرفوا إلى إفريقية بغنائم كثيرة، وبعد هذه الفتوح عاد معاوية بن حديج إلى مصر دون أن يترك قائداً أو عاملاً، ويفهم من هذا التصرف ومن سلوك معاوية بن حديج أثناء هذه الغزوة أن البربر أهل البلاد كانوا قد أصبحوا حلفاء للمسلمين على الروم، وأن المسلمين كانوا يكتفون إلى ذلك الحين بإبعاد الخطر الرومي من هذه الناحية (1) وعندما استعاد معاوية بن حديج طرابلس الغرب ترك فيها رويفع بن ثابت الأنصاري والياً عليها سنة 46 هـ فغزا منها إفريقية (تونس) ودخلها سنة 47 هـ، وفتح جزيرة جربة التي كان يسكنها البربر، وقد تحدثت المراجع عن كثرة السبايا في هذه الغزوة وقام رويفع بن ثابت الأنصاري بتذكير المسلمين في هذه بأحكام وطء السبايا، حيث قال: أما أني لا أقول لكم إلا ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم دنين: **لَا يَحِلُّ لِمَرْءٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْقِيَ مَاءَهُ زَرْعَ غَيْرِهِ، وَلَا يَحِلُّ لِمَرْءٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَقَعَ عَلَى امْرَأَةٍ مِنَ السَّبْيِ حَتَّى يَسْتَبْرئَهَا** (2)، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنماً حتى يُقسم— (3). وقد بقي في ولاية طرابلس الغرب ثم ولاه مسلمة بن مخلد ولاية مصر وبرقة، وبقي عليها أميراً ومات بها سنة 56 هـ وقبره معروف في الجبل الأخضر ببرقة في مدينة البيضاء وهو آخر من توفي من الصحابة هناك، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم ثمانية أحاديث، وأن فقيهاً من أصحاب الفتيا من الصحابة وكان خطيباً مفوهاً

ولم يتح لمعاوية بن حديج أن يتم فتح إفريقية، إذ عزله معاوية بن أبي سفيان سنة 48 هـ / 669 م، وقيل سنة 50 هـ / 670 م وولي إفريقية عقبة بن نافع الفهري. وبتولية عقبة علي إفريقية يبدأ طور الفتح المنظم (4).

* * *

عقبة بن نافع وفتح إفريقية

يعتبر عقبة بن الفهري (5) من أكابر التابعين وأفاضلهم، فقد ولد قبل وفاة الرسول

(1) حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، (85/1).

(2) يستبرئها: بحیضة أو بشهر.

(3) يُقسم: أي من الغانمين ويخرج منه الخمس.

(4) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين وأثارهم في الأندلس، ص 33.

(5) هو عقبة بن نافع القرشي الفهري، نائب إفريقية لمعاوية وليزيد، وهو الذي أنشأ القيروان وأسكنها الناس وكان ذا شجاعة، وحزم، وديانة، لم يصح له صحبة، شهد فتح مصر، واختط بها (5)، فقد أسند معاوية

صلى الله عليه وسلم بعام واحد، وكان من أعرف الناس بأحوال المغرب العربي، وكان قوي الإيمان بدينه، شديد الحماس لنشره، فكان يتخذ من من الفتوحات وسيلة لنشر الإسلام، وكان بالإضافة إلى ذلك قائداً قديراً، ساهم في فتوحات عمرو بن العاص الأولي في إفريقية، كما ساهم في فتوحات عبد الله بن سعد (1) وقد جاء إسناد القيادة إلى عقبة بن نافع خطوة موفقة في طريق فتح شمال إفريقيا كله، ذلك أنه لطول إقامته في برقة وزويلة وما حولها، منذ فتحها أيام عمرو بن العاص، أدرك أنه لكي يستقر الأمر للمسلمين في إفريقية ويكف أهلها عن الارتداد، فلا بد من بناء قاعدة ثابتة للمسلمين ينطلقون منها في غزواتهم، ويعودون إليها ويأمنون فيها على أهلهم وأموالهم، فلما أسند إليه معاوية بن أبي سفيان قيادة الفتوحات في إفريقية، أرسل إليه عشرة آلاف فارس وانضم إليه من اسلم من البربر فكثرت جمعه (2)، وسار في جموعة حتى نزل بمغمداش من سرت، فبلغه أن أهل ودان (3) قد نقضوا عهدهم مع بسر بن أبي أرطاة الذي كان عقده معهم حين وجهه إليهم عمرو بن العاص ومنعوا ما كانوا اتفقوا عليه من الجزية، فوجه إليهم عقبة قسماً من الجيش عليهم عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي، وسار معهم بالقسم الآخر من الجيش واتجه إلى فزان (4)، فلما دنا منها دعاهم إلى الإسلام فأجابوا (5).

ثم واصل فتوحاته، فتح قصور كُوار (6)، وخاور (7)، وغدامس (8)، وغيرها، ومما يلاحظ أن عقبة تجذب في مسيرة المناطق الساحلية، فقصد المناطق الداخلية يفتحها بلداً بلداً، ويبدو أنه فعل ذلك ليأخذ البربر إلى جاذبه ويقيم جبهة داخلية تحيط

ابن أبي سفيان قيادة حركة الفتح في إفريقية إلى هذا القائد الكبير الذي خلد التاريخ اسمه في ميدان الفتوحات، وكان عقبة قد شارك في غزو إفريقية منذ البداية مع عمرو بن العاص واكتسب في هذا الميدان خبرات واسعة، وكان عمرو بن العاص قد خلفه على برقة عند عودته إلى الفسطاط، فظل فيها يدعو الناس إلى الإسلام.

(1) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص 33.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (483/2)، السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص 33.

(3) ودان جنوب إفريقية بينها وبين زويلة عشرة أيام من جهة إفريقية، ياقوت الحموي، معجم البلدان (365/5، 366).

(4) فزان: جنوب ليبيا ولاية واسعة كانت عاصمتها زويلة، الصلابي، الدولة الأموية، (2 / 55).

(5) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص 132.

(6) إقليم ببلاد السودان الغربي جنوب فزان. ياقوت الحموي، معجم البلدان (486/4).

(7) خاور: مدينة جنوب فزان.

(8) غدامس: مدينة جنوب ليبيا قرب الحدود الجزائرية.

بالبيزنطيين على الساحل وتمدّه بالطاقات البشرية للاستقرار والإطاحة بالوجود البيزنطي⁽¹⁾.

* * *

بناء مدينة القيروان

في سنة 50هـ بدأت إفريقية الإسلامية عهداً جديداً مع عقبة بن نافع، المتمرس بشؤون إفريقية منذ حادثة سنّه، فقد لاحظ كثرة ارتداد البربر، ونقضهم العهود، وعلم أن السبيل الوحيد للمحافظة على إفريقية ونشر الإسلام بين أهلها هو إنشاء مدينة تكون محط رحال المسلمين، ومنها تنطلق جيوشهم فأسس مدينة القيروان وبنى جامعها، وقد مهد عقبة قبل بناء المدينة لجنوده بقوله: إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر، فاتفق الناس على ذلك وأن يكون أهلها مرابطين، وقالوا: نقرّب من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط، فقال عقبة إنني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون، ولم يعجبه موضع القيروان الذي كان بناه معاوية بن حديج قبله، فسار والناس معه حتى أتى موضع القيروان اليوم، وكان موضع غيضة لا يرام من الأسباع والأفاعي، فدعا عليها، فلم يبق فيها شيء، وهربوا حتى أن الوحوش لتحمل أولادها، وعن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال: يا أهل الوادي! إنا حالون إن شاء الله، فظعنوا، ثلاث مرات فما رأينا حجراً ولا شجراً إلا يخرج من تحته دابة حتى هبطنا بطن الوادي: ثم قال للناس: انزلوا بسم الله⁽²⁾، وكان عقبة بن نافع مجاب الدعوة، وقد رأى قبيل من البربر كيف أن الدواب تحمل أولادها وتنتقل، فأسلموا ثم شرع الناس في قطع الأشجار.

وأمر عقبة ببناء المدينة فبنيت وبنى المسجد الجامع، وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم وتم أمرها سنة 55هـ وسكنها الناس، وكان في الناس، وكان في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا، فتغير وتذهب ودخل كثيراً من البربر الإسلام، واتسعت خطة المسلمين وقوي جنان من هناك من

(1) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين ص280، الدولة الأموية، (2 / 55).

(2) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص34، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس،

19 / 1، الصلابي، الدولة الأموية - 58 / 2.

الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها (1)، وتم تخطيط مدينة القيروان على النمط الإسلامي، فالمسجد الجامع ودار الإمارة توأمان، لا يفصل أحدهما عن الآخر، فهما دائماً إلى جوار بعضهما، ويكونان دائماً في قلب المدينة التي يخطتها المسلمون ويرتكزان في وسطها (2)، وبينهما يبدأ الشارع الرئيسي للقيروان، الذي يسمى باسم السماط الأعظم، ثم ترك عقبة فراغاً حول المسجد ودار الإمارة في هيئة دائرة واسعة، ثم قسمت الأرض خارج الدائرة إلى خطط القبائل، ليكون استمراراً للشارع الرئيسي في الاتجاهين إلى نهاية المدينة، وانجفل البربر من نواحي إفريقية إلى القيروان، وسكنوا حولها وكان الكثير منهم دخل في الإسلام، وشرعوا في تعلم اللغة العربية والقرآن الكريم وأمور دينهم وهكذا نشاهد فيما بين سنتي 50 و55 هـ حركة قوية بدأت في تعريب الشمال الأفريقي (3).

* * *

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (484/2). السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص34،

محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1 / 19.

(2) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص 35، محمد سيد الوكيل، الأمويون 72/1.

(3) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص35، الصلابي، الدولة الأموية، 2 / 58.

الخصائص المتوفرة في موضع القيروان

... كانت الدوافع السياسية والعسكرية والإدارية والدعوية دوافع قوية في قرار عقبة في اتخاذ موقع القيروان، فقد تميز موقع القيروان بالآتي:

أ - بأنه لا يفصله عن مركز القيادة العسكرية في الفسطاط أي بحر أو نهر، فهو يقع على الطريق البري الذي يربط بين الفسطاط (بمصر) وبين المغرب، ويبدو أن عقبة رحمه الله أخذ بنظرية عمر بن الخطاب في بناء الأمصار والمعسكرات بالألا يفصلها فاصل من نهر أو بحر أو جسر عن المدينة أو مركز القيادة، وأن تكون على طرف البر أو أقرب إلى البر والصحراء.

ب - موافقة الموضع لذهنية العرب ومتطلباتهم الضرورية. وتتجلى هذه الخصوصية من خلال قراءة توصية عقبة بن نافع في أن يكون الموضع قريباً من السبخة: فإن أكثر دوابكم الإبل تكون إيلكم على بابها في مراعيها (1)، وكذلك في الكلمات التي عبر عنها أصحاب عقبة عندما استجمع رأيهم في الموضع المنتخب، إذ قالوا: نحن أصحاب إبل ولا حاجة لنا بمجاورة البحر (2).

ج - بأنه يتمتع ببعض الانتاجات والموارد الذاتية، فالمنطقة التي كان فيها موضع القيروان عبارة غيضة، كما أورد الجغرافيون، وكان مواجهاً لجبال أوراس، معقل قبائل البربر، إذن، فإنه كان في بقعة زراعية تتضمن بعض المحاصيل التي تكفل للمجاهدين المسلمين مورداً غذائياً مهماً (3).

س - صحيح أن المشكلة الرئيسية التي جابهتها القيروان بعد اتخاذها كانت متمثلة بالموارد المائية، كما هي الحال في مدينة البصرة، مع وجود فارق بين المصريين، فإن مياه البصرة كانت مع الأنهار غير أنها مالحة. أما مياه القيروان الصالحة للشرب فكانت تعتمد على مصدرين، الأول منهما: الأمطار حيث كانت تخزن في صهاريج يطلق عليها اسم (المواجل)، وثانيها: مياه وادي السراويل في قبلة المدينة، لكنه كان مالحاً. لذلك فإن بعض المؤرخين حدد مصدر مياه القيروان قائلاً: وشربهم من ماء المطر. إذا كان الشتاء ووقعت الأمطار والسيول دخل ماء المطر

(1) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص34، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 19 / 1، د. عبد الجبار ناجي، دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية ص252.

(2) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى 78/1.

(3) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص34، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 19 / 1، الحبيب الجنحاني، القيروان، ص59.

من الأودية إلى برك عظام يقال لها (المؤجل).. ولهم وادي يسمى وادي السراويل في قبلة المدينة يأتي فيه ماء مالح.. يستعملونه فيما يحتاجونه، ومع ذلك، فإن هذه المشكلة المعقدة يبدو أنها أخذت تتضاءل تدريجياً إلى حد ما (1).

2 - القيروان مركز الحضارة الإسلامية بالمغرب وعاصمتها العلمية:

... لم تبدأ الحياة العلمية المركزة إلا بعد تأسيس القيروان سنة 50هـ، فسرعان ما أصبحت القيروان مركز الحضارة الإسلامية بالمغرب وعاصمتها العلمية، منها انطلق الدعاة وإليها رحل طلاب العلم من الآفاق ومما رشح القيروان في هذه المكانة ما يلي:

أ - إن إنشاء مدينة القيروان يعني أن إفريقية أصبحت ولاية إسلامية جديدة وجزءاً لا يتجزأ من العالم الإسلامي الكبير، وبالتالي سيعيش المسلمون فيها حياتهم العادية، على رأسها التعليم وبث الثقافة الإسلامية، فإن القيروان مدينة رسالة وعلى أهلها تلقى مسئولية نشر الإسلام في المغرب، فكما كانت منطلق الجيوش الفاتحة، كانت كذلك منطلق الدعاة إلى الأنحاء لنشر الإسلام، وقد شعر الصحابة بهذه المكانة للقيروان منذ تأسيسها.

ب - لقد تم بناء الجامع وهو المدرسة الأولى في الإسلام، ولا شك أن الصحابة الذين كانوا في جيش عقبة قد جلسوا للتدريس فيه على النمط الموجود في مدن المشرق آنذاك، فقد كان مع عقبة أثناء تأسيس القيروان ثمانية عشر صحابياً (2)، وقد مكثوا فيها خمس سنوات كاملة كان عملهم فيها، ولا شك، نشر اللغة العربية، وتعليم القرآن والسنة في جامع القيروان، وذلك أثناء بناء مدينة القيروان، حيث لم تكن هناك غزوات كبيرة تتطلب غياباً طويلاً عن القيروان، أما في غزوة عقبة الثانية فقد كان معه خمسة وعشرون صحابياً، وسائر جيشه من التابعين، وقد انتشرت رواية الحديث النبوي الشريف في هذه الفترة مما دعا عقبة أن يوصي أولاده من ورائهم جميع المسلمين بتحري حديث الثقات وعدم كتابة ما يشغلهم عن القرآن.

(1) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص34، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في

الأندلس، 1 / 19، الحبيب الجناحي، القيروان، ص59.

(2) البيان المغرب (20/1). السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص34، محمد عبد الله عنان،

دولة الإسلام في الأندلس، 1 / 19.

ت - لقد استقطبت القيروان أعداداً هائلة من البربر المسلمين الذين جاءوا لتعلم الدين الجديد، قال ابن خلدون عند حديثه عن عقبة: فدخل إفريقية وانضاف إليه مسلمة البربر، فكبر جمعه ودخل أكثر البربر في الإسلام ورسخ الدين، ولا شك أن الفاتحين قد خصصوا لهم من يقوم بهذه المهمة. ومن القيروان انتشر الإسلام في سائر بلاد المغرب، فقد بنى عقبة بالمغربين الأقصى والأوسط عدة مساجد لنشر الإسلام بين البربر، كما ترك صاحبه شاكرًا في بعض مدن المغرب الأوسط لتعليم البربر الإسلام، ولما جاء أبو المهاجر دينار لولاية إفريقية تألف كُسيلة وقومه وأحسن إلى البربر، فدخلوا في دين الله أفواجاً ودَّعِمَ حسان بن النعمان - فيما بعد جهود عقبة في نشر الإسلام بين البربر حيث خصَّص ثلاثة عشر فقيهاً من التابعين لتعليم البربر العربية والفقه ومبادئ الإسلام، وواصل موسى بن نُصير هذه المهمة حيث: أمر العرب أن يعلِّموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين، وترك في المغرب الأقصى سبعة وعشرين فقيهاً لتعليم أهله (1).

ج - كان كثير من أفراد الجيش قد صحبوا معهم زوجاتهم، ومنهم من اتخذ بإفريقية السرايري وأمّهات الأولاد، قال أبو العرب: روى بعض المحدثين أن عبد الله بن عمر بن الخطاب لما غزا مع معاوية بن حديج كانت معه أم ولد له، فولدت له صبية من أم الولد وماتت، فدفنها في مقبرة قریش بباب سلم، فاتخذتها قریش مقبرة يدفنون فيها لكان تلك الصبية. ومن هنا كان لابد من الاهتمام بتعليم النشئ المسلم مبادئ الإسلام واللغة العربية ولذلك فقد نشأت الكتاتيب بالقيروان في وقت مبكر جداً، فقد روي عن غياث بن شبيب أنه قال: كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر بنا ونحن غلّة بالقيروان فيسلم علينا ونحن في الكتاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه، وكان سفيان ابن وهب قد دخل القيروان مرتين أولاً سنة 60هـ أي بعد الانتهاء من تأسيس القيروان بخمس سنوات، والثانية سنة 78هـ (2).

س - إن الموقع الجغرافي لمدينة القيروان كان له دور كبير في إثراء

(1) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص34، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 19 / 1، الصلابي، الدولة الأموية، 2 / 61.

(2) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص34، الصلابي، الدولة الأموية، 2 / 62.

الحياة العلمية وإنعاشها، فقد كانت في موقع متوسط بين الشرق والغرب يمرّ بها العلماء والطلّابة من أهل المغرب والأندلس في ذهابهم إلى المشرق، فيسمعون من علمائها، وكثير منهم يصبح أهلاً للعطاء عند عودته فيسمع منه أهلها، كما كان يدخلها من يقصد المغرب أو الأندلس من أهل المشرق.

ش - لقد كانت التجارة في القيروان رابحة والسلع فيها نافقة ولذلك أمّها كبار التجار من المشرق والمغرب وكثير منهم من المحدثين والفقهاء، فكان ذلك عاملاً مهماً في ازدهار الحياة العلمية بالقيروان.

ص - ومما أسهم في شراء الحياة العلمية كون القيروان آنذاك هي العاصمة السياسية، ذلك أنّه كلما جاء أمير جديد اصطحب معه مجموعة من العلماء والأدباء، كما أن كثيراً من المحدثين والفقهاء يفدون إلى العاصمة الإفريقية ضمن الجيوش القادمة من المشرق والتي استمر مجيئها إلى بعض منتصف القرن الثاني، هذا بالإضافة إلى من كان يقصد الأمراء للمدح والتسليّة من أهل الشعر والأدب.

ل - كما أن القيروان اكتسبت نوعاً من الاحترام والتعظيم باعتبارها البلد الذي أسسه صاحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وظهر بها على أيديهم كثير من الكرامات، واستقر بها بعضهم مدة من الزمن، وهي آخر ما دخله الصحابة من بلاد المغرب، كل هذه الأمور هيأت القيروان لدور الريادة العلمية في إفريقية والمغرب حتى وصفها أبو إسحاق الجبنياني قوله: القيروان رأس وما سواها جسد، وما قام برد الشبه والبدع إلا أهلها ولا قاتل ولا قتل على أحياء السنة إلا أئمتها⁽¹⁾، وقد لهج المؤلفون القدامى بفضل القيروان على سائر بلاد المغرب في المجال العلمي من ذلك ما وصفها به ماقديشي بأنها: منبع الولاية والعلوم، فهي لأهل المغرب أصل كل خير، والبلاد كلها عيال عليها، فما من غصن من البلاد المغربية إلا منها علا، ولا فرع في جميع نواحيها إلا عليها ابتنى، كيف لا ومنها خرجت علوم المذهب وإلى أئمتها كل علم ينسب ولا ينكر هذا خاص ولا عام، ولا يزاحمها في هذا الفضل أحد على طول الأمد والأيام⁽²⁾، وهكذا أصبحت القيروان دار العلم

(1) الدولة الأموية، 2 / 62.

(2) الشيخ محمد النيفر، حسن البيان، ص189، الدولة الأموية، 2 / 62.

الإفريقية وبرز فيها كبار المحدثين والفقهاء والقراء ورحل إليها أهل المغرب والأندلس لطلب العلم، وقد نافح أهلها عن مذاهب السلف فصارت دار السنة والجماعة بالمغرب، لقد قامت القيروان بدور كبير في فتح شمال أفريقية كله والأندلس ونشر الإسلام في المغرب وأصبحت من أهم مراكز الحضارة الإسلامية⁽¹⁾.

ص - ومما أسهم في شراء الحياة العلمية كون القيروان آنذاك هي العاصمة السياسية، ذلك أنه كلما جاء أمير جديد اصطحب معه مجموعة من العلماء والأدباء، كما أن كثيراً من المحدثين والفقهاء يفدون إلى العاصمة الإفريقية ضمن الجيوش القادمة من المشرق والتي استمر مجيئها إلى بعض منتصف القرن الثاني، هذا بالإضافة إلى من كان يقصد الأمراء للمدح والتسليّة من أهل الشعر والأدب.

* * *

عزل عقبة وتولي أبي المهاجر دينار سنة 55هـ

بينما كان عقبة يواصل فتوحاته، وينظم مدينته الجديدة، إذ بوالي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري يعزله سنة 55 هـ / 674 م، ويولي مكانه مولاه أبا المهاجر بولاية إفريقية، وقد صرح هو نفسه بذلك حينما قالوا له: لو أقررت عقبة فإن له جزالة وفضلاً فقال:... إن أبا المهاجر صبر علينا في غير ولاية، ولا كبير ذيل فنحن نحب أن نكافئه، ولما عزل عقبة ذهب إلى معاوية في دمشق معاتباً، وقال له: فتحت البلاد، وبنيت المنازل، ومسجد الجماعة ودانت لي، ثم أرسلت عبد الأنصار، فأساء عزلي. فاعتذر إليه معاوية، وقال له: عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الإمام المظلوم، وتقديمه إياه، وقيامه بدمه وبذله مهجته، ووعد معاوية عقبة برده إلى ولايته، ولكن الأمر تراخي كما يقول ابن عذاري حتى توفي معاوية وأفضى الأمر إلى يزيد، فرد عقبة والياً على إفريقية. وهناك نقطة في هذا الموضوع، وهي: الإساءة التي تعرض لها عقبة من أبي المهاجر أثناء عزله فقد ذكرت المصادر أن أبا المهاجر أساء إلى عقبة إساءة بالغة، فقد سجنه وأوقره حديداً، ولا ندري ما الذي حمل أبا المهاجر على هذا؟ قال الدكتور عبد الشافي محمد عبد اللطيف في كتابه القيم: ولا ندري ما الذي حمل أبا المهاجر على هذا، ويصعب علينا أن نقبل اتهام الدكتور حسين مؤنس

(1) العالم الإسلامي في العصر الأموي ص 270، الدولة الأموية 64/2.

لمسلمة بن مخلد، بأنه هو الذي أوعز إلى أبي المهاجر أن يسيء إلى عقبة. فهذا اتهام لا يستند إلى دليل، خصوصاً وأن ابن عبد الحكم يقول عن مسلمة حين ولي أبا المهاجر: وأوصاه حين ولاه أن يعزل عقبة بأن يحسن العزل، فخالفه أبو المهاجر، فأساء عزله وسجنه وأوقره حديداً، حتى أتاها كتاب من الخليفة بتخليه سبيله وإشخاصه إليه. ثم يذكر أن مسلمة ركب إلى عقبة حين مر بمصر وترضاه وأقسم له بالله لقد خالفه ما صنع أبا المهاجر وقال له: ولقد أوصيته بك خاصة (1)، ولكن لماذا خالف أبو المهاجر وصية مولاه مسلمة وأساء إلى عقبة، مع أنه هو شخصياً كان يجلب عقبة، ويعرف مقامه؟ وقد جزع عندما دعا عليه عقبة، وقال هذا رجل لا يرد له دعاء، هذا هو السؤال الذي لا نمك عليه جواباً شافياً.. اللهم إلا الاستنتاج الذي أخذ به محمد علي دبور، وهو أن أبا المهاجر ربما يكون قد اضطر اضطراراً إلى القبض على عقبة وسجنه، لأن عقبة خاشنه ولم يرضخ للعزل بسهولة لأنه كان يرى نفسه أحق بالولاية والقيادة من أبي المهاجر: ولعل أبا المهاجر قد خاف من خلاف يقع بين المسلمين لعدم رضوخ عقبة له فيستغله أعداؤهم الروم، فاضطر إلى سجنه حتى لا يحدث خلل بين المسلمين. إن كان هذا الاستنتاج صحيحاً وهو على كل حال معقول، فقد يخفف من شدة اللوم الذي يوجهه إلى أبي المهاجر كل مسلم حريص على أن تسود روح الاحترام والإجلال بين القادة المسلمين مهما كانت خلافاتهم، وأن يحاول اللاحق منهم الاستفادة من جهود السابق وخبرته، بدلاً من الإساءة وتبادل الأحقاد وأن يكون السابق منهم حريصاً كذلك على أن يعطي خبرته وتجاربه ونصائحه للاحق، حتى ينجح في مهمته لأن هدفهم واحد وهو الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته ونشر دينه (2).

* * *

فتوحات أبي المهاجر دينار 55 - 62هـ

... على الرغم... من الخطأ الكبير الذي ارتكبه أبو المهاجر في حق سلفه، المجاهد الكبير عقبة بن نافع، إلا أن الإنصاف يقتضي أن نقول أنه قام بدور عظيم في فتح المغرب وتمهيده لقبول الإسلام ديناً ونظام حياة، فقد كان أبو المهاجر يتمتع بقدر كبير من الكياسة والسياسة وحسن التصرف، وقد رأى - بثاقب نظرة - أن

(1) ابن عبد الحكم، فتوح مصر ص 134، الدولة الأموية، 2 / 65.

(2) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص 36 - 37، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في

الأندلس، 1 / 20 - 21، الدولة الأموية، 2 / 65.

سياسة الشدة التي كان يسير عليها عقبة بن نافع لا بد أن تغير، وعليه أن يصطنع بدلها سياسة كسب القلوب، فالبربر قوم أشداء يعتدون بكرامتهم وحریتهم فسياسة اللين معهم قد تكون أجدى من سياسة الشدة وقد نجح أبو المهاجر في سياسته تلك نجاحاً كبيراً، كما أن أبا المهاجر قد أدرك أن الذين يحركون البربر في شمال أفريقيا ضد المسلمين ويؤلبونهم عليهم، هم الروم، الذين أخذوا يتحجبون إلى البربر ولذلك انتهج سياسة تقوم على كشف حقيقة الروم وعلى إقناع البربر أن المسلمين ما جاءوا إلى هذه البلاد يستعمروهم ويستعبدونهم ويستغلوا بلادهم، كما يحاول الروم أن يفهموهم، وإنما جاءوا لهدايتهم ولخيرهم ودعوتهم إلى الإسلام الذي فيه سعادتهم ومساعدتهم على التحرر من ربة الروم، الذين يستغلون بلادهم منذ قرون، وكان الروم رغم الهزائم التي حلت بهم في وسط إقليم إفريقية وجنوبه، لازالوا قوة في الشمال، ولا زالت عاصمتهم قرطاجنة عذراء لم يقصدها أحد من الفاتحين الأولين، ثم إنهم لازالوا قوة في ساحل المغرب من بنزرت إلى طنجة، فكان على أبي المهاجر أن يضرب الروم ضربة قوية ليضعضع نفوذهم في تلك النواحي، ويكسر الحلف الذي عقده مع البربر، فسار إلى قرطاجنة ونازلها⁽¹⁾، فاستغلقت وتحصنت بالأسوار العالية، فشدد أبو المهاجر الحصار عليها فعلم الروم أنه لا قبل لهم بالجيش الإسلامي، وأن أبا المهاجر لا بد أن ينتصر عليهم، فدخل العاصمة باقتداره وقوته، فطلبوا الصلح فصالحهم بإخلاء جزيرة شريك، لتنزل فيها جنوده، وكان أبو المهاجر يهدف من احتلال جزيرة شريك، القربة من قرطاجنة، أن يراقب الروم وتحركاتهم، وترك فيها حامية من الجيش جعل على رأسها قائده حنش الصنعاني ليصد الروم إذا حاولوا مهاجمة المسلمين أثناء غزوهم للبلاد. رفع أبو المهاجر الحصار عن قرطاجنة بعد أن انتزع من الروم جزيرة شريك، ذلك الموقع الاستراتيجي الهام، وترك فيها حامية تؤمن ظهر المسلمين، وتراقب تحركات الروم، ثم اتجه بعد ذلك مسائراً الساحل ناحية الغرب، وقد خافه الروم والبربر جميعاً، فلم يتعرض له أحد، حتى وصل إلى مدينة ميلة، على خمسين ميلاً من بجاية في جنوبها الشرقي فوجدها مستعدة للقتال، وكان فيها طائفة من البربر والروم، تحصنوا بها، فنازلها أبو المهاجر واحتلها، وغنم ما فيها واستقر بها، وكانت ميلة تتوسط المغربين الأدنى والأوسط،

(1) أبو المحاسن بن تغريدي، النجوم الزاهرة (152/1)، السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص 36 - 37، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1 / 20 - 21، الصلابي، الدولة الأموية - (2 / 66).

فهي أحسن مكان يراقب منه أمور البربر والروم في هذه البقاع، فجعلها مقره، وأقام بها نحواً من سنتين وقد استثمر هذه المدة في الاتصال بالبربر، وإفهامهم حقيقة الإسلام، ودعوتهم إليه، وقد نجح في سياسته نجاحاً كبيراً فأقبل البربر على الإسلام وآية ذلك أن المؤرخين لم يتحدثوا عن معارك وقعت له في هذه النواحي من المغرب، قسطنطينية الآن ونواحيها إلى بجاية. لأن الروم كانوا يتقون بالبربر، وهاهو أبو المهاجر قد نجح في اجتذاب البربر وفصلهم عن الروم، فسكنت تلك النواحي، سكون البحر بعد العاصفة، وترامت الأخبار إلى أبي المهاجر أن جمعاً من الروم والبربر يستعد لحربه، فقرّر المسير إليهم، وكانت زعامة المغربين الأوسط والأقصى لقبيلة أوربة⁽¹⁾، وهي قسم كبير من أقسام البربر البرانس، وكان زعيم هذه القبيلة كسيلة بن لمزم، وكان كسيلة قوي الشخصية ذكي الفؤاد، غيوراً على وطنه وكان البربر يجلونه ويحبونه وكان نصرانياً متمسكاً بدينه، وكان لا يعرف حقيقة الإسلام والمسلمين، فاستطاع الروم أن يوحوا إليه ما أرادوا في الإسلام والمسلمين فرأهم عدواً لدينه ووطنه، ورأى أن أبا المهاجر في ميعة، فعلم أنه لا بد أن يسير لافتتاح المغرب الأوسط والأقصى، فذهب يدعو البربر لمكافحة المسلمين والاستعداد لحربهم وإجلأهم عن بلادهم، فتحمس البربر بثورة أميرهم كسيلة فلبسوا لامة الحرب، واستعدوا للقراع، فتجمع لكسيلة جيش كثيف من البربر والروم⁽²⁾.

1 - معركة تلمسان: بعد أن استكمل كسيلة عدته عسكر في تلمسان، وانتظر اللقاء المرتقب مع أبي المهاجر ولم يطل انتظاره، فقد وصل أبو المهاجر، وعسكر بجيشه حول تلمسان، فالتقى الجيشان ودارت معركة قاسية، أبلى فيها كل من الفريقين بلاءً كبيراً، وأدركوا خطورتها وأن لها ما بعدها، وكثر القتلى من الجيشين، ثم أنزل الله نصره على المسلمين، فهزموا جيش كسيلة فولى الأدبار⁽³⁾.

إسلام كسيلة

... أسر كسيلة في معركة تلمسان وحمل إلى أبي المهاجر فأحسن إليه وقربه

(1) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص 36 - 37، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1 / 20 - 21، الصلابي، الدولة الأموية - (2 / 68).

(2) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص 36 - 37، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1 / 20 - 21، الدولة الأموية - (2 / 68).

(3) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص 37.

وعامله معاملة الملوك (1)، وطمع في إسلامه، فحدثه عن الإسلام وعرفه حقيقته، وإنه دين التوحيد الخالص، والعدل والمساواة، والأخوة، وأنه لو أسلم فلن يخسر شيئاً، بل العكس سوف يكسب الكثير روحياً ومادياً، وكان كسيلة ذكياً طموحاً مخلصاً لقومه لا يريد لهم إلا الإصلاح، فأمن كسيلة، وأصبح من المسلمين وأغرم بالعربية فصار يتعلمها، وأصبح من المقربين من أبي المهاجر وشمر كسيلة لمناصرة الإسلام والمسلمين ودعا قومه البربر للدين الحنيف، وكان البربر قد تفتحت قلوبهم للإسلام والمسلمين وعاد أبو المهاجر بعد أن اطمأن إلى أمور المغرب الأوسط وإلى إسلام البربر إلى مقره قريباً من القيروان، وأقام بقرية تسمى دكرور يراقب الأمور، ويرصد تحركات الروم ودسائسهم ويعمل على إزالة نفوذهم من الشمال الإفريقي، لكن لسوء الحظ لم يطل به المقام، فقد عزله يزيد بن معاوية 60، 64 هـ عن إفريقية وأعاد عقبة بن نافع إلى إفريقية ثانية (2).

* * *

ولاية عقبة بن نافع الثانية 62 - 63 هـ

ظل أبو المهاجر علي ولاية إفريقية حتى مات معاوية سنة 60 هـ وأفضت الخلافة من بعده لابنه يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وكان يزيد مقتنعاً بفضل عقبة علي الإسلام وحسن بلائه في غزو إفريقية، فاستقطع ولاية إفريقية من مسلمة بن مخلد والي مصر، وعزل أبا المهاجر بن دينار، ورد عقبة بن نافع إلى ولاية إفريقية للمرة الثانية (3).

وصل عقبة بن نافع إلى إفريقية ورتب أمورها وعامل أبا المهاجر معاملة قاسية، فقد أوثقه في وثاق شديد (4)، ومع هذا فقد كان أبو المهاجر مخلصاً وفياً شهماً غيوراً فلم يدخل بنصائحه لعقبة بالرغم مما حدث بينهما من الجفوة ومن أبرز هذه النصائح إشارته على عقبة بإكرام زعيم البربر كسيلة، ومحاولة تأليفه ليدقى على الإسلام، ولكن عقبة أهان ذلك الزعيم، حيث أمره يوماً أن يسلم شاة بين يديه، فدفعها

(1) تاريخ المغرب الكبير 38/2، الدولة الأموية - 2 / 69.

(2) الدولة الأموية - 2 / 69.

(3) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص 37.

(4) ابن عبد الحكم، فتوح مصر ص 134، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 4 / 45، السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص 36 - 37، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1 / 20 - 21، الصلابي، الدولة الأموية - (2 / 70).

كسيلة إلى غلمانها، فأراده عقبة على أن يتولاها بنفسه وانتهره، فقام كسيلة مغضباً وجعل كلما دس يده في الشاة مسح بلحيته، وبلغ ذلك أبا المهاجر فبعث إليه يذهاه ويقول: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتألف جبابرة العرب وأنت تعمد إلى رجل جبار في قومه وبنار عزه حديث عهد بالشرك فتفسد قلبه؟ توثق من الرجل فإني أخاف فتكه ولا شك أن عقبة حينما أهان ذلك الزعيم البربري لم يكن يعتقد بصحة إسلامه إذ أن عقبة كان في غاية التواضع للمسلمين وكان اجتهاده يقضي بمحاولة إذلال ذلك الرجل حتى يتحطم طغيانه وتهون مكانته في نفوس قومه فلا يستطيع بعد ذلك أن يستنفرهم لحرب ضد المسلمين، ولكنه أخطأ في اجتهاده لأن قوم ذلك الرجل كانوا حديثي عهد بالإسلام، ومهما كان لظن عقبة فيه من احتمال في عدم الصدق في الولاء فإن كسبه وبقاءه في جيش المسلمين وتحت سلطتهم أولى بكثير من معاداته وإتاحة الفرصة له لضرب المسلمين من مكامن الخطر، وهو الذي صاحبهم وحاز على شيء من ثقتهم، ومن موقف عقبة المذكور تظهر لنا نتيجة مهمة من نتائج العمل بسنن الإسلام التي من أهمها العمل بالشورى وأخذ رأي أهل الحل والعقد خاصة في الأمور المهمة، وعلى أي حال فإن كلا القائدين كان مجتهداً في تصرفه ولا يظن بواحد منهما أنه كان يعمل لصالح نفسه أو لصالح عشيرته وإنما كان رائدهما النظر في مصلحة الإسلام والمسلمين، ولكن كان اجتهاد أبي المهاجر أقرب إلى الصواب في هذه القضية(1).

* * *

جهاده من القيروان إلى المحيط

بعد اكتمال بناء القيروان عام خمسة وخمسين عُرل عقبة بن نافع عن ولاية إفريقية، ثم أُعيد إليها عام اثنين وستين قام برحلته الجهادية المشهورة التي قطع فيها ما يزيد على ألف ميل من القيروان في تونس إلى ساحل المحيط الأطلسي في المغرب، وقد استخلف على القيروان زهير بن قيس البلوي ودعا لها قائلاً: يا رب املاها علماً وفقهاً واملاها بالمطيعين لك، واجعلها عزاً لدينك وذلاً على من كفر بك.. وامنعها من جبابرة الأرض، وخرج عقبة بأصحابه الذين قدم بهم من الشام وعددهم عشرة ألف إلى جانب عدد كبير انضم إليهم من القيروان، ودعا بأولاده قبل سفره وقال لهم: إني قد بعثت نفسي من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله ثم قال: -

يا بني أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها: إياكم أن تملؤوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن، فإن القرآن دليل على الله عز وجل، وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللبيب ويدلكم على مكارم الأخلاق، ثم انتهوا عما وراءه، وأوصيكم أن لا تداينوا ولو لبستم العباء فإن الدين ذلٌّ بالنهار وهم بالليل، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم وتبّق لكم الحرمة في الناس ما بقيتم، ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم دين الله ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط فهو أسلم لكم، ومن احتاط سلم ونجا فيمن نجا - ثم قال: عليكم سلام الله وأراكم لا تروني بعد يومكم هذا - ثم قال: اللهم تقبل نفسي في رضاك واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك (1). وهكذا ما إن وطئت أقدام عقبة أرض القبيروان حتى عزم على الخروج للجهاد غير هياب ولا متردد، ومما يدل على مبلغ حبه للجهاد وهيامه به قوله في وصيته لأولاده: إني قد بعثت نفسي من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله. فهو قد باع نفسه من الله عز وجل، واشتاق إلى الثمن العظيم الغالي ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْبِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمِ اللَّهِ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 111]. فجعل عمله الذي نذر حياته لأجله هو الجهاد، ونصب أمام عينيه الهدف السامي، وهو إعلاء كلمة الله في الأرض، وفي وصيته المذكورة لأولاده فوائد جلية، فقد أوصاهم بثلاث وصايا:

أ - الوصية الأولى: الاهتمام بانتقاء العلم واختيار أطيبه، وذلك بالاهتمام أولاً بالقرآن الكريم، حيث إنه الكتاب الذي يدل على الله عز وجل، وما بلغه من وصف يهدي إلى بلوغ الهدف السامي الذي يسعى إليه كل مؤمن، وهو ابتغاء رضوان الله تعالى ونعيمه، ولا شك أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يدخل في مقاصد القرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَنْهَكُمُ عَنْهُ فَأَنْهَوْا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]. ثم انتقاء الطيب من كلام العرب الذي يرشد إليه العقل السليم ويبحث على مكارم الأخلاق.

ب - الوصية الثانية: البعد عن الاستدانة ولو دفع إليها الفقر لأن الدين ذل بالنهار حيث يدفع المستدين إلى بعض مواقف الذل أمام الدائن ومن لهم علاقة به، وهم بالليل

حيث يخلو المستدين إلى نفسه فيذكر حقوق الناس عليه.

ج - الوصية الثالثة: التحري في تلقي العلم، وذلك باختيار العلماء الربانيين أهل الورع والتقوى، والبعد عن العلماء المغرورين أهل الدنيا والجاه، فإنهم يزيدون المتعلم جهلاً حيث يبعدونه عن حقيقة العلم وثمرته وهي تقوى الله عز وجل. ونجد عقبة في نهاية وصيته لأولاده يسلم عليهم سلام المودع، مما يدل على استماتته في سبيل الله تعالى، ثم يقول: اللهم تقبل نفسي في رضاك، واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك. وبهذا الاهتمام الكبير نجح عقبة بن نافع رحمه الله في فتوحاته حيث جعل الجهاد قضيته الكبرى في هذه الحياة. سار عقبة في جيش عظيم متجهاً إلى مدينة باغية⁽¹⁾، حيث واجه مقاومة عنيفة من البيزنطيين الذين انهزموا أمامه ودخلوا مدينتهم وتحصنوا بها، فحاصروهم مدة ثم سار إلى تلمسان وهي من أعظم مدائنهم فانضم إليها من حولها من الروم والبربر فخرجوا إليه في جيش ضخم والتحم القتال، وثبت الفريقان حتى ظن المسلمون أن في تلك المعركة فناءهم ولكن من عليهم بالصبر فكانوا في ذلك أشد وأصبر من أعدائهم فهاجموا الروم هجوماً عنيفاً حتى ألجؤوهم إلى حصونهم فقاتلوهم إلى أبوابها وأصابوا منهم غنائم كثيرة، ثم استمر غرباً قاصداً بلاد الزاب، فسأل عن أعظم مدنها ف قيل له (أربّه) وهي دار ملكهم وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها عامرة، فامتنع بها من كان هناك من الروم وأهل المدينة وهرب بعضهم إلى الجبال، فاقتتل المسلمون مع أهل تلك المدينة فانهزم أهل تلك البلاد وقتل كثير من فرسانهم ورحل عقبة إلى (تاهرت) فاستغاث الروم بالبربر فأجابوهم ونصروهم، وقام عقبة بن نافع في الناس خطبةً فقال بعدما حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس إن أشرافكم وخياركم الذين رضي الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه بايعوا رسول الله ببيعة الرضوان على من كذب بالله إلى يوم القيامة، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجذته بيعة رابحة، وأنتم اليوم في دار غربة وإنما بايعتم رب العالمين، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لرضاه وإعزازاً لدينه، فأبشرو فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى وربكم عز وجل لا يُسلمكم، فالقوهم بقلوب صادقة، فإن الله عز وجل جعلكم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين فقاتلوا عدوكم على بركة

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 589/2، الدولة الأموية، 2 / 74.

الله وعونه والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين (1).

وهذه خطبة عظيمة تدل على أن عقبة بن نافع ☺ قد اعتمد في حروبه على السلاح الأعظم الذي فيه سر انتصارات المسلمين الباهرة.. ألا وهو " التوكل على الله تعالى "، واستحضار عظمته وجلاله، ومعيته لأوليائه المؤمنين بالنصر والتأييد، فهو لا يبالي بجيوش الأعداء مهما كثرت، وإنما الذي يهتم به أن يتأكد جيداً من أن هذا السلاح المعنوي الفعال قد توفر في جيشه، وحينما يضمن ذلك فإنه ير حب باجتماع جيوش الأعداء ليكون ذلك أسرع في هلاكهم وتمزيق جمعهم على يد أولياء الله الصالحين وما أعظم شبه عقبة بخالد بن الوليد ☺، الذي كان يُسرُّ ويدخله شعور بالقوة والتعاضد - من غير غرور ولا استهانة - كلما تضخم جيش الأعداء وتعددت عناصره، وكأن عقبة قد تأس به واتخذ له قوة في القيادة والإقدام الذي لا يعرف التردد والسآمة، وهو في إقدامه واندفاعه يدرك أن جنود الإسلام الصادقين هم بأس الله تعالى المسلط على أعدائه الكفار، والله تعالى لا يُرد بأسه عن القوم المجرمين. إن شعوره الدائم بأن المجاهدين المسلمين هم سيف الله تعالى وبأسه الموجه ضد أعدائه يجعله عظيم الثقة بنصر الله تعالى وحسن الظن به.

هذا وقد التقى المسلمون بأعدائهم في مدينة (تاهرت) وقاتلوهم قتالاً شديداً، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة عدوهم، ولكنهم انتصروا أخيراً، وانهزم أعداؤهم من الروم والبربر، وقتل منهم عدد كبير، و غنم منهم المسلمون أموالهم وسلاحهم، ثم توجه إلى جهات المغرب الأقصى فوصل إلى طنجة، حيث قابل بطريق من الروم اسمه (جوليان) الذي: أهدى له هدية حسنة، ونزل على حكمه ولما سأله عقبة عن بحر الأندلس قال عنه: لا إنه محفوظ لا يرام، ثم سأله عن البربر والروم بقوله: دلني على رجال البربر والروم فقال: قد تركت الروم خلفك وليس أمامك إلا البربر وفرسانهم في عدد لا يعلمهم إلا الله تعالى وهم أنجاد البربر وفرسانهم، فقال عقبة: فأين موضعهم؟ قال: في السوس الأدنى، وهم قوم ليس لهم دين (2)..

استفاد عقبة من هذه المعلومات واتجه إلى الجنوب الغربي، قاصداً بلاد السوس الأدنى حيث التقى بجموع بربر أطلس الوسطى، فهزمهم وطاردهم نحو صحراء

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 23/1-27، السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص 38، الصلابي، الدولة الأموية - (2 / 75).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (590/2)، السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص 38، الصلابي، الدولة الأموية - (2 / 76).

وادي در عا، حيث بنى مسجداً في مدينة در عا ثم غادر صحاري مراكش باتجاه الشمال الغربي إلى منطقة (تافالت) من أجل أن يدور حول جبال أطلس العليا كي يدخل بلاد صنهاجة الذين أطاعوه دون قتال، وكذلك فعلت قبائل هكسورة في مدينة (اغمات)، بعدها اتجه عقبة نحو الغرب إلى مدينة تقيس، حيث حاصر بها جموعاً من البيزنطيين والبربر، فلم ينفعمهم تحصنهم، فدخل المدينة منتصراً وبذلك أتم تحرير بلاد السوس الأقصى ودخل عاصمتها (إيجلي) التي بنى فيها مسجداً، ثم دعا القبائل فيها هناك إلى الإسلام فأجابته قبائل جزولة، وبعد ذلك سار إلى مدينة (ماسة) ومذها إلى رأس (إيفران) على البحر المحيط⁽¹⁾، وبوصول عقبة بن نافع إلى ساحل المحيط الأطلسي يكون قد أنجز تحرير معظم بلاد المغرب، وتشير مصادرنا التاريخية أن عقبة لما وصل إلى المحيط الأطلسي قال: يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك. ثم قال: اللهم اشهد أنني قد بلغت الجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بالله حتى لا يعبد أحد من دونك ثم وقف ساعة ثم قال لأصحابه: ارفعوا أيديكم، ففعلوا، فقال: اللهم لم أخرج بطراً ولا أشراً وإنك لتعلم أنما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين وهو أن تُعبد ولا يُشرك بك شيء، اللهم إنا معاندون لدين الكفر، ومدافعون عن دين الإسلام، فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والإكرام، ثم انصرف راجعاً⁽²⁾.

ونذكر من قوله المذكور مدى حبه للجهاد وشعوره بالمسؤولية الكبرى التي حملها على عاتقه نحو تبليغ الإسلام وتقوية دولته والقضاء على دول الكفر التي حجبت نور الإسلام عن شعوبها، فهو يقف على البحر المحيط ويعلم أنذاك أنه نهاية المعمور من الأرض من ناحية المغرب، ثم نجده يُشهد الله تعالى على أنه قد بلغ المجهود الذي تحت مقدرته، وهذه الشهادة تشعرنا بمدى ارتباط عقبة بالله تعالى، وأنه لم يكن يسير خطوة إلا وهو يستلهم التوفيق منه جل وعلا ويطلب رضوانه، وهذا الكلام يدل على وضوح الهدف من الجهاد عند عقبة حيث بيّن أن الحد الذي يقف عنده الجهاد، أن يزول الشرك من الأرض، وأن لا يعبد إلا الله وحده، ومادام الشرك قائماً فإن الجهاد لا بد أن يكون موجوداً، فالجهاد أذن هو جهاد الدعوة إلى الله تعالى،

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (590/2)، السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص 38، الصلابي، الدولة الأموية - (2 / 77).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (590/2)، ابن عذاري، البيان المغرب (23/1-27). السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص 38، الصلابي، الدولة الأموية - (2 / 77).

وذلك بإزالة الطغيان البشري وإخضاع دول العالم لحكم الإسلام لكي يكون فهم الإسلام واعتناقه متيسراً لكل الناس (1).

ولم يقف عمل عقبة على الجهاد بل رافق ذلك بناء المساجد مثل مسجد درعة ومسجد ماسة بالسوس الأقصى، كما كان يترك ذفراً من أصحابه يعلمون الناس القرآن وشرائع الإسلام، ومن هؤلاء شاعر الذي بنى رباطاً ما بين بلدتي مراکش وموجادور ولا زال موقعه باقياً إلى اليوم وهو المعروف عند العامة بالمغرب الأقصى بسيدي شاعر، ويظهر أن أغلبية بربر المغرب الأقصى أسلموا على يده طوعاً مثل صنهاجة وهسكورة وجزولة، كما أخضع المصامدة، وحملهم على طاعة الإسلام، وكى يأمن القبائل الكثيرة من الانتقاض عليه، كان عقبة يأخذ منها رهائن ويولي عليها رجلاً منها مثلما فعل مع مصمودة فقد ترك عليها أبا مدرك زرع بن أبي مدرك، أحد رؤسائها، الذي شارك في فتح الأندلس فيما بعد، ويلاحظ أن الوثنية كانت غالبية على بربر المغرب الأقصى مما يفسر كثرة السبايا والغنائم، وأصاب (عقبة) نساء لم يرى الناس مثلهن فقبل أن الجارية كانت تساوي بالمشرق ألف مثقال وأكثر، وكان السبي أحد عوامل انتشار الإسلام بين البربر بحكم اختلاطهم بالبيئة العربية الإسلامية ثم إن الاحتكاك والاختلاط المستمرين بين المقاتلة العرب، والبربر أوجد صلات وروابط تجلت في الحلف والولاء في هذا الوقت المبكر. يذكر السلوي: أن عقبة حين وصل إلى جبل درن: نهضت زناته وكانت خالصة للمسلمين منذ إسلام مغراوة وهذا يشعر بأن بعض زناته ومغراوة كاذتا قد أسلمتا منذ زمن وكانتا حليفتان للمسلمين فنهضتا للدفاع عن المسلمين (2).

استشهاد عقبة بن نافع وأبو المهاجر رحمهما الله تعالى

ويبدو أن أخباراً مقلقة من إفريقية بلغت عقبة فعجل بالعودة إلى القيروان ماراً ببايغران يطوف، وتارنا، ومنها إلى رباط شاعر، ودخل إقليم دكالة، حتى دخل طنجة، ومنها اتجه إلى المغرب الأوسط، ولما بلغ مدينة طبنة، أرسل أكثر فرق جيشه من طريق آخر، ولم يستبق معه سوى خمسة آلاف، وسار هو إلى مدينة تهودة ليستولي عليها، ويجعل منها قاعدة حربية لقواته في منطقة أوراس، ولكنه ما كاد يقترب منها

(1) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص 38، الصلابي، الدولة الأموية - (2 / 77).

(2) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص 38، الصلابي، الدولة الأموية - (2 / 78).

حتى اعترضه كسيلة بن لمزم بجموع هائلة من بربر البرانس، يتجاوز عددهم خمسين ألفاً، وقطع بهم علي عقبة خط الرجعة، وأحس عقبة أمام هذه الحشود المتجمعة من البربر بنهاية أجله، فأراد أن يبعث أبا المهاجر مع من اتبعه من المسلمين إلى القيروان، ويبقي هو لقتال البربر، فأبى أبو المهاجر إلا أن يغتنم الشهادة معه، فنزل المسلمون عن دوابهم، وكسروا أغمار سيوفهم، ودارت المعركة عند تهودة سنة 63 هـ، فاستشهد عقبة وأبو المهاجر وسيفاهما في أيديهما، واستشهد معه عدد كبير من المسلمين، وأسر الباقون، ففداهم صاحب قفصة، وبعث بهم إلى زهير بن قيس البلوي (1).

وعلي ما يبدو أن عقبة كان يحس إحساس المؤمن الصادق، أنه سيلقى ربه شهيداً في هذه الجولة، فعندما عزم على المسير من القيروان في بداية الغزو دعا أولاده وقال لهم: إني قد بعت نفسي من الله عز وجل... إلى أن قال: ولست أدري أتروني بعد يومي هذا أم لا، لأن أجلي الموت في سبيل الله، وأوصاهم بما أحب، ثم قال: عليكم سلام الله.. اللهم تقبل نفسي في رضاك (2). نعى عقبة نفسه إلى أولاده، فتقبل الله منه وحقق له أمله في الشهادة، فقد أعد له الروم والبربر كميناً عند تهودة (3)، وأوقعوا به وقضوا عليه هو ومن معه من جنوده، وترجع المصادر أمر الكارثة التي تعرض لها عقبة عند تهودة إلى سبب رئيسي وهو سياسته نحو البربر بصفة عامة، وزعيمهم كسيلة بصفة خاصة ذلك الزعيم صاحب الذفوذ والمكانة في قومه، والذي كان أبو المهاجر قد تألفه وأحسن إليه، فأسلم وتبعه كثير من قومه، لكن عقبة أساء إلى هذا الرجل إساءة بالغة، فأدرك أبو المهاجر عاقبة الخطأ الذي وقع فيه عقبة ولم يكتف نصيحته عنه - رغم أنه كان في حكم المعتقل - ولكن عقبة لم يسمع منه، وكان أبو المهاجر من معاشرته للبربر وزعيمهم، قد عرف مدى اعتزازهم بكرامتهم وأدرك أنهم لن يقبلوا هذه الإهانة، وهذا الإذلال الذي لحق بزعيمهم من عقبة فخاف غدرهم، فأشار على عقبة بالتخلص من كسيلة وقال له: عاجله قبل أن يستفحل أمره، ولكن عقبة لم يصغ إلى هذه النصيحة أيضاً وليته احتاط للأمر، بل أقدم على عمل آخر في غاية الخطورة، حيث جعل معظم جيشه يسير أمامه بعد أن رجع من رحلته الطويلة من المغرب الأقصى قاصداً القيروان، ولما صار قريباً من القيروان أرسل

(1) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص 39.

(2) البيان المغرب، 23/1، 24، الدولة الأموية، 2 / 79.

(3) تهودة: اسم لقبيلة بربرية بناحية إفريقية لهم أرض تعرف بهم. الدولة الأموية، 2 / 79.

غالب جيشه على أفواج إلى القيروان وبقي هو على رأس الفوج الأخير، ومعه ما يقرب من ثلاثمائة من الفرسان من الصحابة والتابعين، وكان من عادة عقبة أنه يكون في مقدمة الجيش عند الغزو ويكون في الساقة عند قفول الجيش، فهو بذلك يعرض نفسه لخطر مواجهة العدو دائماً وإن هذه التضحية الكبيرة جعلته محبوباً لدى أفراد جيشه بحيث لا يعصون له أمراً ويتسابقون على التضحية اقتداء به، وهذه الصفة تعتبر من أهم عوامل نجاح القائد في أي عمل يتوجه إليه ولما علم الروم بانفراد عقبة بهذا العدد القليل من جيشه انتهزوا هذه الفرصة لمحاولة القضاء عليه، وهم يدركون أن وجوده القوي يعتبر أهم العوامل في تماسك المسلمين وبقاء قوتهم، فتآمروا عليه مع كسيلة البربري، فجمعوا لعقبة وأصحابه جمعاً لا قبَل لهم به وإذا بكسيلة يحيط بجيش عقبة في جمع عدته خمسون ألفاً⁽¹⁾. وكان أبو المهاجر موثقاً في الحديد مع عقبة، فلما رأى الجموع تمثل بقول أبي محن الثقفي:

كفى حزناً أن تمرغ الخيل بالقنا :: وأترك مشدوداً عليّ وثاقيا
إذ قتت عَنائي الحديد وأُغلت :: مصارع من دوني تصم المناديا

فلما سمع عقبة ذلك أطلقه، فقال له: الحق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا اغتنم الشهادة، فلم يفعل وقال: وأنا أيضاً أريد الشهادة⁽²⁾، وهكذا كان أبو المهاجر نموذجاً من تلك النماذج الفريدة من الرجال، الذين هانت عليهم الحياة الدنيا واستولى على قلوبهم حب الآخرة وكسب رضوان الله تعالى، ومن هذا المنطلق أقدم عقبة ومعه عدد قليل على معركة غير متكافئة، وكان بإمكان بعضهم الفرار ولكنهم ثبتوا ثبات الأبطال حتى استشهدوا جميعاً في بلاد (تهوذة) من أرض الزاب ويذكر المؤرخون أن قبور هؤلاء الشهداء معروفة في ذلك المكان وأن المسلمين يزورونها⁽³⁾.

وهكذا تحقق أمل عقبة في أبو المهاجر ونالا الشهادة في سبيل الله بعد ما قاموا بالواجب الذي عليهم، واستقبلوا الشهادة في سبيل الله بنفس راضية مطمئنة إلى حسن ثواب ربها، وقد استطاع عقبة أن يشق بجهاده للإسلام طريقه في هذا الجزء من العالم الذي سار فيه خلفاؤه من بعده، زهير بن قيس البلوي، وحسان بن النعمان الغساني، وموسى بن نصير، فقد حقق أهدافه من التمهيد لنشر الإسلام والجهاد في سبيل الله، ولقد كان استشهاد عقبة بن نافع ومن معه في عام ثلاثة وستين للهجرة

(1) البيان المغرب (25/1)، الدولة الأموية - 2 / 80.

(2) الكامل في التاريخ، 591/2، الدولة الأموية، 2 / 81.

(3) البيان المغرب 28/1، الدولة الأموية، 2 / 81.

وعمره آنذاك في حدود أربع وستين سنة، وبهذا ندرك مبلغ القوة التي كان يتمتع بها أسلافنا حيث قام بتلك الرحلة الشاقة وخاض المعارك الهائلة وقد جاوز الستين من عمره وهكذا استشهد هذا القائد العظيم بعد جهاد دام أكثر من أربعين عاماً قضاها في فتوح شمال أفريقيا، ابتداء بمصر وإنهاء بالمغرب الأقصى (1).

* * *

أثر معركة تهوذة على المسلمين 63هـ

ودوي خبر مقتل عقبة في إفريقية والمغرب، وكان له أثر عميق في نفوس المسلمين، وكان وقع هذا الخبر شديداً على الحكومة المركزية في دمشق، التي كانت مشغولة آنذاك بالحرب مع ابن الزبير والخوارج، فمضت أعوام أخرى قبل أن تتمكن من العناية بشؤون إفريقية، فلما انتهت الثورة وقتل ابن الزبير وجه عبد الملك بن مروان عنايته بأمر إفريقية واستعادة أملاك المسلمين فيها،... كانت معركة تهوذة مصيبة على المسلمين، فقد استشهد القائد المجاهد عقبة بن نافع وصحبه وكان لاستشهاده وقع أليم على المسلمين، واندتابتهم حالة من الهلع والفرع، فمع أن العدد الذي استشهد مع عقبة كان قليلاً - قيل حوالي ثلثمائة جندي - وأن معظم الجيش كان قد سار متقدماً ونجا من المعركة، وكان من الممكن أن يتماسك هذا الجيش ويقاوم، حتى يحتفظ بوجوده في القيروان، إلا أن الحالة النفسية للجنود لم تسمح بذلك، وقد حاول زهير بن قيس البلوي خليفة عقبة على القيروان أن ينفخ في الجنود روح المقاومة والتصدي لكسيلة عندما زحف على القيروان، وهتف قائلاً: يا معشر المسلمين إن أصحابكم قد دخلوا الجنة، وقدمن الله عليهم بالشهادة، فاسلكوا سبيلهم، أو يفتح الله عليكم دون ذلك، ولكن صيحة زهيرة هذه لم تجد استجابة، بل لقيت معارضة وتبسيطاً، حيث تصدى له حنش الصنعاني وقال له: لا والله ما نقبل قولك ولا لك علينا ولاية، ولا عمل أفضل من النجاة بهذه العصاية من المسلمين إلى مشرقهم.

ثم قال: يا معشر المسلمين من أراد منكم القبول إلى مشرق فليتبعني فاتبعه الناس، ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته، فنهض في أثره، ولحق بقصره ببرقة وأقام بها مرابطاً إلى دولة عبد الملك بن مروان، وأما كسيلة فاجتمع إليه جميع أهل إفريقية، وقصد القيروان، وبها أصحاب الأثقال والذراري من المسلمين، فطلبوا الأمان من كسيلة فأمنهم، ودخل القيروان، واستولى على إفريقية وأقام بها غير مدافع

إلى أن قوى أمر عبد الملك بن مروان (1)، ولئن أخرجت إفريقية من يد المسلمين فإنها لم تخرج عن الإسلام، فقد أسلمت قبائل من البربر وثبتت على إسلامها وكان تعيش بالقيروان وكان كسيلة يحسب حسابها ويتفادها لشدة باسها فقد اعترف كسيلة بذلك حين اقترح على جيشه الخروج من القيروان واختيار موضع آخر لمواجهة جيش زهير الذي أمده به عبد الملك بن مروان قال كسيلة: إني أردت أن أرحل إلى ممس فأنزلها، فإن هذه المدينة (يعني القيروان) فيها خلق عظيم من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم ونحن نخاف إذا التحم القتال أن يثبتوا علينا (2). هذا وقد بقيت القيروان بيد كسيلة مدة تقارب خمس سنوات من عام 64 هـ - 69 هـ حتى خلصها زهير البلوي من قبضته بعد أن أمده عبد الملك بن مروان بجيش كبير يأتي الحديث عن زهير بإذن الله في عهد عبد الملك بن مروان.

وفي مقتل عقبة رحمه الله درس بليغ وهو: أهمية الحذر من العدو فقد أرسل جنوده وبقي في مجموعة قليلة من المقاتلين رغماً في الشهادة وهذا مطلب سامي وكبير إلا أن استشهاد كان له آثار سيئة على الفتوحات في شمال إفريقيا وضاعت القيروان من أيدي المسلمين لمدة خمس سنوات وتأخرت الدعوة الإسلامية لذلك يجب على القادة أن يوازنوا بين مصالح الأمة الكبرى وحرصهم على الشهادة.

ولما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان سنة 65 هـ عزم أن يعمل علي إستعادة إفريقية، فولي عليها زهير بن قيس البلوي، وكان منذ سقوط القيروان يتولي الدفاع عن برقة، وأمده بجيش ضخم، فزحف زهير علي القيروان سنة 69 هـ / 688م والتقي علي مقربة منها بجيش كسيلة، فهزم البربر بعد معركة شديدة، قتل فيها كسيلة وكثير من أصحابه، ودخل زهير القيروان وترك فيها حامية للدفاع عنه، وفرق جنده لإخضاع الثوار في مختلف الأنحاء، ولكن الروم انتهزوا فرصة توغل المسلمين غرباً، وأمدهم قيصر قسطنطينية بأسطول صقلية، فنزلوا في قرطاجنة ثم زحفوا علي برقة في جموع عظيمة، وعلم زهير بتلك المفاجأة، فارتد للدفاع عن برقة، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة هزم فيها المسلمون، وقتل زهير ومعظم قواده، في مدينة درنة بشرق ليبيا ودفن مع أصحابه، وقبورهم هناك معروفة إلى اليوم تسمى مقبرة

(1) أبو المحاسن بن تغريدي، النجوم الزاهرة، 160/1، السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص 40، الدولة الأموية، 2 / 82.

(2) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص 40، الدولة الأموية، 2 / 82.

الشهداء وكان ذلك 71هـ (1).

ولما استشهد زهير ببرقة اضطربت بلاد المغرب من بعده واضطربت بها نار الفتن، وافترق أمر البربر وتعدد سلطانهم في رؤسائهم، وكان من أعظم هؤلاء الرؤساء وقتئذ الكاهنة الزناتية الجراوية، صاحبة جبل أوراس، وانقضت بعد ذلك أربعة سنوات توقف فيها لافتح، لاندشغال عبد الملك بن مروان بالقضاء علي ثورة عبد الله بن الزبير والخوارج، والحقيقة أن وقع استشهاد زهير بن قيس البلوي ورفاقه كان عظيماً على الخليفة عبد الملك بن مروان لذلك ما إن انتهى من حربه مع ابن الزبير حتى أولى اهتماماً خاصاً إلى الوضع في شمال إفريقيا، لذلك نراه يجهز جيشاً كبيراً قوامه نحو أربعين ألف مقاتل غالبيتهم من أهل الشام، وعهد بقيادته إلى حسان بن النعمان الغساني الذي كان رجلاً ورعاً تقياً يدل على ذلك تسميته بـ (الشيخ الأمين)، وقد أقر الخليفة حسان بن النعمان أن يقيم بمصر استعداداً لإنجاز مهمته وكتب إليه: إني قد أطلقت يدك في أموال مصر، فأعط من معك ومن ورد عليك من الناس، وأخرج إلى جهاد إفريقيا على بركة الله. وقد وصف ابن الأثير عظمة هذا الجيش من حيث تعداده وعدته بقوله: لم يدخل إفريقيا جيش مثله، وكان بداية الغزو في عام 74هـ، وقد تمكن هذا الجيش من فتح المناطق التي مر بها وكان على مقدمته كل من محمد بن أبي بكر وهلال بن ثروان اللواتي ووجود هذا الأخير كقائد على مقدمة الجيش حسان يشير إلى مشاركة البربر بشكل كبير في هذه الحملة (2).

فتح قرطاجنة

... وصل حسان القيروان ودخلها دون أن يواجه أي مقاومة ثم توجه بعد ذلك إلى الشمال حيث قرطاجنة القاعدة البيزنطية على الساحل، وسار حسان إلى قرطاجنة وكان صاحبها أعظم ملوك إفريقية، فلما وصل إليها رأى بها من الروم والبربر ما لا يحصى كثرة، ولم تطل المعركة مع البيزنطيين ودخل حسان قرطاجنة عنوة، ولم يكد حسان ينصرف منها عائداً إلى القيروان حتى عاد أهلها للاعتصام بها مرة أخرى، مما اضطّر حسان لفتحها مرة الثانية، فهدم المسلمون ما أمكنهم منها، لكي لا يعود إليها من يطمع بالتحصن بها. ثم أعقب حسان حملته هذه بحملة على ططفورة

(1) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1 / 21، مصر في العصر الأموي ص140.

(2) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص 42، الصلابي، الدولة الأموية، 3 / 130.

وبنزرت فافتتحها ولم يتبع المنهزمين من الروم الذين تحصنوا في مدينة باجة ولا البربر الذين تحصنوا في مدينة بونة. و عاد حسان إلى القيروان، لأن الجراح قد كثرت في أصحابه فأقام بها حتى صحوا (1).

* * *

هزيمة حسان أمام الكاهنة

وما كاد حسان يفرغ من الروم حتى واجهته مشكلة البربر البتر الذين اجتمعوا حول زعيمة لهم تعرف بالكاهنة يقال لها داهية بنت ماتيية بنت تيغان ملك جبل أوراس، وكان علي حسان أن يواجه زعيمة البربر، فقال: دلوني على أعظم من بقي من ملوك إفريقية؟ فدلوه على امرأة تملك البربر وتعرف بالكاهنة، فزحف حسان قرب باغية، وسبقته الكاهنة إلى هناك فهدمت المدينة بعد أن أخرجت الروم منها ثم اشتبك الجيشان في موضع يسمى نهر البلاء، فانهزم حسان بن النعمان هزيمة منكرة، وانتصرت الكاهنة وقتل من المسلمين خلق كثير وانسحب حسان إلى قابس، وقامت الكاهنة بالهيمنة على المغرب كله بعد حسان خمس سنين، وهكذا خرجت إفريقية للمرة الثانية من أيدي العرب، فلما رأت إبطاء العرب عنها قالت: إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي فلا نرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها، حتى ييأس منها العرب فلا يكون لهم رجوع إليها إلا آخر الدهر، واستجاب لها قومها من جراوة الذين كان يغلب عليهم الطابع البدوي فذهبوا إلى كل ناحية يقطعون الشجر، ويهدمون الحصون.. فكانت إفريقية من طرابلس إلى طنجة ظلا وقرى متصلة فأخرجت جميع ذلك، وقد أضر هذا التخريب بالبرانس والأفارقة حتى ألجأهم إلى الفرار وطلب المساعدة، وخرج يومئذ من النصارى والأفارقة خلق كثير مستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة، فيتفرقوا على الأندلس وسائر الجزر البحرية، وهرع الكثير منهم إلى حسان يستندصرونه عليها، وملكت الكاهنة إفريقية وأساءة السيرة في أهلها وعسفتهم وظلمتهم (2).

* * *

استعادة البيزنطيين قرطاجنة

وانسحاب حسان إلى سرت بليبيا

(1) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص 43، الصلابي، الدولة الأموية، 3 / 130.

(2) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص 43، الصلابي، الدولة الأموية - (3 / 133).

... كان لسقوط قرطاجنة بيد المسلمين أثر بالغ على البيزنطيين ووجدوا في خروج حسان من إفريقية والفوضى التي عمّت البلاد مجالاً لإعادة نفوذهم في الشمال الإفريقي، فجهز الإمبراطور ليونثوس - الذي خلف جستنيان الثاني - سنة 695م حملة كبيرة بقيادة البطريق يوحنا إلى إفريقية وأعد أسطولاً كبيراً لنقل الجند إليها، فتمكنت القوة البيزنطية من استعادة قرطاجنة سنة 78هـ، دون مقاومة تذكر واضطر أبو صالح نائب حسان عليها أن ينسحب منها مع من كان معه من المسلمين ودخلها البطريق يوحنا⁽¹⁾، ويتضح من دراسة حركة الفتح أن مصير المغرب كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالأوضاع في المشرق وأقام حسان في منطقة طرابلس قرب سرت في المكان المسمى قصور حسان خمس سنين، وحين استقرت الأوضاع في المشرق سارع عبد الملك بإرسال المدد إلى حسان وأمره بالمسير إلى إفريقية في أواخر سنة 81هـ⁽²⁾.

* * *

(1) حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص370، السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص 43، الصلابي، الدولة الأموية - (3 / 133).

(2) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص 43، الصلابي، الدولة الأموية - (3 / 133).

مقتل الكاهنة 82هـ

أقام حسان بن النعمان ببرقة ما يقرب من أربعة سنوات يتربص الذجدة التي وعد بها عبد الملك بن مروان، وأقام هناك قصورا كانت تسمى في القرن الثاني عشر الميلادي باسم قصر حسان. فلما كانت سنة 81 هـ وصلته الإمدادات وتوافقت عليه فرسان العرب ورجالها، من قبل عبد الملك بن مروان وزحف حسان بكامل قواته لمقاتلة الكاهنة، وتكاثف جيشه بمن انضم إليه من البربر المواليين له، فأخذت الكاهنة تتراجع موغلة في جبال أوراس، وبعثت إبنيتها إلى حسان ليطلبها الأمان لنفسيهما، فأمنهما، أما هي فقررت أن تحارب حتى الموت... كان خالد بن يزيد العبسي أسيراً عند الكاهنة، فأرسل إلى حسان: إن البربر متفقون لا نظام لهم ولا رأي عندهم فأطوي المراحل وجد في السير. وما زال حسان يطاردها حتى التقى بجيشها سنة 82 هـ / 701م عند بئر الكاهنة، وقيل عند طبرقة، فهزمها هزيمة شنعاء وسحق جيشها وقتلها، واستقامت بلاد إفريقية لحسان، وبعد هذا الانتصار عاد حسان إلى القيروان في سنة 82 هـ، ومنها زحف إلى قرطاجنة وأعاد فتحها. وبهذا النصر المزدوج خلصت أرض إفريقية للمسلمين، تلت ذلك فترة استقرار ثم انطلاق لفتح ما تبقى من المغرب (1).

* * *

سياسة حسان مع البربر

أ - إدخالهم في قيادة الجيوش

... نهج حسان نفس السياسة التي سار عليها أبو المهاجر وهي تأليف البربر وإشراكهم في الفتوح ولعله توسع في ذلك بإدخالهم في الجيش على نطاق واسع، فكانت سياسته خطوة كبيرة في اكتساب ولاء البربر وإخلاصهم، ففي حملته الأولى عين هلال بن شروان اللواتي قائداً على مقدمته مع اثنين من العرب هما محمد بن بكير وزهير بن قيس، كما استعان بالبربر كعيون فقد أرسل أحد رجالهم الذي أسلم طوعاً ليأتيه بالأخبار عما يجري في معسكر الكاهنة، ورحب بولدي الكاهنة وولى أكبرهما قيادة الجيش في منطقة الأوراس واثقاً بإخلاصه وحسن إسلامه مما أدى إلى إسلام نفر كبير من البتر، ويبدو نجاح سياسته من استغاثة أهل قابس وقفصه وأهل نقرابة به فسرهم ذلك.

(1) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص 44، الصلابي، الدولة الأموية - (3 / 133).

* * *

ب - المساواة بين البربر والعرب المسلمين

... حين جند حسان البربر ساوى بينهم وبين العرب المسلمين وذلك وفقاً لمبادئ المساواة في الإسلام، ففرض لهم ومنحهم نصيبهم من الغنائم، ثم خطا خطوة كبرى بأن قسم المغرب خطأ للبربر. ويبدو أن حساناً اعتبر أرض المغرب أرضاً أسلم عليها أهلها⁽¹⁾.

* * *

ج - الاهتمام بالتنظيم الإداري

... كان حسان قد اعتنى بالتنظيم الإداري في المغرب خلال مدة إقامته (82 هـ - 86 هـ). فقد أنشأ الديوان أو ديوان الجند، وهو سجل يحفظ فيه أسماء المقاتلين وأنسابهم وصفاتهم ومقدار أعطياتهم، ونظم ديوان الخراج بأن عني بتحديد الجزية والخراج. يقول ابن عذاري: فدون الدواوين وصالح على الخراج وكتبه على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية، وكان عامتهم من البرانس إلا قليلاً من البربر.

... وقام حسان ببناء دار لصناعة السفن، وأنشأ مدينة إسلامية ثائية وهي تونس أصبحت رباطاً يحمي القيروان ومحرساً للبحر وميناء جديداً للبلاد. وصارت تونس ثائية العواصم الإفريقية حين أولاهها حسان اهتمامه، واهتم بالقيروان فجدد بناء مسجدها أحسن مما كان عليه أيام عقبة، واهتم بتعليم البربر مبادئ الإسلام، وترك معهم ثلاثة عشر رجلاً من علماء التابعين يعلمونهم القرآن وشرائع دينهم، وبث الدعاة في مختلف القبائل لنشر الإسلام بين البربر، فبنوا المساجد، واستلموا المنابر ومن ذلك بناؤهم لمسجد أغمات سنة 85 هـ، وانتشرت الكتاتيب لتعليم أولاد المسلمين مبادئ القراءة والكتابة⁽²⁾.

* * *

عزل حسان عن ولاية إفريقية

ويبدو أن نزاعاً حدث بين حسان وعبد العزيز بن مروان والي مصر من قبل الوليد ابن عبد الملك، فأخذ عبد العزيز يضيق عليه ويحد من سلطاته، ويكف يده عما

(1) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص 44، 45، الصلابي، الدولة الأموية - (3 / 134).

(2) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص 44، 45، الصلابي، الدولة الأموية - (3 / 135).

بدأه من إصلاحات، ثم عزله عن ولاية إفريقية في أوائل سنة 86 هـ، ويبدو أن المشكلة هي أن حسان رأى أنه تابع للخليفة مباشرة وأن إفريقية ولاية، بينما رأى أمير مصر أنها تابعة له وأن حسان يجب أن يراجع ذلك وأخذ أغلب الغنائم والهدايا الثمينة التي كان حسان ينوي أن يحملها إلى الخليفة في دمشق، فحين وصل حسان إلى دمشق شكاه للخليفة وأعطاه ما تبقى من الغنائم، ووضح من شكوى حسان أنه يرى أن عبد العزيز يتهمه بالخيانة المالية ظلماً، فحين أراد الخليفة مكافأته برده إلى ولاية إفريقية رفض حسان وأقسم أنه لا يولى لبني أمية أبداً، ولا يستبعد أن عبد العزيز كان يرغب أن تدار إفريقية من قبل أحد رجاله وإصرار عبد العزيز لتولية موسى بن نصير دليل على ذلك.

... قال الذهبي عن حسان بن النعمان الغساني: من ملوك العرب ولي المغرب فهدّبه وعمّره وكان بطلاً شجاعاً، مجاهداً لبيباً، ميمون النقيبة كبير الأقدار، وجهه معاوية في سنة 57 هـ فصالح البربر، ورتب عليهم الأخراج وانعمرت البلاد، وله غزوات مشهودة بعد قتل الكاهنة وكان يدعى الشيخ الأمين، توفي سنة 80 هـ (1).

* * *

فتوحات موسى بن نصير 85 هـ

لما عزل حسان بن النعمان، تولي موسى بن نصير علي إفريقية بامر عبد العزيز بن مروان، وكان موسى هذا من أقدر رجال الدولة الأموية وأكثرهم كفاءة وإخلاصاً لها، وكان موسى بن نصير قائماً في حرس معاوية بن أبي سفيان، وقيل إنه كان وصيفاً لعبد الملك بن مروان فأعتقه، وأصبح موسى مولياً عبد العزيز بن مروان، وعينه الخليفة عبد الملك بن مروان عاملاً علي العراق مع بشر بن مروان ولكن الخليفة أخذ عليه بعض المآخذ، وأراد قتله فافتداه منه عبد العزيز بن مروان عامل مصر بمال، وأجاره ثم ولاه إفريقية (2)،... لا يتفق المؤرخون على تاريخ محدد لتولية موسى بن نصير على المغرب وعزل حسان بن النعمان عنه، ولكن الأقرب إلى تسلسل الأحداث أن يكون عزل حسان وتوليه موسى بن نصير في سنة 85 هـ، قبيل وفاة عبد العزيز بن مروان والذي ينسب إليه المؤرخون عزل حسان وتولية موسى، وبعد أن عزل عبد العزيز بن مروان والي مصر حسان بن النعمان

(1) سير أعلام النبلاء (140/4)، الدولة الأموية - (3 / 136).

(2) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص 45.

والي إفريقية وليّ مكانه موسى بن نصير، وكان في أواخر سنة خمس وثمانين الهجرية أو في أوائل سنة ست وثمانين الهجرية وعندما توافدت الجيوش، قام موسى بن نصير خطيباً، فكان مما قاله: وإنما أنا رجل كأحدكم، فمن رأى مني حسنة، فليحمد الله، وليحض على مثلها، ومن رأى مني سيئة، فلينكرها، فإني أخطئ كما تخطؤون، أصيب كما تصيبون، وقد أمر الأمير أكرم الله لكم بعطايكم وتضعيفها ثلاثاً، فخذوها هنيئاً مريئاً، من كانت له حاجة فليرفعها إلينا، وله عندنا قضاؤها على ما عز وهان مع المواساة إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وهكذا أنجز موسى قبل أن يدخل إفريقية حشد جيشه وأكمل استحضاراته الإدارية وسأوى نفسه برجاله، وسار موسى متوجهاً إلى الغرب وكان الأمن غير مستتب، فلما وصل إفريقية برز موسى بن نصير قائداً منتصراً في فتح المغرب ويرجع ذلك إلى السياسة التي اتبعها مع الأهالي وهي سياسة التعاون والاندماج الكلي مع البربر، فحين كان يقدم على موسى وفود القبائل ليعلموا ولاءهم كان يولي عليهم رجلاً منهم ويأخذ رهائن من خيارهم لضمان هذا الولاء، كما فعل مع وفد كتامة ومع وفد مصمودة وغيرهم، ولكن ما أن يعتنق البربر الإسلام، كان موسى يقر زعمائهم في الرئاسة مقابل مساهمة كل قبيلة بعدد كان من المقاتلين للانضمام للمقاتلة العرب. وأعطت سياسة التفاهم هذه ثمارها، فقد استطاع موسى أن يجند أعداداً كبيرة من قبائل البربر مثل كتامة وهوارة وزناتة ومصمودة، وألحق موسى بن نصير هؤلاء المقاتلة من البربر مع جراحة الذين كانوا قد جنّدوا في عهد حسان، ووضعهم جميعاً في حامية طنجة تحت قيادة طارق بن زياد الذي وليه سـنة 90 هـ من قبل موسى بن نصير، ومن الوسائل التي استخدمها موسى في تأليف القلوب وضبط الأمور، وتقوية الدولة الإسلامية:

- 1 - عتق بعض السبايا: كان موسى بن نصير يعتقد ببعض سباياهم ويتولاهم في نطاق خطته لتشجيع البربر على الدخول في الإسلام، فكان يشتري من السبايا من كان في ظنه أن يقبل الإسلام.
- 2 - تطبيق مبدأ المساواة: في النفل بين البربر المسلمين والعرب الذين أبلوا بلاء حسناً وذلك تشجيعاً وتقديراً لبلائهم وبهذا التصرف تمكن موسى من جلب أعداد كبيرة إلى الإسلام وإشراكهم في الجيش الإسلامي.
- 3 - التنظيم الإداري: ويبدو أن موسى بن نصير حين دخل إفريقية وجدها في حاجة ماسة إلى إدارة مستقرة، فقد انفردت كل قبيلة بربرية بناحياتها واستبدت بها

دون أن تخضع لولادة أو عمال، فأخذ موسى يعمل على إخضاع كل المغرب إلى الحكم الإسلامي فبدأ ينقل البيزنطيين من المدن الساحلية والنواحي الداخلية وأسكنهم قرب مراكز الحكم الإسلامي مما يتيح للمسلمين مراقبتهم ودعوتهم وتعليمهم.

4 - تكوين القوة البحرية: أنشأ حسان بن النعمان دار صناعة السفن بتونس ثم استكملها بعده موسى بن نصير وعبيد الله بن الحباب، ويذكر أنه صنع بها مراكب مما مكنه من غزو صقلية.

5 - سك النقود: ويبدو أنه بادر بسك النقود بإفريقية، إذ يرى حسن حسني عبد الوهاب أن أول أمير سك النقود بإفريقية، هو موسى بن نصير سنة 95هـ.

... وتتلخص أعمال موسى بن نصير في حرصه على نشر الإسلام بين البربر ولهذا كان يختار عمالاً يحسنون السيرة في أهالي المناطق المفتوحة (1)، واختار فئة من أصحابه لتعليم البربر حديثي الإسلام، القرآن ومبادئ الإسلام. فقد أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين، وذكر ابن عذارى: أن موسى ترك سبعين رجلاً من العرب في طنجة يعلمون البربر القرآن وشرائع الإسلام. وهذه السياسة هي استمرار لسياسة عقبة بن نافع وحسان بن النعمان. وهذا أدى إلى انتشار الإسلام في المغرب الأقصى. واستطاع موسى بن نصير بعد حملات جهادية منظمة السيطرة على جميع شمال إفريقية من برقة إلى المحيط الأطلسي وأصبح سيد إفريقية بدون منازع، وكان أولاده من ضمن قادته في فتوحاته الكبرى وكانت له حملات بحرية على جزر البحر الأبيض المتوسط ومن أشهر تلك الحملات ما سمي بحملة الأشراف بسبب اشتراك أشراف الناس فيها وكانت وجهتها جزيرة صقلية حيث بلغ عدد مقاتليها بين التسعمائة والألف وكانت بقيادة ابنه عبد الله الذي حقق نصراً حاسماً حتى غنم المسلمون غنائم كثيرة بلغ فيها سهم المقاتل مائة دينار ذهب. هذا ولم تقتصر حملات موسى بن نصير البحرية على مقاتلة إفريقية بل شملت دعم الحملات البحرية في ولاية مصر، هذا وقد توجت هذه الانتصارات البحرية الرائعة التي حققها الأسطول الإسلامي بفتح بلاد الأندلس الذي خطط له موسى بن نصير ونفذه طارق بن زياد وتم بشكل نهائي بتوفيق الله ثم جهود هذين القائد العظيمين (2).

(1) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص 46، الصلابي، الدولة الأموية، (3 / 139).

(2) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص 46 - 47، الصلابي، الدولة الأموية، (3 / 139).

نظرة جغرافية علي الأندلس

تقع شبه الجزيرة الأيبيرية (الأندلس) في الجنوب الغربي من القارة الأوروبية مقابل السواحل الشمالية للمغرب، يفصلها من الشمال عن جنوب فرنسا جبال البرتات (البرت) أو البرانس، تقع سواحلها الشمالية والشمالية الغربية علي المحيط الأطلسي عند خليج بستانية الذي تقع عليه مدينة خيخون، وتقع سواحلها الغربية علي المحيط الأطلسي، وتقع سواحلها الشرقية والجنوبية الشرقية علي البحر المتوسط (1).

وأطلق علي شبه الجزيرة اسم "أيبيرية" نسبة إلى أمة قديمة يقال لها الأيبير (2)، أما لفظة "الأندلس" فهي مشتقة من اسم "الفاندالس (vandali) أو "الوندال" (3) ولما جاء العرب إلى تلك البلاد واقتحوها عربوا هذا الاسم وأطلقوا عليها اسم "أندلس" (4).

وبعد سقوط مملكة غرناطة وانتهاء الحكم الإسلامي في الأندلس سنة 1492 م أطلق الأسبان اسم الأندلس علي الولايات الأسبانية الجنوبية، وهي المنطقة التي تشمل اليوم ولايات قرطبة وأشبيلية وغرناطة (5).

* * *

إسبانيا قبيل الفتح الإسلامي

سكان أسبانيا في الأصل خليط من: الكلتيين والأيبيريين والوندال والألان والسويف والقوط الشرقيين والقوط الغربيين والفينيقيين والرومان، فهم في حقيقة الأمر خليط من عناصر فينيقية ورومانية وجرمانية وإغريقية ويهودية، ثم جاءت

(1) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 5 - 6، الحميري، الروض المعطار، ص 2، البكري، جغرافية الأندلس وأوربا، ص 85، 129، الحجى، التاريخ الأندلسي، ص 36، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 16 - 17.

(2) هي أقدم أمة عمرت بلاد إسبانيا والبرتغال. الحميري، الروض المعطار، ص 5، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 17.

(3) وهم من الشعوب الذين استوطنوا ألمانيا ثم زحفوا من الشمال إلى الجنوب وعبروا مضيق جبل طارق إلى شمال إفريقيا والمغرب، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 17.

(4) المقرئ، نفح الطيب، 1 / 127 - 139، ابن عذاري، البيان المغرب، 1 / 1 - 3، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 17.

(5) أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ط دار النهضة ببيروت، 1972 م، ص 227، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 17.

العناصر الإسلامية التي يمثلها العرب والبربر (1).

وكان الفينيقيون قد أسسوا علي سواحل إسبانيا عدة مستعمرات لهم، كما أسس الإغريق منذ القرن الخامس قبل الميلاد بعض المراكز الاستعمارية في شبه الجزيرة الأيبيرية وأطلقوا علي سواحلها اسم أيبيريا، وما لبث هذا الاسم أن أطلق علي الجزيرة بأسرها، ثم خضعت شبه الجزيرة الأيبيرية للقرطاجنيين منذ القرن الخامس قبل الميلاد، وازدهرت مدينة قرطاجنة الجديدة في عهدهم واتخذوها في حاضرة لهم. وهكذا تلقت شبه جزيرة أيبيريا منذ سنة 535 ق. م حتى سنة 205 ق. م تأثيرين هامين: أحدهما أوربي وهو التأثير الكلتي واليوناني، والآخر تأثير آسيوي إفريقي أو سامي هو التأثير القرطاجني، ثم تحول هذا التأثير إلى تأثير لاتيني أوربي عقب الغزو الروماني عام 205 ق. م، إذ أصبحت أيبيريا إقليمًا رومانيا نشروا فيه الحضارة الرومانية والقانون والفن الروماني، وقضوا علي نفوذ القرطاجنيين. وأسس الرومان مدينة طالقة وجعلوها من أهم مراكزهم العمرانية في جنوب أيبيريا (2).

ثم مع ضعف الدولة الرومانية الغربية، اجتاحتها قبائل جرمانية في موجات متتابعة، وكان القوط الغربيين أحد فروع الجرمان الذين استقروا في شبه الجزيرة الأيبيرية في أواخر القرن الرابع الميلادي وهم أعظم فروع الجرمان الشرقيين، وقد استقر القوط في منطقتي أربونة وطركونة من شبه الجزيرة الأيبيرية، لم تلبث تلك المنطقتان أن أصبحتا نواة لدولة القوط الغربيين، التي اتسعت جنوبي غالة وشمال إسبانيا (3).

وقد تمكن القوط الغربيين من طرد عناصر الوندال من إسبانيا إلى إفريقية سنة 456 م واستطاعوا بسط سلطانهم علي الأندلس كلها نهاية القرن الخامس الميلادي، واتخذ القوط من طليطلة عاصمة لدولتهم، وتأثروا بالحضارة والنظم الرومانية في قوانينهم ونظمهم، واعتنقوا المسيحية وظلوا يحكمون الأندلس حتى مجيء المسلمون إليها، وتغلبوا عليهم سنة 92 هـ / 711 م، وقد ساد البلاد خلال حكمهم وضع شاذ من

(1) حسان حلاق، العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطي، الأندلس / صقلية الشام، ط الدار الجامعية ببירות، 1986 م، ص 15 - 16، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 18.

(2) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس وآثارهم، ص 51.

(3) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس وآثارهم، ص 52.

النادية الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية حيث كان المجتمع مقسما إلى طبقات يتحكم بعضها في البعض الآخر بعنف وقسوة (1).

وفي تلك أثناء كانت المملكة القوطية تجوز دور إنحلالها قبيل الفتح الإسلامي بأمد بعيد، وكان المجتمع الأسباني يعاني صنوف الشقاء والبؤس، وقد مزقته عصور طويلة من الظلم والإرهاق، ولم يكن القوط في الحقيقة أمة موحدة بمعنى الكلمة، فإنهم لم يمتزجوا بسكان البلاد، ذلك الامتزاج الذي يجعل الغالب والمغلوب، الحاكم والمدكوم أمة واحدة، بل كان القوط يستأثرون بمزايا الغلبة والسيادة، وينعمون بإحراز الإقطاعات والضياع الواسعة، ومنهم وحدهم الحكام والسادة والأشراف، أما سواد الشعب الأعظم فقوامه طبقة متوسطة رقيقة الحال، وزراع شبه أرقاء يلحقون بالضياع، وأرقاء للسيد عليهم حق الدية للأسيد حتى الموت، وإلى جانب السادة والأشراف يتمتع رجال الدين بأعظم قسط من السلطان والنفوذ، ذلك أن القوط كانوا أتقياء مؤمنين رغم خشونتهم، وكان للأحبار عليهم أيما تأثير، واستطاعوا أن يوجهوا القوانين والنظم، وأن يصوغوا الحياة العقلية والاجتماعية، وفقا لمثل الكنيسة وغاياتها، ثم استغلوا هذا النفوذ في إحراز الضياع وتكديس الثروات، واقتناء الزراع والأرقاء، وهكذا كانت ثروات البلاد كلها تجمع في أيدي فئة قليلة ممتازة من الأشراف ورجال الدين، واختصت بترف العيش، ومتاع الحياة، وكل نعم الحرية والكرامة والاعتبار.

أما الشعب فقد كان في حالة يرثي لها من الحرمان والبؤس، يعاني أمر ضروف العسف والظلم والإرهاق، ويخص وحده دون الطبقات الممتازة بأعباء المغارم والضرائب الفادحة، ومشاق العمل، والسخرة في ضياع الأشراف ورجال الدين، وتسلبه فروض العبودية والرق، كل شعور بالعزة والكرامة، ولم يكن الشعب كما قدمنا سوي كتلة مهيدة من طبقة فقيرة وسطي، ومن جمهرة من الزراع شبه الأرقاء والأرقاء، ومع ذلك فقد كان يقع عليه إلى جانب هذه الفروض المغارم الفادحة، عبء الحرب والدفاع عن الوطن، وكما أن الجيوش الرومانية كانت وقت ظهور الإسلام، قد فقدت وحدتها وروحها لا قومي وقوتها المعنوية، لتكوينها من الرعايا الأجانب والمرتزقة، فذلك كان الجيش الأسباني منذ العهد الروماني، قوامه

(1) محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ط دار الوفاء للطباعة، القاهرة 1984 م، ص 149، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 18، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1 / 29.

الزراع شبه الأرقاء واليهود، فلما حل القوط في إسبانيا وذاقوا نعم السلم، بعد مشاق التجوال والغزو وتبوؤوا مركز السيادة والغلبة، إعتمدوا في الدفاع عن مملكتهم الجديدة علي هذا الجيش الذي تموج صفوفه بجماعات مضطهدة ناقمة علي سادتها، ولا ريب أن شبه الأرقاء كانوا في الجيش أكثر بكثير من الأحرار، وهذا ما يعني أن الدفاع عن الدولة كان يعهد به إلى هؤلاء الذين يؤثرون ممالة العدو علي الذود عن ظالمهم، أما القوط أنفسهم فقد فقدوا منذ أمد بعيد صفاتهم الحربية القوية، وركنوا إلى حياة النعماء والدعة، وفتت في عزائمهم وشجاعتهم نعومة الجو وترف العيش، ولم يعودوا بعد أولئك الغزاة الأشداء الذين أخضعوا رومة، وتوغلوا فيما بين الدانوب والمحيط، بل كان خلفاء الأريك يحتمون بصخور البرنية غارقين في سبات السلم، لا يعنون بتحسين مدينة، ولا يعبا شبابهم بتجريد سيف⁽¹⁾.

وكان يهود الجزيرة الأيبيرية كذلة كبيرة عاملة، ولكنهم كانوا موضع البغض والتعصب والتحامل، يعانون أشنع أنواع الجور والاضطهاد، وكانت الكنيسة منذ أن اشتد ساعدها ونفوذها تحاول تدوير اليهود، وتتوسل إلى تحقيق غايتها بالعنف والمطاردة، ففي عصر الملك سيزوت فرض التدوير أو الذفي أو المصادرة علي اليهود، فاعتنق النصرانية كثير منهم رياء وكرها سنة 616 م، ثم توالى عليهم مع ذلك صنوف الاضطاد والمحن، فركنوا إلى التأمير وتدبير الثورة، وتفاهموا مع إخوانهم يهود المغرب علي المؤازرة والتعاون، ولكن المؤامرة اكتشفت قبل نضجها، سنة 694م وكان ذلك في عهد الملك إيجيكا، فقرر أن يشتد في معاقبتهم، واجتمع مؤتمر الأحرار في طليطلة للنظر في ذلك، وأجاب الملك إلى ما طلبه، وقرر معاقبة اليهود باعتبارهم خوارج علي الدولة يأترون بسلامتها، ولأنهم ارتدوا علي النصرانية التي اعتنقوها من قبل، وقرر أن ينزع أملاكهم في سائر الولايات الإسبانية، وأن تحول إلى جانب العرش، وأن يشردوا ويقضي عليهم بالرق الأبدي للنصارى، وأن يهبهم الملك عبدا لمن يشاء، وأن لا يسمح لهم باسترداد حرياتهم ما بقوا علي اليهودية، وأن يحرر أرقائهم من النصارى ويمنحون بعض أملاكهم، وأن ينزع أبنائهم منذ السابعة ويربون علي دين النصرانية، وأن لا يتزوج عبد يهودي إلا بجارية نصرانية، ولا تتزوج يهودية إلا بنصراني.

(1) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1 / 30 - 31، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 18 - 19.

وهكذا عصفت يد البطش والمطاردة باليهود أيما عصف، فكانوا قبيل الفتح الإسلامي ضحية ظلم لا يطاق، وكانوا كبقية طوائف الشعب المهيدة، يتوقون إلى الخلاص من هذا الذير الجائر، ويرون في أولئك الفاتحين الجدد الذين يتركون لهم حرية الضمان والشعائر مقابل جزية ضئيلة ملائكة منقذين (1).

هكذا كانت أحوال إسبانيا حينما افتتح العرب إفريقية واقتربوا من شواطئ الأندلس، وكان علي عرش إسبانيا يومئذ الملك وتيزا (غيطشة)، خلف الملك إجيكا والده، وكان يحكم مملكة مزقها الخلاف وشعب أضناه العسف، وتصف المصادر الإسبانية القديمة الملك وتيزا (غيطشة) بأنه كان ملكا خليعا فاجرا، مغرقا في شهواته، وأنه كان علي رأس بلاط منحل وضع الخلل، في حين يقول البعض منها: أنه كان بالعكس ملكا فاضلا حسن السيرة، وافر الحكمة والعدالة، وأنه عمل علي رد المظالم وإقامة العدل، والمرجح أنه أحسن السيرة في بداية عهده ورد إلى اليهود سابق حقوقهم وامتيازاتهم، ولكنه حاول أن يحد من نفوذ وسلطة الأشراف والأحبار، وأن يجمع السلطة في يد العرش، فسخط عليه الأشراف ورجال الدين، ودبروا لإسقاطه ثورة بعد ثورة، ولكنه أخمدها جميعا، وهدم جميع الحصون والمعازل الداخلية لكي يحطم سلطان خصومه، ويجردهم من وسائل الدفاع والمقاومة، فلم يزداهم البطش والهزيمة إلا ظمأ للخروج والثورة، وكان في مقدمة خصومه الذين يخشي بأسهم دوق تيوودور فريد الذي نفاه أبوه الملك إجيكا إلى قرطبة، وزاد علي ذلك أن سمل عيذه مبالغة في النكاية به، وحاول أن يفعل ذلك مع بلاجيوس والد فافيل دوق كانتابريا، ولكنه استطاع الفرار من نقمته. كان الشعب من جهة أخرى يزرع تحت نير الجور والإرهاق فقد كان البلاط القوطي يرتجف فوق بركان مضطرم من السخط (2).

ومع اقتراب المسلمون من شواطئ إسبانيا كان يقود الثورة الداخلية عندئذ زعيم قوي جريء هو ردرينك دوق تيوودور فريد الذي سمل وتيزا (غيطشة) عيني والده، فكان يحفره باعث الانتقام أيضا، وكان يتزعم حزبا قويا، والتف حوله رجال الدين والأشراف والأسر الرومانية، فجمع جيشا كبيرا ونادي بنفسه ملكا، ووقعت بين الفريقين حرب أهلية شديدة. وهنا تختلف الروايات فيقال أن وتيزا قتل في النضال

(1) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1 / 32.

(2) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1 / 33.

وخلص الملك لمنافسه، وفي رواية أخرى أن ردرىك ظفر به وسمل عيذه انتقاماً لأبيه، ويقال أيضاً أنه ارتد إلى إحدى الولايات الشمالية وامتنع بها حتى وفاته، وتختلف المصادر أيضاً حول تاريخ ولاية ردرىك الملك، في حين استمرت الحرب والخلاف بين ردرىك وولدي وولدي وتيزا (غيطشة) وهما إيفا وسيزبوت، وقد لقيت المعاونة الكبيرة من عمهما أوباس أسقف طليطلة وإشبيلية ورأس الكنيسة، والتفت حولهما رجال الدين وكل أنصار الحكم القديم، وكان ردرىك قوي الجانب وافر الشجاعة والعزم، فاستطاع أن يخمد الثورة في كل ناحية، واستتب له الأمر حيناً، ومع ذلك فقد بقي عرش القوط مضطرباً يهتز في يد القدر، وكان الخطر يجثم في ناحية أخرى.

ذلك أن خصوم ردرىك اتجهوا بأبصارهم إلى خارج الجزيرة، وكان الكونت يوليان حاكم سبته والمضيق محط أنظارهم ومساعدتهم (1).

فقد كان يوليان أصلاً عاملاً من عمال دولة الروم، وحكم إقليم مرطانية الطنجية بحكم كونه قائداً عاماً مفوضاً من قبل الإمبراطور، وتولى يوليان إدارة هذا الإقليم وهو صغير السن، ثم طال به الزمن دون أن تتمكن دولة الروم من عزله أو استبدال غيره به؛ بسبب انشغالها بالحروب ضد العرب المسلمين الفاتحين في شمال أفريقيا، وأصبح يوليان مطلق التصرف في ولايته، وله صلات ودية كثيرة مع أهلها من البربر وزعماء القبائل المجاورة له؛ حتى صار خبيراً بتقاليدهم وعاداتهم، وأجاد القيام بها إلى درجة جعلته يبدو كأحد أبناء البلاد الأصليين، لا تابعاً لإمبراطورية الروم، ولا يمكن كشف حقيقة لونه السياسي في سهولة ويسر؛ فقد رأى يوليان حاكم سبته أن الحكمة تفرض عليه التقرب من القوة الإسلامية الجديدة التي صارت تجاور أملاكه مباشرة، وأن يقيم معها علاقات ودية تعوّضه عن الضعف الذي دب إلى سلطانه في سبته.

فاختلط على كثير من المؤرخين أمر يوليان حتى ذكر البعض أنه من البربر، على حين قال البعض الآخر: إنه من القوط دون أن يفتنوا إلى تبعيته أصلاً لإمبراطورية الروم، ولما انهيار سلطان الروم في إفريقية بعد الفتوح العربية أخذ يوليان يعمل على تقوية روابطه بدولة القوط في أسبانيا على نحو ما فعل مع جيرانه من البربر؛ ليدعم مركزه ويحفظ أملاكه، ورحب ملك القوط إذ ذاك - واسمه غيطشة

- بولاء يوليان؛ بسبب أهمية سبّنة لحماية دولته؛ فهي تتمتع بمرکز جغرافي فريد يجعلها مفتاح أسبانيا والحارس الذي يحميها من هجوم قد يشنّ عليها من الجانب الإفريقي؛ فهي قبالة الجزيرة الخضراء من أرض أسبانيا، وتسيطر على المياه التي بينها وبين تلك الرقعة الأسبانية،

هذا وتتمتع أسبانيا بموقع طبيعي يجعلها حصنا منيعا في استطاعته أن يقاوم زمنا طويلا أيّ هجوم مفاجئ قد تتعرض له؛ فيوجد على بعد ميلين منها جبل موسى (نسبة إلى موسى بن نصير)، كما يحيط ماء البحر بها من ثلاث جهات مما زاد في مناعتها وقوتها، هذا إلى أنه قام على مقربة منها دار لصناعة السفن التي استخدمت في العبور إلى الأندلس.

ورأى يوليان على الرغم من دعم صلاته بدولة القوط في أسبانيا أنّ تطوّر الأوضاع في بلاد المغرب واستقرار الفتوح الإسلامية بها يفرض عليه حسن الجوار مع الإدارة العربية الجديدة وتجنّب الاصطدام بها؛ ولذا رحّب يوليان بسياسة موسى بن نصير الذي أثر عدم الاستمرار في الاستيلاء على سبّنة، وكان موسى قد ترك لقائده طارق بن زياد في طنجة مهمة تنظيم علاقة الجوار مع حاكم هذه المدينة الهامة الذي يعتبر مفتاح بلاد الأندلس، ونجح طارق في دعم صداقته ليوليان، وبدأ يطلّ من هذه المدينة على أسبانيا ويدرس أحوالها دون أن يثير مخاوف القوط أو يبعث الريبة في نفوسهم باستعدادات المسلمين الحربية، وسارت الأمور بعد ذلك في سبّنة بما ساعد موسى بن نصير على أن يكمل دراسته الخاصة بفتح أسبانيا ويعرف المزيد من الأخبار التي تهيّئ للمسلمين القيام بفتوحهم في هذا الميدان الجديد؛ وسبب ذلك أن دولة القوط في أسبانيا تعرّضت لاضطرابات شديدة ترّدّد صداها في مدينة سبّنة، ودفعت بحاكمها يوليان إلى الانتقال من سياسة حسن جواره للمسلمين إلى سياسة التحالف والاتّفاق على تحقيق المصالح المشتركة بينهما، ذلك أن رودريك، وهو الذي عرفه العرب باسم لوزريق - استطاع أن يطيح بالملك الحاكم وهو غيطشة، ثم اعتلى العرش.

ولم يكتف لوزريق بذلك وإنما أخذ يعمل على إنزال أشدّ ألوان الأذى بأبناء غيطشة وسائر آل بيته، وأنت هذه السياسية الخرقاء من جانب لوزريق ثمرة لم يكن يتوقعها على الإطلاق؛ ذلك أن أبناء غيطشة حين اشتدت بهم المتاعب وسدّت في وجوهم السبل أخذوا يلجؤون إلى جهة أخرى يستمدون منها الدعوى والمساعدة على استرداد حقّهم المسلوب، وكان موسى بن نصير قد بدأ يتطلّع إلى أسبانيا عن طريق

نافذة سبتة، ولم تلبث الأحداث أن جعلت سبتة تقوم بدور مباشر في نقل صورة كاملة عن تلك الأحوال السائدة في أسبانيا إلى موسى بن نصير، فضلاً عن قيامها بدور الوساطة بين أبناء غيطشة وموسى بن نصير، ووجد أبناء غيطشة من يوليان حاكم سبتة رسولاً إلى موسى بن نصير، وساعداً ومعاضداً لمشاريعهم؛ بسبب سوء العلاقات التي وقعت إذ ذاك بين هذا الحاكم وبين لوزريق (1).

وتذكر المراجع أن سبب سوء العلاقات يرجع إلى اعتداء لوزريق على شرف ابنة يوليان التي كانت تتعلم في طليطلة، وكانت العادة قد جرت على أن يبعث كبار رجال الدولة من القوط بأبنائهم إلى طليطلة ليتأدّبوا بأداب البيت المالك، وليكون ذلك سبيلاً لتأليف القلوب.

وأسهبت المراجع في قصة ابنة يوليان؛ فوصفتها بأنها بارعة الجمال، فلما صارت عند لوزريق وقعت عينه عليها فأعجبته وأحبّها حبّاً شديداً، ولم يملك نفسه حتى أكرهها، فاحتالت حتى أعلمت والدها بذلك سرّاً بمكاتبة خفية؛ فأحفظه شأنها جداً واشتدت حميته وقال: ودين المسيح لأزليّن ملكه وسلطانه، ولأحفرن تحت قدميه! ورأى يوليان أن يحتال أولاً لاستدعاء ابنته من بلاط لوزريق؛ فخرج بنفسه في يوم من أيام الشتاء البارد دون أن يأبه بمخاطر الطريق، وعندما وصل إلى طليطلة أوجس منه لوزريق خيفة بسبب حضوره في ذلك الوقت غير الملائم، وسأله عمّا لديه، وما جاء فيه، ولمّ جاء في مثل وقته؟ فأجاب يوليان بأن سبب حضوره هو أن زوجته مريضة مرض الموت، وأنها في شدة شوقها لرؤية ابنتها التي هي عنده، وتمنيها لقاءها قبل الموت وإحاضارها عليه في إحضارها، وأنه أحبّ إسعافها ورجا بلوغ أمنيته منه، وانخدع لوزريق بهذه الحجّة وسمح لابنة يوليان بالعودة إلى أبيها بعد أن استوثق منها بالألا تطلعه على ما حدث بينهما (2).

وبعد أن استقرّ يوليان ومعه ابنته في سبتة بدأ يكشف نواياه صراحة، وأخذ يساعد أبناء غيطشة والعناصر المناوئة للوزريق في أسبانيا، فأعدّ يوليان حملة نزلت بأسبانيا، واشتركت مع الثوّار في أعمالهم الحربيّة، لكن قوّات لوزريق استطاعت الحصول على النصر، ودمرت حملة يوليان واضطّرتها للعودة إلى سبتة، وما أن انتهت هذه الحروب في أسبانيا عن فوز لوزريق حتى أيقن يوليان أنه لم يعد أمامه

(1) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص 55.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 9، ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، ص 90، المقرئ، نفح الطيب، 236.

مفرّ من الاتجاه نحو السلطات العربية في القيروان وطلب مساعدتها ضدّ لوزريق، واتصل يوليان بطارق بن زياد طالبا مساعدة العرب له ضدّ لوزريق، ونقل طارق أخبار المفاوضات التي دارت بينه وبين يوليان إلى موسى بن نصير الذي وجد أن الوقت قد حان لفتح الأندلس، ثم تحقّق موسى من صدق ما نقله إليه طارق حين ذهب يوليان نفسه إلى القيروان ليعرض وجهة نظره على السلطات العربية هناك؛ إذ أكّد يوليان لموسى بن نصير الخير الوافر الذي سيعود على العرب من القيام بغزو الأندلس ومساعدتهم له ضدّ لوزريق، ووجد موسى ابن نصير أن كلّ الظروف قد أصبحت سانحة للانتقال إلى ميدان جديد حافل بالمجد والفخار، وأعلن موافقته على مساعدته ضدّ لوزريق، واستطاع بذلك أن يستفيد من الموقف السياسي الذي ساد حكام الأندلس، وأن يسخره لخدمة الجيوش الإسلامية المجاهدة.

وكتب موسى بن نصير إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يستأذنه في فتح ذلك البلاد، ويشرح له اضطراب أحوالها وأنّ الفرصة غدت مواتية بعد مؤامرة يوليان ضدّ لوزريق، غير أن الخليفة أمر موسى بأن يختبر الأندلس ويدرس أحوالها بنفسه بإرسال حملات استطلاعية إليها، وعهد موسى بن نصير إلى يوليان نفسه القيام بإغارة على جنوب أسبانيا ليتحقّق بذلك من أمرين: أولهما: أن يوليان جادّ في دعواه ضدّ لوزريق، وكراهيته له ولحكومته في أسبانيا، وثانيهما: أن يعرف من المقاومة التي يتعرض لها يوليان مدى قوّة القوط وما لديهم من استعداد حربي، وقام يوليان فعلا بإغارة سريعة على جنوب أسبانيا، ورجع منها محمّلا بالكثير من الغنائم والسبي.

* * *

فتح جزيرة طريف

وأراد موسى بن نصير أن يقف بعد ذلك بنفسه على أحوال أسبانيا؛ فأعدّ حملة من المسلمين جعل على رأسها أحد قادته المشهورين بالمغامرة والشجاعة، وهو أبو زرعة طريف بن مالك؛ فبعث هذا القائد إلى الأندلس في أربعمئة من خيرة الفدائيين، وذلك على سفن قدّمها لهم يوليان، ونزل المسلمون في جزيرة صغيرة اسمها بالوماس، وهي التي صارت تحمل بعد ذلك اسم القائد المسلم وعرفت بجزيرة طريف، وبادرت قوّة مكونة من أبناء غيطشة التي اشتركت في الحملة إلى مساعدة المسلمين وحراسة المضيق، وذلك في شهر رمضان عام 92 هـ يوليو 711م، وشنّ طريف من مركزه بتلك الجزيرة عدّة حملات استطلاعية على سواحل أسبانيا

الجنوبية، حيث درس تحصيناتها و عرف الكثير من أحوال أهلها و مدى علاقتهم بحكامها من القوط، وأخيرا عاد طريف إلى بلاد المغرب (1).

فقدّم تقريراً مفصّلاً عن إغاراته إلى موسى بن نصير، وشرح له في إسهاب أحوال أسبانيا، وقد أكّدت غارة طريف لموسى بن نصير صدق الأقوال التي نقلها إليه يوليان عن انهيار الأحوال في أسبانيا وافتقارها إلى أسباب الدفاع؛ بسبب انشغال القواد بملاذهم وانصرافهم إلى أعمال الطغيان وسلب ثروات البلاد لأنفسهم؛ فلم يلق طريف نوعاً من أنواع المقاومة، كما لم يقابل قوّة من قوات القوط أثناء استطلاعه لأحوال جنوب أسبانيا، هذا إلى أن مبادرة أفراد بيت غيطشة إلى مساعدته وحراسته لخطوط مواصلات المسلمين جاء دليلاً واضحاً على الانقسام الذي ساد الطبقة الحاكمة من القوط، وأن لودزيق لا يحكم إلا بالعنف والقسوة، وهو أمر لن يكفل له مقاومة المسلمين طويلاً عندما يبدأ الفتح الإسلامي للبلاد.

هذا إلى أن يوليان برهن مرة أخرى بما قدّمه من مساعدات لحملة طريف على أنه كاره فعلاً للودزيق، وأن المؤامرة التي دبّها مع أبناء غيطشة ضدّ هذا الحاكم المستبدّ مؤامرة لها خطرها، وأن خيوطها صحيحة وسليمة.

وبعودة حملة طريف انتهى موسى بن نصير من دور الحملات الاستطلاعية، وبدأ الإعداد الفعلي للفتح المنظمّ لأسبانيا، وأثبت موسى بن نصير مقدرة حربية فائقة في هذا السبيل؛ إذ دارت الاستعدادات الحربية التي قام بها دون أن يتسرّب أمرها إلى القوط، ودون أن يتنبّه يوليان نفسه إلى حقيقة أهدافها وجوهر مراميها؛ فقد استطاع موسى بن نصير أن يوهّم يوليان بأن استعداداته الواسعة النطاق التي أعقبت حملة طريف ما هي إلا حملة قوية لمساعدة أبناء غيطشة ضدّ لودزيق، وأخفى عنه تماماً أنها ستكون الحلقة الأولى في سلسلة الفتح المنظمّ لأسبانيا، وأعدّ موسى بن نصير حملة مكوّنة من خمسة آلاف جندي حتى لا يثير كثرة عددها ريبة يوليان أو مخاوفه، وفي الوقت نفسه سار موسى بن نصير في ذلك الإعداد على النهج الذي سارت عليه الفتوح الإسلامية الكبرى في شتّى الجهات، وهو القيام أولاً بارسال حملة صغيرة العدد يتبعها إمدادات لا تنتهي - سواء من حيث الكثرة أو حسن الاستعداد - حتى يتم تحقيق الأهداف الحربية، وانتدب موسى لقيادة هذه الحملة الأولى على الأندلس أحسن قادة المسلمين إذ ذاك وأشدّهم ثقة به وهو: طارق بن زياد.

* * *

الفصل الأول:

الفتح الحربي الإسلامي لبلاد الأندلس

فكرة الفتح:

الخطبة المنسوبة إلى طارق وحرقت السفن:

الدروس المستخلصة من معركة وادي لكة:

عبور موسى بن نصير إلى الأندلس:

فتح إشبيلية وماردة:

مقتل لذريق:

استعادة طليطلة:

الزحف شمالاً نحو البرانس:

ارتياح أهالي الأندلس للحكم الإسلامي:

موسى وطارق يقابلان الوليد في عاصمة الأمويين:

سبب رجوع موسى إلى عاصمة الخلافة دمشق:

— خاتمة موسى بن نصير وطارق بن زياد رحمهما الله تعالى:

* * *

... كان الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الأيبيرية (أسبانيا والبرتغال) أمراً طبيعياً حسب الخطة التي اتبعها المسلمون أثناء فتوحاتهم، وهي تأمين حدودهم ونشر دعوتهم وذلك بالمضي في جهادهم إلى ما وراء تلك الحدود، لنشر العقيدة الإسلامية التي تقتضي أن يستمر المد الإسلامي ما دامت فيه القوة على الاستمرار، وبعد أن أرسى موسى بن نصير، ومن معه، كلمة الإسلام بجهودهم في المغرب الكبير، كانت الخطوة التالية الطبيعية هي فتح الأندلس وقد عمل موسى على إكمال جهود من سبقه من الجند الدعاة - قادة وجيشاً - في ترسيخ قدم الإسلام في الشمال الإفريقي، فقد عمل على تثبيت الإسلام في قلوب الناس ونشط في تعليمهم وتربيتهم على مبادئ الدين الحنيف، وآتت جهوده الدعوية ثمارها الزكية فقد أصبح البربر في تلك الديار من أخلص الناس للإسلام والدعوة إليه والجهاد في سبيل نشر تعاليمه، ولقد كانت أكثرية جيش طارق إلى الجزيرة الأيبيرية من المسلمين البربر، الذين تحمسوا لدعوة الإسلام، حباً لها وتضحية من أجلها، لا طمعاً في مغنم أو حرصاً على جاه، فهذا هو هدف جميع الفتوحات الإسلامية التي يكفي الاطلاع عليها ومعرفة طبيعتها لرفض الإدعاءات وإسقاط المفتريات المزورة، التي تشير - تلميحاً أو تصريحاً - إلى إعتبار الغنائم سبب هذا الفتح، وهو أمر عاري من الحجج والبراهين والأدلة، وإنما هي أوهام لا تحمل أي رائحة من الطابع العلمي أو السند التاريخي (1).

* * *

فكرة الفتح

يمكن القول بأن فكرة فتح الجزيرة الأيبيرية هي فكرة إسلامية تماماً. بل يروى بأنها فكرة قديمة تمتد إلى أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان، فقد كان عقبة بن نافع الفهري يفكر في اجتياز المضيق إلى أسبانيا لو استطاع وسبق للمسلمين نشاط على شواطئ أسبانيا الشرقية وبعض الجزر القريبة منها، وهي مَيُورْقَة وَمَنُورْقَة، واليابسة، يذكر الذهبي أنه في سنة 89هـ: جهز موسى بن نصير ولده عبد الله، فافتتح جزيرتي مَيُورْقَة وَمَنُورْقَة (2)، أما الاتصال بيُوليان حاكم مدينة سبتة أو بغيره من الأسبان فإنها جاءت مواتية على ما يبدو وفي الوقت الذي كان موسى بن نصير يفكر في تنفيذ فكرة الفتح.

(1) التاريخ الأندلسي ص 43، 44، الصلابي، الدولة الأموية - (3 / 139).

(2) العبر في خبر من غير (304/1).

على كل حال فإن اتصالات الجانب الأسباني بموسى ومساعداتهم - أثناء عمليات الفتح - ربما كانت عاملاً مساعداً سهّل سير الفتح أو عجل به. لكن المبادأة و مردّ العمليات وإنجازها كانت من الجانب الإسلامي الذي اندفع مع الفتح بقوة فائقة معتمداً على الله في تحقيق ما يصبوا إليه من هداية الناس وقد استشار موسى الوليد بن عبد الملك (86 - 96هـ) قبل اتصالاته بليليان، أو اتصال هذا الأخير بموسى. وقد ترددت الخلافة - بادئ الأمر - بالقيام بمثل هذا العمل الكبير، خوفاً على المسلمين من المخاطرة في مفاوز أو إيقاعهم في مهالك، ولكن موسى أقنع الخليفة بالأمر، ثم تمّ الاتفاق على أن يسبق الفتح اختبار المكان بالسرايا أو الحملات الاستطلاعية (1).

جاء اختيار موسى بن نصير لطارق بن زياد لقيادة هذه الحملة خطوة موفقة، وأكد بعد نظر موسى وسعة خبرته الحربية؛ فطارق من البربر الذين عرفوا أرض الأندلس معرفة وثيقة؛ لأنهم يرونها امتداداً لبلادهم لا فارق بين بيئتها وبيئتهم، يضاف إلى ذلك أن طارقاً هو الذي تولّى بنفسه جمع المعلومات عن بلاد الأندلس، وتولّى مفاوضات يوليان، وصار خبيراً بالميدان الجديد في سائر نواحيه الحربية والسياسية، وعمل موسى ابن نصير على أن يشدّ أزر طارق الذي عهد إليه بالقيادة العليا للحملة؛ إذ ضم إليه هيئة من كبار رجال الحرب من العرب والبربر ليكونوا بمثابة مجلسه الاستشاري ومساعديه في إدارة المعارك، ومن أولئك القادة العرب: عبد الملك بن أبي عامر المغافري، وعلقمة اللخمي، وأحد موالى الخليفة الوليد بن عبد الملك واسمه مغيث الرومي، وكان القائد الأخير يعتبر مندوب الخلافة الحربي في تلك الحملة التي أعدها موسى بن نصير، وحلقة الاتصال بين السلطات المركزية في دمشق ومقرّ القيادة الإسلامية في القيروان، وكلف موسى بن نصير بعد ذلك يوليان بأن يقدّم للقوات الإسلامية السفن اللازمة لنقلها إلى أسبانيا، كما يتولى حراستها ويقوم بمهمة الدليل لها، وكان السبب في إصرار موسى بن نصير على الاعتماد في نقل الجند بسفن يوليان هو حرصه الشديد على إخفاء تحركات هذه الحملة عن العيون والجواسيس؛ فالأسطول الإسلامي كان قد تمّ إعداده على عهد موسى بن نصير وصارت له قاعدة هامة في تونس، كما ظهر نشاطه في السيطرة على الجزر الهامة في غرب البحر المتوسط، ولذا كانت تحركات هذا الأسطول محطّ أنظار الجميع ولا يمكن إخفاء أمرها، ولما كان موسى بن نصير يستهدف مفاجأة

(1) التاريخ الأندلسي، ص45.

القوط بالأندلس لم يكن أمامه سوى الاعتماد على سفن يوليان التي لا تثير الريبة في نفوس من يشاهدها وهي تعبر بحر الزقاق (مضيق جبل طارق)، وكان لدى يوليان أربع سفن لا تتسع لنقل أفراد الحملة مرة واحدة، ولذا تمت عملية عبور بحر الزقاق على دفعات، وأخذت كل جماعة يتم نقلها تختفي في جهات خصّصت لها على الشاطئ الأسباني، حتى انتهى الجميع من العبور وذلك عام 92 هـ (711م) ⁽¹⁾.

وبادر طارق بن زياد بتحصين القاعدة الأولى التي استولى عليها في جنوب أسبانيا قبل التوغّل في داخل البلاد، ثم استولى على بلدة الجزيرة الخضراء قبالة جبل طارق، وصار بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) في قبضة المسلمين وعلى اتصال وثيق بسببته قاعدة الاتصال الأولى ببلاد المغرب.

وتمت المرحلة الأولى بذلك من نزول الحملة الإسلامية في أسبانيا دون مقاومة تذكر، وكان السبب في ذلك هو أن موسى بن نصير اختار وقت قيام حملة طارق وفق أدقّ المعلومات التي وصلته، وكانت المخابرات الإسلامية تتبع حركات لودزيق وتتحين الوقت المناسب لبدء الحملة، وسرعان ما سنحت الفرصة حين ذهب لودزيق إلى أقصى شمال أسبانيا ليخمد ثورة قام بها سكان جبال البرانس المعروفة باسم القبائل البسقاوية، وكانت تلك الجموع القبلية مشهورة بالمراس وقوة الشكيمة، مما جعل لودزيق يأخذ معظم جيشه معه، وأصبح جنوب أسبانيا خاليا تماما من أسباب الدفاع عنها، ولذلك لم تشعر سلطات القوط بنزول المسلمين في جنوب البلاد إلا بعد أن استقرّت دعائمهم ومكّنوا لأنفسهم على بحر الزقاق، فعبأت قوات سريعة وأرسلتها على عجل للهجوم على المسلمين تحت قيادة (بنج) المعروف باسم (بنشو) في المراجع الأسبانية، ولكن القوط لقوا هزيمة فادحة لم ينج منهم إلا واحد استطاع الهرب والذهاب إلى معسكر لودزيق في أقصى الشمال، ونقل إليه أنباء تلك الكارثة وهجوم المسلمين على البلاد، وكان لودزيق يقيم في مدينة بنبلونة بأقصى الشمال حيث يدير الحرب ضد القبائل البسقاوية، ولذا صمّم العودة سريعا إلى الجنوب والهجوم على المسلمين قبل أن يتوغّلوا في داخل البلاد، وكان لودزيق من أشهر رجال القوط في ميدان الحروب؛ إذ قدّر تماما الخطر الذي أحاط بدولته بسبب نجاح المسلمين في اتخاذ قاعدة لهم عند جبل طارق، وأدرك أنهم جاؤوا للفتح وليس للإغارة من أجل السلب والنهب والحصول على المغنم كما راجت الإشاعات بذلك،

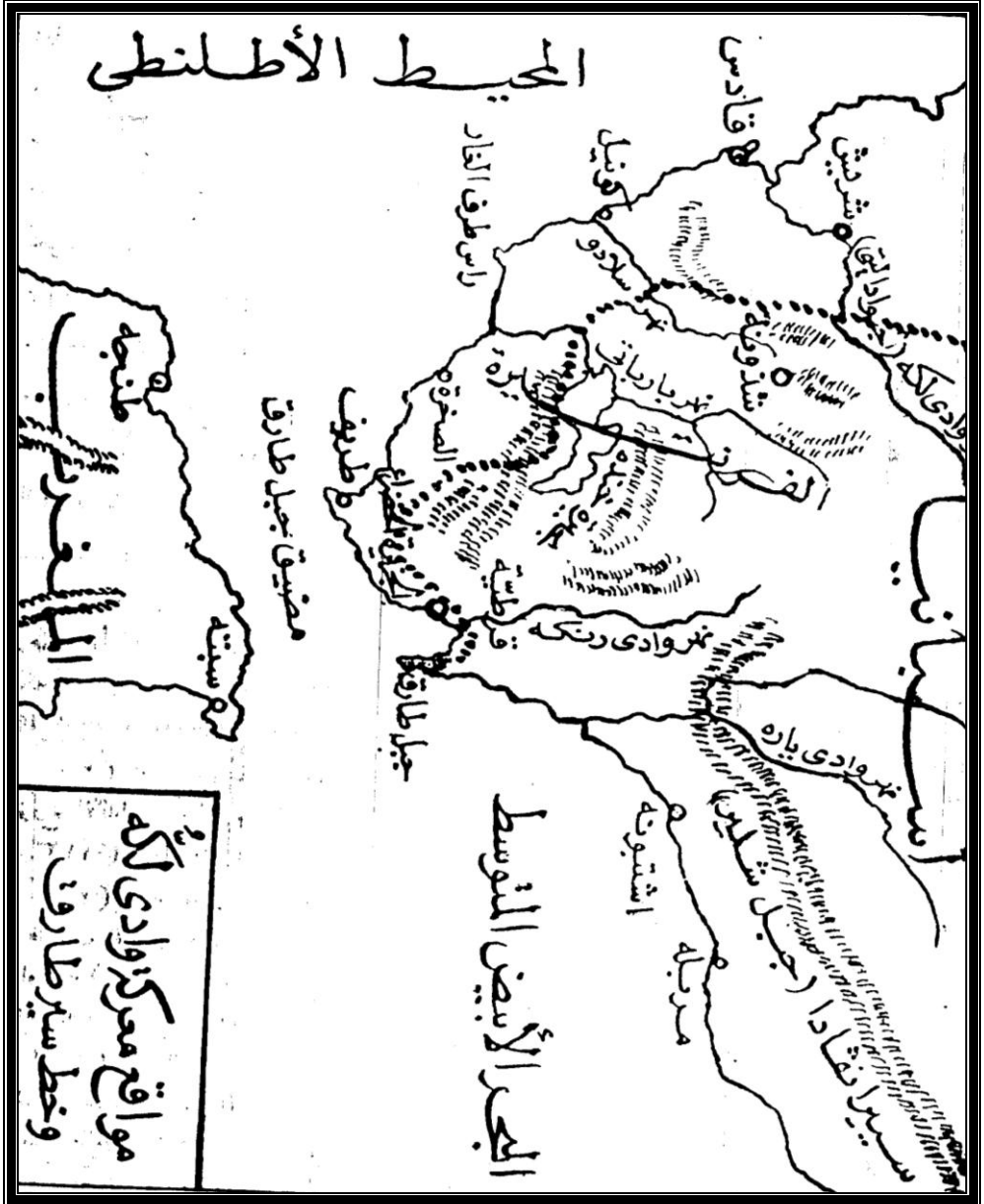
(1) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، ص 88 - 90، المقري، نفح الطيب، 1 / 237 - 238.

ومن ثم عمد إلى جمع صفوف القوط لمواجهة المسلمين؛ فاتصل بأبناء غيطشة وصالحهم ليكونوا جميعاً يداً واحدة، ولكن أعمال لوزريق في تلك السبيل جاءت متأخرة؛ لأن بيت غيطشة ظلّ على ولائه سرّاً للخطة التي وضعها يوليان، ولم ينس ما حلّ به من أذى واضطهاد وتشريد على يد لوزريق، وفي الوقت نفسه ظلّ أبناء هذا البيت في اعتقادهم أن المسلمين لم يأتوا للفتح ولكن للحصول على المغنم مقابل مساعدتهم في القضاء على لوزريق، وزحف لوزريق بجيشه سريعاً واحتلّ قرطبة؛ ليحول بين المسلمين وبين الاستيلاء عليها؛ لأنها المفتاح الذي يسيطر على سهول الأندلس الجنوبية الشرقية، ويمكن لصاحبها من الاستقرار في البلاد (1).

وكان طارق بن زياد يريد فعلاً الاستيلاء على قرطبة؛ فقد زحف على هذه المدينة بعد انتصاره في جنوب أسبانيا، وسلك الطريق المارّ بجزيرة طريف (الجزيرة الخضراء) ثم زحف شمالاً بعد ذلك حتى اقترب من بحيرة الخندق التي يخترقها نهر صغير يسمى البرباط، وفي ذلك المكان مدينة صغيرة سمّاها المسلمون (بكة) ونسبوا إليها النهر الذي صار يعرف باسم وادي بكة، وحرف بعض المسلمين هذه التسمية إلى وادي لكّة، وعند وادي بكة عرف طارق ابن زياد عن طريق عيون أنه لوزريق علم بنأ الحملة الإسلامية وأنه وصل إلى قرطبة واستولى عليها، كما أنه تابع زحفه جنوباً واتخذ معسكره عند بلدة شذونة في سهل البرباط، وأنه صار بذلك على أهبة القتال، وذكرت بعض المراجع أن جيش القوط بقيادة لوزريق بلغ عدده مائة ألف مقاتل وضمّ عدداً عظيماً من الفرسان، ويرجح أن هذا العدد مبالغ فيه، وأدرك طارق بن زياد أن العدد الذي معه من جند المسلمين لا يكفي لقتال قوات لوزريق الهائلة؛ ولذا أرسل إلى موسى بن نصير يشرح له الموقف ويطلب إليه إرسال الإمدادات بسرعة، فأمدّه موسى بن نصير بحملة عددها خمسة آلاف مقاتل بقيادة طريف بن مالك الذي قاد أول حركة استطلاعية في أرض أسبانيا، ونقل هؤلاء الجنود مرةً واحدة على سفن الأسطول العربي إلى أسبانيا، ووصلت الإمدادات الإسلامية إلى طارق في اللحظة الحاسمة التي كان القوط على وشك شنّ الهجوم على المسلمين، وأعدّ طارق بن زياد قواته للمعركة، ثم وقف بين جنده خطيباً يحثّهم على الاستبسال في القتال، شأنه في ذلك شأن قادة الفتوح العربية الذين دأبوا على رفع روح جندهم المعنوية بإلقاء خطاب حماسي بينهم قبل نشوب المعركة، وتعتبر خطبة

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 8، المقري، نفح الطيب، 1 / 239.

طارق من روائع الأدب العربي، ومما جاء في هذه الخطبة: "أيها الناس! أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصبر والصدق، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللائم، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي



عدوكم، وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم ولم تتجزوا لكم أمرا ذهبتم ريحكم وتعوّضت القلوب عن رعبها فيكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية؛ فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإنني لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص متاعا فيها للنفوس أبداً بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشقّ قليلا استمتعتم بالأرفة الألدّ طويلا، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي؛ فما حظكم فيه بأوفى من حظّي، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدرّ والمرجان والحلل المنسوجة بالعقبان، المصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً؛ ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان؛ ليكون حظّه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى ولي أنجادكم على ما يكون لكم ذكرا في الدارين.

أيها الناس: ما فعلت من شيء فافعلوا مثله؛ إن حملت فاحملوا، وإن وقفت فقفوا، ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال، وإنني عامد إلى طاعتهم بحيث لا أنهيه حتى أخالطه وأمثل دونه؛ فإن قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتيل وأسير، وإياكم إياكم أن ترضوا بالدنية، ولا تعطوا بأيديكم وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة الراحة من المهانة والزلة، وما قد أجل لكم من ثواب الشهادة فإنكم إن تفعلوا - والله معكم ومفيدكم - تبوؤوا بالخسران المبين وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين، وهأنذا حامل حتى أغشاه؛ فاحملوا بحمليتي“(1).

وفي الوقت الذي أثرت فيه خطبة طارق تأثيراً كبيراً في نفوس جنوده ورفعت من روحهم المعنوية كانت العناصر الحانقة على لوزريق تحدث أعمالها وتدفع بكثير من أولئك الغاضبين إلى الانضمام إلى جيش طارق،

ووقف الفريقان على ضفتي النهر أخيراً استعداداً للقتال، وكان المسلمون ببساطتهم ويقظتهم موضع الهيبة في النفوس، على حين كان منظر القوط يدعو إلى السخرية والازدراء؛ إذ جلس لوزريق في عربة مطهمة يجرها جوادان وعليه أثواب الحرير البراقة، وهو يحاول عبثاً بث روح الحماسة في جنده، وكان في جيشه اثنان من إخوة غيطشة، وهما: أبه وششبرت اللذان صالحهما بغية توحيد صفوف القوط، وجعل أحدهما على الخيالة التي كانت عماد جيش القوط، وفي يوم الأحد 28 من رمضان عام 92هـ (19 يوليو 711م) بدأت المناوشات بين الجانبين على وادي اليرباط بالقرب من بلدة شذونة، واستمرت المناوشات ثلاثة أيام أظهر فيها كل من الجانبين الكثير من ضروب الشجاعة والبسالة دون أن يحصل أحدهما على نصر يذكر، غير أن أتباع يوليان نشطوا في أثناء القتال وبثوا رجالاتهم وسط جند لوزريق ليصرفوهم عنه ويؤكدوا لهم أن المسلمين لم يأتوا إلى الأندلس للفتح والاستقرار ولكن للقضاء على هذا الطاغية، وأنه إذا تمّ القضاء على حكم لوزريق عادت البلاد ملكاً لهم ينعمون بخيراتها، ونجحت دعايات يوليان بين فرسان القوط، خاصة تلك التي كان يتولى قيادتها أحد إخوة غيطشة ملك القوط السابق الذي قضى عليه لوزريق.

وفي اليوم الرابع من المعركة ظهرت نتائج دعايات يوليان بين صفوف جيش لوزريق؛ فقد تخلى عنه جماعات الخيالة التي كانت العامود الفقري للعمليات الحربية، وأدى ذلك إلى وقوع الاضطراب بين سائر جند القوط وهرب الكثيرون منهم طلباً للنجاة، هذا إلى أن غالبية الجيش اشتملت على أعداد كبيرة من العبيد الساخطين على حكم القوط المتمنين زواله، ووجدوا في تلك المعركة فرصتهم للخلاص مما حلّ بهم من ظلم واضطهاد، ولما أخذت مظاهر الفوضى تسود الجيش بسبب انسحاب الخيالة تراخى العبيد عن القتال وانتهت المعركة بانتصار المسلمين.

وفرّ لوزريق تاركاً عدداً كبيراً من القتلى على أرض الميدان، وحسب البعض أن لوزريق غرق في النهر الذي دارت المعركة بقربه؛ لأن الجند وجدوا على الشاطئ بعد انتهاء القتال خفّه دون أن يعثروا له على أثر، غير أن لوزريق أبى الاستسلام بعد الهزيمة الساحقة التي نزلت به، وفرّ إلى داخل البلاد دون أن يكشف أحد أمره، مستهدفاً جمع فلول القوط مرة أخرى

والانتقام ممن انضمّ من رجاله إلى المسلمين، وبعث طارق بأنباء انتصاراته إلى موسى بن نصير الذي أبلغها بدوره إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك، وبدأت راية الإسلام تعلو خفاقة فوق غرب أوربا للمرة الأولى في التاريخ (1).

* * *

(1) ابن عبد الحكم، فتوح المغرب والأندلس، ص 96، ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 10.

الخطبة المنسوبة إلى طارق وحرق السفن

يعتقد كثير من المؤرخين أن طارقاً أحرق سفنه، بعد أن أنزل جيشه على الساحل الأندلسي، ثم خطب بجنده الخطبة الشهيرة، أيها الناس، أين المفر البحر ورائكم، والعدو أمامك وليس لكم والله إلا الصدق والصبر...، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تتجزوا لكم أمراً ذهبتم ريحكم، وتعوّضت القلوب من رُعبها... وجاء في الخطبة: وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان، من بنات اليونان، الرافلات بالذر والمرجان والخلل المنسوجة بالعقبان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عُرَباناً، ورَضِيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمُجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظه منكم ثواب الله إلى إعلاء كلمته.. الخ الخطبة (1)، وبالإمكان إيراد الملاحظات التالية حول الخطبة:

- لم تكن الخطبة وما فيها من الأسجع من أسلوب ذلك العصر القرن الأول الهجري، وغير متوقع لقائد جيش أن يعتني بهذا النوع من الصياغة. فقد تضمنت الخطبة معان سامية وتعبيرات أدبية تجعلنا نميل إلى عدم نسبتها إليه فالخطبة في اعتقادنا ليست من إنشائه وإنما نسبها إليه المؤرخون المحدثون، فقد كان طارق بن زياد كما يرجح بربريا، ولا يعقل أن يكون صاحب هذه القطعة الأدبية الفريدة، ولو أنهم نسبوها إلى موسي بن نصير لكان الأمر أقرب إلى مجال التصديق، وإن كان هذا أيضاً لا يمكن الإغضاء عنه، إذ أن أسلوب الخطبة، من الأساليب الشائعة منذ القرن العاشر الميلادي، وقد يكون طارق بن زياد حسن الكلام ينظم ما يجوز كتبه، كما يقول ابن بشكوال (2) ولكنه لا يصل بأي حال من الأحوال إلى ارتجال خطبة أدبية رائعة، أسلوبها من النوع المتأخر في الزمن إلى عصره، ولنفترض جدلاً أنها من إنشائه، فكيف يخطب بالعربية لجيش كله من البربر، وهم كما نعرف حديثوا عهد

(1) المقري، نفح الطيب، 1 / 225، وفيات الأعيان (321/5، 322).

(2) نفح الطيب، 1 / 215.

بالإسلام وباللغة العربية، بل إن اللغة العربية كانت أبداً بكثير من الإسلام (1).

- إن المعاني التي تناولتها الخطبة لا تتلاءم وروح الإسلام العالية، التي توفرت لدى الفاتحين، ومقدار حبهم للإسلام وإعلاء كلمته، ورغبتهم في الاستشهاد من أجل ذلك، فهي لا تشيد بدوافع الفتح وأهدافه - وهي معروفة مألوفة - التي أنبتتها ورعتها العقيدة الإسلامية، عاملة على ابتغاء مرضات الله تعالى وحده، لتعلو راية الإسلام وتسود شريعته ويكون الدين كله لله، {وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ آتَهُمْ فَأَتَى اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الأنفال: ٣٩].

- يلاحظ في الخطبة عديد من الأخطاء ويلاحظ فيها التناقض في المعاني، وبعض ما فيها مخالف لحقائق تاريخية، كاستعمال (اليونان) التي ربما جاء ذكرها للسجع فالمؤرخون الأندلسيون اعتادوا أن يستعملوا في هذه المناسبة القوط أو الروم (2)، وكذلك العلوج والعجم أو المشركين والكفار (3)، وليس لدينا نص يحتوي مثل هذا الاستعمال، غير أن ابن خلكان - وهو مشرقي - أورد هذا الاستعمال في غير الخطبة ثم. (وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين..) فالذي انتخبهم موسى بن نصير وليس الوليد.

ج - كان المتوقع أن تحتوي الخطبة على آيات من القرآن الكريم وأحاديث الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم، أو وصايا وأحداث ومعاني إسلامية أخرى تناسب المقام كالمعهود. وغير ذلك من الملاحظات.

... وكل ما تقدم لا يمنع أن يكون طارق جيد الكلام، وأنه خطب جنده يحدّثهم على الجهاد، ويروي المقرئ أبياتاً قالها طارقاً بهذه المناسبة:

ركبنا سفينا بالمجاز مُقَيَّرَا :: عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوساً وأمولاً وأهلاً بجنة :: إذا ما اشتبهنا الشيء منها تيسراً
ولسنا بُالي كيف سالت نفوسنا :: إذا نحن أدركنا الذي كان أجدرنا (4)

ووجهة هذه الأبيات تغاير وجهة الخطبة، فهي مذسجمة والمعاني الإسلامية

(1) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص 78.

(2) نفح الطيب (264/1) التاريخ الأندلسي ص 60.

(3) نفح الطيب (259/1، 261، 263، 270).

(4) المقرئ، نفح الطيب، (231/1)، ابن خلكان، وفيات الأعيان (223/5)، الصلابي، عمر بن

عبد العزيز، (3 / 151).

ومستمدة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١١١﴾ [التوبة: 111].

وأما موضوع حرق طارق للسفن التي عبر بها المضيق، كي يقطع على الجيش الإسلامي كل أمل في العودة، فيستमित في الدفاع ذكر بعض المؤرخين ذلك.

لكن لماذا يحرق طارق السفن، سواء امتلكها المسلمون أم يُليان؟ وكان طارق وجيشه يقاتلون من أجل عقيدة وإنهم في ساعة عبورهم جاؤوا مجاهدين مستعدين للشهادة، وطارق متأكد من هذه المعاني، فإذا كانت السفن ليليان فليس من حق طارق التصرف بها، وإن كانت للمسلمين فليس حرقها عملاً عسكرياً سليماً أو مناسباً، ما دام يحتاج إليها وإلى الذجدة والاتصال الدائم بالمغرب لأي غرض، وقد رأينا كيف احتاج إلى الذجدة قبل خوض هذه المعركة واحتاجها فيما بعد، كما أن طارقاً كان قادراً على إعادتها إلى الساحل الأفريقي إن الدوافع الإسلامية والهدف الذي جاء الجيش من أجله أقوى في الاندفاع من أي سبب آخر، وما كان المسلمون يتخلفون عن خوض معركة أو تقديم أنفسهم لإعلاء كلمة الله، بل لذلك أتوا، والمصادر الأندلسية - لا سيما الأولى - لا تشير إلى قصة حرق السفن التي لا تخلو من علاقة وارتباط بقصة الخطبة (1).

الدروس المستخلصة من معركة وادي لكة

- أسلوب (الحذر واليقظة) تجاه الحلفاء: لم يكتف موسى بن نصير بقول يليان ووعد بالعون والمساعدة في فتح الأندلس بل كلفه مهمة استطلاعية في تلك البلاد ليختبر صدقه ووفاءه بعده، وقد كان يليان صادقاً بما قال ووفياً لما تعهد به، كما كان موسى حذراً ويقظاً ونبهاً.

- أسلوب الاستطلاع قبل الانزال: أراد موسى أن يستطلع البيئة التي سوف يقتحمها والعدو الذي سوف يقاتله والبقعة التي سوف يتم النزول فيها، وذلك قبل أن يدفع بجيشه في مغامرة مجهولة النتائج، فأرسل حملة استطلاعية بقيادة طريف بن مالك وما أن عادت تلك الحملة بالمعلومات الوافية عن البيئة والعدو وبقعة النزول

حتى اطمأن إلى سلامة قراره فكتب إلى الخليفة يستأذنه بالفتح (1).

- الأسلوب المتكرر في الاختبار والحيطة: رغم ما سبق من اختبار سواء بواسطة الحملة التي قام بها يليان أو حملة طريف، فقد أبى الخليفة إلا أن يكرر الاختبار فقال لموسى: خضها بالسررايا حتى ترى وتختبر شأنها، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال (2). ولما لفت موسى نظر الخليفة إلى سهولة عملية الإبحار والإنزال أصر الخليفة قائلاً: وإن كان، فلا بد من اختباره بالسررايا قبل اقتحامه (3). وذلك يدل على مدى حرص الخليفة على التأكد من نجاح العملية وسلامتها وتأمين الفوز للمسلمين بدل أن يغرر بهم في بحر شديد الأهوال. وهذا الأسلوب المتكرر في الاختبار والحيطة قبل الإنزال والاقتحام سهل عملية الفتح إلى حد كبير وأعان المسلمين في مواجهتهم الحاسمة للعدو، إذ أمّن لهم عملية (المباغثة) لعدو لم يكن ينتظر مثل هذه المفاجأة أبداً.

خ - أسلوب المباغثة: إن الأسلوب الذي اتبعه طارق في إيصال المسلمين إلى ساحل الأندلس منفذاً تعليمات الخليفة، كان أسلوباً بارعاً إلى حد كبير، فهو لم يبحر بالمسلمين دفعة واحدة بل أبحر بهم على دفعات متتالية وفي مراكب تجارية، وما أن التأم شمل المسلمين في تلك البلاد، حتى فوجئوا بالهزيمة الساحقة التي لحقت بهم على يد هؤلاء المسلمين ومقتل أحد أهم قادتهم (بنج) ابن أخت مليكهم لذريق، فانتزع المسلمون، بهذه المباغثة وهذا الانتصار، المبادرة من يد أعدائهم وأسقط في يد القوط، وأصبحت هزيمتهم على يد المسلمين قدراً محتوماً (4).

- تنفيذ أسلوب (رأس الجسر): نفذ طارق، فور وصول جيشه إلى الساحل الأندلسي، أسلوب (رأس الجسر) وهو أسلوب يعمل به في الحروب الحديثة، فأقام على الساحل قاعدة حصينة سورها وحماها وانطلق منها في فتوحاته، تماماً كما يفعل أي جيش في أيامنا هذه.

ش - اختيار ميدان القتال: لقد أحسن طارق اختيار ميدان القتال وفرض على العدو أن يجابهه من جهة واحدة هي جبهة الشمال، ووضعه في موضع الاضطرار والاختيار.

(1) الفن العسكري الإسلامي ص 349، الصلابي، عمر بن عبد العزيز، 3 / 146.

(2) المقري، نفح الطيب، 253/1.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، 5/2.

(4) الفن العسكري الإسلامي ص 350، الصلابي، عمر بن عبد العزيز، 3 / 147.

ص - المبادرة بالقتال: كان طارق في هذه المعركة هو البادئ بالقتال بل بادر إلى اجتياز النهر لملاقاة عدوه، فناوشه ثلاثة أيام ثم شن عليه بعد ذلك هجوماً عاماً انتهى بهزيمته.

ر - صدق المسلمين ووفاءهم بالعهود: كان المسلمون صادقين ووفوا بعهودهم تجاه يليان وأبناء غيطشة فأعادوا لهؤلاء ضياع أبيهم واحترموا تعهدهم ليليان وأنصاره، وكانت نتيجة ذلك أن اعتنقت سلالة كل من يليان وأبناء غيطشة الإسلام، فكان فيها من حسن إسلامه مثل أيوب (توفي سنة 226 هـ) وسليمان (توفي سنة 379 هـ) وأحمد (توفي سنة 388 هـ) من سلالة يليان، ومثل أبي بكر محمد بن عمر المعروف بابن القوطية صاحب كتاب تاريخ افتتاح الأندلس وهو من سلالة سارة بنت المنذر بن غيطشة آخر ملوك القوط.

- استثمار النصر: طبق طارق بالبداية، مبدأ من أهم المبادئ العسكرية الحديثة وهو استثمار النصر، إذ أنه ما أن هزم لذريق في وادي لكّة حتى لاحق فلول جيشه دون أن يترك لهذا الجيش مجالاً للتجمع وإعادة التنظيم من جديد، وكان طارق قد وضع لنفسه هدفاً أساسياً هو احتلال طليطلة عاصمة العدو، إذ أنه يعرف ولا شك، أنه باحتلاله لعاصمة المملكة، تفقد هذه المملكة مركزيتها، ويفقد الملك قاعدة ملكه وحكمه، ولكن طارقاً مع ذلك، لم ينس أن يرسل جيشه في حملات إلى مختلف أنحاء البلاد لكي يحتل المواقع الاستراتيجية فيها فيفقد القوط كل أمل بمتابعة القتال والنصر، فأرسل إحداها إلى داخل البلاد شمالاً نحو قرطبة، وكانت قسبة هامة في الأندلس، وأرسل أخرى شرقاً، على الساحل الجنوبي للبلاد، نحو ملقة، وأرسل ثلاثة إلى داخل البلاد شمالاً بشرق، نحو غرناطة وكانت تشكل موقعاً استراتيجياً هاماً في البلاد، ثم توجه بنفسه شمالاً إلى العاصمة طليطلة واستولى عليها، فظل الحكم القوطي، من جراء ذلك، شديداً طريداً في أنحاء الأندلس إلى أن سقط (1).

* * *

عبور موسى بن نصير إلى الأندلس

أحدث انتصار طارق بن زياد في وادي لكّة دويًا هائلاً في المشرق والمغرب، وازدادت قوات طارق بن زياد بعد معركة وادي بكة؛ لأن الإمدادات انهارت عليه من

(1) الفن العسكري الإسلامي ص 352، الصلابي، عمر بن عبد العزيز، 3 / 148.

المغرب، وكان لابد لطارق أن يجني ثمار جهاده وانتصاره في وادي لكّة، قبل أن تجتمع فلول القوط مرة أخرى، فرأى طارق أن يتابع زحفه دون إبطاء ليستولي على قرطبة ويقضي على ما بها من بقايا جيش القوط، غير أنه لقي في الطريق إلى هذه المدينة مقاومة عنيفة جعلته يعدل عن خطته ويبادر بالاستيلاء على طليطلة عاصمة دولة القوط ويتوج بذلك انتصاراته في أسبانيا، وكان السبب في هذا التطور الجديد هو ما بلغ طارقاً من أن أنصار لودزريق حين ترامت إليهم الشائعات بأن ملكهم لم يقتل بدؤوا يجمعون صفوفهم مرة أخرى في طليطلة لمقاومة المسلمين.

ومن ناحية أخرى أخذ أنصار الملك السابق غيطشة يجتمعون في طليطلة ويتشاورون فيما بينهم لإعلان أحدهم ملكاً مكان لودزريق المهزوم، ولذا عجل طارق بإرسال جزء من جيشه للاستيلاء على قرطبة ليحتمي ممتلكاته بجنوب أسبانيا، على حين انطلق بنفسه سريعا إلى طليطلة قبل أن يتمكن أتباع لودزريق من تحصينها، وقبل أن يصل أبناء غيطشة أيضا إلى قرار يصعب على المسلمين مواجهته، ذلك أن بيت غيطشة ظلّ واهما حتى تلك الأحداث بأن المسلمين ما جاءوا إلا للمغانم مقابل مساعدة أبناء غيطشة للوصول إلى العرش، واستولى طارق بن زياد على مدينة طليطلة في سهولة ويسر؛ لأن القوط أثروا تجنّب لقاء المسلمين انتظارا لما تسفر عنه استعداداتهم، وحاول طارق أن يتتبع فلول القوط الهاربة من طليطلة حتى بلغ مدينة أطلق عليها (المائدة) على مقربة من هنارس، وهناك عثر المسلمون على كنز ثمين، عبارة عن مذبح كنيسة طليطلة المحلي بأعلى ما كان لدى القوط من الذهب والجواهر، غير أن طارقاً اضطرّ إلى العودة إلى طليطلة لأن الصيف كان قد انقضى؛ فأثر البقاء في العاصمة دون أن يعرض جنده لبرد الشتاء القارس، وفي طليطلة بلغه أن جيشه الذي بعث به إلى قرطبة قد استولى عليها (1).

وقد شعر موسى بن نصير أن زحف طارق وراء فلول القوط يوشك أن يعرض الفتوح الإسلامية في البلاد الأسبانية المترامية الأطراف لخطر محقق، ذلك أن خطوط مواصلات المسلمين فيما بين طليطلة والجزيرة الخضراء وبلاد المغرب صارت غير آمنة؛ لأن المعاقل الكبرى المبعثرة على امتداد تلك الخطوط لم تخضع للمسلمين، ولم يسيطر طارق إلا على قرطبة فقط من بين تلك المعاقل المتعددة، هذا

(1) المقري، نفح الطيب، 1 / 244 - 248، ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 17، ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، ص 94، حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص 78.

إلى أن قرطبة لم يكن بها سوى حامية صغيرة لا تستطيع أن تؤدي رسالتها كما ينبغي إذا انبعثت أية حركة مقاومة بين صفوف القوط، وأول من شعر بالخطر الذي بات يهدد المسلمين في أسبانيا هو القائد يولييان الذي قام إذ ذاك في الجزيرة الخضراء ليؤمن خطوط مواصلات المسلمين بين أسبانيا والمغرب، وذلك في الوقت الذي اندفع فيه طارق بن زياد إلى طليطلة عاصمة القوط، فقد بعث يولييان مجموعة من رجاله مع المسلمين عند توغلهم في البلاد.

واستطاعت بفضل خبرتها وأهلها أن تدرك ما يدور في نفوس القوط من غدر، وأنهم يتجمعون وفق خطة مرسومة لإنزال الهزيمة بالمسلمين، أفضى يولييان إلى طارق بما جاءه من أخبار وطلب منه القيام بعمل حاسم لتأمين ظهر جيوشه، غير أن طارقاً أثر البقاء في طليطلة دون القيام بأية أعمال توسيعية، ثم كلف يولييان بأن يتصل بموسى بن نصير في القيروان ويطلب إليه سرعة المجيء إلى أسبانيا لإنقاذ الموقف.

ولما جاءت استغاثة طارق إلى موسى بن نصير أدرك أن مخاوفه من انطلاق طارق في فتوحه بعد معركة وادي بكة لها ما يسوغها، وأسرع موسى بإعداد جيش مكون من ثمانية عشر ألفاً من خيرة جنده، وكان معظمهم من العرب والبربر الذين عرفوا بقوة الشكيمة وشدة المراس، وممن اشتهروا ببلائهم في ميدان الحروب ببلاد المغرب، و غادر موسى بلاد المغرب على عجل، وقسّم موسى بن نصير جيشه بحسب القبائل ليسهل عبورها إلى الأندلس دون أن تقع فوضى في صفوف الجند، وفي رُمَضِيَّان عام 93هـ

(يونيه 712م) كان موسى ابن نصير قد غادر المغرب ووصل إلى الجزيرة الخضراء في الأندلس، وشيّد بها مسجداً وانتظر هناك حتى تمّ عبور سائر الجند واطمأن على سلامتهم وحسن ترتيبهم (1).

وفي تلك الأثناء أسرع يولييان إلى لقاء موسى بن نصير وعقد معه مجلساً حربياً للتشاور في هذا الموقف الخطير، وقرر هذا المجلس الحربي أن الضرورة تقضي بالسيطرة أولاً على المعاقل التي تركها طارق والتي باتت خطراً يهدد المسلمين، وبعث موسى بن نصير عقب هذا المجلس الحربي الهام رسالة إلى طارق بن زياد يأمره فيها بالانتظار في طليطلة، وألا يقوم بعمل حربي إلا بإشعار آخر. وردّت

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 19، ابن قتيبة الإمامة والسياسة، ص 124.

بعض المراجع أن موسى لم يقدم على هذا العمل والعبور إلى الأندلس إلا منافسةً لطارق ورغبة استبدت به لينال بدوره نصيباً كبيراً من الغنائم، وأن الحسد كان يأكل قلبه، وأنه صمم على محاسبة طارق على أعماله، وأنه رأى أن يتولى بنفسه فتوحاً أخرى أعظم مما قام به هذا القائد.

وقد وقعت تلك المراجع في هذا الخطأ الفاحش لأنها صوّرت موسى وطارقاً تصوير القائدين المختلفين، وأن كلا منهما كان يعمل دون علم الآخر، والمعروف أن طارقاً لم يقم بما قام به من أعمال حربية إلا باسم موسى بن نصير الذي تولى القيادة العليا ورسم الخطط، وأمد طارقاً بكل المساعدات الحربية ولا سيما في ساعة الخطر بعد معركة وادي بكة، هذا إلى أن طارق بن زياد كان يرسل إلى موسى بن نصير عن طريق يولييان أنباء تقدّم المسلمين خطوة خطوة، مما جعل القيادة العليا في القيروان تتابع الأحداث عن كثب، ومن ثمّ لم يكن هناك سبب يدعو موسى لأن يحقد أو يحسد طارقاً على ما تم على يديه من فتح؛ لأنه شارك في هذا الفتح وأعدّ خططه، هذا إلى أن موسى لم يكن يتطلع بعبوره إلى الأندلس إلى الحصول على مغانم؛ لأن توزيع الغنائم وغيرها من ممتلكات القوط كان هو المرجع الأخير فيه.

والحقيقة أن موسى بن نصير باعتباره القائد الأعلى قد أفرغ زحف طارق السريع بعد معركة وادي بكة، وتعرضه خطوط مواصلات المسلمين لخطر محقق؛ بسبب تركه الكثير من المعازل والمدن الهامة جرياً وراء مطاردة القوط، ولذلك بادر موسى برسم خطة للسيطرة أولاً على المراكز الحربية وغيرها في المدن التي كانت تهدّد خطوط مواصلات المسلمين، وليدعم فتوح المسلمين قبل الذهاب إلى طارق في طليطلة.

وتنهض هذه الخطة التي وضعها موسى دليلاً على أنه لم يكن يهدف إلى القيام بفتوح جديدة تغطي أخبارها وعظمتها ما قام به طارق، وأن مجيئه إلى الأندلس كان ضرورة حربية ملحة وإصلاح خطأ وقع فيه قائده طارق ولو كان موسى بن نصير يقص من وراء جوازه إلى الأندلس تأديب طارق لكان قد جاز إليه في رفقة عدد قليل من المسلمين، ولأسرع للقائه، ولكن موسى جاز الزقاق في جيش أضخم بكثير من جيش طارق، ومضي يفتح مدن الغرب، ويقضي على مراكز المقاومة طوال هذا العام، قبل أن يلتقي بطارق بن زياد، كل ذلك إن دل على شيء فعلياً أن موسى كان ينوي إتمام فتح الأندلس وفقاً لخطة رسمها هو وطارق ويولييان، ولو كان موسى يضمّر في نفسه شراً لطارق، مدفوعاً في ذلك بعوامل الغيرة والحسد، لما عبر الزقاق

بعد عام كامل من زول طارق إلى الأندلس، ولما سلك طريقاً غير الطريق الذي سلكه من قبل، وكان أسرع إلى لقائه كف يده، بدلاً من إضاعة وقته في إفتتاح مدن الغرب القوية، مثل إشبيلية وماردة، ولبلّة، وباجة (1).

والحقيقة أنه إن كان حدث شيء فلا يعدو أن يكون مناقشة القضايا أو استفهامه من طارق خطته وإبداء الملاحظات عنها، تخوفاً من الأذى، وعندما استفسر موسى من طارق عن سبب الايغال والتقمح في بلاد العدو، اعتذر إليه طارق بخطته العسكرية أمام الظروف المحيطة والضرورة الداعية لأسلوبه، وقبل موسى عذره. وسارا بعده - سوية إخوة مجاهدين، يذشرون دين الله ويُعلنون كلمته ويبلغون للناس شريعته، كما لا ننسى أن طارق جندي من جنود موسى والانتصارات التي حققها طارق إنجازات تكتب في صفحة موسى القيادية.

* * *

فتح إشبيلية وماردة

وعمد موسى بن نصير إلى تأمين خطوط مواصلات المسلمين بين الجزيرة الخضراء التي نزل فيها وبين قرطبة التي تعتبر مفتاح السيادة في جنوب الأندلس؛ فعجل بالسير في بلدة شذونة، ومنها زحف إلى قرمونة ورواق واستولى عليهما، وبذلك أصبحت المحطّات الهامة على الطريق إلى قرطبة في أيدي المسلمين، وصار في استطاعتهم التقدّم من تلك القاعدة نحو الغرب، وفتح مدينة إشبيلية التي كانت أكبر مدن القوط بعد العاصمة طليطلة ومصدر الخطر المباشر على القوات التي كانت تحت قيادة طارق في داخل البلاد، وكانت إشبيلية تعتبر نقطة التقاء للطرق الهامة في جنوب الأندلس، ولا سيما التي تربط الجزيرة الخضراء بداخل البلاد، فكانت هناك طريقان يربطان إشبيلية بالجزيرة الخضراء التي جعلها موسى مركزاً لالتقاء جنده في أسبانيا، وكان أحد هذه الطرق بحرياً والآخر برياً، وعلى كل منهما محطات كثيرة ومعازل.

هذا إلى أن إشبيلية اشتهرت بأسوارها الحصينة ومتاجرها الواسعة، وبهذا أصبحت قاعدة كبيرة من قواعد الفتوح الإسلامية في أسبانيا. وبعد أن استولى موسى بن نصير على مدينة إشبيلية اكتفى بوضع حامية بها، وأسرع إلى الاستيلاء على مدينة ماردة التي كانت معقلاً خطيراً في أيدي القوط خلف خطوط المسلمين، ووجد

(1) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص 92.

موسى بن نصير مدينة ماردة قوية الحصون وأشدّ منعة من إشبيلية؛ فكان لها أسوار منيعة يعلوها الأبراج والحصون القوية، ثم إن فلول القوط وأنصار لوزريق جعلوا تلك المدينة ملجأ لهم بسبب بعدها عن طريق المسلمين، كما كانت المسالك إليها وعرة صعبة، ولذا استغرق حصار المسلمين لها آخر الصيف والشتاء التالي له دون أن يسيطروا عليها، ودار حولها قتال عنيف سقط فيه كثير من الضحايا، فقد أعدّ موسى بن نصير كمائن كثيرة أخفاها في جهات صخرية مواجهة للمدينة، أنزلت ضربات قاصمة بالقوط كلما رغبوا في الخروج إلى معقلهم، وقتل كثير من المسلمين أيضا في محاولاتهم ثقب سور المدينة (1).

ولم يستقرّ الأمر لموسى في ماردة إلا بعد جهد شاق بذل فيه الكثير من الوعود لأهلها الذين سلموا بعدها في شوال عام 94هـ (يونيو 713م) (2).

وبعد أن غادر موسى بن نصير مدينة إشبيلية وبدأ حصار ماردة جمع القوط فلولهم في المدن المجاورة وفاجؤوا الحامية الإسلامية في إشبيلية وقتلوا منها ثمانين فردا، وأجبروا الباقين على الخروج من المدينة، وأثر موسى بن نصير الاستمرار في حصار ماردة حتى استولى عليها، ثم بعث بابنه عبد العزيز إلى إشبيلية لطرده القوط منها (3).

واختار موسى بن نصير بعد ذلك للمدن التي استولى عليها نفرا من خيرة قادته ممن اشتهروا باليقظة والبطولة.

* * *

مقتل لوزريق

واضطر موسى بن نصير أمام تلك المقاومة العنيفة التي لقيها جيشه إلى أن يريح جنده في مدينة ماردة مدة شهر تقريبا قبل أن يستأنف السير إلى طليطلة لمقابلة طارق، وأدرك موسى بن نصير أن القوط يهدفون إلى الهجوم على المدن التي يستولي عليها؛ من أجل دفع طارق بن زياد إلى مغادرة طليطلة لنجدة موسى بن نصير ثم يستردون مدينة طليطلة في غيبة القوات الإسلامية عنها، ولذا عمد موسى إلى تشتيت خطة القوط بأن يظلّ يقاومهم أطول فترة ممكنة دون أن يطلب إلى طارق

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 20، المقرئ، نفح الطيب، 1 / 252، ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 9.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 21 وما بعدها، المقرئ، نفح الطيب، 1 / 253.

(3) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص 97.

مساعدته.

ولكن ما كاد موسى يغادر مدينة ماردة حتى جاءته الأخبار أن لوزريق نفسه - ملك القوط الذي فرّ بعد معركة وادي بكة - بدأ ينظم فلول جيشه ويجمع أتباعه استعداداً للهجوم على المسلمين مرة أخرى، ثم إن لوزريق بعد أن أثر البقاء ساكناً ليضرب ضربته الأخيرة في عنف وشدة، اختار قوات موسى بن نصير لتكون هدفه ليهدم بذلك خطط الفتوح الإسلامية كلها في الأندلس مرة أخرى، واتخذ لوزريق مركز مقاومته في شعاب الهضاب التي تلي وادي أنه إلى الشمال في جبال سيرا دفرانشيا على أبواب قشتالة واستراما دورة في السهل المنبسط الذي يحيط بمدينة سلمنقة.

وأجاد لوزريق إخفاء قواته في تلك الجهة الوعرة حتى إن موسى بن نصير اضطرّ أن يتخلى عن خطته، وأن يطلب من طارق بن زياد الخروج من طليطلة وأن يلقاه في منتصف الطريق بين تلك العاصمة وماردة؛ لينقذ المسلمين إذا ما دهمهم خطر مفاجئ.

وسار طارق نحو مائة وخمسين ميلاً، واتخذ مكانه في الجهات المعروفة باسم العرض بين التاجة ونهر التتار، وسار موسى بن نصير مع قواته في طريق روماني قديم يصل ماردة وسلمنقة، وبجوار نهر حمل اسمه فيما بعد، وهو نهر (فاموتا) أي نهر موسى، وذلك بعد أن اتخذ كل الاحتياطات حتى لا يؤخذ على غرة.

ولما وصلت القوات الإسلامية إلى منتصف الطريق السالف الذكر اعتقد لوزريق أن الوقت قد حان ليضرب ضربته الأخيرة، وأن المسلمين لن يجدوا من ينقذهم أو يبادر إلى مساعدتهم، وعند ناحية اسمها السواقي على مقربة من ثامس شَنّ لوزريق هجومه دون أن يدري أن موسى بن نصير قد اتخذ كل الوسائل ليحمي قواته ويجنبها الأخطار، ولذا صمد المسلمون لهجوم القوط وأنزلوا بهم خسائر فادحة، وقتلوا كثيراً منهم من بينهم لوزريق نفسه الذي قتله مروان بن موسى بن نصير، وصار الطريق إلى طليطلة مفتوحاً أمام موسى بن نصير فسار حيث التقى بطارق بن زياد وقواته التي كانت قد غادرت تلك المدينة في سبيلها إلى مقابله في عرض الطريق (1).

(1) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 10، المقرئ، فح الطيب، 1 / 253 - 255، حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص 98، السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص 98، 99.

استعادة طليطلة

ولما كان هجوم لوزريق على قوات موسى بن نصير شعبة من مؤامرة مزدوجة استهدف طرفها الثاني السيطرة على طليطلة وانتزاعها من المسلمين إذا ما خرج طارق منها لنجدة إخوانه؛ فإن جماعات من القوط انتهزت خلوّ العاصمة من الحامية الإسلامية واستولت عليها إكمالا لحققة المقاومة ضدّ المسلمين، غير أن القوات الإسلامية المشتركة بقيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد تمكّنت من هزيمة القوط والسيطرة على طليطلة مرة ثانية، وأقام بها موسى طوال الشتاء من سنة 94 هـ. يدبر أمرها ثم ضرب عملة ذهبية وأخري برونزية لصرف رواتب الجند وذلك في دار السكة القوطية في طليطلة ويعتبر سكّ هذه العملة الذهبية دلالة على سيطرة موسى بن نصير على الأوضاع في تلك البلاد الأوربية الجديدة، وعلى مهارته الفائقة في بناء إدارة عربية مستقرة الأركان في أسبانيا منذ الأيام الأولى للفتح الإسلامي بها، وكانت هذه العملة الذهبية على غرار العملة التي سكّها موسى بن نصير في بلاد المغرب؛ فكان على وجه هذه العملة اسم (محمد رسول الله)، وعلى الوجه الآخر نجمة ذات ثمانية أذرع، وإلى جانب ذلك أمر موسى بن نصير بضرب عملة برنزية صغيرة لمساعدة الناس في تسهيل عملياتهم اليومية، ثم بعث موسى رسولين من قبله إلى الوليد يخبرانه بالفتح هما: مغيث الرومي، وعلي ابن رباح التابعي (1).

وبذلك انتهت مقاومة لوزريق وجنده بمجيء قوات موسى بن نصير على عجل، ولولا ذلك لانهارت أعمال طارق وأصيب جنده بكارثة مروعة.

وبعد أن أتمّ موسى بن نصير تنظيماته الإدارية استأنف الجهاد، واتفق مع طارق بن زياد على الزحف معا نحو الشمال الشرقي لفتح حوض نهر الإبرو وما فيه من مدن، واشترك طارق مع موسى في هذه الحملة لأن المقاومة الشديدة التي سبق أن أظهرها القوط حملت القيادة الإسلامية على جمع جهودها وتسيق أعمالها بما يجنب المسلمين الأخطار مرة أخرى.

(1) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص 126، ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، ص 102، السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص 99 - 100.

واستقر رأي كل من طارق بن زياد وموسى بن نصير على القيام بمسح شامل لسائر الأراضي الأسبانية التي لم تفتح بعد، ونشر الإسلام بين ربوعها، وتطهيرها تطهيراً شاملاً من جيوب القوط وفلولهم، وأثبت موسى بن نصير بذلك أنه ما زال يولي طارق بن زياد ثقته المطلقة.

وقصدت القوات الإسلامية بقيادة موسى بن نصير مدينة سرقسطة، واقتربت منها على حين غفلة من أهلها، وأراد أسقف المدينة ومن معه من الرهبان جمع دخائرهم وكتبهم المقدسة والفرار بها، غير أن موسى بن نصير بعث إليهم رسولا من قبله أزال مخاوفهم وأعطاهم العهود والمواثيق بالأمان، وبذلك استولى المسلمون على المدينة دون قتال، وشيّدوا بها مسجدا صار فيما بعد أحد المراكز الكبرى لنشر الدين الإسلامي وحضارته في أسبانيا، وقام ببناء هذا المسجد أحد التابعين في جيش موسى بن نصير وهو حنش بن عبد الله السبئي الصنعاني⁽¹⁾.

* * *

الزحف شمالا نحو البرانس

وتابع موسى زحفه بعد ذلك، واستولى على كثير من المدن الهامة في تلك الجهات، وظلّت القوات الإسلامية تتابع زحفها حتى بلغت مشارف جبال الأبرت (البرانس)، وشاهد المسلمون سكان تلك الجبال من القبائل البسقاوية (البشكنس)، واستمعوا إلى لغتهم الغريبة التركيب والأصوات حيث كانوا يتحدثون بلغة لاتينية أخرى لا يفهمها الأسبان الآخرون الملازمون لموسي (وهم أدلاء يوليان)، فزهد المسلمون في هذه البلاد التي يسكنها قوم علي حد قول ابن عذاري "كالبهائم"⁽²⁾. وقيـل إن موسى

لما أوغل، وجاوز سرقسطة اشتد علي الناس ذلك، فقالوا: أين تذهب بنا حسبنا ما قد ملكنا بأيدينا؟ إلى أين تريد أن تمضي؟ إلى أين تسير بك همتك العظيمة وروحك المجاهدة؟ حتى قال له حنش الصنعاني: أين تمضي فتهلك القوم والناس؟ فقال - رحمه الله - مقالة مشهورة نسبت له، والتصقت بسيرته في التاريخ قال: " والله

(1) المقرئ، نفح الطيب، 4 / 6، الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص 97.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 24، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص 133.

لو انقادوا إلى لقدتهم إلى رومية ولفتحها الله على يدي إن شاء الله“ (1).

وفي الوقت الذي كان فيه موسى بن نصير يبذل كل ما لديه من جهد لتأمين ممتلكات المسلمين شمالي مدينة سرقسطة جاءه مندوب الخلافة وهو مغيث الرومي، ومعه أمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك لكل من موسى بن نصير وطارق بن زياد بالمجيء إلى البلاط ومقابلته شخصيا في دمشق، ورأى موسى بحنكته الحربية ومقدرته السياسية أن هذا الاستدعاء جاء في وقت غير مناسب؛ لأن مطاردة القوط لم تنته بعد، كما أن فتح البلاد يتطلب السيطرة على المعازل الشمالية الجبلية وكان شديد الحرص على اقتحامها والسيطرة عليها، أضف إلى ذلك أن موسى أحس أن أمرا قد دبّر له في دمشق، ويحتمل أن هذا التدبير هو السرّ في استدعائه إلى عاصمة الخلافة (2)، ولذلك ألحّ على مغيث الرومي وادّعى في أن يؤجل تنفيذ طلب الاستدعاء حتى ينتهي من العمليات الحربية، ومنحه قصرا في قرطبة يقيم فيه ريثما يفرغ المسلمون من مهمّتهم وعرض عليه أن يكون شريكه في الأجر والغنيمة (3).

وتقدّم موسى بقواته نحو مدينة قشتالة؛ لأنها تعتبر المركز المباشر الذي يمكن أن يهدّد منه القوط مدينة طليطلة وغيرها من البلاد الإسلامية، ثم إن اقترابها من الجهات الجبلية الوعرة يساعد من يتحصن بها على أن يبقى على المقاومة زمنا طويلا، ولذا قدّم موسى ابن نصير قواته قسمين عهد بواحد منهما إلى طارق بن زياد وجعل مهمته السير غربا، على حين قاد هو الشطر الثاني واتجه في البلاد شرقا.

وقصد طارق بن زياد إلى جبال كنتبرية، وأخضع جماعات البسقاوية غربي نهر الأبرو، ودخل كثير من سكان تلك الجهات في الإسلام على يد طارق بن زياد، وصاروا يكونون نواة كثير من الأسر الأندلسية الإسلامية التي قدّر لها أن تمثل دورا هاما في تاريخ البلاد فيما بعد. وفي الوقت نفسه سار موسى بن نصير على الضفة الشرقية لنهر إبرو في إقليم قشتالة، ورحّب به زعماء البلاد كذلك، ودخلوا في طاعة المسلمين، غير أن نفرا من فلول القوط آثروا الفرار أمام الزحف الإسلامي إلى المناطق الجبلية الساحلية الشمالية، واعتصموا بمكان اسمه الصخرة، فطارده موسى تلك الفلول حتى بلغ خيخوت، وجعل منها حصنا يحمي ما تم على يديه من فتوح في تلك الجهات القاصية، وصارت تلك الجهات أقصى ما وصل إليه المسلمون في

(1) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص 137.

(2) المقرئ، نفح الطيب، 1 / 258.

(3) المقرئ، نفح الطيب، 1 / 258.

منطقة اشتريس، حيث بدأ موسى بن نصير يعد العدة للعودة من تلك البلاد النائية. وتم في ذلك الوقت أيضا إخضاع المنطقة الساحلية بين مالقة وبلنسية، وإخماد الفتن التي حاول القوط القيام بها، وقام بهذه المهمة عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي اشترك مع والده في إكمال الفتوح الإسلامية في أسبانيا، وسار هذا القائد على نهج والده في معاملة أهالي البلاد المفتوحة بالرفق والتسامح والعدل في فرض الضرائب، ومن ذلك ما حدث حين زحف عبد العزيز بن موسى على مالقة ثم غرناطة ثم أريولة، وهي كلها سلمت دون قتال (1).

* * *

ارتياح أهالي الأندلس للحكم الإسلامي

وقد شعر أهالي الأندلس مع امتداد الفتح الإسلامي طلائع المساواة، وخاصة في الضرائب، وهو أمر لم يألفوه منذ زمن طويل، هذا إلى احترام حرية العقيدة وإزالة الاضطهاد الديني، وردد كثير من الباحثين في التاريخ الأوربي المظاهر الجديدة التي سادت الشطر العربي من أوربا في بلاد أسبانيا عقب الفتح الإسلامي، وسجلت بهذا الدين الحذيف مظاهر الحياة الجديدة التي نفحها في تلك البلاد، وذكروا أن الفتح العربي كان من بعض الوجوه نعمة لأسبانيا، فقد أحدث فيها ثورة اجتماعية هامة، وقضى على كثير من الأدواء التي كانت تعانيها البلاد منذ قرون، وتحطمت سلطة الأشراف والطبقات الممتازة أو كادت تمحى، ووزعت الأراضي توزيعا عادلا؛ فكان ذلك حسنة سابعة وعاملا في ازدهار الزراعة إبان الحكم الإسلامي، ثم كان الفتح عاملا في تحسين أحوال الطبقات المستعبدة؛ إذ كان الإسلام أكثر معاضدة لتحرير الرقيق من النصرانية كما فهمها أحبار المملكة القوطية، وكذلك تحسنت أحوال أرقاء الضياع؛ إذ غدوا من الزرع وتمتعوا بشيء من الاستقلال والحرية.

وكان موسى بن نصير حريصا على أن يظل المسلمون العاملون تحت رايته - سواء من العرب أو البربر - مثلا أعلى أمام شعب أسبانيا؛ فلم يترفع أولئك الفاتحون المسلمون على أبناء البلاد، وإنما امتزجوا معهم وصاهروهم وشاركوهم أيضا في مباهاج البلاد ومسرّاتها؛ يطلبون العيش في سلام جذبا إلى جنب مع أهلها، وكان شعب أسبانيا من العنصر الأيبيري المسالم المحبّ لدسن العشرة، ومن ثم أنس إلى

(1) المقري، نفح الطيب، 1 / 258 - 259، ابن القوطية، تاريخ إفتتاح الأندلس، ص 10، ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 24، السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص 104 - 105.

الفاطحين الجدد سواء من العرب أو البربر، وأقبل عليهم طواعية لا عن ضغط وإرهاب، ووجد فيهم محرّرين من بطش القوط وظلمهم الفاحش، ولم يحاول الفاتحون إدخال أبناء الشعب قسرا في الدين الإسلامي، وإنما حرصوا أولا على بيان فضائل هذا الدين حتى يتنبّه الناس ويدخلوا في رحابه إيمانا بأركانه وقوا عده. ثم إن موسى بن نصير عمد إلى تنظيم الأحوال المالية للبلاد حتى يجنبها الاضطرابات ويهيئ لها أسباب الاستقرار، وقد طبق على أسبانيا القواعد التي اتبعها المسلمون الفاتحون في شتى الجهات التي استولوا عليها، فالأراضي التي فتحت عنوة قسمت بين الفاتحين بعد أخذ الخمس لبيت المال.

أما الجهات التي فتحت صلحا فتركت بيد أصحابها مقابل دفع العشر من نتاجها، ولا شك أن هذا التنظيم المالي لم يكن عملا هينا بالنسبة لموسى بن نصير، وبخاصة في تلك الجهات من غرب أوروبا التي لم تعرف منذ زمن بعيد لونا من ألوان الإدارة العادلة؛ فالمعروف أن القوط كانوا يستبيحون لأنفسهم ثروات البلاد ويعتبرون السكان أقنانا يعملون في الأرض، ولا همّ لهم إلا إنتاج ما يحتاج إليه سادتهم من القوط، ولذا جاءت تنظيمات موسى بن نصير في أسبانيا وسيلة جيدة لخلق الامتزاج السليم بين الفاتحين وأهل البلاد الأصليين؛ فالأراضي المنبسطة في الجنوب - أي جنوب الوادي الكبير - اعتبرها موسى بن نصير أرضا مفتوحة عنوة؛ فقد تم الاستيلاء عليها بعد معارك عنيفة ضد لوزريق، وقسم موسى أربعة أخماس هذه الأراضي إلى قطاعات بين الفاتحين.

على حين بقي الخمس ملكا للدولة، أما بقية أرض الأندلس فقد اعتبرت أرض صلح وهي الأراضي الواقعة شمال نهر الوادي الكبير من شبه جزيرة أيبيريا، فأخذ كل ناحية لأنفسهم عهدا، وهذا العهد يقرر ما عليهم من مال للدولة، وبذلك سار الاستقرار في بلاد أسبانيا سريعا حيث سار موسى بن نصير، وبدأ العرب والبربر ينتشرون في شتى الجهات في طمأنينة وسلام، واستقر العرب دائما في المناطق المنبسطة والمنخفضات، أي في النواحي الدافئة قليلة المطر في الجنوب والشرق والغرب وفي ناحية سرقسطة، أما البربر فاخترتوا المناطق الجبلية التي سبق أن ألفوا مثلها في وطنهم ببلاد المغرب، بينما نزل العرب في المناطق الواطئة بجنوب أسبانيا مثل شذونه واستجة، فضّل البربر منطقة رنده الجبلية واختاروها سكنا لهم، ونزل بعض البربر في مناطق متفرقة كذلك أو في بعض الهضاب حسبما راق لهم ذلك، واستطاع كل من العرب والبربر الامتزاج بأهالي البلاد الأصليين وارتبطوا معهم

برباط الزواج.

وكان للبربر خاصة أثر عظيم جدًا في انتشار الإسلام في الأندلس بسبب قرب مزاجهم وطباعهم من أولئك السكان، هذا إلى أن البربر بسبب حداثة عهدهم بالإسلام كانوا شديدي الحماسة للدين الجديد لأنه صار رمز سيادتهم وعزّهم، وحرص موسى ابن نصير على ترك حاميات من جيشه في المدن التي فتحها، وهذا هو الأمر الذي جعل معظم أرجاء أسبانيا تعمر بالفاثحين الجدد وتمهد أسبانيا في سرعة ويسر لاعتناق الدين الإسلامي الحنيف.

واستطاعت الإدارة الإسلامية التي شيدّها موسى بن نصير أن تضع الحجر الأساسي لبناء الحضارة الإسلامية في أسبانيا، وجعلت من تلك البلاد أعظم مركز للإشعاع الحضاري في أوروبا في العصور الوسطى، ومن ثم أخذت أسبانيا تخطو سريعاً في مضمار الازدهار العلمي وتدخل سجل التاريخ باعتبارها الشريان الذي نقل إلى أوروبا ثمار الحضارة الإسلامية ومعارفهم، وهياً لسكان غرب أوروبا السبيل للخروج من جهالة العصور الوسطى إلى نور الإسلام وضوء الحضارة الإسلامية الساطع.

وقد استغرق الفتح الإسلامي لأسبانيا ثلاث سنوات وبضعة شهور؛ إذ بدأ الفتح الإسلامي لأسبانيا في رجب عام 92هـ وتم في ذي القعدة عام 95هـ.

ويلاحظ أن العرب أطلقوا اسم الأندلس على المناطق التي كانوا يسيطرون عليها من شبه جزيرة أيبيريا، ولا زال اسم الأندلس يطلق على الجزء الجنوبي منها.

* * *

موسى وطارق يقابلان الوليد في عاصمة الأمويين

سبق أن ذكرنا أن الخليفة الوليد بن عبد الملك استدعى كلا من موسى بن نصير وطارق بن زياد لمقابلته شخصياً في دمشق، وأن موسى بن نصير أجلّ تنفيذ هذا الطلب حتى ينتهي من عملياته الحربية، وبعد أن فرغ موسى بن نصير من إتمام الفتح اختار مدينة أشبيلية حاضرة للبلاد وعيّن ولده عبد العزيز والياً على الأندلس، واستخلف على المغرب الأقصى ابنه عبد الملك، كما استخلف على إفريقية ابنه عبد الله، ثم غادر موسى بن نصير الأندلس وبصحبته طارق بن زياد وكبار الجند في ذي القعدة عام 95هـ (714م)، ويقال إن يوليان كان معهم.

وكان موكب موسى بن نصير إلى دمشق من الموضوعات التي أفاض في

وصفها الرواة والإخباريون العرب، ونقلها المؤرخون مثل ابن عبد الحكم وابن قتيبة وابن القوطية والمراكشي وابن عذارى وابن خلكان والمقري وابن الأثير، ويقال: إن موكب موسى بن نصير اشتمل فيما عدا حاشيته الخاصة على أربعمئة من أفراد الأسرة القوطية المالكة وأسر النبلاء؛ تزين رؤوسهم التيجان وتطوق أوساطهم الأحزمة الذهبية، ومعهم جموع من العبيد والأسرى يحملون نفائس الغنائم (1).

وعندما اقترب موسى من دمشق وصلته رسالتان كان لهما أكبر الأثر في اختتام حياته فيما بعد، أما الرسالة الأولى فكانت من ولي العهد سليمان بن عبد الملك يطلب فيها من موسى بن نصير أن يبسط في الحضور إلى دمشق لأن الخليفة الوليد بن عبد الملك مريض مرض الموت وفي أيامه الأخيرة، وبذلك يحظى سليمان عندما يعتلي العرش باستقبال أعظم موكب للنصر عرفه الإسلام، ولكن موسى بن نصير رفض الاستجابة لهذا الطلب وتابع سيره إلى دمشق، وبعد ذلك بقليل تسلم الرسالة الثانية وكانت من عند الخليفة الوليد نفسه يأمره فيها بالإسراع بالحضور إلى دمشق حتى لا تحرمه المنية من شرف مشاهدة موكب النصر القادم على عاصمة الخلافة، وليتوج أيامه الأخيرة بهذا النصر المظفر (2).

ودخل موسى بن نصير مدينة دمشق في السادس والعشرين من يناير عام 715م جمادى الأولى عام 96هـ، أي قبل وفاة الخليفة الوليد بأربعين يوماً، وحرص موسى على أن يشرف بنفسه على طريقة سير الموكب وارتداء المشتركين فيه بثيابهم وبطريقة عرض الكنوز والغنائم، وأمر موسى بالأموال والجواهر واللؤلؤ والياقوت والزبرجد والجزع والوطاء والكساء المنسوج بالذهب والفضة المحرشة باللؤلؤ والياقوت والزبرجد وضمّمها إلى موكب النصر مع رجاله بأرديتهم الجميلة الزاهية، ثم أقبل موسى بالذين ألبسهم التيجان حتى دخل مسجد دمشق والوليد على المنبر يحمد الله، وكان الخليفة يعاني في تلك الأيام من وطأة المرض ومع ذلك أبى إلا أن يخرج إلى المسجد متحملاً لأجل قدوم موسى بن نصير، ولما رأى الخليفة هذا الموكب استولت عليه الدهشة والعجب الشديد وصاح الحاضرون من الناس: موسى موسى!، وأقبل هذا القائد المظفر حتى سلّم على الخليفة ووقف ثلاثون رجلاً من أصحاب التيجان في موكب النصر عن يمين المنبر وشماله، على حين وقف أمام الخليفة سائر

(1) ابن عذارى، البيان المغرب، 2 / 30، المقري، نفح الطيب، 1 / 262.

(2) المقري، نفح الطيب، 1 / 262.

أفراد الموكب ومراكب الغنائم المقامة على عجل، وهزّ هذا المنظر الباهر قلوب الحاضرين ومشاعرهم كما أثار ذكرياتهم عن فتوح المسلمين الكبرى، وقالوا: إن الدولة الإسلامية لم تشهد منذ فتح فارس مثل هذا الموكب الرائع، ومثل تلك الغنائم الوفرة، وأخذ الخليفة يلقي خطبته في هذا المشهد الحافل وأكثر فيه الحمد لله والثناء عليه والشكر لما أيده الله ونصره، وأذهل موسى الناس بما أتى به من الخيرات والغنائم والأسرى، وكان موكب النصر هذا موكبا مشهودا؛ إذ لم ير الناس من قبل مثل هذا العدد من أمراء الغرب والأسرى الأوربيين، وقد جاؤوا يقدمون الولاء والطاعة لأمر المؤمنين.

وكان من أبرز ما قدّمه موسى بن نصير إلى الخليفة الوليد من الغنائم التذكارية النفيسة مائدة تفوق قيمتها كل تقدير، كان طارق بن زياد قد غنمها من كاتدرائية طليطلة، وكان القوط قد تفننوا في صنعها فندسها العرب إلى سليمان بن داود، وإنما أطلق عليها هذا الاسم كناية عن قدمها وعظم شأنها.

واختلفت الروايات كذلك في وصف هذه المائدة وبيان هيئتها وسبب وجودها، فذكرت إحدى الروايات أن الأغنياء والموسرين من القوط دأبوا أن يوصلوا للكنائس بقدر معلوم من ثرواتهم عند الوفاة وكلما تجمع المال الوفير بين المشرفين على تلك الكنائس أمروا بصناعة موائد وكراسي من الذهب والفضة تضع القساوسة عليها الأناجيل في أيام الاحتفالات من أجل المباهاة والتفاخر، ونالت كنيسة طليطلة قدرا كبيرا من مال الوصايا، وخاصة أنها كانت مقرّ البيت المالك، ولذا تأنق الملوك في عمل مائدة لهذه الكنيسة فاقت كل الموائد في سائر أسبانيا؛ إذ حرص كل ملك على أن يزيد في مائدة كنيسة طليطلة إعلاء لذكره وتباهيا بعاصمة ملكه حتى صار لها مركز الصدارة في جميع البلاد وتحدث الجميع بجمالها وعلو قيمتها، فكانت مصنوعة من الذهب الخالص مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزبرجد.

ومهما يكن من أمر تلك الروايات فمما لا شك فيه أنها أجمعت على شيء واحد هو عظمة هذا الكنز الثمين الذي فاقت أخباره ما عداه في كنوز وجدها الفاتحون في سائر مدن الأندلس، ويرجح أن هذه المائدة كانت مذبح الكنيسة الجامعة في طليطلة، وأنها كانت على درجة خيالية من الجمال حتى تليق بعاصمة القوط، ولتكون رمزا على ثراء دولتهم وغناها الوافر.

وكان مما قدّم للخليفة الدر والياقوت أكبالا والسيوف المحلاة بالجواهر والنتيجان الذهبية المرصعة بالحجارة الثمينة وأنية الذهب والفضة، وغير ذلك مما لا يحيط به

وصف.

وقد أغدق الخليفة الخلع على موسى ثلاث مرات تشريفاً له، كما أغدق المنح لآل بيته، ولما انتهت الخليفة من منح موسى براءات الشرف والتكريم استأذن منه هذا القائد العظيم في تقديم المشتركين معه في موكب النصر فأدخل عليه موسى ملوك البربر وملوك الروم وملوك الأسبان وملوك الفرنجة، ثم أدخل عليه رؤوس البلاد ممن كان معه من قريش والعرب؛ فأحسن الخليفة لهم العطايا والمنح (1).

* * *

سبب رجوع موسى إلى عاصمة الخلافة دمشق

ومن الأسباب التي ذكرت في سبب استدعاء موسى إلى دمشق تخوف الوليد على المسلمين أن يكونوا في أرض منقطعة، ومحاطة بمناطق غير إسلامية وعلى اتصال بها، هي أقرب إليها من العالم الإسلامي أو مراكز ارتباطه واستمداده وهو الذي رأيناه عارض فتح الأندلس خوفاً على المسلمين أن يخوضوا المخاطر ويركبوا المهالك حتى بين له موسى ألا داعي للخوف، ويرى الكثير من المؤرخين أن موسى بن نصير لم يكن يعتزم التوقف في فتوحاته عند هذا الحد وإنما كان يخطط لعبور جبال البرانس واجتياح أوربا كلها والوصول إلى القسطنطينية وفتحها من جهة الغرب لولا أن استدعاه الخليفة الوليد إلى دمشق وأمره بالتوقف بالفتح عند هذا الحد، ويؤكد المؤرخون أنه لو قد قدر لموسى بن نصير أن يمضي قدماً في مشروعه هذا لتغير شكل النظام الدولي تماماً ولقضى على القوى غير الإسلامية، ذلك أنهم باستقراءهم النظام الدولي وقتئذ فإنهم يؤكدون أن احتمالات نجاح مشروعه هذا كانت عالية جداً، إذا لم تكن الظروف مواتية لنجاحه مثلما كانت مواتية وقتها، فمملكة الفرنجة كانت مشغولة وقتها بصراعاتها مع الممالك الأخرى ولم يكن هناك كيان سياسي واحد في أوربا كلها يعادل قوة الدولة الإسلامية أو حتى بدايتها، ويشير هؤلاء المؤرخون إلى أنه لما قدر للمسلمين في هذه المنطقة قائد كفء بعد عشرين عاماً من ضياع هذه الفرصة كانت الظروف الدولية قد تغيرت لغير صالح المسلمين، فلما حاول هذا القائد إحياء مشروع موسى بن نصير هزم هزيمة ضخمة تدخل في تاريخ العلاقات الدولية بوصفها نقطة تحول وهي معركة بلاط الشهداء، وقد تكرست الآثار

السلبية لعدم استكمال موسى بن نصير لمشروعه بفشل حصار المسلمين للقسطنطينية بعد ذلك بسنوات قليلة وهو ما أغلق أوربا أمام المسلمين من الشرق بعد أن كانت قد أغلقت أمامهم من الغرب (1).

ولقد فشل المحللون في تفسير سبب استدعاء الخليفة الوليد لموسى بن نصير، فبعضهم قائل إنه أشفق على المسلمين من مخاطر هذا المشروع البحري، وبعضهم الآخر يؤكد أن الخليفة إنما خاف على سلطانه من تصاعد نفوذ وقوة موسى بن نصير وسواء صحت هذه التفسيرات أو أخطأت، فإن ما حدث بالفعل بعد استدعاء موسى بن نصير إلى دمشق، هو تفويض هدف مصيري للأمة أضاعت فيه فرصة ثمينة في فتح أوربا وجعلها تحت نفوذ الدولة الإسلامية (2).

* * *

خاتمة موسى بن نصير وطارق بن زياد رحمهما الله تعالى

... تخبط الروايات في الحديث عن نهاية موسى وما لقيه من الخليفة سليمان من الأذى والغمط والكران وفي هذه الروايات غموض وتشويش وتناقض ومبالغات كبيرة، والصحيح أن سليمان كان عاتباً على موسى، لأمر لا نستطيع تحديده على وجه الدقة ثم رضي عنه سليمان وقربه منه وأصبح من خاصته ولا يمكننا أن نصدق أن يعاقب سليمان تابعياً جليلاً كموسي بن نصير، أسس ملكاً من عدمه، وقضي سني حياته مجاهداً في سبيل الله، لمجرد قالة ظالمة أو وشاية في حقه، ولو كان سليمان فعل ذلك لكان أولى به أن يعاقبه بعزل أبنائه الثلاثة عن المغرب والأندلس، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث، بل إن سليمان بن عبد الملك كان يصطحب موسى بن نصير معه في نزحاته (3)، وكانت بينه وبين سليمان محاورات وتساؤلات فقد قال له سليمان يوماً: ما كنت تفزع إليه عند الحرب؟ قال الدعاء والصدّ، قال: فأبي الخيل رأيت أصبر؟ قال: الشُّقْر، قال: فأبي الأمام أشدُّ قتالاً؟ قال: هم أكثر من أن أصف، قال: قال: فأخبرني عن الرُّوم، قال: أسدُّ في حصونهم عقبان على خيولهم، نساء في مراكبهم، إن رأوا فرصة انتهزوها، وإن رأوا غلبة، فأوعال تذهب في الجبال، لا يرون الهزيمة عاراً. قال: فالبربر؟ قال: هم أشبه العجم بالعرب لقاء ونجدة وصبراً

(1) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس (54/1) الصلابي، عمر بن عبد العزيز - (3 / 159).

(2) الصلابي، عمر بن عبد العزيز، (3 / 161).

(3) ابن قتيبة الدينوري، المعارف، ص 178، السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص 107.

وفروسية، غير أنهم أغدر الناس قال: فأهل الأندلس؟ قال: ملوك مترفون وفرسان لا يجبنون، قال: فالفرنج؟ قال: هناك العدد والجلد والشدة والبأس، قال: فكيف كانت الحرب بينكم وبينهم؟ قال: أمّا وهذا فوالله ما هُزمت لي راية قط ولا بُدّد لي جمع، ولا نُكبت المسلمون معي منذ اقتحمت الأربعين إلى أن بلغت الثمانين، ولقد بعثت إلى الوليد بتور (1) زبرجد كان يجعل فيه اللبّن حتى ترى فيه الشعرة البيضاء ثم أخذ يُعَدّد ما أصاب من الجواهر والزبرجد حتى تحير سليمان، وقد وصف الذهبي موسى بن نصر بقوله: الأمير الكبير، أبو عبد الرحمن اللخمي، متولي إقليم المغرب، وفتح الأندلس، قيل: كان مولى امرأة من لخم، وقيل: ولاؤه لبني أمية. وكان أعرج مهيباً ذا رأي وحزم، وكان من اصحاب الهمم الكبيرة فقد قال مرّة: والله لو انقاد الناس لي، لقدتهم حتى أوقعهم على رومية ثم ليفتحها الله على يدي، وكان موسى بن نصير بوسعه أن يستقل على الخلافة ويقيم ملكاً له ولأولاده في المغرب والأندلس، ولكن إيمانه العميق بتعاليم الإسلام وتمسكه والتزامه بها جعله لا يفكر بذلك حتى إن يزيد بن المهلب ابن أبي صفرة سأله عن ذلك فقال موسى: والله لو أردت ذلك ما نالوا من أطرافي طرفاً، ولكني أثرت الله ورسوله، ولم نر الخروج عن الطاعة والجماعة (2).

وقد توفي موسى بن نصير رحمه الله تعالى وهو متجه للحج برفقة الخليفة سليمان بن عبد الملك في المدينة المنورة - على سكانها أفضل الصلاة والسلام - أو في وادي القرى (العُلا، حالياً) أواخر سنة 97هـ وعمره ثمان وسبعون سنة أو يزيد (في سنة 97هـ)، وقال صاحب معالم الإيمان: توفي بالمدينة متوجهاً إلى الحج وكان قد سأل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة أو يموت بالمدينة فأجاب الله دعاءه، وصلى عليه مسلمة بن عبد الملك (3).

لقد كانت الدنيا وما فيها صغيرة ولا قيمة لها عند موسى بن نصير ويرجع الفضل في ذلك إلى الله ثم نصيحة العالم الجليل أبو عبد الله علي بن رباح اللخمي لموسى بن نصير، فقد أورد صاحب كتاب رياض النفوس أن موسى بن نصير لما وصل من الأندلس إلى القيروان قعد يوماً في مجلسه، فجاءه العرب يسلمون عليه، فلما احتفل المجلس قال: إنه قد صحبتني ثلاث نعم: أمّا واحدة فإن أمير المؤمنين كتب إلى يهنئني في كتابه وأمر بقراءة الكتاب، فهنيء بذلك وأمّا الثانية فإن كتاب ابني قدم

(1) التور: الإناء.

(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، (499/4).

(3) المقرئ، نفح الطيب، (11/4)، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص 184.

علي بأنه فتح له بالأندلس فتح عظيم، وأمر بالكتاب فقرأ فهنئ بذلك، وكان علي بن رباح ساكت فقال له موسى: مالك يا علي لا تتكلم؟ فقال: أصلى الله الأمير، قد قال القوم فقال: وقل أنت أيضاً. فقال: أنا أقول - وأنا أنصح القائلين لك - إنه ما من دار امتلأت حبرة إلا امتلأت عبرة، وما انتهى شيء إلا رجع، فارجع قبل أن يرجع بك، فانكسر موسى ابن نصير وخشع وفرق جواري عدة. وقال صاحب الرياض: ونفعه الله عز وجل بموعظة أبي عبد الله بن رباح، فصغرت عنده الدنيا وما فيها ونبذها وانخلع مما كان فيه من الإمارة، فرضي الله عن التابعي الجليل، والإداري الحازم، والبطل المغوار، والقوي الأمين، القائد الفاتح، موسى بن نصير اللخمي الذي فتح المغرب الأقصى، واستعاد فتح المغرب الأوسط، وأنه دعم الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي وأنه فتح الأندلس وقسماً من جنوب فرنسا وأنه كان من أعظم قادة الفتح الإسلامي، لقد مات موسى بن نصير بعد أن ملأ جهاده - بقيادة المد الإسلامي المبارك - وديان المغرب الإسلامي (الشمال الإفريقي والأندلسي) وجباله وسهوله وهضابه ووجه دعاة الحق لإسماع ساكنيه دعوة الإسلام الخالدة، فكانت سبباً في إخراجهم من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، أما ترى معي موسى وهو يجوب الصحاري والوديان والسهول والجبال وقد سلخ من سني عمره خمساً وسبعين سنة ممتطياً جواده يتحرك في أعماقه إيمان بالله العلي القدير قد دفعه للجهاد والدعوة والعلم والتربية وأحكام أمور الدولة رغم ما علا رأسه من الشيب الوقور، منقاد لإصرار العقيدة السمحة، وهمة الإيمان الفتي، التي كانت سبباً في كل خير أصاب المسلمين (1).

... أما عن البطل الكبير طارق بن زياد، فلا نكاد نعرف عما حدث له بعد وصوله دمشق غير أن رواية تذكر رغبة سليمان في تولية طارق الأندلس، وبعد ذلك قضى آخر أيامه مغموراً، فهل عاد إلى المغرب والأندلس أم بقي في دمشق؟ ولا يستبعد أن يكون عاد إلى الأندلس أو المغرب (2)، كان طارق من البربر وعامة جنوده كذلك، فيهم شجاعة وإقدام، فقد تربوا في أحضان الإسلام وعلى تعاليم القرآن الكريم وأصبحوا أصحاب رسالة خالدة صنعت منهم الأبطال، وقدموا في سبيل دينهم وعقيدتهم الغالي والنفيس، بل نجزم بأن الجيوش الإسلامية الضاربة التي اصطدمت

(1) الصلابي، عمر بن عبد العزيز، (3 / 164).

(2) المقري، نفح الطيب، 13/3 - 14، فاتح الأندلس طارق بن زياد ص45، 46. الصلابي، عمر بن عبد

بالأسبان اعتمدت بعد الله على إخواننا من البربر الذين اندفعوا خلف طارق في سبيل هذا الدين ونشره، إن العقيدة الإسلامية صهرت المنتسبين إليها عرباً وعجماً في رحاب الإسلام العظيم.

ولكن إهمال المؤرخين لطارق بن زياد لم يحرمه نصيبه من الخلود، فقد شاعت المقادير أن تحمل اسمه أول بقعة في الأندلس وطئتها قدماه وهي جبل طارق، كما سمي بحر الزقاق باسم مضيق جبل طارق، وانتقلت هذه التسمية إلى اللغات الأوروبية جميعها بصيغها محرفة تحريفاً بسيطاً.

ولم تشر الروايات العربية إلى مصير يوليان الذي مهد لفتح الأندلس، وتذكر بعض الروايات أنه عاد إلى سبتة وأقطع ما حولها من الأرض، وظل أميراً على سبتة نظير خدماته، ولكنه بقي نصرانياً هو وبنوه الأقربون، أما ذريته فيقال إنها دخلت الإسلام بعد ذلك، أما أبناء غيطشة فقد أقطعوا ما كان لأبيهم، وعامل العرب ابني غيطشة (إيفا وسيزبوت) معاملة حسنة فعينوا أوباس ابنه مطرانا علي طليطلة والأندلس، وتوفي إيفا عن ابنة تدعى سارة وطفلين صغيرين فاغتصب عمهما سيزبوت ميراثهم، فرحلت سارة إلى دمشق مع أخويها، وشكت أمرها إلى الخليفة هشام بن عبد الملك، فأنصفهما وأمر والي الأندلس أبا الخطار برد ميراثهما إليهما، وفي دمشق تزوجت من عيسى بن مزاحم، وعادت إلى الأندلس مع زوجها، ورزقت بولدين إبراهيم وإسحاق اللذين أحرزا مكانة عالية. وإلي سارة ينسب مؤرخ الأندلس الشهير ابن القوطية (1).

* * *

الفصل الثاني:

عصر الولاية (59 - 138 هـ / 714 - 755 م)

عصر الولاية:

عبد العزيز بن موسى بن نصير (95 - 97 هـ / 714 - 716 م):

أيوب بن حبيب اللخمي:

ولاية الحر بن عبد الرحمن الثقفي (97 - 100 هـ / 716 - 719 م)

ولاية السمع بن مالك الخولاني (100 - 102 هـ / 719 - 721 م):

ولاية عبد الرحمن الغافقي الأولي (102 هـ / 721 م):

ولاية عنبسة بن سحيم الكلبي (103 - 107 هـ / 722 - 726 م):

ولاية عبد الرحمن الغافقي الثانية (112 - 114 هـ / 731 - 732 م):

معركة بواتيه أو بلاط الشهداء (رمضان سنة 114 هـ / نوفمبر 732 م):

وقفه مع بلاط الشهداء

ولاية عبد الملك بن قطن الفهري الأولي (114 - 116 هـ):

ولاية عقبة بن الحجاج السلولي (116 - 122 هـ):

ولاية عبد الملك بن قطن الفهري ثانية (122 - 123 هـ / 739 - 740 م):

ولاية بلج بن بشر القشيري (123 هـ / 740 م):

ولاية ثعلبة بن سلامة العاملي 124 هـ / 742 م:

ولاية أبي الخطار بن ضرار الكلبي (125 - 128 هـ / 742 - 745 م):

ولاية ثواب بن سلامة الجزامي (128 هـ / 746 م):

ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهري (129 - 138 هـ / 747 - 755 م):

* * *

عصر الولاة

بعودة القائدين موسى بن نصير وطارق بن زياد إلى دمشق، يبدأ في الأندلس ما يعرف بعصر الولاة (59 - 138 هـ / 714 - 755 م) الذي استمر حتى وصول عبد الرحمن الداخل (الأول) ابن معاوية بن هشام، وما ترتب بعده. وفي هذا العصر كانت الأندلس ولاية عربية تابعة للخلافة الأموية في دمشق.

لقد تولى الأندلس بعد فتحها إلى أن دخلها عبد الرحمن الداخل حوالي عشرين أميراً في فترة قاربت قاربت نصف قرن من الزمان، وكان أولهم عبد العزيز بن موسى بن نصير، وآخرهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وقد استمر بعضهم في الحكم عدة أشهر والبعض الآخر بضعة سنوات، وليس المهم معرفة أسماء الولاة ومدة حكمهم إنما المهم معرفة الأعمال المهمة التي قاموا بها والتي حدثت في عهدهم، والنتائج التي ترتبت عليها، ومدى تأثير ضعفهم وتمزيق شملهم. ثم إلقاء نظرة على النزاع المستمر بين العرب بعضهم مع البعض، وبين العرب والبربر، وأخيراً التوصل إلى معرفة أسباب وقوف المد الإسلامي في أوربا والنتائج التي ترتبت على ذلك (1).

* * *

عبد العزيز بن موسى بن نصير

(95 - 97 هـ / 714 - 716 م)

... تولى الأندلس منذ عودة موسى بن نصير إلى دمشق وحتى قيام الإمارة الأموية سنة 138 حوالي عشرين أميراً، كان أولهم عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي ألقى أبوه بزمام الأندلس بين يديه، وكان خير خلف لخير سلف، فقط ضبط الأمور وسد الثغور وافتتح مدائن كثيرة وكان من خيرة الولاة وكان كأبيه في جهاده وتقواه وورعه، كان يقول عنه أبوه موسى بن نصير: عرفته صَوَّاماً قَوَّاماً. فحكم الأندلس ووطد فيها الأركان بشدة، وتوالى من بعده الولاة (2). حيث لم يكن المسلمون قد أتموا فتح بلاد الأندلس، وبقيت في البلاد مناطق لم تكن أيديهم إليها، كما تألفت في بعض المناطق مراكز للمقاومة القوطية ضد المسلمين، الذين أخذوا يقدون غلي الأندلس من بلاد المغرب والمشرق، واقتضي الأمر إخماد هذه المراكز وإتمام الفتح،

(1) علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 61.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، (24/2).

وأخذ عبد العزيز علي عاتقه هذا العبيء، ولقد ورث عبد العزيز عن أبيه صفات العزم والقوة، وكان مثل أبيه قائداً مظفراً، شارك في فتح الأندلس، وقام باسترداد أشبيلية بعد أن انتقض أهلها ومن انضم إليهم من بقايا جيش القوط القادمين من باجة وأكشونة ولبلة (1).

وقد جعل عبد العزيز أشبيلية قاعدة بلاد الأندلس في عهده ووجه همته نحو جنوب شرق الأندلس تلك المناطق التي كانت قد أفلتت من موجات الفتح الإسلامي، فطارق تمكن من السيطرة علي البلاد في الوسط، في حين إفتتح موسي غرب الأندلس وشماله، أما شرق الأندلس وجنوبه الشرقي فكان من نصيب عبد العزيز بن موسي بن نصير، فأسرع عبد العزيز لفتح مالقة وغرناطة وعنوة، وضم يهودها إلى القسبة، ومن هناك اتجه عبد العزيز إلى شرق الأندلس فدخل كورة تدمير (إقليم مرسية) وحضرته أريولة وسميت هذه الكورة كذلك، نسبة لملكها تدمير ابن عبدوش وفي قصة فتح عبد العزيز لتدمير يقول الحميري: "وبقرطاجنة هذه، هزم عبد العزيز بن موسى بن نصير تدمير عبدوس، الذي سميت به تدمير؛ هزمه وأصحابه، ووضع المسلمون فيهم السيف، يقتلونهم كيف شاؤوا، حتى نجا تدمير في شردمة من قلال أصحابه إلى حصن أوريولة، وكان مجرباً بصيراً ذاهبية؛ فلما رأى قلة أصحابه، أمر النساء فنشرن شعورهن، وأمسكن القصب بأيديهن فيمن بقى من الرجال، وقصد بنفسه كهيئة الرسول واستأمن، فأمن، وانعقد الصلح له ولأهل بلده، وفتحت تدمير صلحاً؛ فلا نفذ أمره عرفهم بنفسه وأدخلهم المدينة، فلم يروا بها إلا نفرأ يسيراً من الرجال، فندم المسلمون على ما كان منهم؛ وكان ما انعقد من صلح تدمير مع عبد العزيز على إتابة يؤديها، وجزية عن يد يعطيها، وذلك على سبع مدائن: منها أوريولة، ولقنت، وبلانة، وغيرها. وتاريخ فتحها سنة 94... " (2) وقد نص الصلح علي: "... بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير ابن عبدوش، أنه نزل على الصلح، وأن له عهد الله وذمته، وذمة نبيه " صلعم، " ألا يقدم له ولا لأحد من أصحابه، ولا يؤخر، ولا ينزع من ملكه، وأنهم لا يقتلون ولا يسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم، ولا يكرهوا على دينهم، ولا تحرق كنادسهم، ولا ينزع عن كنائسه ما يعبد، وذلك ما أدى الذي اشترطنا عليه، وأنه صالح على سبع مدائن: أوريولة، وبلنته، ولقنت، ومولة، وبلانة، ولورقة،

(1) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص 109.

(2) صفة جزيرة الأندلس، ص 151.

وأله، لا يأوى لنا أبقاءً، ولا يأوى لنا عدواً، ولا يخيف لنا آمناً، ولا يكتم خبر عدو علمه، وأن عليه وعلى أصحابه ديناراً كل سنة، وأربعة أمداد قمح، وأربعة أمداد شعير، وأربعة أقساط طلاء، وأربعة أقساط خلٍ، وقسطى عسلٍ، وقسطى زيتٍ، وعلى العبد نصف ذلك، وكتب في رجب سنة 94 من الهجرة.... “ (1).

ولكن لم تطل مدة عبد العزيز في حكم الأندلس، فقد أخذ خصومه يعملون علي النيل منه، ويشيعون أنه يسعى إلى الاستقلال بالأندلس، وأثاروا ريبة الخلافة من أعماله خاصة وأن الأندلس كانت تتمتع بحضارة تفوق حضارة الشعوب التي أخضعها المسلمون في الغرب، فثار عليه الجيش، وقتله بعض جنده غيلة، وكان ذلك في مستهل رجب سنة 97 هـ (2).

يقول ابن الأثير في سبب مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير: “... وكان سبب قتله أن أباه استعمله على الأندلس، كما ذكرنا، عند عوده إلى الشام، فضبطها وسدد أمورها وحمى ثغورها، وافتتح في إمارته مدائن بقت بعد أبيه، وكان خيراً فاضلاً، وتزوج امرأة رذريق، فحظيت عنده وغلبت عليه فحملته على أن يأخذ أصحابه ورعيته بالسجود له إذا دخلوا عليه كما كان يفعل لزوجها رذريق. فقال لها: إن ذلك ليس في ديننا. فلم تزل به حتى أمر ففتح باب قصير لمجلسه الذي كان يجلس فيه، فكان أحدهم إذا دخل منه طأطأ رأسه فيصبر كالراكم، فرضيت به، فصار كالسجود عندها، فقالت له: الآن لحقت بالملوك وبقي أن أعمل لك تاجاً مما عندي من الذهب واللؤلؤ، فأبى، فلم تزل به حتى فعل. فانكشف ذلك للمسلمين فقبل تنصر، وفطنوا للباب فثاروا عليه فقتلوه في آخر سنة سبع وتسعين. وقيل: إن سليمان ابن عبد الملك بعث إلى الجند في قتله عند سخطه على والده موسى بن نصير، فدخلوا عليه وهو في المحراب فصلّى الصبح وقد قرأ الفاتحة وسورة الواقعة فضربوه بالسيوف ضربة واحدة وأخذوا رأسه فسيروه إلى سليمان، فعرضه سليمان على أبيه، فتجلد للمصيبة وقال: هنيئاً له بالشهادة فقد قتلتموه والله صوماً قواماً. وكانوا يعدونها من زلات سليمان. وكان قتله على هذه الرواية سنة ثمان وتسعين في آخرها (3).

ويقول أبو المحاسن بن تغربردي عن سبب قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير: “... وكان أبوه استعمله على الأندلس لما قدم الشام. وكان سببه أنه تزوج بامرأة

(1) صفة جزيرة الأندلس، ص 151.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب (24/2).

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ - (2 / 357).

رذريق فحملته على أن يأخذ أصحابه ورعيته بالسجود له عند الدخول عليه كما كان يفعل لزوجها، فقال: إن ذلك ليس في ديننا، وكان ديناً فاضلاً، فلم تزل به حتى أمر بفتح باب قصير، فكان أحدهم إذا دخل عليه طأطأ رأسه فيصير كالراكع له، فرضيت به وقالت له: الآن لحقت بالملوك، وبقي أن أعمل لك تاجاً مما عندي من الذهب واللؤلؤ فأبى، فلم تزل به حتى فعل، فأنكشف ذلك للمسلمين، فقيل: إنه تنصر. فثاروا عليه وقتلوه بدسيسة من عند عبد الملك هذا بأمر سليمان بن عبد الملك، فدخلوا عليه، وهو يصلي الصبح في المحراب وقد قرأ الفاتحة وسورة الواقعة، فضربوه بالسيوف ضربة واحدة واحتزوا رأسه وسيرهوا إلى سليمان، فعرضه سليمان على أبيه فتجدد للمصيبة وقال: هنيئاً له الشهادة، فقد قتلتموه والله صواماً قواماً. فعد الناس ذلك من زلات سليمان بن عبد الملك... " (1).

والحقيقة أن الأسباب التي ساقها بعض المؤرخين لمقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير تبدو كلها ملفقه ولا يقوم أيها منها دليلاً أو حجة لإزهاق روح، وأغلب الظن أنها وضعت خصيصاً لتبرير مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير ليس إلا.

وقد حمل بعض المؤرخين الخليفة سليمان بن عبد الملك مسؤولية مقتل عبد العزيز بن نصير مع أن هذه القضية قد رفضها الكثير من المؤرخين النصفين سلفاً وخلفاً ولم يقل بها سوى فئة من مؤرخي الأندلس المتأخرين، وممن رفضها من المؤرخين ابن عبد الحكم⁽²⁾، وابن القوطية⁽³⁾، وصاحب أخبار مجموعة⁽⁴⁾، والحميدي⁽⁵⁾، والضبي⁽⁶⁾، وغيرهم.

والحقيقة أن عبد العزيز بن موسى بن نصير لقي مصرعه بإشيبيلية على أيدي كبار الجند، وعلي رأسهم حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة، الذي كان موسى قد أقامه وزيراً لابنه، وأيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير، وزياد بن عذرة البلوي، وغيرهم، ولكن لم يكن لسليمان يد في مقتله، علي الرغم مما زعمه المؤرخون من أنه كان المتسبب في قتل عبد العزيز، وأنه أمر بطرح رأسه أمام

(1) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - (1 / 91).

(2) فتوح أفريقيا والأندلس ص 85.

(3) تاريخ افتتاح الأندلس ص 36.

(4) أخبار مجموعة ص 19.

(5) جذوة المقتبس ص 271.

(6) بغية الملتبس ص 273.

موسي بن نصير، ذلك لأن سليمان غضب لمقتل عبد العزيز بن موسي وأرسل إلى الأندلس عاملاً من قبله للتحقيق في مقتل عبد العزيز بن موسي والقبض علي قتلاته وإرسالهم إليه. يقول صاحب أخبار مجموعة: "... ولما بلغ سليمان مقتل عبد العزيز بن موسي شق عليه ذلك فولي إفريقية عبد الله بن يزيد لقريش، وإلي والي إفريقية كان أمر الأندلس وطنجة وكل ما وراء إفريقية، وأمره سليمان فيما فعله حبيب بن أبي عبيدة، وزيد بن النابغة ممن قتل عبد العزيز بن موسي بأن يتشدد في ذلك وأن ينفلهما إليه، ومن شاركهما في قتله من وجوه الناس، ثم مات سليمان فصرح عبد الله بن بن يزيد والي إفريقية علي الأندلس، الحر بن عبد الله الثقفي، وأمره بالنظر في شأن من قتل عبد العزيز..." (1).

وقد حقق سليمان في قضية عبد العزيز بن موسي فوجد أنه بريء مما نسبوه إليه " فألفي ذلك باطلاً، وأن عبد العزيز لم يزل صحيح الطاعة مستقيم علي الطريقة " (2).

والذي يمكن أن نقوله في سبب مقتل عبد العزيز بن موسي هو أن عبد العزيز بن موسي قد أظهر أمام أحد قواده شيئاً من الامتناع من تصرف الخليفة سليمان عبد الملك نحو أبيه، أو أنه أضر رغباً عنه إلى التدفيس عن نفسه بكلام خفيف أساء إلى الخليفة (3) فتناقل الناس هذا الكلام محرفاً مشوهاً، فوصل إلى رؤساء الجند وعلي رأسهم حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة، فأجمعوا علي قتله غيرة علي الخلافة الأموية، ثم أبلغوا الخليفة بمقتله بسبب خروجه عليه، بعد أن أقاموا علي أنفسهم أيوب بن حبيب اللخمي مؤقلاً حتى أرسل إليهم عبد الله بن يزيد، والي إفريقية واليا عليهم من قبله وهو الحر بن عبد الرحمن الثقفي سنة 99 هـ، ولو كان سليمان بن عبد الملك هو المدبر لهذه الجريمة لكان قد بادر بتدصيب وال مكانه، ولما مكث أهل الأندلس شهراً لا يجمعهم وال، حتي اجتمعوا علي أيوب بن حبيب اللخمي (4) ولما شق علي الخليفة نبأ مقتله، ولما أسف علي قتله بعد أن ثبتت براءته مما أتهم به (5).

* * *

(1) أنظر: أخبار مجموعة، ص 22.

(2) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص 176.

(3) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، ص 170.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 32.

(5) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص 176.

أيوب بن حبيب اللخمي

وأعقب مقتل عبد العزيز بن موسى فترة من الاضطراب، ومكث أهل الأندلس شهوراً لا يجمعهم وال. حتى اجتمعوا على أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى ابن نصير⁽¹⁾ الذي كان متورطاً في قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير، وكانت توليته بإجماع قادة الجيش الذين نفذوا مؤامرة الاغتيال⁽²⁾، ولم تطل مدة ولايته، ويبدو أن الناس هناك هم الذين نصبوه ليدبر الأمور حتى تعين الخلافة والياً من قبلها، ولم يقم هذا الوالي بأعمال تذكر سوى نقله العاصمة الإدارية من أشبيلية إلى قرطبة، المدينة الأكثر توسطاً في الأندلس، حيث أخذ مجدها السياسي في التآلق منذ ذلك الحين حتى بلغت الذروة في عهد الخلافة، خلافاً للوالي الذي سرعان ما انطفأ نجمه بعد ستة أشهر فقط من تعيينه. كما أنه ترك اسمه علي مدينة من تأسيسه هي قلعة أيوب التي تقع إلى الشمال الشرقي من طليطلة⁽³⁾.

* * *

ولاية الحر بن عبد الرحمن الثقفي

(97 - 100 هـ / 716 - 719 م)

كانت ولاية الأندلس في ذلك الوقت تابعة لوالي إفريقية، هو محمد بن يزيد، فلم يقر الجند علي ما فعلوه من تولية أيوب بن حبيب، وسارع بعزله وتولية الحر بن عبد الرحمن الثقفي علي الأندلس، في ذو الحجة سنة 97 هـ / 716 م ومعه أربع مائة من وجوه فلم يقر الجند علي ما فعلوه من تولية أيوب بن حبيب، وسارع بعزله وتولية الحر بن عبد الرحمن الثقفي علي الأندلس، في ذو الحجة سنة 97 هـ / 716 م ومعه أربع مائة من وجوه إفريقية.

وقد بقي في الولاية مايقرب من ثلاثة سنوات كانت له فيها غزوات تجاوز بها حدود بلاد الأندلس إلى بلاد الفرنجة ونواحي أربونة، فسبى وغنم وقفل بالأسارى والغنائم⁽⁴⁾، وقد أدى انشغال الحر الثقفي بالغزو في الشمال الشرقي إلى انتعاش حركة المقاومة المسيحية - في المنطقة التي لم يتمكن المسلمون من فتحها وهي

(1) ابن عذاري، البيان المغرب (24/2).

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 25، أخبار مجموعة، ص 22.

(3) حسن مؤنس، فجر الإسلام، ص 244، إبراهيم بيضون، الدولة العربية، ص 94.

(4) د. محمد زينون، المسلمون في المغرب والأندلس (193/1).

المنطقة الشمالية الغربية بزعامة بلاي⁽¹⁾، مما اضطره إلى العودة للقضاء على تلك المقاومة، وبينما هو مشغول بذلك عزل الخليفة عمر بن عبد العزيز 99 - 101 هـ وعين مكانه السمح بن مالك الخولاني 100 هـ - 102 هـ⁽²⁾.

* * *

(1) د. مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص40، 41.

(2) العالم الإسلامي في العصر الأموي ص321.

ولاية السمح بن مالك الخولاني

(100 - 102 هـ / 719 - 721 م)

ثم ولى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ☺ السمح بن مالك على الأندلس، وأمره "... أن يحمل الناس على طريق الحق، ولا يعدل بهم عن منهج الرفق، وأن يخمس ما غلب عليه من أرضها وعقارها، ويكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها... فقدم السمح الأندلس، وامتلأ ما أمره به عمر ☺ من القيام بالحق، وإتباع العدل والصدق؛ فانفرد السمح بولايتها؛ وعزلها عمر عن ولاية إفريقية، اعتداء بأهلها، وتهماً بشأنها. " (1).

ولقد قام السمح بأعمال جليلة لعل أهمها هو بناء القنطرة على نهر الوادي الكبير في قرطبة، والتي ما تزال آثارها قائمة إلى اليوم، "... وكان المسلمون، إذ فتحوا قرطبة، وجدوا بها آثار قنطرة فوق نهرها، على حنايا وثاق الأركان من تأسيس الأمم الدائرة، قد هدمها مدود النهر على مرّ الأزمان. فتقدم إلى فضيلة النظر فيها عمر بن عبد العزيز ☺ عندما اتصل به خبرها؛ فأمر السمح بابتنائها؛ فصنعت على أنتم وأعظم مما بنى عليه جسر من حجارة سور المدينة... وفي سنة 101 هـ، ورد كتاب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز على السمح بن مالك بالأندلس، يأمره ببناء القنطرة بصخر السور، وبناء السور باللبن، ويأمره بإخراج خمس قرطبة. فخرج من الخمس البطحاء المعروفة بالربض. فأمر الخليفة عمر أن يتخذ بها مقبرة للمسلمين؛ فتّم ذلك... " (2)

وكان عمر بن عبد العزيز يخشي علي المسلمين في الأندلس لانقطاعهم عن الأراضي الإسلامية، وكان يري أنه من الأفضل للمسلمين أن يعودوا إلى ديارهم التي خرجوا منها، وكل ذلك خشية عليهم "... وكان رأيه نقل المسلمين منها وإخراجهم عنها، لانقطاعهم عن المسلمين واتصالهم بأعداء الله الكفار؛ فقليل له: (إنّ الناس قد كثروا بها، وانتشروا في أقطارها؛ فأضرب عن ذلك) (3).

وفي ربيع سنة 102 هـ / 721 م خرج السمح بالصائفة ليغزو فيما وراء البرتات " البرنية.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 1 / 49.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 1 / 49.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 1 / 49.

“ فاستشهد - رحمه الله - في طرسونة في يوم عرفة؛ من العام نفسه فكانت ولايته سنتين وأربعة أشهر. وقيل: ثمانية أشهر؛ وقيل: ثلاث سنين (1). ”

وفي هذه الغزوة استطاع السمح اجتياز “ أربونة ” مخترقا بلاد الغال (فرنسا) حتى وصل إلى مقاطعة “ أكيثانيا ” وقد وقع علي عاتق دوقها “ أودو ” عبء الدفاع عنها، حيث كان يقود جيشا كبيرا من الجرمان والفرنجة، وكاد العرب أن ينتصروا علي أعدائهم في المعركة التي دارت بينهم حول مدينة “ تولوز ” لولا أن الفرنجة علموا بمكان السمح فتكاثروا عليه وأصابوه إصابات أودت بحياته، فانتشرت الفوضى بين الصفوف العربية فضلوا العودة علي إثرها إلى قاعدتهم في أربونة، لتنظيم صفوفهم من جديد وإعادة الكرة علي تلكم المقاطعة وكان لابد للجيوش الإسلامية من قائد يقودها ويتولي أمرها ويعود بها نحو الجنوب، فأجمع الجند علي اختيار عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، لقيادتهم في خلال المرحلة (2) الإسلامية.

وفي الحقيقة أن من حسنات الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز ☺ : ولاية السَّمَح ابن مالك الخولاني رحمه الله علي الأندلس، فقد حكم عمر بن عبد العزيز ☺ المسلمين سنتين ونصف علي الأكثر، من سنة تسع وتسعين إلى سنة واحد ومائة من الهجرة، وفي هذه الفترة الوجيزة عمّ الأمن والرخاء والعدل كل بلاد المسلمين، اختار عمر بن عبد العزيز رحمه الله السمح بن مالك الخولاني، ذلك القائد الربّاني المشهور في التاريخ الإسلامي، وهو القائد الذي انطلق إلى بلاد فرنسا مجاهدا، كان بفرنسا مدينة إسلامية واحدة هي مدينة أربونة، تلك التي فتحها موسى بن نصير رحمه الله بسرية من السرايا، لكن السمح بن مالك الخولاني فتح كل منطقة الجنوب الغربي لفرنسا، ثم أسّس مقاطعة ضخمة جدا وهي مقاطعة سبتمانيا، وتسمى الآن بساحل الريفيرا، وتعد من أشهر المنتجعات السياحية في العالم.

أخذ السمح الخولاني في استكمال الفتوح في جنوب غرب فرنسا، وفي ذات الوقت أرسل يعلم الناس الإسلام، سواء في فرنسا أو في الأندلس إلى أن لقي ربه شهيدا يوم عرفة سنة اثنتين ومائة من الهجرة.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 1/ 49.

(2) علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 66.

ولاية عبد الرحمن الغافقي الأولي (102 هـ / 721 م)

عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم الغافقي، أبو سعيد: أمير الأندلس، من كبار القادة الغزاة الشجعان. أصله من غافق (من قبيلة عك، في اليمن) رحل إلى إفريقية. ثم وفد على سليمان بن عبد الملك الأموي، في دمشق. وعاد إلى المغرب، فاتصل بموسى بن نصير وولده عبد العزيز، أيام إقامتهما في الأندلس. وولي قيادة الشاطئ الشرقي من الأندلس. وكثرت جموعه بعد مقتل السمح بن مالك (سنة 102 هـ فانتقل إلى أربونة، فانتخبه المسلمون فيها أميراً، وأقره والي إفريقية، ولكن لم تدم ولاية عبد الرحمن الغافقي طويلاً، حيث بقي أقل من شهرين، ولم يستطع خلال هذه الفترة القصيرة أن يقوم بأي عمل يذكر، حيث قام يزيد بن أبي مسلم والي إفريقية عنبسة بن سحيم الكلبي⁽¹⁾.

* * *

ولاية عنبسة بن سحيم الكلبي (103 - 107 هـ / 722 - 726 م)

تولى عنبسة الأندلس يعيش فترة من الإضطرابات الشديدة بسبب الهزيمة التي لحقت بالمسلمين في قرقشونة وأودت بحياة السمح بن مالك الخولاني، وبسبب النزاع بين القبائل العربية الذي استفحل أمره في الأندلس في ذلك الوقت، وكان العرب قد انشغلوا بتصفية ثاراتهم القبلية القديمة عن القضاء علي بقايا القوط في الأندلس، وعن إتمام إخضاع البربر في إفريقية، ولذلك قضى عنبسة أربع سنوات من ولايته في تنظيم أمور دولته، وكان من الشخصيات الكبيرة في عصر الولاة في الأندلس، فقد سلك نفس الطريق الذي سلكه السمح من قبل، وكان يري مواصلة غزو بلاد إفرنجة، فما كادت أمور ولايته تستقر حتى بادر بإعداد جيوشه للسير شمالاً في بلاد غالة، وفكر بادئ ذي بدء في تدعيم خط الدفاع أمام أربونة، فافتتح مدينة قرقشونة عنوة⁽²⁾ ثم استولي علي مدينة نيمة دون مقاومة، وأخذ من أهلها رهائن ونقلهم إلى برشلونة،

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 26، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس (الفتح وعصر الإمارة)، ص 214 - 215.

(2) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص 138.

وعامل هؤلاء معاملة حسنة (1).

ومن مدينة نيمش تابع عنبسه سيره حتى وصل إلى نهر ردونة "الرون" فصار حذاؤه بخطي سريعة دون أن يلقي مقاومة تذكر، إلى أن وصل نهر "السون" وتمكن من التوغل في منطقة بورغونية والاستيلاء على مدينة أوتون التي غنم الجنود العرب كل ما فيها، وكان ذلك في أواخر سنة 106 هـ / 725م، ولم تقف الجنود العربية عند هذا الحد بل تابعت سيرها إلى أن وصلت مدينة لوكسوي المتقدمة في موقعها شمالا واجتاحت جيوشه مدينة أوزة وفيغييه وفالانس، وتدفقت الموجة إلى ليون وماسون وشالون، حتى إذا رأى عنبسة بأن حملته قد تقدمت جندا، أمر جيوشه المظفرة بالعودة نحو الجنوب، وقد أستشهد عنبسة في أثناء بعض المناوشات التي حصلت مع الأعداء وهو في طريق عودته وذلك في شهر شعبان عام 107 هـ / مطلع عام 726 م، فكانت مدة ولايته أربع سنوات وثمانية أشهر (2).

لقد كان عنبسة قائدا تقياً ورعاً، وهو الإداري العسكري المشهور، كان مجاهداً حق الجهاد، وقد حكم بلاد الأندلس من سنة ثلاث ومائة إلى سنة سبع ومائة من الهجرة، وقد وصل عنبسة في جهاده إلى مدينة سانس، وهي تبعد عن العاصمة باريس بنحو ثلاثين كيلو مترا، وباريس هذه ليست في وسط فرنسا وإنما تقع في أقصى الشمال منها، وهذا يعني أن عنبسة بن سحيم قد وصل إلى ما يقرب من سبعين بالمائة من أراضي فرنسا، ويعني هذا أيضا أن سبعين بالمائة من أراضي فرنسا كانت بلاداً إسلامية.

بعد استشهاد عنبسة رحمه الله انسحب الجيش الإسلامي إلى أربونة، ثم بدأت الأمور في التغير؛ فقد تولى حكم الأندلس من بعده مجموعة من الولاة على غير عادة السابقين، كان أولهم عذرة بن عبد الله الفهري، ويبدو أن عذرة كان ينوي مواصلة الجهاد في بلاد غالة بعد إستشهاد عنبسة، ولكنه شغل في ذلك الوقت بالخلافات التي نشبت بين المسلمين في الأندلس، ولم يقم بعمل جهادي أو إداري كبير، وإن لم تخل فترة ولايته من هجمات لبعض المجاهدين على حصون وقلاع النصاري (3).

وبعد عزل عذرة عن ولاية الأندلس، تولى الأندلس بعده عدة ولاة لم يغز أحدهم

(1) خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس (الفتح وعصر الإمارة)، ص 225.

(2) خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس (الفتح وعصر الإمارة)، ص 224.

(3) خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس (الفتح وعصر الإمارة)، ص 225 - 226.

غالة، وهم يحيى بن سلمة الكلبي فقدما في شوال 107 هـ / 726م وأقام عليها مدة سنتين وستة أشهر، لم يقم حلالها بأية غزوة بنفسه، ثم ولي بعده حذيفة بن الأحوص القيسي في عام 110 هـ / 728م. فكانت ولايته أقل من سنة، ثم عثمان بن أبي نسعة الخنعمي، وبقي في ولاية الأندلس ما بين خمسة أو ستة أشهر، ثم الهيثم بن عبيد الكناني، وكانت ولايته نحو عشرة أشهر، ثم محمد بن عبد الله الأشجعي لمدة شهرين، حتى أسندت إلى عبد الرحمن الغافقي إمارة الأندلس (1).

* * *

ولاية عبد الرحمن الغافقي الثانية

(112 - 114 هـ / 731 - 732 م)

يعتبر عبد الرحمن الغافقي من أعظم قواد المسلمين في الأندلس، وعرف بحسن القيادة والشجاعة وقوة الشكيمة، وكان قد أبلى بلاءا حسنا في معارك المسلمين منذ فتح الأندلس لا سيما معركة طولوشة التي قتل فيها السمح، فتركت هزيمة المسلمين أثرا عميقا في نفسه، ولذلك كان تواقا لمواجهة الفرنجة، راغبا في الجهاد والانتقام منهم، وجاء تقليده ولاية الأندلس في وقت إنبعثت فيه الفتنة بين العرب في هذه البلاد بسبب العصبية القبلية، وكان عبد الرحمن إلى جانب صفاته السابقة معروفا بنزاهته وديادته لا يتدبّر لفريق علي آخر، ولا يتعصب لعنصر علي آخر، ولذلك قوبلت ولايته بفرحة عمت قلوب أهل الأندلس، واستبشر الناس لولايته، وشرع عهده برفع المظالم عن الناس، وكان يطوف المدن يتحقق من شكايات الرعية، لا يميز بين مسلم ومسيحي، وعزل كثيرا من القواد والولاة الذين ثبتت مظالمهم للرعية (2).

* * *

معركة بواتيه أو بلاط الشهداء

(رمضان سنة 114 هـ / نوفمبر 732 م)

وكان عبد الرحمن يري أولا ضبط البلاد ثم السير بعد ذلك للغزو، وقضى عبد الرحمن الغافقي ما يقرب من عام نظم خلالها شؤون البلاد، ثم أعلن الجهاد ضد الفرنجة، فتجمعت حوله جموع المتطوعين الذين كانوا يتوقون للقتال تحت قيادته،

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 28، السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص 140، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 69.

(2) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص 140 - 141.

وتكون من هذه الحشود جيش هائل يتراوح عدده ما بين سبعين ألفاً ومائة ألف، جلهم من البربر، إذ أن العرب في ذلك الوقت كانوا مشغولين بمنازعاتهم القبلية (1).

جرت أحدث معركة بلاط الشهداء (2) - التي استمرت حوالي عشرة أيام - في رمضان سنة 114 هـ / نوفمبر 732م واستشهد الغافقي نفسه في موضع يقع بين مدينتي تور (3) وبواتيه (4) حوالي 323 كم جنوبي باريس، وانتهت المعركة بانكسار الجيش الإسلامي وانسحابه من ميدانها، وتتلخص أحداث المعركة في الآتي:

بعد أن أتم عبد الرحمن الغافقي استعداداته عام 114 هـ / 732م أمر بالمسير نحو بلاد الفرنجة، مخرقاً ممر رونسفال ومتجهاً إلى مدينة بورجو (5)، وفي أثناء ذلك حاول دوق أكييتانيا أودو اعتراض زحفهم والتصدي لهم، فالتقي الجمعان علي نهر الدردون غير بعيد من التقاء هذا النهر بنهر الجارمون، وهزم الدوق ومن معه شر هزيمة وقتل من جيشه أعداد كبيرة وطارد الجيش الإسلامي جيش أودو حتى عاصمته بورجو واستولوا عليها بعد حصار قصير، وفر الدوق مع عدد من أصحابه نحو الشمال وسقطت مقاطعة أكييتانيا كلها بيد الجيوش الإسلامية. ثم تابعت هذه الجيوش زحفها نحو الشمال مجتاحة كل ما قابلها، حتى امتلأت أيدي المسلمين بالثروات والغنائم من كل الحصون والأماكن التي افتتحوها، واستمروا في زحفهم

(1) السيد عبد العزيز سالم، الميسلمون في الأندلس، ص 141.

(2) بلاط الشهداء.

هو السهل الواقع بين مدينتي (تور) و(بواتيه) في الشمال الغربي من فرانسوا قرب نهر (الوار) وفيه وقعت المعركة الشهيرة بين المسلمين بقيادة عبدالرحمن الغافقي وبين الفرنجة بقيادة (شارل مارتل) سنة 114 هـ.

(732م) والبلاط لغة هو الطريق المبلط وبلاط الشهداء نسبة إلى طريق رومانوي قديم دارت عنده المعركة.

(3) تور tours.

مدينة تقع جنوبي غربي باريس على نهر اللوار غزاها المسلمون في القرن الثامن الميلادي.

(4) بواتيه poitiers.

مدينة تقع جنوبي غربي باريس وقعت فيها الوقعة المشهورة، وفيها أوقف شارل مارتل الزحف العربي سنة 114 هـ / 732 م.

(5) بورجو bordeaux.

مدينة فرنسية يطلق عليها في المصادر العربية (برديل) أو (بردال) هي قاعة إقليم (جبروند) في فرانسوا تقع عند مصب نهر (الجارون) (lajaranne) الذي يصب في المحيط الأطلسي. احتلها العرب في الحملة التي قادها عبدالرحمن الغافقي غازياً فرنسا سنة 114 هـ (732م) والتي انتهت بمصرعه في (بلاط الشهداء) وانسحاب الجيش العربي إلى إسبانيا.

حتى وصلوا مدينة بواتييه ففتحوها، واتجهوا إلى مدينة أخرى قريبة منها هي مدينة تور، التي كانت تعتبر من أهم مدن بلاد الفرنجة، أو تتمتع بمكانة دينية خاصة، لكونها كانت تضم رفات القديس مارتين. أما الدوق أودو الذي فر بعد هزيمته فقد استنجد بعد ذلك بخصمه شارل مارتل محافظ القصر في بلاط الأسرة الميروفنجية الحاكمة في بلاد الفرنجة، موضحا له مدي الخطر الذي تتعرض له البلاد بأسرها إذا هو لم يقبل أن يهب لنجدة، وإلي إيقاف الجيوش الإسلامية عند حدها⁽¹⁾.

أخذ شارل مارتل يحشد كل ما استطاع من الإمكانات البشرية والمادية لمقابلة الجيوش الإسلامية، ولم يكتف بحشد كل المقاتلة الذين يستطيع حشدهم من قبائل الفرنجة، بل لجأ أيضا إلى حشد القبائل الجرمانية النصف متوحشة، التي كانت تسكن فيما وراء الراين، وكل جموع المرتزقة الذين استطاع أن يأتي بها لمساعدته في المعركة، ثم انحدر بعد ذلك من الشمال نحو مدينة تور وقد اصطدمت القوات المسيحية بالجيوش الإسلامية في أول لقاء علي ضفاف نهر اللوار، ولكن هذا الاصطدام لم يسفر عن أي نتيجة تذكر، إذ أن عبد الرحمن الغافقي فضل علي إثر ذلك أن يتقهقر نحو الجنوب إلى السهل الممتد بين تور وبواتييه لينظم صفوفه ويعد عدته لقاء العدو⁽²⁾.

وفي ذلك الوقت كان الجيش الإسلامي قد إستولي عليه التعب من جراء المسافة الطويلة التي قطعها منذ الخروج من قرطبة، ونقص عدده بسبب ترك بعض الحاميات في المدن المفتوحة، وقد امتلأت أيدي الجند بالغنائم والثروات التي غنموها وحملوها معهم، والتي لا يقبلون التخلي عنها مطلقا. وكان هذا العامل الأخير له الأثر السيئ علي الجيش الإسلامي، وكان أحد أسباب الهزيمة في هذه المعركة.

بدأت المعركة في سهل تور أو بواتييه في رمضان سنة 114 هـ / نوفمبر 732 م، بمناوشات استمرت ثمانية أيام رجحت فيها كفة المسلمين، وفي اليوم التاسع خاض الجمعان معركة عنيفة استمرت إلى أن أرخي الليل سدوله، واستراح الجمعان، ثم أستؤنف القتال في اليوم العاشر بشراسة وقسوة وشدد المسلمون حملتهم علي جيش الفرنجة حتى كادوا يقطعوا ثمار النصر، غير أن أودو عرف نقطة الضعف في جيش

(1) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص 142، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص 232 - 233، علي حسين الشطشاط، تاريخ الأسلام في الأندلس، ص 72.

(2) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص 142، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص 232 - 233، علي حسين الشطشاط، تاريخ الأسلام في الأندلس، ص 72.

المسلمين لعلاقته السابقة بهم، فقد كان يعرف أن من عادة المسلمين أن يتركوا غنائمهم في مؤخرة الجيش، فالتف مع فرقة من جيشه خلف جيش المسلمين وهاجم مؤخرته، وبلغ هذا الهجوم أفراد الجيش الإسلامي فتراجع الكثير منهم إلى المعسكر لاستخلاص الغنائم من يدي الفرنجة، فأخذ هذا التراجع بنظام الجيش، وحاول عبد الرحمن الغافقي عبثاً أن يعيد إلى الجيش تنظيمه، غير أن سهماً أصابه من الأعداء فسقط شهيداً في أرض المعركة، ولما رأى المسلمون قائدهم صريعاً اضطربت نفوسهم، وارتبكت صفوفهم، وأحاط بهم الفرنجة من كل مكان، وراحوا يعملون فيهم السيف، وقد صمد المسلمون علي مدافعة الفرنجة حتى أقبل الليل وأرخي سدوله، فحال بين الجيشين وعاد كل جيش إلى موقعه، واجتمع كبار رجال الجيش وتشاوروا فيما بينهم ماذا يفعلون، ثم أجمعوا علي الرجوع إلى ديار الإسلام متجهين إلى سبتمانيا، أربونة، في ظل الليل مخلفين خيامهم وغنائمهم، وقد باتت الفرنجة ليلتهم وهم ينوون القضاء علي المسلمين في صباح اليوم التالي، فلما أدركهم الصباح نظروا إلى معسكر المسلمين فوجدوه خالياً من أصحابه، ولم يحاول الفرنجة تتبع فلول المسلمين لأنهم خافوا أن يكون من وراء تراجعهم كميناً نصبوه لجيشهم، أو لأنهم لقوا صعوبة في قتال المسلمين، فأثر قائدهم شارل مارتل العودة بجيشه نحو الشمال معتزلاً بما أحرزه من انتصار علي المسلمين، وقد سمي المسلمون هذه الموقعة بلاط الشهداء لكثرة من استشهد فيها من عظماء الرجال مع عبد الرحمن الغافقي (1).

في الحقيقة أنه علي الرغم من ضخامة حملة عبد الرحمن الغافقي تلك إلا إنه كانت هناك مشكلة كبيرة تكاد تفتك بها، وهي أن هذه الحملة كانت قد فتحت مدناً كثيرة حتى وصلت إلى بواتيه، ومن ثم فقد جمعت من الغنائم الكثير الذي زاد وثقل في أيدي المجاهدين، وهنا بدأ المجاهدون ينظرون إلى هذه الغنائم ويفقدون بهذه الأموال الضخمة التي حصلوها.

ونتيجة هذا فقد اشتهر بين الناس فكرة العودة إلى بلاد الأندلس لحفظ هذه الغنائم هناك حتى لا يحصل عليها الفرنسيون، لكن عبد الرحمن الغافقي رحمه الله جمع الناس وقال مخاطباً إياهم: ما جدنا من أجل هذه الغنائم، وما جدنا إلا لتعليم هؤلاء

(1) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص 275، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص 143 - 144، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص 235 - 236، محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص 210، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص

الناس هذا الدين، ولتعبيد العباد لرب العباد سبحانه وتعالى، وأخذ يحفزهم على الجهاد والموت في سبيل الله، ثم انطلق بالجيش إلى بواتيه رغماً عن أنف الجنود.

عندما وصل عبد الرحمن الدغافقي بالجيش إلى بواتيه ظهرت ثمة أمور أخرى جديدة؛ فقد تجددت العصبية التي كانت قد اندحرت في بلاد الأندلس بين العرب والبربر من جديد؛ وذلك بسبب كثرة الغنائم، فقد اختلفوا في توزيعها رغم أنه معروف ومتفق عليه، أخذ كل ينظر إلى ما بيد الآخر، وكل يريد الأكثر، يقول العرب أنهم أحق لأفضليتهم، ويقول البربر نحن الذين فتحنا البلاد، ونسي الجميع أن الفاتحين الأوائل ما فرقوا أبداً بين عرب وبربر، بل وبينهم وبين من دخل الإسلام من الأندلسيين بعد ذلك،

وإضافة إلى العصبية وحب الغنائم والحرص عليها فقد اجتمع إلى جوارهما الزهو والاعتزاز بالكثرة والعدد الضخم، فخمسون ألفاً من المجاهدين عدد لم يسبق في تاريخ الأندلس، فأخذتهم العزة، وظنوا أنهم لن يغلبوا بسبب كثرتهم هذه، ومن بعيد تلوح في الأفق حنيناً جديدة {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ} [التوبة: ٢٥] فالمسلمون لم ينتصروا أبداً بعدتهم ولا عتادهم، وإنما كانوا ينتصرون بطاعتهم لله ومعصية عدوهم له سبحانه وتعالى، وللأسف الشديد فرغم وجود هذا القائد الرباني النقي الورع إلا أن عوامل الهزيمة داخل الجيش الإسلامي كانت كثيرة وأقوى منه.

ولم تذكر الروايات الإسلامية حصراً دقيقاً لشهداء المسلمين في بلاط الشهداء، إلا أن بعض الروايات الأوروبية بالغت كثيراً في أعداد قتلى المسلمين فيها، فتذكر بعضها أن قتلى المسلمين في بلاط الشهداء بلغ خمسة وسبعين وثلاثمائة ألف مسلم، وهو بلا شك رقم مبالغ فيه جداً؛ لأن جيش المسلمين في الأساس لم يتعد حاجز الخمسين ألفاً.

وفي رواياتهم يقول: الأوروبيون متخوفين أنه لو كان انتصر المسلمون في بلاط الشهداء على الفرنسيين لفتحت أوروبا جميعاً، ولدرّس القرآن في جامعات أوكسفورد وغيرها من الجامعات الأوروبية، والله إنها لتعاسة لهم وخسران أن لم ينتصر المسلمون، فلو انتصروا لكان قد انتشر الخير في هذه البلاد، لكنهم ظلوا في ضلالتهم وظلوا في غيهم يعمهون ويعبدون غير الله سبحانه وتعالى ويشركون به.

بعد هذه المعركة انسحب المسلمون إلى الداخل، ومع أنهم هُزموا وانسحبوا إلا أنها لم تكن هزيمة ساحقة كما صورها الأوروبيون، بدليل أن جيش النصارى لم يتبع

جيش المسلمين حيث انسحبوا، وكان من عادة الجيوش أنها تتابع الجيش الفار، بل اكتفى النصارى بما أخذوه من غنائم وما قتلوه من قتلى من المسلمين.

* * *

وقفه مع بلاط الشهداء

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ} [فاطر: ٥]. فالملاحظ أن المسلمين قد اغتروا بهذه الدنيا التي فتحت عليهم فتتافسوها، وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن عمرو بن عوف الأنصاري ☺ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **قَوْلَ اللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْنَهُمْ** — (1).

فسنة لله تعالى في خلقه أنه إن فتحت الدنيا على المسلمين وتنافسوها كما تنافسها من كان قبلهم من الأمم السابقة، فإنها ستهلكهم أيضا كما أهلكت هذه الأمم السابقة **فَلَنْ يَجْدِلَسْتَ اللَّهَ تَبْدِيلًا وَلَنْ يَجْدِلَسْتَ اللَّهَ تَحْوِيلًا** [فاطر: ٤٣].

أمر آخر كان في جيش المسلمين وكان من عوامل الهزيمة وهو العنصرية والعصبية القبلية التي كانت بين العرب والبربر في هذه الموقعة، ولقد شاهد الفرنسيون أثر هذا الذي نشأ بين العرب وبين البربر، ووعت الكتب الفرنسية هذا الأمر جيدا، وظل في ذاكرتها على مدار التاريخ حتى مرت الأيام ومرت السنوات ودخلت فرنسا بلاد الجزائر واحتلتها من سنة ألف وثمانمائة وثلاثين، وحتى سنة ألف وتسعمائة وستين ميلادية، فحين قامت الحركات الاستقلالية منذ سنة ألف وتسعمائة وعشرين وما بعدها، وحين فكرت فرنسا في القضاء على هذه الحركات الاستقلالية الناشئة لم تجد أمامها إلا إشاعة الفتنة بين العرب والبربر وضربهم ببعضهم البعض، فكانت تشيع داخل البربر أنهم قريبون من العنصر الآري (وهو العنصر الأوروبي)، وبعيدون عن العنصر السامي (وهم العرب)، أي أنتم منا ونحن منكم والعرب بيننا غرباء؛ وذلك للتشابه الكبير بين البربر والأوروبيين في الشكل الخارجي الأمر الذي لا يعترف به الإسلام ولا يقره على الإطلاق فالمعيار الوحيد في التفاضل في الإسلام هو التقوى.

ولم تكتف فرنسا بذلك، بل قامت بتكثيف تعليم اللغة الفرنسية في مناطق البربر، ومنعت تعليم اللغة العربية في هذه المناطق أصلا؛ وذلك حتى يتم فصل البربر عن العرب تماما في منطقة الجزائر، وهي وإن كانت قد نجحت في أمر اللغة بعض

(1) قال الشيخ الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: 1036 في صحيح الجامع.

الشيء إلا إنها لم تفلح على الإطلاق في تحويل ديانة البربر الإسلامية إلى النصرانية، فظل البربر على إسلامهم وإن كانت لغتهم قد تغيّرت، في بادئ الأمر كان البربر الذين يعيشون في منطقة الجزائر تسمى قبائل الأمازيغ، وكانوا يمثلون خمسة عشر بالمائة من شعب الجزائر، ورغم أن لهم لغة خاصة بهم وهي الأمازيغية إلا أنهم كانوا يتمسكون بالعربية، لكن حين قامت فرنسا بهذا الأمر بدأت تُذكي الروح البربرية في اللغة المنفردة لهذه القبائل؛ فبدأت تعلم اللغة الأمازيغية، حتى إنها أنشأت في فرنسا عام سبعة وستين وتسعمائة وألف أكاديمية خاصة لتعليم اللغة الأمازيغية، وبدأت تكتب اللغة الأمازيغية بحروف لاتينية رغم أنها كانت لغة منطوقة وليست مكتوبة، قامت فرنسا كذلك بحذف الكلمات العربية التي كانت قد دخلت هذه اللغة وأبدلتها بأخرى أصيلة في اللغة البربرية، وبدأت بالفعل في اجتذاب الشباب من البربر لتعليمهم اللغة الأمازيغية في فرنسا، حتى إنه في عام ثمانية وتسعين وتسعمائة وألف أنشأت ما يسمى بالأكاديمية العالمية للبربر، فبدأت تجمع البربر من مناطق المغرب العربي وغرب إفريقيا وتعلمهم اللغة الخاصة بهم، وكل ذلك لفصل العرب عن البربر، تلك الجموع التي ما هي إلا جموع إسلامية ارتبطت برباط العقيدة والدين، لكنها رأت آثار ذلك في وادي برباط وما تلاها فلم تتوان، وفي ذات الوقت الذي تعمل فيه فرنسا جاهدة على إقامة لغة غير العربية في بلد عربي، كانت هي فرنسا التي رفضت المشروع الذي تقدم به جوسبان رئيس وزرائها إلى شيراك سنة تسع وتسعين وتسعمائة وألف بإقرار بعض اللغات المحلية داخل فرنسا، والذي رد عليه شيراك بقوله: إنك بهذا تريد بلقنة فرنسا، أي تجعلها كدول البلقان، بلاد متفرقة بحسب العرق وبحسب العنصر، حلال على الجزائر حرام على فرنسا.

* * *

ولاية عبد الملك بن قطن الفهري الأولي

(114 - 116 هـ)

كانت لموقعة بلاط الشهداء ومقتل عبد الرحمن الغافقي نتائج سلبية خطيرة على المسلمين في الأندلس، فقد أحدثت تلك الموقعة دويا هائلا في المغرب والأندلس، فقد حدث للمسلمين هناك نوع من الهزيمة النفسية والإحباط وخيبة الأمل، فأسرع والي إفريقية بتعيين وال من قبله علي الأندلس هو عبد الملك بن قطن الفهري، الذي أدرك صعوبة الموقف وأحوال المسلمين النفسية بعد بلاط الشهداء، فأراد أن يعيد إليهم شيئا من روحهم المعنوية فغزا أرض البشكنس سنة 115 هـ، فوقع بهم الهزيمة الذكراء

(1).

ثم عبر جبال البرت إلى بلاد لانجدوك، وعمل علي تحصين المدن والمعازل التي كانت في أيدي المسلمين، وكانت الفوضى مستحكمة وقتئذ ببلاد سبتمانيا وبروفانس علي إثر هزيمة المسلمين في بلاط الشهداء، وكان أمرائها قد انتهزوا فرصة تفهقر جيوش المسلمين من بروفانس إلى أربونة وانشغال شارل مارتل ببسط سلطانه علي برغندية وشمالي بروفانس، وهي المناطق التي غزاها المسلمون أيام عنبسة، ثم اضطروا للجلء عنها، وانشغاله بعد ذلك بإخضاع الفريزون وهم أهل الرين الأدنى، ثم توزعوا البلاد فيما بينهم، وعمد بعضهم إلى محالفة المسلمين في أربونة لاتقاء خطر شارل مارتل، ومن أمثال هؤلاء مورونت دوق مارسيليا، الذي كان قد إقتطع لنفسه معظم إقليم بروفانس، وتمكن هذا الحاكم الإفرنجي مع حاكم أربونة المسلم، واتفق معه علي مهاجمة وادي ردونة واستوليا علي مدينة آرل، ونهبوا أديرة سان أبوتر ودير العذراء وهدم ضريح سان سيزير، ووصل المسلمون بعد ذلك حتى أعالي نهر دورانس وتمكنوا من إحتلال بلاد بروفانس زهاء أربع سنوات أي حتي سنة 738م، ثم أرغموا شارل مارتل بعد ذلك علي العودة إلى أربونة (2).

* * *

ولاية عقبة بن الحجاج السلولي

(116 - 122هـ)

وعلي ما يبدو أن عبد الملك بن قطن قد أساء السيرة وركن إلى ظلم الناس، مما عجل بنهاية ولايته الأولى حيث تم عزله في رمضان سنة 116 هـ / 734 م، وتولي بدلا منه عقبة بن الحجاج السلولي من قبل عبيد الله بن الحباب (3).

وكان عقبة محمود السيرة مجاهدا يقول عنه ابن عذارى (4): "... ثم ولي عقبة بن الحجاج السلولي في شوال سنة 116. وقالوا: في ولايته كان عبيد الله بن الحباب عامل مصر وإفريقية؛ فقدم عليه عقبة بن الحجاج، وكان مولاه؛ فأكرمه، وبرّه، ورفع شأنه وقدره، وأنزله في مكانه، وخبره في ولاية ما شاء من سلطانه. وكان الحجاج

(1) المقري، نفح الطيب، 1 / 220.

(2) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص 146 - 147.

(3) المقري، نفح الطيب، 2 / 220.

(4) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - (2 / 220).

أبو عقبة قد أعنق الحباب أبا عبيد الله؛ فولى هشام بن عبد الملك عبيد الله بن الحباب مصر وإفريقية والأندلس؛ فكان له من العريش إلى طنجة إلى الأسوس الأقصى إلى الأندلس وما بين ذلك؛ وكان أحد بنيهم بمصر، والثاني بالأسوس وطنجة، والثالث بالأندلس؛ وكان عبيد الله بإفريقية. فلما شرف عبيد الله، وعلت منزلته، وانتشر ذكره، وفد عليه مولاة عقبة؛ فأجاسه معه على فراشه، وأدناه من نفسه، وقربه، حتى عظمت منزلته في الناس؛ فكان يقصده الطالبون وذوو الحاجات، يتوسلون به إلى عبيد الله. فغص به بنو عبيد الله، وقالوا لوالدهم: (أصرفه عنا لئلا يكسر شرفنا!) فما زاده ذلك عنده إلا تعظيما وتكريما، وخبره في ولاية ما شاء من سلطانه؛ فاختار الأندلس؛ فولاه عليها. وكان يجاهد المشركين في كل عام، ويفتح المدائن. وهو الذي فتح مدينة أربونة، وافتتح جليقية وبنبلونة، وأسكنها المسلمين. وعمت فتوحاته جليقية كلها غير الصخرة؛ فإنه لجأ إليها ملك جليقية، وكان بها في ثلاثمائة راجل. فما زال المسلمون يضيقون عليهم، حتى صاروا ثلاثين رجلا، ودتي فنيت أزودتهم، ولم يتقوتوا إلا بعسل يجدونه في خروق الصخرة. وأعابى المسلمين أمرهم؛ فتركوهم. وأقام عقبة بالأندلس بأحسن سيرة وأجملها، وأعظم طريقة وأعدلها، إلى أن غزا أرض إفرنجة؛ فلقيته جيوش الأعداء؛ فقتل هو ومن معه ببلاط الشهداء. وذكر عنه أنه كان صاحب بأس ونجدة، ونكاية للعدو وشدة. وكان إذا أسر الأسير، لم يقتله حتى يعرض عليه دين الإسلام، ويفتح له عبادة الأصنام. فيذكر أنه أسلم على يديه بهذا الفعل ألف رجل. وكانت ولايته خمسة أعوام وشهرين. وقيل: إن أهل الأندلس شاروا على عقبة بن الحجاج وخدموه...“.

وفي عهد عقبة أغار المسلمون على منطقة دوفينة وخرّب عقبة بلدة سان بول المعروفة بالقصور الثلاثة، ومدينة دونزير واستولي على مدينة فالنس الواقعة على نهر ردونة، وخرّب كنائس منطقة فيين (على نهر ردونة)، وأقام مجاهدا فاتحا حتى بلغ أربونة (Narbonne) وفتح معها جليقية وبنبلونة (Pampelune)، وبلغ توسع المسلمين في الأندلس في هذه حتى أربونة شمالا وصار رباطهم على نهر ردونة (1).

ولاية عبد الملك بن قطن الفهري ثانية

(1) المقري، نفح الطيب، 1 / 220، حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص 280 وما بعدها.

(122 - 123 هـ / 739 - 740 م)

وبالرغم من أن عقبة بن الحجاج السلولي قد أحسن إلى الناس، وعاملهم بالحسني، وأعاد للمسلمين في الأندلس هيبته بعد بلاط الشهداء، ولكن وثب عليه عبد الملك بن قطن الفهري سنة 121 هـ ومن معه من اليمانية علي ولاية الأندلس واغتصبها من الحجاج بن عقبة السلولي، واستبد بالبلاد، واشتعلت علي يديه نار الفتنة بين العصبيتين اليمنية والمضرية في الأندلس، إذ أنه إستعان بالعرب الشاميين بزعامة بلج بن بشر - الذين كان يحاصروهم البربر في سبتة - لإخماد ثورة البربر البلديين في شمال الأندلس بجليقية والدروب واسترقاة وطليلة.

وكانت الأمور قد اضطربت في المغرب الأقصى، وكان يشهد ثورة البربر بزعامة ميسرة المدغري ضد الحكام المسلمين العرب، فقتلوا حاكم طنجة عمر بن عبد الله المرادي، وحاكم السوس إسماعيل بن عبد الله بين الحبحاب - وهو ابن والي إفريقية - ونادوا لميسرة بالخلافة، وقاتلهم والي إفريقية عبيد الله بن الحبحاب، الذي جعل علي رأس جيشه خالد بن حبيب الفهري، وقد التقت الجيوش العربية مع الجيوش البربرية بالقرب من طنجة في معركة كبيرة اشتد فيها القتال، وكان النصر فيها حليف البربر، وقتل في هذه المعركة التي دارت رحاها سنة 123 هـ / 740 م نفرا عظيما من أشراف عرب إفريقية، ولذلك سميت بمعركة "الأشراف" (1).

ولي الخليفة هشام بن عبد الملك علي إفريقية كلثوم بن عياض القشيري في جمادي الآخرة سنة 123 هـ وبعث معه جيشا قوامه ثلاثون ألفا، وذلك لضبط إفريقية والقضاء علي الثورات بها، وكان كلثوم قد اصطحب معه ابن أخيه بلج بن بشر القشيري، وقد التقت الجيوش العربية مع جيوش خوارج البربر - الذين كانوا تحت قيادة خالد بن حميد الزناتي - بوادي سبو، ودارت بين الطرفين معركة رهيبة رجحت فيها كفة البربر واستشهد كلثوم بن عياض، فتولي بعده ابن أخيه بلج بن بشر ولاية إفريقية، حيث سبق أن عهد له بها، وقد تشتت جموع العرب بعد هذه المعركة، فلاحق بعضهم بالقيروان، ولجأ بلج بن بشر في عشرة آلاف من أهل الشام إلى سبتة فتحصنوا بها فحاصروهم البربر وشددوا عليهم الحصار فطلبوا من عبد الملك بن قطن أن يساعدهم في العبور إلى الأندلس فمأطلمهم في البداية خوفا منهم علي مركزه

وسلطانه (1).

وفي الوقت الذي كاد اليأس أن يستحوذ علي تفكير هؤلاء المحاصرين، ويطرد كل آمالهم في الحياة، إذا بالطريق إلى الأندلس تصبح ممهدة، بعد اندلاع ثورة البربر بالأندلس وعدم استطاعة عبد الملك بن قطن في إخمادها (2).

لما رأي والي الأندلس اتساع ثورة البربر وازدياد نفوذهم في الأندلس اضطر إلى السماح لبلج وأصحابه العبور إلى الأندلس، فكاتبتهم بذلك واشترط عليهم، أن لا يقيموا أكثر من سنة في الأندلس، وأن يحاربوا معه البربر الثائرين ضد الحكم الإسلامي، كما اشترط عليهم أن يأخذ منهم رهائن أنزلهم بجزيرة أم حكيم (3).

عبر بلج ومن معه الأندلس سنة 123 هـ / 740 م وقدم لهم عبد الملك ما يحتاجون إليه من الطعام واللباس وانضموا إلى جيشه، ثم اتجهوا نحو البربر المتجمعين في وادي الفتح بشذونه فهزموا البربر، وغنم بلج وأصحابه منهم غنائم كثيرة، ثم اتجهوا إلى قرطبة حيث ردوا جموع البربر عنها بعد قتال عذيف، ثم ساروا بأجمعهم نحو طليطلة وقد اجتمع هناك معظم البربر، فكانت هزيمتهم العظمي هناك، بوادي سليط بالقرب من طليطلة، بعد أن زحف عبد الملك وبلج إليهم بعرب الأندلس، وزحف البربر بأجمعهم، فهزمهم العرب، وقتلوا منهم في هذه الموقعة الآلاف، وبذلك قضى علي فتنة البربر في الأندلس، وفي نفس الوقت اشتد ساعد بلج وأصحابه (4).

ثم أراد عبد الملك بن قطن أن يخرجهم من الأندلس إلى حيث كانوا بسببة، مدفوعا في ذلك بعصبيته ضد الشاميين، وكان قد شهد موقعة الحرة وهو صغير السن ولم ينس أهوالها، فأخرجوه من قصره إلى داره وكأنه " فرخ نعمة لكبر سنه " وهم ينادونه: " أفلت من سيفونا يوم الحرة فطابت بئارنا في أكل الدواب والجلود، ثم أردت إخراجنا إلى القتل "، ثم قتلوه وصلبوه وصلبوا خنزيرا عن يمينه وكلبا عن شماله " (5).

ويقول ابن عذاري عن أحداث ولاية عبد الملك بن قطن الثانية: " .. وفي سنة

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 30.

(2) علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 77.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 30.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 30.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 45.

122، ولي عبد الملك بن قطن ثانية، حتى كان من أمر البربر وبلج بن بشر، ابن أخي كلثوم ابن عياض عامل إفريقية، ما ذكره. قال ابن القطان: وذلك أن هشام بن عبد الملك كان قد ندب كلثوما لقتال البربر، وولاه إفريقية، وبعث معه ثلاثين ألف فارس: عشرة آلاف من صلب بني أمية؛ وعشرين ألفا من العرب؛ وعهد إليه في سد إفريقية وضبطها، إذ كانوا يجدون في الروايات أن ملكهم يزول، وأن ملك بني العباس لا يجاوز الزاب. فتوحمته بنو أمية زاب مصر، وإنما كان زاب إفريقية. فأمره بالجد في أمر إفريقية، ليلجؤوا إليها إذا ذهب ملكهم؛ وعهد، إن حدث بكلثوم حدث، أن يكون ابن أخيه يلج مكانه؛ فدارت بينه وبين البربر حروب عظيمة، هزموا في بعضها كلثوما وقتلوه. وصار أمر العرب بإفريقية إلى بلج بالعهد المذكور.

ولجأ فلهم إلى سبته، حتى ضاق عليهم الأمر ضيقا عظيما؛ فكتب بلج وأصحابه عبد الملك بن قطن صاحب الأندلس، وسأله إدخاله وإدخال من معه من الجند. وذكروا له ما صروا إليه من الجهد، وأنهم قد أكلوا دوابهم. فأبى عبد الملك من إدخالهم، ولم يأمنهم، ومطلهم بالميرة والسعن. واتفق أن تطاولت البربر أيضا بالأندلس، وفاضحوا العرب، وظهروا على الساكنين منهم بجليقية وغيرها؛ فقتلوه، وطردوهم. فلما ورد فل العرب على عبد الملك بن قطن، ورأى عادية البربر، اضطر لأجل ذلك إلى إدخال بلج وأصحابه؛ فكتبهم، وشرط عليهم مقام سنة بالأندلس، ثم يخرجون عنها؛ فرضوا بذلك. فأخذ منهم رهائن أنزلهم بجزيرة أم حكيم، وهي على الخضراء. ثم أدخل بلجا وأصحابه عراة، لا يواريهم إلا دوابهم، وقد بلغ بهم الجهد غايته. وكانوا نحو عشرة آلاف من عرب الشام. فلما دخلوا، كساهم عرب الأندلس على قدر أقدارهم؛ قرب رجل يكسو مائة رجل، وآخر عشرة، وآخر واحدا، إلى ما بين ذلك.

فلما دلوا بالخضراء، اجتمع بهم عبد الملك بن قطن؛ وكان بشذونة جمع من البربر، عليهم رجل زناتي؛ فبدأ عبد الملك يقاتلهم في وادي الفتح من شذونة، فلم يكن العرب فيهم إلا نهضة، حتى أبادوهم، وأصابوا أمتعتهم ودوابهم. فاكتسى أصحاب بلج، وانتعشوا، وأصابوا الغنائم. ثم نهضوا مع عبد الملك إلى قرطبة؛ ثم ساروا بأجمعهم إلى جهة طليطلة، وقد اجتمع هنالك معظم البربر؛ فكانت هزيمتهم العظمى هنالك بوادي سليط من حوز طليطلة، بعد أن زحف عبد الملك وبلج إليهم بعرب الأندلس، حاشا عرب سرقسطة وثغورها. وزحف البربر بأجمعهم، فهزمهم العرب، وقتلوا منهم في الهزيمة آلافا.

... ولما أباد ابن قطن البربر بالأندلس، بمن كان معه من العرب، وبأصحاب بلج، قال لبلج وأصحابه: (اخرجوا من الأندلس على ما شئتم عليه! فقال بلج: احملنا إلى ساحل البيرة أو ساحل تدمير!) فقال لهم عبد الملك: ليست لنا مراكب إلا بالجزيرة! فقالوا له: إنما تريد أن تردنا إلى البربر ليقتلونا في بلادهم! فلما ألح عليهم في الخروج، نهضوا إليه؛ فأخرجوه من قصر قرطبة إلى داره بالمدينة. ودخل بلج القصر عشية يوم الأربعاء في صدر ذي قعدة من السنة. وكان بلج، وقت جوازه عن سبتة، قد أعطى رهائن لابن قطن، جعلهم ابن قطن بجزيرة أم حكيم؛ فضاخوا مدة الفتنة بين بلج وابن قطن، والجزيرة المذكورة دون ماء؛ فمات رجل من غسان عطشا، وكان من الرهائن، من أشرف دمشق... ولما ملك بلج الأندلس، واستولى عليها، طلب منه الجند أن يعطيهم ابن قطن في الغساني المذكور؛ فتوفق بلج؛ فألح الجند، وثار اليمن كلها على كلمة واحدة. وكان ابن قطن شيخا هرما، قد بلغ التسعين؛ وكان قد حضر يوم الحرّة، ومنها فرّ إلى إفريقية؛ وكان يومئذ بداره بقرطبة؛ فأخرج الجند منها، كأنه فرخ نعام من الكبر، وهم ينادونه: (أفلت من سيوفنا يوم الحرّة؛ فطلبنا بثأرنا في أكل الدواب والجلود! ثم أردت إخراجنا إلى القتل!) ثم قتلوه، وصلبوه، وصلبوا خنزيرا عن يمينه، وكلبا عن شماله (1).

* * *

ولاية بلج بن بشر القشيري

(123 هـ / 740 م)

لم يكن مقتل عبد الملك بن قطن إلا حلقة في سلسلة من الفتنة والحرب الأهلية التي يشهدها الأندلس، ذلك أن أمية وقطن ابني عبد الملك بن قطن قد فرا إلى الشمال، وحشدا جموعهما في سرقسطة وأزرهما البلديون (العرب المحليون) والبربر، وانضم إليهما جماعة من الزعماء الذين أنكروا فعلة بلج بعبد الملك بن قطن، مثل عبد الرحمن ابن حبيب الفهري كبير لالجند، وكان من أنصار بلج، وبعبد الرحمن بن علقمة اللخمي، حاكم أربونة (فارس الأندلس في عصره) وكان قوي البأس كثير الأتباع، وانقسمت بذلك الأندلس إلى معسكرين كبيرين: معسكر الشاميين المتغلبين علي الحكم، ومعسكر البربر والعرب المحليين الذين اعتبروا الشاميين دخلاء غاصبين، فعظمت الفتنة واشتد الاضطراب، وسار أمية وقطن وأنصارهما إلى

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 45.

قرطبة لقتال الشاميين في جيش قيل أنه بلغ نحو مائة ألف، وتأهب بلج وأنصاره للدفاع في نحو عشرين ألفاً، والتقي الفريقين علي مقربة من قرطبة في شوال سنة 124 هـ / 742 م، ونشبت بينهما معركة عنيفة، أسفرت عن إنهزام إبننا عيم الملك بن قطن وأنصارهما، وأصيب بلج بجراح خطيرة توفي علي إثرها بعد ذلك بأيام (1).

يقول ابن عذاري عن تلك الفتنة: "... ثم إن أمية وقطنا ابني عبد الملك بن قطن حشدا في جهة سرقسطة. وكانا قد هربا من قرطبة وقت إخراج أبيهما منها، وجاء إلى بلج طالبين يثأرهما، وهما في نيف على مائة ألف من العرب القدماء والحدث؛ فخرج إليهما بلج، وهو في أقل من خمس عددهما؛ فاقتتلوا قتالا شديدا. ثم انهزم ابنا عبد الملك ومن معهما هزيمة عظيمة؛ وانصرف أصحاب بلج ظافرين، وقد امتلأت أيديهم وأنفسهم غنما ونصرا وسرورا، إلا أن بلجاً أميرهم وفيه من جراحة أصابته في المعركة، ومات بعد أيام. وكانت مدة إمارته اثني عشر شهرا. واختلف في ذلك. فقال أبو عمر السالمي: إن تلك المعركة انجلت عن أحد عشر ألف قتيل، وإن عبد الرحمن بن علقمة فوق سهما إلى بلج؛ فأصاب مقتله... (2).

* * *

ولاية ثعلبة بن سلامة العاملي

(124 هـ / 742 م)

بعد إنتصار الشاميين وعودتهم إلى قرطبة ظافرين، بعد وفاة بلج، قدم عليهم الشاميين ثعلبة بن سلامة العاملي، بموجب عهد من الخليفة هشام بن عبد الملك الذي أمر ان يتولي أمر الجيش - وقت خروجه من الشام - كلثوم بن عياض فإن أصيب فابن أخيه بلج، فإن أصيب فثعلبة بن سلامة العاملي، فتولي ثعلبة إمرة الأندلس في شوال من عام 124 هـ / 742 م، وكان من أصحاب بلج الذين عبروا معه إلى الأندلس (3).

وحاول ثعلبة أن يضبط الأمور والأمن في الأندلس في بداية عهده ولكن سلطان الحكومة المركزية كان قد تضعضع وانقسمت الأندلس إلى مناطق عديدة النفوذ،

(1) المقري، نفح الطيب، 2 / 59 - 60، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 5 / 95.

(2) البيان المغرب، 2 / 323.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 32 - 33، المقري، نفح الطيب، 2 / 59 - 60، ابن الأثير، الكامل،

وآلت الغلبة في الأقاليم الوسطي والشمالية لجماعة من من الزعماء الخارجيين علي حكومة قرطبة، مثل أمية وقطن ابني عبد الملك، وعبد الرحمن بن حبيب الفهري، وعبد الرحمن اللخمي حاكم أربونة، واستمر يؤاذر هذا الفريق سواد العرب المحليين والبربر، ولم تمض أشهر قلائل حتى اضطرت الحرب مرة أخرى بين الفريقين المتنازعين، ونشبت بينهما مواقع عديدة علي مقربة من ماردة، فهزم الشاميون أولا واعتصم ثعلبة بقلعة ماردة، ولكنه عاد فكر علي خصومه وهزمهم هزيمة شنيعة، وأسر وسبي منهم جموعا كبيرة، وعاد ظافرا إلى قرطبة، وقرر إعدام الأسري ليلقي خصومه درسا قاسيا، ولكنه لم يتمكن من تنفيذ عزمه، وكان يبيع ذراري أهل البلد ويحملهم أسري ويحملهم من أمرهم ما لا يطيقون، واستمر ثعلبة علي هذا الحال حتى ورد عليه أبو الخطار بن حسام الكلبي واليا من قبل حنظلة بن صفوان والي إفريقية (1).

يقول ابن عذاري: "... وفي سنة 123، في شوال، ولي الأندلس ثعلبة بن سلامة، ولاه أهل الشام؛ وذلك أن هشام بن عبد الملك كان قد عهد أن يتولى أمر الجيش، إذ جهزه من الشام، كلثوم بن عياض؛ فإن أصيب، فأين أخيه بلج؛ فإن أصيب، فثعلبة. فأقعد أصحابه ثعلبة بن سلامة بما عهد به هشام إليهم، وبأيعوه. وثار من بقي من البربر بماردة في أيامه؛ فغزاهم، وقتل منهم خلقا كثيرا وأسر منهم نحو الألف؛ وانصرف إلى قرطبة... وكانت ولايته عشرة أشهر... وكان يبيع ذراري أهل البلد، ويحملهم أسرى، ويرهقهم من أمرهم عسرا. فكان ثعلبة معهم على هذه الحال، إلى أن ورد أبو الخطار (2).

* * *

ولاية أبي الخطار بن ضرار الكلبي (125 - 128 هـ / 742 - 745 م)

بعد أحداث الفتنة السابقة كتب وجوه أهل الأندلس إلى حنظلة بن صفوان الكلبي والي إفريقية أن يرسل إليهم يجمع الكلمة خوفا من أن يهاجمهم نصاري الشمال ويغيروا علي أراضي المسلمين، وقيل: أن الذي اختار أبو الخطار لولاية الأندلس هو هشام بن عبد الملك الخليفة، اختاره قبل وفاته بقليل، إذ توفي في ربيع الثاني سنة

(1) المقري، نفح الطيب، 2 / 59 - 60، ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 32.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 32.

125 هـ، وقدم أبو الخطار إلى الأندلس في رجب ودخل قرطبة وتسلم مقاليد الأمور، فقبض في الحال علي زمام السلطة، وأفرج عن الأسري والسبايا، لذين كان ثعلبة ينوي إزهاق أرواحهم، واهتم برد السكينة والنظام، وإخماد ثورة الزعماء الخارجين، ففرق الشاميين في مختلف الكور تمزيقا لعصبيتهم، وأنزل جند الشام بالبيرة، وجند الأردن برية، وجند قنسرين بحيان، وجند مصر بعضهم في أكشوبية وباجة والبعض الآخر في تدمير، وتتبع أبو الخطار الزعماء الخارجين، فقبض علي ثعلبة ونفاه إلى إفريقية مع نفر من زملاؤه، وأعلن أمية وقطن إيدنا عبد الملك بن قطن الطاعة وتفاهما مع أبي الخطار، فولاهما الحكم في بعض الولايات الشمالية، أما عبد الرحمن بن حبيب فاستطاع أن يتقي المطاردة وفر إلى تونس، وهنالك أقام حيناً يرقب الأحداث حتى سنحت له الفرصة والثوب وانتزاع إمارة إفريقية من حنظلة بن صفوان، أما عبد الرحمن اللخمي فلبث مستقلاً برباط الثغر في أربونة وما جاورها.

وسلك أبو الخطار في البداية سبيل الحزم والاعتدال وسوي بين جميع القبائل في المعاملة فرضي الجميع واجتمعت الكلمة علي تأييده وطاعته، وسكنت الفتنة واستقر النظام حيناً، ولكن نزعة العصبية ما لبثت أن حملته - كما حملت أسلافه من قبل - فمال إلى قومه اليمانية وتذكر لخصومه المضربية، واضطربت الأحقاد والمنافسات القديمة، وحدث أن اعتدي أبو الخطار علي زعماء المضربية بالضرب والإهانة لأنه تدخل لحماية رجل من بني قومه، وهذا الزعيم هو الصميل بن حاتم بن شمر الكلابي وجده شمر بن ذي الجوشن من أشراف الكوفة وكان قد اشترك في قتل الحسين بن علي في كربلاء، ثم نزع بأسرته إلى الشام خوفاً من الانتقام، فلما أهين الصميل من أبو الخطار أرسل إلى خيار قومه فشكا لهم ما حل به من هوان فثاروا معه وأيدته لخم وجذام من اليمانية، وقدموا عليهم ثوابه بن سلامة الجذامي اليمني، واتجهوا نحو قرطبة فخرج إليهم أبو الخطار فهزمهم وأسروه واتجه ثوابه ومن معه نحو قرطبة فدخل قصر الإمارة وأعلن اختيار ثوابه أميراً علي الأندلس سنة 128 هـ / 745 م بدلا من الخطار ووافق علي ذلك والي إفريقية الجديد عبد الرحمن بن حبيب الفهري سنة 129 هـ الذي انتزع ولاية إفريقية من حنظلة بن صفوان، فقام ثوابه بضبط الأمور في الأندلس بمعاونة الصميل واجتمع عليه جند الأندلس (1).

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 34 - 35، المقرئ، نفح الطيب، 1 / 237 - 238، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1 / 127.

يقول ابن عذاري: "... وفي سنة 125، ركب أبو الخطار البحر من ناحية تونس في المحرم، وحل بقرطبة؛ فألقى ثعلبة بن سلامة بالمصاراة، ومعه الأسرى والسبي من عرب قرطبة، قد اشتبك في الدبال الولد بالوالد؛ فأمر أبو الخطار بإطلاقهم، وحلهم من وثاقهم؛ وجمع الناس بعد افتراقهم، وصرفهم إلى معهود إيقافهم؛ فدانت له جماعتهم، وفرق أهل الشام على الكور، ونظر لسواهم أيضا بأحسن النظر؛ فأنزل أهل دمشق بالبيرة، أهل الأردن برية، وأهل فلسطين بشذونة، وأهل حمص بإشبيلية، وأهل قنسرين بجبان، وأهل مصر بباجة، وبعضهم بتدمير. وكان إنزالهم على أموال العجم من أرض ونعم. ودخل في ذلك الوقت الصميل بن حاتم... وكان لما هزم ثعلبة البربر، سبي ذراريهم، ولم يكن قبل بلج ولا غيره يتعرض للذرية بسباء. فأقبل إلى قرطبة بعدد من السبي كثير، حتى نزل طرف المصاراة من قرطبة، ومعه الأسرى والسبي من عرب البلد والبربر، وهو يبيع السبي في النداء، ويعبث ويبطر؛ فكان يبيع الشيوخ والأشراف ممن ينقص، لا ممن يزيد، وكان فيهم علي بن الحصين، والحارث بن أسد من أهل المدينة، فابتدأ المنادي عليهما بعشرة دنائير؛ فلم يزل ينادي: من ينقص؟ (حتى باع أحدهما بعنود، والآخر بكلب. فبينما هو على هذه الحال من العبث والبغي، وقد أوقف رجالهم، وأبرزهم للقتل، وذلك يوم الجمعة، إذ قدم أبو الخطار؛ فألقاهم بهذه الحال. فأمر بإطلاقهم؛ فسمى ذلك العسكر عسكر العافية. وكان أهل الأندلس طلبوا من صاحب إفريقية حنظلة بن صفوان عاملا يجمع كلمتهم، إذ كانت الكلمة مفترقة، والقتل ذريعا، ولا يأمنون تغلب العدو عليهم؛ فأرسل إليهم أبا الخطار هذا. واجتمع على أبي الخطار أهل الشام وعرب البلد، ودانت له الأندلس. ثم أنه أمن ابني عبد الملك بن قطن، وأنزل أهل الشام في الكور، وتعصب لليمانية، واعتزل قيسا؛ فكان ذلك سبب توثب الصميل بن حاتم عليه مع مضر، بعد أن ولي سنتين؛ وقيل: وتسعة أشهر؛ وقيل: ثلاث سنين... وكان الصميل بن حاتم هذا جده شمر قاتل الحسين ☺ وهو من أهل الكوفة؛ فلما قتله، تمكن منه المختار بن أبي عبيد؛ فقتله، وهدم داره؛ فارتحل مع ولده من الكوفة، وصاروا بالجزيرة؛ ثم صاروا في جند قنسرين. فرأس الصميل بالأندلس، وفاق بالنجدة والسخاء. فاعتم أبو الخطار به؛ فدخل عليه يوما، وعنده الجند؛ فأحب كسره؛ فأمر عليه؛ فشتم، ولكز؛ فخرج عنه مغضبا، وأتى داره؛ ثم بعث إلى خيار قومه؛ فشكا إليهم ما لقي؛ فقالوا: نحن تبع لك! (فقال:) والله ما أحب أن أعرضكم للقضاعية ولا لليمانية! ولاكني سألتطف، وأدعو إلب مرج راهط، وأدعو لخما وجداما، وتقدم رجلا يكون له الاسم ولنا الحظ. (فكتبوا

إلى ثوابة بن سلامة الجزامي من أهل فلسطين؛ ثم وفدوا عليه؛ فأجابهم، وأجابتهم لخم وجدام. فبلغ ذلك أبا الخطار؛ فغزاهم؛ فلقية ثوابة، وأسره. وسار ثوابة حتى دخل قصر قرطبة، وأبو الخطار معه في قيوده... (1).

* * *

ولاية ثواب بن سلامة الجزامي

(128 هـ / 746 م)

بعد دخول ثوابة قرطبة إرتضته المضربية أميرا للأندلس مكان أبو الخطار، ووافق عبد الرحمن بن حبيب علي هذا الاختيار، وكان قد نجح في الاستيلاء علي ولاية إفريقية من حنظلة بن صفوان، ولكن أبا الخطار استطاع أن يفر من سجنه بمساعدة أصحابه، فذهب باجة وحشد جموعه وقصد إلى قرطبة، فلقية الصميل في المضربية وثوابة في أنصاره من اليمنية، ووقعت بينهما معركة غير حاسمة، وعندئذ دعا بعض اليمنية من فريق ثوابة إلى وقف القتال، ودعي علي أنصار أبي الخطار أنهم يقاتلون ثوابة، مع أنه يماني منهم، وقد عفا عن أبي الخطار وعف عن دمه حين كان في قبضته، فأحدثت تلك الدعوة أثرها، وانفض عن أبي الخطار جنده، وأضطر إلى أن يعود إلى باجة، وهناك لبث ينتظر مجري الحوادث (2).

وبعد هذه الحادثة بقليل توفي ثوابة، ولانستطيع أن نحدد بشكل قطعي المدة التي قضاها في الولاية، ولكن من المرجح أنها لم تقل عن عام، ولم تزد عن عامين في أرجح الأقوال (3).

* * *

ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهري

(129 - 138 هـ / 747 - 755 م)

وبعد وفاة ثوابة عادت الحرب إلى ما كانت عليه، فقد أراد اليمانيون إعادة أبي الخطار إلى إمارة الندلس، ورفض ذلك المضربون بزعامة الصميل بن حاتم وحدث بين الفريقين صراع وقتال ظلت بسببه الأندلس أشهرا بدون أمير يتولي شؤونها، إلا

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 34 - 35.

(2) المقري، نفح الطيب، 4 / 23،.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 35.

أنهم قدموا عليهم عبد الرحمن بن كثير اللخمي للظفر في الأحكام، وعلي الرغم من أن النظر في الأحكام لا يعني الولاية بل القضاء، فإن تسليمه ذلك المنصب كان يعتبر نوعاً من الاعتراف بسلطته، كي لا تظل الأمور فوضي لا ناظم لها، وظل ذلك الإنقسام واقع بين أطراف الساسة في الأندلس حتى ظهر رأي جديد يقتضي بأن يرتضي القيسيون واليمنيون فيما بينهم فيقتسمون الإمارة بحيث تكون عاما لقيسي وآخر ليمني، فوافق الجميع علي ذلك الرأي، واعتقدوا أن فيه نهاية للنزاع بينهم، وقد اتفقوا علي أول وال هو يوسف بن عبد الرحمن الفهري، علي أن يعود الفريقان إلى الاجتماع بعد عام من ذلك التاريخ 129 هـ / 747م ليقرروا من هو اليماني الذي سيلي يوسف في الولاية⁽¹⁾.

ولي يوسف بن عبد الرحمن الفهري إمارة الأندلس دون مصادقة الحكومة المركزية في دمشق أو إفريقية، وكانت حكومة دمشق قد اضطربت شؤونها يومئذ أشد الاضطراب، وأخذت نذر السوء تلوح في الأفق، وكانت مصاير الخلافة الأموية يومئذ تهتز في يد القدر، وقد شغلت بما يواجهها من خطر الفناء الداهم عن حوادث الأندلس، فلم تحاول تدخلا أو اعتراضا علي ما يحدث في الأندلس، ذلك القطر النائي عنها، ولم يكن يوسف في حاجة إلى مراجعة أو مصادقة، وكان المتفق عليه بين اليمينية والمضرية أن يتعاقبا في الولاية فيمكث يوسف عاما فقط ثم يرد الأمر إلى اليمينية، ولكن المضرية بزعماء يوسف ابن عبد الرحمن الفهري والصميل بن حاتم، لم تكن لديهم الرغبة في تنفيذ هذا الاتفاق، ولم يجل بخاطرهم أن يتولي الأمر بعد يوسف أحدا من اليمينية أو أن يتنازل يوسف عن الإمارة مختارا، وعملوا جاهدين علي أن لا يتولي الأمر بعد يوسف يمينيا أبدا، وعمل يوسف منذ البداية علي استخلاص جميع السلطات لنفسه، وعمل علي التخلص من منافسيه في اليمينية، فنزع ولاية رية من يحيى بن حريث الجزامي أحد الزعماء اليمينية، وأحد كبار المنافسين له علي مرسى الإمارة، فلما نزعت رية من يد يحيى بن حريث ثار ضد يوسف وأيده بني جلدته اليمينية، والتفوا حوله، وبدأ يشكل حزبا ضد يوسف، فاتصل بأبو الخطار الذي كان يقيم في باجة بغرب الأندلس، ولكن الرجلان اختلفا بسبب رغبة كل منهما في تولي إمرة الأندلس - بعد التخلص من يوسف بن عبد الرحمن - بيد أنهما اجتمعا علي مقاتلة يوسف بن عبد الرحمن، وأيدهما اليمينية واجتمع لهما أعدادا غفيرة، في

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 35.

حين ساند الصميل والمضرية يوسف بن عبد الرحمن، والتقي الفريقان في شقندة بالقرب من قرطبة سنة 130 هـ / 747م ونشبت بينهما معركة هائلة، انتهت بهزيمة اليمزية ومقتل أبي الخطار وابن حريث، وكثير من زعماء اليمزية، واستقر الأمر ليوسف، ولكنه كان يخشى الصميل، لأنه كان بنفوذه وكثر عصبته يقبض علي زمام الأمور، فرأى أن يبعده عن قرطبة وأقطعه ولاية سرقسطة وأعمالها سنة 132 هـ، واستقل يوسف بالأمر (1).

وقد وجه يوسف الفهري جهوده إلى إصلاح شؤون الأندلس بعد هذه الفتن التي مرت بها وأدت إلى ضعف السلطة المركزية وكادت تذهب بريدها، وقد حاول يوسف الفهري جاهدًا ضبط أمور البلاد فطاف علي القرى والمدن وتفقد أحوالها بنفسه، وعزل المقصرين وحاسب العابثين، وقمع المظالم والفوضى ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وأعاد تنظيم الطرق الحربية، وعدل نظام الضرائب ومراجعة السجلات القديمة واستبعاد الأموات منها، وأعاد تنظيم الأقاليم الإدارية في الأندلس وجعلها خمسة أقاليم رئيسية هي:

- ولاية الأندلس: وهي ولاية باطقة القديمة وتقع بين وادي نهر يانة والبحر المتوسط، وأشهر قوا عدها قرطبة وقرمونة واستجة وأشبيلية وشدونة ولبلة ومالقة، والبيرة وجيان.

- ولاية طليطلة: وهي ولاية قرطاجنة القديمة وتمتد من جبال قرطبة في شمال شرقي ولاية الأندلس حتى نهر دويرة (الدورو) وجبال وادي الحجاره شمالًا، وأشهر قواعدها طليطلة ومرسية ولورقة وأريولة وشاطبة ودانية ولقنت وبلنسية وشقوبية، ووادي الحجاره وقونقة.

- ولاية ماردة وهي ولاية لوجداني أو جليقية القديمة، وتمتد فيما وراء نهر وادي يانة شرقًا حتى المحيط، وأشهر قواعدها ماردة وباجة وأشبونة وأسترقة وسموررة وشلمنقة.

ولاية سرقسطة، وهي ولاية كانتبريا القديمة، وتمتد من منابع نهر التاجه شرقًا، علي ضفتي نهر أيبرو حتى جبال البرنية وبلاد البشكنس، وأشهر قواعدها سرقسطة وطركونة، وجيرنده وبرشلونة وأرقلة ولاردة وطرطوشة وشقة.

ولاية أربونة: وهي ولاية الثغر، وتقع شمال شرقي البرنية حتى البحر، وتشمل

مصب نهر الرون، وأشهر قواعدها أربونة ونيمة وقرقشونة وأجدة وبزيبه وماجلونة (1).

وبالرغم من جهود يوسف الفهري ومحاولاته ضبط الأمور في الأندلس ولكن كانت أيام الدولة الأموية ككل كانت مدبرة، واستغل كثير من العمال المحليين ضعف السلطة المركزية واستقلوا بولاياتهم، كما استغل نصاري الولايات الشمالية تلك الفتنة والحرب الأهلية التي نشبت بين المسلمين في الأندلس وبدأوا يتحركون جنوباً صوب قلاع المسلمين، وزاد الطين بلة حالة القحط والمجاعة التي عصفت بالأندلس واستمرت زعاً أربعة أعوام من عام 131 هـ إلى 135 هـ، حيث فتك الجوع بالناس، مما حمل كثير من الناس علي الهجرة من الأندلس والنزوح إلى ولايات الشمال الإفريقي، فكان ذلك مشجعاً للنصاري لاستغلال حالة الوهن التي يعيشها المسلمون في الأندلس، فتوالت هجماتهم علي ديار وسواحل المسلمين ناهبة كل ما وجدته في طريقها، واستولوا علي كثير من القلاع والحصون ووصلوا في تقدمهم حتى ضفاف نهر دويرة (الدورو) وثار البشكنس والقوط فيما وراء البرنية، واستولي أنزيموند علي قواعد المسلمين في سبتمانيا المسلمة، وهي نيمة وأجدة وماجلونة وبزيبه وما حولها، وأنشأ منها مملكة صغيرة، والتف حوله السكان النصاري، واستطاع بمؤازرة الزعماء المحليين أن يقضي علي سلطان المسلمين في تلك النواحي (2).

وفي تلك الأثناء كان ببين قد خلف أباه شارل مارتل كمحافظ للقصر الفرنجي، وانتزع العرش الميرفونجي من آخر الملوك شلدريك الثالث، وتعاون مع أنزيموند في محاولة إجلاء المسلمين من غاليس، وغزو لانجدوك، وهاجما المواقع الإسلامية وفتكا بالمسلمين في تلك الأنحاء سنة 753 م وقاومته الحاميات الإسلامية أشد مقاومة، ولكنها سرعان ما انهارت لعزلتها أولاً ثم حرمانها من كل مدد أو معونة تنقذها ثانياً، واستولي الفرنج علي تلك القواعد كلها عدا أربونة، فإنها لبثت في أيدي المسلمين أعواماً أخرى، ولم يستطع الجيش الذي سيره يوسف إلى الشمال أن يحقق الغاية المنشودة، بل رد علي عقبه بخسارة فادحة وقتل قائده سليمان بن شهاب، ونجا الحصين العقيلي وفر سانه بصعوبة. وترك الشمال لمصيره، واستغرقت الحروب والفتن الداخلية إهتمام يوسف وكل نشاطه وموارده (3).

(1) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1 / 132 - 133.

(2) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1 / 132، 133.

(3) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1 / 133، 134.

وبالإضافة الي المشاكل والصعوبات التي كان يواجهها يوسف الفهري مع نصاري الشمال، فقد قامت ضده ثورات أخرى كثيرة في الداخل منها تلك الثورة التي قام بها

عبد الرحمن بن علقمة اللخمي الذي كان حاكما لأربونة فأرسل إليه يوسف جيشا حاربه ولم يمكث في حربه إلا يسيرا حتى انتصر عليه وقتله وحمل رأسه إلى يوسف الفهري في قرطبة، وقامت عليه ثورة أخرى في باجة وتزعّمها رجل اسمه عروة اعتمد علي عدد من العرب، وعدد آخر من أهل البلد الذين لا زالوا علي دينهم المسيحي، فأرسل إليه يوسف جيشا هزمه وقتل عددا كبيرا من أتباعه، وثار عليه كذلك في سرقسطة رجل اسمه تميم بن معبد سنة 136 هـ / 753 م وتحالف مع عامر بن عمرو بن وهب في سنة 137 هـ / 754 م فتولي الصميل محاربتهم، فحاصرهما في سرقسطة وتمكن من الانتصار عليهما وقتلهم، وبذلك استطاع يوسف القضاء كل الثورات التي قامت ضده في الأندلس، ولكنه لم يكد ينتهي من إخماد تلك الثورات حتى فوجيء بخطر شديد جاءه من المشرق وهو خطر الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (الملقب بصقر قریش) وذلك في غرة ربيع الأول سنة 138 هـ / 755 م، حيث استطاع نزع الإمارة منه وإنهاء عصر الولاة⁽¹⁾.

يقول ابن عذاري - مجملا - أحداث ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهري: "... لما تفاقم الأمر، وكثر الاختلاف بين أهل الأندلس، تراضوا واتفقوا على تولية يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وعلى أن يدعوا ليحيى بن حريث كورة رية؛ فتركت له طعمة. وقد كانت قضاة اجتمعت قبل ذلك، وقدموا على أنفسهم عبد الرحمن بن نعيم الكلبى؛ فجمع مائتي راجل وأربعين فارسا؛ فبيت القصر بقرطبة، وقاتل الأحراس، وهجم على السجن؛ فأخرج أبا الخطار، وهرب به إلى لبلبة؛ فأقام في كلب وقبائل من حمص؛ فاكتنفوه ومنعوه، ولم يحدث شيئا حتى اجتمع الناس على يوسف. فلما استقام له الأمر، غدر يحيى بن حريث، وعزله عن كورة رية؛ فغضب ابن حريث، وكاتب أبا الخطار حيناً. فقال أبو الخطار: أنا الأمير المخلوع! فأنا أقوم بالأمر! وقال ابن حريث: بل أنا أقوم به، لأن قومي أكثر من قومك! فلما رأت جذام ما يدعوا إليه ابن حريث، قدموه وأجابوه؛ فأصفت يمن الأندلس

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 38، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص 302، علي حسين الشسطاش، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 84.

وحميرها وكندتها على تقديمه والطوع له، وانحازت مضر وربيعه إلى يوسف بقرطبة حضرة الملك. وأقبلا حتى نزلا شقندة.

وكان الصميل مع يوسف الفهري، وهو الذي سألته الناس أن ينظر لهم في وال يلي عليهم، لشغل أمير المؤمنين مروان بن محمد بالمشرق عنهم وبعده عنهم. فاختار لهم يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع الفهري؛ وكان يومئذ بالبيرة؛ فرضيه الناس كما ذكرنا. ووقع اختلاف بعد ذلك في أمره بين مصر واليمن؛ فانضوت اليمن إلى أبي الخطار، من جميع البلاد والأقطار، وزحف بهم إلى يوسف الفهري بقرطبة؛ فكره يوسف الفتنة، وخاف البغضاء والشحناء. فنزل الصميل بن حاتم بالمحلات، وشك السلاح والآلات؛ وأقبل أبو الخطار بمن معه، ونزل موضعه؛ فالتقت بشقندة الفتتان، وتصادمت الفرقتان؛ فلا تسمع إلا صهيلا وصليلا، ولا ترى إلا قتيلًا، حتى تكسرت الخطية وتفللت المشرقية، والتفت الساق بالساق، وانضمت الأعناق إلى الأعناق؛ فلم يعهد حرب مثلها في المسلمين، بعد حرب الجمل وصفين، إلى أن انهزمت اليمانية مع أبي الخطار بعد حين. وهرب أبو الخطار، وركب ظهر الفرار؛ واستتر في رحي للصميل هنالك؛ فظفر به وقتل إذ ذلك. فرأس الصميل بن حاتم في الناس، وشهر بالنجدة والبأس؛ وصرف يوسف الفهري إليه الأمور، وأوقف عليه الرياسة والتدبير. فكان ليوسف الاسم، وللصميل الرسم... ولما أخذ أبو الخطار، وأرادوا قتله، قال: (ليس على فوت! ولكن دونكم ابن السوداء! (يريد ابن حريث). فدل عليه، وقتلا جميعا. وكان ابن حريث يقول: (لو أن دماء أهل الشام سقيت، لشربتها في قدح!) فلما استخرج من تحت الرحي ليقتل، قال له أبو الخطار: (يا ابن السوداء! هل بقى في قدحك شيء لم تشربه؟) ثم قتلا. وأتى بالأسرى؛ فقعد لهم الصميل، وضرب أعناقهم جميعا.

ثم أتبع الله الأندلس بعد ذلك بالوباء والموت في السنة الثانية، حتى كاد الخلق أن يقرض منها.

وولي يوسف عن (رضى من) عامة الجند من مضر ويمن والشام؛ فصفت له الأندلس بعد يوم شقندة، وخلصت له القلوب والأنفس. وعاد الصميل بن حاتم قائده الأعلى، وقدحه المعلى، يقرب منه ما شاء، ويدفع عنه ما ساءه، إلى أن تمكن بالدولة، وتملك رقاب تلك الجملة. فشرق به يوسف

وقلق، وخشي من جانبه وأرق؛ فرأى أن يبعده من مكانه، ويوليّه بعض سلطانه؛ فولاه سرقسطة وبلادها سنة 133؛ فكان فيها إلى أن قام عليه فيها الحباب بن رواحة من بني زهرة بن كلاب؛ فحاصره مدة من سبعة أشهر. وقعد يوسف عن إغاثته، واعتذر بشدة الأندلس في ذلك الوقت ومجاعته، رغبة في تلافه وهلاكه، وحرصا على الراحة منه لاستحواذه واستملاكه، إلى أن اجتمع قومه بالبيرة وجيان، وساروا إلى نصرته، وتقريح كربته.

وقيل: إن الذي قام على يوسف بسرقسطة تميم بن معبد الزهري وعامر العبدري. فغزاها يوسف في سنة 138؛ فكان عليها، إلى أن دخل عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس.

وفي سنة 130، كانت وقعة شقنّدة، واجتمع على يوسف. وكان يوم ولايته ابن خمس وسبعين سنة؛ وملك تسع سنين. وكان قبل ولايته معتزلا في بادية، من أهل الديانة والإظهار للخير.

وفي سنة 131، أمحلت الأندلس، وعم المحل، وتمادى إلى سنة 138 وذلك سنة محل وسنة غيث. وأتصل المحل الشديد سنة أو اثنتين؛ ثم سقى الناس سنة 133، وعادت إلى بعض الصلاح.

وفي سنة 133، ثار أهل جليقية، وترددت الغارات عليها. ثم استحكم الجوع والقحط في سنة أربع وثلاثين وسنة خمس وبعض سنة 136؛ فخرج أكثر الناس إلى طنجة وزويلة وريف البحر في العدو؛ وكانت إجازتهم من وادي شذونة، وهو المعروف بوادي برباط؛ وبه سميت السنة.

و ممن ثار على يوسف بن عبد الرحمن الفهري بالأندلس، منهم: عبد الرحمن بن علقمة اللخمي، ثار عليه بأربونة؛ فحاربة، ولم يمكث في حربه إلا يسيرا حتى أمكنه الله منه وثار عليه عروة بباجة؛ فوجه إليه يوسف من هزمه وقتل أصحابه. وثار عليه تميم بن معبد سنة 136. وفي سنة 137، اجتمع تميم بن معبد وعامر بن عمرو بن وهب بسرقسطة؛ فتولى محاربتهما الصميل ابن حاتم. وفي سنة 138، خرج يوسف بنفسه إلى تميم بن معبد وعامر ابن عمرو بسرقسطة؛ فحاصرها؛ ثم ظفر بهما وقتلها. وفي هذه السنة، انقضت أيام يوسف بن عبد الرحمن الفهري... " (1).

الفصل الثالث:

قيام الدولة الأموية في الأندلس

موقعة المصارة والاستيلاء علي قرطبة:

ولاية عبد الرحمن الداخل:

ثورة يوسف الفهري علي ابن معاوية ومقتله هو والصميل:

ثورات عربية ومؤمرات إفرنجية:

ثورة رزق بن النعمان الغساني سنة 143هـ:

ثورة عبد الغافر اليماني: سنة 144 هـ:

ثورة حيوة بن ملامس الحضرمي: سنة 144 هـ:

ثورة العلاء بن مغيث (الجزامي أو اليحصبي أو الحضرمي):

ثورة المطري بمدينة لبلة وغيث بن علقمة اللخمي بمدينة شذونه وعبد الله بن

خراشة الأسدي بجيان، (سنة 149 هـ / 766م):

ثورة أبو الصباح بن يحيى اليحصبي سنة 150 هـ:

ثورة البربر في شمال الأندلس بزعامة شقنا بن عبد الواحد سنة 151هـ:

المؤامرة الكبرى ضد عبد الرحمن بن معاوية

أولا بعض مظاهر الحضارة في عهد عبد الرحمن

ثانيا أولى العلم والجانب الديني اهتماما بالغا

ثالثا العناية الكبيرة بالجانب الحضاري المادي

رابعا حماية حدود دولته من أطماع الأعداء

عبد الرحمن الداخل.. الأمير القُد

* * *

كانت سيطرة الدولة الأموية علي الأندلس خلال فترة الولاة سيطرة إسمية فقط، إذ لم يصل إلى بيت مال الدولة الأموية شيء مما يجتبي من موارد تلك البلاد، يضاف إلى ذلك أن كثيرا من الولاة قتلوا أو عزلوا بدون أمر الخلافة الأموية في المشرق، كما أن بعض الولاة تسلموا زمام الأمور والحكم في الأندلس بدون أمر منها، أيضا جرت أحداث كثيرة بدون علمها، وعندما سقطت الخلافة الأموية في المشرق وانتقلت إلى بني العباس في سنة 132 هـ / 749 م خرجت الأندلس وشمال إفريقيا من قبضة الخلافة رسميا (1).

وبعد سقوط الدولة الأموية، وانتصار العباسيين علي الأمويين في موقعة الزاب في 11 من جمادي الآخرة سنة 132 هـ / 749 م، أخذ العباسيون يتعقبون أمراء بني أمية حيثما وجدوا وحلوا، وأعملوا السيف قتلا وتذكيلا لكل من كان مؤهلا من الأمويين لتولي الخلافة، فقتلوا الأمراء وأبناء الأمراء وأبناء الأمراء (الأحفاد) إلا قلة ممن لم تصل إليه سيوفهم، فقد أمر الخليفة العباسي الأول أبو العباس السفاح (132 - 136 هـ / 749 - 753 م) بتتبع بني أمية وقتلهم والقضاء عليهم، ولذلك تفرقوا في أطراف البلاد للنجاة بأرواحهم من بطش بني العباس لهم.

ولكن هذه المطاردة الدموية لم تجتث الشجرة من أصلها، وشاء القدر أن تقلت بعض فروعها من أيدي الجناة، وأن تزكو لتستعيد أصلها الراسخ في أرض أخرى، وكان ممن نجا من المذبحة الهائلة فتى من ولد هشام بن عبد الملك هو عبد الرحمن بن معاوية حفيد هشام بن عبد الملك كان من القلة التي لم تصلهم سيوف العباسيين، وكان عمره وقت حدوث النكبة تسع عشرة سنة فقط، وكان يقيم مع أهله وإخوته في قرية تعرف بدير خنان من أعمال قدسرين، وفيها مولده في سنة 113 هـ / 731 م، وقيل: بل مولده بالعليا من أعمال تدمير، وتوفي أبوه معاوية شابا فتى أيام أبيه هشام بن عبد الملك في سنة 118 هـ فكفله وإخوته جدهم هشام (2)، ولما انهار صرح الخلافة الأموية، وأمعن الظافر في مطاردة بني أمية، فر عبد الرحمن وأخ صغير له لم يتجاوز عمره الثالثة عشرة، وكلاهما مطلوبوي الرأس من قبل العباسيين.

في العراق كان عبد الرحمن بن معاوية يجلس في بيته إذ دخل عليه ابنه ابن الأربعة سنين يبكي فرعًا، وكان عبد الرحمن بن معاوية مريضاً معتزلاً في الظلام في

(1) خير الله، حضارة العرب في الأندلس، ص 62، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 87.

(2) المقري، نفح الطيب، 1 / 156.

ركن من البيت من أثر رمد في عينه، فأخذ يسكن الطفل بما يسكن به الأطفال إلا أن الطفل ظل فرعاً مرعوباً لم يسكن، فقام معه عبد الرحمن بن معاوية فوجد الرايات السود خارج البيت (رايات الدولة العباسية)، وكانت تعم القرية جميعها، فعلم أنه مطلوب، رجع عبد الرحمن بن معاوية وأخذ أخاه الوليد بن معاوية وما معه من نقود، وترك النساء والأطفال وكل شيء؛ لأن العباسيين لم يكونوا ليقتلوا النساء ولا الأطفال، ولكن كانوا يقتلون كل من بلغ وكان مؤهلاً للخلافة.

يقول المقرئ: "... إنه لما وقع الاختلال في دولة بني أمية والطلب عليهم، فرّ عبد الرحمن، ولم يزل في فراره منتقلاً بأهله وولده إلى أن حلّ بقرية على الفرات ذات شجرٍ وغياضٍ، يريد المغرب، لما حصل في خاطره من بشرى مسلمة (1)، فمما حكي عنه أنه قال: إني لجالس يوماً في تلك القرية في ظلمة بيت تواريت فيه لرميدٍ كان بي، وابني سليمان بكر ولدي يلعب قدامي، وهو يومئذ ابن أربع سنين أو نحوها، إذ دخل الصبي من باب البيت فازعاً باكياً فأهوى إلى حجري، فجعلت أدفعه إلى ما كان بي ويأبى إلا التعلق، وهو دهشٌ يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع، فخرجت لأنظر، فإذا بالروح قد نزل بالقرية، ونظرت فإذا بالرايات السود عليها منحنية، وأخ لي حديث السن كان معي يشتد هارباً ويقول لي: النجاء يا أخي، فهذه رايات المسودة (2)، فضربت بيدي على دنائير تناولتها، ونجوت بنفسي والصبي أخي معي، وأعلّمت أخواتي بمتوجهي ومكان مقصدي، وأمرتهن أن يلحقنني ومولاي بدر معهن..." (3).

ثم فرع عبد الرحمن هارباً إلى ناحية الفرات، وحل هناك ببعض القرى واختفي بها حيناً يدبر أمره، ولكن دل عليه رجل، مما جعل جنود الدولة العباسية تستقصي خبره وتحاول القبض عليه، فبادر عبد الرحمن بالفرار هو وأخوه باتجاه نهر الفرات، وعند الفرات وجد عبد الرحمن بن معاوية وأخوه القوات العباسية تحاصر النهر، فألقيا

(1) نسب إلى مسلمة بن عبد الملك أنه كان يخبر بأمر من الحداث والملاحم، وكان يرى أن نهاية بني أمية في المشرق قد اقتربت ويتنبأ بظهور عبد الرحمن بن معاوية وأنه محيي دولة بن أمية في الأندلس بعد زوالها في المشرق يقول ابن عذاري: "... حدث عبد الرحمن قال: دخلت الأندلس وأنا أضبط جلبة مسلمة بن عبد الملك، فإنه أتى جدي هشاماً يوماً، فوجدني صبياً عنده، فأمر جدي بتنحيته عنه، فقال له مسلمة: دعه يا أمير المؤمنين، فإنه صاحب بني أمية ومحيي دولتهم بعد زوالها، فلم أزل أعرف لي مزية من جدي بعد. " البيان المغرب، 2 / 61، وراجع أيضاً: أخبار مجموعة: ص 51 - 52 وسيأتي شيء من ذلك في هذا الكتاب.

(2) الرايات السود: شعار الدولة العباسية الجديدة.

(3) المقرئ، نفح الطيب، 1 / 156.

بأنفسهما فيه وأخذوا يسبحان، ومن بعيد ناداهما العباسيون أن ارجعا ولكما الأمان، حينها كان الوليد بن معاوية أخو عبد الرحمن بن معاوية قد أجهد من السباحة، فأراد أن يعود، فناداه أخوه الأكبر أن لا تعد يا أخي وإلا فس يقتلوك، فرد عليه إنهم قد أعطونا الأمان، ثم عاد راجعا إليهم، فما أن أمسك به العباسيون إلا أن قتلوه أمام أعين أخيه، عبر عبد الرحمن بن معاوية النهر وهو لا يستطيع أن يتكلم أو يفكر من شدة الحزن على أخيه ابن الثالثة عشرة.

يقول المقري - علي لسان عبدالرحمن بن معاوية - : "...، وخرجت فكمنت في موضع ناء عن القرية، فما كان إلا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار، فلم تجد أثراً ومضيت ولحقني بدر، فأدبني رجلاً من معارفي بشط الفرات، فأمرته أن يبتاع لي دواب وما يصلح لسفري، فدّل علي عبد سوء له العامل، فما راعنا إلا جلبة الخيل تحفزنا فاشتدنا في الهرب، فسبقناها إلى الفرات، فرمينا فيه بأنفسنا، والخيل تتنادينا من الشط: ارجعا لا بأس عليكم، فسبحت حاثاً لنفسي وكنت أحسن السبح، وسبح الغلام أخي، فلما قطعنا نصف الفرات قصر أخي ودهش، فالتفت إليه لأقوي من قلبه، وإذا هو قد أصغى إليهم وهم يخدعونه عن نفسه، فناديت: تقتل يا أخي، إلى إلى، فلم يسمعي، وإذا هو قد اغتر بأمانهم، وخشي الغرق، فاستعجل الانقلاب نحوهم، وقطعت أنا الفرات، وبعضهم قد هم بالتجرد للسباحة في أثري، فاستكفه أصحابه عن ذلك، فتركوني، ثم قدموا الصبي أخي الذي صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه، ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فاحتملت فيه ثكلاً ملائياً مخافةً، ومضيت إلى وجهي أحسب أنني طائر وأنا ساعٍ على قدمي، فلجأت إلى غيضة أشبه، فتورايت فيها حتى انقطع الطلب... " (1).

واخترق عبد الرحمن فلسطين ومصر، ولحق به مولياه بدر وسالم، أنفذتهما إليه أخته أم الأضبع بشيء من المال والجوهر، ثم جاز إلى برقة والتجأ غلي أخواله بني نفزة، وهم من برابرة طرابلس، وكانت أمه بربرية منهم تدعي راح، وأقام لديهم طويلاً يرقب الأحداث، وقد كانت إفريقية في ذلك الوقت مطمح الخوارج والمغربين، وكان

عبد الرحمن بن حبيب الفهري قد انتزعها لنفسه سنة 127 هـ، ولما دالت دولة بني أمية دعا لبني العباس ودخل في طاعتهم، وكان عبد الرحمن بن حبيب يخشي علي

سلطانه من ظهور بني أمية في إفريقية فطارد اللاجئين منهم إليها، وقتل ولدين للوليد بن يزيد بن عبد الملك كانا قد استجارا به، واعتقل آخرين وصادر أموالهم، خوفا من نبوءة يهودي قد تنبأ بظهور دولة أموية في الأندلس، وكان في بلاط عبد الرحمن بن حبيب يهودي عالم بالحدثان، قد صحب مسلمة بن عبد الملك، قد ذكر لابن حبيب أنه يغلب علي الأندلس رجل من أبناء الملوك يقال له عبد الرحمن له صغيرتان ولما ظهر عبد الرحمن حاول القبض عليه وقتله حتي لا تتحقق النبوءة (1)، لا سيما وأن عبد الرحمن بن معاوية من أمراء بني أمية أصحاب الحسب والنسب وسادة العرب وأشرفهم، الذين أخذوا يفدون إلى إفريقية لتطرفها وبعدها عن الخلافة العباسية وهو يخاف علي إمارة إفريقية والأندلس من أمراء بني أمية، ولكن عبد الرحمن استطاع أن يتجنب المطاردة وفر مع صحبه إلى المغرب الأقصى، وتجول حيناً في تلك الأنحاء، ولقي كثيراً من الصعاب والخطوب، وكان يري الموت والأسر ينذرانه في كل خطوة. وأقام حيناً مختفياً عند شيخ من شيوخ البربر يدعي واندسوس، كانت له فيما بعد لديه حظوة، ثم نزل عند قوم من زناته علي شاطيء البحر، ولحق حيناً بمليلة وغيرها، وكان أثناء تجواله يدرس أحوال الأندلس وأخبارها، ويرقب فرص العبور إليها (2).

يقول المقرئ - علي لسان عبد الرحمن بن معاوية -: "... ثم خرجت أوم المغرب حتى وصلت إلى إفريقية... وسار حتى أتى إفريقية وقد ألدت به أخته شقيقته أم الأصبغ مولاه بدرأ، ومولاه سالمأ، ومعهما دنانير للنفقة، وقطعة من جوهر، فنزل بإفريقية وقد سبقه إليها جماعة من فل بني أمية، وكان عند واليها عبد الرحمن بن حبيب الفهري يهودي حدثاني صحب مسلمة بن عبد الملك، وكان يتكهن له ويخبره بتغلب القرشي المرواني الذي هو من أبناء ملوك القوم، واسمه عبد الرحمن، وهو ذو صغيرتين يملك الأندلس ويورثها عقبه، فاتخذ الفهري عند ذلك صغيرتين أرسلهما رجاء أن تناله الرواية، فلما جيء بعبد الرحمن ونظر إلى صغيرتيه قال لليهودي: ويحك، هذا هو، وأنا قاتله، فقال له اليهودي: إنك إن قتلتاه فما هو به، وإن غلبت عن تركه إنه لهو. وثقل فل بني أمية على ابن حبيب صاحب

(1) أغلب الظن أن أمثال هذه القصص ملفقة، وأن الغرض الأساسي منها هو تمجيد البطل، ونسب قصص ونبوءات خارقة له لتمجيده وإعلاء شأنه. انظر ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 60.

(2) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1 / 150، 151، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص 177، 178.

إفريقية، فطرد كثيراً منهم مخافةً، وتجنّى على ابنين للوليد بن يزيد كانا قد استجارا به فقتلها، وأخذ مالا كان مع اسماعيل ابن أبان بن عبد العزيز بن مروان، وغلبه على أخته فتزوجها بكرهه، وطلب عبد الرحمن فاستخفى،...

وذكر ابن عبد الحكم أن عبد الرحمن الداخل أقام ببرقة مستخفياً خمس سنين، وآل أمره في سفره إلى أن استجار ببني رستم ملوك تيهرت من المغرب الأوسط، وتقلب في قبائل البربر إلى أن استقر على البحر عند قوم من زنانة، وأخذ في تجهيز بدر مولاة إلى العبور للأندلس لموالي بني أمية وشيعتهم بها (1).

وظل عبد الرحمن بن معاوية يتحين الفرص للعبور إلى الأندلس والسيطرة عليها، حتى وادته الفرصة بالصراع الذي دب بين اليمانية والمضرية، فبعث بدرا مولاة إلى الأندلس لسبر غور شئونها ودراسة أحوالها وكيفية الولوج إليها والسيطرة على مقاليد الأمور بها، وليحاول بث دعوته بين أنصار بني أمية وأهل الشام، فنزل بدر بساحل البيرة (كورة من كور غرناطة) وكانت منزل جند الشام، وفيها تجتمع عصابة بني أمية، وكانت رياسة الأمويين (أو المروانية) والشاميين يومئذ لزعيمين من موالي بني أمية هما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبد الله بن خالد، فاجتمع بدر بأبي عثمان وأبلغه رسالة عبد الرحمن وناشده العمل لذصرته، وبث دعوته بين أصدقائه وشيعته، ولاسيما بين اليمانية، وهم خصوم يوسف الفهري ومنافسوه، فاستجاب أبو عثمان لهذه الدعوة، وكانت بينه وبين الصميل مودة وصداقة، فكر في التماس عون في ذلك المشروع، وسار إليه مع عبد الله بن خالد في طليطلة، وكان الصميل قد ارتد إليها منهزماً عن سرقسطة وفي نفسه مراره من يوسف لأنه قصر عن غوثه وإنجاده، ففاوضاه في أمر عبد الرحمن وطلباً منه العون والتأييد، ولكن الصميل أبدي فتوراً وتردداً، واقترح أن يتزوج عبد الرحمن من ابنة يوسف، وأن ينزل آمنا في ظله، ثم صرفهما ببعض الوعود الغامضة، وكان الصميل في الواقع يحرص على أن تبقى السلطة ليوسف، لأنه مستأثر في ظله بالنفوذ والسلطان، ويشاركه في تدبير الأمر وحكم الأندلس، فعاد أبو عثمان وزميله إلى البيرة ونشطا في بث دعوتها فيها، وحث اليمانية على القيام للأخذ بالثأر، وبث دعائهما في أنحاء الأندلس، يدعون إلى تأييد عبد الرحمن بن معاوية. وعاد بدر إلى عبد الرحمن الأموي علي مركب خاصة جهزها له أبو عثمان ومعه

عدة من أنصار الأموية، وأفضي إليه بذائع الرحلة، فاستبشر عبد الرحمن وعبر البحر معهم إلى الأندلس، ونزل بساحل البيرة في ثغر المنكب⁽¹⁾، وذلك في ربيع الآخر سنة 138هـ / سبتمبر 755م فاستقبله أبو عثمان وأنزله بمقامه في طرش⁽²⁾، فاستقر بها ينظم دعوته ويدبر خطته. وقد أعد للأمير ما يصلحه من المركب والملبس والمنزل فغلظ أمر ابن معاوية وأقبل الناس من كل مكان إليه⁽³⁾.

يقول المقرئ عن تلك الأحداث: "... كانت الموالى المروانية المدونة بالأندلس في ذلك الأوان ما بين الأربعمئة والخمسمئة، ولهم جمرة، وكانت رياستهم إلى شخصين: أبي عثمان عبيد الله بن عثمان، وعبد الله بن خالد، وهما من موالى عثمان، رضي الله تعالى عنه، وكانا يتوليان لواء بني أمية يعتقبان حملة ورياسة جند الشام النازلين بكورة البيرة، فعبر بدر مولى عبد الرحمن إلى أبي عثمان بكتاب عبد الرحمن يذكره فيه أيادي سلفه من بني أمية وسببه بهم ويعرفه مكانه من السلطان وسعيه لنيله، إذ كان الأمر لجده هشام فهو حقيق بوراثته، ويسأله القيام بشأنه وملاقة من يثق به من الموالى الأموية وغيرهم، ويتلطف في إدخاله إلى الأندلس ليولي عذراً في الظهور عليها، ويعدده بإعلاء الدرجة، ولطف المنزلة، ويأمره أن يستعين في ذلك بمن يأمنه، ويرجو قيامه معه، ويأخذ فيه مع اليمانية ذوي الدنق على المضرية لما بين الحيين من التراث، فمشى أبو عثمان لما دعاه إليه، وبانت له فيه طماعية، وكان عند ورود بدر قد تجهز إلى ثغر سرقسطة لنصرة صاحبها الصميل بن حاتم وجه دولة يوسف بن عبد الرحمن صاحب الأندلس، فقال لصهره عبد الله بن خالد المذكور: لو كنا ذاكرنا الصميل خبر بدر وما جاء به لنختبر ما عنده في موافقتنا، وكانا على ثقة في أنه لا يظهر على سرهما أحداً لمروءته وأنفته، فقال له: إن نحن فعلنا لم نأمن من أن تدركه الغيرة على سلطان يوسف لما هو عليه من شرف القدر وجلالة المنزلة فيتوقع سقوط رياسته فلا يساعدنا، قال أبو عثمان: فتمسح إذاً على أمره، ونذكر له أنه قصد لإرادة الإيواء والأمان وطلب أخماس جده هشام لدينا

(1) المنكب ALMEUNECAR.

ميناء على الساحل الجنوبي الشرقي من الأندلس، نزل فيها الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (عبد الرحمن الداخل) عند دخوله الأندلس، وهي الآن مصيف مدينة غرناطة.

(2) وهي قرية تقع غربي المنكب على مقربة من البحر.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 46، المقرئ، نفع الطيب، 2 / 65، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1 / 152.

ليتعيش بها، لا يريد غير ذلك، فاتفقا على هذا. فلما ودعا الصميل خلوا به في ذلك، وقد ظهر لهما منه حقٌّ على صاحبه يوسف في إبطائه عن إمداده لما حاربه الحباب الزهري بكورة سرقسطة، فقال لهما: أنا معكما فيما تحبان، فاكتبنا إليه أن يعبر، فإذا حضر سألنا يوسف أن ينزله في جواره وأن يحسن له، ويزوجه بابنته، فإن فعل وإلا ضربنا صلته بأسيفنا، وصرفنا الأمر عنه إليه، فشكراه وقبلا يده ثم ودعاه، وأقام بطليطلة وقد ولاه يوسف عليها وعزله عن الثغر، وانصرفا إلى وطنهما بالبيرة، وقد كانا لقياً من كان معهما في العسكر من وجوه الناس وثقاتهم، فطارحاهم أمر ابن معاوية، ثم دسّا في الكور إلى ثقاتهما بمثل ذلك، فدب أمره فيهم دبيب النار في الجمر، وكانت سنة خلف بالأندلس بعد خروج من المجاعة التي دامت بالناس... وفي رواية أن الصميل لان لهما في أن يطلب الأمر عبد الرحمن الداخل لنفسه ثم دبر ذلك لما انصرفا، فتراجع فيه، فردهما، وقال: إني روّيت في الأمر الذي أدرته معكما فوجدت الفتى الذي دعوتاني إليه من قومٍ لو بال أحدهم بهذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم في بوله، وهذا رجلٌ نتحكم عليه، ونميل على جوانبه، ولا يسعنا بدل منه، ووالله لو بلغتما ببيوتكما ثم بدا لي فيما فارقتكما عليه لرأيت أن لا أقصر حتى ألقاكما لئلاً أغركما من نفسي، فإني أعلمكما أن أول سيف يسلّ عليه سيفي، فبارك الله لكما في رأيكما، فقالا له: ما لنا رأي إلا رأيك، ولا مذهب لنا عنك. ثم انصرفا عنه على أن يعينهما في أمره إن طلب غير السلطان، وانصرفا عنه إلى البيرة عازمين على التصميم في أمره، ويؤسا من مضر وربيعة، ورجعا إلى اليمانية، وأخذا في تهيج أحقاد أهل اليمن على مضر، فوجداهم قوماً قد غرت صدورهم عليهم، يتمنون شيئاً يجدون به السبيل إلى إدراك ثأرهم، واغتنما بعد يوسف صاحب الأندلس في الثغر، وغيبة الصميل، فابتاعا مركباً ووجها فيه أحد عشر رجلاً منهم مع بدر الرسول، وفيهم تمام بن علقمة وغيره، وكان عبد الرحمن قد وجه خاتمه إلى مواليه، فكتبوا تحت ختمه إلى من يرجونه في طلب الأمر، فبثوا من ذلك في الجهات مادبّ به أمرهم، ولما وجه أبو عثمان المركب المذكور مع شيعته ألفوه بشطّ مغيلة من بلاد البربر، وهو يصلي، وكان قد اشتد قلقه وانتظاره لبدر رسوله، فبشره بدر بتمكن الأمر، وخرج إليه تمام مكثراً لتبشيريه، فقال له عبد الرحمن: ما اسمك؟ قال: تمام، قال: وما كنيّتك؟ قال: أبو غالب، فقال: الله أكبر! الآن تمّ أمرنا وغلبنا بحول الله تعالى وقوته، وأدنى منزلة أبي غالب لما ملك، ولم يزل حاجبه حتى مات عبد الرحمن. وبادر عبد الرحمن بالدخول إلى المركب، فلما هم بذلك أقبل البربر فتعرضوا دونه،

ففرقت فيهم من مال كان مع تمام صلاتٍ على أقدارهم، حتى لم يبق أحد حتى أَرْضاه، فلما صار عبد الرحمن بداخل المركب أقبل عاتٍ منهم لم يكن أخذ شيئاً فتعلق بحبل اليهودج يعقل المركب، فحول رجل اسمه شاكر يده بالسيف، فقطع يد البربري، وأعانتهم الريح على التوجه بمركبهم، حتى حلوا بساحل البيرة في جهة المنكب، وذلك في ربيع الآخر سنة 138، فأقبل إليه نقيباه أبو عثمان وصهره أبو خالد، فنقلاه قرية طرش⁽¹⁾ منزل أبي عثمان، فجاءه يوسف بن بخت، وانثالت عليه الأموية، وجاءه جدار بن عمرو المذحجي من أهل مالقة، فكان بعد ذلك قاضيه في العساكر، وجاءه أبو عبدة حسان بن مالك الكلبي من إشبيلية فاستوزره، وانثال عليه الناس انثيالاً، فقوي أمره مع الساعات فضلاً عن الأيام، وأمدّه الله تعالى بقوة عالية، فكان دخوله قرطبة بعد ذلك بسبعة أشهر...⁽²⁾.

وفي تلك الأثناء كان يوسف بن عبد الرحمن الفهري المتغلب علي الأندلس قد انتصر علي الثائرين عليه في سرقسطة عامر العبدري، والحباب الزهري، فلما تم له الأمر بالاستيلاء علي سرقسطة والقبض علي الزعيمين الثائرين وإعدامهما، وبدأ يتخلص من خصومه الذين كانوا يعارضون بعض تصرفاته حتى تكون الأندلس خالصة له ولذريته من بعده، ولكنه فوجيء بقدم عبد الرحمن بن معاوية الأموي إلى الأندلس وتأييد موالي الأمويين والقبائل اليمينية له، يقول المقري: "... وكان خبر دخوله للأندلس قد صادف صاحبها يوسف الفهري بالثغر، وقد قبض علي الحباب الزهري الثائر بسرقسطة، وعلى عامر العبدري الثائر معه، فبينما هو بوادي الرمل بمقربة من طليطلة وقد ضرب عنق عامر العبدري وابن عامر برأي الصميل إذ جاءه قبل أن يدخل رواقه رسول يركض من عند ولده عبد الرحمن بن يوسف من قرطبة يعلمه بأمر عبد الرحمن ونزوله بساحل جند دمشق، واجتماع الموالى المروانية إليه، وتشوف الناس لأمره، فانتشر الخبر في العسكر لوقته، وشمّت الناس بيوسف لقتله القرشين عامراً وابنه، وختره بعدهما، فسارع عدد كثير إلى البدار لعبد الرحمن الداخل، وتنادوا بشعارهم، وقوضوا عن عسكره، واتفق أن جادت السماء بوابلٍ لا عهد بمثله لما شاء الله تعالى من التضيق على يوسف، فأصبح وليس في عسكره سوى غلمانة وخاصته وقوم الصميل قيس وأتباعه... " ⁽³⁾.

(1) طرش (Torrox) على الساحل الشرقي، وهي تعد اليوم في مديرية مالقة.

(2) نفح الطيب، 2 / 65.

(3) نفح الطيب، 2 / 65.

لهذا بدأ يضع يوسف الفهري الخطط للتخلص منه، وقد شاور الصميل في أمره فأشار عليه بالمكر والخديعة ومخادعته وهون عليه أمره، لحدثه سنه، وقال: " هو قريب عهد بزوال النعمة، فهو يغتنم ما تدعو إليه، ثم أنت بعد ذلك متحكم فيه والذين سعوا له بما تحب " (1) وأشار عليه بإغرائه وأن يعرض عليه مصاهرتة، فأرسل إليه يوسف وهو ما يزال بطرش يعرض عليه أن يزوجه بابنته ويقطعه كورة البيرة (غرناطة) أو كورة رية أو يقطعه ما بينهما، وبعث إليه هدية وشيئا من المال وكتابا طويلا يرغبه فيه بمحالفته. يقول فيه: "... أما بعد، فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب، وتأبش من تأبش إليك ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر وذقض الأيمان المؤكدة، التي كذبوا الله فيها وكذبونا! وبه - جل وعلا! - نستعين عليهم، ولقد كانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية غبش، حتى عصموا ذلك، واستبدلوا بالأمن خوفا، وجنحوا إلى النقض! والله من ورائهم محيط! فإن كنت تريد المال وسعة الجناب، فأنا أولى لك ممن لجأت إليه! أكنفك، وأصل رحمك، وأنزلك معي إن أردت وبحيث تريد! ثم لك عهد الله وذمته في ألا أغدر بك، ولا أمكن منك ابن عمي صاحب إفريقية ولا غيره! (2).

ولكن من عبد الرحمن الأموي نصحوه بعدم الاغترار بذلك الوعود الزائفة، قال ابن عذاري: "... قال ابن عيسى: فحدثني تمام بن علقمة أن عبد الرحمن، لما أتاه كتاب الفهري بما فيه وبتزويجه ابنته، أشار عليه كل من أتاه من العرب والأمويين ألا يقبل ذلك منه، إلا أن يعتزل له عن الملك ويبايعه، وإلا حاكمه إلى الله؛ وقالوا له: إنما يمكر بك، ولا يفي لك بشئ، لأن وزيره ومالك أمره الصميل، وهو غير مأمون!..." (3).

وفي تلك الأثناء قوي ساعد عبد الرحمن الأموي بعد توافقت عليه وفود القبائل اليمنة مؤيدة مبايعة له، من أرجاء الأندلس "... ثم انتقل من البيرة إلى كورة رية، إلى شنونة، إلى مورور، إلى كورة إشبيلية، والناس يتلقونه بالبشر والترحيب، ويعطونه من الانقياد والطاعة أوفى نصيب..." (4).

* * *

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 45، المقري، نفع الطيب، 2 / 65.

(2) البيان المغرب، 2 / 47.

(3) البيان المغرب، 2 / 47.

(4) البيان المغرب، 2 / 47.

موقعة المصارة والاستيلاء على قرطبة

وفي الوقت الذي كانت دائرة التأييد تزداد اتساعا في بقاع الأندلس لعبد الرحمن الأموي، وبدأت جموع المؤيدين والمتطوعين تلتف حوله، كانت القبائل العربية والبربرية تنفض من حول يوسف الفهري والصميل، وقد وهن جيشه وتفرق معظمه خلال الأفتن والغزوات المتوالية، وجاءت دعوة عبد الرحمن الأموي فزادته تفرقا وضعفا، وبدأ عبد الرحمن الأموي يتحرك بقواته باتجاه قرطبة، وخرج يوسف بقواته إلى المصارة⁽¹⁾ في ظاهر قرطبة من الغرب علي ضفة نهر الوادي الكبير، وكان عبد الرحمن قد أشرف بجيشه علي ضفة النهر الجنوبية، في قرية مقابلة تسمى " بلة نوبة " ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة ولكن قصيرة، فلم يأت الضحي حتى مزقت خيل يوسف، وهزم جيشه هزيمة شديدة ونهبت أسلابه، وقتل كثير م وجوه القيسية والفهرية، وفر يوسف صوب طليطلة، حيث كان ولده عبد الرحمن، وفر الصميل صوب جيان، ودخل عبد الرحمن الأموي وصحبه قرطبة دون معارضة، وحمل جنده ما استطاع علي الاعتدال والقناعة، وحمي أسر خصومه وحریمهم وأموالهم من العبث، وصلي الجمعة في الجامع، ثم نزل بالقصر، وبويع في الحال بالإمارة، وذلك في العاشر من ذي الحجة سنة 138هـ / 13 مايو سنة 756م⁽²⁾.

* * *

ولاية عبد الرحمن الداخل

بدأ عبد الرحمن الداخل ينظم الأمور في بلاد الأندلس، كانت هناك ثورات كثيرة جدا في كل مكان من أرض الأندلس، وبصبر شديد وأناة عجيبة أخذ عبد الرحمن الداخل يراوض هذه الأثرات الواحدة تلو الأخرى، وبدسب ما يتوافق معها أخذ يستميل بعضها ويحارب الأخرى.

وفي فترة حكمه التي امتدت أربعة وثلاثين عاما متصلة، من سنة ثمان وثلاثين

(1) المصارة: تنطق في المصادر الأوربية alameda ألاميدة وأصل هذه الكلمة لاتيني وهو almeo أي شجر الصفصاف أو الحور وهو شجر طويل عريض الأوراق، والمكان الذي يكثر فيه يسمى (الأميدية) وهذا الاسم منتشر في إسبانيا ويطلق على المكان الممتد في جنوب غرب قرطبة على الوادي الكبير، وتسميه المصادر العربية المصارة أو المسارة وفيه حدثت الوقعة الفاصلة التي انتصر فيها عبد الرحمن الداخل الأموي على يوسف الفهري وأسس على أثرها الدولة الأموية الأندلسية.

(2) البيان المغرب، 2 / 48، 49، نفح الطيب، 2 / 65، 66.

ومائة وحتى سنة اثنتين وسبعين ومائة كانت قد قامت عليه أكثر من خمس وعشرين ثورة، وهو يجمعها بنجاح عجيب الواحدة تلو الأخرى، ثم تركها وهي في فترة من أقوى فترات الأندلس في التاريخ بصفة عامة.

وكان أول ما عني به عبد الرحمن الأموي بعد المصاراة، هو القضاء علي خطر يوسف والصميل، وكان يوسف قد فر عقب الموقعة إلى طليطلة، وفر الصميل صوب جيان معقل قومه، وأخذ في تجميع القوات والاستعداد لمواجهة عبد الرحمن الأموي، وسارا بجيشيهما باتجاه البيرة - التي كانت تحت سيطرة عبد الرحمن - ففر عامله منها، واجتمع أهل تلك الأنحاء علي يوسف ونزل يوسف بالبيرة يتأهب لمحاربة عبد الرحمن، ولكنه ماكد يستقر بالبيرة حتى بادر عبد الحمن بالمسير إليه، وترك حامية علي قرطبة لحليفه وقائده أبي عثمان، وسار بالجيش باتجاه البيرة حيث يتحصن يوسف الفهري والصميل وأتباعهما، ولما دنا من معسكرهما شعرا بأن لا قبل لهم بمواجهة، فعرضاً عليه الصلح علي أن يدع لهما ما كان لهما من الأموال والأموال، وأن يؤمنهما في النفس والمال والأهل، وأن يسمح لهما بسكني قرطبة تحت رعايته ورقابته، فأجابهما عبد الرحمن إلى الصلح علي ذلك، وعلي أن يقدم يوسف ولديه عبد الرحمن ومحمدا أبا الأسود رهينة لدية، يعتقلهما في قصر قرطبة برفق وكرم، حتى تطمئن النفوس وتستقر الأمور، وتم عقد الصلح بين الجانبين في صفر سنة 139 هـ، وتم تبادل الأسري بين الفريقين، وانفض جندهما، وتصافي الفريقان، ونزل يوسف بشرقي قرطبة بقصر الحر الثقفي، أحد الولاة السابقين، ونزل الصميل بداره بالربض (الضاحية) وأبدي عبد الرحمن نحوهما عطفاً وليناً، وهو مع ذلك يشدد عليهما الرقابة، ويحرص علي تجريدهما من كل سلطة وقوة (1).

* * *

ثورة يوسف الفهري

علي ابن معاوية ومقتله هو والصميل

ونتيجة لتسامح عبد الرحمن مع خصومه و عدم معاقبتهم وإنزال العقاب بهم،

(1) نفح الطيب، 2 / 66، البيان المغرب، 2 / 50، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس،

وسياسته الحكيمة، فقد أقبل عليه من المشرق في سنة 140 هـ / 757 م الكثير من بني أمية ومواليهم فاستقبلهم الأمير استقبالا حسنا، وأكرمهم وأحسن جوائزهم، وأسند إلى كثير منهم بعض المناصب والولايات (1).

وقطع بعد الرحمن أعوامه التالية في كفاح مستمر، يتلقى وثبات الخوارج عليه من كل صوب، وكان أول الخوارج عليه يوسف الفهري الذي لم يطمئن لأمان عبد الرحمن ابن معاوية وظلت المخاوف تساوره من ناحيته، وشعر أنه في شبه اعتقال، وأن

عبد الرحمن يضيق عليه الخناق، ويؤلب عليه صنائعه ينازعونه في أملاكه وأمواله أمام القضاء، والقضاء يميل إلى غبنه وإعناته، حتي ذهبت معظم أملاكه، وهو يشعر أن عبد الرحمن من وراء ذلك الاضطهاد، فلم يزل يتحين الفرص للفرار، وأخذ يكاتب أنصاره في ماردة وطليلة، وانتظر حتى وافته الفرصة للفرار وفر من قرطبة في سنة 141 هـ وحاول أن يستميل الصميل والشامية إلى جاذبه فلم يوفق إلى ذلك، فمضي إلى جماعات من البلديين في لقنت وماردة وطليلة، وكان بها معظم أصهاره وأنصاره وما زال بهم حتي أغراهم بالانضمام إليه، وهناك حشد أنصاره من العرب والبربر، واجتمع له زهاء العشرين ألفا، فثاروا ضد عبد الرحمن في المناطق المحيطة بهم، واستبعد عبد الرحمن أن يكون يوسف الفهري قد قام بذلك العمل من تلقاء نفسه وأتهم الصميل بالتدبير لذلك التمرد معه، وعبثا حاول الرجل تبرئة ساحته من هذه التهمة، وانتهى أمره أن ألقي به في السجن وسجن معه ابني يوسف وكانا عند عبد الرحمن رهينتين (2).

وبينما كان عبد الرحمن يحشد قواته، سار يوسف بقواته إلى إشبيلية، وعليها عبد الملك بن عمر بن مروان المعروف بالمرواني، فحاصره في إشبيلية حتى أتاه ابنه عبد الله بالمدد، ثم وقعت بينهما معارك شديدة قتل فيها كثير من الأفريقين، وارتد يوسف منهزم ما بفلو له، وكان عبد الرحمن الأموي يربط عندئذ بقواته في حصن المدور، والواقع علي مقربة من غربي قرطبة، علي نهر الوادي الكبير، فوافته الأخبار بهزيمة يوسف وفراره، فتوقف عن مطاردته، وظل يوسف هائما علي وجهه مترددا في إتخاذ قراره حتى تأمر عليه ببعض مواليه واغتالوه علي مقربة من

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 49.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب 2 / 49، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 93.

طليطلة، وحملوا رأسه إلى عبد الرحمن بن معاوية في قرطبة سنة 142 هـ / 759م، ثم مالبت عبد الرحمن بن معاوية أن يقتل عبد الرحمن بن يوسف الفهري المعتقل لديه، ورفع رأسيهما فوق الرماح علي أمام القصر ليلقي الرعب في قلوب الخوارج والمخالفين. (1)

أما ولد يوسف الثاني وهو محمد أبو الأسود فقد استطاع أن يفر من سجنه وقصد توا إلى طليطلة معقل عصابة أبيه وتحصن بها، فبعث عبد الرحمن في أثره جيشاً بقيادة تمام بن علقمة وعينه واليا علي طليطلة، فحاصرها حتى سلمت، وأسر محمد بن يوسف ثانية وجيء به إلى قرطبة واستولت جنود عبد الرحمن علي طليطلة في ذي الحجة سنة 142 هـ وسحق بذلك وكر الثورة الفهرية، وزج محمد إلى السجن ثانية وادعي العمي حتى استطاع الفرار بعد محنة طويلة، وعاد يرفع علم الثورة كما سيأتي، واستطاع أخوه الأصغر القاسم بن يوسف أن يفر من طليطلة متذكرا قبل سقوطها، وأما الصميل فلبث يرسف في سجنه مدي أسابيع أخرى حتى دس عليه عبد الرحمن من قتله داخل السجن خنقا أواخر سنة 142 هـ (2).

هكذا صفا الجو لعبد الرحمن وصار له أمر الأندلس كله دون منازع، وانتهى علي يديه العصر الأول من عصر الأندلس وهو عصر الولاة، واختفي من الميدان آخر رجلين كانا يمثلان هذا العصر في الأندلس، اختفيا حاملين معهما ثارات العصبيية وأو ضار القبالية، وخلفا الأندلس لتقوم فيه دولة إسلامية واحدة تقيم شأن الأندلس الإسلامي بعد أن كاد أن ينهار، وكان من حسن حظ بلاد الأندلس أن اختفي ذلك العصر المضطرب، ولو استمر لكان في ذلك بوار أمر الأندلس الإسلامي جملة، ولو لم تطأ قدم عبد الرحمن أرض هذه البلاد لصار تاريخ الإسلام فيها علي إختلاف وتفرق وحروب بين المسلمين، ثم يكتسحهم أعداؤهم وينتهي أمر الإسلام في أقل مما إنتهي إليه فيما بعد (3).

* * *

ثورات عربية ومؤمرات إفرنجية

-
- (1) البيان المغرب 2 / 51، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1 / 159.
 (2) نفع الطيب 2 / 67، البيان المغرب 2 / 49، 50، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس 1 / 159.
 (3) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص 690.

ثورة رزق بن النعمان الغساني سنة 143 هـ

بالرغم من نجاح عبد الرحمن بن معاوية في القضاء على يوسف الفهري والصميل، وبالجملة القضاء على عهد الولاة، وما كان به، إلا أن المتاعب توالى عليه متمثلة في الثورات التي قامت ضده، والمؤامرات الإفرنجية التي افتعلت له، وكانت أولى الثورات التي قامت ضد عبد الرحمن بن معاوية تلك التي قام بها رزق بن النعمان الغساني وحليفه القاسم بن يوسف الفهري سنة 143 هـ، وكان القاسم حينما فر من طليطلة - كما قدمنا - قد سار إلى الجزيرة الخضراء، والتجأ إلى شيخها رزق بن النعمان صديق أبيه، الذي تعاطف معه وأيده، وامده بالعدة والعتاد وخرج معه بالأندلس والمرترقة واستولى على شذونة، ثم استولى على إشبيلية، فأسرع إليه عبد الرحمن بن معاوية وأوقع به الهزيمة النكراء قتل علي إثرها رزق بن النعمان وتمزق جيشه، أما القاسم فقد فر إلى شذونة، ولكن عبد الرحمن ظل يتعقبه حتى ألقي القبض عليه ومزق قواته. يقول ابن الأثير: "... وفيها ثار بالأندلس رزق بن النعمان الغساني على عبد الرحمن، وكان رزق على الجزيرة الخضراء، فاجتمع إليه خلق عظيم، فسار إلى شذونة فملكها ودخل مدينة إشبيلية، وعاجله عبد الرحمن فدصره فيها وضيق على من بها، فنقروا إليه بتسليمي رزق إليه فقتله فأمنهم ورجع عنهم.. (1).

ثورة عبد الغافر اليماني: سنة 144 هـ

ولم يكد عبد الرحمن بن معاوية يفرغ من ثورة رزق بن النعمان الغساني حتى ثار عليه عبد الغافر اليماني زعيم اليمانية، واستولى على القرى المحيطة بقرطبة وأيدته في ثورته جموع كثيرة من البربر، فالتقى به عبد الرحمن بوادي قيس علي مقربة من قرطبة واقتتل الفريقان قتالا شديدا فهزم عبد الغافر وانفض أتباعه من حوله ففر إلى لقنت فطارده عبد الرحمن حتى قتل أولوفا من أتباعه. يقول ابن عذاري: "... وثار على الأمير عبد الرحمن عبد الغافر اليماني بإشبيلية، وتغلب على ما جاور قرطبة؛ فخرج إليه الأمير؛ فخالفه عبد الغافر ونهض يريد قرطبة، رجاء أن يجدها خالية، والإمام عبد الرحمن في الثغر يسدُّ خله، ويحسم عله؛ فقدم مسرعا حين

(1) الكامل في التاريخ، 3 / 21، وانظر أيضا: أخبار مجموعة، ص 101، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1 / 160.

وافاه الخبر، ولم يلو على ما تعذر، ومحلة عبد الغافر على وادي قيس قد ملأت السهل والوعر. فدخل الإمام عبد الرحمن البربر؛ وكانوا العدد الوافر الأكبر؛ فنزع الأكثر منهم إليه، وصاروا في حربه ولدبه. ووقعت الهزيمة على عبد الغافر، وأخذ من معه في الفرار والنفار؛ فلم يرفع الإمام عنهم سيفاً، وقتل منهم ثلاثين ألفاً. وكانت هزيمة هي مدّ الدهر مذكورة، والحفرة التي جمعت رؤوسهم بذلك المكان مشهورة... “ (1).

* * *

ثورة حيوة بن ملامس الحضرمي: سنة 144 هـ

ورفع لواء الثورة بعده في إشبيلية أيضاً، حيوة بن ملامس الحضرمي كبير زعمائها، وتغلب علي إشبيلية واستجة وكثير من نواحي الغرب، والتف حوله أهل هذه الأنحاء واستفحل أمره، فسار إليه عبد الرحمن، ونشبت بينهما معارك عنيفة علي مدي أيام، ودافع الثوار عن أنفسهم بمنتهى البسالة، حتى كادت الدائرة تدور علي عبد الرحمن، ولكن التفرق دب أخيراً في صفوف الثوار، ولحقهم الإعياء والملل، فوقعت عليهم الهزيمة، وفر زعيمهم حيوة، وكتب إلى عبد الرحمن يلتمس العفو والأمان سنة 144 هـ / 761 م (2).

* * *

ثورة العلاء بن مغيث الجذامي (أو اليحصبي أو الحضرمي)

ثم كانت الثورة التي قام بها العلاء بن مغيث الحضرمي باجة سنة 146 هـ / 763 م بباجة، ودعا إلى طاعة أبي جعفر المنصور والعباسيين ونشر الأعلام السوداء، ويقال أن الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور قد راسل العلاء بن مغيث الحضرمي كي يقتل عبد الرحمن بن معاوية، ومن ثم يضم الأندلس إلى أملاك الخلافة العباسية فجاء العلاء بن مغيث الحضرمي من بلاد المغرب العربي وعبر بلاد الأندلس، ثم قام بثورة ينادي فيها بدعوة العباسيين، ويرفع الراية السوداء التي أرسلها له الخليفة أبو جعفر المنصور.

لم يتوان عبد الرحمن الداخل، فقامت لذلك حرب كبيرة جدا بين العلاء

(1) البيان المغرب، 2 / 53.

(2) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1 / 161.

بن مغيث الحضرمي وعبد الرحمن بن معاوية، وكعاداته في قمع الثورات انتصر عليه عبد الرحمن بن معاوية، ووصلت الأنباء إلى أبي جعفر المنصور، وكان في الحج بأن عبد الرحمن الداخل قد هزم جيش العلاء الحضرمي هزيمة منكرة، وأن العلاء بن مغيث الحضرمي قد قُتل وهنا قال أبو جعفر المنصور: قتلنا هذا البائس - يعني العلاء بن مغيث الحضرمي - يريد أنه قتله بتكليفه إياه بحرب عبد الرحمن بن معاوية، ثم قال ما لنا في هذا الفتى من مطمع (يعني عبد الرحمن بن معاوية)، الحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر يقول ابن عذاري: "... وفي سنة 146، ثار العلاء بن مغيث الجذامي بباجة، ودعا إلى طاعة أبي جعفر المنصور ونشر الأعلام السود؛ فاتبعه الأجناد، وتطلعه العباد، إلى أن كادت دولة الأمير أن تنصرم، وخلافته أن تنخرم. فخرج إليه من قرطبة، وصار بقرمونة؛ فتحصن بها مع مواليه وثقات رجاله؛ فنازله العلاء بن مغيث منازل شديدة، وحاصره بها أياما عديدة؛ فلما طال الحصار هنالك، وتخلخل عسكر العلاء لذلك، وعلم عبد الرحمن ما هم عليه من الانزعاج، وأنهم قد هموا بالإلجام والإسراج، أمر بنار، فأوقدت، ثم أمر بأغمدة سيوف أصحابه، فأحرقت؛ وقال لهم: اخرجوا معي لهذه الجموع، خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع! وكانوا نحو سبعمائة مفرجين إلى أعاديهم. فدارت الحرب بينهم طويلا، إلى أن صنع الله جميلا؛ وزلزل قوم العلاء وأصحابه، فولوا منهزمين، وصار أمرهم آية للعالمين؛ وقتل العلاء فيمن قتل من أولئك الأقوام، وطيف برأسه في ذلك المقام.

وقيل إن أبا جعفر المنصور كان أرسل إلى العلاء بن مغيث بولاية الأندلس. فنشر الأعلام السود، وقام بالدعوة العباسية بالأندلس؛ فانحشر إليه الناس. ولما ظفر به الإمام على ما تقدم، أخذ رأسه، وفرغ وحشي ملحا وصبرا، وجعل معه لواء أبي جعفر المنصور، وأدخل في سفط؛ وبعثه مع رجال، وأمرهم أن يضعوا السفط بمكة؛ فوافقوا المنصور بها حاجا في تلك السنة؛ فجعل السفط عند باب سرادقه. فلما نظر إلى ما فيه، قال: إنا لله! عرضنا بهذا المسكين للقتل! الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان! يعني عبد الرحمن... " (1).

لم يحاول المنصور العباسي أن يُعيّن على الأندلس أحدًا بعد هذا الذي قُتل، ولم يحاول أن يرسل جيشًا لحربه، بل فضّل أن يقر بالأمر الواقع ويعترف له بلقب: “صقر قريش”، فقد أطلق عليه أبوجعفر المنصور هذا اللقب لاعترافه بشجاعته وقوته، فيروى أن أبا جعفر قال يومًا لبعض جلسائه: “أخبروني من صقر قريش من الملوك؟ قالوا ذلك أمير المؤمنين الذي راضى الملوك، وسكن الزلازل، وأباد الأعداء، وحسم الأدواء (يقصدون أبا جعفر المنصور). قال: ما قلتم شيئًا. قالوا: فمعاوية؟ قال: لا. قالوا: فعبد الملك بن مروان؟ قال ما قلتم شيئًا. قالوا: فمن يا أمير المؤمنين؟ قال صقر قريش عبدالرحمن بن معاوية الذي عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلدًا أعجميًا منفردًا بنفسه فمصرّ الأمصار، وجنّد الأجناد، ودوّن الدواوين، ونال ملكًا بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمة، إن معاوية نهض بمركب حمله عمر وعثمان عليه وذللّا له صعبه، وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها، وأمير المؤمنين بطلب عترته واجتماع شيعته، وعبد الرحمن منفرد بنفسه، مؤيد بأمره مستصحب لعزمه، فمد الخلافة بالأندلس، وافتتح الثغور وقتل المارقين وأذل الجبابرة الثائرين “ (1).

وَكَانَ الْمَنْصُورُ يَقُولُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُعَاوِيَةَ: ذَاكَ صَقْرُ قُرَيْشٍ، دَخَلَ الْمَغْرِبَ وَقَدْ قُتِلَ قَوْمُهُ، فَلَمْ يَزَلْ يَضْرِبُ الْعَدْنَائِيَّةَ بِالْقَحْطَانِيَّةِ حَتَّى مَلَكَ. (2) لرقى همته وبعد مطمحه.

ثورة المطري بمدينة لبلة

وغياث بن علقمة اللخمي بمدينة شذونه

وعبد الله بن خراشة الأسدي بجيان (سنة 149 هـ / 766 م)

وفي أوائل سنة 149 هـ / 766 م خرج سعيد اليحصبي المعروف بالمطري بمدينة لبلة، مطالبًا بثأر اليمانية الذين قتلوا مع العلاء، فهرعت إليه اليمانية وقوي

(1) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق الناشر دار إحياء التراث العربي، سنة النشر 1420 هـ - 1999 م، مكان النشر بيروت / لبنان، 4 / 448، أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية - بيروت، 3 / 33.

(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 15 / 252، الذهبي، تاريخ الإسلام، 11 / 241.

جمعه، ثم سار إلى إشبيلية واستولي عليها، وارثد عنها واليها عبد الملك بن عمر المرواني لقلة جنده، ولبت ينتظر المدد، فسار عبد الرحمن إلى إشبيلية، وخرج في نفس الوقت غياث ابن علقمة اللخمي بمدينة شذونة، ناكثاً لعهد، فسار عبد الرحمن أولاً إلى إشبيلية، ففر المطري إلى قلعة ر عواق القريبة وامتنع بها، فحاصره عبد الرحمن وقطع له كل علاقة بأنصاره، وضيق عليه الخناق، حتى ضاق المطري ذرعاً بالحصار فحاول الخروج من حصاره ومقاتلة قوات عبد الرحمن بن معاوية فقتل، بعد معركة عنيفة، وارثد أتباعه إلى القلعة من جديد وأختاروا خليفة بن مروان ليخلف المطري عليهم، ولكن المحاصرين راسلوا عبد الرحمن وطلبوا منه الأمان مقابل تسليمه قائدهم، وسلموا له قائدهم فقتله، واستولي عبد الرحمن علي القلعة وهدمها، ثم سار إلى شذونة فحاصرها حتى أذعن أهلها لطلب الأمان (1).

يقول ابن الأثير: "... وخرج سعيد اليحصبي المعروف بالمطري بالأندلس بمدينة لبلة. وسبب ذلك أنه سكر يوماً فتذكر من قتل من أصحابه اليمانية مع العلاء، وقد ذكرناه، فعقد لواء، فلما صحا رآه معقوداً فسأل عنه فأخبر به، فأراد دله ثم قال: ما كنت لأعقد لواء ثم أحله بغير شيء؟! وشرع في الخلاف، فاجتمعت اليمانية إليه وقصد إشبيلية وتغلب عليها وكثر جمعه، فبادره عبد الرحمن صاحب الأندلس في جموعه، فامتنع المطري في قلعة ز عواق لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، فحصره عبد الرحمن فيها وضيق عليه ومنع أهل الخلاف من الوصول إليه.

وكان قد وافقه على الخلاف غياث بن علقمة اللخمي، وكان بمدينة شذونة، وقد انضاف إليه جماعة من رؤساء القبائل يريدون إمداد الطري، وهم في جمع كثير.

فلما سمع عبد الرحمن ذلك سير إليهم بداراً مولاه في جيش، فحال بينهم وبين الوصول إلى المطري، فطال الحصار عليه وقتل رجاله بالقتل، ففارق بعضهم، فخرج يوماً من القلعة وقاتل فقتل وحمل رأسه إلى عبد الرحمن.

فقدم أهل القلعة عليهم خليفة بن مروان، فدام الحصار عليهم، فأرسل أهلها يطلبون الأمان من عبد الرحمن ليسلموا إليه خليفة، فأجابهم إلى ذلك وأنهم، فسلموا إليه الحصن وخليفة، فخرّب الحصن وقتل خليفة ومن معه، ثم انتقل إلى غياث، وكان موافقاً للمطري على الخلاف، فحصرهم وضيق عليهم، فطلبوا الأمان فأنهم إلا نفرأ كان يعرف كراهم لدولته، فإنه قبض عليهم، وعاد إلى قرطبة، فلما عاد إليها خرج

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 3 / 48، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1 / 163 - 164.

عليه عبد الله بن خراشة الأسدي بكورة جيان، فاجتمعت إليه جموعٌ، فأغار على قرطبة، فسير إليه عبد الرحمن جيشاً، فتفرق جمعه، فطلب الأمان، فبذله له عبد الرحمن ووفى له... " (1).

ثورة أبو الصباح بن يحيى اليحصبي سنة 150 هـ

وفي العام التالي عدت الثورة فاضطربت في إشبيلية، ومدبرها وزعيمها في تلك المرة هو أبو الصباح بن يحيى اليحصبي، صديق عبد الرحمن وحليفه، وكان أبو الصباح زعيم اليمينية في إشبيلية يوم ثدوم عبد الرحمن إلى الأندلس، فكان في طليعة من هرعوا يومئذ لتأييده ونصرته، وقاتل معه يوم المسارة، وغدا من خاصة أعوانه وأركان دولته، ولكن عبد الرحمن كان يحقد عليه ويتوجس منه، لحديث نقل عنه يوم المسارة بوجوب التخلص من عبد الرحمن بعد التخلص من يوسف الفهري، ورد الأمر إلى اليمينية، أو كان عبد الرحمن قد ولاه إشبيلية، ثم عزله عنها لما ظهر له ضعفه وعجزه عن قمع الفتنة، فغضب أبو الصباح وأظهر الفتنة والخلاف، واجتمع إليه أنصاره، ورأي عبد الرحمن أن يأخذه باللين والملاطفة، فبعث إليه تمام بن علقمه يدعوه إلى قرطبة للتفاهم، ويبذل له ما يشاء من الوعود، فسار أبو الصباح إلى قرطبة في أربعمائة من رجاله واستقبله عبد الرحمن بالقصر، وعاتبه علي ما كان منه، فأغلظ أبو الصباح في الجواب، ولامه علي النكت بالوعود التي بذلها له، فأمر الفتيان بقتله، فقتل طعنا بالخناجر وانفض جمعه سنة 150 هـ (2).

ثورة البربر في شمال الأندلس

بزعامة شقنا بن عبد الواحد سنة 151 هـ

ولم يمض وقت قليل علي القضاء علي فتنة أبو الصباح واليمينية حتى نشبت فتنة جديدة، شغلت بال عبد الرحمن عدة سنوات، وكان نشوبها في شمال شرق الأندلس بين البربر، وزعيمها ومثير ضرامها داعية بربري خطر يدعي شقنا بن عبد الواحد،

(1) الكامل في التاريخ، 3 / 48.

(2) نفع الطيب، 2 / 66، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1 / 164.

وأصله من بربر مكناسة، وكان فقيها يعلم الصبيان، فزعم ذات يوم أنه سليل النبي صلى الله عليه وسلم ومن ولد فاطمة والحسين ﷺ، وتسمى عبد الله بن محمد، فذاعت دعوته بين البربر في تلك المنطقة وكانوا أكثرية في تلك المنطقة، والتف حوله الكثير من الأتباع وأصبح غصة في حلق عبد الرحمن الأموي، وظل يقاتله منذ بداية تمرده ودعوته الباطلة في سنة 152 هـ / 769م، وهذا الدعي يماطله ويخاتله، حتى تمكن عبد الرحمن من القضاء علي ثورته وقتله في سنة 160 هـ / 776م (1).

يقول النويري: "... كان خروجه بشرق الأندلس في سنة إحدى وخمسين ومائة وكان من بربر مكناسة يعلم الصبيان وكانت أمه تُدعى فاطمة فادعى أنه من ولد فاطمة رضي الله تعالى عنها وأنه من ولد الحسين، وتُسمى بعبد الله بن محمد وسكن شنتبرية واجتمع عليه خلق كثير من البربر وعظم أمره فصار إليه عبد الرحمن فلم يقف له وزاغ في الجبال، فكان إذا أمن اندبسط وإذا خاف صعد الجبال حيث يصعب طلبه. فاستعمل عبد الرحمن على طليطلة حبيب بن عبد الملك، واستعمل حبيب على شنتبرية سليمان بن عفان بن مروان بن أبان بن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، وأمر بطلب شقنا فنزل شقنا إلى سليمان فقتله. واشتد ذكر شقنا وطار اسمه، وغلب على ناحية قورية. وأفسد في الأرض، فعاد عبد الرحمن و غزاه في سنة اثنتين وخمسين ومائة بنفسه، فلم يثبت له شقنا، فأعياه أمره فعاد عنه، وسير إليه في سنة ثلاث وخمسين بداراً مولاه، فهرب شقنا وأخلى حصنه شيطران، ثم غزاه عبد الرحمن بنفسه في سنة أربع وخمسين فلم يثبت له، فعاد عنه وبعث لحربه أبا عثمان عبد الله بن عثمان فخدعه شقنا وأفسد عليه جنده. فهرب عبد الله وغنم شقنا عسكره، وقتل جماعة من بني أمية كانوا في العسكر وذلك في سنة خمس وخمسين ومائة. وسار شقنا إلى حصن الهواريين وبه عامل لعبد الرحمن فمكر به شقنا حتى خرج إليه، فقتله وأخذ خيله وسلاحه وما كان معه. ولم يزل شقنا كذلك وعبد الرحمن يغزوه تارة بنفسه وتارة بجيوشه إلى سنة ستين ومائة فاغتاله أبو معن وأبو خريم وهما من أصحابه، فقتلاه وأخذ رأسه ولحقا بعبد الرحمن واستراح الناس من شره... " (2).

يقول ابن الأثير: "... وفيها ثار في الشرق من الأندلس رجل من بربر مكناسة كان يعلم الصبيان، وكان اسمه شقنا بن عبد الواحد، وكانت أمه تسمى فاطمة، وادعى

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 56 - 57.

(2) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مفيد قمحية وجماعة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1424 هـ - 2004 م، 23 / 201.

أنه من ولد فاطمة، عليها السلام، ثم من ولد الحسين، عليه السلام، وتسمى بعبد الله بن محمد، وسكن شنت برية، واجتمع عليه خلق كثير من البربر، وعظم أمره، وسار إلى عبد الرحمن الأموي فلم يقف له وراغ في الجبال، فكان إذا أمن انبسط، وإذا خاف صعد الجبال بحيث يصعب طلبه.

فاستعمل عبد الرحمن على طليطلة حبيب بن عبد الملك، فاستعمل حبيب على شنت برية سليمان بن عثمان بن مروان بن أبان بن عثمان بن عفان وأمره بطلب شقنا. فنزل شقنا إلى شنت برية وأخذ سليمان فقتله، واشتد أمره، وطار ذكره وغلب على ناحية قورية وأفسد في الأرض... فعاد عبد الرحمن الأموي فغزاه في سنة اثنتين وخمسين ومائة بنفسه، فلم يثبت له فأعياه أمره، فعاد عنه وسير إليه سنة ثلاث وخمسين بداراً مولاه، فهرب شقنا وأخذلى حصنه شطران، ثم غزاه عبد الرحمن الأموي بنفسه سنة أربع وخمسين ومائة، فلم يثبت له شقنا، ثم سير إليه سنة خمس وخمسين أبا عثمان عبيد الله بن عثمان، فخدعه شقنا وأفسد عليه جنده، فهرب عبيد الله، وغنم شقنا عسكره وقتل جماعة من بني أمية كانوا في العسكر.

وفي سنة خمس وخمسين أيضاً سار شقنا بعد أن غنم عسكر عبيد الله إلى حصن الهواريين المعروف بمداثن، وبه عامل لعبد الرحمن، فمكر به شقنا حتى خرج إليه، فقتله شقنا وأخذ خيله وسلاحه وجميع ما كان معه... وفيها (160 هـ) أرسل عبد الرحمن الأموي بالأندلس أبا عثمان عبيد الله بن عثمان، وتمام بن علقمة، إلى شقنا، فحاصراه شهوراً بحدصن شبطران، وأعياهما أمره، فقلا عنه، ثم إن شقنا، بعد عودهما عنه، خرج من شبطران إلى قرية من قرى شنت برية راكباً على بغلته التي تسمى الخلاصة، فاغتاله أبو معن وأبو خزيم، وهما من أصحابه، فقتلاه، ولحقا بعبد الرحمن، ومعهما رأسه، فاستراح الناس من شره... (1).

المؤامرة الكبرى ضد عبد الرحمن بن معاوية

أما أعظم المشاكل التي صادفت عبد الرحمن بن معاوية فهي مؤامرة كبرى دبرها بعض ثوار الأندلس من العرب المعارضين لدولته في شمال الأندلس، وذلك

سنة

161 هـ / 778م وما يليها بالاتفاق مع الخليفة العباسي محمد المهدي (158 - 169

هـ / 775 - 785م) ومستعين في ذلك بقارلة (شارلمان بن بيبان) ملك الفرنجة الذي كان علي علاقة من الصداقة والمودة مع الخليفة العباسي بدافع من المصلحة المشتركة. ونلاحظ وجود تقارب بين الدولة العباسية والدولة الإفرنجية بسبب عدائهما المشترك للدولة الأموية في الأندلس، وكذلك وجود تقارب بين الدولة الأموية بالأندلس والدولة البيزنطية بسبب عدائهما المشترك للدولة العباسية وبسبب العدواة بين البابوية والدولة البيزنطية، وتعزيد الفرنجة للسياسة البابوية.

هؤلاء الثوار العرب هم: عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلبي، أحد أصهار يوسف الفهر، ولقب بالصقلبي لأنه كان طويلاً أشقراً، أزرق، أضر، وقد ثار ابن حبيب سنة 162 هـ. كذلك ثار عليه سليمان بن يقطان الأعرابي والي برشلونة، وثار معه بسرقسطة حسين بن يحيى الأنصاري من ولد سعد بن عبادة، وأخيراً ثار عليه الرحامس بن عبد العزيز الكناني، والي الجزيرة الخضراء سنة 164 هـ (1).

وكان سليمان بن يقطان الأعرابي والي برشلونة وجيرونه والحسين بن يحيى الأنصاري والي سرقسطة تحالفا علي قتال عبد الرحمن بن حبيب وخلصه وكان استمرار الثورة في الجنوب وانشغال عبد الرحمن الدائم بقمعها، وطبيعة الشمال الجبلية ومنعته، مما يذكي عوامل الثورة في الولايات الشمالية، ويشجع مشاريع الزعماء والخوارج، مستغلين انشغاله بمحاربة الفاطمي، فأرسل إلى الشمال جيشاً بقيادة ثعلبة الجذامي فهزمه سليمان وأسرته وتفرق جيشه سنة 158 هـ / 775م، ولكن زعماء الثورة وعلي رأسهم سليمان بن يقطان لم يطمئنوا إلى ذلك النصر المؤقت لما يعلمونه من عزم عبد الرحمن وبأسه ورعة انتقامه، ففكروا في الانتصار بملك الفرنج، وسار سليمان مع نفر من أصحابه الخوارج إلى لقاء شارلمان في ربيع سنة 777م / 160 هـ، والتقوا به في بادربورن (شمال غرب ألمانيا) وعرض عليه التحالف في مقاتلة عبد الرحمن بن معاوية، واقترح عليه غزو الولايات الأندلسية الشمالية، وتعهده بمعاوته، وبأن يسلمه المدن التي يحكمها هو وصحبه من قبل أمير قرطبة ولا سيما سرقسطة، وأخيراً بأن يسلمه أسيره القائد ثعلبة بن عبيد (2).

ولم يكن شارلمان يزهد في إمتلاك الأندلس، فقد كان قد فرغ من حروبه في

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 83، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص 201.

(2) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1 / 169.

الجزء الأعظم من أوربا، وضم غلي ملكه لمبارديا وسكسونيا وبافير وبلاد الأفاريين وامتد ملكه حتى الدانوب، وكان يحلم بطرد المسلمين من الأندلس، ويطمع في ضم مملكة القوط القديمة إلى إمبراطوريته. ويبدو أن المؤامرة قد دبّرت بعلم محمد المهدي العباسي وموافقته وليس أدل على ذلك من التجاء الرحامس إليه بعد أن فشلت ثورته على ابن معاوية في الجزيرة الخضراء (1).

ولابي ملك الأفرنج دعوة الثوار المسلمين ووافق علي عرو ضهم، وبعث إلى سليمان بأسيره ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن، دليلاً على الثقة والتحالف، فسجن في إحدى القلاع الفرنسية. وقيل أنه سلمه له عقب مقدمه إلى إسبانيا، وعلي أي حال فقد كان حصول علي هذا الأسير وهو من خاصة عبد الرحمن وأكابر وزرائه في يد ملك الفرنج ضربة لعبد الرحمن ورهينة قيمة يمكن إستغلالها (2).

بدأ عبد الحمّن بن حبيب الفهري الصقلبي بالعبور إلى إفريقية مث عاد بجيش كبير من البربر نزل به في مدينة تدمير، وكنت مهمة سليمان بن يقظان الأعرابي الذهاب إلى سرقسطة وإعلان الثورة مع أحد المغامرين العرب هو حسين بن يحيى الأنصاري، وكان علي الرّحامس أن يعلن الثورة في جنوب الأندلس في نفس الوقت. وكان علي عبد الرحمن أن يحارب هؤلاء الثوار الواحد بعد الآخر، فبدأ بأخطارهم وهو عبد الرحمن بن حبيب الفهري الذي هرب وتعلق بالوعر، وتمكن عبد الرحمن من إحراق سفن ابن حبيب الراسية في ساحل البحر بالقرب من بلنسية، فأرسل ابن حبيب إلى سليمان بن يقظان الأعرابي ببرشلونة يدعوه للدخول في أمره ويسأله أن يمدّه بمعونته، ولكن سليمان لم يجبه إلى طلبه، فامتعض الفهري وغزاه، ولكنه انهزم وفر إلى تدمير والتجأ عند رجل من بربر البرانس يقال له مشكار البربري، فصار مشكار المذكور من ثقات أصحابه واطمأن إليه ابن حبيب، فقتله البرانسي في أواخر سنة 162 هـ / 778 م (3).

ثم وجه عبد الحمّن بن معاوية همه بعد ذلك لمقاتلة الرّحامس فأرسل إليه وزيره عبد الله بن خالد علي رأس جيش، ففر الرّحامس علي مركب جاز به البحر حتى قدم على الخليفة العباسي.

(1) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص 203.

(2) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1 / 170.

(3) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص 202.

وكان سليمان الأعرابي قد ثار بسرقسطة وثار معه حسين بن يحيى الأنصاري، فبعث إليهما ابن معاوية قائده ثعلبة بن عبيد الجذامي في جيش، غير أن سليمان نجح في هزيمة هذا الجيش وأسر ثعلبة وقدمه لشارلمان كمقدم لإتفاق للتعاون والتحالف فيما بينهما في مواجهة عبد الرحمن الأموي (كما أسلفنا) ووجد شارلمان في ذلك فرصة مواتية لغزو الأندلس، فخرج علي رأس جيوشه في ربيع سنة 778 م متجها نحو جبال البرتات، وهاجم بنبلونة واستولي عليها، ثم تقدم باتجاه سرقسطة وهو يعتقد أنها سوف تفتح له أبوابها، إذ كان ابن الأعرابي قد مهد السبيل أمامه لدخولها، ويبدو أن حسين بن يحيى طمع في الانفراد بولاية سرقسطة، فأغلق أبوابها أمام جيوش شارلمان، وصم أذنيه عن توصلات ابن الأعرابي، وطال حصار شارلمان للمدينة عبثا حتى يئس من فتحها، وكانت الأدباء قد وصلته بحدوث اضطرابات في بلاده، فاضطر إلى رفع الحصار عن المدينة والعودة إلى بلاده، وقد أرغم يسليمان علي التراجع معه لعجزه عن تحقيق وعده لشارلمان بإدخاله سرقسطة.

انسحب شارلمان بجيوشه نحو غالة، ولما وصل بنبلونة سحب حاميتها الإفرنجية وهدم أسوار المدينة، ولكن عبد الرحمن بن معاوية لم يتركه يرحل في سلام فقد أثار عليه قبائل البشكنس، وكانو يحقدون علي شارلمان لتخريبه بنبلونة، فترصدوا مؤخرة جيشه الكبير وهو يجتاز أحد دروب شعب رنسفالة، وأمطروها وابلا من السهام وكتل الحجارة، حتى قضوا علي مؤخرة هذا الجيش قضاء مبرما وقتل في رنسفالة عدد كبير من أعظم قواده، وفي أثناء المعركة تمكن مطروح وعيشون ولدا سليمان بن الأعرابي من تخليصه ورجعا به إلى سرقسطة.

وهكذا انتصر الأمير عبد الرحمن بن معاوية الأموي علي المتآمرين عليه، واضطر شارلمان إلى مادنثه حتي يتفرغ لمشاكله الداخلية، وفي ذلك يقول المقرئ: “.. وخاطب عبد الرحمن قارله ملك الإفرنج، وكان من طغاة الإفرنج، بعد أن تمرّس به مدة، فأصابه صلب المكسر، تامّ الرجولية، فمال معه إلى المداواة، ودعاه إلى المصاهرة والسلم، فأجابته للسلم، ولم تتم المصاهرة...” (1).

وبينما كان شارلمان يتراجع عن سرقسطة كان جيش عبد الرحمن بن معاوية يتأهب للسير نحو سرقسطة للقضاء علي الثوار، وقبل أن يصل الأمير عبد الرحمن إلى سرقسطة أوعز حسين بن يحيى الأنصاري إلى أحد أتباعه بقتل الأعرابي في

(1) المقرئ، نفح الطيب، 1 / 3310، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص 203.

المسجد الجامع سنة 164 هـ / 780م حتى ينفرد بحكم سرقسطة، أما عيشون بن سليمان فقد فر بعد مصرع أبيه إلى ربونة ثم عاد إلى سرقسطة عندما بلغه قدوم الأمير عبد الرحمن واليها وفاتها، وتمكن أخيراً من اصطياذ قاتل أبيه وقتله، وانضم إلى جيش الأمير وساهم في حصار حسين بن يحيى، فلما ضاق حسين بهذا الحصار، أرسل إلى الأمير يطلب الصلح وأرسل إليه ابنه سعيد رهينة، فقبل الأمير ذلك وفك الحصار عن سرقسطة ومضى إلى بنبلونة وقلنيرة، وكر علي البشقرس ثم علي بلاد الشرطانيس، ولكن سعيداً تمكن من الفرار وعاد إلى سرقسطة، وهنا نكث عهده مع الأمير، فسير عبد الرحمن قائده غالب بن تمامة بن علقمة علي رأس جيش حاصر به المدينة، ثم أدركه الأمير في العام التالي 166 هـ / 782م وقد عزم عزمًا صادقاً علي إفتتاح المدينة، فشدد عليها الحصار، ونصب عليها ستة وثلاثين منجنيقا من كل جانب، فترامي القوم إليه وأسلموا له حسيينا فقتله الأمير عبد الرحمن بن معاوية. وبذلك انتهت ثورة حسين بن يحيى (1).

وكانت آخر حلقة من سلسلة هذه الثورات، ثورة المغيرة بن الوليد بن معاوية، ابن أخت الأمير عبد الرحمن بن معاوية الذي قام بثورته سنة 168 هـ / 784م بالرصافة وقد ساعده فيها هذيل بن الصميل بن حاتم، واستطاع الأمير عبد الرحمن القضاء عليهما ثم قتلها (2).

ثم كانت مؤامرة محمد بن يوسف الفهري المعروف بابي الأسود، الذي أعلن ثورته علي الأمير عبد الرحمن بمدينة قسطلونة بشرق الأندلس، فهزمه عبد الرحمن في مخاضة الفتح في مستهل ربيع الأول سنة 169 هـ / 785م ففر إلى قورية فطارده الأمير

عبد الرحمن وأرغمه علي الفرار إلى المفاز في أقصى شمال الأندلس، وكان ذلك آخر ما قام به عبد الرحمن بن معاوية من حروب إذ مات في جمادي الأولي سنة 172 هـ / أكتوبر سنة 788م ودفن بالروضة من قصر الإمارة بقرطبة (3).

(1) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص 205، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1 / 172 - 173.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 1 / 56 - 57، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص 205.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 57، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص 205، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 97.

بعض مظاهر الحضارة في عهد عبد الرحمن

حين استتب الأمر لعبد الرحمن الداخل في أرض الأندلس، وبعد أن انتهى نسبياً من أمر الثورات بدأ يفكر فيما بعد ذلك، فكان أن اهتم بالأمور الداخلية للبلاد اهتماماً كبيراً، فعمل على ما يلي:

أولاً: بدأ بإنشاء جيش قوي:

اهتم عبد الرحمن ببناء جيش قوي وحشد له المتطوعة والمرترقة من كل صوب، وقد بلغت قواته نحو مائة ألف مقاتل عدا حرسه الخاص من المولي والبربر والرقيق ويبلغ قرابة الأربعين ألفاً واعتمد في تكوينه جيشه على العناصر التالية:

أ - اعتمد في الأساس على عنصر المولدين، وهم الذين نشؤوا - كما ذكرنا - نتيجة انصهار وانخراط الفاتحين بالسكان الأصليين من أهل الأندلس، وكانوا يمثلون غالبية بلاد الأندلس.

ب - اعتمد على كل الفصائل والقبائل الموجودة في بلاد الأندلس، فضم إليه كل الفصائل المضرية سواء أكانت من بني أمية أو من غير بني أمية، وضم إليه كل فصائل البربر، كما كان يضم إليه رؤوس القوم ويتألفهم فيكونون عوامل مؤثرة في أقوامهم، بل إنه ضم إليه اليمنيين مع علمه بأن أبا الصباح اليحصبي كان قد أضمر له مكيدة، الأمر الذي جعله يصبر عليه حتى تمكن من الأمور تماماً ثم تخلص منه - كما ذكرنا - بعد إحدى عشرة سنة كاملة من توليه الحكم في البلاد.

ج - كذلك اعتمد على عنصر الصقالبة، وهم أطفال نصارى كان قد اشتراهم عبد الرحمن الداخل من أوروبا، ثم قام بتربيتهم وتثقيفهم تشيئة إسلامية عسكرية صحيحة.

وبرغم قدوم عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس وحيداً، فقد وصل تعداد الجيش الإسلامي في عهده إلى مائة ألف فارس غير الرجالة، مشكل من كل هذه العناصر السابقة، والتي ظلت عماد الجيش الإسلامي في الأندلس لدى أتباع وخلفاء وأمرأء بني أمية من بعده (1).

أنشأ رحمه الله دوراً للأسلحة، فأنشأ مصانعاً للسيوف وأخرى للمنجنيق، وكان من أشهر هذه المصانع مصانع طليطلة ومصانع برديل.

(1) محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص 267 - 268.

أنشأ أيضا أسطولا بحريا قويا، بالإضافة إلى إنشاء أكثر من ميناء كان مذهبها ميناء طرطوشة والمرية وأشبيلية وبرشلونة وغيرها من الموانئ⁽¹⁾.

كان رحمه الله يقسم ميزانية الدولة السنوية إلى ثلاثة أقسام قسم ينفقه بكامله على الجيش، والقسم الثاني لأموار الدولة العامة من مؤن ومعمار ومرتبات ومشاريع وغير ذلك، والقسم الثالث كان يدخره لنوائب الزمان غير المتوقعة.

ثانيا: أولى العلم والجانب الديني اهتماما بالغا:

أعطى عبد الرحمن الداخل العلم والجانب الديني المكانة اللائقة بهما، فعمل على الآتي:

- نشر العلم وتوقير العلماء.

- اهتم بالقضاء والحسبة.

- اهتم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- كان من أعظم أعماله في الناحية الدينية بناء مسجد قرطبة الكبير، والذي أنفق على بنائه ثمانين ألفا من الدنانير الذهبية، وقد تنافس الخلفاء من بعده على زيادة حجمه حتى تعاقب على اكتماله في شكله الأخير ثمان خلفاء من بني أمية.

ثالثا: العناية الكبيرة بالجانب الحضاري:

ويبرز ذلك في الجوانب التالية:

- اهتمامه الكبير بالإنشاء والتعمير، وتشديد الحصون والقلاع والقناطر، وربطه

أول الأندلس بآخرها.

- إنشاء أول دار لسك النقود الإسلامية في الأندلس.

- إنشاء الرصافة، وهي من أكبر الحدائق في الإسلام، وقد أنشأها على غرار

الرصافة التي كانت بالشام، والتي أسسها جده هشام بن عبد الملك رحمه الله وقد أتى لها بالنباتات العجيبة من كل بلاد العالم، والتي إن كانت تنجح زراعتها فإنها ما تلبث أن تنتشر في كل بلاد الأندلس.

رابعا: حماية حدود دولته من أطماع الأعداء:

بالإضافة إلى إعداده جيشا قويا - كما وضحنا سابقا - وتأميننا لحدود دولته

(1) المقري، نفح الطيب، 2 / 67، محمد زيتون، المسلمون في المغرب الأندلس، ص 267، 268.

الجديدة قام عبد الرحمن الداخل بخوض مرحلتين مهمتين:

المرحلة الأولى: كان عبد الرحمن الداخل يعلم أن الخطر الحقيقي إنما يكمن في دولتي ليون في الشمال الغربي، وفرنسا في الشمال الشرقي من بلاد الأندلس، فقام بتنظيم الثغور في الشمال، ووضع جيوشاً ثابتة على هذه الثغور المقابلة لهذه البلاد النصرانية، وأنشأ مجموعة من الثغور كما يلي:

- **الثغر الأعلى:** وهو ثغر سراقسة في الشمال الشرقي في مواجهة لفرنسا.

- **الثغر الأوسط:** ويبدأ من مدينة سالم ويمتد حتى طليطلة.

- **الثغر الأدنى:** وهو في الشمال الغربي في مواجهة مملكة ليون النصرانية.

المرحلة الثانية: كان رحمه الله قد تعلم من آبائه وأجداده عادة عظيمة جداً، وهي عادة الجهاد المستمر وبصورة منتظمة كل عام، فقد اشتهرت الصوائف في عهده، حيث كان المسلمون يخرجون للجهاد في الصيف، وبصورة منتظمة وذلك حين يذوب الجليد، وكان يتناوب عليهم فيها كبار قواد الجيش، وأيضاً كان يُخرج الجيوش الإسلامية إلى الشمال كل عام بهدف الإرباك الدائم للعدو، وهو ما يسمونه الآن في العلوم العسكرية بالهجوم الإجهاضي المسبق.

* * *

عبد الرحمن الداخل.. الأمير الفذ

لولا عبد الرحمن الداخل لانتهى الإسلام من الأندلس بالكلية، هكذا قال المؤرخون عن عبد الرحمن بن معاوية، وإنا لتعلونا الدهشة ويتملكننا العجب حين نعلم أن عمره حينذاك لم يتجاوز الخامسة والعشرين عاماً، أي في سن خريج جامعة في العصر الحديث.

ملك من السماء، أم ماذا هو؟! لن نذهب بعيداً، وسنترك الحديث عنه إلى ابن حيّان الأندلسي، ولنعي ما يقوله عنه، يقول ابن حيّان مستعرضاً بعضاً من صفات عبد الرحمن الداخل:

ألفى الداخل - عبد الرحمن - الأندلس ثغراً قاصياً غفلاً من حلية الملك عاطلاً، فأرهم أهلها بالطاعة السلطانية، وحَنَكم بالسيرة الملوكية، وأخذهم بالآداب فأكسبهم عمّا قليل المروءة، وأقامهم على الطريقة، وبدأ فدّون الدواوين، ورفع الأوّابين، وفرط الأعطية، وعقد الألوية، وجنّد الأجناد، ورفع العاد، وأوثق الأوتاد، فأقام للملك آله، وأخذ للسلطان عدّته، فاعترف له بذلك أكابر الملوك وحذروا جانبه، وتحاموا

حوزته، ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس، واستقلّ له الأمر فيها. فلذلك ما ظلّ عدوّه أبو جعفر المنصور - بصدق حسنه، وبعد غوره، وسعة إحاطته - يسترجع عبد الرحمن كثيراً، ويعد له بنفسه، ويكثر ذكره، ويقول: لا تعجبوا لامتناد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه، فالشأن في أمر فتى قریش الأحوذىّ الفذّ في جميع شؤونه، وعدمه لأهله ونشبهه، وتسليّيه عن جميع ذلك ببعد مرقى همته، ومضاء عزيمته، حتى قذف نفسه في لجج المهالك لا بتناء مجده، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل، نائية المطمع، عصبية الجند، ضرب بين جندها بخصوصيته، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته، واستمال قلوب رعيّتها بقضية سياسته، حتى انقاد له عصيهم، وذللّه أبيهم، فاستولى فيها على أريكته، ملكاً على قطعه، قاهراً لأعدائه، حامياً لزمّاره، مانعاً لحوزته، خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه، إن ذلك لهو الفتى كلّ الفتى لا يكذب مادحه. وجعل ابن حيّان من النوادر العجيبة موافقة عبد الرحمن هذا لأبي جعفر المنصور في الرجولية والاستيلاء والصّرامة، والاجترأ... على الكبائر والقساوة، وأنّ أم كل واحد منهما بربرية.

وكان الداخل يقعد للعامة، ويسمع منهم، وينظر بنفسه فيما بينهم، ويتوصل إليه من أراده من الناس، فيصل الضعيف منهم إلى رفع ظلامته إليه دون مشقة، وكان من عادته أن يأكل معه من أصحابه من أدرك وقت طعامه، ومن وافق ذلك من طلاب الحوائج أكل معه.

وفي كتاب ابن زيدون أنّه كان أصهب، خفيف العارضين، بوجهه خالّ، طويل القامة، نحيف الجسم، له ضفيران، أعور أخشم؛ والأخشم: الذي لا يشم، وكان يلقب بصقر قریش لكونه تغرّب وقطع البر والبحر، وأقام ملكاً قد أدبر وحده.

ولما ذكر الحجاري أنّه أعور قال: ما أنشد فيه إلّا قول امرئ القيس:

لكن عور وفي بدمته :: لا عور شأنه ولا قصر

وقال ابن خلدون: وفي "سنة ست وأربعين سار العلّاء بن مغيث اليدصبي من إفريقية إلى الأندلس، ونزل بباجة الأندلس داعياً لأبي جعفر المنصور، واجتمع إليه خلق، فسار عبد الرحمن إليه ولقيه بنواحي إشبيلية، فقاتله أيّاماً، ثم انهزم العلّاء، وقتل في سبعة آلاف من أصحابه، وبعث عبد الرحمن برؤوس كثير منهم إلى القيروان ومكة، فألقيت في أسواقها سرّاً، ومعها اللواء الأسود، وكتاب المنصور للعلّاء، فارتاع المنصور لذلك وقال: ما هذا إلا شيطان، والحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر، أو كلاماً هذا معناه، وقد مرّ ذكر ذلك... وكثرت ثورة رؤساء العرب

بالأندلس على عبد الرحمن الداخل، ونافسوه ملكه، ولقي منهم خطوباً عظيمة، وكانت العقابة له، واستراب في آخر أمره بالعرب، لكثرة من قام عليه منهم، فرجع إلى اصطناع القبائل من سواهم، واتخاذ الموالى، ثم غزا بلاد الإفرنج والبشكنس ومن وراءهم، ورجع بالظفر، وكان في سنته أن يجدد دولة بني مروان بالمشرق، فمات دون ذلك الأمل، وكانت مدة ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر، إذ دخل الأندلس سنة ثمان وثلاثين ومائة، ومات سنة اثنتين وسبعين، وقيل: إحدى وسبعين ومائة، في خلافة الرشيد، وأمّه أم ولد بربرية اسمها راح، ومولده سنة ثلاث عشرة ومائة، بدير حنا من أرض دمشق، وقيل: بالعلياء من تدمر، ومات أبوه في أيام أبيه هشام سنة ثمانى عشرة عن إحدى وعشرين سنة، وكفله وإخوته جدّهم هشام، ووهب لعبد الرحمن هذا جميع الأخماس التي اجتمعت للخلفاء بالأندلس، وأقطعها إيّاها، ووجّه لحيازتها من الشام سعيد بن أبي ليلى، وقيل: إنّهُ لما قصد المغرب من فلسطين خرج معه أربعة: بدر مولى أبيه، وأبو شجاع، وزيد، وعمرو، وقيل: إن بدرًا لحقه ولم يخرج معه، فالله أعلم، وخلف من الولد عشرين، ومنهم أحد عشر رجلاً وتسع إناث.

وحكى غير واحد أنّه لما هرب من الشام إلى إفريقية قاصداً الأندلس نزل بمغيلة، فصار بها عند شيخ من رؤساء البربر يدعى وانسوس، ويكنى أبا قرّة، فاستتر عنده وقتاً، ولحق به بدر مولى أبيه بجوهرٍ وذهب أنفذته أخته إليه، فلمّا دخل الأندلس واستتب أمره به سار إليه أبو قرّة وانسوس البربري، فأحسن إليه وحظي عنده وأكرم زوجته تكفات البربرية التي خبأته تحت ثيابها عندما فتشت رسل ابن حبيب بيتها عنه، فقال لها عبد الرحمن مداعباً حين استظلت بظلّه في الأندلس: لقد عذبتني بريح إبطيك يا تكفات على ما كان بي من الخوف، وسعطتني بأنتن من ريح الجيف، فكان جوابها له مسرعة: بل ذلك كان والله يا سيدي منك خرج ولم تشعر به من فرط فزعك، فاستظرف جوابها، وأغضى عن مواجهتها بمثل ذلك، وهذا من آفات المزاح... (1).

كان عبد الرحمن الداخل راجح العقل، راسخ الحلم، واسع العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئاً من العجز، سريع النهضة، متصل الحركة، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، بعيد الغور، شديد الحدة، قليل الطمأنينة، بليغاً مَقْوِّها، شاعراً محدسناً، سمحاً سخياً، طلق اللسان، وكان قد أعطي هيبة من وليّه وعدوّه،

وكان يحضر الجنائز ويصلي عليها، ويصلي بالناس الجمع والأعياد إذا كان حاضراً، ويخطب على المنبر، ويعود المرضى.

شخصية تُشخص الأبصار وتبهر العقول، فمع راحة عقله وسعة علمه كان لا ينفرد برأيه، فإذا اجتمعت الشورى على رأي كان نافذ العزم في تطبيقه رحمه الله، ومع شدته وحزمه وجهاده وقوته كان رحمه الله شاعراً محسناً رقيقاً مرفه المشاعر.

ومع هيئته عند أعدائه وأوليائه إلا أنه كان يتبسط مع الرعية، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم، ويصلي بهم ومعهم، ومع كونه شديد الحذر قليل الطمأنينة، فلم يمنعه ذلك من معاملة الناس والاختلاط بهم ودون حراس، حتى خاطبه المقربون في ذلك وأشاروا عليه ألا يخرج في أوساط الناس حتى لا يتبسطوا معه، ولكن كيف يمتنع عن شعبه وهو المحبوب بينهم والمقرب إلى قلوبهم؟! ولقد صدق من قال: حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر.

ومن شعره قوله، وقد نظر إلى نخلة بمذية الرصافة، مفردة، هاجت شجته إلى تذكر بلاد المشرق:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة	:::	تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في الغرب والنوى	:::	وطول التناهي عن بني وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة	:::	فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غواذي المزن من صوبها الذي	:::	يسح ويستمرئ السماكين بالوبل
وغمر الهول كقطع الليل	:::	بفتنة الفهري والصميل
وجلست الفتنة في أندلس	:::	فأصبحت فريسة المفترس
فأسرع السير إليها وابتدر	:::	وكل شيء بقضاء وقدر
صقر قريش عابد الرحمن	:::	باني المعالي لبني مروان
جدد عهد الخلفاء فيها	:::	وأسس الملك لمتريفيها
ثم أجاب داعي الحمام	:::	وخلف الأمر إلى هشام
وقام بالأمر الحفيد الناصر	:::	والناس محصور بها وحاصر
فأقبل السعد وجاء النصر	:::	وأشرق الأمن وضاءت القصر
وعادت الأيام في شباب	:::	وأصبح العدو في تباب
سطى وأعطى وتغاضى ووفا	:::	وكلمما أقدره الله عفا

فعاد من خالف فيها وانتزا :: وحارب الكفار دأبا وغزا
وأوقع الروم به في الخندق :: فانقلب الملك بسعي مخفق
واتصلت من بعد ذا فتوح :: تغدو على مشواه أو تروح
فاغتموا السلم لهذا الحين :: ووصلت إرسال قسطنطين
وساعد السعد فال واقتنا :: ثم بني الزهرا فيما قد بنا
حتى إذا ما كملت أيامه :: سبحان من لا ينقضي دوامه⁽¹⁾

فكان له حقا أن يأتي إلى هذه البلاد وحيدا مطاردا مطلوب الرأس، تجري وراءه قوى الأرض جميعا، فعباسيون في المشرق، وخوارج في المغرب، ومن بعدهم نصارى في الشمال، وثورات في الداخل، ثم هو يقوم وسط هذه الأجواء بتأسيس هذا البنيان القوي، وهذه الدولة الإسلامية ذات المجد التليد.

ونستطيع أن نفهم شخصيته بصورة أوضح حين نعلم كيف كان في معاملته للناس، فقد قال الرازي: "... قام بين يديه رجل من جند قدسرين، يستجد به، وقال له: يا ابن الخلايف الراشدين والسادات الأكرمين، إليك فرنا، وبك عذت من زمن ظلوم، ودهر غشوم، قل المال، وذهب الحال، وصير إلى بذاك المنال، فأنت ولي الحمد، وربى المجد، والمرجو للرفد. فقال له ابن معاوية مسرعا: قد سمعنا مقالتك، فلا تعودن ولا سواك لمثله، من إراقة وجهك، بتصريح المسلة، والإلحاف في الطلبة، وإذا ألم لك خطب أو دهاك أمر، أو أحرقتك حاجة فارفعه إلينا في رقعة لا تعدو ذكيا، تستر عليك خلتك، وتكف شماتة العدو بك، بعد رفعها إلى مالكننا ومالكها، عن وجهه، بإخلاص الدعاء، وحسن النية. وأمر له بجائزة حسنة. وخرج الناس يعجبون من حسن منطق، وبراعة أدبه... " (2).

إنها لتربية ربانية لشعبه، كل شعبه، فهو يريد رحمه الله أن يربط الناس بخالقهم، يريد أن يعلمهم أن يرفعوا حاجتهم إليه أولا سبحانه وتعالى، يريد أن يعلمهم أنه سبحانه وتعالى يملكه ويملكهم جميعا، ثم مراعاة لعواصف النفس الداخلية، وحفظا لماء وجه الرعية عند السؤال قال له: فارفع إلينا حاجتك في رقعة كي نستتر عليك ولا يشمت أحد فيك.

(1) أبو عبد الله بن سعد بن أحمد السلماني (لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت - 2003 هـ - 1424 هـ، تحقيق: د. يوسف علي طويل، 3 / 357، 358.

(2) لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، 3 / 357.

الفصل الرابع:

أمراء بني أمية بعد عهد الرحمن الداخل

الأمير هشام بن عبد الرحمن - الرضا - (172 - 180 هـ / 789 - 796 م):

الحكم الأول بن هشام - الربضي - (180 - 206 هـ / 796 - 821 م):

الثورات الداخلية في عهده:

ثورة عميه سليمان وعبد الله ابني عبد الرحمن بن معاوية:

ثورة طليطلة سنة 181 هـ / 797:

ثورة إصبغ بن وانسوس:

ثورة الربض:

الحروب الخارجية:

وا حكماه!!!

عبد الرحمن الثاني الحكم " الأوسط " (206 - 238 هـ / 821 - 852 م):

الثورات والفتن الداخلية في عهده:

الحروب الخارجية في عهد عبد الرحمن الأوسط:

محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (238 - 273 هـ / 852 - 886 م):

الثورات الداخلية في عهده:

ثورة طليطلة:

ثورة ماردة:

ثورة سرية:

ثورة عمر بن حفصون 267 هـ / 316 م:

الحروب الخارجية في عهده:

المنذر بن محمد بن عبد الرحمن (273 - 275 هـ / 886 - 888 م):

عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (275 - 300 هـ / 888 - 912 م):

الثورات في عهده:

* * *

الأمير هشام بن عبد الرحمن - الرضا -

(172 - 180 هـ / 789 - 796 م)

هو أبو الوليد هشام الرضا بن عبد الرحمن الداخل، ولد عام 139 هـ وارتقى عرش الحكم في أول يوم من جمادي الأولي عام 172 هـ / 788 م وامتد حكمه أكثر من سبع سنين، إذ توفي في الثالث من شهر صفر عام 180 هـ / 796 م، واشتهر بثقافته العالية وعلمه الواسع وتقواه التي أهلت له لئال لقب الرضا، وفي عهده بدأ المذهب المالكي ينتشر، وبدأ فقهاء هذا المذهب يلبون دورا بارزا في السيطرة علي أمراء الحكم وتوجيه شؤون الدولة (1).

خلف عبد الرحمن الداخل ولده هشام بعهد منه، ولم يكن أكبر ولده، بل كان أكبرهم سنا سليمان والي طليطلة، ولم يك يومئذ ثمة نظام خاص لولاية العهد، بل كانت ولاية العهد كما هو مأثور، حقا مفوضا للأمير أو الإمام، يجريه وفقا للمصلحة العامة، ولم يكن انحصاره في ولد الأمير أو أسرته، سوي تقليد من تقاليد السياسة والعصبية، وسارت عليه الدولة الأموية، فوضعت بذلك الدولة الأموية أسس الأسر المملوكية، والعروش المتوارثة، وكان من الطبيعي بعد أن ظفر عبد الرحمن الأموي، بإحياء تراث أسرته المندثر في المشرق، أن يصل ما انقطع، وأن تقوم من هذا الفرع الأموي أسرة مملوكية جديدة تتعاقب في العرش، وتعيد بالأندلس مجد الدولة الأموية الذاهب (2).

ولا شك أن عبد الرحمن كان يفضل هشاما علي سليمان مع أن هذا الأخير كان يكبر هشاما في السن بل كان أكبر أبناء عبد الرحمن في السن، وكان هشام رجلا فاضلا كريما كما كان عاقلا حسن التدبير، بينما كان سليمان أهوجا سيئ التصرف، ولا شك أن عبد الرحمن كان يدرك ذلك حق الإدراك فكان يضع هشاما في المحل الأول وولاه ماردة موطن الثورات. قال المقري: "... وكان أبوه يوليه في صباه ويرشحه للأمر، وكان الداخل كثيراً ما يسأل عن ابنه سليمان وهشام، فيذكر له أن هشاماً إذا حضر مجلساً امتلأ أدباً وتاريخاً وذكرأ لأمر الحرب ومواقف الأبطال، وما أشبه ذلك، وإذا حضر سليمان مجلساً امتلأ سخفاً وهذياناً، فيكبر هشام في عينه

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 61، محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص 271، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 109.

(2) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1 / 224.

بمقدار ما يصغر سليمان، وقال يوماً لهشام: لمن هذا الشعر:

وتعرف فيه من أبيه شمائلًا :: ومن خاله أو من يزيد ومن حجر
سماحة ذا، وبرّ ذا، ووفاء ذا :: ونائل ذا، إذا صحا وإذا سكر

فقال له: يا سيدي لا مرئ القيس ملك كندة، وكأذّه قاله في الأمير أعرّه الله؛ فضمّه إليه استحسناناً بما سمع منه، وأمر له بإحسان كثير، وزاد في عينه. ثم قال لسليمان على انفراد: لمن هذا الشعر؟ وأنشده البيتين، فقال: لعلهما لأحد أجلاف العرب، أما لي شغل غير حفظ أقوال بعض الأعراب؟ فأطرق عبد الرحمن، وعلم قدر ما بين الاثنين من المزية... " (1).

وكانت بين هشام وسليمان جفوة ومباعدة من أجل تفضيل عبد الرحمن هشاماً علي سليمان، فلما دخل هشام القصر بايعه الخاصة والعامة، فلما علم سليمان بذلك حشد الحشود وجند أجناد وبايعه أهل طليطلة وما جاورها، ثم زحف نحو قرطبة، والتقي مع أخيه هشام في جيان، بجهة بلج فانهمزم سليمان وعاد إلى طليطلة (2).

ولما عاد سليمان إلى طليطلة دعا لنفسه فيها وما جاورها، ولحق به أخوه عبد الله المعروف بالبلنسي في طليطلة، مما حمل هشاماً علي أن يذهب بجيش لحصارهما في طليطلة، ولكن سليمان خرج مستخفياً إلى قرطبة ليستولي علي مقاليد الأمور بها، وقد فشل في ذلك لأن هشاماً أرسل إليه ابنه عبد الملك في جيش لمطاردته ففر إلى ماردة فطارده عامل هشام فلجأ إلى تدمير (مرسية)، بعد حصار دام شهرين لطليطلة، عاد هشام إلى قرطبة وشعر عبد الله بفشل الثورة فقدم غلي هشام في قرطبة يلتمس الصصح، فعفا عنه وأكرم مثواه، وأرسل هشام جيشاً بقيادة ابنه معاوية إلى تدمير (مرسية) لتعقب أخيه سليمان وضيق عليه الحصار مما جعل سليمان يطلب الأمان علي شريطة أن يعبر سليمان وولده وأهله إلى المغرب، وقد أعطي الأمير هشام أخاه سليمان ستين ألف دينار مقابل ذلك، وسار معه أخوه عبد الله وأقاما بعدوة المغرب وانتهت بذلك ثورة الأخوين سنة 174 هـ / 790 م (3).

وكان سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصاري قد فر بعد مقتل أبيه في سرقسطة

(1) نفح الطيب، 1 / 313.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 92، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص 214.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 61 - 63، محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص

272، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 109 - 110.

إلى شاغنت في إقليم طرطوشة واجتمع حوله حشد هائل من اليميزيين الموتورين، وتمكن بمساعدتهم من السيطرة علي مدينة طرطوشة، وكان يحكم الثغر الأعلى موسي بن فرتون القومس، وكان قد بايع هشام في ذلك الوقت، فهاجم موسي سعيدا وهزمه وقتل سعيد، واستولي موسي علي سرقسطة، ولكنه قتل بيد جحدر مولي حسين بن يحيى الأنصاري، فخرج مطروح بن سليمان الأعرابي من مدينة برشلونة حيث أقام منذ مقتل أبيه، فملك مدينة سرقسطة ووشقة والثغر الأعلى كله، في الوقت الذي كان هشام مشغولا بقتال أخيه سليمان. فتركه هشام ريثما يفرغ من القضاء علي فتنة أخيه سليمان، وما أن فرغ هشام من فتنة أخيه حتى أرسل إليه جيشا بقيادة عبد الله بن عثمان فضيق عليه الحصار في سرقسطة، حتى ضاق أهلها ذرعا بالحصار، فخرج مطروح في بعض الأيام متصيذا فاغتاله أحد أصحابه وذلك في سنة 175 هـ / 791م وبذلك انتهت الثورة في الشمال (1).

أما الثورة الثالث التي قامت في عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل، فقد تمثلت في الثورة التي قام بها البربر في منطقة رندة المعروف بإقليم تاكرنا (2) سنة 178 هـ / 795م حيث خلع البربر الطاعة وأظهروا الفساد فأعادهم هشام إلى الطاعة فلم يمتثلوا فسير إليهم جيشا كبيرا بقيادة عبد القادر بن أبان مولي معاوية بن أبي سفيان فشنت جموع البربر روقتل كثيرا منهم وخرّب ديارهم.

يقول ابن الأثير: "... وفيها (178 هـ / 795م) هاجت فتنة تاكرنا بالأندلس، وخلع بربرها الطاعة، وأظهروا الفساد، وأغاروا على البلاد، وقطعوا الطريق، فسير هشام إليهم جنداً كثيفاً عليهم عبد القادر بن أبان بن عبد الله، مولى معاوية بن أبي سفيان، فقصدها وتابعوا قتال من فيها إلى أن أبادوهم قتلاً وسبياً وفر من بقي منهم فدخل في سائر القبائل، وبقيت كورة تاكرنا وجبالها خالية من الناس سبع سنين (3). وبالقضاء علي تلك الثورة استقرت الأمور الداخلية في البلاد.

وكان ميل هشام الفطري إلى الورع والدين والتقوي سببا من أسباب إقباله علي

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 64، السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص 214، 215، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 100.

(2) تاكرنا tacorona.

هي المنطقة الجبلية الواقعة جنوبي شبه جنوب الأندلس والمعروفة الآن باسم فيلاللي (de sierra ronda).

(3) الكامل، 3 / 96، وانظر أيضا: ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 63.

الخير وإيثاره له، كما كان سببا في قضائه سني حكمه في الجهاد ضد النصاري بشمال أسبانيا، فبيدما كانت أيامه كلها تتميز بالدعة والهدوء في الداخل، نراه من وجهة السياسة الخارجية مجاهدا من خير المجاهدين، وثاغرا من خير المثاعرين، فقد أعلن الجهاد وعبأ جيشا كبيرا في سنة 175 هـ / 791م وجعل علي رأسه قائده عبيد الله بن عثمان، وسيره إلى ألبة والقلاع⁽¹⁾ حيث اصطدم بالنصاري فانتصر عليهم وشتت جمعهم، وقتل منهم تسعة آلاف، كما سير في نفس العام جيشا آخر بقيادة يوسف بن بخت إلى بلاد جليقية وأشتوريش والتقي هذا لاجيش بجيش الملك برمود الكبير ملك أشتوريش علي نهر بوربيا فهزمه جيش يوسف وانتهب المسلمون معسكره، وقتل من النصاري ما يزيد علي عشرة آلاف وغنموا مغانم كثيرة⁽²⁾.

وفي سنة 176 هـ / 792م بعث هشام قائده ووزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث لغزاة العدو فبلغ ألبة والقلاع فأثن في نواحيها وكان برمود قد مات إذ ذاك وخلفه ألفونسو العفيف (791 - 842م) الذي نقل حضرته إلى أبيب⁽³⁾.

وفي سنة 177 هـ / 793م أعد الأمير هشام جيشا كبيرا بقيادة حاجبه عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث فتوجه إلى الشمال حيث وصل إلى جرندة، وكان بها حامية الفرنج، فقتل رجالها وهدم أسوارها وأبراجها وفتحها، ثم استولي علي عدد من المعاقل والحصون، ونفذ إلى سبتمانيا وزحف علي أربونة قا عدة الثغر الإسلامي القديم، فاستولي عليها، وبقي الجيش الإسلامي شهورا يجوس في بلادهم، ثم عاد الجيش إلى قرطبة منتصرا محملا بالغانم الكثيرة، وتعد هذه الغزوة من أهم وأشهر غزوات المسلمين في الأندلس، وأرغم أسري النصاري علي حمل وجر أحجار من سور أربونة حتى قرطبة، حيث بني من هذه الأحجار جزءا من جامع قرطبة تخليدا لهذه الغزوة⁽⁴⁾.

(1) ألبة والقلاع.

علمان جغرافيان يستعملان معا عادة في النصوص العربية أما ألبة فهي *alava* وهي الإقليم الواقع عند نهر أبرو على الضفة اليمنى الشمالية للنهر وأما القلاع فيراد بها المنطقة التي تعرف بقشتالة القديمة *vieja la castilla* سماها العرب بذلك لكثرة قلاعها.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 63، محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص 274، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص 216.

(3) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص 216.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 64، محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص 274، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 111.

وفي سنة 179 هـ / 795م أرسل الأمير هشام جيشا كبيرا بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث إلى جليقية، فتوغل فيها حتى بلغ أسترقة، وكان أذفونش ملك جليقية قد استعد للقاء المسلمين، واستعان بحلفائه م البشكنس وأهل تلك النواحي، وأمر سكان السهل بالصعود إلى الجبال ووضع كمائن ضخمة من فرسانه في قمم الجبال حتي تأخذ المسلمين علي حين غرة ولكن قائد المسلمين أدرك خطة العدو فقدم قائده فرج ابن كنانة في أربعة آلاف فارس وسار علي غثره فالتقوا بكمين الجلالة وتمكنوا من هزيمته، وبثوا الخيل في القري، ثم تقدموا إلى وادي كوذية فالتقوا بكمين آخر، من ثلاثة آلاف فارس بقيادة غند مارة فانتصر المسلمون عليهم وأسروا قائدهم، ثم تتبعوا أذفونش ملك جليقية حتى وصل عاصمة ملكه، فتبعه فرج بن كنانة في عشرة آلاف فارس، فلما قرب منه انهزم وأسلم جميع عدته وذخائره، فغنمها المسلمون ثم عادوا إلى قرطبة بعد أن مزقت قوي الجلالة، وقد حققت هذه الغزاة الغرض منها ببث الرعب في نفوس الجلالة فسكنوا إلى حين، وساد الأمن في الولايات الشمالية. (1) ولم يطل العهد بهشام فقد توفي في صفر سنة 180 هـ / 796م ودفن بقصر قرطبة، وتولي ابنه الحكم الأول الربضي الحكم من بعده (2).

لقد كان الأمير هشام من أولئك الرجال القلائل الذين أعلاوا راية الجهاد في سبيل، وعاشوا لها وفي ظلها، وعمل علي حماية حدوده مع أعدائه نصاري الشمال، وتميز عن غيره بالعدل مع خصومه في الداخل، فساد أمن والاستقرار في فترة حكمه القصيرة.

كما أن الأندلس في عهده شهد نهضة كبيرة علي جميع الأصعدة، ففي المجال الديني شهد عهده انتشار المذهب المالكي بعد المذهب الأوزاعي - نسبة إلى الإمام الأوزاعي الشامي المتوفي سنة 157 هـ / 774م - وكان أول من أدخل المذهب المالكي وعني بنشره في الأندلس هو أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمن بن زياد الخمي المعروف بشبظون، كما رحل عدد كبير من فقهاء المشرق إلى الأندلس في عهد هشام بن عبد الرحمن (3).

وفي مجال العمارة اهتم الأمير هشام ببناء المساجد وتعمير المباني ذات المنفعة

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 64 - 65، محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص 274 - 275، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 112.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 66.

(3) المقري، نفح الطيب، 2 / 216 - 217، ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 68.

العامة، فقد أكمل سقائف جامع قرطبة، وأسس منارته القديمة وبني الميضائه في صحنه، وكانت قنطرة قرطبة قد تهدمت في حياة عبد الرحمن الداخل بسبب السيل فعمل هشام علي بنائها وأنفق في إصلاحها أموالاً طائلة وتولي بنائها بنفسه، وكان يعطي الأجرة للعمال بنفسه (1).

* * *

الحكم الأول بن هشام - الربضي -

(180 - 206 هـ / 796 - 821 م)

بويق أبو العاصي الحكم بن هشام بعد وفاة أبيه بليلة واحدة يوم 8 من صفر سنة 180 هـ، وهو ابن 26 سنة، وكان أبوه قد عهد إليه بولاية العهد، دون أكبر أبنائه عبد الملك.

وكان الحكم شديد العزم والحزم، ماضي العزيمة، عظيم الصولة، حسن التدبير، كان يسلط قضاته وولاته علي نفسه فضلا عن ولده وخدمه (2).

ويعد الحكم أول من جند الأجناد واتخذ العدة، وكان أعظم بني أمية في الأندلس وأشدهم إقداما ونجدة، وقد تشبه بأبي جعفر المنصور، من خلفاء بني العباس في شدة الملك وتوطيد الدولة وقمع الأعداء، وقد عمل علي حماية الدولة ونشر الأمن فيها فحارب الثوار في الداخل ودافع المهاجمين من الخارج بجيش عظيم قوي أعده لذلك، وحرص علي العدل والإحسان والإنصاف بين الرعية، حتى أذعنت له معظم بلاد الأندلس بالطاعة. يقول المقرئ: "... إنه أول من جند بالأندلس الأجناد... والمرتزة، وجمع الأسلحة والعدد، واستكثر من الخدم والحواشي والحشم، وارتبط الخيول على بابه، واتخذ المماليك، وكان يسميهم الخرس لعجمتهم، وحكى في عدتهم ما تقدم، ثم قال: وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس، وكان يباشر الأمور بنفسه، ويقرب الفقهاء والعلماء والصالحين، وهو الذي وطأ الملك لعقبه بالأندلس،... وكان له - فيما حكى غير واحد - ألفا فرس مرتبطة على شاطئ النهر بقبلي قصره يجمعها داران (3).

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 66، محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص 276.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 68، المقرئ، نفح الطيب، 1 - 334 - 338.

(3) المقرئ، نفح الطيب، 1 - 338.

الثورات الداخلية في عهده

ثورة عميه سليمان وعبد الله ابني عبد الرحمن بن معاوية

وبدأ الحكم عهده بمحاربة بعض أقربائه الطامعين في افمارة فقد كان عمه سليمان وعبد الله ابني عبد الرحمن الداخل قد نفيا في عهد أبيه إلى المغرب، فأقام سليمان بطنجة بينما كان عبد الله يمضي وقته متجولا في بلاد المغرب، فزار إبراهيم بن الأغلب في القيروان، كما زار الإمام عبد الوهاب بن رستم الإباضي في تاهرت، وهناك علم بوفاة أخيه هشام وتولية ابنه الحكم، فأسرع بالجواز إلى الأندلس، عله يسبق أخاه سليمان، فنزل بالثغر الأعلي إذ كان يعلم كراهية سكان هذا الثغر للأمير الجديد ونزل بسرقسطة عند بهلول بن مرزوق الدائر علي الأمير الحكم في ناحية الثغر، وقد حدث ذلك سنة 181 هـ / 797 م ولكنه لم يجد هناك من يؤيده في توليته الإمارة بدلا من ابن أخيه، وباعت جهوده بالفشل فرحل مع ولديه عبيد الله وعبد الملك لمقابلة شارلمان في إكس لا شابل، وهناك قابله وحثه علي مهاجمة الأندلس (1).

أما سليمان فقد عبر إلى الأندلس فس ينة 182 هـ / 798 م واستطاع أن يجمع جيشا ليهاجم به قرطبة ولكن الحكم استطاع التغلب عليه فعاود سليمان القتال والتقى جيشه مع جيش الحكم في بنجيطة فانهزم سليمان وجيشه، ولكنه مع ذلك عاد للقتال للمرة الثالثة، وجمع جيشا من البربر سنة 183 هـ / 799 م وتوجه إلى استجة فسار إليه الحكم بجيشه فدارت بينهما حروب شديدة لعدة أيام، ثم دارت الدائرة علي سليمان وجنوده، ثم عاود سليمان الكرة في نفس العام ولكنه انهزم أيضا، وفي سنة 182 هـ / 800 م حشد سليمان جيشا من المشرق فاستولي به علي جيان ثم البيرة، فانضم إليه أعداد من سكانهما، فتوجه إليه الحكم بجيشه ودارت معركة بين الفريقين استمرت عدة أيام، كادت الدائرة فيها تدور علي الحكم ن إلا أنه استطاع في النهاية التغلب علي عمه سليمان الذي فر من المعركة، بعد أن ترك علي أرض المعركة أعدادا هائلة من القتلي من أنصاره، زبعث الحكم في إثره إصبغ بن عبد الله فلحقه بجهة ماردة فقبض عليه وأتي به إلى الحكم فأمر بقتله، وبعث برأسه إلى قرطبة (2).

أما عمه عبد الله فبعد عودته من بلاد الفرنجة توجه إلى بلنسية وهناك وجد تأييدا

(1) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص 220.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 70، محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص 278 - 279، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 115.

كبيراً له من أهاليها، وقام بها شبه مستقل عن الإدارة في قرطبة بعد أن أرسل إلى الحكم يطلب منه الأمان والتصالح معه، فأمنه وصالحه وأجري عليه الأرزاق، وكفل له ألف دينار كل شهر، وعفا عنه الحكم وصالحه سنة 186 هـ / 802 م مقابل بقائه طوال حياته ببلنسية، وبالفعل قضى عبد الله بقية حياته في بلنسية حتي عرف بعبد الله البلنسي وهو الذي أقام ربض الرصافة ببلنسية، وبعث عبد الله إلى الحكم بابنيزه فزوج أحدهما وهو عبيد الله أخته (أخت الحكم) وولاه قيادة جيوشه، فعرف لذلك بصاحب الصوائف، وبذلك إستطاع الحكم التخلص من أولي الثورات المعارضة لحكمه (1).

* * *

ثورة طليطلة سنة 181 هـ / 797

في عام 181 هـ / 797 م قام المولدون في طليطلة بالثورة، وذلك أنهم كانوا يستخفون بولاتهم ويميلون إل الثورة علي أمراء بني أمية، والانفصال عن سلطان قرطبة، وعرف الحكم كيف يوقع بهم، إذ استقدم عمروس المولد من وشقه، واختصه وقربه إليه، ووله علي طليطلة حتى يطمئن إليه سكانه المولدون، وأخذ عمروس يتظاهر هذا يتظاهر أمامهم بكراهيته للأمير، وبغضه له، حتى أنسوا له أمنوه، فبني قصبه بالقرب من جسر طليطلة، أقام فيها حفلاً دعا إليه وجوه أهل طليطلة وزعمائها وكبار رجالها، فحضرُوا وأوهمهم أنهم إذا انتهوا من تناول الطعام والشراب انصرفوا من باب غير الباب الذي دخلوا منه، ووقف الأسيافون علي شفير حفرة بداخل القصبه، وأخذوا يتلقون كل من دخل منهم فيضربون عنقه، حتي بلغ عدد القتلي خمسة آلاف وثلاثمائة - وقيل سبعمائة - فلانت بعد ذلك شوكة أهل طليطلة طوال عهده وعهد ابنه من بعده (2).

* * *

ثورة إصبع بن وانسوس

ومن الثورات التي قامت ضده ثورة إصبع بن عبد الله بن وانسوس في ماردة سنة 190 هـ / 805 م بسبب وشاية قام بها أحد أعداء إصبع بين الحكم وبينه فخاف إصبع وتوقع العقوبة والاسطورة من الحكم، فدخل ماردة وثار بها والاتف حوله من

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 70 - 71، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص 221، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 116.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 69 - 70، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 6 / 199 - 201.

البربر الكثير، فخرج إليه الحكم وحاصره ولكنه اضطر لفك الحصار والعودة إلى قرطبة لفتنة قامت فيها، ثم تابع الحكم حملاته علي ماردة لمدة سبع سنوات، وأخيرا استمال جماعة من أهل ماردة وبعض ثقة إصبيغ فمالوا إلى الحكم وفارقوا إصبيغ مما دعاه إلى طلب الأمان والصلح مع الحكم، فأمنه وخرج من ماردة وأقام عند الحكم في قرطبة. يقول ابن عذاري: "... وفي سنة 190، خرج الأمير الحكم غازيا إلى ماردة. فلما وصلها، احتلها وحاصرها وكان بها أصبيغ بن عبد الله بن واندسوس ثائرا (وإذا بالخبر وصله أن سواد أهل قرطبة أعلنوا بالنفاق، وتداعوا إلى صاحب السوق بالسلاح؛ وكتب المخلفون إلى الحكم بما حدث بعده وبما ظهر من ضمائر السفلة؛ فصدر قافلا، وطوى المراحل، وقطع الطريق في ثلاثة أيام، ودخل القصر. فهذا الناس، وسكنت الأحوال، وصار الناس في هدوء وسكون من سنة 190 إلى سنة 202، والتزموا الدعة اثني عشر سنة.

وترددت الغزوات سبعة أعوام إلى ماردة، وبها أصبيغ بن عبد الله ثائرا متمذعا. وكان سبب ثورته أن عدوا لأصبيغ طالبه عند الحكم وأغراه عليه. ثم مشى إلى أصبيغ بمثل ذلك، وروعه منه؛ فتوقع العقوبة والسطوة به. فكان ذلك سبب دخوله ماردة وقيامه بها. وتكررت الغارات عليه سبعة أعوام؛ فافتتحت في العام السابع بمحاولة انجلت عن طلب الأمان لأصبيغ فأمن، وخرج من ماردة، وصار في مصف الحكم؛ فسكن قرطبة... " (1).

* * *

ثورة الربض

كان الأمير هشام بن عبد الرحمن قد أحاط نفسه بالعلماء والفقهاء واستسلم لهم، وعظم بذلك شأنهم، وتجاوزوا حدودهم، فلما تولي الحكم الإمارة حاول أن يذترع منهم سلطتهم، ويسلبهم ما كانوا يتمتعون به أيام أبيه، ويكف أيديهم عن التدخل في شئون الدولة، فأنقلبوا عليه وسخطوا من تصرفاته، واستغلوا نفوذهم الروحي في إثارة الناس ضد الأمير، وحاول الفقهاء أن يغدروا به سنة 189 هـ فأنكشف أمرهم وقبض عليهم الأمير وصلبهم وكانوا 72 رجلا بقرطبة، منهم الفقيه أبو زكريا يحيى بن مضر القيسي، وكان قدوة في الورع والتقوي وغيره كثير. يقول ابن عذاري: "... وفي سنة 189، صلب الإمام الحكم اثنين وسبعين رجلا بقرطبة، منهم أبو كعب بن

عبد البر، ويحيى بن مضر، ومسرور الخادم. وكان السبب في ذلك أنهم أرادوا الغدر به، وهموا بالخلاف عليه؛ وطلبوا رئيسا يقومون به. فوقع الخبر علي محمد بن القاسم عم هشام بن حمزة، وأطلعوه على أمرهم، ودعوه للقيام معهم؛ فخذلهم، وأقشى سرهم، وتقرب إلى الحكم بدمائهم. فثبتت الحكم... فلما صح عند الحكم أمرهم بشهادة الأمناء عليهم، أخذهم وصلبهم جميعا بمردة واحدة... " (1).

وبلغ من تبرم أهل الربض بقرطبة من أعمال الحكم بن هشام أنهم كانوا ينادونه ليلا من أعالي الصوامع " الصلاة الصلاة يامخمور " وامتأل الجو بالسخط بعد مقتل الثوار، وأذكر الناس عليه إطلاقه يد ربيع القومس متولي المعاهدين بالأندلس من النصاري، وكان حظيا في رجاله، سوغه فرض المغارم علي المسلمين، وحدث في رمضان سنة 202 هـ / مارس 818 م حادث بسيط أشعل - كاشرارة التي تحدث أشد الحرائق - نيران الفتنة بين سكان الربض بقرطبة، فقد قتل أحد ممالك الأمير غلاما، فغلت مراحل غضبهم، وانفجرت براكين أحقادهم علي الأمير، وكأنما كانوا يترقبون هذا الحادث، فهبوا مرة واحدة، وتجمعوا علي مملوك الأمير فقتلوه، وخرجوا يهتفون بخلع الأمير.

ثار العامة بقرطبة واجتمع أهل الأرباض بالسلاح وكان أشدهم هياجا أهل الربض الجنوبي في الضفة الأخرى من النهر وهي ضاحية قرطبة الجنوبية المسماة شقندة وزحف الثوار إلى قصر الأمير من كل ناحية واجتمع الجند والأمويون والعبيد بالقصر وفرق الحكم الخيل والأسلحة وجعل أصحابه كتائب ووقع القتال بين الفريقين فغلبهم أهل الربض، ولم يجد الحكم بدا من استعمالا لحيلة، فأرسل عبيد الله بن عبد الله البلنسي المعروف بصاحب الصوائف، وإسحاق بن المنذر القرشي، ففتح في السور فتحة وخرج منها ومعهما قوة من الجيش وأتوا الربض فأشعلوا فيه النار، وما كادت السنة اللهب تظهر حتى هرع الكثير من أهل الربض إلى ديارهم لحماية أولادهم وأهلهم وأموالهم، فأخذتهم السيوف من أمامهم ومن خلفهم، وقتلوا قتلا ذريعا، وطاردهم في كل مكان، ونجا منهم العدد القليل، وأسر منهم عددا كبيرا انتقي منهم الحكم ثلاثمائة رجل من وجوههم فقتلهم وصلبهم علي الوادي صفا واحدا من المرج إلى المصاراة. وقد استمر النهب والقتل والحريق في أرباض قرطبة ثلاثة أيام، ثم أمر الحكم جنوده الكف عنهم، ونودي بالأمان علي أن يرحلوا عن قرطبة، ومن بقي بعد

ثلاثة أيام قتل وصلب، وتفرق أهل الربض في جميع أقطار الأندلس، فعبر جماعة منهم إلى المغرب بالأهل والولد، فأقاموا في مدينة فاس، وتوجهت جماعة كبيرة منهم قوامها خمسة عشرة ألفا في عدد من السفن إلى مدينة الإسكندرية واستقروا فيها، وبعد عشر سنوات غادروا الإسكندرية وتوجهوا جزيرة أكريطش (كريت) وأسسوا دولة استمرت زهاء قرن وثلاث، حتى استعاد البيزنطيون الجزيرة من المسلمين سنة 350 هـ / 961 م، وهرب مجموعة كبيرة أخرى من علمائهم إلى ناحية طليطلة ثم أمنهم الحكم وأباح لهم التفرغ في البلدان حيثما شاءوا وأحبوا من أقطار مملكتهم، ماعدا قرطبة أو ضواحيها وبذلك استطاع الحكم التخلص من هذه الثورة التي كادت تقوض عرش حكمه (1).

يقول ابن عذاري - عن فتنة الربض -: "... كان من أهل ربض قرطبة في هذه السنة ما نستعيز بالله من الخذلان في مثله، وذهاب التوفيق. وقد اختلفت الروايات في سبب قيام الناس وهيجهم؛ فمنهم من يقول إن ذلك الهيج كان أصله الأشر والبطر، إذ لم يكن ثم ضرورة من إجحاف في مال، ولا انتهاك لحرمة، ولا تعسف في ملكة، والحال تدل على صحة ذلك: فإنه لم يكن على الناس وظائف، ولا مغارم، ولا سخر، ولا شيء يكون سببا لخروجهم على السلطان، بل كان ذلك أشرا وبطرا، وملا لا للعاقبة، وطبعا جافيا، وعقلا غبيا، وسعيا في هلاك أنفسهم - أعاذنا الله من الضلال والخذلان، وأسباب البوار والخسران! ولما احتاجوا وقاموا على السلطان، ناصبهم الحكم القتال، وواضعهم الحرب. وانحاش إليه حاشيته وجنده، وتألب من كل وجه رجاله. وقامت الحرب بين الجند وعامة قرطبة على ساق. ثم تكاثرت العامة، وهاجت الدهماء السوداء؛ فلم يزدوا على أن ظهروا في ذلك الحين ظهروا لم يبلغهم إلى أمل فلما اشتغلوا بالقتال، احتيل عليهم بمثل حيلة يوم الحرة، وهم لا يشعرون لا اشتغالهم بالقتال؛ فخرج عبيد الله بن عبد الله البلنسي المعروف بصاحب الصوائف، وإسحاق بن المنذر القرشي إلى باب الجسر، مع من أمكنهما من الفرسان والرجالة، والتقوا مع العامة، وجالدوهم حتى أراحوهم وأدخلوهم الجسر؛ وفتح باب المدينة عند الجسر، ودخل الذين سمينا على باب الحديد؛ ثم اقتحموا على الزقاق الكبير، وخرجوا على الرملة إلى مخاضة هناك، وجازوا النهر، واجتمعوا مع من توافى عليهم من حشود الكور، إذ كانوا قد أنذروا قبل ذلك بما كان بدا منهم، وظهر من علاماتهم. فلما

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 76 - 77 / محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص 283، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 118، 119.

اجتمعوا، أقبل بعضهم من وراء الربض، وشرع بعض في طرح النار في الدور، ودسوا من أخبر العامة بما نزل بهم في دورهم وذرايرهم وعيالهم؛ فلم يبق أحد منهم دون أهله ومنزله، وانصرفوا راجعين نحوها. فأخذتهم السيوف من أمامهم وورائهم؛ فقتلوا قتلا ذريعا، وتنبعوا في الأزقة والطرق، يقتلون؛ ونجا منهم من تأخر أجله، ففرّ، فلم يلو على أهل ولا ولد. وأخذ منهم ثلاثمائة رجل؛ فصلبوا على الوادي، صفا واحدا من المرج إلى المصاراة. وكان الحكم قد عزم على تتبعهم بالأندلس، وقتلهم حيث وجدوا؛ فكسر عليه بعض أصحابه، وذكره صنع الله له فيهم؛ فارعوى وكف. فخرجوا أفواجا بأهاليهم وأولادهم. ولم يعرض لأحد منهم في شئ من بلاد الأندلس، وهي طاعته وملكه، ولا نالهم ضرر بعد وقت المعركة وجليان الحال، كرما وعفوا من الأمير الحكم - رحمه الله! - وعف الحكم عن الأموال والحرمة. وتفرق أهل الربض في جميع أقطار الأندلس؛ ومنهم من جاز البحر إلى العدو بالأهل والواد؛ فاحتلوا بعدوة فاس، فهم عدوة الأندلس منها؛ فصيروها مدينة. ومنهم أهل جزيرة إقريطش؛ فذكر أنه لم يخرج منهم طائفة بناحية من نواح الدنيا إلا وتغلبوا عليها، واستوطنوها على قهر من أهلها. وأكثر من هرب من أهل العلم والخير ممن اتهم أو خاف على نفسه إلى ناحية طليطلة، ثم أمنهم الحكم، وكتب لهم أمانا على الأنفس والأموال، وأباح لهم التفسح في البلدان حيثما أحبوا من أقطار مملكته، حاشى قرطبة أو ما قرب منها... “ (1).

* * *

الحروب الخارجية

لقد قضى الأمير الحكم سنين طويلة في إخماد الثورات والفتن، مما أتاح الفرصة للممالك المسيحية بشمال الأندلس أن تعبث في ثغور المسلمين، ففي سنة 185 هـ / 801 استولي الفرنجة علي برشلونة، لوما أرسل الأمير حملة لغزو ألبة والقلاع بقيادة أخيه معاوية بن هشام، انهزم المسلمون هزيمة نكراء علي فج أرغصون عند التقاء وادي زادورا بوادي إبره، وقتل في هذه المعركة عدد كبير من قواد المسلمين. ومضي وقت طويل قبل أن يبعث الحكم ابنه هشام سنة 192 هـ / 808م علي رأس جيش إلى قليقية وكانت هذه الحملة موفقة إذ عاد هشام منتصرا مظفرا، ومضت ثمان سنوات أغزي الحكم وزيره عبدالكريم إلى أستوريش، إذ أن سكان هذه البلاد انضموا

إلى الملك ألفونسو الثاني، وكان بنبلونة قد خرجت علي طاعة المسلمين سنة 182 هـ وكان أهلها قد قتلوا عامل المدينة المسلم وهو مطرف بن موسي بن قسي، وأقاموا واحدا منهم هو فلاسكو ونح عبد الكريم في غزوته إذ اصطدم مع ألفونسو الثاني علي نهر أرون وانتصر علي قواته إنتصارا حاسما فقتل من قواد جيشه عددا كبيرا، وكان من بين القتلي جروسيه بن لب خال ألفونسو الثاني، وشانجة أحد زعماء البشكنس (1).

وأخيرا يذكر المؤرخون العرب ا، لذريق بن قارلة ملك الفرنج (و هو لويس بن شارلمان) جمع جموعه سنة 193 هـ / 809 م وزحف بها لحصار طرطوشة، فأغزي الحكم ابنه الأمير عبد الرحمن في جيش كثيف، وكتب إلى عمروس وعبدون عاملي الثغر بالغزو معه، فجمع أهل الثغر، وتقدم الأمير عبد الرحمن بالجيش وانضمت إليه قوات المطوعة، واشتبك المسلمون مع لويس ودارت بين الفريقين حرب شديدة انتهت بانتصار المسلمين انتصارا حاسما علي جيش الفرنجة (2).

وهكذا انهزمت قوات الفرنجة، ول يعاود لويس الكرة مرة أخرى علي طرطوشة، ومع ذلك فقد حاول الفرنجة بعد ذلك بسنوات الاستيلاء علي وشقة ولكن هذه المحاولات لم تأت بنتيجة، ولكن الفرنجة ظلوا يعيشون في الثغور بسبب اندشغال الأمير بالخارجين عليه، مما د عا الحكم إلى الخروج بنفسه لملاقاة الفرنجة سنة 197 هـ فافتتح الثغور والحصون وخرب النواحي، وأخذ في القتل والسبي والنهب وعاد إلى قرطبة ظافرا. (3) وفي سنة 199 هـ / 815 م أغزي الحكم ابن عمه عبيد الله بن عبد الله البلنسي الغزوة المشهورة إلى برشلونة فانتصر علي الفرنجة وهزمهم وقتل عامتهم وفرق جموعهم، ولما انجلت الحرب نصب قناة طويلة وأمر بالرؤوس فجمعت وطرحت حول القناة حتي غابت القناة فيها (4).

وتوفي الحكم في ذي الحجة من سنة 206 هـ بعد أن وطد ملك بني أمية، وقضي علي أعدائه لقد كان الحكم عكس أبيه رجلا شديد البأس قوي الشكيمة، استعمل العنف والشدة في مواجهة خصومه، كما اهتم بنشر العدل وسيادة الإنصاف بين الرعية. وقد أجمع المؤرخون العرب حزمه وقوته وتقواه باستثناء ابن احزم الذي قال عنه "... إنه

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 69، 71، 72، السيد عبد العزيز، سالم، تاريخ المسلمين، ص 226.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 72، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص 226.

(3) المقري، نفح الطيب، 1 / 318.

(4) ابن عذاري ن البيان المغرب، 2 / 74، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص 226.

كان من المجاهرين بالمعاصي، السافكين الدماء، ولذلك قام عليه الفقهاء والصلحاء. وقال غيره: إنه تنصّل أخيراً، وتاب، سامحه الله.. (1).

يقول ابن عذاري عن صفات الحكم بن هشام: "... كان الحكم - رحمه الله! - شديد الحزم، ماضي العزم، ذا صولة تتقى. وكان حسن التدبير في سلطانه، وتوليه أهل الفضل والعدل في رعيته؛ وكان مبسوط اليد. وكان له قاض كفاه بورعة وعلمه وزهده؛ فمرض مرضاً شديداً؛ فاغتم الحكم لمرضه؛ فذكر بعض خاصته أنه أرق ليلة أرقاً شديداً، وجعل يتململ على فراشه؛ ف قيل له: أصلح الله الأمير! ما الذي عرض؟ فقال: ويدكم! إني سمعت في هذه الليلة نادبة، وقاضينا مريض، وما أراه إلا وقد قضى نحبه. فأين لي بمثله، ومن يقوم بالرعية مقامه؟ فمات القاضي في تلك الليلة، وهو المصعب بن عمران قاضي أبيه. فولى بعده محمد بن بشير.

فكان أقصد الناس إلى حق، وأبعدهم من جور، وأنقذهم بحكم. ورفع إليه رجل من أهل كورة جيان أن عاملاً للحكم اغتصبه جارية، وصيرها إلى الحكم؛ فوقع من قلب الحكم كل موقع؛ فأثبت الرجل أمره عند القاضي، وأتاه بيّنة تشهد على معرفة ما تظلم منه ويملكه للجارية وبمعرفة بهمها. فأوجبت السنة أن تحضر الجارية؛ فاستأذن القاضي على الحكم؛ فأذن له؛ فلما دخل عليه، قال له: أيها الأمير! أنه لا يتم عدل في العامة دون إقامته في الخاصة! وحكى له أمر الجارية، وخيره بين إبرازها للبيّنة ليشهد على عينها، أو عزله. فقال له الحكم: أولاً. أدعوك إلى خير من ذلك! تبتاع الجارية من صاحبها بأبلغ ما يطلب فيها. فقال القاضي: إن الشهود قد شهدوا من كورة جبان، وأتى الرجل يطلب الحق في مظالمه؛ فلما صار ببابك، تصرفه دون إنفاذ الحق له؛ ولعل قائلاً يقول: باع ما لا يملك ببيع مقور! فلما رأى عزمه على ذلك، أمر بإخراج الجارية من قصره؛ فشهد الشهود عنده على عينها، وقضى بها لصاحبها. وكان هذا القاضي محمد ابن بشير، إذا خرج للمسجد، وجلس للأحكام، جلس في رداء معصفر، وشعر مفرق؛ فإذا طلب ما عنده، وجد أفضل الناس وأورعهم.

وكان الحكم يقول: ما تحلى الخلفاء بمثل العدل! وكانت فيه بطالة، إلا أنه كان شجاع النفس، باسط الكف، عظيم العفو. وكان يسلط قضاته وحكامه على نفسه، فضلاً عن ولده وخاصته. وكانت للحكم ألف فرس مرتبطة بباب قصره على جانب النهر، عليها عشرة من العرفاء، تحت يد كل عريف مائة فرس؛ فإذا بلغه عن ثائر

ثار في أطرافه، عاجله قبل استحكام أمره؛ فلا يشعر حتى يحاط به. وجاءه الخبر يوماً أن جاب ابن لبيد محاصر لجبان، وهو يلعب بالصولجان في القصر؛ فدعا بعريف من أولئك العرفاء، وأسر إليه أن يخرج بمن تحت يده إلى جابر بن لبيد؛ ثم فعل كذلك مع أصحابه من العرفاء. فلم يشعر ابن لبيد حتى تساقطوا عليه مسربلين في الحديد؛ فلما رأى العدو ذلك، سقط في يده، وظن أن الدنيا قد حشرت إليه؛ فولى بمن معه منهزماً.

وكان الحكم فصيحا بليغا شاعرا مجيدا. فمن شعره - رحمه الله! - يتغزل، وذلك أنه كان له خمس جوار قد استخلصهن لنفسه وملكهن أمره؛ فذهب يوماً إلى الدخول عليهن؛ فأبين عليه، وأعرضن عنه. وكان لا يصبر عنهن. فقال:

قُضِبَ مِنَ الْبَارِ مِلْسَتْ فَوْقَ كُثْبَانٍ :: أَعْرَضْنَ عَنِّي وَقَدْ أَرْمَعْنَ هِجْرَانِي
 نَاشِدَتْهُنَّ بِحَقِّي فَاعْتَزَمْنَ عَلَيَّ :: الْهَجْرَانِ حَتَّى خَلَا مِنْهُنَّ هَيْمَانِي
 مَلَكَني مُلْكٌ مَنْ ذَلَّتْ عَرِيْمَتُهُ :: لِلْحَبِّ ذُلٌّ أَسِيرٌ مُوَثَّقٍ عَانِي
 مَنْ لِي بِمُعْتَصَبَاتِ الرُّوحِ مِنْ بَدَنِي :: عَصَبٌ فِي الْهَوَى عِزِّي وَسُلْطَانِي
 ثُمَّ إِنَّهِنَّ عَدْنَ عَلَيْهِ بِالْوَصْلِ؛ فقال:

نِلْتُ كُلَّ الْوَصَالِ بَعْدَ الْبِعَادِ :: فَكَأَنِّي مَلَكَتُ كُلَّ الْعِبَادِ
 وَتَنَاهَى السُّرُورَ إِذْ نِلْتُ مَا لَمْ :: يُغْنِ فِيهِ تَكَاشُفُ الْأَجْنَادِ
 وَمِنْ مَلِيحِ قَوْلِهِ فِيهِنَّ - رحمه الله! -:

ظَلٌّ مِنْ فَرْطِ حُبِّهِ مَمْلُوكَا :: وَلَقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَاكَ مَلِيكَا
 إِنْ بَغَى أَوْ شَكَا الْهَوَى زَيْدٌ ظُلْمًا :: وَبَعَادًا يُدْنِي حَمَامًا وَشَيْكَا
 تَرَكْتَهُ جَاذِرَ الْقَصْرِ صَبًّا :: مُسْتَهَامَا عَلَى الصَّعِيدِ تَرِيكَا
 يَجْعَلُ الْخَدَّ مَائِلًا فَوْقَ تُرْبٍ :: وَهُوَ لَا يَرْتَضِي الْحَرِيرَ أَرِيكَا
 هَكَذَا يَحْسُنُ التَّذَلُّلُ لِلْحُرِّ :: إِذَا كَانَ فِي الْهَوَى مَمْلُوكَا

وله - رحمه الله! - أشعار كثيرة في الربضيين القائمين عليه، منها:

رَأَيْتُ صُدُوعَ الْأَرْضِ بِالسِّيفِ رَافِعًا :: وَقَدِمًا لِأَمْتِ الشَّعْثِ مُذْ كُنْتُ يَافِعًا
 فَسَائِلُ ثَغُورِي هَلْ بَهَا الْآنَ ثُغْرَةٌ :: أَبَادَرَهَا مُسْتَضِي السِّيفِ دَارِعًا
 وَشَافِهِ عَلَى الْأَرْضِ الْفُضَاءِ جَمَاجِمًا :: كَأَقْحَافِ شَرِيَانِ الْهَيْدِ لَوَامِعًا
 تُنَبِّئُكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ عَنْ قِرَاعِهِمْ :: بِوَانٍ وَأَنِّي كُنْتُ بِالسِّيفِ قَارِعًا
 فَإِنِّي إِذَا حَادُوا جِزَاعًا عَنِ الرَّدَى :: فَلَمْ أَكُ ذَا حَيْدٍ عَنِ الْمَوْتِ جَارِعًا

حَمَيْتُ ذِمَارِي وَانْتَهَكْتُ ذِمَارَهُمْ :: وَمَنْ لَا يَحَامِي ظِلَّ خَزْيَانِ ضَارِعَا
وَلَمَّا تَسَاقَيْنَا سِجَالُ خُرُوبِنَا :: سَقَيْتُهُمْ سَمًّا مِنَ الْمَوْتِ نَافِعَا
وَهَلْ زِدْتُ أَنْ وَقَيْتُهُمْ صَاعَ قَرْضِهِمْ :: فَوَافُوا مَنَابِأَ قُدْرَتِ وَمَصَارِعَا
فَهَاكَ بِلَادِي إِنِّي قَدْ تَرَكْتُهَا :: مَهَادًا وَلَمْ أَتْرُكْ عَلَيْهَا مُنَازِعَا

ولما دنت وفاته، عتب نفسه فيما تقدم منه عتابا، وتاب إلى الله متابا، ورجع إلى الطريقة المثلّية، وقال: إن الآخرة هي الأبقى والأولى؛ فتزين بالتقوى، واعتصم بالعروة الوثقى؛ وأقر بذنوبه واعترف، وأنس إلى قوله تعالى إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف. وكان من عباد الله المتقين، إلى أن أتاه من ربه اليقين. فتوفي - رحمه الله! - سنة 206 (1).

واحكاماه!!

يقول المقري: "... ومن بديع أخبار الحكم أن العباس الشاعر وتوجّه إلى الثغر، فلمّا نزل بوادي الحجارة سمع امرأة تقول: واغوثة بك يا حكم، لقد أهملتنا حتى كلب العدو علينا، فأئمنّا وأئتمنا، فسألها عن شأنها، فقالت: كنت مقبلة من البادية في رفقة، فخرجت علينا خيل عدو، فقتلت وأسرت، فصنع قصيدته التي أولها:

تململت في وادي الحجارة مسهرا :: أراعي نجوماً ما يردن تغورا
إليك أبا العاصي نضيت مطيتي :: تسير بهم سارياً ومهجّرا
تدارك نساء العالمين بنصرة :: فإنك أحرى أن تغيث وتنصرا

فلما دخل عليه أنشده القصيدة، ووصف له خوف الثغر واستصراخ المرأة باسمه، فأنف وناذى في الحين بالجهاد والاستعداد، فخرج بعد ثلاث إلى وادي الحجارة ومعه الشاعر، وسأل عن الخيل التي أغارت من أيّ أرض العدو كانت، فأعلم بذلك، فغزا بتلك الناحية وأثنى فيها، وفتح الحصون، وخرب الديار، وقتل عدداً كثيراً، وجاء إلى وادي الحجارة فأمر بإحضار المرأة وجميع من أسر له أحد في تلك البلاد، فأحضر، فأمر بضرب رقاب الأسرى بحضرتها، وقال للعباس: سلها: هل أغاثها الحكم؟ فقالت المرأة، وكانت نبيلة: والله لقد شفى الصدور، وأنكى العدو، وأغاث

الملهوف، فأغاثه الله، وأعز نصره " (1).

عبد الرحمن الثاني الحكم " الأوسط "

(206 - 238 هـ / 821 - 852 م)

هو الأمير أبو المطرف عبد الرحمن، الابن الأكبر للحكم بن هشام، ولد بطليلة في شعبان سنة 176 هـ / 792 م وعني أبوه بتعليمه وتخريجه في العلوم الحديثة والقديمة، وعهد إليه بولاية العهد باعتباره أكبر أبنائه، ثم لأخيه المغيرة من بعده فلما توفي الحكم عام 206 هـ / 821 م خلفه ابنه الأمير عبد الرحمن وهو في سن الثلاثين، وعرف بعبد الرحمن الأوسط لأنه ثاني ثلاثة سمووا بهذا الاسم، وقاموا بأمر الأندلس، واکتسب

عبد الرحمن كثيرا من صفات أبيه وجده ولكنه كان أكثر منهما لينا ورقة، فكان وسطا بين العنف واللين، وقد أثرت نشأته وتربيته الأولى في تكوين شخصيته: فكان رجلا علي مستول عال من الثقافة والعلم، وكان عالما متبحرا في أمور الشريعة والفلسفة، كما كان شاعرا أدبيا ذا همة عالية، وفنانا يقدر الفن ويرفع منزلة أصحابه، فاحتضن العلماء ورجال الفن والأدباء، ممن ضاق الشرق بمواهبهم، فكان يرحب بهم في بلاطه، ويحسن إليهم ويكرمهم، ولذا كانت أيامه أيام هدوء وسكون، وكان عهده عهد سلم ورخاء بعد عهد الفتن والثورات التي اتسم بها عصر عبد الرحمن الداخل والحكم الرضي، وكثرت الأموال لديه " فاتخذ القصور والمنتزهات وجلب إليها الماء، وجعل له - لقصره - مصنعا - حوض للسقيا - اتخذه الناس شريعة، وزاد في جامع قرطبة رواقين، ومات قبل أن يستتمه، فأتمه محمد ابنه من بعده، وبني بالأندلس جوامع كثيرة، ورتب رسوم المملكة واحتجب عن العامة، وهو الذي أسس مدينة مرسية، ورتب رسوم المملكة، واتخذ للوزراء قصرا داخل قصره، وكان يجتمع بهم متى أراد ذلك.، وعبد الرحمن أول من فخم السلطنة بالأندلس، وأول من جري علي سنن الخلفاء في الزينة والشكل وترتيب الخدمة، وكسا الخلافة أبهة الجلال، وأول من أحدث بقرطبة دار السكة وضرب النقود باسمه، ولم يكن فيها منذ افتتحها العرب، ولذلك عرفت أيامه بأيام العروس لكثرة الخيرات فيها (2).

(1) نفح الطيب، 1 / 3320.

(2) المقري، نفح الطيب، 1 / 325، ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 80، 91، السيد عبد العزيز سالم،

وهكذا سمت الحياة في الأندلس وتألفت الحضارة، وأصبحت الأندلس في عداد الدول العظمى في العالم الإسلامي والمسيحي علي حد سواء، وتحول المجتمع الأندلسي الذي كان يقوم على أخلاط بشرية غير منظمة إلى مجتمع منظم مظهره، مصقولة صورته، وتأثر هذا المجتمع في عصره بالتقاليد العراقية التي أخذت تغزو الأندلس وتمتزج بالتقاليد الشامية، وتؤلف فيما بعد طابعا أندلسيا أصيلا تميزت به الأندلس منذ خلافة عبد الرحمن الناصر لدين الله حتى سقوط الخلافة (1).

* * *

الثورات والفتن الداخلية في عهده

في أوائل عهده خرج عليه عم أبيه عبد الله البلنسي، وكان لم يزل يطمع في الظفر بالإمارة، وسار إلى تدمير يريد قرطبة والتف حوله جمهور، فتجهز عبد الرحمن للقائه، ولكن عبد الله اضطر للعودة إلى بلنسية حيث وافته المذبة في سنة 208 هـ / 823 م، فنقل عبد الرحمن أولاده وأهله إلى قرطبة إلى جواره، وعادت قرطبة من جديد إلى حظيرة الحكومة المركزية في قرطبة - فتم تعيين والي عليها من قبل الأمير عبد الرحمن الأوسط. وخلصت إمارة الأندلس لولد هشام بن عبد الرحمن (2).

ولم يقطع السكون الذي كان يسود عهد عبد الرحمن سوي فتنة قامت في تدمير سنة 207 هـ / 823 هـ بين المضرية واليمانية، ودامت سبع سنين، حتي سنة 213 هـ / 828 - 829 م بسبب قتل يمانى لمضري أخذ ورقة دانية من جنان يمانى فقتله اليماني، فقامت الحرب بين العصبيتين، واضطر الأمير عبد الرحمن أن يتدخل في هذه الحرب، فأغزي إلى الفريقين المتقاتلين سنة 207 هـ / 822 م قائده يحيى بن عبد الله بن خلف، فالتقي في موقعة تعرف بوقعة المصارة أو بلورقة، قتل منهم حوالي ثلاثة آلاف، وكانوا إذا أحسوا بقرب يحيى تفرقوا وتركوا القتال وإذا عاد عنهم رجعوا إلى الفتنة والقتال، وقد تزعم اليمانية أبو الأشماخ، واستمرت الفتنة مدة سبع سنوات، وكادت الدائرة تدور علي اليزية والقتلي منهم حتي فني من المسلمين عدد كبير، ولم تهدأ الفتنة إلا في سنة 213 هـ / 828 م عندما أرسل الأمير قائده أمية بن

تاريخ المسلمين ص 228 - 229، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس ص 122، 123.

(1) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص 229.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب ن 2 / 91، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص 230.

معاوية بن هشام فتغلب عليهم وخضع أبو الشماخ وغيره من الزعماء وطلبوا الأمان وعادوا إلى الطاعة، وصار أبو الشماخ من ولاية الأمير عبد الرحمن وثقاته، وقد أمر الأمير بهدم "إلة" حاضرة تدمير التي انبعثت منها الفتنة وصارت مرسية مقرا لوالي تدمير وذلك بعد بنائها في سنة 216 هـ / 831 م (1).

يقول ابن عذاري: "... وفي سنة 207، ثارت بتدمير فتنة بين مضر ويمن، ودامت سبع سنين؛ فأغزى إليهم الأمير عبد الرحمن في هذا العام يحيى بن عبد الله بن خلف؛ ثم كان يبعث إليهم المرة بعد المرة بالقواد؛ فيفترقون؛ فإذا قفلوا، عادوا إلى الفتنة. وكانت بينهم وبين يحيى بن عبد الله وقبعة تعرف بوقعة المصاراة بلورفة، انتهى مبلغ القتلى فيهم إلى ثلاثة آلاف..." (2).

وفي سنة 211 هـ / 826 م ثار طوريل البربري بتاكرنا، ولكن الأمير بعث إليه بقائده عبد الحميد بن معاوية بن غانم فظفر به، وقطع عاديته (3) يقول ابن عذاري: "... وفي سنة 211، ثار طوريل بتاكرنا؛ فأخرج إليه الأمير عبد الرحمن معاوية بن غانم في حشد؛ فظفر به، وقطع عاديته..." (4).

وفي سنة 214 هـ / 829 م ثار هاشم الضراب بطليطلة، فأرسل إليه الأمير عامله علي الثغر محمد بن رستم لمحاربته، ولكنه لم يفلح في هزيمته واستفحل أمر الضراب وتغلب علي جانب من الثغر، وفي سنة 214 هـ حدثت معركة بين محمد بن رستم وبين الضراب انتهت بهزيمة الضراب هزيمة شنيعة، وقتل هو وكثير من أتباعه، ومع ذلك ظلت طليطلة خارجة علي طاعة الأمير، فأرسل إليها أمية بن الحكم سنة 219 هـ / 834 م فحاصرها وأتلف زرعها وقع ثمارها، وترك أمية علي قلعة رباح أحد قواد المسلمين وهو ميسرة الفتى لمحاصرة طليطلة، أما هو فعاد إلى قرطبة وتشجع أهل طليطلة علي مهاجمة قلعة رباح، فلما خرجوا لمهاجمة المدينة، أعد لهم ميسرة كمينا، وعندما إقتربوا منها خرج لهم ميسرة ورجاله فأوقعوا بهم القتل، ولما مات ميسرة تولى بعده أبو الشماخ اليماني، ولم يتم فتح طليطلة إلا في سنة 222 هـ / 837 م وكان السبب في ذلك أن رجلا من طليطلة اسمه ابن مهاجر خرج عندها، وتوجه إلى قلعة رباح حيث استدعي القوات، ونهض بهم إلى طليطلة، فحاصروا

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 82.

(2) البيان المغرب، 2 / 82.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 82.

(4) البيان المغرب، 2 / 82.

أبوابها، فلما قدم القائد عبد الواحد الإسكندراني الذي بعثه الأمير عبد الرحمن إلى طليطلة لمحاصرتها، وجد أهلها قد بلغ بهم الجهد مبلغا عظيما، فافتتحها قهرا في شهر رجب سنة 222 هـ (1).

وفي سنة 213 هـ / 828 م ثار أهل ماردة علي الأمير عبد الرحمن، إذ أشعل نيران الثورة فيها رجل بربري اسمه محمود بن عبد الجبار، وانضم إليه أحد المولدين واسمه سليمان بن مرتين ويعرف باسم قعنب، واستقل هذان الثائران بالمدينة، وشقا عصا الطاعة علي الأمير عبد الرحمن الأوسط، وقتلا حاكم المدينة مروان الجليقي. فاضطر الأمير إلى إرسال فرقة حاصرت ماردة سنة 214 هـ / 829 م تمكنت من تدمير سهولها، وقطع القوات عن المدينة، إلا أن تلك الحملة لم تأت بنتيجة تذكر، وفي سنة 215 هـ / 830 م حاصر الأمير عبدالرحمن ماردة حصارا شديدا أدى إلى استسلام حاكمها حارث بن بزغ، غير أن إخضاع ماردة لم يتم إلا في عام 219 هـ / 834 م، وقد سجل عبد الرحمن الأوسط إخضاعه لثورة ماردة ببناؤه قصبتها التي تعرف اليوم لدي العامة بالدير، وبها نقش عربي محفوظ اليوم بمتحف القصبية يحمل تايخ سنة 220 هـ / 835 م (2).

وفي سنة 236 هـ / 850 م ثار أحد البربر واسمه حبيب البرنسي بجال الجزيرة الخضراء، والتف حوله جماعة من أهل الفساد، فأخرج إليه الأمير الأجناد، ففرقوا جموعه وقتلوا عددا كبيرا من أتباعه (3).

* * *

الحروب الخارجية في عهد عبد الرحمن الأوسط

قام الأمير عبد الرحمن بعدة غزوات خارجية، وذلك تأميناً لحدود الدولة ودفعاً للطمعين فيها، والتي أجملها بن عذاري بقوله: "... وفي سنة 208، كانت الغزاة المعروفة بغزاة ألبة والقلاع، غزاها عبد الكريم ابن عبد الواحد بالصانفة، واحتل بالثغر؛ وتوافت عليه عساكر الإسلام، واختلفوا في الدخول على أي باب يكون إلى دار الشرك؛ ثم اجتمعوا على أن يكون من باب ألبة، إذ كان ذلك الباب أنكى للعدو

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 82 - 83، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص 230.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 83 - 84، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص 231 - 232، محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص 292.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 83 - 84، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص 231، محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص 292.

وأحسم لدائه؛ فاقتحموا من فج يقال له جرنيق؛ وكان وراءه بسيط للعدو، فيه خزائنه وذخره. فوقع أهل العسكر على تلك البسائط، فاستصفوها، وعلى ذخر تلك الخزائن، فانتهبوها؛ واستوعبوا خراب كل ما مروا عليه من العمران والقسرى، وأقفروها. وانصرف المسلمون غانمين ظافرين. والحمد لله!

وفي سنة 209، توفي عبد الكريم بن عبد الواحد؛ وكان قد أخذ في الحركة إلى أرض العدو؛ فاعتل. وعوض منه الأمير عبد الرحمن بن الحكم أمية ابن معاوية بن هشام. فغزا بالصائفة إلى أوريط؛ فاحتل بها، وهي يومئذ للإسلام؛ فأخذ أهل الذنوب والريب، وعفا عن الباقيين؛ ثم تقدم إلى شنت برية وتدمير...

وفي سنة 213، غزا عبيد الله بن عبد الله البلنسي بالصائفة إلى دار الحرب؛ فجال في أرض العدو حتى بلغ برشلونة، وتردد في تدويخها وانتسافها ستين يوماً... وفي سنة 223، أغزى الأمير عبد الرحمن بن الحكم أخاه الوليد بن الحكم إلى جليقية؛ فدخل من باب الغرب مع قطيع من العسكر؛ فدوخها. وكانت له فتوحات كثيرة.

وفي سنة 224، أغزى الإمام عبد الرحمن ابنه الحكم إلى دار الحرب، وأمره بالتجوال في جهات الثغور، ليتعرف أخبارها ومصلحتها...

وفي سنة 225 غزا الإمام عبد الرحمن بنفسه أرض جليقية. ففتح حصونها، وجال في أرضها. وطالت غزاته، وتعب كثير؛ فأرق في بعض الليالي؛ فلما كان في بعض الليل، حضر عبد الله بن الشمر الشاعر؛ فوصف له أرقه، وأنه تذكر بعض من حن إليه؛ فقال عبد الرحمن بن الشمر:

عَدَانِي عَنْكَ مَزَارِ الْعِدَى	:::	وَقَوْدِي إِلَيْهِمْ لَهَا مَاهِيَا
وَكَمْ قَدْ تَعَسَفْتُ مِنْ سَيِّبٍ	:::	وَجَاوَزْتُ بَعْدَ دُرُوبٍ دُرُوبَا
وَادَرُغُ النَّقْعَ حَتَّى لَبَسْتُ	:::	مِنْ بَعْدِ نَضْرَةٍ وَجْهِي شُحُوبَا
أَلَا قِي بُوْجْهَبِ سُمُومِ الْهَجِيرِ	:::	وَقَدْ كَادَ مِنْهُ الْحَصَى أَنْ يَذُوبَا
أَنَا ابْنُ الْهَشَامِيِّينَ مِنْ غَالِبٍ	:::	أَشْبُ خُرُوبَا وَأَطْفِي خُرُوبَا
وَبِي أَدْرُكُ اللَّهَ دِينَ الْهُدَى	:::	فَأَخْيَيْتُهُ وَاصْطَلَمْتُ الصَّلَا
سَمَوْتُ إِلَى الشَّرِكِ فِي جَحْفَلٍ	:::	مَلَأْتُ الْخُرُونَ بِهِ وَالسُّهُوبَا

وفي سنة 226، غزا بالصائفة إلى جليقية من بلاد العدو مطرف بن عبد الرحمن؛ فتوسط بسيطهم، وذهب بنعمتهم؛ وكان القائد عبد الواحد بن يزيد

الإسكندراني...

وفي سنة 227، خرج، عبيد الله بن عبد الله صاحب الصوائف؛ فلما حصل بين أربونة وسرطانية، تجالب الأعداء من كل ناحية، وأحاطوا بالعسكر ليلاً؛ فقاتلهم المسلمون الليل كله؛ فلما انبلج الضوء، أيد الله المسلمين، وهزم الأعداء.

وفي سنة 228، خرج الأمير عبد الرحمن بنفسه إلى أرض العدو، وخلف في القصر ولده المنذر، وجعل على ميمنته ولده محمدا وعلى الميسرة ولده المطرف. فلقى جيشا كبيرا من المشركين؛ فناشبههم الحرب؛ فأنزل الله نصره على المسلمين، وهزموا المشركين، وأخذوا فيهم القتل. وأفاء الله على المسلمين من ذراري أهل بنبلونة وخيلهم وأسلحتهم ما عظم به من الله سبحانه الأمن. وقفل غزيرا في منتصف شوال. وكان خروجه من قرطبة لتسع بقين من شعبان...

وفي سنة 230 ورد كتاب وهب الله بن حزم عامل الأشبونة، يذكر أنه حل بالساحل قبله أربعة وخمسون مركبا من مراكب المجوس⁽¹⁾، معها أربعة وخمسون قاربا؛ فكتب إليه الأمير عبد الرحمن وإلى عمال السواحل بالاحتفظ.

فقد خرج المجوس في نحو ثمانين مركبا، كأدما ملأت البحر طيرا جونا؛ كما ملأت القلوب شجوا وشجونا. فحلوا بأشبونة؛ ثم أقبلوا إلى قادس، إلى شذونة؛ ثم قدموا على إشبيلية؛ فاحتلوا بها احتلالا، ونازلوها نزالا، إلى أن دخلوها قسرا، واستأصلوا أهلها قتلا وأسرا. فبقوا بها سبعة أيام، يسقون أهلها كأس الحمام. واتصل الخبر بالأمير عبد الرحمن؛ فقدم على الخيل عيسى بن شهيد الحاجب، واتصل المسلمون به اتصال العيين بالحاجب. وتوجه بالخيل عبد الله ابن كليب وابن رستم وغيرهما من القواد واحتل بالشرف. وكتب إلى عمال الكور في استتفار الناس؛ فحلوا بقرطبة، ونفر بهم نصر الفتى. وتوافت للمجوس مراكب على مراكب، وجعلوا يقتلون الرجال، ويسبون النساء، ويأخذون الصبيان، وذلك بطول ثلاثة عشر يوما. ذكر ذلك في بهجة النفس. وفي كتاب درر القلائد: سبعة أيام، كما تقدم. وكانت بينهم وبين المسلمين ملاحم. ثم نهضوا إلى قبطيل؛ فأقاموا بها ثلاثة أيام، ودخلوا قورة،

(1) المقصود هنا بالمجوس هم النورمان، وكان النورمان يغيرون علي الأندلس من المنافذ النهرية، وقد سماهم العرب النورمان لأنهم كانوا يشعلون النيران كثيرا فظن العرب أنهم يعبدونها، ويرجع النورمان إلى أصل جرمانى، وينقسمون إلى ثلاث مجموعات: السويديون والنرويجيون والاندماكيون. انظر: المقتبس، ص 27 - 28، 58، الحلة الأسيراء، 2 / 372، المغرب في حلي المغرب، 1 / 49، البيان المغرب، 2 / 87 - 88، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 125.

على اثني عشر ميلا من إشبيلية؛ فقتلوا من المسلمين عددا كثيرا؛ ثم دخلوا إلى طليطلة، على ميلين من إشبيلية؛ فنزلوها ليلا، وظهروا بالغداة بموضع يعرف بالخارين؛ ثم مضوا بمراكبهم، واعتكوا مع المسلمين. فانهزم المسلمون، وقتل منهم ما لا يحصى. ثم عادوا إلى مراكبهم. ثم نهضوا إلى شنونة، ومنها إلى قادس، وذلك بعد أن وجه الأمير عبد الرحمن قواده؛ فدافعهم ودافعوه؛ ونصبت المجانيق عليهم، وتوافت الأمداد من قرطبة إليهم. فانهزم المجوس وقتل منهم نحو من خمسمائة عالج؛ وأصيب لهم أربعة مراكب بما فيها؛ فأمر ابن رستم بإحراقها وبيع ما فيها من الفيء. ثم كانت الوقعة عليهم بقربة طليطلة يوم الثلاثاء لخمس بقين من صفر من السنة، قتل فيها منهم خلق كثير، وأحرق من مراكبهم ثلاثون مركبا. وعلق من المجوس بإشبيلية عدد كثير، ورفع منهم في جذوع النخل التي كانت بها. وركب سائرهم مراكبهم، وساروا إلى لبلبة؛ ثم توجهوا منها إلى الأشنونة؛ فانقطع خبرهم.

وكان احتلالهم بإشبيلية يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من المحرم من سنة 230 وكان بين دخولهم إلى إشبيلية وخروج من بقى منهم وانقطاعهم اثنان وأربعون يوما؛ فقتلهم الله وأبادهم، وبدد عددهم وأعدادهم؛ وقتل أميرهم نقمة من الله وعذابا، وجزاء بما كسبوا وعقابا. ولما قتل الله أميرهم، وأفنى عديدهم، وفتح فيهم، خرجت الكتب إلى الآفاق بخبرهم. وكتب الأمير عبد الرحمن إلى من بطنجة من صنهاجة، يعلمهم بما كان من صنع الله في المجوس، وبما أنزل فيهم من النعمة والهلكة؛ وبعث إليهم برأس أميرهم وبمائتي رأس من أنجادهم.

وفي سنة 231، غزا بالصائفة جليقية محمد ابن الأمير عبد الرحمن؛ فحصرها، وحصر مدينة ليون، ورمأها بالمجانيق. فلما أيقنوا بالهلاك، خرجوا ليلا، ولجؤوا إلى الجبال والغياض؛ فأحرق ما فيها، وأراد هدم سورها؛ فوجد سعتة ثمان عشرة ذراعا؛ فتركه؛ وأمعن في بلاد الشرك قتلا وسبيا...

وفي سنة 234، أمر الأمير بتوجيه العساكر إلى أهل جزيرة ميورقة، لنكايتهم، وإذلالهم، ومجاهرتهم بنقضهم العهد، وإضرارهم بمن مر عليهم من مراكب المسلمين. فغرتهم ثلاثمائة مركب؛ فصنع الله للمسلمين جميلا، وأظفرهم بهم، وفتحوا أكثر جزائريهم...

وفي سنة 235، ورد كتاب أهل ميورقة ومنورقة إلى الأمير عبد الرحمن، يذكرون ما نالهم من نكاية المسلمين لهم؛ فكتب إليهم كتابا أذكر هنا فصولا منه، وهو: أما بعد، فقد بلغنا كتابهم، تذكرون فيه أمركم، وإغارة المسلمين الذين وجهناهم

إليكم لجهاذكم، وإصابتم ما أصابوه منكم من ذراركم وأموالكم، والمبلغ الذي بلغوه منكم، وما أشفيتم عليه من الهلاك. وسألتم التدارك لأمركم، وقبول الجزية منكم، وتجديد عهدكم على الملازمة للطاعة، والنصيحة للمسلمين، والكف عن مكروهم، والوفاء بما عاهدتم وتحملونه عن أنفسكم. ورجونا أن يكون فيما عوقبتم به صلاحكم، وقمعكم عن العود إلى مثل الذي كنتم عليه. وقد أعطيناكم عهد الله وذمته!.. (1).

وفي سنة 238هـ، توفي الأمير عبد الرحمن بن الحكم - رحمه الله! - ليلة الخميس لثلاث خلون من ربيع الآخر من السنة. وما زال يفتني المآثر، وبينى المكارم والمفاخر، حتى قبضته شعوب، وأرداه مردى القبائل والشعوب.

لقد ارتفع شأن الإمارة الأموية في الأندلس في عهد عبد الرحمن الأوسط، وأصبحت الدول الأجنبية تخطب ودها، وكان له من الخصال الحميدة الكثيرة نكتفي هنا بما أوردها في بداية الحديث عن تاريخه، وبما أورده ابن عذاري بقوله: "... كان شاعرا، أديبا، ذا همة عالية. وكانت له غزوات كثيرة، وفتوحات في دار العدو شهيرة، يخرج إليها في العدد الجم، والعسكر الضخم، يخرب ديارهم، ويعفى آثارهم، ويقفل ظاهر الاعتلاء، قاهر الأعداء. لم يلق المسلمون معه بؤسا، ولم يروا في مدته يوما عبوسا. وهو أول من جرى على سنن الخفاء في الزينة والشكل، وترتيب الخدمة. وكسى الخلافة أبهة الجلالة فشيّد القصور، وجلب إليها المياه، وبنى الرصيف، وعمل عليه السقائف؛ وبنى (المساجد) الجوامع بالأندلس؛ وعمل السقاية على الرصيف، وأحدث الطرز، واستنبت عملها؛ واتخذ السكة بقرطبة. وفخم ملكه. وفي أيامه دخل الأندلس نفيّس الوطاء وغرائب الأشياء؛ وسبق ذلك إليه من بغداد وغيرها. وعندما قتل محمد الأمين، ابن هارون الرشيد، وانتهب ملكه، سبق إلى الأندلس كل نفيّس غريب من جوهر ومتاع. وقصد بالعقد المعروف بعقد الشفاء؛ وكان لزبيدة أم جعفر.

ومن مآثره: أنه كان ورد عليه يوما أموال من بلاده، لعطبات أجناده؛ فأدخلت إليه، وجعلت الخرائط بين يديه. وكان بعث فتيانته؛ فخلا مجلسه إذ ذاك، ولم يبق أحد هناك، حاشى فتى كان بين يديه واقفا، وعلى خدمته الخاصة عاكفا؛ فغشيت الأمير عبد الرحمن نعسة، ظلها الفتى تهزّه وخلسة؛ فقبض على خريطة من ذلك المال، وأسدل عليها كمة أسبغ إسدال، والأمير يلاحظه بطرف خفي، ويصمت عنه صمت

برّ حفيّ؛ ففاز الفتى بماله، وناط به أسباب آماله. فلما رجع الفتیان، أمرهم الأمير عبد الرحمن برفع تلك الخرائط المبسوطة؛ فوجدوا نقصان تلك الخريطة؛ فتدافعوا فيها إذ ذاك، كل يقول لصاحبه: أنت أخذتها من هناك! فقال لهم الأمير: أسكنوا عن هذا! فقد أخذها من لا يردّها، وعاینه من لا يقولها! فكان هذا مما عدّ من كرمه وفضله.

وكانت له جارية تسمى طروب، كان بها دنفا؛ فصدت عنه يوما، وأبدت هجرانه. فأرسل فيها؛ فامتدعت عليه، وأغلقت على نفسها بيتا. فأمر ببزيان الباب بالخرائط المملوءة من الدراهم، استرضاء لها، واستعطافا لوصالها. فلما فتحت الباب، تساقطت الخرائط من كل جانب؛ فأخذتها؛ فألفت فيها نحو من عشرين ألفا؛ وأمر لها يعقد قيمته عشرة آلاف دينار؛ فجعل بعض من حضر من وزرائه يعظم الأمر عليه؛ فقال له الأمير عبد الرحمن: إن لابسك أنفوس منه خطرا وأرفع قدرا! ولئن راق من هذه الحصباء منظرها، ورصف في النفس جوهرها، فلقد برأ الله من خلقه جوهرها يغشى الأبصار، ويذهب بالألباب. وهل على وجه الأرض من زبر جدها وشريف جوهرها أقر لعين، وأجمع لزين، من وجه أكمل الله فيه الحسن ونضرتة، وألقى عليه الجمال بهجته؟ ثم قال لعبد الله بن الشمر الشاعر وكان حاضرا: هل يحضرك شئ في المعنى؟ فأنشد:

أَتَقَرُّنْ حَصَبَاءَ الْبَوَاقِيَتِ وَالشَّدْرِ :: بِمَنْ يَتَعَالَى عَنْ سَنَا الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ
بِمَنْ قَدْ بَرَّتْ قَدَمَا يَدِ اللَّهِ خَلْقَهُ :: وَلَمْ يَكْ شَيْئاً قَبْلَهُ أَبَدًا يَبْرَى
فَأَكْرَمَ بِهِ مِنْ صَنْعَةِ اللَّهِ جَوْهَرًا :: تَضَاعَلْ عَنْهُ جَوْهَرُ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
فأعجبت الأمير الأبيات وطرب لها طربا شديدا. وأنشد الأمير مرتجلا طويل:

قَرِيبُكَ يَا ابْنَ الشَّمْرِ عَنِّي عَلَى :: وَجَلَّ عَنْ الْأَوْهَامِ وَالذَّهْنِ وَالْفِكْرِ
الشَّمْرِ :: إِلَى الْقَلْبِ إِبداعاً فَجَلَّ عَنْ السِّحْرِ
إِذَا شَافَهُتُهُ الْأَذُنُ أَدَّى بِسَحْرِهَا :: أَقَرَّ لِعَيْنٍ مِنْ مَنَهْمَةٍ بِكَرِ
وَهَلْ بَرَأ الرَّحْمَنُ مِنْ كُلِّ مَا بَرَأَ :: كَمَا فَوْقَ الرُّوضِ الْمُنْعَمِ بِالزَّهْرِ
تَرَى الْوَرْدَ فَوْقَ الْيَاسْمِينِ بِخَدِّهَا :: نَظَّمْتُهُمَا مِنْهَا عَلَى الْجِيدِ وَالنَّحْرِ
فَلَوْ أَنَّنِي مَلَكَتُ قَلْبِي وَنَاطِرِي

ثم أمر لابن الشمر ببذرة فيها خمسمائة دينار؛ فخرج مع الوصيف يحملها له تحت إبطه. فلما تواريا عن الأمير، قال له الوصيف: أين لذات العمر، يا ابن الشمر؟

فقال: تحت إبطك يا سيدي! (1).

* * *

محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (238 - 273 هـ / 852 - 886 م)

تولي الأمير محمد بن عبد الرحمن الإمارة في 4 ربيع الآخر سنة 238 هـ / 852 م وحكم ما يقرب من خمس وثلاثين سنة، وكان أوحده قومه في البلاغة والرجاحة وحسن الخلق، يؤثر الحق وأهله وكان عاقلاً ذا أخلاق حميدة ومكارم جميلة، وبديهة وروية، خدمته ملوك بلاد المغرب، واعترفت بطاعته تاهرت وسجلماسة، وق عاصر أعظم ملوك الإفرنج حيث كانوا يهادنونه ويطلبون وده (2).

وقد وجه الأمير عناية كبيرة بالاهتمام بأمور الدولة الداخلية والخارجية، حفاظاً عليها من الأتارين في الداخل والخارج والمغيرين والمتربصين بها من الخارج، وقضي معظم مدة حكمه في غزوات متعاقبة وحملات مستمرة لتأديب الثوار في الداخل، وحملهم على الطاعة، والوقوف في وجه الممالك النصرانية، حماية لشغور المسلمين، واهتماماً بمصالحهم، كما اهتم بالإصلاحات الداخلية فترة حكمه (3).

ولكن ما يؤخذ علي الأمير محمد بن عبد الرحمن: أنه فوض أمور دولته لهاشم بن عبد العزيز أعظم وزرائه، وكان هاشم هذا مغروراً بنفسه، حقوقاً لجوجاً، أفسد الدولة، وكان الأمير محمد يقدمه علي جيوشه، فخرج مرة إلى غرب الأندلس ليقمع ما هنالك من الثورات فأساء السيرة مع جنوده وبعض الثوار، وقيل أنه أهان عبد الرحمن بن مروان الجليقي ببطليوس، في حملته التي قادها سنة 262 هـ ففر منه عبد الرحمن بن مروان إلى سعدون السرنباقي الثائر بالشعر، واشتبك الوزير هاشم معهما فهزمهم وأسراهم ووقع بين يديهم من صفعاه، فأحس إليه، ثم افتداه الأمير محمد بمال كثير، وأرسله الأمير محمد مرة في جيش كبير مع ابنه المنذر إلى ثغر سرقسطه، فأساء الأدب معه حتي أحقده عليه، وقامت الثورات في الأندلس بسببه (4).

(1) البيان المغرب، 2 / 92.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 93 - 94، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 22، 23.

(3) محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص 304، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 133.

(4) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص 244.

* * *

الثورات الداخلية في عهده

إن الإمارة الأموية حتى في أيام الرخاء إبان عهد الأمير عبد الرحمن الثاني، لم تكن خالية من المتاعب، ولم تكن السلطة فيها إلا عبئا ثقيلا علي أمراء تلك الحقبة، ذلك أن قضيتين أساسيتين كان علي كل أمير جديد أن يتصدي لهما، أو ينزلق ومعه النظام إلى مهاوي التمزق والانقسام:

القضية الأولى، وهي الأكثر خطورة تكمن في طبيعة المجتمع الأندلسي المفكك الذي هو عبارة عن قبائل وشعوب متعددة، خضعت للسيادة الأموية إما طوعا أو كرها، وإما إبتغاء المصلحة، دون أن يجمع بينها قليل من القاسم المشترك بالمسؤولية الوطنية، فالمجتمع الأندلسي يتكون من أقلية عربية جاءت مع الفتوح أو في ظروف عادية، وحتى هذه الفئة من المجتمع كان يعوزها الانسجام لتوزع إنتمائاتها قبلها بين قيسي ويمني، وإقليميا بين حجازي أو شامي أو إفريقي، وهناك أقلية أخرى يتكون منها المجتمع الأندلسي وهي البربر التي جاءت في نفس الظروف ونازعتها مشاعر السيطرة والنفوذ، فأخفت مرارا، ولكنها لم تتخل عن طموحها الذي استمدته من دعم القوة الأساسية للبربر في المغرب، أما أغلبية السكان فكانوا من السكان الأصليين الذين تأقلموا مع النظام عقيدة وهوية فصاروا يعرفون بالمولدين، بالإضافة إلى فئة أخرى من هؤلاء تأقلمت هوية دون عقيدة، وهي التي عرفت بالمستعربة أو المستعربين.

أما القضية الثانية والتي كانت نتيجة حتمية لهذا المجتمع المنخور والمتنافر عنصريا ودينيا، إن لم نقل إجتماعيا، هي العلاقة العدائية بين حكومة قرطبة والإمارات الأسبانية في الشمال، التي كانت تغذي هذا التنافر وتستفيد من اختلال الحكم المركزي لحساب مصالحها التوسعية.

هكذا كانت ظروف الإمارة الأموية في الفترة التي تولي فيها الأمير محمد بن عبد الرحمن الحكم في الأندلس، تناقضات هائلة ورياح وحركات إستقلالية مكبوتة تنتظر لحظة الانفجار في الوقت المناسب، حتى إذا حانت الفرص في مطلع عهده وثب الطامحون إلى السلطة كل في مقاطعته، حيث يتوفر الأذصار والمؤيدون، وكأنهم علي موعد مع خطة مشتركة ومُدبرة (1).

(1) إبراهيم ببيضون، الدولة العربية، ص 257 - 258، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس،

ثورة طليطلة

أولى هذه الثورات علي الأمير محمد ثورة أهل طليطلة، وكانت طليطلة بحكم موقعها الجغرافي وكثرة عدد سكانها المولدين موطناً للثورات، وقد بدأ أهل طليطلة بالثورة علي الأمير في نفس عام ولايته وسجنوا عامل طليطلة عندهم حتي يطلق الأمير رهائنهم من درا الرهائن من بقرطبة، ففعل الأمير وأطلقوا عامله، ثم يجروا بعد ذلك علي الأمير وأغاروا علي قلعة رباح وأرغموا حاميتها علي الإنسحاب وعندئذ بعث الأمير أخاه الحكم علي رأس جيش لغزو طليطلة سنة 239 هـ، فاحتل الحكم قلعة رباح وأم ببنيان أسوارها، واسترجاع من فر من حاميتها (1).

ثم عاد أهل جليقية للثورة من جديد سنة 240 هـ / 854 م مما اضطر الأمير للخروج إليهم بنفسه، فاستعان المتمردين بصاحب جليقية أردون بن أذفونش ملك أشتوريش، الذي لم يتورع في تقديم كل وسائل المساعدات لثوار طليطلة، إذ كانت مصلحته تقتضي إشعال نيران الحرب الأهلية في الأندلس، فأمدهم بأخيه غثون في جمع عظيم من النصاري، فلما عرف ذلك الأمير محمد - وكان قد اقترب من طليطلة - أعمل الحيلة والكيد، واستشعر الحزم، فعبا الجيش وكمن الكمان خلف الذنوءات البارزة من سطح الأرض في نواحي نهر سليلط، فلما التقى الجمعان خرجت الكمان عن اليمين والشمال، وتواترت الخيل أرسالا، حتى غشي الأعداء منهم ظلال كالجبال، فانهزم المشركون وأهل طليطلة، وأخذهم السلاح ضربا بالسيوف وطعنا بالرمح، فقتل معظمهم وأبيد جمعهم، وكان عدد قتلاهم عشرين ألفا (2).

وفي سنة 242 هـ / 856 م وجه الأمير محمد ابنه المنذر بالجيش إلى طليطلة فحاصرها وأقام عليها يذسف معاشها، وفي العام التالي 243 هـ / 857 م ثار أهل طليطلة وخرجوا إلى طلبيرة فخرج إليهم قائده مسعود بن عبد الله العريف بعد أن كمن لهم الكمان، فقتلهم قتلا ذريعا، وبعث إلى قرطبة بسبعمائه رأس من رؤوس أكابرهم. وكانت هذه النكبة لا تقارن بما أصابهم في العام التالي (3).

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 94، 95.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب 2 / 94 - 95، المقرئ، نفح الطيب، 1 / 350.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 96.

فقد خرج الأمير محمد سنة 244هـ / 858 م إلى طليطلة بعد أن قل جدهم بسبب ما نزل بهم من مصائب، فلم تكن لهم حرب إلا علي القنطرة، فأمر الأمير محمد بقطع القنطرة، وجمع العرفاء من البنائين والمهندسين وأداروا الحيلة لهذا الغرض دون أن يعلم بها أهل طليطلة، فلما تدفقت عليهم قوات طليطلة إنهارت بهم فغرقوا في النهر عن آخرهم وأخيراً لم يجد أهل طليطلة بدا من التسليم بالهزيمة والإذعان للأمير، ولكن هذا الأمر لم يستمر طويلاً إذ عادوا من جديد إلى الثورة سنة 256هـ / 875 م فخرج لهم الأمير بنفسه لوضع الأمور في وضعها الصحيح وأرغمهم علي تقديم فروض الولاء والطاعة، وأخذ منهم رهائن وعقد لهم أماناً وأغرمهم ضريبة من العشور يؤدونها له في كل عام (1).

* * *

ثورة ماردة

وتبعت ثورة أهل طليطلة ثورة أهل ماردة، إذ ثار بها عبد الرحمن بن مروان بن يونس المعروف بابن الجليقي مع جماعة من المولدين أمثاله، نخص بالذكر منهم ابن شاكر ومكحول في 254هـ / 868م.

فخرج الأمير محمد إلى ماردة وقد تظاهر بتوجهه نحو طليطلة لحصارها، فلما سار في طريق طليطلة انحرف إلى الطريق المؤدى إلى ماردة، فحاصر المدينة أياماً واضطر أهل ماردة إلى التسليم، واشترط عليهم الأمير أن يخرج من المدينة فرسانهم والمحرضين على الثورة وعلى رأسهم عبد الرحمن بن مروان وغيره، فخرج المذكورون بأولادهم وذرائعهم، وولى الأمير عليها سعيد بن عباس القرشي، ثم أمر بهدم سورها، ولم تبق إلا قصبتها باعتبارها مركز الحكومة. وظل ابن مروان في قرطبة حتى سنة 261هـ / 875م ثم هرب مع أنصاره، واستقروا بقلعة حنش على بعد نحو 20 كم جنوب شرقي ماردة. فغزاه الأمير محمد، وحاصره مدة ثلاثة أشهر، وقطع عنه الأقوات والمياه حتى اضطر عبد الرحمن إلى طلب الأمان، فأمنه الأمير، وطلب منه ابن الجليقي الرحيل إلى بطليوس والحلول بها، وكانت يومئذ قريه، فوافقه الأمير. فابتنى بطليوس وجعل منها حصناً يتحصن فيه ضد الأمير. إذ كان يزعم العصيان عندما تهيأ له الظروف. وفعلاً لم يمض عام واحد حتى عاد إلى إعلان الثورة على الأمير واستولى على بعض المدن بإقليم أشبيلية مثل طليطلة، وأكشون،

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 96، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص 246.

وأحتل جبلا يقال له من شافر، عندئذ أخذ أغزي إلى الأمير ولده المنذر، وكان قائد هذه الحملة هاشم بن عبد العزيز الذي كان السبب في هروب ابن مروان الجليقي إذ سبه وصفعه علي قفاه. فلما علم ابن مروان بقدوم هاشم بن عبد العزيز لمحاربتة، انتقل من بطليوس وحل بحدسن كركر، وكان ابن مروان قد اتفق مع زميله في العصيان سعدون السرنباقي الدائر في منت شلوط عل مكاتبة الفونسو الثالث بن أردون الأول ملك أشتوريشس وتظاهر أنه في قلة من الجند فبادر هاشم إلى مهاجمة ابن مروان الجليقي علي غير أهبة واستعداد إذ انخدع بقلة عدد قواته، فانهزم هزيمة نكراء وأسر وقتل من رجاله خمسون، وأرسله ابن مروان الجليقي إلى ملك أشتوريشس ألفونسو إظهارا بعرفانه بجميله، فأقام بأبيط عامين ثم افتداه الأمير سنة 264هـ _____ م _____ ن ألفونسو _____ ب 150 ألف دينار (1).

لم يستطع الأمير محمد أن ينتظر من ابن مروان أكثر من ذلك، فأرسل إليه القوات السرية تلو الأخرى، ثم خرج بنفسه وأرغمه علي الهروب في المرتفعات وأجبره علي التحصن في جبل أشبرغوزة، وأخيرا وافق الأمير محمد علي أن يستقل ابن مروان ببطلوس (2).

* * *

ثورة سرية

وفي سنة 255 هـ / 868 م ثار سليمان بن عبدوس وتغلب علي مدينة سرية، فأرسل إليه الأمير ابنه الحكم، ففضي علي ثورته وأذعن للطاعة، فأخذه الحكم وأتي به قرطبة فسكنها (3).

ولقد شهد عهد الأمير محمد العديد من الثورات وحركات التمرد التي نجح في القضاء عليها ومنها:

- ثار سليمان بن عبدوس سنة 255 هـ في سرية، ومطرف وإسماعيل بن لب ويونس بن زباط في الثغر (طليطلة، وسرقسطة) سنة 258 هـ، وعمروس الوشقي في وشقة سنة 256 هـ، ويحي الجزيري في جانب من كورة رية والجزيرة وتاكرنا

(1) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص 246، 247.

(2) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص 246، 247.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 100.

سنة 265 هـ، وحارث بن حمدون من بني رفاعة في مدينة الحامة من كورة رية سنة 273 هـ، والتي يجملها ابن عذاري بقوله: "...

وفي سنة 248، تقدم موسى بن موسى لمقاتلة ابن سالم في وادي الحجارة؛ فنالته جراح منعه الركوب بعدها؛ وكانت سببا لهلاكه؛ فتوفي في هذه السنة...

وفي سنة 255، خرج الحكم ابن الأمير محمد، وقصد مدينة سرية. وكان قد تغلب بها سليمان بن عبدوس، وخالف فيها؛ فبادرته الصائفة، وحلت به العساكر، وأحدثت بالمدينة، ورميت بالمجانيق، حتى هتكت أسوارها. فقام أهلها على سليمان بن عبدوس؛ فطاع، ونزل؛ فقدم به قرطبة؛ فسكنها...

وفي سنة 257، خرج إلى الثغر عبد الغافر بن عبد العزيز؛ وكان بتطيلة. فقبض على زكريا بن عمروس وعلى أولاده وجماعة من أهل بيته، ونزل بهم على باب مدينة سرقسطة، وقتلهم بها. وقفل إلى قرطبة بالرووس...

وفي سنة 258، كانت في الثغر ثورات وحركات، منها أن مطرفا وإسماعيل ابني لب، ويونس بن زنباط غدروا بعبد الوهاب بن مغيث، عامل تطيلة، وابنه محمد عامل سرقسطة. فقبضوا عليهما، وملكوا في هذا العام الثغر. وكان توفي مطرف في صفر، ودخل إسماعيل سرقسطة في ربيع الأول...

وفي سنة 259، خرج الأمير محمد بنفسه إلى الثغر، وحل في وجهته بطليطلة، وأخذ رهائنهم، وعقد أمانهم، وقاطعهم على قطيع من العشور يودونه في كل عام، وهو الأمان الثاني. واختلفت أهواؤهم في عمالهم؛ فطلب قوم منهم تولية مطرف بن عبد الرحمن، وطلب آخرون تولية طربيشة؛ فولى كل واحد منهما جازبا، وتقسما المدينة وأقاليمها على حدود مفهومة معلومة؛ ثم تنازعا، وأراد كل واحد منهما الانفراد بملك طليطلة. ثم غلب الداعون إلى تقديم طربيشة ابن ماسوية، وتأخير مطرف المذكور. وكان الأمير محمد تتلقاه في وجهته هذه، في الارتحال والاحتلال، طلائع الظفر، وبوادر النجج والنصر. وتجول في الثغر محاصرا لبني موسى، ومضيقا عليهم. ثم تقدم إلى بنبلونة؛ فوطئ أرضها، وأذل أهلها، وخربها؛ قم قفل؛ فحل بقرطبة، ومعه جماعة من الثوار الناكثين المفسدين. فلما أخذ راحته، أمر بقتل مطرف بن موسى وبنيه، وأمر بإطلاق كاتبهم، وكان لا ذنب له. فلما أخرج مطرف وبنوه للقتل، وأخرج كاتبهم للإطلاق، وكان يعرف بالأصبحي، قال: لا خير في العيش بعد هؤلاء! فقدم للقتل قبلهم، ورفعت رؤوسهم.

وفي سنة 260، خرج المنذر بن الأمير محمد إلى سرقسطة وبنبلونة؛ وكان القائد هاشم بن عبد العزيز. فاحتل سرقسطة، وانتهب زروعها، وأذهب ثمارها وأشجارها، ونقل أطعمتها إلى وشفة، وتقدم إلى بنبلونة؛ فجال في أرضها، وأتلف معاش أهلها...

وفي سنة 261، هرب ابن مروان الجليقي من قرطبة مع رجال ماردة المنزلين منها، واستقروا بقلعة الحنش. فغزاه الأمير محمد، وحاصره حصاراً قطعته وضيق عليه مدة من ثلاثة أشهر، ألجأه فيها إلى أكل الدواب؛ وقطع عنه الماء، ورماه بالمجانيق، حتى أذعن، وطلب الأمان، وشكى ثقل الظهر وضيق الحال؛ فأباح له الأمير محمد الرحيل إلى بطليوس والحلول بها؛ وهي يومئذ قرية؛ فخرج إليها، وقفل عنه...

وفي سنة 264، حارب المنذر سرقسطة، وأفسد ما ألقى من زروعها؛ ثم تقدم إلى تطيلة والمواقع التي صار فيها بنو موسى؛ فانتسقها، وأجال العسكر عليها... وفي سنة 265، ظهرت الفتنة وظهر الشر في جانب كورة ربة والجزيرة وتاكرنا؛ وظهر يدي المعروف بالجزيري؛ فغزاه هاشم؛ فأذعن له، وقدم به إلى قرطبة...

وفي سنة 269... غزا محمد بن أمية بن شهيد إلى كورة رية وكورة البيرة. وكانوا بحال توحش ونفار؛ فسكن أحوال أهلها، وهذب الناس بها، ونظر في استئصال رجال بجال رية وغيرها من بني رفاعة وغيرهم.

وفي سنة 273، خرج المنذر بن الأمير محمد إلى كورة رية، والقائد محمد بن جهور. فقصد مدينة الحامة، وفيها حارث بن حمدون من بني رفاعة؛ وكان مظاهرا لعمر بن حفصون، وكانا قد اجتمعا بالحامة. فنازلهم، وناهضهم، وأحقق بهم من كل ناحية؛ وأقام محاصرا لهم شهرين. فلما وصل إليهم الضيق، برزوا إلى باب المدينة خارجا، مستقبليين للحرب. وقام بها؛ فنالته جراح، وشلت يده؛ ثم انهزم هو وأصحابه، وصاروا بين قتيل وفيل. ودخل باقيهم في الحامة (1).

ثورة عمر بن حفصون 267 هـ / 316 م

وأعظم الثورات شأنا ثورة عمر بن حفصون في بيشتتر سنة 267 هـ، وكان عمر من أسرة فقيرة يعمل أبوه فلاحا، وقد كان عمر منذ فجر شبابه طموحا ميالا إلى المغامرة، مطبوعا علي العنف، مجبولا علي القسوة، عاش مطلع حياته في إقليم رندة، وفي أحد الأيام تشاجر مع أحد جيرانه فقتله، مما اضطره إلى الهرب إلى العدوة المغربية ولاذ بتاهرت عاصمة الرستميين هناك، حيث اشتغل هناك خياطا، ثم عاد إلى الأندلس وهو مصمم علي الثورة، فاستولي علي قلعة قديمة في جبل تعرف ببشتتر في إقليم رية، والتفت حوله جماعة من الثوار، وكانت أولي أعماله المنظومة ضد الحكومة في قرطبة، الهزيمة التي أوقعها بحاكم رية عامر بن عامر، حيث كان لها الأثر الكبير في تقوية نفوذه وازدياد مكانته، ولكن الأمير محمد عزل عامرا عن حكمه رية وولاهها عبد العزيز بن عباس فهادنه ابن حفصون وسكنت الحال بينهما، ثم عزل عبد العزيز، فعاد ابن حفصون إلى الثورة، فأرسل إليه الأمير محمد وزيره هاشم في سنة 270 هـ / 883 م، الذي استطاع إرغام ابن حفصون علي الاستسلام وجماعته، حيث حملوا جميعا إلى قرطبة فعفي عنه الأمير وأكرممه، وبلغ به التسامح أن يعينه في من صب مهم في الجيش، ولكنه لم يلبث طويلا حيث هرب سنة 271 هـ / 884 من قرطبة، ورجع إلى جبل بيشتر، فأرسل إليه الأمير محمد ابنه المنذر والقائد محمد بن جهور للقضاء عليه في سنة 273 هـ / 886 م، ولكن ابن جهور توجه أولا إلى مدينة الحامة التي ثارت ضد الأمير محمد بزعامة الحارث بن حمدون من بني رفاعة، وشايعت ابن حفصون وأعلنت تأييدها له، وعندما سمع ابن حفصون بأخبار هذه الحملة هرع إلى معقل حلفائه الجدد لقطع الطريق علي جيش الإمارة، ولكن القائد الأموي سبقة وأحكم قبضته علي القلعة والتي سقطت بالرغم من إشترك الحليفين في الدفاع عنها، حيث أصيب قائدها بالجروح البالغة، في حين هرب ابن حفصون وأتباعه قبل أن تدرتهم سيوف الأمويين وفي هذه الأثناء جاء الناعي إلى المنذر يخبره بوفاة أبيه الأمير محمد بن عبد الرحمن. “ فبينما المنذر في هذه الحال من السرور، إذ أتاه الخبر بموت أبيه الأمير محمد بن عبد الرحمن، ليلة الخميس لليلة بقيت من شهر صفر من السنة؛ ودفن في القصر. وأدركه المنذر قبل مواراته وصلى عليه... ” (1).

يقول ابن عذاري: “... وفي سنة 267،... ابتدأ شر اللاعبين عمر بن حفصون،

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 104 - 106، ابن بيبضون، الدولة العريدية، ص 263، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 137 - 138.

الذي أعىى الخلفاء أمره، وطالت في الدنيا فتنته، وعظم شره؛ فقام في هذه السنة على الأمير محمد بناحية رية. فتقدم إليه عامر بن عامر؛ فانهزم عامر وأسلم قبته؛ فأخذها ابن حفصون، وهو أول رواق ضريه؛ فاستكن إليه أهل الشر. وعزل الأمير عامرا عن كورة رية، وولاهها عبد العزيز بن عباس؛ فهادنه ابن حفصون، وسكنت الحال بينهما. ثم عزل عبد العزيز، وتحرك ابن حفصون، وعاد إلى ما كان عليه من الشر. وخرج هاشم ابن عبد العزيز إلى كورة رية يطلب كل من كشف وجهه في الفتنة وأظهر الخلاف، وأخذ رهائن أهل تاكرنا على إعطاء الطاعة.

قال حيان بن خلف في عمر بن حفصون: هو كبير الثوار بالأندلس ونسبه: عمر بن حفص، المعروف بحفصون، بن عمر بن جعفر بن شتيم بن ذيaban بن فرغلوش بن إذفونش، من مسالمة الذمة، من كورة تاكرنا من عمل رندة. وكان الذي أسلم منهم جعفر بن شتيم؛ ففشا نسله في الإسلام. وكان له من الولد الذكور عمر وعبد الرحمن؛ فولد عمر بن جعفر حفصا. وولد حفصون هذا عمر هذا الثائر الملعون؛ فعمر هذا هو الذي ثار على الأمير محمد أولا، ثم بلغ بعد ذلك في الشقاق والفتن مبلغا لم يبلغه ثائر بالأندلس. واستوطن لأول نفاقه حصن بربشتر قا عدة وحضرة، وهي أمنع قلاع الأندلس قاطبة، وذلك في هذه السنة، وهو تأريخ صعوده الآخر إليها الذي توطد له ملكه فيه، وخالف على السلطان حتى رضى عنه بالمناركة. واتصلت أيامه في ظهور وعزة حتى قدم فيها ثلاثة من خلفاء المروانيين أئمة الجماعة بالأندلس - رحمهم الله! - أولهم هذا الأمير محمد؛ وتخلف بعدهم إلى أن هلك على يد الرابع منهم، وهو عبد الرحمن الناصر... “ (1).

وانتهز ابن حفصون فرصة وفاة الأمير محمد، وعودة المنذر إلى قرطبة علي إثر ذلك، فراسل الحصون التي تمتد من ببشتر حتى الساحل، فأجابته بالطاعة، وأغار علي باغة، وقبرة وعلي البيرة وأحواز جيان، وأدضم إليه كثير من شطار الناس وشرارهم، فاضطر الأمير المنذر إلى الخروج إليه بجيشه سنة 274 هـ - فافتتح حصون ابن حفصون في كروة رية وقبرة وحاصر ببشتر وضيق عليها، ثم مضى إلى مدينة أرشذونة، وكانت تابعة لابن حفصون، وفيها عامل من قبله اسمه عيشون، وتغلب المير علي قسبة أرشذونة، وأسر العامل وأسر معه بني مطروح، وافتتح حصونهم بجبل باغة، وأمر بقتل بني مطروح، ومعهم عيشون فصلبوا جميعا

بقرطبة و صلب مع عيشون كلب وخنزير (1) ولما اشتد الأمر علي ابن حفصون وشعر أنه قد إقتربت نهايته سارع إلى مهادنة الأمير وطلب الأمان، مقابل أن يعيش هو وبنوه وأهله إلى جوار الأمير في قرطبة، فأجابه الأمير إلى طلبه ومنحه الأمان، ولكنه نقض العهد و غدر بالأمير و عاد إلى سيرته الأولى من الثورة، فأقسم الأمير المنذر أن يقصده، وأن يحاصر ببشتر التي يتحصن بها، ولا يبرحها حتى يتمكن من ابن حفصون، ففضي الأمير نحو 43 يوما في حصاره لببشتر، ثم أصابته علة شديدة، فبعث إلى أخيه عبد الله لينوب عنه، في الحصار، ومات الأمير المنذر في 15 صفر سنة 275 هـ، فحمل الأمير علي جمل إلى قرطبة حيث دفن مع أجداده في تربة الخلفاء المعروفة بالروضة داخل القصر (2).

ونتيجة لوفاة الأمير المنذر حدث الاختلال في صفوف الجيش المحاصر لابن حفصون، فاستغل ابن حفصون هذا الاضطراب الذي حدث في جيش الأمويين وهاجم المحلة وانهبها، ولم يجد الأمير محمد بدا من مهادنة ابن حفصون حت يتسني له مواجهة أخطار أخرى محدقة بإمارته، وبدأ عهده بمعاهدة سلمية عقدت بينه وبين هذا الثائر، نصت علي بقاء ابن حفصون وأتباعه في قلعة ببشتر تحت وصاية الأمير عبد الله ومراقبة الحاكم الذي عينه علي إقليم رية، غير أن هذه المعاهدة انتقضت قبل أن يجف مدادها، إذ سرعان ما استأنف ابن حفصون الحرب في المناطق المحيطة بمنطقة رية ونـزع الأمير عبد الله السيطرة علي مناطق كثيرة، مما أجبر الأمير محمد علي الخروج لمقاتلته بنفسه ومحاصرته في قلعته الحصينة سنة 276 هـ / 889 م، ولكن هذا الحصار لم يكن بالكفاءة العالية ولم يؤد إلى نتائج حاسمة، فاضطر الأمير غلي العودة إلى عاصمة إمارته مؤثرا السلامة، فاستغل ابن حفصون هذه الفرصة ووسع دائرة نفوذه شمالا فاستولي علي استجة، ثم عرج علي قرطبة وحاول الاستيلاء عليها ولكن محاولته باءت بالفشل (3).

وفي سنة 278 هـ / 851 م كثف ابن حفصون من هجماته ضد السلطة المركزية فهاجم إقليم جيان وتقدم شمالا حتي وصل مشارف قرطبة، فعهد الأمير عبد الله إلى قائده أحمد بن محمد بمهمة التصدي لابن حفصون، فاستطاع الانتصار عليه وإيقاع

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 106، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص 251.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 117 - 118، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص 251.

(3) أخبار مجموعة، ص 151، إبراهيم بيضون، الدولة العربية، ص 266 - 267.

الهزيمة الذكراء به وبجيوشه، واستعاد منه كثيرا من المدن التي كان قد استولى عليها، فاستعاد الأمير عبد الله السيطرة علي مدن بلاي، واستجة والمناطق الأخرى، واضطر ابن حفصون علي العودة إلى قاعدته في ببشتر يجر أذيل الهزيمة (1).

وكانت هذه المعركة بداية لانفراط عقد ثورة بن حفصون، إذ تتابعت عليه الهزائم المريعة التي أدت إلى إنفضاض كثير من الناس من حوله، ففي سنة 280 هـ / 893 م أرسل إليه الأمير محمد ابنه المطرف فحاصره في حصن ببشتر ودمر عمارته و عاث في أنحاء الحصن ولما حاول ابن حفصون الخروج من الحصن والتصدي له حاقت به الهزيمة الذكراء، وقتل الكثير من خيرة جنده وقادته (2).

وكانت القشة التي قصمت ظهر ابن حفصون، أنه لم يستطع إخفاء حقه علي الإسلام والمسلمين وأزال القناع الذي ظل يخفي به حقه الدفين للإسلام، فأظهر اعتناقه للنصرانية، مما أدى إلى إنصراف الكثير من أتباعه عنه، بل ومجاهرته بالعداء وإعلان الجهاد ضده، والاتصال بالأمير عبد الله وإعلان تأييدهم له، مما جعل ابن حفصون يبحث له عن مناصرين جدد ويقرون جبهته التي أصبحت ضعيفة بعد أن انفض من حوله الكثير من مسلمي الأندلس، فبدأ في الاتصال بملوك النصاري بهدف عقد التحالفات معهم ضد المسلمين في الأندلس، فتحالف مع ألفونسو الثالث ملك ليون وبني قسي في سرقسطة وابن حجاج في إشبيلية، كما كاتب ابن الأغلب صاحب إفريقية، وبعث إليه بالهدايا وأظهر دعوة العباسيين في الأندلس، وبعث بطاعته للشيعنة عندما تغلبوا علي القيروان وانتزعوها من أيدي الأغلبة وأظهر في الأندلس دعوة عبيد الله المهدي الشيعي (3).

في حين استمر الأمير عبد الله في مهاجمة ابن حفصون وإرسال الجيوش لمناجزته، وإيقاع الهزائم المتتالية به وبحلفائه، واستمر الحال علي هذا المنوال حتى نهاية

عبد الله سنة 300 هـ / 912 م، وبالرغم من أنه لم يقض علي فتنة ابن حفصون في عهد الأمير عبد الله إلا أنه نجح في كسر شوكته، مما مهد الأمور لإخماد ثورته في عهد

(1) ابن حبان، المقتبس، ص 97 - 100، إبراهيم بيضون، الدولة العربية، ص 268.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 124.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 139، محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص 325.

عبد الرحمن الناصر سنة 315 هـ / 927 م (1).

* * *

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 193 - 195، محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص 225 - 226.

الحروب الخارجية في عهده

بالإضافة إلى الحملات التي وجهها الأمير محمد للقضاء على الثورات الداخلية المتعددة، فإنه لم يهمل في نفس الوقت الجبهة الخارجية، حيث أعد العديد من الغزوات والحملات العسكرية لغزو الدول والإمارات المتاخمة لحدود إمرته وذلك إما لرد عاديتهم، أو فض تحالف لهم مع ثوار داخل إمارته، أو لإشعارهم بهيبة وقوة دولته، وسوف نعرض هنا لأهم تلك الغزوات والحملات ولكن علي لسان ابن عذاري الذي يقول: "...

وفي سنة 239، خرج الحكم ابن الأمير عبد الرحمن إلى طليطلة بالصائفة...

وفي سنة 240، خرج الأمير محمد بنفسه إلى طليطلة في المحرم. فلما اتصل بأهلها ذلك، أرسلوا إلى أردن بن إفونش صاحب جليقية، يعلمونه بحركته ويستمدون به. فبعث إليهم أخاه غثون في جمع عظيم من النصارى. فلما اتصل ذلك بالأمير محمد، وقد كان قارب طليطلة، أعمل الحيلة والكيد، واستشعر الحزم؛ فعبأ الجيوش، وكمن الكائن بناحية وادي سليط؛ ثم نصب الردود، وطلع في أوائل العسكر في قلة من العدد. فلما رأى ذلك أهل طليطلة، أعلموا العليج بما عاينوه من قلة المسلمين؛ فتحرك العليج فرحاً، وقد طمع في الظفر والغنيمة وانتهاز الفرصة. فلما التقى الجمعان، خرجت الكمائن عن يمين وشمال، وتواترت الخيل أرسالا على أرسال، حتى غشى الأعداء منهم ظلل كالجبال؛ فانهزم المشركون وأهل طليطلة، وأخذتهم السلاح، هذا بالسيوف، وطعنا بالرماح؛ فقتل الله عامتهم، وأباد جماعتهم. وحيز من رؤوسهم مما كان في المعركة وحواليها ثمانية آلاف رأس، وجمعت ورصعت؛ فصار منها جبل علاه المسلمون، يكبرون ويهللون ويحمدون ربهم ويشكرون. وبعث الأمير محمد بأكثرها إلى قرطبة، وإلى سواحل البحر، وإلى العدو. وانتهى عدد من فقد منهم في هذه الوقعة إلى عشرين ألفاً. وكانت في شهر محرم من السنة...

وفي سنة 242، كتب الأمير محمد إلى موسى بن موسى بدشد الثغور والدخول إلى برشلونة؛ فغزا إليها، واحتل بها، وافتتح في هذه الغزاة حصن طراجة، وهي من آخر أحواز برشلونة...

وفي سنة 245... خرج المجوس (النورمان) أيضاً إلى ساحل البحر بالغرب، في اثني وستين مركباً؛ فوجدوا البحر محروساً، ومراكب المسلمين معدة، تجري من حائط إفرنجة إلى حائط جليقية في الغرب الأقصى. فتقدم مركبان من مراكب المجوس (النورمان)؛ فتلاقت بهم المراكب المعدة؛ فوافوا هذين المركبين في بعض

كسور باجة؛ فأخذوهما بما كان فيهما من الذهب والفضة والسبي والعدة. ومرت سائر مراكب المجوس (النور مان) في الريف حتى انتهت إلى مصب نهر إشبيلية في البحر؛ فأخرج الأمير الجيوش، ودفن الناس من كل أوب: وكان قائدهم عيسى بن الحسن الحاجب. وتقدمت المراكب من مصب نهر إشبيلية حتى حلت بالجزيرة الخضراء؛ فتغلبوا عليها، وأحرقوا المسجد الجامع بها؛ ثم جازوا إلى العدو؛ فاستباحوا أريافها؛ ثم عادوا إلى ريف الأندلس، وتوافوا بساحل تدمير؛ ثم انتهوا إلى حصن أوربولة؛ ثم تقدموا إلى إفرنجة؛ فشتوا بها، وأصابوا بها الذراري والأموال، وتغلبوا بها على مدينة سكنوها، فهي مذسوبة إليهم إلى اليوم، حتى انصرفوا إلى ريف بحر الأندلس، وقد ذهب من مراكبهم أكثر من أربعين مركبا. ولقيهم مراكب الأمير محمد؛ فأصابوا منها مركبين بريف شنونة، فيها الأموال العظيمة. ومضت بقية مراكب المجوس.

وفي سنة 246، أغزى الأمير محمد بن عبد الرحمن إلى أرض بنبلونة أحد قواده؛ فخرج في هذه الغزوة خروجا لم يخرج قبله مثله جمعا وكثرة، وكمال عدة، وظهور هيبة. وكان غرسية إذ ذاك متظافرا مع أزدون صاحب جليقية؛ فأقام هذا القائد يدوخ أرض بنبلوبة، مترددا فيها اثنين وثلاثين يوما، يخرب المنازل، وينسف الثمار، ويفتح القرى والحصون. وافتتح في الجملة حصن قشتيل، وأخذ فيه قرتون بن غرسية المعروف بالأنفر، وقدم به إلى قرطبة؛ فأقام بها محبوسا نحو من عشرين سنة؛ ثم رده الأمير إلى بلده، وعمر قرتون مائة وست وعشرون سنة.

وفي سنة 247، قال الرازي: غزا محمد بن السديم أرض الحرب، وعامل الثغر إذ ذاك عبد الله بن يحيى. وكان كتب موسى بن موسى يذكر ما ناله ونال أهل بلده في إداختهم أرض الجليقيين، وما وصل إليهم من النصب، وسأل أن يكون دخول العسكر على غير ناحيته؛ فأسعف في ذلك، ودخلت العساكر على غير بلده...

وفي سنة 249، خرج عبد الرحمن ابن الأمير محمد إلى حصون ألبة والقلاع؛ وكان القائد عبد الملك بن العباس؛ فافتتحها، وقتل الرجال، وهدم البيضان؛ وانتقل في بسائطها من موضع إلى موضع يحطم الزروع، ويقطع الثمار. وأخرج أردون بن إذفونش أخاه إلى مضيق الفج ليقطع بالمسلمين، ويتعرضهم فيه؛ فتقدم عبد الملك؛ فقاتلهم على المضيق، حتى هزمهم وقتلهم وبددهم؛ ثم وافنهم بقية العساكر، وأظلتهم الخيل من كل الجهات؛ فصبر أعداء الله صبرا عظيما؛ ثم انهزموا. ومنح الله المسلمين أكتافهم؛ فقتلوا قتلا ذريعا؛ وقتل لهم تسعة عشر قوما من كبار قوادهم...

وفي سنة 251، كانت غزوة ألبة والقلاع أيضا هزيمة المركوبز - أخزاه الله! - خرج إلى هذه الغزاة عبد الرحمن بن محمد، وتقدم حتى حل على نهر دوبر. - وتوالت عليه العساكر من كل ناحية، فرتبها. ثم تقدم؛ فاحتل بفتح بردنش؛ وكانت عليه أربعة حصون؛ فتغلب العسكر عليها، وغنم المسلمون جميع ما فيها وخربوها؛ ثم انتقل من موضع إلى موضع، لا يمر بمسكن إلا خربه، ولا موضع إلا حرقه، حتى اتصل ذلك في جميع بلادهم. ولم يبق لرذريق صاحب القلاع، ولا اردمير صاحب توفة، ولا لعندشلب صاحب برجية، ولا لغومس صاحب مسانقة، حصن من حصونهم إلا وعمه الخراب. ثم قصد الملاحه، وكانت من أجل أعمال رذريق؛ فدطم ما حوالها وعفا آثارها.

ثم تقدم يوم الخروج على فج المركوبز؛ فصد العسكر عنه، وتقدم رذريق بدشوده وعسكره؛ فحل على الخندق المجاور للمركوبز. وكان رذريق قد عانى توعيره أعواما، وسخر فيه أهل مملكته، وقطعه من جانب الهضبة؛ فارتفع جرفه، وانقطع مسلكه؛ فنزل عبد الرحمن ابن الأمير محمد على وادي إبره بالعسكر، وعبا القائد عبد الملك للقتال؛ وعبا المشركون، وجعلوا الكمائن على ميمنة الدرب وميسرته. وناهض المسلمون جموع المشركين بصدورهم؛ فوقع بينهم جلال شديد. وصدق المسلمون اللقاء؛ فانكشف الأعداء عن الخندق، وانحازوا إلى هضبة كانت تليه. ثم نزل عبد الرحمن ابن الأمير محمد، ونصب فسطاطه، وأمر الناس بالنزول وضرب أبينتهم؛ فأقامت المحلة. ثم نهض المسلمون إليهم؛ فصدقوهم القتال، وضرب الله في وجوه المشركين، ومنح المسلمين أكتافهم؛ فقتلوا أبرح قتل؛ وأسر منهم جموع. واستمروا في الهزيمة إلى ناحية الأهزون، وافتحموا نهر إنره باضطرار في غير مخاضه؛ فمات منهم خلق كثير غرقا. وكان القتل والأسر فيهم من ضحى يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب إلى وقت الظهر. وسلم الله المسلمين ونصرهم على المشركين. وكان قد لجأ منهم إلى الوعر والغياض، عندما أخذتهم السيوف، جموع؛ فتنبعوا وقتلوا؛ ثم هتك الخندق وسوى حتى سهل، وسلكه المسلمون غير خائفين ولا مضطرين. وأعظم الله المنه للمسلمين بالصنع الجميل، والفتح الجليل. والحمد لله رب العالمين. وكان مبلغ ما حيز من رؤوس الأعداء في تلك الوقعة عشرين ألف رأس وأربعمائة رأس واثنين وسبعين رأسا.

وفي سنة 252، خرج عبد الرحمن ابن الأمير محمد غازيا إلى ألبة والقلاع؛ فحارب أهلها، وأفسد زروعها، وغادرها هشيما. وكان أهل هذا الجانب في ضعف

ووهن شديد الجأهم إلى المنع من التجمع والاحتشاد، لما نالهم في العام الفارط من النهب والقتل الذريع.

وفي سنة 253، خرج الحكم ابن الأمير محمد غازيا إلى جرنيق؛ فجال في أرض الأعداء، وحل على حصن جرنيق، وحاصره حتى فتحه عنوة...

وفي سنة 260، خرج المنذر بن الأمير محمد إلى سرقسطة وبنبلونة؛ وكان القائد هاشم بن عبد العزيز. فاحتل سرقسطة، وانتهب زروعها، وأذهب ثمارها وأشجارها، ونقل أطعمتها إلى وشفة، وتقدم إلى بنبلونة؛ فجال في أرضها، وأتلف معاش أهلها...

وفي سنة 264، حارب المنذر سرقسطة، وأفسد ما ألقى من زروعها؛ ثم تقدم إلى تطيلة والمواقع التي صار فيها بنو موسى؛ فانتسقها، وأجال العسكر عليها.

وفيهما، دخل البراء بن مالك من باب فلنبرية إلى جليقية بدشود الغرب، وتردد هنالك حتى أذهب نعيمهم.

وفي سنة 268، خرج المنذر ابن الأمير محمد، والقائد هاشم بن عبد العزيز؛ فقصد الثغر الأقصى، وحطم سرقسطة، وافتح حصن روطبة؛ ثم تقدم إلى ألبة والقلاع، وافتتح حصونا كثيرة، وأخلى حصونا كثيرة، خوفا من مهرة العسكر، وتوقعا من تغلبه... (1).

وبعد حياة حافة بالكفاح، ومطاردة الثوار في الداخل ومقاتلة النصاري في الخارج، توفي الأمير محمد في 28 صفر سنة 272 هـ / 4 أغسطس سنة 886 م. وكان الأمير محمد - رحمه الله! - فصيحا، بليغا، عظيم الأناة، متنزها عن القبح، يؤثر الحق وأهله، لا يسمع من باغ، ولا يلتفت إلى قول زائع. وكان عاقلا، على أخلاق جميلة ومكارم حميدة، ذا بديهة وروية، يرى كل من باشره وحده أن له الفضل المستبين في إدراكه، وفهمه، ودقة ذهنه، ولطيف فطنته، وجزالة رأيه. وكان أعلم الناس بالحساب وطرق الخدمة. وكان متى أعضل منها شيء، رجع إليه فيه؛ وإذا أخل أحد من خزانة وأهل خدمة الحساب بشيء من ذلك، لم يجز عليه بأدنى لحظة أو نظرة. ولقد استدرك على بعض خزانة في صك يشتمل على مائة ألف دينار خمُس درهم؛ فرد الصك، وأمر بتصحيحه؛ فتجمع الخدمة والكتاب عليه؛ فلم يقعوا على ذلك النقصان لدقته وخفائه؛ فرجعوا إليه معترفين بالتقصير، وأعلموا الرسول؛ فرد الصك

إليه وأعلمه باعترافهم؛ فعلم لهم على موضع الخطاء؛ فإذا هو خُمُسَ درهم... وكان - رحمه الله! - أصح الناس عقلا، وأحسنهم تمييزا، وأبصرهم بوجه الرأي. وكان يستشيرنا؛ فنتعهد ونقول ونحصل؛ فإن أصبنا، أمضى ذلك؛ وإن كان في الرأي خلل، قام فيه بالحجة، وأبانه بما تعجز الأوهام عنه تنقيحا وتهذيبا... وكان - رحمه الله! - مأمولا محبوبا في جميع البلدان. وكان محمد بن أفلح صاحب تاهرات لا يقدم ولا يؤخر في أموره ومعضلاته إلا عن رأيه وأمره؛ وكذلك بنو مدرار بسجلماسة. وكان قرولش ملك إفرنجة يسترجع عقله؛ فيهاديه ويتحفه... وكان الأمير محمد - رحمه الله! - مهتمًا بأمور رعيته، مراقبا لمصالحها. ووضع عن أهل قرطبة ضريبة الحشود والبعوث... وخرج الأمير محمد بن عبد الرحمن إلى الرصافة يوما متنزها، ومعه هاشم ابن عبد العزيز؛ فكان بها صدر نهاره على لذته؛ فلما أمسى، واختلط الظلام انصرف إلى القصر، وبه اختلاط. فأخبر من سمعه وهاشم يقول له: يا ابن الخلائف! ما أطيّب الدنيا لولا الموت! فقال له الأمير: يا ابن اللخناء! لحدث في كلامك! وهل ملكنا هذا الملك الذي نحن فيه إلا بالموت؟ فلولاً الموت، ما ملكناه أبدا!... (1).

* * *

المنذر بن محمد بن عبد الرحمن

(273 - 275 هـ / 886 - 888 م)

المنذر بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم كُنِيته: أبو الحكم. مولده: سنة 229. أمه: تسمى أثل، ولدته لسبعة أشهر، وكان أسمر، جعد الشعر، بوجهه أثر جذري، يخضب بالحناء والكتم، بوبع يوم الأحد لثمان خلون من ربيع الأول سنة 273، وهو ابن أربع وأربعين سنة، وسبعة عشر يوما؛ وتوفي في بربرشتة يوم السبت للنصف من صفر سنة 275. وعمره: ستة وأربعون سنة وخلافته: سنتان إلا سبعة عشر يوما. ودفن بقصر قرطبة، وصلى عليه أخوه عبد الله، جد الناصر (2).

كان المنذر هو أقدر إخوته علي خلافة أبيه، فقد تمرس في الحكم وسياسة الناس، وقيادة الجيش ومقاتلة الثوار والنصارى، فقد كان ساعد أباه الأيمن الذي كان ينيبه في عظام الأمور، فقد أنابه لمقاتلة أخطر الثوار في عهده وهو ابن حفصون، لما يعلمه

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 106.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 113 - 114.

عنه من الشجاعة وشدة الحزم ومضاء العزم، وشدة الصرامة، ولو أطل الله عمره لضبط أمور الأندلس وأعاد لها عزها ومجدها وجدد هيبتها، ولكن عاجلته المنية وهو محاصرا لابن حفصون.

تسلم المنذر إرثا ثقيلا من المشاكل، ولم يكن من السهولة إيجاد حلول لها، فالتمزق السياسي بلغ مداه، والحركات الانفصالية أخذت تتفشي في كل الأقاليم، والمؤامرات تزحف إلى القصر وتهلك في طريقها الحرث والنسل، وقد تصيب الأمير نفسه.

ومن الأحداث الهامة في عهد الأمير المنذر أنه أرسل في السنة التي تولى الحكم فيها القائد محمد بن لب إلى ألبه والقلاع، ومعه جموع من المسلمين ففتح الله علي يديه للمسلمين، وقتلوا من المشركين قتلا ذريعا.

وفي ذات السنة 273 هـ ازدادت الجفوة بين الأمير المنذر والوزير هاشم بن عبد العزيز، وزير أبيه وخاصته، ثم أمر بقتله في جمادى الأولى، حيث كانت بينهما جفوة كبيرة. وقيل في سبب تلك الجفوة أراء كثيرة فقد قيل ان سبب الجفوة أن الوزير هاشم كان يحسده الكثير لمكانته عند الأمير محمد ولذلك سعي به عند الأمير المنذر، وقيل أن بعض الوشاة سعوا بالوزير هاشم عند المنذر وأوغروا صدره عليه، وقيل أن الوزير هاشم - عند وفاة الأمير محمد - أنشد شعرا قال فيه:

أعزي يا محمد عنك نفسي :: أمين الله ذا المنن الجسام
فهلا مات قوم لم يموتوا :: ودفع عنك لي كأس الحمام

فتأولوا أنه يريد بقوله " لم يموتوا " المنذر ولذلك بعث من قتله ليلا، وأمر بسجن أولاده وحاشيته، وصادر أمواله وهدم داره، وغرم أولاده مائتي ألف دينار، وبقوا في سجنهم إلى أن مات المنذر، وتولي بعده أخوه عبد الله الذي أطلق سراحهم، ورجع إليهم ضياعهم، وولي أحدهم الوزارة والقيادة (1).

يقول ابن عذاري: "... وفي هذه السنة، أعني سنة 273 هـ في جمادى الأولى، أمر الأمير المنذر بسجن هاشم بن عبد العزيز وزير أبيه وخاصته، وأمر بقتله في جمادى الأولى؛ وسبب ذلك أن هاشما كان يحسد لمكانه من الأمير محمد وخاصته به؛ فكانوا يسعون به عند المنذر، ويكررون ذلك عليه، حتى تنافرت الذفوس. فلما مات الأمير محمد، وولى المنذر، أراد أن يفي له ويتبع فيه فعل أبيه؛ فولاه الحجابة.

ثم تمالؤوا عليه، وأمثروا، وحرفوا عليه الكلام، وتألوا عليه أقبح التأويل، حتى نفذ قضاء الله فيه. وكان مما تألوا عليه أن هاشما أنشد عند مواراة الأمير محمد - رحمه الله! -:

أَعَزَّى يَا مُحَمَّدُ عَنْكَ نَفْسِي أَمِينُ اللَّهِ ذَا الْمِنَنِ الْجِسَامِ
فَهَلَّا مَاتَ قَوْمٌ لَمْ يَمُوتُوا وَدُوفِعَ عَنْكَ لِي كَاسُ الْحِمَامِ
فتألوا أنه يريد بقوله " لم يموتوا " المنذر. وكتب هاشم من حبسه إلى جاريته عاج:

وَإِنِّي عَدَانِي أَنْ أُرْزِكَ مَطْبَقٌ وَبَابٌ مَنِيعٌ بِالْحَدِيدِ مُضَبَّبٌ
فَإِنْ تَعَجَّبِي يَا عَاجُ مِمَّا أَصَابَنِي فَفِي رَيْبِ هَذَا الدَّهْرِ مَا يُتَعَجَّبُ
تَرَكْتُ رَشَادَ الْأَمْرِ إِذْ كُنْتُ قَادِرًا عَلَيْهِ فَلَا قِيَتُ الَّذِي كُنْتُ أَرْهَبُ
وَكَمْ قَائِلٌ قَالَ: أَنْجُ وَيْحَكَ سَالِمًا فَفِي الْأَرْضِ عَنْهُمْ مَسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ
فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ الْفِرَارَ مَذْلَةٌ وَنَفْسِي عَلَى الْأَسْوَاءِ أَحْلَى وَأَطْيَبُ
سَأَرْضِي بِحُكْمِ اللَّهِ فِيمَا يُنَوِّبُنِي وَمَا مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ لِلْمَرءِ مَهْرَبُ
فَمَنْ يَكُ أَمْسَى شَامِنًا بِي فَإِنَّهُ سَيَنْهَلُ فِي كَاسِي وَشَيْكَأَ وَيَشْرَبُ

ثم بعث فيه الأمير ليلاً؛ فقتله، وسجن أولاده وحاشيته، وانتهب ماله، وهدم داره، وألقى أولاده في السجن، وألزمهم غرم مائتي ألف دينار؛ فلم يزالوا في السجن والغرم إلى موت المنذر وولاية أخيه عبد الله؛ ثم أطلقهم عبد الله، وصرف عليهم ضياعهم، وولى أحدهم الوزارة والقيادة.

وكان الأمير المنذر قد شمر عن ساعد الجد في مقاتلة ابن حفصون، ولكن لم يطل به لجل حتي يمضي قسمه وعزمه في القضاء عليه إذ وافته المنية وهو يحاصره.

كان الأمير المنذر - رحمه الله! - يحب إخوته، ويكرمهم، ويدنى مجالسهم، ويصلهم، ويدخرهم مجالس أنسه. وكان يجزل العطاء للشعراء؛ فينشدونه غازيا وراجعا. وكان من شعرائه أحمد بن عبد ربه، والعكي، وغيرهما. ولم يكن أحد من الخلفاء قبله مثله شجاعة وصرامة وعزما وحزما. ولقد بلغ في سنة بذلك ما لم يبلغه غيره في الدهر. ولقد كان أبطال الرجال وأنجادهم من أهل الفتنة يذعنون إليه دون محنة، ويرسلون إليه بالطاعة قبل أن يطلبها. وإن الخبر المستفيض عن الشيوخ أنه، لو عاش المنذر عاما واحدا زائدا، لم يبق برية منافق؛ وأخباره تدل على ذلك. وأول

أخباره الدالة على ذلك أنه، لما أتاه موت أبيه، لم يمنعه ذلك من التعرّيج عن القصد واختصار الطريق، ولا شغله أمر مهم ولا أمر جليل عن آخر؛ فجعل طريقه على رية؛ فهذب أمورها، وولى عليها سليمان بن عبد الملك بن أخطل، وعبد الرحمن بن حريش، وأدخل معهما أهل المعاقل من العرب والحشم. ثم جمع في يوم ولحد مبايعته، وإعطاء الجند، والنظر فيما أسقط من الأزيمة عن الرعية، وما فعله من الاستحسان إلى أهل قرطبة بإسقاط العشور عنهم، والنظر في الدّنب وإخراج القائد. وهكذا كان فعله في جميع أسبابه؛ ويحسب ذلك كان انقياد الأشياء له... (1).

عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (275 - 300 هـ / 888 - 912 م)

هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم، ولد في النصف من ربيع الآخر سنة 229 هـ / 843 م. أمه: تسمى بهار وقيل: عشار، بويع في اليوم الذي مات فيه أخوه المنذر في المحلة على بربشتر، وذلك يوم السبت في النصف من شهر صفر سنة 275 هـ / 888 م. ثم قفل إلى قرطبة بأخيه المنذر ميتاً؛ فاستتم البيعة بقرطبة، ودفن أخاه بعدها. وتوفي عبد الله سنة 300 هـ / 912 م، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة؛ فكانت خلافته خمسا وعشرين سنة، وخمسة عشر يوماً (2).

عندما أفضت إليه الإمارة كانت البلاد تموج بالفتن، وفرقها الشقاق، وكثر فيها الخارجون عن الدولة المتغلبون عليها، واستمر ذلك طوال مدة ولايته، وقد تألب علي المسلمون أهل الشرك، ومن ضاهاهم من أهل الفتنة الذين جردوا سيوفهم علي المسلمين، فصاروا بين قتيل ومحروب ومحصور يعيش مجهوداً، يمت هزلاً، قد انقطع الحرث، وكاد ينقطع النسل... ومن قول ابن عبد ربه فيه:

خِلَافَةُ عَبْدِ اللَّهِ حَجٌّ عَلَى الْوَرَى :::: فَلَا رَفَثٌ فِي عَصِرِهِ وَفُسُوقٌ
تَجَلَّتْ دِيَاجِي الْحَيْفِ عَنْ نُورِ عَدْلِهِ :::: كَمَا ذَرَفَ فِي جَنَحِ الظَّلَامِ شُرُوقُ
وَنَثَقَفَ شَهْمُ الدِّينِ بِالْعَدْلِ وَالتَّقَى :::: فَهَذَا لَهُ نَصْلٌ وَذَلِكَ فَوْقُ
وَأَعْلَنَ أَسْبَابَ الْهُدَى بِضَمِيرِهِ :::: فَلَبَسَ لَهُ إِلَّا بِهِنَّ عُلوُقُ
وَمَا عَاقَبَهُ عَنْهَا عَوَائِقُ مُلْكِهِ :::: وَأَمَثَلُهَا عَنْ مِثْلِهِنَّ تَعُوُقُ

وأفضت الخلافة إليه، وقد تحيفها الذكث، ومزقها الشقاق، وحل عراها الذفاق؛

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 116.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 120.

والفتنة مستولية، والدجنة متكاثفة، والقلوب مختلفة، وعصى الجماعة متصدعة، والباطل قد أعلن، والشر قد اشتهر؛ وقد تمايلا على أهل الإيمان حزب الشيطان؛ وصار الناس من ذلك في ظلماء ليل داج، لا إشراق لصباحه، ولا أقول لنجومه. وتألب على أهل الإسلام أهل الشرك ومن ضاهاهم من أهل الفتنة، الذين جردوا سيوفهم على أهل الإسلام؛ فصار أهل الإسلام بين قتيل ومحروب ومحصور، يعيش مجهودا، ويموت هزلا؛ قد انقطع الحرث، وكاد ينقطع النسل. ففاضل الأمير بجده، وحمل بجده، وجاهد عدو الله وعدوه. وانقطع الجهاد إلى دار الحرب، وصارت بلاد الإسلام بالأندلس هي الثغر المخوف؛ فكان قتال المنافقين وأشباههم أوكد بالأسنة، وألزم بالضرورة... “ (1).

* * *

الثورات في عهده

ومن أهم الثورات التي شهدتها عصره ثورة ابن حفصون التي أطلقت مضجع الإمارة في الأندلس، وقد فصلنا الحملات التي شنّها الأمير عبد الله علي ابن حفصون في سابق الصفحات.

وفي سنة 276 هـ / 889 م ثار عليه أبو يحيى محمد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز المعروف بالأنقر، وفيها أيضا ثار أهل جيان وأخرجوا عاملها عباس بن لقيط وملكها ابن شاعر فأرسل إليهم الأمير عبد الله قائده ابن أبي عبدة في سنة 277 هـ / 890 م فحاصر جيان وحارب ابن شاعر وقتل جماعة من أصحابه، ثم استطاع ابن حفصون قتله، ليتقرب بذلك إلى الأمير عبد الله ويبحث براسه إليه، ثم توجه ابن حفصون إلى جيان وأغرم أهلها الأموال الجسيمة، وبقيت جيان والديرة مدة دون عامل من الأمير (2).

وقد أورد ابن عذاري الفتن والثورات التي قامت في عهد الأمير عبد الله ما نصه...

* * *

جملة الثوار ببلاد الأندلس في أيام الأمير عبد الله

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 121.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 122، 123.

الخارجين عن الجماعة المضرمين لنار الفتنة

وثار سَوَّار بن حمدون بحصن منت شاعر؛ فقام إلى جعد عامل البيرة بمن معه؛ فهزم جمعه، وأخذ أسيرا، وأراه يوما عسيرا. ثم أطلقه من عقاله، وعمه بإفضاله، وانصرف إلى البيرة بلده، ومقر أهله وولده. وسار سوار إلى غرناطة، وأغار على حصون ابن حفصون؛ فاجتمع أهل البيرة في نحو ثلاثة وعشرين ألفا؛ فلقبهم سَوَّار في عدد قليل؛ فلاذوا بالفرار والنفور، وصاروا كالهباء المنثور؛ ونيطت بهم الحتوف كسفا، وقتل منهم على ما ذكر اثنا عشر ألفا، وذلك في سنة 276. وكانت بين سَوَّار هذا وابن حفصون ملاقة انقلب فيها ابن حفصون مهزوما، وتولى ملوما مذموما، قد أثقل بالجراح، وقتل قَوَّاده في ذلك الكفاح. وكان جعد الثائر بالبيرة منفقا مع ابن حفصون على النفاق، منعقدا معه على الفساد في تلك الآفاق؛ فأعمل جعد الحيلة في الغدر بسوار جهده، وأظهر في ذلك نصبه وجهده؛ فأغار على جهته يوما، وقد أكنم هنالك قوما. وخرج هو بنفسه في نفر يسير؛ فاكتسح وأغار، وأنجد في الجهة وغار. وظن سَوَّار أن ليس وراءه أجناد تنجده، ولا أمداد تمده؛ فبز إليه بأهل المكان، وقد أيقن بالظفر والإمكان. فلما انبسط من هنالك كالفرخ الأشر، ثارت الكمائن عليه كالجراد المنتشر، وأحدقت الخيل بسوار؛ فقتل تقتيلا، وعاد عسكره مهزوما مفلولا. وأرسل جعد صاحب البيرة إلى ابن حفصون برأس سوار، وأعلمه بالكبت الشامل لأعدائهم واليوار.

وثار سعيد بن جودي في ذلك التأريخ بالعرب، وعارض ابن حفصون بالحرب والحرب، حتى أغصه بريقه، وضايقه في سبيله هناك وطريقه؛ فرجع ابن حفصون إلى الحيلة فيه والكيد، إذ عجز عنه بالقوة والأيد، حتى قبض عليه، وصار أسيرا لديه، وأقام عنده بببشتر شهورا مكبولا، إلى أن قبل فيه ابن حفصون مالا جزلا قبولا؛ فأطلقه من وثاقه؛ فجذ في خلافه على الأمير عبد الله وشقاقه، إلى أن مكر به مكرًا، وقتل في دار عشيقه له يهودية غدرا. وتولى أمر العرب بجانب البيرة محمد بن أضحى؛ فأمسى على طاعة الأمير عبد الله وأضحى؛ فناصر ابن حفصون الحرب، وعارضه بالطعن والضرب، إلى أن ظفر به ابن حفصون في تلك المسالك، وصار عنده أسيرا هنالك؛ ففداه العرب منه بمال جسيم، ومشى من طاعة الأمير على منهاج قويم.

وثار العرب بإشبيلية ثورة، وقبضوا على عاملها عنوة، وانتهبوا طارفه ومشلده، ولم يتركوا إلا أهله وولده، وقتلوا كثيرا من أعوانه، وعانوا ما شأوا في سلطانه؛

فاجتمعت العساكر من قرمونة وسائر الأقطار، وأحاطت بإشبيلية إحاطة الفلك الدوار؛ فغلبوا على القائمين فيها. وقتلوا منهم فرقة؛ فكانت الواقعة المعروفة بالدعقة.

وتغلب إبراهيم بن حجاج على إشبيلية تغلباً، ونصب لأحواز قرطبة منها حرباً وحرباً؛ وارتبط مع ابن حفصون على العبث التام، والاحتلال بقرطبة في ذلك العام. وتغلبا على الحصون والقلاع، وجدا في الكفاح والقراع، إلى أن انتقض ما بينهما من السلم المنتظم، والعهد المحكم المذبرم. وصالح ابن حجاج الأمير عبد الله؛ فأقره بإشبيلية، وصرف إليه زمامها، وأوقف عليه أعمالها وأحكامها.

وثار دبسم بن إسحاق، وغلب على مدينتي لورقة ومرسية، وما يليهما من كورة تدمير. وكان مودودا من طبقات الناس، رفيقا برعيته، جوادا، منتجعاً، له إفضال على الشعراء والأدباء.

وثار عبيد الله بن أمية، وملك كورة جيان، ودخل حصن ابن عمر وغيره. ومنهم، عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقي، اقتعد مدينتي بطليوس وماردة؛ ففارق الجماعة، وجاور أهل الشرك، ووالاهم على أهل القبلية.

ومنهم، عبد الملك بن أبي الجواد، اقتعد مدينة باجة وملكها، وتحصن بحصن مارنلة، وله حظ من المنعة تشييدا وعدة. وكان معاقدا لابن مروان، صاحب بطليوس في هذا التاريخ، وابن بكر صاحب أكشونبة؛ فكانوا متأيين على من خالفهم.

وثار ابن السديم، وهو منذر بن إبراهيم بن محمد بن السليم، بمدينة ابن السليم، المنسوبة إلى جده، من كورة شذونة؛ فاقتصد في سيرته، ولم يظهر نبذ الطاعة، إلى أن قتله مملوك له يسمى غلنده. وخلفه وليد بن وليد، وصار إلى الطاعة عند هبوب ريحها بالخليفة عبد الرحمن الناصر.

ومنهم، محمد بن عبد الكريم بن إلياس، امتنع بقلعة ورد من كورة شذونة، وسعى للفتنة سعيه، وتمادى، حتى استنزل الناصر فيمن استنزل من الدُّوَار. ومات بقرطبة.

وثار خير بن شاعر بحصن شوذر من كورة جيان، وظاهر زعيم الثوار عمر ابن حفصون؛ ففتك بخير المذكور، وأرسل برأسه إلى الأمير عبد الله.

ومنهم، عمر بن مضم الهترولي المعروف بالملاحى؛ وكان جنديا متدونا عند العامل بحضرتها؛ فوثب عليه؛ فغدره، وضبط القصبية.

ومنهم، سعيد بن هذيل. كانت ثورته بحصن المنتلون من كورة جيان؛ فبنى

قصبته، وحصنها، وأعلن بالخلاف، حتى استنزل الناصر؛ فلاحق بقرطبة إلى أمات.

وثار سعيد بن مستنة بكورة باغة، واقتعد حصونها؛ فاستفحل أمره وشره، وعمّ أذاه واصطفى من حصونها التي ظهر عليها أربعة لا مثيل لها في الحصانة والمنعة. وثار بنو هابل الأربعة: أكبرهم منذر بن حريز بن هابل، وأخوه أبو كرامة هابل بن حريز، وأخوه عامر، وأخوه عمر؛ ثاروا ببعض حصون جيان في أيام الأمير عبد الله، وخلعوا طاعته، وأطلقوا الغارة، وأطلعوا أهل الفساد. ثم استنزلوا؛ فنزلوا على حكم الأمان؛ فحسنت طاعتهم وخدمتهم.

وثار إسحاق بن إبراهيم بن عطف العقيلي بحصن متنيشة؛ فبناه وحصنه وامتنع به، إلى أن استنزل الخليفة الناصر إلى قرطبة؛ وبها توفي.

ومنهم، سعيد بن سليمان بن جودي؛ أمرته عرب إغرناطة والبيرة؛ فضبط أمرهم، حتى دبر عليه كبيران منهم بحيلة؛ فقتلاه بها. فلم ينتظم للعرب هناك أمر بعده.

وثار محمد بن أضحى بن عبد اللطيف الهمداني، من أكابر أبناء العرب بكورة البيرة، إلى أن هلك الأمير عبد الله؛ فاستنزل الناصر لدين الله عن حصنه، فيمن استنزله من الثوار. وكان ابن أضحى هذا مع رجوليته أديبا بليغا، يقوم بين أيدي الأمراء في المحافل، فيحسن القول، ويطيب الثناء. وله أخبار معروفة.

وثار بكر بن يحيى بن بكر، واقتعد مدينة شنت مرية من كورة أكشونية، وبناها حصنا اتخذ عليها أبواب حديد. وكان له ترتيب وأهبة، ورجال شجعان، وعدة موفورة. وكان يتشبه - بزعمه - في سلطانه بإبراهيم بن حجاج. وكان له أصحاب للرأي وكتاب للعمل. وكان له عهد مؤكد إلى جميع من في طاعته بإضافة أبناء الأسبيل، وقراء التنزيل. وحفظ المجتازين؛ فكان الأسالك بناحيته كالأسالك بين أهله وأقاربه.

وثار ابنا مهلب، من وجوه قبائل البربر بكورة البيرة؛ وهما خليل وسعيد؛ ثارا ثورة نظرائهما بجهتهما؛ فأقاما على سبيلهما إلى أن استنزل الناصر أولادهما بعد وفاتهما.

وثار سليمان بن محمد بن عبد الملك الشذوني بشريش شذونة؛ وهو الذي بنى نبريشة وحصنها.

وثار ابننا جرج بحدصن بكور؛ ففسدت سيرتهما؛ فأخرجنا عن الحصن. فمات عبد الوهاب، ولحق محمد بن عبد الرحمن بن جرج بابن الشالية؛ وكان مصافيا له؛ فتقبله، واستخدمه، وبنى له حصن مورينة من كورة جيان؛ فأقام فيه إلى أن استنزله الناصر ونقله إلى قرطبة.

وثار أبو يحيى النجيبى المعروف بالأنقر بمدينة سرقسطة وأعمالها، وقتل أحمد بن البراء القرشي عامل الأمير على سرقسطة، واستولى عليها؛ وأظهر التمسك بطاعة الأمير عبد الله، وخاطبه، وهو ينسب ابن البراء إلى الخلاف. فأظهر الأمير تصديقه، وسجل له على سرقسطة. فثبت بها قدمه.

وفي سنة 283، أخرج الأمير عبد الله على العسكر هشام بن عبد الرحمن بن الحكم إلى كورة تدمير، في أواخر ربيع الأول. وكان القائد معه على الجيش أحمد بن أبي عبدة. ولما احتل بوادي بلون، تقدم قطيع من الخيل؛ فافتتح هنالك حصنا، وغنم ما كان فيه. وتوافت على العسكر حشود أهل الكور. ثم انتقل وطوى المراحل حتى حل بمرسية. ثم انتقل إلى لورقة. فخرج إليه ديسم بن إسحاق؛ فحاربه؛ فهزم ديسم؛ ورجع إلى لورقة وأقام محاصرا حتى قفل عنه العسكر. ثم خرج ديسم بمن معه؛ فضرب في الساقة؛ فرجع إليه؛ فهزم واتبع حتى اشتغاث بالوعر ونجا راجلا، وأخذ فرسه. وقفل العسكر سالما. وفقد في هذه الغزاة الماء، ومات فيها اثنان وثلاثون رجلا عطشا، وهلكت دواب كثيرة.

وفي سنة 284، أخرج الأمير عبد الله ابنه أبان إلى لبلة. وكان ابن خصيب بحدصن منت ميور، وكان قد ثار به؛ فحاصره، ونصب عليه المجانيق، ورماهم بها حتى ضجوا ودعوا إلى الطاعة؛ وانعقد أمانهم. وفي خلال ذلك، دخل ابن حفصون إسنجة الدخلة الثانية؛ فورد كتاب الأمير باستعجال القفول بسبب إسنجة؛ فقفل العسكر. وكانت مدة هذه الحركة شهرين ونصفا، وهي أول حركة أبان.

وفي سنة 285، غزا أبان ابن الأمير عبد الله إلى ابن حفصون، والقائد ابن أبي عبدة.

وفيهما أيضا، غزا عباس بن عبد العزيز إلى حصن كركي وجبل البرانس؛ وقتل ابن بامين وابن موجول، وأخذ حصونهما.

وفيهما، تقدم لب بن محمد بن طليطلة إلى ديز جيان، ونازل حصن قسكلونة؛ وكان فيها نصارى يحاربون عبيد الله بن أمية المعروف بابن الشالية؛ فأخذ الحصن،

وقتل العجم. ووافاه فيه قتل أبيه محمد بن لبّ في محاصرته لسرقسطة.

وفيها، كانت المجاعة الشديدة التي سميت السنة 285 بها سنة لم أظن.

وفي سنة 286، أظهر ابن حفصون النصرانية؛ وكان قبل ذلك يسرها؛ وانعقد مع أهل الشرك وباطنهم، ونفر عن أهل الإسلام، وناذهم؛ فتبرأ منه خلق كثير. وناذ عوسجة بن الخليع، وبنى حصن قنيط، وصار فيه مواليا للأمير عبد الله، محاربا لابن حفصون. واتصلت عليه المغازي من ذلك الوقت، ورأى جميع المسلمين أن حربهم جهاد؛ فتتابعت عليه الغزوات بالصوائف والشواني، ولا بني القواد عنه في الحل والترحال. وفي ذلك قال ابن فلزم للقائد ابن أبي عبدة:

فَفِي كُلِّ صَيْفٍ وَفِي كُلِّ مَشْتَى :: غَزَاتِنِ مِنْكَ عَلَى كُلِّ حَالٍ
فَتِلْكَ تُبِيدُ الْعَدُوَّ وَهَذِي :: تُفِيدُ الْإِمَامَ بِهَا بَيْتَ مَالٍ

وفي سنة 287، كانت الصائفة مشجولة ما بين كورة موزور وكورة شذونة وكورة رية.

وفيها، قتل القائد ابن أبي عبدة طالب بن مولود الموروري.

وفيها، صلب إسحاق وصاحبه؛ وكانا من رجال ابن حفصون؛ وفيهما جرى المثل في الناس: غررتني يا إسحاق! وذلك أن أحدهما قال هذه الكلمة لصاحبه، وهو يرفع في الخشبة.

وفي سنة 288، قبضت رهائن ابن حفصون. وتجولت الصائفة بشذونة وغيرها من الكور.

وفيها، عظم السيل بقرطبة، وانهدم رجل من قنطرتها.

وفيها، خرج من قرطبة أحمد بن معاوية ابن الإمام هشام إلى فحص البلوط. ثم تقدم إلى ترجيله؛ فأقام فيها مدة يسيرة. واندشدت إليه الدشود؛ فدخل إلى سمورة وبها قتل في شهر ربيع الأول.

وفي سنة 291، كان غزو أبان ابن الإمام عبد الله - رحمه الله - إلى رية؛ وقاد الخيل أحمد بن محمد بن أبي عبدة. وفصل يوم الخميس لخمس خلون من جمادي الآخرة؛ ونهض حتى احتل بوادي نسقانية، واضطرب في هذه المحلة. وخرج إليه عمر بن حفصون؛ ثم التقيا؛ فوقع بينهما حرب شديدة؛ ثم انكشفت الهزيمة على أصحاب ابن حفصون؛ فقتل منهم عدد كثير؛ ثم أضرم قرى وادي نسقانية وما حوالها نارا. ثم انتقل وحل على وادي بينش المجاور لبشتر، ووقعت الحرب بين

أهل العسكر وبين ابن حفصون؛ فانهزم ابن حفصون، وقتل له رجال، وعقرت له خيل. واتصل الحريق في جميع قرى تلك الناحية. ثم انتقل إلى محلة طلجيرة؛ فأقام بها أياما، يحارب فيها ابن حفصون كل يوم، وينال منه. وفي هذه الأيام، أحرقت مذبة لجعفر بن عمر بن حفصون. وفي هذه الغزاة، حوربت طرش والرجل، وقتل أخو زيني وجماعة من حماة ابن حفصون. ونصب المنجنيق على الرجل؛ فأثر فيه وثلم في سوره. ثم تقدم القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة من حصن لوشة إلى حصن الخشن، في جرائد الخيل، وأبقى أبان ابن الإمام عبد الله - رحمه الله - معسكرا بمحلة لوشة؛ فحارب حصن الخشن، وقتل عددا من أهله، وأسر منهم جماعة، وانصرف بالرووس والأسرى إلى لوشة. ثم قفل بالعسكر، ودخل قرطبة يوم الجمعة لخمس بقين لرمضان؛ فكانت هذه الغزاة ثلاثة أشهر وعشرين يوما.

وفيها، خرج لبُّ بن محمد إلى بايش من أحواز آلبة، وذلك في رمضان؛ فافتتح حصن بايش وما يليه، والعلاج إذفنش يومئذ على حصن غزنون محاصرا لأهله. فلما بلغه دخول لبُّ بن محمد بحصن بايش، ولَّى هاربا.

وفيها، ثم في ذي الحجة، خرج لبُّ بن محمد إلى ناحية بليارش؛ فافتتح حصن لحروسه، وحصن إيلاس، وحصن قشتيل شنت، وحصن مولة، وقتل بهذه الحصون نحو من سبعمائة علج، وسبى بها نحو من ألف سبية.

وفي سنة 292، كان خروج الصائفة إلى عمر بن حفصون. وتجوّل العسكر على حصونه؛ فهتك بعضها. وقوطع البعض على وظيف يودونه. وفيها، كانت الوقعة العظيمة على عمر بن حفصون بوادي بلؤون من جيان. وكان قد توافى إليه أهل الخلاف والخلعان، وخرج مغيرا على المسلمين؛ فهزمه الله، وقتل كثيرا ممن كان معه. وأدبره في شردمة قليلة، وأفنى أكثر رجاله في ذلك المعترك.

وفيها، خرج لبُّ بن محمد لمحاصرة مدينة سرقسطة، وأخذ في ردم الخندق المجاور لسورها وشرع في البنيان عليها. فلما كمل له ردم الخندق وبنيان ما فيه، رحل عنه وأدخل ندبة فيه من رجاله.

وفيها، توفي عبد الله بن قاسم بن هلال؛ وكانت له رحلة؛ وأدخل الأندلس كتب داود العباسي وغيره.

وفي سنة 293، كان خروج الصائفة إلى فهر بن أسد، وهو بحصن تشّ من كورة جيان؛ فافتتح الحصن، وأخذ فهرا أسيرا، وقدم به إلى قرطبة؛ فأمر الإمام عبد

الله - رحمه الله - بصلبه عند القصابين في بيع الآخر.

وفي جمادى الآخرة، دخل القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة حصن قنيط من تآكرنا، وندب فيه جيشاً، واستنزل من كان فيه من بني الخليع، وأدخل فيه الحشم. وفيها، قتل يحيى بن قسي، ومحمد بن إسماعيل، وأيوب ابن سليمان بطليطلة وفي سنة 294، كان غزو أبان ابن الإمام عبد الله - رحمه الله - الصائفة إلى الجزيرة. وقاد الخيل أحمد بن محمد بن أبي عبدة، وحل بالجزيرة يوم الجمعة لتسع بقين من رجب. ثم تقدّم إلى حصن لوزة يوم السبت لانسلاخ رجب؛ فحارب الحصن وحاصره، وقتل جماعة ممن فيه؛ ثم تقدم إلى حاضرة رية، فيها مساور بن عبد الرحمن؛ فأحرقت أرباض الحاضرة وحوصر من كان فيها؛ فدعا مساور إلى السلم، وبذل الرهائن. فأجيب إلى ذلك، وقبضت رهائنه؛ ثم تقدم القائد إلى الساحل؛ فجال عليه أجمع، وخرج على حصون البيرة، وقفل منصرفاً إلى قرطبة؛ فدخلها يوم السبت لليلتين خلتا من ذي القعدة.

وفيها، خرج لبُّ بن محمد إلى جانب بنبلونة؛ فبذل في تهوره، وشرع في البنيان بحصن هريز؛ فحشد إليه العلج شانجه جميع أهل بلده، وكأيدته بالمكامن؛ ثم وجه إليه خيلاً يسيرة؛ فلما سمع الصيحة، بدر إلى الركوب؛ فلقى بكمين، فهزمه؛ ثم بكمين، فهزمه؛ ثم أهدقت به الكمائن. فقتل وقتل من كان معه، ممن آثر الشهادة؛ وذلك في ذي الحجة لاثنتي عشرة ليلة بقيت منه. فنزل طليطلة أخوه عبد الله بن محمد. وكان لبُّ، يوم قتل، ابن ثمان وثلاثين سنة.

وفيها، ظهر محمد بن عبد الملك الطويل في الثغر، ودخل حصن بربرشتر وحصن القصر وحصن بربطانية.

وفي سنة 295، كان غزاة أبان ابن الإمام عبد الله - رحمه الله - بالصائفة إلى جهة رية؛ وقاد الخيل أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي عبدة؛ فقصده ببشتر، وحارب ابن حفصون، ونكاه، وأنزل به، وحارب ما حواليه من الحصون.

وفيها، غدر سعيد بن الوليد المعروف بأبن مستنة، وتخلّى عن حصن بلدة إلى عمر ابن حفصون، وظافره، وأبدى ما كان بصميره من العصيان.

وفيها، ولي المدينة محمد بن عبيد الله بن أبي عثمان، وذلك يوم خميس؛ فاستغفى عنها؛ فأعفى يوم الجمعة ثاني ولايته، وولى مكانه عليُّ بن محمد المعروف بالباسة؛ وكان عليها ثلاثة أيام. ثم عزل وأعيد إليها موسى بن حدير؛ فكان والياً عليها إلى

آخر أيام الإمام عبد الله؛ وأقره أمير المؤمنين - رحمه الله - إلى سنة 303. وفيها، دخل محمد بن عبد الملك الطويل حصن منتشون ومدينة لاردة في المحرم.

وفيها، دخل محمد بن عبد الرحمن النجيبى مدينة شبة. وفيها، خرج محمد بن عبد الملك الطويل إلى بربطانية؛ فافتتح حصونا جمة، وسبى سبيا كثيرا.

وفيها، توفي الفقيه يحيى بن عبد العزيز بن الجرّار، والفقيه محمد بن غالب بن الصفار، ومحمد بن يحيى بن أبي غسان صاحب السوق. وولى أذكام السوق يحيى بن سعيد بن حسان.

وفي سنة 296، كان غزو أبان ابن الإمام عبد الله بالصائفة إلى حصون رية وغيرها. وقاد الخيل معه أحمد بن محمد بن أبي عبدة؛ فقصدا ناحية بهشتر، ونازل ابن حفصون، وحاربه ونكاه، وتحرك عيسى بن أحمد القائد غازيا إلى حصون سعيد بن مستنة؛ فنأزله أيضا، حتى قفل القائد أحمد ابن محمد من بهشتر. ثم نازل حصن لك من حصون ابن مستنة؛ فأقام عليه حتى افتتحه.

وفيها، خرج محمد بن عبد الملك الطويل إلى بليارش في شهر رمضان؛ فقتل هنالك مقتلة عظيمة. ووفد عليه رسل أهل حصن روضة، يرغبون الصلح ويسمحون بالرهائن والجزية؛ فلم يجبههم إلى ذلك؛ فخرجوا هاربين من الحصن، وأخلوه. وتقدم إليه؛ فهدمه. وفيها، تغلب على حصن منت بطروش، وهو المعروف بجبل الحجارة.

وفيها، توفي محمد بن سليمان بن تليد المعافري قاضي مدينة وشقة.

وفي سنة 297، كان غزو العاصي ابن الإمام عبد الله - رحمه الله - الغزاة المعروفة بغزوة رية وقريرة. وقاد الخيل أحمد بن محمد بن أبي عبدة. وفصل يوم الخميس لتسع بقين من شعبان؛ فتقدم إلى بلدة؛ فحاربها. ثم احتل على نهر طلجيرة؛ فدارت بينه وبين أصحاب ابن حفصون حرب، عقرت فيها خيل السلطان، وقتل عدد من أصحاب ابن حفصون. ثم تقدم إلى حصون البيرة؛ فنزل على حصن شبيلش؛ فكانت هنالك حرب شديدة، ونالت بعض دماء العسكر جراح. وتجول في كورة البيرة، وحل بمدة بجانة؛ ثم قفل على كورة ديان؛ فنزل حصن المنتلون يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من ذي القعدة؛ فأقام عليه محاصرا أياما؛ ثم ضحى فيه يوم الأحد، وقفل يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، ودخل قرطبة يوم

الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من ذي الحجة.

وفيها، افتتحت بياسة؛ واستنزل منها محمد بن يحيى بن سعيد بن بزيل.

وفيها، اجتمع عمر بن حفصون، وسعيد بن مستنة، وسعيد بن هذيل، وضمهم عسكر واحد؛ فضربوا بناحية جيان وأغاروا؛ فأصابوا وغنموا، وانصرفوا إلى حصن جريشة؛ فاتبعهم القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة؛ فلحقهم، وهزمهم، وقتل جماعة منهم، فيهم تسريل العجمي من قواد ابن حفصون.

وفيها، افتتح القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة حصن الزبيب، وابتنى حصن ترضيض تضييقا على ابن هذيل، وحصن قلعة الأشعث، ووضع فيه ندبا من الرجال. وشتى القائد هذه السنة بجبل أرنيش من كورة قبرة. وكانت له في هذه الشتوة حركات بالغت في نكاية أهل النفاق.

وفيها، خرج محمد بن عبد الملك الطويل إلى بار بليارش؛ فافتتح حصن أوربواله، وأصاب من المشركين ثلاثمائة سبية، وقتل كثيرا منهم، وهدم الحصن وحرقه. وتقدم إلى حصني علنير والخبران؛ فهدمهما. وكان مبلغ الفياء في هذه الغزاة ثلاثة عشر ألفا.

وفي سنة 298، خرج العاصي ابن الإمام عبد الله - رحمه الله - بالصائفة. وقاد الخيل أحمد بن محمد بن أبي عبدة؛ فقدم إلى حصن بيشتر وغيره من حصون الساحل بكورة رية. ثم تقدم بالعسكر إلى كور البيرة؛ فحطم زرعها، وهشم ثمارها.

وفيها، أقام عيسى بن أحمد بن أبي عبدة في طقيع من الخيل بمدينة بيانة؛ فأغار عمر ابن حفصون وسعيد بن مستنة في بسيط قبرة وقرى قرطبة. وأخذوا الغنائم؛ فخرج عيسى بن أحمد طالبا لهما؛ فالتقى بهما على نهر ألبة؛ فدارت بينهم حرب شديدة، وإنهزم عمر بن حفصون وابن مستنة؛ فقتل من أصحابهما خلق كثير، واقتروا أيادي سبا. وبعث عيسى بن أحمد من رؤوسهم عددا كثيرا.

وفيها، غزا الوزير عباس بن عبد العزيز إلى مدينة قلعة رباح؛ وكان أهلها قد خالفوا، وخلعوا الطاعة؛ فافتتحها. وكان فضل بن سلمة، ختن سعيد ابن مستنة، قد خالف بحصن أشر؛ فتقرب أهل حصن أشر بقتله إلى الإمام عبد الله - رحمه الله! - فقدم منهم قوم برأسه إلى باب السدة؛ فشكر لهم ذلك.

وفيها، خرج عباس بن أحمد بن أبي عبدة قائدا على خيل كثيفة إلى المذشلون لحرب سعيد بن هذيل. وفيها، تداعى البربر الطنجيون الذين كانوا غزوا مع القائد

أحمد بن محمد بن أبي عبدة إلى النزوع إلى مدينة بلدة إلى ابن حفصون؛ وتداعى الطنجيون الذين كانوا مع عباس بن أحمد على المنتلون إلى النزوع إلى ابن هذيل؛ فخرجوا عن العسكر، ولحقوا بأهل الكفر والخلعان. ثم دارت الدائرة على هؤلاء وهؤلاء في الموضعين جميعاً لأمر أحدثوها، واستدرجهم الله - عز وجل - بها؛ فقتلوا ببهشتير والمنتلون. وعاد من بقي منهم إلى الطاعة. وكان صاحب الصائفة العاصي ابن الأمير عبد الله؛ وكان فصوله لهذه الغزاة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شعبان، وهو يوم النصف من أبريل. وكانت في هذه الغزاة أمراض ووباء.

وفيها، خرج محمد بن عبد الملك الطويل إلى أرغون يريد بنبلونة وأن يجتمع هنالك مع عبد الله بن محمد بن لب. فانتهى إلى حصن البربر؛ فأحرق ما حوالاه، وهدم كنائس تلك المواضع، وذلك في شهر رمضان. وخرج عن ملاقة ابن لب وعن القصد إلى بنبلونة، وانصرف؛ فاحتل حصناً من حصونه يعرف بشار قشتيله؛ فأنذر بأن ابن شانجة يريد الهجوم عليه؛ فخرج في بعض أصحابه متسللاً. فلما أيقن أهل العسكر بهروب ابن الطويل، تخاذلوا؛ فكان سبباً لانتهزام أهل الحصن. فلما بلغ عبد الله بن لب الخبر، وأن ابن الطويل كر عن ملاقة شانجه، نزل بمن معه من المسلمين على حصن لوازة من حصون شانجه؛ فقتل جماعة منهم وكر راجعاً؛ فالتقى ببعض الخيل التي كان فيها شانجه؛ فقتل فيهم وسبى.

وفي سنة 299، كان غزاة القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة إلى حصن فننجاله من حصون ابن هذيل، بالقرب من جبل المنتلون، وذلك في صدر المحرم؛ فحاصره أشد الحصار، حتى افتتح الحصن.

وفيها، غزا بالصائفة أبان ابن الإمام عبد الله - رحمه الله - وقاد الخيل عباس بن عبد العزيز الوزير. وفصل يوم الاثنين لتسع بقين من شعبان، وقصد حصن ببشتير، وحارب ابن حفصون، وأوقع به. ثم خرج بإثره أحمد بن محمد بن أبي عبدة؛ فتولى القيادة مكانه، واستقدم عباس بن عبد العزيز إلى قرطبة؛ فقصد القائد حصون ابن حفصون، وحارب من كان فيها.

وفيها، خرج محمد بن عبد الملك الطويل إلى وادي برشلونة؛ فأغار بوادي طراجة. فخرج عليه العليج شنير؛ فأخذ عليه المضايق. فلما كثر عسكر المسلمين، ألفوا أعداء الله على تلك المضايق؛ ففتح الله للمسلمين عليهم، وقتلوا فيهم مقتلة عظيمة.

وفي سنة 300، كان وفاة الإمام عبد الله بن محمد - رحمه الله - ليلة الخميس

مستهل ربيع الأول، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة. وكانت خلافته خمساً وعشرين سنة، وخمسة عشر يوماً. ودفن في قصر قرطبة مع أجداده الخلفاء ☺ و عنهم! وصلى عليه أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد (1).

كان الإمام عبد الله مقتصداً، يظهر ذلك في ملبسه وشكله وجميع أحواله. وكان حافظاً للقرآن، كثير التلاوة له. وكانت له صدقات كثيرة ونوافل جزيلة. وكان متقدماً في ورعه وفضله، محباً للخير وأهله، كثير الصلاة، دائم الخشوع والذكر لله عز وجل، كثير التواضع، مذكراً للأسرف ومبعداً لأهله، شديد الوطأة على ذوي الظلم والجور. وكان متفنناً في ضروب العلوم، بصيراً بلغات العرب، فصيح اللسان، حسن البيان وكان لا يخلو في أكثر أيامه من مقاعدة وزرائه ووجوه رجاله؛ فإذا انقضى خوضهم في الرأي والتدبير لأسباب مملكته وما كان يحاوله من حسم علق الفتنة، خاض معهم في الأخبار والعلوم. ولم يكن ممن اشتغل بلذة، أو قارف شيئاً من الأذبة في أيام خلافته ولا قبلها. وهو ابتنى الساباط بين القصر والجامع بمدينة قرطبة، رغبة في شهود الجمعة، ومحافظة على الصلوات، وحداً للصالحات. وكان يقعد في الساباط قبل صلاة الجمعة وبعدها؛ فيرى الناس، ويشرف على أخبارهم وحركاتهم، ويسر بجماعاتهم، ويسمع قول المتظلم؛ ولا يخفى عليه شيء من أمور الناس. وكان يقعد أيضاً على بعض أبواب قصره في أيام معلومة؛ فترفع إليه فيه الظلمات، وتصل إليه الكتب على باب حديد قد صنع مشرجاً لذلك؛ فلا يتعذر على ضعيف إيصال بطاقة بيده، ولا إنهاء مظلمة على لسانه. وكان أهل المكنات وذوو المنازل والأقارب يتحفظون من كل أمر يوجب الشكوى بهم، وينقبضون عن التحامل على من دونهم، ويهابون عقابه، ويحذرون إنكاره، ويتحرون موافقة مذهبهم. وكانت اللذات مهجورة في أيامه، واللهو غير مقترف من جميع خاصته وعامته، وإعمال الخير وإظهار البرِّ والتقوى فاش في كل طبقة من رجاله ورعيته.

وكان - رحمه الله - كثير الاستغفار لله عز وجل، ومتحفظاً من اليمين باسمه؛ فإذا حلف له حالف بالله، صدقه؛ وإذا شفع به إليه شافع، شفعه؛ أو خائف، أمنه؛ أو مذنب، صفح عنه. ومآثره كثيرة، وفضائله محفوظة مذكورة. وكان قد فتح باباً في القصر، سماه باب العدل. وكان يقعد فيه للناس يوماً معلوماً في الجمعة، ليباشر أحوال الناس بنفسه، ولا يجعل بينه وبين المظلوم ستراً. وكان بصيراً باللغات، حافظاً

لأشعار العرب وأيامها وسير الخلفاء، راوية للشعر. وكانت اللذات في أيامه مهجورة؛ فإنه لم يشرب قط نبيذا ولا مسكرا. واعتذر إليه يوما بعض مواليه؛ فقال له: إن مخايل الأمور لتدل على خلاف قولك وتنبئ عن باطل تتصلك. ولو أقررت بذنبك، واستغفرت لجرمك، لكان أجمل بك، وأسدل لستر العفو عليك! فقال: قد اشمط الذنب على، وحق الخطأ بي! وإنما أنا بشر، وما يقوم لي عذر! فقال: مهلا عليك، رويدا بك! تقدمت لك خدمة، وتأخرت لك توبة؛ وما للذنب بينهما مدخل. وقد وسعك الغفران! وأملى كتابا إلى بعض عماله: أما بعد، فلو كان نظرك فيما خصصناك به، واهتباك به على حسب مواترك بالكتب واشتغالك بذلك عن مهم أمرك، لكنت من أحسن رجالنا عناء، وأتمهم نظرا، وأفضلهم حزما. فأقل من الكتب فيما لا وجه له ولا نفع فيه، واصرف همتك وفكرتك وعنايتك إلى ما يبدو فيه اكتفاؤك، ويظهر فيه غناؤك، إن شاء الله!

وكان - رحمه الله - تقيا نقيا. بنى الأسباط من القصر إلى الجامع، محافظة منه على الصلوات. والترم الصلاة مع الجماعة إلى جانب المنبر دائما حتى لقي ربّه. وكان - رحمه الله - شاعرا مطبوعا؛ له أشعار حسان. فمن قوله يتغزل في صباه:

وَيَحْيِ عَلَيَّ شَادِنٍ كَحَبْلٍ فِي مِثْلِهِ يُخْلَعُ الْعَدَارُ
كَأَنَّمَا وَجَنَّتْ نَاهُ وَرْدٌ خَالَطَهُ التَّوَرُّ وَالْبَهَارُ
قَضِيبٌ بَانَ إِذَا تَشَنَّى بُدِيرٌ طَرَفًا بِهِ أَحْوَارُ
فَصَفُوْهُ وَدِّي عَلَيْهِ وَقَفْ مَا اطَّرَدَ اللَّيْلُ وَالتَّهَارُ

ومن قوله أيضا في مثل ذلك - رحمه الله -:

يَا مُهْجَةَ الْمُشْتَاكِ مَا أَوْجَعَكَ وَيَا أَسِيرَ الْخُبِّ مَا أَخْضَعَكَ
وَيَا رَسُولَ الْعَيْنِ مِنْ لَحْظَهَا بِالرَّدِّ وَالتَّبْلِيغِ مَا أَسْرَعَكَ
تَذْهَبُ بِالسَّرِّ فَتَاتِي بِهِ فِي مَجْلِسٍ تَخْفَى عَلَيَّ مِنْ مَعَكَ
كَمْ حَاجَةٍ أَنْجَزْتَ أَسْرَارَهَا تَبَارَكَ الرَّحْمَانُ مَا أَطْوَعَكَ

ومن قوله في الزهد:

يَا مَنْ يُرَاوِغُهُ الْأَجَلُ حَتَّى مَ بُلْهِيكَ الْأَمَلُ
حَتَّى مَ لَا تَحْشَى الرَّدَى وَكَأَنَّهُ بِكَ قَدْ نَزَلَ
أَغْفَلْتَ عَنْ طَلَبِ النَّجَاةِ وَلَا نَجَاةَ لِمَنْ غَفَلَ
هِيَاهُنَّ يَشْغَلُكَ الْمُنَى وَلَمَّا يَدُومُ لَكَ الشُّغْلُ

فَكَأَنَّ يَوْمَكَ لَمْ يَكُنْ :: وَكَأَنَّ نَعْيَكَ قَدْ نَزَلَ
وله أيضا في الزهد:

أَرَى الدُّنْيَا تَصِيرُ إِلَى فَنَاءٍ :: وَمَا فِيهَا لَشَيْءٍ مِنْ بَقَاءٍ
فَبَادِرْ بِالْإِنَابَةِ غَيْرَ وَاٍ :: عَلَى شَيْءٍ يَصِيرُ إِلَى فَنَاءٍ
كَأَنَّكَ قَدْ حُمِلْتَ عَلَى سَرِيرٍ :: وَغُيِبَ حُسْنُ وَجْهِكَ فِي الثَّرَاءِ
فَنَافِسٍ فِي الثَّقَى وَاجْنَحْ إِلَيْهِ :: لَعَلَّكَ تُرْضِيَنَّ رَبَّ السَّمَاءِ

ولم يزل - رحمة الله عليه - يرفع منار الدين، ويسلك سبيل المهتدين، لم تمنعه الفتن عن النظر لنفسه، والعمل ليوم فاقتة ودلول رمسه. وكانوا يعدونه من أصلاح خلفاء بن أمية بالأندلس، وأمثلهم طريقة، وأتمهم معرفة، وأمتنهم ديانة؛ إلا أنه كان منغص الحال بدوام الفتنة، وتضييق نطاق الخطئة، ونقصان مقدار التزكية، حتى كان يتخلله الرياء تحت قناع تقواه، والبخل بطوقه طبيعة ليست له تحط من هواه؛ وغمض دينه لما كان من هوان الدماء عليه، بسبب الفتن الطارئة حتى من ولديه، آخذاً لأكبرهما بالظنة. وقد صرح النقية أبو محمد بن حزم بدم هذا الأمير، وقال إنه كان قتالا تهون عليه الدماء مع كثرة إقباله على الخيرات، وإعراجه عن المنكرات؛ فإنه احتال على أخيه المنذر على إثارة له، وواطأ عليه حجامه بأن سم له المبضع الذي قصده به، وهو نازل بعسكره على ابن حفصون. ثم قتل ولديه معا بالسيف واحدا بعد واحد: قتل محمداً والد الناصر لدين الله، وقتل أخاه المظرف؛ ثم قتل أخوين له معا أيضاً: قتل هشاماً منهما بالسيف، والقاسم بالسم. والله أعلم بحقيقة أمره (1).

الفصل الخامس:

عصر الخلافة الأموية في الأندلس

(316 - 400 هـ / 929 - 1009 م)

عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) (300 - 350 هـ / 912 - 961 م):

سياسته الداخلية:

القضاء علي الثورات الداخلية:

اتخاذه لقب خليفة:

سياسته الخارجية:

الحكم الثاني المستنصر بالله (350 - 366 هـ / 961 - 976 م):

الأحداث الخارجية في عهده:

خلافة هشام بن الحكم وتسلط المنصور بن أبي عامر:

سقوط الدولة الأموية في الأندلس:

* * *

عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) (300 - 350 هـ / 912 - 961 م)

لما توفي الأمير عبد الله سنة 300 هـ / 961 م ظفر حفيده عبد الرحمن بن محمد بالإمارة دون أعمامه وأعمام أبيه، وكانوا أحق منه بالإمارة شرعاً، ولكنهم تخلوا له عنها زاهدين فيها لما يحيط بها من أخطار، وكان اعتلاء الإمارة في قرطبة يعني التعرض للأخطار والمكاره، وكان الظن أن مصيرها يؤول حتماً إلى الزوال، فزهد فيها من هم أحق بها من البيت الأموي، وتعلقت آمال الناس بهذا الشاب اليتيم - عبد الرحمن بن محمد - الذي يتوقد عزماً وحزماً وشباباً، ويتحرق شوقاً لتوطيد دولة الإسلام في الأندلس، حيث كانت الأندلس يومها تحتاج إلى إلى الهمة العالية والسياسة الحكيمة لحل مشاكلها، وتوفي الاستقرار المطلوب، والاستمرار في دفع موكب الحضارة والعطاء، والإنتاج الفكري المترعرع في ربوعها، فتعلقت آمال الناس بعبد الرحمن الناصر (1).

وكان محمد بن عبد الله - والد عبد الرحمن الناصر - محبوباً لدى أبيه عبد الله، فرشحه لولاية العهد باعتباره أكبر أبنائه سناً، وأكثرهم عقلاً، وأقربهم إلى قلبه، وآثره علي أخيه المطرف، الذي كان يحقد علي أخيه وينافسه المنزلة والمكانة في قرطبة، فعظم الأمر علي المطرف، وبدأ النزاع والخلاف يدب بين الأخوين لهذا السبب، وأخذ الواحد منهما يقابل أخيه بالصد والإعراض، وحدث أن اعتدي محمد علي أحد فرسان المطرف، فأغري المطرف أباه به فزج بمحمد في السجن وأوثقه، واتصل أثناء وجوده بالسجن ببعض الأشرار والمفسدين فأغروه بالذهاب إلى ابن حفصون، فأقام لديه، ثم خاطبه الأمير محمد بالأمان، فاستجاب إليه وعاد إلى قرطبة، ولكنه لم يزل علي حقه لأخيه محمد، ولم ينس ما كان بينهما من منافسة، وظل المطرف يغري عبد الله ويضمّر له السوء والحقد، ويدبر له المكائد وينصب له الشراك، ويزرع الخوف والشك والريبة في قلب أبيه من أخيه محمد، ويزعم أنه علي إتصال بابن حفصون وأنه يعمل علي الثورة علي أبيه، وما زال بأبيه يوغر صدره عليه حتى اقتنع عبد الله بهذه الوشاية وأمر بمحمد فسجن في دار البقيعة، ريثما يتحقق من الأمر، فلما اتضحت له براءته عزم علي إطلاق سراحه، ولكن المطرف الذي كان

(1) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص 279، عبد الرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 297 - 320، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 151.

يمني نفسه بخلافة أبيه في إمارة الأندلس لم يكن ليسمح بذلك، فدخل عليه أخوه المطرف وأجهز عليه، وتركه متخبطاً في دمه، ملقى علي يده وفمه، ظنا منه أن ذلك سوف يفسح له الطرق إلى إمارة الأندلس بعد إزاحة أخيه من طريقه، وكان ذلك سنة 277 هـ وهو نفس العام الذي ولد فيه عبد الرحمن بن محمد، إذ ولد قبل قتل أبيه بواحد وعشرين يوماً، وقد نال المطرف جزاء فعلته وجريمته إذ قتله أبوه عبد الله، واحتضن عبد الرحمن بن محمد، وخصه بمحبته ورعايته، ويبدو أن الأمير عبد الله كان يستشعر الندم لتسببه في قتل ابنه محمد، فاراد أن يكفر عن غثمه، فكرس حياته لتنشئة حفيده اليتيم، فكان يحظيه دون بنيه، ويوميء إليه ويرشحه لأمره (1).

يقو ابن عذاري: "... كان الأمير عبد الله قد رشح ابنه محمداً لولاية عهده، وأثره بما عنده؛ فعظم الأمر على أخيه مطرف، وبعد ما بينهما كل البعد، وقابل الواحد الثاني بالهجران والصد. فوجد مطرف يوماً فارساً من فرسان محمد؛ فاغتاله وقتله؛ ثم فرق من أبيه عبد الله وحذر سطوته، ولم يأمن طولته؛ فسار إلى السجن وفتقه، وحلّ من شدة أبوه وأوثقه، وخرج بمن فيه من أهل الدعارة والفساد، ولحق ببربشتر قاعة أهل الضلال والعناد، وصار عند ابن حفصون، في حرز من الأمن مصون. ثم إن الأمير عبد الله أباه خاطبه بالأمان، وقال: بنس الاسم الفسوق بعد الإيمان! فقبل من أبيه، وانصرف إلى أهله وذويه. ولم يزل بعد ذلك مطرف يغري بمحمد إغراء، ويطوي له عداوة وبغضاء، ويزعم أنه يخاطب ابن حفصون ويدخله، ويداهنه على القيام على أبيه ويواصله. فسجن الأمير عبد الله ابنه محمداً في دار البقيقة، وامتنح خلال ذلك عين الحقيقة. فلما واصل في البحث صباحه ومساءه، لم يقرع سمعه من جهته ما ساءه فأسرع إطلاقه، وحلّ وثاقه؛ فدخل مطرف إليه، وأجهز في الحين عليه، وتركه متخبطاً في دمه، ملقى على وجهه وفمه. فلما علم ذلك الأمير عبد الله، أعظم ذلك منه، وهم بقتله عنه؛ فلم يعدم من كسر عليه لذلك؛ فتركه. وقيل: قتله فيه: والله أعلم. وكان ذلك في سنة 277... " (2).

وحاصل الأمر أن الإمارة تهيأت لهذا الفتى، من حيث لا يدري، وأصبح أمير قرطبة بلا منازع، في الوقت الذي كانت الأندلس فيه جمره تنقد ونارا تضطرم... وولي، والأندلس جمره تحترق، ونار تضطرم شقاً ونفاقاً؛ فأخذ نيرانها، وسكن

(1) ابن عذاري، البيان المغرب 2 / 137، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص 279.

(2) البيان المغرب 2 / 137.

زلازلها، وغزا غزوات كثيرة. وكان يشبه بعبد الرحمن الداخل؛ ومن وقت دخوله الأندلس سنة 138 إلى ولاية عبد الرحمن الناصر (1).

سياسته الداخلية

القضاء علي الثورات الداخلية

وجد الأمير عبد الرحمن الناصر أرض الأندلس مضطربة بالثورات، مضرمة بنيران المتغلبين، فعمد قبل كل شيء إلى إخماد هذه النيران واستتزال أهل العصيان (2) وكانت سياسته تهدف إلى جعل السلطة المركزية في يده وحده، وتوحيد الأندلس كما كانت عليه أيام أمراء بني أمية الأقوياء، لهذا كان لزاما عليه أن يلتزم سياسة تقوم علي الترغيب والترهيب، أو الشدة واللين، وقد شرع في تنفيذ خطته في عزم وإصرار، فأنفذ الكتب إلى العمال في جميع كور الأندلس يطلب الطاعة والاستسلام، فكان أول رد ورد عليه بذلك هو سعيد بن السليم عام لحصن مارتس من كورة جيان، ثم أرسل الأمير عبد الرحمن أمناه إلى البلاد لأخذ البيعة، فتتابعت البيعة عليه من جميع أرجاء الأندلس، واستبشر الناس خيرا بهذا الأمير، الذي دخلت محبته في نفوسهم لما أبداه من أشكال التسامح مع الخارجين علي السلطة المركزية، بعد أن استسلموا له وأعلنوا الطاعة له، فلما انقضي شهر من توليه الإمارة أعد حملة كبيرة للقضاء علي بقية الثوار وتسمي هذه الصائفة بغزوة المنتلول، وافتتح خلالها سبعون حصنا من أمهات الحصون سوي ما فتح بفتحها من توابعها مما قارب الثلاثمائة بين حصن وبرج، وقد كان في يد عبيد الله بن أمية المعروف بابن الشالية منها ما يجاوز المائة (3).

أما بنو حجاج بإشبيلية فقد استطاع الأمير عبد الرحمن أن يجتذب منهم إليه أحمد بن محمد بن مسلمة بن حجاج، والذي ولي إشبيلية بعد وفاة عبد الرحمن بن حجاج سنة 301 هـ / 913 م فسلم له مدينة إشبيلية في نفس السنة المذكورة، ثم أذن له محمد بن إبراهيم بن حجاج صاحب قرمونة (4) و عن سقوط إشبيلية في أيدي عبد

(1) ابن عذاري، البيان المغرب 2 / 158، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين ص 280.

(2) المقري، نفح الطيب، 1 / 353.

(3) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص 280.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، 2، 163، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص 281، علي

حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 153.

الرحمن الناصر يقول ابن عذاري: "... وفي سنة 301، توفي بإشبيلية عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج صاحبها، في المحرم؛ فاجتمع أهلها على تقديم أحمد بن مسلمة مكانه؛ وكان من الشجعان فأخرج أمير المؤمنين الناصر - رحمه الله - أحمد بن محمد بن حدير الوزير قائدا نحوها؛ فكان أول من حاربها وأوقع بأهلها. وكان محمد بن إبراهيم بن حجاج عند ذلك بمدينة قرمونة؛ فقصد باب السدة، و عرض نفسه على أمير المؤمنين لمحاربة أهل إشبيلية. فأخرج له لذلك مع قاسم بن وليد الكلبي (1)؛ وحاصرها شهورا. ثم خرج إليها الحاجب بدر بن أحمد؛ فدخلها يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى من هذه السنة، و هدم أسوارها، واستصلح أمور أهلها، وأخرج مع نفسه سعيد بن المنذر عاملا عليها... " (2).

وبعد أن استنزل عبد الرحمن بني حجاج بإشبيلية، رأى أن يقضي قبل كل شيء علي رأس الأفعي وهو عمر بن حفصون وابنه جعفر، وكان عمر بن حفصون قد تحصن في مدينة ببشتر، من كورة رية وأطاعته أكبر مدن وسط الأندلس الواقعة بين رية والجزيرة الخضراء من جهة، والبيرة وأحواز قرطبة من جهة أخرى، وقد حاول الأمير المنذر بن محمد أن يقضي علي حركته ولكنه مات وهو يحاصر ببشتر، ففترق جنده عند موته، ولم يستطع الأمير عبد الله أن يعيد جمعهم، واستطال عمر بن حفصون في المحلة وانتهبها بالجملة، وعظم أمر ابن حفصون في عهد الأمير عبد الله وقويت شوكته، وجرت بينه وبين الأمير مناوشات لم تؤد إلى نتيجة، ثم استفحل أمره واشتد خطره، فأغار علي مورور وشدونة وقرمونة، والبيرة، واتسعت رقعة مملكته (3).

ولكن لحسن حظ المسلمين بالأندلس أن ارتد هذا الثائر عن الإسلام وأعلن اعتناقه للنصرانية سنة 286هـ / 899 م، وكان يسرها قبل ذلك. (4) ولما علم المسلمون ذلك انفضوا من حوله، ورأي المسلمون في الأندلس أن حربه جهاد في سبيل الله، ففتابعت علي الغزوات بالصوائف والشواتي، حتى ضعف أمره وتظاهر بالخضوع للأمير ————— عبد الرحمن بن محمد بعد أن رأي قوته وصولته، فوجد طريق المصالحة مع الأمير

(1) صاحب شرطة العليا.

(2) البيان المغرب، 2 / 163.

(3) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص 282.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 139.

الجديد هو الطريق الأمثل، وكانت المفاجأة عندما أرسل عمر بن حفصون عهدا بالاعتراف به والالتزام بالولاء والطاعة للسلطة المركزية في قرطبة، وجاء هذا الثائر إلى قرطبة حوالي سنة 303 هـ / 915 م وغزا مع قوات الناصر بلاد النصاري، ثم توفي سنة 305 هـ / 917 م حسب قول ابن عذاري (1)، أو سنة 306 هـ / 918 م حسب قول ابن الخطيب (2)، وقد ولي أمر الثورة بعده ابنه جعفر بن عمر الذي ذهب مذهب أبيه في الفساد والعناد وفي الثورة ضد السلطة المركزية، ولكنه أغتيل بقلعة بيشتر فتولي بعده أخوه سليمان، وتظاهر سليمان هذا بطاعة الأمير الناصر، فسأله الأمير واعترف به الناصر، ولكنه نكث عهده وأخذ في مقارعة الدولة الأموية بعد أن شعر بالقوة والمذعة، وشن الغارات علي قرطبة فدخل مدينة المنكب عنوة وقتل جميع سكانها، وما زال كذلك في نكته وغدره طويلا، غير أن الأمير عبد الرحمن الناصر هاجمه وسد عليه كل منافذ القلعة التي كان يتحصن بها، وأحاطها بحزام كثيف من الجنود، وظل يسد له ضربات المتلاحقة حتي خارت قواه وسقط سليمان صريع في معركة طاحنة جرت بين الفريقين سنة 314 هـ / 926 م واستسلم أخيه دفص في السنة التالية، بعد أن اخترقت جنود الإمارة أسوار القلعة المنيعه، وتمكن الأمير عبد الرحمن من القضاء علي خطر بني حفصون أخطر الخارجين عليه (3).

* * *

إتخاذه لقب خليفة

بعد القضاء علي ثورة بني حفصون، واقتلاع جذورها شعر الأمير عبد الرحمن الناصر بأنه اجتاز أصعب المراحل في طريق الوحدة السياسية، فعلي الرغم من أن بضعة مواقع ما تزال خارجة علي سيادته، فإن أمرها لم يكن يقلقه كثيرا، بعد أن بلغ هذا المبلغ من القوة والنفوذ، لعل إحدي مظاهر الثقة القوية بقدرته علي تحطيم القوي المعادية والمتصدية له، ذلك القرار الذي اتخذه بعد سقوط حصن بيشتر في يديه بعد أن وجد أن اللقب الذي توارثه عن أسرته وأجداده وهو الإمارة، لم يعد يتسع لطموحه الكبير، فأعلن عن نفسه خليفة تيمنا بأجداده الأمويين في المشرق خلفاء دمشق فأنتهي

(1) البيان المغرب، 2 / 171.

(2) أعمال الأعلام، ص 33.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 193، ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص 33، 34، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 154.

بذلك عصر الإمارة سنة 316 هـ / 928 م في وقت كانت الظروف الداخلية والخارجية متاحة لإعلان هذه الخطوة (1).

يقول ابن عذاري - عن هذه الخطوة -: "... وفي هذه السنة - 316 هـ - رأى الناصر أن تكون الدعوة له في مخاطباته والمخاطبات له في جميع ما يجري ذكره فيه، بأمر المؤمنين، لما استحقه من هذا الاسم الذي هو له بالحقيقة، ولغيره بالانتحال والاستعارة؛ فهو أبر أمراء المؤمنين والهداة الفاضلين، والأبرار المنقذين، من كل منتخب في المشرق والمغرب، وقائم بالحق، وسالك لسبيل الهدى والرشد؛ فعهد إلى أحمد بن بقي القاضي صاحب الصلاة بقرطبة بأن تكون الخطبة يوم الجمعة مستهل ذي الحجة بذلك. ونفذت الكتب إلى العمال فيه، بما اجتلبنا نسخته لما فيها من إيعاب القول، واستبقاء الحجة، وظهور الحقيقة. ونسخة الرسالة النافذة في ذلك: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فإننا أحق من استوفي حقه، وأجدر من استكمل حظه، وليس من كرامة الله ما ألبسه، للذي فضلنا الله به، وأظهر أثرنا فيه، ورفع سلطاننا إليه، ويسر على أيدينا إدراكه، وسهل بدولتنا مرامه، وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا، وعلو أمرنا، وأعلن من رجاء العالمين بنا، وأعاد من انحرافهم إلينا، واستبشارهم بدولتنا. والحمد لله ولي النعمة والإنعام بما أنعم به، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه! وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمر المؤمنين، وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك، إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له، ودخيل فيه، ومدسم بما لا يستحقه. وعلمنا أن التماذي على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه، واسم ثابت أسقطناه. فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به، وأجر مخاطباتك لنا عليه، إن شاء الله. والله المستعان! وكتب يوم الخميس لليلتين خلتا من ذي الحجة سنة 316 هـ..." (2).

وعلي ما يبدو أن الذي دفع الناصر لاتخاذ هذا اللقب هو طموحه الكبير في تحقيق الوحدة السياسية للأندلس، ونجاحه الكبير في تحقيق جزء كبير من هذا المسعى بعد القضاء علي ثورة بني حفصون التي طالما أعجزت سابقه من الأمراء، كما أن ضعف الخلافة العباسية وترديها في مهاوي التمزق والانفصال، علاوة علي ضعف خلفائها ووضعهم تحت الوصاية الدائمة من قبل القدة الأتراك الذين أصبحوا يتحكمون في مصائر ليس الخليفة فقط بل والخلافة جميعا، وفي تلك اثناء كانت الدولة الفاطمية

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 198، إبراهيم بيضون، الدولة العربية، ص 282 - 283، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 155.

(2) البيان المغرب، 1 / 198.

الشيعة التي قامت بشمال إفريقية وانتقلت إلى القاهرة، وبدأت تتطلع في العبور إلى الأندلس وتكوين قاعدة شيعية في المغرب الإسلامي تضاهي القاعدة السنية في المشرق الإسلامي، فيكون العالم الإسلامي مقسماً بين خلافة سنية في المشرق تحت الزعامة الروحية للخلافة العباسية، وخلافة شيعية رافضة في المغرب الإسلامي تحت الوصاية والزعامة الروحية للخلافة الفاطمية، فكان لا بد لمجابهة هذا المد الشيعي الرافضي بإقامة خلافة سنية جديدة في الأندلس، كما أن عبد الرحمن الناصر والأندلسيين كانوا يرغبون في أن يكون لقرطبة دور أكثر مركزية، بأن تصبح عاصمة للخلافة وليس لإمارة فقط، والخلافة لها تأثير معنوي كبير يفوق حاجز الإمارة، مما يؤدي إلى إحكام قبضتها على أطراف الإمارة الأندلسية (1).

* * *

سياسته الخارجية

تعرضت الأندلس لعدة أخطار خارجية فرضت علي الخليفة عبد الرحمن الناصر إتخاذ سياسات محددة أصبح مجبراً عليها ليس مختاراً لها، ففي العلاقة مع النورمان، كانت الأندلس تعرضت لهجماتهم المدمرة في عهد الأمراء السابقين للخليفة الناصر، فوجد نفسه لاتباع سياسة بحرية معينة، فقد أنشأ دار الصناعة بإشبيلية واستعد برجال البحر من سواحل الأندلس، فألحقهم ووسع عليهم، وتأهب لاستقبال النورمانديين بالآلات والنفط، فلما أعاد النورمان هجماتهم علي إشبيلية عام 245 هـ أيام الأمير محمد تلقاهم أسطول الأندلس وهزمهم وأحرق مراكبهم (2) كما أن دار الصناعة في إشبيلية كانت نواة لدور الصناعة في عدد من المدن الأخرى مثل طركونة والمرية والجزيرة ومالقة وميورقة ولقنت، كما أن الناصر حرص علي إنشاء أسطول قوي يدافع به عن الأندلس من هجمات النورمان والفاطميين، وأمر عبد الرحمن سنة 302 هـ / 914 م بإنفاذ هذا الأسطول إلى مضيق جبل طارق ليمنع عن ابن حفصون وصول الإمدادات من ساحل إفريقية الشمالية، إذ كان قد تحالف مع الفاطميين، وكان للأسطول الفضل الأكبر في إستيلائه علي مليلة سنة 314 هـ / 927 م، وعلي سبته سنة 318 هـ / 931 م (3).

(1) أحمد العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص 60، إبراهيم بيضون، الدولة العربية، ص 283 - 284.

(2) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص 285.

(3) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص 285.

أما الخطر الثاني الذي ساهم بشكل كبير في تحديد ملامح سياسة عبد الرحمن الناصر الخارجية، فكان الفاطميين المقيمين في المغرب، والذي لا يمكن إغفاله أن الفاطميين منذ بداية دعوتهم الشيعية الرافضة وهم يطمحون في العبور إلى الأندلس والسيطرة عليه وإقامة الدعوة والخلافة الشيعية الرافضة فيه، فتتابعت عيونهم وجواسيسهم على الأندلس بهدف دراسة أحواله والتعرف على عوراته ونقاط الضعف فيه واستمالة أصحاب النفوذ وبعض الأنصار، بهدف التوطئة للسيطرة عليه، ونجح هؤلاء العيون والدعاة والجواسيس في استمالة بعض الأنصار في الدولة الأندلسية أمثال ابن أبي المنظور قاضي إسماعيل المنصور، ثالث أئمة الفاطميين، وابن هانيء الذي الشاعر الذي التحق بخدمة المعز. لذلك عمد عبد الرحمن الناصر إلى محاربة الفاطميين بالطرق الآتية:

أولاً: تلقب بلقب الخلافة، ليوطد مركزه داخل الأندلس وخارجه وفرض هيئته في النفوس، وأصدر منشورا وزعه عماله على النواحي المختلفة.

ثانياً: بذر بذور الفتنة بين قبائل البربر في بلاد المغرب، فانضم إليه بنو إدريس أمراء العدو، وملوك زناته، فوالاه موسى بن أبي العافية صاحب المغرب، وأمدّه عبد الرحمن بالخلع والأموال، فظهر أمر موسى وأجتمع له أنصار كثيرون من البربر فتغلب علي مدينة جراوة.

واستولي عبد الرحمن الناصر علي معبري الأدلس، سبنة سنة 931 م، وطنجة سنة 927م، ومليلة في السنة نفسها، واستطاع بذلك السيطرة علي الملاحه في مضيق جبل طارق، واهتم بتحسين سبنة وبني سورها بالحجارة، وأثبت أسطوله بقيادة أحم بن محمد ابن إلياس، ويونس بن سعيد، قائديه في البحر في جملة مراكب و عدد كبير من البحريين والمقاتلين فجازا مرسى الجزيرة واحتلا العدو وحاصرا محمد بن أبي العيش بن عمر بن إدريس، ونجح قاسم بن محمد قائد عبد الرحمن الناصر سنة سنة 333هـ في إخضاع بقايا الأدارسة، وعقد الناصر الأمان لأبي العيش بن عمر الذي أرسل رسله الأدارسة إلى قرطبة.

وعمل الناصر علي توطيد علاقته ببعض الدويلات المغربية السنية ويشجع الثائرين علي الخليفة الفاطمي أمثال أبي يزيد مخلد بن كيداد المعروف بصاحب الحمار.

ثالثاً: أنشأ عبد الرحمن الناصر أسطولا قويا نازع به سلطان الفاطميين في البحر المتوسط، كما قصد به الدفاع عن سواحل الأندلس ضد أي هجوم يقوم به أعداؤه

الفاطميون، وهاجم هذا الأسطول الأسطول الفاطمي في سواحل إفريقية سنة 345 هـ / 956م ردا علي مهاجمة الأسطول الفاطمي لمدينة المرية الأندلسية سنة 344 هـ / 955م

رابعا: وطد الناصر علاقته بأعداء الفاطميين، فتحالف مع ملك إيطاليا الذي كان يحنق علي الفاطميين لتدميرهم ميناء جنوة، كما تحالف مع إمبراطور بيزنطة الذي كان يهدف إلى استرجاع صقلية من أيدي الفاطميين، ثم وطد علاقته مع الإخشيين في مصر وعمل علي إرسال الفقهاء المالكية من الأندلس إلى مصر لمحاربة المذهب الشيعي، من أمثال هؤلاء أبو إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان المعروف بابن القرطبي.

وهكذا أدت سياسة الخليفة الناصر إلى إنصراف الفاطميين عن فتح الأندلس إلى فتح مصر (1).

أما خطر نصاري الشمال الأسباني، فما كاد عبد الرحمن يتم توحيد الأندلس حتي اتجه إلى الممالك المسيحية بشمال إسبانيا، وكان خطرهم في إزدياد مستمر منذ اعتلاء الناصر الإمارة، فقد تكررت هجماتهم علي ديار المسلمين ففي سنة 314 هـ قصد أردون الثاني بجيوشه مدينة يابرة ودخلها عنة، وفي سنة 305 هـ التقت قواته بقوات المسلمين قرب شنت اشتبن انهزم فيها المسلمون (2).

وعندئذ أحس الناصر بتطور الموقف إلى جانب نصاري الشمال فقام بنفسه سنة 308 هـ / 920 م علي رأس جيش كبير واتجه إلى جليقية ونبره، وهاجم تلك المناطق، واستمرت معهم الحرب عهدا طويلا، وخاض مع ملوك النصاري عدة مواقع خرج منها جميعا منتصرا، حتى كانت تلك الوقعة التي تعرف باسم موقعة الخندق التي انهزم فيها الناصر هزيمة شنيعة سنة 327 هـ / 938 م قرب مدينة شنت مانكش، ومنذ تلك الهزيمة لم يعد الناصر يباشر الحرب بنفسه واحتاط في حروبه، وسجلت له الوقائع التالية بينه وبين نصاري الشمال (ليون ونبرة) انتصارات هائلة اكتسح بعدها هاتين الدولتين حتى أذعن له أعداؤه بالطاعة وهدنوه، وبعثوا له السفارات والهدايا طالبين الصلح (3).

(1) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص 287 - 288.

(2) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص 289.

(3) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص 289 - 290.

وقد شهدت أندلس في عهد الناصر نهضة علمية وعمرانية كبيرة، وأصبحت قرطبة في عهده تضاهي العواصم العربية الأخرى، بغداد ودمشق والقاهرة، وغيرها وأصبحت تستقطب الألاف من البشر، وتزدحم بالآلاف من المنازل والقصور وعشرات الفنادق والحمامات والمتاجر، وتخرقها الشوارع المرصوفة، وتعج بالأسواق المزدحمة، وتعج أروقة المساجد فيها بالعلماء والفقهاء وطلاب العلم، كما تجتذب صورها أجواء الشعر والغناء، وقد عمل الناصر علي جعل حاضرتة قرطبة جديرة بأن تكون حاضرة الخلافة، فأخذ يحيط نفسه بهالة من فخامة الملوك وأبهة الخلفاء، وقامت في قرطبة حركة معمارية لم تشهد لها نظير من قبل، ونشطت هذه الحركة علي وجه الخصوص منذ سنوات 325 هـ / 936 م واستمرت في عهد ولده الحكم المستنصر بالله، ففي عهد الناصر أقيمت القناة الغربية الصنعة التي يجري منها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربي قرطبة، وأنشأ الناصر مدينة الزهراء بقرطبة علي سفح جبل العروس من جبال قرطبة⁽¹⁾.

وتوفي الخليفة الناصر سنة 350 هـ / 961 م وهو في سن الثالثة والسبعين من العمر بعد حكم دام خمسين سنة سبعة أشهر وثلاثة أيام⁽²⁾.

كان الناصر - رحمه الله - ملكا أزال الأواء؛ وحسم الأدواء، وقهر الأعادي، وعدل في الحاضر والبادي؛ قد أسس الأوس؛ وغرس الغروس واتخذ المصانع والقصور، وترك أعلاما باقية إلى النفخ في الصور. فاعتبر بالزهراء كم بها من قصر مشيد، وآثار ملوك صيد؛ قد عادت معاهدها بعدهم دارسة، وآثارها دونهم طامسة؛ تنفي الرياح بجنباتها، وتبكي الغيوم على عرصاتها. ولما ولي الناصر لدين الله، اعترز ركن الدين، واحتفى زمار المسلمين، وقام الجهاد على ساق، وخمدت نار الخلاف والشقاق، ودخل الناس في طاعته أفواجا، واستنفروا إلى دعوته أفرادا وأزواجا. فناهيك من فضل أعطاهم، وعدل أكنفهم به وغطاهم، وتكرمة أنالهم إياها، ومسرة أبدى لهم محياها؛ قد ملك سبته وما يليها من الأقطار، وطرده عنها ملوك الأدارسة طرد الليل النهار، وبث عماله وقواده فيها، وطاعت له البرابر في جميع

(1) السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، 1 / 60، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 159.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 232.

نواحيها، واعتصموا بحبله، ولاذوا بفضله وعدله...

ومن قول ابن عبد ربه فيه:

قَدْ أَوْضَحَ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ مِنْهَاجَا :: وَالنَّاسُ قَدْ دَخَلُوا فِي الدِّينِ أَفْوَاجَا
وَقَدْ تَزَيَّيْنَا الدُّنْيَا لِسَاكِنِهَا :: كَأَنَّمَا أَلْبَسْتَ وَشِيَاءً وَدِيَابَجَا
يَا ابْنَ الْخَلَائِفِ إِنَّ الْمُرْنَ لَوْ عَلِمْتَ :: نَدَاكَ مَا كَانَ مِنْهَا الْمَاءُ نَجَا
وَالْحَرْبُ وَلَوْ عَلِمْتَ بِأَسَاءَ تَصُولُ بِهِ :: مَا هَيَّجَتْ مِنْ حُمَاكَ الَّذِي اهْتَا
مَاتَ النِّفَاقُ وَأَعْطَى الْكُفْرَ ذِمَّتَهُ :: وَذَلَّتْ الْخَيْلُ الْجَمَاءُ وَإِسْرَا
وَأَصْبَحَ النَّصْرُ مَعْقُوداً بِالْوَيْةِ :: تَطْوَى الْمَرَاحِلُ تَهْجِيراً وَإِدْلَا
إِنَّ الْخِلَافَةَ لَنْ تُرْضَى وَلَا رُضِيَتْ :: حَتَّى عَقَدْتُ لَهَا فِي رَأْسِكَ التَّاجَا

ومن مناقبه، أنه لم يبق في القصر الذي هو من مصانع أجداده ومعالم أوليته بذية إلا وله فيها أثر محدث، إما بتجديد أو بتزييد. ومن مناقبه: كثرة جوده الذي لم يعرف لأحد قبله من أجواد الجاهلية والإسلام، حتى قيل فيه - رحمة الله عليه -:

يَا ابْنَ الْخَلَائِفِ وَالْعُلَى لِلْمُعْتَلَى :: وَالْمَجْدُ يُعْرِفُ فَضْلَهُ لِلْمُفْضَلِ
نَوَّهَتْ بِالْخُلَفَاءِ بَلْ أَخْمَلَتْهُمْ :: حَتَّى كَأَنَّ نَبِيلَهُمْ لَمْ يَنْبَلِ
أَذْكَرَتْ بَلْ أَنْسَيْتَ مَا ذَكَرَ الْوَرَى :: مِنْ فِعْلِهِمْ فَمَأْنَهُ لَمْ يُفْعَلِ
وَأَتَيْتَ آخِرَهُمْ وَشَأْوُكَ فَائِتٌ :: لِلْآخِرِينَ وَمُؤَدِّكَ لِلْأَوَّلِ
تَأْيِي فِعَالُكَ أَنْ تُعَدَّ لآخرٍ :: مِنْهُمْ وَجُودُكَ أَنْ يُعَدَّ لِلْأَوَّلِ

وكم للناصر - رحمه الله - من غزوات مذكورة، وفتوحات مشهورة، يبقى في الأعقاب فخرها، ولا يبلى على مر الأعقاب أثرها (1).

الحكم الثاني المستنصر بالله

(350 - 366 هـ / 961 - 976 م)

بويع الحكم المستنصر بالله، بعد وفاة والده لثلاث خلون من رمضان سنة 350 هـ / 961 م وتوفي ليلة الأحد لثلاث خلون من صفر من سنة 366 هـ / 976 م فكانت مدة حكمه خمسة عشرة سنة وسبعة أشهر وثلاثة

أيام (1).

تولي الحكم بالأندلس وسنه تناهز الأربعين، وكان أبوه يشركه في بعض أمور السياسة ليمارس في شؤون الدولة ومقتضياتها، ولقب بالمستنصر، فقد أشرف في حياة أبيه علي بناء الزهراء، فقام بمهمته خير قيام.

واشتهر الحكم بحبه للعلم والعلماء، واقتنائه للعديد من الكتب في مختلف ألوان الثقافة، وقد كان لاتجاهه العلمي هذا ومبالغته في أثر واضح في التخلي عن بعض مهامه السياسية، ولكن ذلك لم يترتب عليه ضرر بالغ، حيث أن والده قد أورثه الدولة وهي في أتم ما تكون استقراراً وأمناً، كما كانت الخلافة قد استقرت هيبتها في النفوس علي الصعيدين الداخلي والخارجي.

وللخليفة المستنصر بالله أعمال عمرانية كثيرة أهمها الزيادة الكبيرة التي عملها في مسجد قرطبة من جهة القبلة سنة 350 هـ / 961 م، وفي سنة 356 هـ / 966 م أجري الماء العذب إلى سقايات الجامع، والميضائتين اللتين علي جانبيه، وقد جلبه من عين بجل قرطبة (2).

الأحداث الخارجية في عهده

كان الخليفة الناصر في أواخر أيامه قد أقام علاقات ودية مع نصاري الشمال وأعان الملك شنجة الأول (سانشو) علي استرداد عرش مملكة ليون من خصمه أردونيو الرابع مقابل عدة حصون استراتيجية علي الحدود تسلم للخلافة الأموية في قرطبة، ولكن نصاري الشمال لم يوفوا بتعهداتهم بعد أن اعتلي الحكم المستنصر عرش الخلافة، وظن سانشو أن الظروف قد تغيرت وأن وفاة الناصر وغيابه عن الساحة تبيح له التحلل من تنفيذ العهود التي أخذها علي نفسه، فأخذ يماطل ويتكأ في تنفيذ الإتفاقية المعقودة بين الطرفين، ظناً منه أن الخليفة الجديد ليس كالناصر وأنه هين لين وليس علي شاكلة أبيه، فأرسل الحكم إلى هؤلاء النصاري جيشاً اضطهرهم إلى تنفيذ الاتفاقية التي عقدوها مع أبيه (3).

ولم تدم معاهدات السلام مع نصاري الشمال الأسباني طويلاً، ولم تلبث أن تنهار قبل أن يجف مدادها مما جعل محاربة الحكم المستنصر لهم تستمر طويلاً في

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 233، المقري، نفح الطيب، 1 / 386.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 240.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 226، إبراهيم بيضون، الدولة العربية، ص 305 - 306.

عده، وتتابع هجمات جيش الأمويين علي قشتالة في السنوات اللاحقة، مما سلب الأسبان فرصة التقاط الأنفاس أو الإعداد لمهاجمة حدود دولته ووضعهم دائماً تحت ضغط مستمر⁽¹⁾.

كما نهج الحكم المستنصر بالله سياسة أبيه في معاداة الفاطميين، والحرص علي رد عاديته، والوقوف لهم بالمرصاد، وكان شديد التيقظ لمحاولات الفاطميين إدخال الدعوة الشيعية الرافضة إلى الأندلس، كما أنه نهج نهج أبيه في مساندة أعداء الدولة الفاطمية وتقديم يد العون لكل خروج علي سلطتها أو منازع ينازعها السيطرة، مما أيّسهم في نهاية المطاف من الحصول علي أي شيء في الأندلس ومما جعلهم يسعون حثيثاً لإيجاد مكان آخر يكون بعيداً عن مناوأة الأمويين في الأندلس لهم، فغيروا وجهتهم باتجاه مصر واستولوا عليها سنة 358هـ / 969 م⁽²⁾.

وقد استغل الأدارسة في المغرب فرصة انتقال الفاطميين إلى مصر، ومحاولتهم الإستقلال بالحكم، بعث إليهم هم الآخرون بجيش كبير قضي علي سلطانهم وأنهى حكم هذه الأسرة بالمغرب، وجاء بمن بقي من الأدارسة إلى قرطبة، فكان هذا آخر العهد لهذه الأسرة التي حكمت المغرب الأقصى في أواخر القرن الثاني الهجري، كأول دولة تتسلخ عن الخلافة العباسية في تلك المنطقة⁽³⁾.

أما الخطر النورمان، فقد تكررت هجماتهم علي الأندلس في عهد الحكم المستنصر بالله، في سنوات 355هـ / 966م، وفي سنة 360هـ / 970م، وفي سنة 361هـ / 971م⁽⁴⁾ وبالرغم من تكرار الهجمات النورمانية علي سواحل الأندلس إلا أنها لم تستطع الانزول علي الشاطيء الأندلسي بفضل يقظة رجال الأسطول الأندلسي الذين استطاعوا ردها علي أعقابها في كل مرة، ولكن بعد قتل عدد كبير من رجالها وتدمير عدد من سفنها⁽⁵⁾.

* * *

خلافة هشام بن الحكم وتسلط المنصور بن أبي عامر

- (1) ابن عذاري، البيان المغرب، 1 / 306.
- (2) إبراهيم ببيضون، الدولة العربية، ص 306 - 307، أحمد العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص 423.
- (3) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 247 - 248، أحمد العبادي، في التاريخ العباسي، ص 428.
- (4) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 238 - 241.
- (5) عبد الرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 312.

توفي الحكم الثاني المستنصر بالله في 4 صفر سنة 366 هـ / 976 م وخلفه ابنه الصبي هشام المؤيد بالله في الخلافة وكان عمره لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره، وبالرغم من أنه كانت تبدو عليه مخايل النجابة والذكاء وحسن الرأي ولكن كانت أيام الأمويين مدبرة، وتتهاوي إلى مهالوي الردي والسقوط، فقد أهمل الحكم شأن ابنه وخليفته ولم يعمل علي صقله وتدريبه، كما أن الحكم في أخريات عمره قد ترك أمور الحكم لزوجاته اللاتي كن يفرن نذوذهن علي رجال الدولة لا سيما صبح (1) أم الخليفة هشام التي لعبت دورا خطيرا في الأحداث التاريخية التي جرت أثناء حكم ابنها هشام المؤيد (2).

وفي هذه الأثناء ظهر رجل قوي هو أبو عامر محمد بن عبد الله بن عامر (3) ولقب بالمنصور فيما بعد وأسس الأسرة العامرية المتمثلة في الحاجب المنصور بن أبي عامر وولديه المظفر وعبد الرحمن، فتاريخ الأندلس في الفترة 366 - 399 هـ / 976 - 1008 م هو تاريخ أسرة ليست من بيت الملك ولكنها استطاعت أن تستبد بالحكم وتصرف شؤونها تصرفا تاما، وغدا الحاجب المنصور الحاكم الحقيقي للأندلس (4).

وقد وصف لنا ابن عذاري نشأته بقوله: "... وكان محمد هذا حسن النشأة، ظاهر النجابة، تنفرس فيه السيادة؛ سلك سبيل القضاة في أولنته، مقتفيا آثار عمومته

(1) كانت صبح هذه محظية للحكم ومغذية وهي أم ولده، وقد توفيت في خلافة ابنها هشام. أنظر: ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 253.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 253 - 254، المقري، فنج الطيب، 1 / 396 - 397.

(3) هو أبو عامر محمد بن أبي حفص عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك؛ وكان له في فتحها أثر جميل؛ وكان في قومه وسيطا.

وجده عبد الملك هو الذي دخل مع طارق ونزل الجزيرة الخضراء لأول الفتح؛ فساد أهلها، وكثر عقبه فيها؛ وتكررت فيهم النباهة والوجاهة؛ وجاور الخلفاء منهم بقرطبة جماعة أحدهم أبو عامر محمد بن الوليد، الذي عرف آل عامر طرزا به. وساد بعده ولده عامر، وتقدم عند الخلفاء، وولي الأعمال، ومات بقرطبة؛ وباسمه نقش محمد الأسكك، ورقم الأعلام. وكان عبد الله الأسكني بأبي حفص، والد محمد المنصور، من أهل الدين والزهدي في الدنيا والقعود عن السلطان؛ سمع الحديث، وأدى الفريضة، ومات منصرفا من حجة بمدينة طرابلس المغرب؛ وأصهر التميميين المعروفين بقرطبة ببني برطال؛ فنكح بريهة بنت يحيى بن زكريا؛ فولدت له أبا عامر المنصور، وأخاه يحيى. وكانت أم عبد الله، والد المنصور، بنت الوزير يحيى بن إسحاق، وزمر الناصر لدين الله وطبيبته. ابن عذاري، البيان المغرب، 257 / 2.

(4) علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص 193.

وخولته؛ فطلب الحديث في حديثه، وقرأ الأدب، وقيد اللغات على أبي علي البغدادي، وعلى أبي بكر بن القوطية؛ وقرأ الحديث على أبي بكر بن معاوية القرشي، راوية النسائي، وغيره من رؤساء أهل المشرق؛ وبرع بروعا أدناه، مع نوازع سعد و بوارد حظ، من الحكم المستنصر؛ فقربه وصرفه في مهم الأمانات وأصنافها؛ فاجتهد وبرز في كل ما قلده، واضطلع بجميع ما حمله... “ (1).

لقد استطاع الحاجب المنصور السيطرة على مقاليد الأمور سيطرة كاملة، حيث استغل ضعف الخليفة الشرعي هشام المؤيد بالله وصغر سنه، وتلقب بلقب المنصور سنة 371 هـ / 981 م ودعي له علي المنابر عقب دعاء الخليفة، وكانت المكاتبات تصدر عنه بعبارة من الحاجب المنصور بن أبي عامر إلى فلان، وأخذ الوزراء تقبيل يده، ثم تابعهم وجوه بني امية... فساوي بن أبي عامر الخليفة في هذه المراتب، وربما شاركه في تلك الراتب، ولم يبق فرق بينهما إلا في الاسم عند صدور الكتب عنه، إذ تنامت حاله في الجلالة، وبلغ غاية العز والقدرة (2).

أما عن سياسة المنصور الخارجية مع الأسبان فقد اتخذت طابعاً جهادياً، إذ غزا سبعا وخمسين غزوة قادها كلها بنفسه واتخذت طابعاً جهادياً هجوماً نفذها ضد نصاري ليون وقشتالة ونفار ومواقع أخرى (3).

وقد لخص لنا ابن عذاري سياسة المنصور علي لسان الفتح بن خاقان بقوله: “... وتمرس المنصور ببلاد الشرك أعظم تمرس، ومحا من طواغيتها كل تعجرف وتغطرس؛ وغاردهم صرعى البقاع، وتركهم أذل من وتد بقاع؛ ووالى على بلادهم الوقائع، وسدد إلى أكبادهم سهام الفجائع؛ وأغص بالدمام أرواحهم، وذغص بتلك الألام بكورهم ورواحهم. ومن أوضح الأمور هنالك؛ وأفصح الأخبار في ذلك: أن أحد رسله كان كثير الانتياب، لذلك الجناح؛ فسار في بعض مسيراته إلى غرسية صاحب البشكش، فصادفه في يوم فصح؛ فوالى في إكرامه، وتناهى في بره واهتمامه؛ فكالبت مدته فلا متنزه إلا مرَّ عليه متفرجا، ولا موضع إلا سار إليه معرجا؛ فحل في ذلك أكثر الكنائس هنالك؛ فبينما هو يجول في ساحتها، ويجيل العين في مساحتها، إذ عرضت له امرأة قديمة الأسر؛ قديمة على طول الكسر؛ فكلمته، وعرفته بنفسها وأعلمته، وقالت له: أيرضى المنصور أن ينسى بتنعمه بوسها، ويتمتع

(1) البيان المغرب، 2 / 257.

(2) البيان المغرب، 2 / 279 - 280.

(3) ابن عذاري، البيان النغم، 2 / 301.

بلبوس العافية وقد قصت لبوسها؟ وزعمت أن لها عدة من الاسنين بتلك الكنيسة محبسة، وبكل ذلٍّ وصغار ملبسه، وناشدته الله في إنهاء قصتها، وإبراء غصتها، واستحلفته بأغلظ الأيمان، وأخذت عليه في ذلك أوكد مواثيق الرحمان. فلما وصل إلى المنصور، عرفه بما يجب تعريفه به وإعلامه، وهو مصغ إليه حتى نَمَّ كلامه. فلما فرغ، قال له المنصور: هل وقفت هنالك على أمر أنكرته، أم لم تقف على غير ما ذكرته؟ فأعلمه بقصة المرأة، وما خرجت عنه إليه، وبالمواثيق التي أخذت عليه؛ فعتبه ولامه، على أن لم يبدأ بها كلامه؛ ثم أخذ في الجهاد من فوره، وعرض مَنْ مِنَ الأجناد في نجده وغوره؛ وأصبح غازيا على سرجه، مباهيا مروان يوم مرجه، حتى وافى ابن شانجه في جمعه؛ فأخذت مهابته ببصره وسمعه؛ فبادر بالكتاب إليه يتعرف ما هي الجنية، ويحلف له بأعظم ألية، ما جنا ذنبا؛ ولا نبا عن مضجع الطاعة جذبا. فعنف أرساله، وقال لهم: كان قد عاهدني ألا يبقى بأرضه مأسورة ولا مأسور، ولو حملته في حواصلها النصور؛ وقد بلغني بعد مقام فلانة المسلمة بتلك الكنيسة. ووالله! لا أنتهي عن أرضه حتى أكتسحها! فأرسل إليه المرأة في اثنتين معها، وأقسم له أنه ما أبصرهن، ولا سمع بهن، وأعلمه أن الكنيسة التي أشار بعلمها، قد بالغ في هدمها، تحقيقا لقوله، وتضرع له في الأخذ بطوله. فاستحى منه، وصرف الجيوش عنه، وأوصل المرأة إلى نفسه، وألحق تودشها بأنسه، وغير سوء حالها، وعاد بسواكب نعماء على جذبها وإمحالها، وحملها إلى قومها، وكحلها بما كان شرد من نومها.. (1).

وفي سنة 392 هـ/ 1002 م توفي المنصور ابن أبي عامر - رحمه الله - ليلة الاثنين لثلاث بقين لرمضان المعظم، وهو ابن خمس وستين سنة وعشرة أشهر؛ كان له من الولد الذكور يوم وفاته إثنان، وهما عبد الملك وعبد الرحمن الناصر؛ فكانت مدة قيامه بالدولة منذ تقلد الحجابة إلى أن توفي خمسا وعشرين سنة، وأربعة وأربعين يوما. وترك من الأموال الناضة بالزاهرة أربعة وخمسين بيتا. وكان عدد الفرسان المرتزقين بحضرته ونواحيها، الذين حارب بهم الحروب، عشرة آلاف وخمسمائة، وأجناد الثغور قريبا من ذلك.

ولله دَرُّ القائل فيه:

آثَارُهُ تُثَبِّتُكَ عَنْ أَخْبَارِهِ :: حَتَّى كَأَنَّكَ بِالْعُيُونِ تَرَاهُ
تَاللَّهِ مَا مَلَكَ الْجَزِيرَةَ مِثْلُهُ :: حَقًّا وَلَا قَادَ الْجُيُوشِ سِوَاهُ

وذكرَ أنَّ هذين البيتين قد نقشاً في رخامة على قبره - رحمه الله - . وكانت عدّة غزواته سبعا وخمسين غزوة، باشرها كلها بنفسه، وهو في أكثرها يشكو على النقرس - عفا الله تعالى عنا وعنه! - (1).

* * *

سقوط الدولة الأموية في الأندلس

لما توفي المنصور قام بالأمر بعده ابنه أبو مروان عبد الملك الملقب بالمظفر سيف الدولة، فجري علي سنن أبيه في السياسة والغزو، وقد دامت أيامه حوالي سبع سنين حيث مات سنة تسع وتسعين وثلاثمائة أو ثمان وتسعين (2).

تولي الحكم (الحجابه) بعده أخوه أبو المطرف عبد الرحمن المعروف بـ شنجول، وقد سماه الخليفة بالمأمون وتلقب بالناصر، فكان يدعي بالحاجب الأعلي المأمون ناصر الدولة (3).

لقد كان عبد الرحمن ضعيف الشخصية ميالا للذة والاسترخاء في أجواء الترف، قليل الاهتمام بالسياسة الجهادية التي كانت مقياس كفاءة الحذاكم الأندلسي في ذلك الوقت، وقد بدأ يطمع في منصب الخلافة - بالرغم من أن جميع مقاليد الأمور والحكم كانت بيده - فطلب من الخليفة هشام المؤيد أن يوليه عهده، ولم يكن لدي هشام القدرة علي الرفض، فوافق علي ذلك وولاه عهده سنة 399 هـ / 1008 وكتب بذلك عهدا مضمونه أن الخليفة لم يجد من هو أصلح لولاية العهد بعده من هذا القحط

عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر (4).

وما أن علم المضريين ذلك حتى ثارت ثائرتهم وعز عليهم أن ينتقل العرش لليمنيين، وأن تخرج الخلافة من أيدي القرشيين، فانبعثت العصبية القديمة، وانتهز المضريون فرصة غياب عبد الرحمن العامري إلى الشمال وقاموا بحركة قوية، فخلعوا هشام عن العرش، وولوا رجلا من أحفاد الناصر، وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، ولقبوه بالمهدي بالله، واستولوا علي القصر

(1) البيان المغرب، 2 / 301.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 3 / 3، المقري، نح الطيب، 1 / 423.

(3) البيان المغرب، 3 / 38.

(4) البيان المغرب، 3 / 38، نفح الطيب، 1 / 424.

بقرطبة وفتحوا مدينة الزاهرة وأخذوا أموالها ثم أحرقوها وهدموها، ولما علم عبد الرحمن هذه الأنباء عاد من الشمال ولكن كانت الجنود قد انفضت من حوله وانضمت إلى الخليفة الجديد، ثم آل مصيره أن قبض عليه ثم قتل في رجب سنة 399 هـ / 1008 م ⁽¹⁾ وبموته تنتهي دولة بني عامر، ويلاحظ من نهاية هذه الدولة مدي تعلق الناس بالخلافة وحرصهم أن تكون من قریش.

والفترة الباقية من العصر الأموي بالأندلس حتي 12 ذي الحجة سنة 422 هـ / 1031 م مليئة بالفتن والإضطرابات وتصارعت فيها العناصر المختلفة في الدولة، من البربر والصقالبة والعرب، وخربت فيها مدن عامرة كالزهراء والزاهرة، ويكفي للدلالة علي مدي انقسام الدولة واضطرابها في هذه الفترة الأخيرة أن عدد الخلفاء الأمويين الذين حكموا فيها يزيد علي عدد الخلفاء الذين حكموا قبلهم منذ بداية الدولة الأموية في الأندلس ⁽²⁾.

وفي 12 ذي الحجة سنة 422 هـ / 1031 م سقطت الدولة الأموية في الأندلس بعد عزل آخر خلفائها هشام الثالث المعتد بالله، وإجلاء من تبقي من المروانية عن قرطبة ⁽³⁾.

وانقطعت الدولة الأموية من الأرض، وانتشر سلك الخلافة بالمغرب، وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف، وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالي بالجهات، واقتسموا خطتها، وتغلب بعض على بعض، واستقل أخيراً بأمرها منهم ملوك استقل أمرهم وعظم شأنهم، ولادوا بالجزى للطاغية أن يظهر عليهم أو أن يبتزهم ملكهم، وأقاموا على ذلك برهة من الزمان، حتى قطع إليهم البحر ملك العدو وصاحب مراكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللّمتوني، فخلعهم وأخلى منهم الأرض ⁽⁴⁾.

وهكذا خرج حكم الأندلس من أيدي الأمويين لأول مرة وحكم في النصف الأول من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي نحو عشرين أسرة مستقلة، في نحو عشرين مدينة ومقاطعة، ويسمي هؤلاء بملوك الطوائف، وبذلك تبدأ مرحلة جديدة من مراحل تاريخ الإسلام في الأندلس.

(1) البيانالمغرب، 3 / 49 - 50، نفح الطيب، 1 / 426.

(2) أحمد العبادي، في التاريخ العباسي، ص 464.

(3) أحمد العبادي، في التاريخ العباسي، ص 464.

(4) المقري، نفح الطيب، 1 / 426.

وعن سقوط الأندلس يقول أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة:
 عاثت بساحتك الظبى يادار :: ومحا محاسنك البلى والنار
 فإذا تردد في جنابك ناظر :: طال اعتبار فيك واستعبار
 أرض تقاذفت النوى بقطينها :: وتمخضت بخرابها الأقدار
 فجعلت أنشد خير سادة أهلها :: لا أنت أنت ولا الديار ديار

* * *

الفصل السادس:

عصر ملوك الطوائف

(422 - 484 هـ / 1031 - 1091 م):

دولة بني جهور في قرطبة:

بنو عباد ومملكة إشبيلية:

المعتمد بن عباد:

* * *

تتميز هذه الفترة بظاهرة التمزق وانقسام الأندلس إلى عدة دويلات، عرفت في التاريخ بعصر ملوك الطوائف.

ذلك أنه ما أن سقطت الخلافة الأموية وانتهى حكم العامريين، حتى أخذت الأوضاع في الأندلس تدخل طور من الإضطرابات وتفكك الوحدة السياسية، فقد استقل الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والصقالبة بالمدن الأندلسية، واقتسموا ولاياتها، وتغلب بعضهم علي بعض، حيث أقام البربر في الجنوب، وخضع شرق البلاد للصقالبة، أما البقية الباقية من الأندلس فقد أصبحت في أيدي مجموعات من محدثي النعم، أو بعض الأسر القديمة التي أفلتت من ملاحقة عبد الرحمن الناصر أو المنصور بن أبي عامر، وعلي هذا فقد حكم الأندلس يومئذ ما يقرب من نحو عشرين أسرة مستقلة في عشرين مدينة أو مقاطعة، ممن سموا بملوك الطوائف.

من أشهر هؤلاء بنو ذي النون الذين ملكوا طليطلة، وحكموا مرسية وبلنسية، ومنهم بنو هود في سرقسطة، وبنو زيري في غرناطة، وبنو حمود الأدارسة في الجزيرة ومالقة، وبنو عباد في إشبيلية، وبنو جهور بقرطبة، وبنو صمادح بالمرية، وبنو الأفطس ببطليوس غربي الأندلس، وبنو عامر والصقالبة بشرق الجزيرة (1).

“... وذهب أهل الأندلس من الانشقاق والانزعاج والافتراق، إلى حيث يذهب كثير من أهل الأقطار، مع امتيازها بالمحل القريب، والخطة المجاورة لعباد الصليب، ليس لأحدهم في الخلافة إرث، ولا في الإمارة سبب، ولا في الفروسية نسب، ولا في شروط الإمامة مكتسب، اقتطعوا الأقطار، واقتسموا المدائن الكبار، وجبوا العملات وأمصار، وجندوا الجنود، وقدموا القضاة، وانتحلوا الألقاب، وكتبت عنهم الكتاب والأعلام، وأنشدهم الشعراء، ودونت بأسمائهم الدواوين، وشهدت بوجوب حقهم الشهود، ووقفت بأبوابهم العلماء، وتوسلت إليهم الفضلاء، وهم ما بين مدحوب، وبربري مجلوب، ومجنود غير محبوب، وغفل ليس في السراة بمحسوب، ما منهم من يرضي أن يسمى ثائر، ولا لحزب الحق مغايرا، وقصاري أحدهم أن يقول: “ أقيم علي ما بيدي، حتى يتعين من يستحق الخروج به إليه “ ولو جاءه عمر بن عبد العزيز لم يقبل عليه، ولا لقي خير لديه. ولكنهم استوفوا في ذلك أجالا وأعمالا، وخلفوا آثارا، وإن كانوا لم يبالوا اغترارا، من معتمد ومعتضد ومرتضي وموفق

ومستكشف ومستظهر ومستعين ومنصور وناصر ومتوكل... “ (1).

ويقول ابن خلدون: “... كذا دولة بني أمية بالأندلس لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمرها، واقتسموا خطتها وتنافسوا بينهم وتوزعوا ممالك الدولة، وانتزى كل واحد منهم على ما كان في ولايته وشمخ بأذنه. وبلغهم شأن العجم مع الدولة العباسية، فتلقبوا بألقاب الملك ولبسوا شارته، وأمّنوا ممن ينقض ذلك عليهم أو يغيره، لأن الأندلس ليس بدار عصائب ولا قبائل كما سنذكره، واستمر لهم ذلك، كما قال ابن شرف:

مما يزهدي في أرض أندلس :: أسماء معتصم فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها :: كالحر يحكي انتفاخاً صورة الأسد

فاستظهروا على أمرهم بالموالي والمصطنعين والطرء على الأندلس من أهل العدو من قبائل البربر وزناتة وغيرهم، اقتداء بالدولة في آخر أمرها في الاستظهار بهم، حين ضعفت عصبية العرب، واستبد ابن أبي عامر على الدولة. فكان لهم دول عظيمة استبدت كل واحدة منها بجانب من الأندلس وحظ كبير من الملك على نسبة الدولة التي اقتسموها، ولم يزلوا في سلطانهم ذاك، حتى جاز إليهم البحر المرابطون أهل العصبية القوية من لمتونة، فاستبدلوا بهم وأزالوهم عن مراكزهم ومحو آثارهم، ولم يقدروا على مدافعهم لفقدان العصبية لديهم... “ (2).

وكان تمزق الأندلس على هذا الشكل المأساوي ضرب لكيان الدولة الإسلامية لم تفق منها أبداً، بل إنها كانت البداية الحقيقية لانحلال الدولة الإسلامية رغم ما انتابها في بعض الأحيان من صحوات ويقظة مدت في عمرها هنا مئات الأعوام.

وواكب هذا الضعف الأندلسي تولي الملك ألفونسو السادس عرش قشتالة، الذي عمل جهده للاستفادة من هذا التدهور الذي أحاط بالدولة الإسلامية هناك، فبدأ باستغلال الصراع الدائر بين هذه الممالك، وأخذ يضرب بعضها ببعض، ويفرض عليها الأتاوات والغرامات حتى يستنفذ طاقتها، ومن ثم تسقط في يده كالثمرة الناضجة.

(1) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 144.

(2) المقدمة، ص 77.

دولة بني جهور في قرطبة

تقلبت الخلافة في أواخر عهد بني أمية في قرطبة بين أعقاب بني أمية وبين المتغلبين من بني حمود، وعندما غارد علي بن حمود قرطبة إلى مالقة سنة 417 هـ ثار القرطبيون وقتكوا بالحامية البربرية، وأجمعوا علي رد الأمر لبني أمية، وكان عميدهم في ذلك هو الوزير أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور (1).

وفي ظل هذا التطور بويع بالخلافة هشام بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر في ربيع سنة 418 هـ وتلقب بالمعتد بالله، وقدم من منفاه إلى قرطبة سنة 420 هـ / ولكنه أساء السيرة حتي أسخط عليه أهل قرطبة وقرروا خلعه، فغادر المدينة ناجيا بنفسه وولده سنة في ذي القعدة سنة 422 هـ، ثم أجمع الناس علي إلغاء الخلافة الأموية والتخلص نهائيا من الأمويين، وكان المحرك لهذه الأحداث هو أبو الحزم جهور.

وبعد أن أصبح مركز السلطة العليا في قرطبة شاغرا تطلعت الأنظار إلى الوزير أبو الحزم بن جهور، لما كان يتمتع به من رفيع المكانة والحزم ورجاحة العقل، وحسن التدبير، وكونه هو المؤهل لقيادة سفينة قرطبة وسط أمواج الفتنة التي كانت تشهدها الأندلس، واختير ابن جهور بإجماع الأراء لتولي منصب الزعامة في

(1) جَهْورُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ جَهْورِ أَبُو الْحَزْمِ الْقُرْطُبِيُّ.

الرئيس أبو الحزم القُرْطُبِيُّ، الوزيرُ، مِنْ بَيْتِ رِئَاسَةِ وَوَزَارَةِ، مِنْ ذُهَاةِ الرَّجَالِ وَعَقْلَانِهِمْ، دَبَّرَ أَمْرَ قُرْطُبَةٍ، وَاسْتَوْلَى عَلَيْهَا، لَكِنَّهُ مِنْ عَقْلِهِ لَمْ يَتَسَمَّ بِالْإِمْرَةِ، وَرَدَّبَ الدَّوَابِّينَ وَالْحَشَمَ عَلَى بَابِ الْقَصْرِ، وَلَمْ يَنْتَقِلْ مِنْ بَيْتِهِ، وَأَنْفَقَ فِي الْجُنْدِ الْأَمْوَالِ، وَأَقَامَ الْعُمَالِ، وَفَرَّقَ الْغَدَدَ عَلَى الْعَامَةِ. وَكَانَ عَلَى طَرِيقَةِ الرُّؤَسَاءِ الصَّالِحِينَ، فَاسْتَمَرَ أَمْرُ النَّاسِ مَعَهُ مُسْتَقِيمًا إِلَى أَنْ تُوفِّيَ فِي صَفَرٍ، سَنَةِ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ وَأَرْبَع مِائَةٍ.

فَقَامَ بَعْدَهُ ابْنُهُ الرَّئِيسُ أَبُو الْوَلِيدِ مُحَمَّدُ بْنُ جَهْورٍ، فَجَرَى فِي السِّيَاسَةِ عَلَى مِنْهَاجِ أَبِيهِ سَوَاءً، وَبَقِيَ كَذَلِكَ مُدَّةَ سِنِينَ.

وَكَانَ وَالِدُهُ أَبُو الْحَزْمِ مِنْ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ.

وَكَانَ مِنْ صِغَارِ وَرَرَاءِ دَوْلَةِ ابْنِ أَبِي غَامِرٍ.

وَكَانَ يَقُولُ:..

أَنَا مُسَبِّكُ أَمْرِ النَّاسِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ لَهُمْ مَنْ يَصْلُحُ لِلْخِلَافَةِ.

فَاسْتَقْبَلَ بِالسُّلْطَنَةِ، وَاسْتَرَاحَ مِنْ اسْمِهَا، وَكَانَ يَجْعَلُ ارْتِفَاعَ الْأَمْوَالِ وَدَائِعَ عِنْدَ التُّجَّارِ وَمُضَارَبَةً.

وَكَانَ يَعُودُ الْمَرْضَى، وَيَشْهَدُ الْجَنَائِزَ وَهُوَ بِزِيِّ الصَّالِحِينَ، وَلَهُ هَيْبَةٌ عَظِيمَةٌ، وَأَمْرٌ مُطَاعٌ، عَاشَ إِحْدَى

وَسَبْعِينَ سَنَةً. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 33 / 123.

قرطبة (1).

وينتمي ابن جهور إلى بيت من أعرق البيوتات الأندلسية، وكان جدهم الداخل إلى الأندلس يوسف بن بخت بن أبي عبيدة الفرسى، مولى عبد الملك بن مروان، دخل في كنف الطليعة البلجية، وكان من أنصار عبد الرحمن الداخل، ثم ولاء عبد الرحمن حجابته، ثم تولي القيادة في عهد ولده هشام، وتولي أبناؤه وأحفاده بعد ذلك مناصب الوزارة والقيادة تباعا في ظل أمراء بني أمية وخلفائهم، وتولي أبو الحزم جهور الكتابة لعبد الرحمن المنصور في نهاية المئة اربعة، حتي كانت الفتنة وانهيىار الدولة العامرية، وعاصر الحوادث والانقلابات العاصفة، التي شهدتها عاصمة الخلافة آنذاك، وتولي الوزارة لعلي بن حمود مؤسس الدولة الحمودية، ولما ثار أهل قرطبة علي الحموديين كان هو زعيمهم، ولما أجمعوا علي عودة الخلافة الأموية ومن ثم إسقاطها كان ذلك بناء علي مشورته، حتى غدا في نهاية الأمر هو "شيخ الجماعة" وزعيم المدينة الحقيقي، ولم يكن مستغربا أن يختاره الشعب رئيساً لحكومة قرطبة الجديدة (2).

وأصبح ابن جهور رئيسا لحكومة تبسط سيادتها علي منطقة تمتد من جبل الشارات شمالا إلى حدود غرناطة جنوبا ومن منابع نهر الوادي الكبير شرقا إلى استجة غربا، وتشمل مدن قرطبة وجيان وأبدة وبياسة والمدور وأردونة وأندوجر.

شكل أبو الحزم مجلس شوري من صفوة الزعماء يتحدث باسمهم، وكان لا يقدم علي أمر إلا بعد استشارتهم وموافقتهم، وقد عرفت هذه الحكومة بـ "حكومة الجماعة" وكانت هذه الحكومة فريدة من نوعها في التاريخ الإسلامي، وكانت تشكل حكومة الأقلية في ظل عصر سادت فيه النزعة الفردية والملكية المطلقة (3).

وسلك جهور في حكومته مسلك الأصالة والحزم، وكان أول همهم أن يجمع الشعب، وأن يوطد دعائم النظام والأمن، فصانع زعماء البربر

(1) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 3 / 21.

(2) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 3 / 21.

(3) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 197.

واستمالهم بالرفق وخفض الجناح، اتقاء لدسائسهم وتهدة لثورات أطماعهم، فحصل علي محبتهم وسلمهم، وجعل أهل الأسواق جنداً، وفرق فيهم السلاح، وفي البيوت، حتى إذا دهم أمر في الليل أو النهار، استطاع أهل المدينة الدفاع عن أنفسهم، وأصلح القضاء، وعمل علي حفظ العدالة بين الناس، وقضي علي كل مظاهر البذخ والإسراف، وخفف أعباء المكوس، وعمل علي حفظ الأموال العامة، ولا سيما الأموال السلطانية، حيث عهد بتحصيلها وحفظها، إلى رجال ثقات يشرف عليهم بنفسه، وحرص علي تشجيع المعاملات والتجارة، ومن ذلك أن فرق الأموال علي التجار لتكون بيدهم ديناً عليهم، يستغلونها ويحصلون علي ربح فقط، وتحفظ لديهم، ويحاسبون عليها من وقت لآخر، وكان من نتيجة هذه الإجراءات أن حل الرخاء مكان الفساد، وازدهرت الأسواق وتحسنت الأسعار، وغلت الدور، ونمت الموارد (1).

يقول ابن حبان عن فترة حكم بني جهور: "... وفي منتصف ذي الحجة من سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، بعد خلع هشام المعتد ومقتل وزيره حكم الحائك، اجتمع المأ من أهل قرطبة على تقليد أمرهم وتأميرهم للشيخ أبي الحزم ابن جهور، وعددوا من خصاله ما لم يختلف فيه أحد منهم، وأبى من ذلك، فألحوا عليه، حتى أسعفهم شارطاً اشتراك الشيوخين: محمد بن عباس وعبد العزيز بن حسن ابني عمه خاصة من بين الجماعة، فرأوا مشورتها دون تأمير، فرضي الناس بذلك، وخلعوا من دونهم من الرؤساء، ووجدوا له عقد الرياسة، فأعطوا منه قوس السياسة باريها، وولوا من الجماعة أمينها المأمون عليها، فاخترع لهم لأول وقته نوعاً من التدبير حملهم عليه، فاقترن صلاحهم به، واقتصر من الجند على أعيانهم، وسد باب البرابر جملة إلا من قد صار في البلد من بني يفرن الموثوق بهم، وأقصى من سواهم من فرق البرابرة من غير إحاش، فنال منهم الرضى، وملكهم عما قليل، وأصبح في ذلك عجباً.

وأجاد السياسة، فانسدل به الستر على أهل قرطبة مدته، وحصل كل ما يرتفع من البلد في جميع أوقاته، بعد إعطاء مقاتلته فارسهم وراحلهم، وصير ذلك بأيدي ثقات من أهل الخدمة، مشارفاً لهم بضبطه، فإن فضل شيء تركه بأيديهم مثقفاً

مشهوداً عليه إلى أن يعن وجه تصرفه فيه، لا يلتبس بشيء منه ولا يدخل داره، ومتى سئل قال: " ليس لي عطاء ولا منع، هو للجماعة وأنا أمينهم "؛ وإذا رابه أمر أو عزم على تدبير، أحضرهم وشاورهم فيسرعون إليه، فإذا علموا مراده فوضوا إليه بأمرهم؛ وإذا خوطب بكتاب لا ينظر فيه إلا أن يكون باسم الوزراء. فأعطى السلطان قسطه من النظر، ولم يخل مع ذلك من النظر لنفسه وترقيحه لمعيشته، حتى تضاعفت ثراؤه وصار لا تقع عينه على أغنى منه، حاط ذلك كله بالبخل الشديد والمنع الخالص، اللذين لولاهما ما وجد عائبه طعناً، ولكمل لو أن بشراً يكمل. وكان مع براعته ورفعة قدره، وتشبيده لقديمه بحديثه، من أشد الناس تواضعاً وعفة وصلاحاً، وأنقاهم ثوباً، وأشبههم ظاهراً بباطن، وأولاً بآخر، لم يختلف به حال من الفتاء إلى الكهولة، ولم يعثر له قط على حال يدل على ريبة؛ جليس كتاب منذ درج، ونجى نظر منذ فهم، مشاهداً للجماعة في مسجده، خليفة الأئمة متى تخلفوا عنه، حافظاً لكتاب الله قائماً به في سره وجهره، متقناً للتلاوة، متواضعاً في رفعة، مشاركاً لأهل بلده، يزور مرضاهم ويشاهد جنائزهم.

واستمر ابن جهور في تدبير قرطبة، فأنجح سعيه بصلاحها، ولم شعثها في المدة القريبة وأثمر الثمرة الزكية، ودب دبيب الشفاء في السقام، فنش منها الرفات، وألحفها رداء الأمن، ومانع عنها من كان يطلبها من أمراء البرابرة المتكفين لها، المتوزعين أسلابها، بخفض الجناح والرفق في المعاملة، حتى حصل على سلمهم، واستدرار مرافق بلادهم. ودرأ القاسطين عليه من ملوك الفتنة، حتى حفظوا حضرته وأوجبوا لها حرمة، بمكابدته الشدائد حتى ألانها بضروب احتياله؛ فرخت الأسعار، وصاح الرخاء بالأناس أن هلموا، فلبوه من كل صقع، فظهر تزايد الناي بقرطبة من أول تدبيره لها حتى ملؤوا المساجد والأفنية، وسمت أثمان الدور بها، والابتناء لخرابها الفاشي، أخذاً بالهويناء، فاتصل البنيان بها، وغلت الدور، وحرکوا الأسواق، فعجب ذو التحصيل للذي أوى إليه في صلاح أحوال الناس من القوة ولما تعتدل حال، أو يهلك عدو، أو تقو جباية، وأمر الله تعالى بين الكاف والنون (1).

واستمرت حكومة الجماعة بزعامة ابن جهور اثنتي عشرة عاماً ساد الهدوء فيها وأضحت قرطبة ملاذا للزعماء الأفارين المخلوعين عن إمارتهم (2) ولكنه استجاب

(1) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، نشر الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، 2 / 604.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 3 / 213، 237، 240.

لمزاعم القاضي ابن عباد صاحب إشبيلية عندما ادعي أن الخليفة الأموي هشام بن الحكم حي يرزق، وذلك لدحض دعوي الحموديين سنة 426 هـ فندم علي الموافقة علي الأكذوبة خاصة عندما حصل ابن عباد علي مآربه من هذا العمل وطلب منه الدخول في طاعته⁽¹⁾.

توفي الرئيس أبو الحزم في محرم سنة 435 هـ / 1044 م وخلفه ابنه محمد أبو الوليد الذي تلقب بالرشيد، وسار الرشيد باديء ذي الأمر علي خطي والده، حيث أبقى كبار الموظفين في مراكزهم، وكان من معاونيه المؤرخ الكبير أبو مروان بن حيان، والشاعر الوزير أبو الوليد بن زيدون، وقد عهد إليه بالنظر علي أهل الذمة. وكان سفيره إلى أهل الأندلس، وحكامها، ثم ساءت سمعته لعلاقته بولادة بنت المستكفي الأموي، فسخط عليه أبو الوليد وسجنه، فأرسل إليه من السجن قصائد يستعطفه فيها ولكنه لم يلن له.

وأخيرا فر ابن زيدون من سجنه، وقصد إشبيلية سنة 441 هـ / 1049 م ودخل في خدمة المعتضد بن عباد فولاه الوزارة⁽²⁾.

يقول ابن حبان: "... وتوفي أبو الحزم ليلة الجمعة السادس من محرم سنة خمس وثلاثين وأربعمائة، فصار الأمر إلى ابنه أبي الوليد محمد بن جهور بن محمد بن جهور ابن عبيد الله السر من آل عبدة، نهاية الشرف الأثيل بقطربة، علي أس الدهر المغرب شأوه في نظم قلادة خمسة ككعوب الرمح أنبواً علي أنبوب، هم ما هم، تناقلوا الوزارة والكتابة ما بينه وبين خامسهم عبيد الله ذي المنقبة الزائدة، خولهم الله الرياسة علي تعاقب الأزمان واختلاف الأعصار، ولم تنقلها الفتنة إلى أن ورثها تربها هذا الوالي الفاضل أبو الوليد، ولما يعرف البؤس يوماً، فأعانه ذلك علي الحسب والمروءة، وأقر أبو الوليد لأول ولايته الحكام، وأولي المراتب علي حسب ما كانوا عليه أيام أبيه.

قال ابن حيان: وكنت ممن جادته سماء الرئيس الفاضل أبي الوليد الثرة، وكرم في فعله ابتداء من غير مسألة، فأقمني في زمرة العصابة المبرزة الخصل، مع كلال الحد وضعف الآلة؛ واهتدى لمكان خلتي وقد ارتشف الدهر بلالتي، بأن قلندي الذكر في ديوان السلطان المطابق لصناعتي، اللائق بتحرفي، براتب واسع، لولا ما

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 3 / 190 - 198.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 3 / 232.

أخذ على كتم ما أسداه لجهدت في وصفه، وإلى الله تعالى أفرع في إجمال المكافأة عني برحمته.

ثم اقتفى أبو الوليد آثار أبيه أبي الحزم في السياسة من درء الحدود ما وجد إلى ذلك سبيلاً، والتأول في تعطيل الإقادة بالحديد ألبته، لعدم الإمام المجتمع عليه في الوقت، والتربص لإدبار الفتنة؛ فأصبح من العجب العجائب تكاف الناس في الأعم عن النظام والتسافك، بخلاف ما كانوا عليه تحت الضبط الشديد، وتجاوز الحدود، بأيدي جبابرة أصحاب الشرطة أيام الجماعة، فلا يكاد يسمع لشرارهم من معهود ذلك إلا النادرة الفذة. وبرز أيضاً أبو الوليد في فك العقل السلطانية، وأنفذ الحكم في المظالم الديوانية، وعقار الغيب عن قرطبة التي أجلها الفتنة الغماء، أشياء عظيمة القدر توقف والده عنها، فأطلقها وردّها على أربابها، وشمل العالم الدعة.. (1).

ولكن لم يستطع أبو الوليد الاستمرار في حكومة الجماعة التي سار عليها أبوه، إذ تسلط عليه ابنه عبد الملك فعينه ولياً لعهدته وتلقب بذي السياتين المنصور بالله، الظافر بفضل الله، وخطب له علي المنابر، وأساء عبد الملك الأسيرة وقرب إليه الأشرار، ورغم ذلك فوض النظر في أمور الحكم إلى وزير والده إبراهيم بن يحيى المعروف بالسقاء سنة 440 هـ / 1049 م فضبط الأمور وعمل علي تهدئة الأحوال وتوطيد الأمن والنظام، واستمر علي ذلك فترة طويلة، وكان المعتضد بن عباد أمير إشبيلية يشعر بأن استمرار هذا الوزير القوي علي هذا النحو في رئاسة حكومة قرطبة يحول دون تحقيق مشاريعه في الاستيلاء عليها، فسعي لدي عبد الملك في حق ابن السقاء وحزبه من أطماعه واستثنائه بالسلطة وأغراه بقتله، وكان عبد الملك سيئ التدبير والرأي والتقدير، فاستمع لتحريض ابن عباد وقتل وزيره في كمين دبره له سنة 455 هـ / 1063 م (2).

وهنا بدأت عوامل الفساد تدب في الجهاز الحكومي، وزاد الوضع سوءاً أن حدثت المنافسة والصراع الكبير بين عبد الملك وأخيه عبد الرحمن، وصار الصراع بينهما علي السلطة محموماً، وصار كل واحد منهما يستجلب المناصرين من الجند والوزراء ويستكثر من الأحزاب، فلم يجد الأب أبو الوليد بداً من تقسيم مناصب الدولة بين الأخوين، فزاد الأمور تعقيداً وانقساماً، ثم مالبت أن تفوق عبد الملك

(1) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، نشر الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، 2 / 604.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 3 / 232، 251، 256.

وقبض علي أخيه وسجنه واستبد بالأمر دونه، فأطلق العنان لفساده وتهوره وأهواءه، وتمادي في مصادقة المعتضد ابن عباد الذي كان يدبر له الدسائس وتحين الفرص للاستيلاء علي قرطبة، فانصرف الناس عن بني جهور.

قال ابن حيان: وفي سنة ست وخمسين وأربعمائة كثر خوض أهل قرطبة في الذي رأوه من تنافس ولدي أبي الوليد محمد بن جهور في الانتصاب لخلافته: عبد الرحمن كبير جماعتهم، وأخيه عبد الملك أشهمهم فؤاداً وأصلبهم عوداً، الذي كشف عن وجوههم غمة مركسهم ابن السقاء، كافر نعمتهم، فاستدرك لهم ما كان تولى من سلطانهم، لفتكته به التي أثبتت أوتاد ملكهم، ثم شد يده بطلب حقه من ذلك، ونازع أخاه كبير عبد الرحمن ما ذهب إليه من التفرد به؛ وقد كان أشار على أبيهما ببعض حلفائه من رؤساء الأندل بإيثار عبد الرحمن منهما، فتمسك الشيخ بحظه من إرضاء ولده الصغير عبد الملك، فمال إلى قسمة الرياسة بينهما حياته، غير ناصب لأحدهما للأمر، يقضي الله به لمن يشاء بعده، صنيع والده فيه؛ فمتع نفسه بهواها في صغير ولده، وأنشد قول ابن الجزي:

وإذا الفتى فقد الشباب سما له :: حب البنين ولا كحب الأصغر

فأرتع ولديه هذين في دنياه، وبسط أيديهما في سلطانه، فطفقا يستميل كل منهما طائفة من الجند، ويصطنع من الرعية فرقة، ويفتاز من عقيدة الملك فلذة، فأصبح الأمر مختلطاً، والأر باب مذفرقين، والمخاوف تطلع من كل ثنية، واليهودي تؤذن بالأعجاز، والله كل يوم في شأن. ثم خاف عليهما، فجعل إلى أكبرهما عبد الرحمن النظر في أمر الجباية، والإشراف على أهل الخدمة ومشاهدتهم في مكان مجتمعهم، والتوقيع في الصكوك السلطانية المتضمنة للحل والعقد، والاطراح والضم، وجميع أبواب النفقات، ألجأ كل ذلك إلى ختمه، وأمضاه تحت حكمه. وجعل إلى عبد الملك النظر في الجند، والتولي لعرضهم، والإشراف على أعطيته، والركوب فيهم لدى الروع، وتجريدهم في البعوث، والتقوية لأولادهم، وجميع ما يخصهم؛ فرضياً منه بهذا التقسيم، وأقامها به على الصراط المستقيم⁽¹⁾.

وفي تلك الأثناء خرج المأمون يحيى بن ذي النون في قواته من طليطلة قاصدا قرطبة للاستيلاء عليها، واستولي علي عدد من الحصون في الطريق إليها، واتصل

(1) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، نشر الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، 2 / 604 - 605.

ببعض الناقمين علي بني جهور لتسهيل دخولها، ولكن المدينة أتمت الاستعداد لهذه المواجهة، فلم يجد المأمون بدا من التراجع عنها، بعدما رأي من شدة تحصينات قرطبة، وفي تلك الأثناء كان عبد الملك قد استعان بالمعتمد بن عباد الذي خلف أباه المعتضد في حكم إشبيلية سنة 461 هـ وطلب منه النجدة، فتقدمت القوات، وتظاهرت بمساعدته، ثم اقتحمت القوات العبادية الأبواب وملكوا المدينة وعاثوا في أنحائها نهبا وهنكا وسبيا، وكان ذلك في شعبان سنة 462 هـ / 1070 م، وتم القبض علي عبد الملك وأخوه عبد الرحمن وأبوهما الشيخ المريض المقعد، ومن معهم من بني جهور ونفوا جميعا إلى جزيرة شلطيث، الواقعة في مصب نهر أراد تجاه ولبة (1).

وهكذا انتهت دولة بني جهور بقرطبة، بعد أن لبثت أربعين عاما، وكانت أول دولة تسقط من بين دول الطوائف الرئيسية.

يقول ابن حبان: "... فلما كان سنة اثنتين بعدها، دلف ابن ذي النون إلى قرطبة، وكان لا يرغبها شره، ولا ينام عنها مكره؛ وقد احتاج عبد الملك بن جهور إلى استمداد من المعتمد لانفصاض من لديه، وعجزه عما كان أسند من تدبير قرطبة إليه، فأمدّه المعتمد بجمهور أجناده، على أكابر قواده، قد تقدم إليهم بمرداه، ونهج إليهم سبيل إصداره وإيراده؛ فوافوا قرطبة، ونزلوا بربضها الشرقي، وأقاموا بها أياما يدمون حماها، وأعينهم تزدحم عليه، ويذبون عن جناها، وأفواههم تتحلب إليه. فلما سئم ابن ذي النون سفره واجتواه، وقضى من غزو قرطبة وطره وما قضاه، أخذ في الرحيل عنها، فما انقشعت سدفه ليله، ولا تمزق غبار سنابك خيله، حتى هتك العباديون الحريم، وركبوا الأمر العظيم؛ باتوا متحدثين بالقول، ثم غاسوا مظهرين للرحيل؛ وعبد الملك متأهب لتشبيعهم، عازم على البكور إلى توديعهم، وشكرهم على حسن صنيعهم؛ فلم يرعه إلا إحداقهم بقصره، وارتفاع أصواتهم بالبراءة من أمره، وإصمات الأفواه عن ذكره؛ وقد تمخضت له ليلته بيوم عقيم، وافتر له ناجذ صبحها عن ليل بهيم، ومشى من أنصاره هنالك بين أسد شتيم، وأسود مسموم:

ومن يجعل الضرغام للصيد بازه :: تصيده الضرغام في من تصيدا

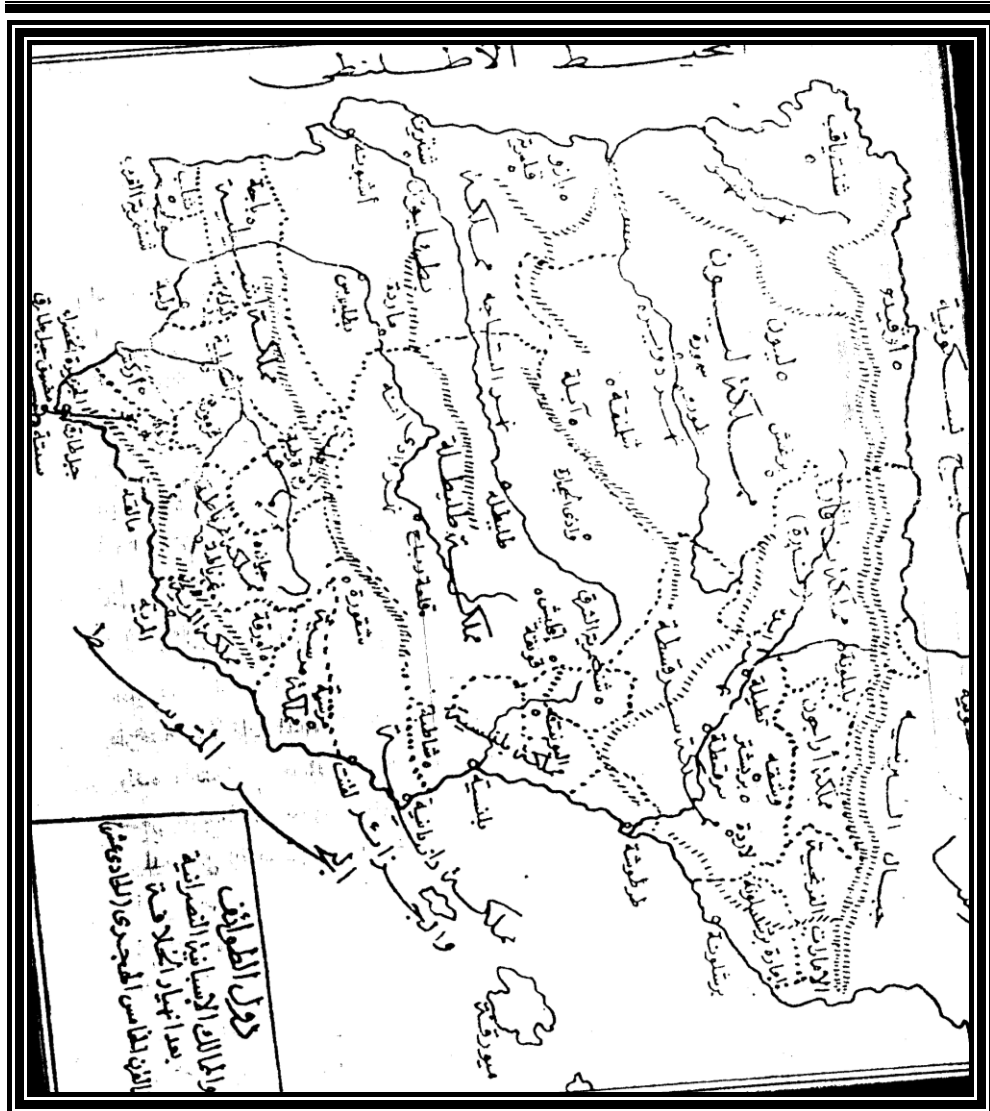
وقبض للحين عليه وعلى إخوته، وسائر أهل بيته وأسرته. وبالغوا لوقتهم في انتهاك حرمة، وإزالة نعمه، وإخفاف ذممه. وأخرج الشيخ اليفن أبو الوليد - بقية

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 3 / 210، أعمال الأعلام، ص 151، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 3 / 29.

أشراف الأندلس في وقته - مفلوج الشدق، مائل الشق، مغلوب الباطل والحق؛ لم تحفظ له حرمة، ولا رعي فيه إلا ولا ذمة.

بلغني أنه لما وسط به قنطرة قرطبة خارجاً منها على مركب هجين، وحاله تقرر عيون الحاسدين، رفع يديه إلى السماء، وأخذ يبتهل في الدعاء، وكان مما حفظ عنه قوله: اللهم كما أجبت الدعاء علينا فأجبه لنا؛ فمات بعد أربعين يوماً من نكبته بجزيرة شلطيّش مزال النعمة، (مزال الحرمة)، فتعالى المنفرد بالبقاء، جبار الأرض والسماء. وأقرت ساقته بها، فأقاموا هنالك أكثر أيام المعتمد، يأخذهم الحدثان ويدعهم، ويخفضهم الزمان أكثر مما يرفعهم (1).

(1) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، نشر الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، 2 / 605 - 606.



بنو عباد ومملكة إشبيلية

كان إسماعيل بن عباد يتولي (1) خطة القضاء بإشبيلية منذ أيام المنصور بن أبي عامر، وكان فضلاً عما يمتاز به من العلم والحكمة والورع، ينتمي إلى بيت من أعظم البيوت العربية الأندلسية، فلما وقعت الفتنة وسادت الفوضى كل ناحية من نواحي الأندلس، استمر إسماعيل في خطة القضاء، وأخذ في نفس الوقت يعمل علي حفظ النظام وضبط الأمور في المدينة ولما استولي بنو حمود علي إشبيلية سنة 407 هـ، بقي ابن عباد علي حاله في القضاء، وفي خلال تلك الفترة أخذ ابن عباد يعمل علي توطيد مركزه وتدعيم رياسته، ويعمل علي الأخص علي حماية المدينة من أطماع البربر وعبثهم، ويجمع حوله كلمة الزعماء حتى لا تغدو إشبيلية كما غدت قرطبة مسرحاً للفتنة، ومرتعا لأطماع البربر.

ولما اضطربت الفتنة، وتجهمت الظروف، استطاع بحزمه ودهائه ووجاهته وبذله، أن يستغل ظروف الفتنة علي أكمل وجه، وأن يجمع في يده أزمة الرياسة والحكم شيئاً فشيئاً، وبعد أن نال بغيته وأصبح هو المقدم في أمر إشبيلية ويشار إليه في ذلك بالبنان، وجد أن السنون قد أثقلت كاهله وأن المرض قد أعياه، فقدم ابنه أبا القاسم محمد ليشتغل مكانه خطة القضاء، وعلت مكانته في ظل سيطرة بني حمود علي إشبيلية، وصار من المقربين من المستعلي بن حمود، ولما وجد إختلال أمر بني حمود في قرطبة وإشبيلية وحدثت المنازعات بين أبناء البيت الواحد، اتفق أبا القاسم محمد مع وجهاء إشبيلية علي خلع بني حمود من إشبيلية ومنع المستعلي بن حمود من دخولها، واجتمع رأي أهل إشبيلية علي ثلاثة من الزعماء هم: القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد، والفقهاء أبو عبد الله الزبيدي، والوزير أبو محمد عبد الله بن مريم، وبعد قليل انفرد أبو

(1) القاضي ابن عباد هو أبو القاسم محمد بن ذي الوزارتين أبي الوليد إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطف بن نعيم، وعطف هو الداخل منهم بالأندلس في طالعة بلج بن بشر القشيري، وكان عطف من أهل حمص من صقع الشام لخمى النسب صريحاً، وموضعه من حمص العريش، والعريش في آخر الجفار بين مصر والشام؛ ونزل بالأندلس بقرية يومين من إقليم طشانة من أرض إشبيلية.

قال ابن حيان: وإسماعيل بن عباد قاضيهما القديم الولاية، ورجل الغرب قاطبة، المتصل الرئاسة في الجماعة والفتنة، وكان أيسر مكور بالأندلس وقته، ينفق من ماله وغلاته، لم يجمع درهماً قط من مال السلطان ولا خدمه، وكان واسع اليد بالمشاركة، أوى صنوف الجالية من قرطبة عند احتدام الفتنة، وكان معلوماً بوفور العقل وسبوغ العلم والركانة، مع الدهاء وبعد النظر وإصابة القرطاسة. أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، 3 / 15.

القاسم برياسة إشبيلية، بعد أن اختاره المستعلي بن حمود ليتقدم علي إشبيلية، في أواخر سنة 414 هـ / 1023 م (1).

يقول ابن حيان: "... فأما ذو الوزارتين أبو القاسم فأدرك متمهلاً، وسما بعد إلى بلوغ الغاية فخلط ما شاء وركب الجرائم الصعبة، وكان القاسم بن حمود قد اصطنعه بعد مهلك أبيه إسماعيل، ورد عليه ميراثه من قضاء بلده بعد بعده عنه مدة، وحصل منه بمنزلة الثقة، فخانته تخون الأيام عند إدبارها عنه، إثارةً للحزم وطلباً للعافية، فصده عن إشبيلية بلده لما قصده من قرطبة مفلولاً؛ وكان الذي وطد له ذلك نفر من أكابرها المرتسمين بالوزارة، مناغين في ذلك لوزراء قرطبة، على تحميلهم لابن عباد كبر ذلك، لإنافته عليه في الحال وسعة النعمة، وإدسانهم عليه ملك ثلث إشبيلية ضيعةً وغلةً، يخادعون به بذلك عن نشبه، إبقاءً منهم على نعمهم، وهو يشترى بذلك أنفسهم ولا يشعرون، إلى أن وقعوا في الهوة، وكانوا جماعةً منهم بنو أبي بكر الزبيدي النحوي وبنو يريم صنائع ابن عاد وغيرهم، راض بهم الأمور واستمال العامة، فلما توطأت له قبض أيدي أصحابه هؤلاء، وسما بنفسه فأسقط جماعتهم وجرت له في تدبيرهم أمور يشق إحصاؤها، ركب فيها أحزم طرق طلاب الدول، حتى انفرد بسابقته ومهد لدولته، واجتمع أهل عمله على طاعته، فدانوا له، وسلك سيرة أصحاب الممالك بالأندلس لأول وقته، وقام بأصح عزم وأيقظ جد، واخترع في الرياسة وجوهاً تقدم فيها كثيراً منهم، وامتنل رسم ابن يعيش صاحب طليطلة من بينهم في تمسكه بخطة القضاء وارتسامه باسمه، وأفعاله على ذلك أفعال الجبابرة، وأقبل لأول وقته يضم الرجال الأحرار من كل صنف، ويشترى العبيد، والجد يساعده والأمور تنقاد له، إلى أن ساوى ملوك الطوائف وزاد على أكثرهم بكثافة سلطانه، وكثرة غلمانه، فنفع الله به كافة رعيته ونجاهم من ملك البرابرة؛ وتدرج في تدبير ذلك أولاً أولاً، ومارسه شأنًا شأنًا، إلى أن استولى على أمده، ومهد، قواعد سلطانه، وشد أواخيه. وأخباره ماثورة مشهورة..." (2).

ونظم ذو الوزارتين أبو القاسم بن عباد حكم المدينة، واستأثر بحكم المدينة، وكان يبدي في أحكامه وتصرفاته كثيراً من اللين والرفق، وكان يعمل في هدوء وأناة علي التخلص من سائر منافسيه، والقضاء عليهم واحداً بعد الآخر، وعدم في نفس الوقت إلى شراء العبيد، وحشد الرجال واقتناء السلاح، وكان أل صدام مسلح خطير اشترك

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 3 / 194 - 196، 314، 315.

(2) أبو الحسن علي بن بسم الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، 3 / 16.

به أبو القاسم بن عباد قتاله مع بني الأفطس أصحاب بطليوس وهم جيرانه من الشمال بسبب الاستيلاء علي مدينة باجة، فتقدمت قوات بنو عباد واستولت علي المدينة وهزمت قوات بنو الأفطس وأسرت ولد ابن الأفطس، وأعيدت الحرب بينهما بعد ذلك بأربعة أعوام ودارت الدائرة علي بني عباد وهزمت جيوشهم هزيمة ساحقة بقيادة إسماعيل بن عباد سنة 425 هـ / 1034 م (1).

وبدأ الصراع جلياً بين الحموديين وبنو عباد، بعد أن هاجم يحيى بن حمود - المسيطر علي مالقة ومعظم قواعد الأندلس الغربية والجنوبية - الملقب بالمعتلي، قرمونة وانتزعها من يد صاحبها محمد بن عبد الله البرزالي، حليف أبو القاسم محمد بن عباد، فلجأ البرزالي إلى إشبيلية واستغاث بحليفه ابن عباد، الذي أعد العدة وخرج بالجيش لاستخلاص قرمونة ومساعدة حليفه البرزالي، فتمكن من السيطرة علي قرمونة وإعادتها إلى حليفه البرزالي، بعد قتل يحيى المعتلي سنة 427 هـ.

ولكن سرعان ما دب الخلاف بين حلفاء الأمس، إذ طمع ابن عباد في قرمونة ورغب في السيطرة عليها واستخلاصها من حليفه السابق، فاستولي عليها وعلي استجة وأشونة، وطرد البرزالي، الذي استعان بزملائه من زعماء البربر الذين هبوا لنجده، وأوقعوا الهزيمة النكراء بجيش بني عباد وهزموا الإشبيليين وقتل أميرهم إسماعيل بن عباد في سنة 431 هـ / 1039 م.

وعلى ما يبدو أن هذه الهزيمة قد أثرت في القاضي بن عباد، وسرعان ما وافته المنية في سنة 433 هـ / 1042 م (2).

فولي الأمر بعده ولده أبو عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل، وتلقب أولاً بفخر الدولة ثم بالمعتضد بالله، وكان يوم ولايته فتى في السادسة والعشرين من عمره، وكان مولده في صفر سنة 407 هـ / 1016 م.

وبدأ المعتضد عهده بأمر كشف عن صرامته وعنف وسائله، منها قتل حبيب وزير أبيه، ومنها إضطهاد الزعماء القدماء ونكبتهم، وقد كان في مقدمة هؤلاء الفقيه أبو عبد الله الزبيدي، وأبو محمد عبد الله بن مريم، زميلاً جده القاضي ابن عباد في الرياسة، وذلك حتى لا يقوم لأحد من ذوي العصبية القوية قائمة.

وفي ذلك يقول ابن حبان: "... ثم أفضى الأمر إلى عباد سنة ثلاث وثلاثين

(1) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 3 / 36.

(2) جذوة المقتبس، ص 29، 30.

وتسمى أولاً بفخر الدولة ثم المعتضد، قطب رchy الفتنة، ومنتهى غاية المدنة، من رجل لم يثبت له قائم ولا حصيد، ولا سلم عليه قريب ولا بعيد، جبار أبرم الأمور وهو متناقض، وأسد فرس الطلى وهو رابض، متهور تتحاشاه الدهاة، وجبار لا تأمنه الكماو، متعسف اهتدى، ومذبت قطع فما أبقي، ثار والناس حرب، وكل شيء عليه إلب، فكفى أقرانه وهم غير واحد، وضبط شأنه بين قائم وقاعد، حتى طالت يده، واتسع بلده، وكثر عديده وعدده؛ افتتح أمره بقتل وزير أبيه حبيب المذكور، طعنة في ثغر الأيام، ملك بها كفه، وجباراً من جبابرة الأنام، شرد به من خلفه، فاستمر يفرى ويخلق، وأخذ يجمع ويفرق، له في كل ناحية ميدان، وعلى كل رابية خوان، حربه سم لا يبطى، وسهم لا يخطى، وسلمه شر غير مأمون، ومتاع إلى أدنى حين.

وذكره ابن ديان فقال: وعشي يوم الأربعاء لست خلت لجمادى الآخرة سنة إحدى وستين، طرق قرطبة نعي المعتضد عباد زعيم جماعة أمراء الأندلس في وقته، أسد الملوك، وشهاب الفتنة، وراحض العار، ومدر ك الأوتار، وذو الأذباء البديعة، والحوادث الشنيعة، والوقائع المبيرة، والههم العلية، والسطوة الأبي، فرماه الله بسهم من مراميه المصمية، أجل ما كان اعتلائه، وأرقى ما كان إلى سمائه، وأطمع ما كان في الاحتواء على الجزيرة، محترفاً لها عند تشميره الذيل بفتنة لا كفاء لها، فتوفاه الله على فراشه من علة ذبحة قصيرة الأمد، وحية الإجهاز، اتفقت الحكايات أنها كانت شبه البغت. وكانت ولايته بعد موت أبيه القاضي يوم الاثنين غرة جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين، وقضى نحبه يوم السبت الثاني من جمادى الآخرة سنة إحدى وستين، ودفن عشي يوم الأحد بعده، تغمد الله خطاياه، فلقد حمل عليه على مر الأيام، في باب فرط القسوة وتجاوز الحدود، والإبلاغ في المثلة، والأخذ بالظنة، والإخفار للذمة، حكايات شنيعة لم يبد في أكثرها للعالم بصدقها دليل يقوم عليها، فالقول ينساغ في ذكرها؛ ومهما برئ من مغبتها فلم يبرأ من فظاعة السطوة وشدة القسوة، وسوء الاتهام على الطاعة، سجايا من جبلة لم يحاش فيها نوي رحم واشجة... “ (1).

علي كل حال، فبعد ان تولي المعتضد الأمر وضع خطته الشاملة للسيطرة علي إمارات غربي الأندلس من أمرائها الأصاغر، حتي يخلص الغرب كله من الوادي الكبير إلى المحيط لسلطان بني عباد.

(1) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، 3 / 25.

وشرع المعتضد بن عباد في مهاجمة لبلة الواقعة غربي إشبيلية، وكانت تحت سيطرة أبي عبد الله محمد بن يحيى اليعصبى الملقب بعز الدولة، الذي استعان بصديقه المظفر بن الأفطس صاحب بظليوس، واشتركا معا في حرب ضد ابن عباد سنة 439 هـ / 1047 م، ولكن دارت الدائرة علي ابن عباد مما جعله يعود أدرأجه، ومال إلى الصلح مع اليعصبى، ولكن سرعان ما عاد ابن عباد لمهاجمة بظليوس حاضرة بني الأفطس مرة أخرى سنة 442 هـ / 1050 م، وظلت الحرب قائمة بين الرجلين حتي تدخل ابن جهور وأقنع الرجلين بعقد الصلح بينهما (المعتضد وابن الأفطس) في ربيع الأول سنة 443 هـ / 1051 م.

والتقت المعتضد بعد ذلك إلى لبلة فضيق عليها الخناق حتى سلمت له، وقبض علي أميرها عز الدولة وأجبره علي التنازل عن عرش المدينة لابن أخيه أبي نصر فتح بن خلف اليعصبى الملقب بناصر الدولة، علي أن يعقد السلم مع المعتضد وأن يؤدي الجزية السنوية، وانتقل عز الدولة بأهله وأمواله إلى قرطبة ليعيش هناك في كنف ألوزير أبي الوليد بن جهور، وذلك في أواخر سنة 443 هـ، ثم ما لبث أن انقلب المعتضد علي ناصر الدولة وحاربه سنة 445 هـ / 1053 م واستولي لبلة وأجبره علي الفرار إلى قرطبة ليعيش إلى جوار عمه في كنف ابن جهور (1).

ثم يمم المعتضد وجهه باتجاه بقية أمارات الغرب الأندلسية، فحاول السيطرة علي إمارة ولبة وجزيرة شلطيـش، وكانت تحت حكم أبو زيد عبد العزيز البكري، وما زال المعتضد يحاربه حتى أجبره علي التنازل عن حكم ولاية وشلطيـش، وبيع أملاكه

فيهما والرحيل إلى قرطبة للعيش في كنف ابن جهور أسوة بزميله ابن يحيى أمير لبلة

سنة 443 هـ / 1051 م.

ثم أُرِدف المعتضد إمارة شنتمرية الواقعة علي المحيط في جنوبي البرتغال، التي كانت خاضعة لحكم أبو عبد الله محمد بن سعيد بن هارون، واستولي عليها سنة 443 هـ / 1051 م واصطحب أبو عبد الله محمد بن سعيد إلى أشبيلية ليكون تحت وصايته (2).

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 3 / 209 - 211.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 3 / 298 - 299.

ولم يعد أمام المعتضد من إمارات الغرب الأندلسي سوي كورة شلب الواقعة في أقصى جنوب البرتغال، وكانت تحت حكم محمد بن عيسى الملقب بعميد الدولة وظل المعتضد يناصبها العداء ويدخل مع ولائها المتعاقبين في حروب ودسائس، ويشن عليها الغارات المتلاحقة، حتى تمكن من فرض الحصار الخانق عليها، وقطع عنها سائر الإمدادات ثم اقتحمها بجيشه، ودخل القصر وقتل عيسى المظفر آخر ولاية دولة بني مزين سنة 455هـ / 1063م (1).

وفي عشرين عاما استطاع المعتضد بن عباد أن يقضي علي سائر إمارات الغرب الصغيرة، وأن ييسط سلطانه عليها، وأصبحت مملكة بني عباد تشمل سائر الأراضي الممتدة من شاطيء نهر الوادي الكبير غربا حتي المحيط الأطلنطي، هذا عدا رقعة شرقي الوادي الكبير.

ثم بدأ المعتضد يوجه اهتمامه للإمارات البربرية فحارب مورور أو مورون، وهي منزل بني دمر، وكانت تحت حكم مناد بن محمد بن نوح الملقب بعماد الدولة، وفرض عليها المعتضد الحصار الشديد وضيق عليها المسالك حتى اضطر عماد الدولة أن يذعن إلى التسليم، وسلم له المدينة سنة 458 هـ، علي أن يعيش عماد الدولة في إشبيلية تحت أعين المعتضد وحمايته (2).

ثم كانت رندة - منزل بني يفرن - هي الوجهة التالية للمعتضد بن عباد، وكانت آنذاك تحت حكم أبو نصر فتوح بن هلال بن أبي قرة اليفرني، فدرس عليه المعتضد رجلا من خاصته، وهاجمه ومخمور فقتله، ولم يبد أهل المدينة أية مقاومة، وخلصت رندة وأعمالها علي هذا النحو إلى المعتضد في سنة 457 هـ / 1065 م (3).

ثم استولي على الجزيرة الخضراء وكانت تحت حكم القاسم بن محمد بن حمود سنة 446 هـ / 1054 م، (4) قرمونة من يد عزيز بن محمد بن عبد الله البرزالي الملقب بالمستظهر بالله، سنة 459هـ / 1067 م (5).

وهكذا أضحت مملكة إشبيلية أو مملكة بني عباد تضم من أراضي الأندلس القديمة رقعة شاسعة تشمل المثلث الجنوبي من شبه الجزيرة، وأراضي الفرنديرة

(1) البيان المغرب، 3 / 292 - 298.

(2) البيان المغرب، 3 / 294.

(3) البيان المغرب، 2 / 212 - 213.

(4) البيان المغرب، 3 / 242 - 243.

(5) البيان المغرب، 3 / 312.

شمالا حتي شواطئ الوادي الكبير، ثم تمتد بعد ذلك من عند منحني الوادي الكبير، غربا حتي جنوبي البرتغال وشاطئ المحيط الأطلنطي، وبذلك أضحت أعظم ممالك الطوائف وأغناها من حيث الموارد الطبيعية، وأقواها من حيث الطاقة الحربية (1).

أما علاقة المعتضد مع ممالك النصاري، فتختلف اختلافا كبيرا، فإن كان المعتضد ابن عباد قد أظهر شجاعة وجسارة وقسوة كبيرة في معاملته لأبناء ملته من ملوك الطوائف، نجده يسلك مسلما مغائرا جدا مع ممالك النصاري، خاصة فرناندو الأول ملك قشتالة، ففي العام 455هـ / 1063 م خرج فرناندو الأول ملك قشتالة علي رأس جيش كبير من الفرسان والرماة وهاجم أراضي مملكة بطليوس وإشبيلية، فسارع المعتضد بن عباد إلى طلب الصلح والتعهد بدفع الجزية، وقصد المعتضد بنفسه إلى معسكر ملك قشتالة، وقدم له عهوده شخصيا، ولما توفي فرناندو بعد ذلك بثلاثة أعوام وخلفه ولده سانشو (شانجه) في حكم مملكة جليقية، كان المعتضد يؤدي إليه الجزية أسوة بأبيه، واستمر في تأديتها حتى وفاته (2).

وتوفي المعتضد بن عباد في الثاني من جمادي الآخرة سنة إحدى وستين وأربعمائة / مارس 1069 م، ويقال أن وفاته كانت بسبب ذبحة قصيرة ترتبت علي الإجهاد، وكانت مدة ولايته زهاء ثمانية وعشرين عاما (3).

يقول ابن حيان: "... كانت ولايته بعد موت أبيه القاضي يوم الاثنين غرة جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين، وقضى نحبه يوم السبت الثاني من جمادى الآخرة سنة (4ب) إحدى وستين، ودفن عشي يوم الأحد بعده، تغمد الله خطايه، فلقد حمل عليه على مر الأيام، في باب فرط القسوة وتجاوز الحدود، والإبلاغ في المثلة، والأخذ بالظنة، والإخفار للذمة، حكايات شنيعة لم يبد في أكثرها للعالم بصديقها دليل يقوم عليها، فالقول ينساغ في ذكرها؛ ومهما برئ من مغبتها فلم يبرأ من فظاعة السطوة وشدة القسوة، وسوء الاتهام على الطاعة، سجايا من جبلة لم يحاش فيها ذوي رحم واشجة.

وقد كان تقيل سيرة أحمد بن أبي أحمد بن المتوكل أحد أشداء خلفاء العباسيين الذي ضم نشر المملكة بالمشرق، و سطا بالمنتزين عليها، وبفقدته انهدمت الدولة،

(1) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 3 / 48.

(2) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 3 / 48.

(3) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، 3 / 26 - 27.

فحمل عباد سمته المعتضدية، وطالع بفضل ظره أخباره السياسية التي أضحت عند أهل النظر أمثلة هادية إلى الاحتواء على أمد الرياسة، في صلابة العصا وشناعة السطا، فجاء منها بمهولات يذعر من سمع بها فضلاً عن من عاينها، نسبوا إلى هذا الأمير الشهم عباد امتثالها من غير دلالة، وقد انطوى علم الله فيها وتقرر إرصاده للمكافأة بها؛ ولم يقصر عباد في دولته التي مهدها فوق أطراف الأسنة وصير أكثر شغله فيها شب الحروب، وكياد الملوك وإهراج البلاد، وإحراز التلاد، من توفر حظها الأوفى من الأمور الملوكية، والعدد السلطانية، والآلات الرياسية، فابتنى القصور السامية، واعتمر العمارات المغلة، واكتسب الملابس الفاخرة، وغالى الأعلاق السنية، وارتبط الخيول السابحة، واقتنى الغلمان الروقة، واتخذ الرجال الذادة، تناقهم من كل فرقة، فساس طبقاتهم ما بين إدراج الأعطية وضمنان الزيادة على صدق الصيال، والوفاء بالوعيد على النكول عن العدو، سياسة أعيت على أئداده من أملاك الأندلس، فخرج منهم رجالاً مساعير حروب، أباد بهم أقاتله... “ (1).

ويقول ابن ديان - عن شخص المعتضد بن عباد وسيرته -: “... وكان عباد أوتي أيضاً من جمال الصورة، وتمام الخلقة، وفخامة الهيئة، وسباطة البنان، وثقوب الذهن، وحضور خاطر، وصدق الحس، ما فاق أيضاً به على نظرائه. ونظر مع ذلك في الأدب، قبل ميل الهوى به إلى طلب السلطان، أدنى نظر بأذكى طبع، حصل منه لثقوب ذهنه على قطعة وافرة علقها من غير تعهد لها، ولا إمعان في غمارها، ولا إكثار من مطالعتها، ولا منافسة في اقتناء صحائفها، أعطته نتيجتها على ذلك ما شاء من تحبير الكلام، وقرض قطع من الشعر ذات طلاوة، في معان أمدته فيها الطبيعة، وبلغ فيها الإرادة، واكتتبت الأدياء للبراعة - جمع هذه الأظاهرة والباطنة إلى جود كف بارى بها السحاب. وأخبار عباد في جميع أفعاله وضروب أنحائه - عالناته وخافياته - غريبة بعيدة، وكان على تجرده في إحكام التدبير لسلطانه ذا كلف بالنساء، فاستوسع في اتخاذهن، وخط في أجناسهن، فانتهى في ذلك إلى مدى لم يبلغه أحد من نظرائه، قيل إنه خلف من صنوفهن السريريات خاصة نحواً من سبعين جارية، إلى حرته الحظية لديه الفذة من حلائله بنت مجاهد العامري أخت علي بن مجاهد أمير دانية، ففشا نسل عباد لتوسعه في الزكاح وقوته عليه، فذكر أنه

(1) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة 3 / 26، 27.

كان له من ذكور الولد نحو من عشرين ومن الإناث مثلهم...“ (1).

وبلغ من قسوة المعتضد بن عباد أنه قام بإنشاء حديقة ليس ككل الحدائق بل هي حديقة الرؤوس المحنطة، رؤوس أعدائه الذين سقطوا في ساحة الحرب، أو قتلوا غيلة، وحملت إليه رؤوسهم، والتي يقول عنها ابن ديان: “.. ومن نادرة أخباره المتناهية في الغرابة أن نال بغيته وأهلك تلك الأمم العاتية، وإن لغائب عن مشاهدتها، مترفه عن مكابذتها، مدبر فوق أريكته، منفذ لحيلها من جوف قصره، ما إن مشى إلى عدو أو مغلوب من أقتاله غير مرة أو اثنتين، ثم لزم عريسته يدبر داخلها أموره، جرد نهاره لإبرام التدبير، وأخلص ليله لتملي السرور، فلا يزال تدار عليه رؤوس الراح، ويحيا عليها بقبض الأرواح، التي لأناسيها من عدائه بباب قصره حديقة تطلع كل وقت ثمراً من رؤوسهم المهداة إليه، مقرطة الأذان برقاع الأسماء المنوّهة بخاملها، ترتاح نفسه لمعاينتها، والخلق يذعرون من التماحها، وهو واصل زعيم ليله بإجالة كيده، ومستدع نشاط لهوه بقوة أيده، له في كل شأن شؤين، وعلى كل قلب سمع وعين، ما إن سبر أحد من دهاة رجالة غوره، ولا أدرك قعره، ولا أمن مكره، لم يزل ذلك دبه منذ ابتدائه إلى انتهائه.

وكان محمد بن عبد الجبار الملقب بالمهدي، مفرق الجماعة بقرطبة، ومبتعث تلك الفتنة المبيرة، سبق عباداً إلى اتخاذ مثل هذه الحديقة المطلعة لرؤوس أعدائه، أيام أكثر له واضح الخصي العامري من إرسال برؤوس الخارجين عليه، لأول وقته، وأصلح بهم باب مدينته سالم، فغرس منها فوق الخشب المعلية لها بشط النهر حذاء قصره حديقة هول عريضة طويلة الخطة، جمّة عدد الصفوف المسطورة، فأضحت شغلاً للنظارة، وذكرتها شعراؤه مثل قول صاعد بن الحسين، من قصيدة أولها:

جلاء العين مبهجة النفوس :: حدائق أطلعت ثمر الرؤوس
 هناك الله مهدي المساعي :: جنى الهامات من تلك الغروس
 فلم أر قبلها وحشاً جميلاً :: كربه روائه أنس الأنيس
 فماذا يملأ الأسماع منها :: إذا ملئت من انباء الطروس

وقد كانت لعباد وراء هذه الحديقة المألئة قلوب البشر ذعراً، مباهاة بخزانة بلوى، أكرم لديه من خزانة جوهره، مكنونة جوف قصره أودعها هام الملوك الذين أبادهم بسيفه، منها رأس محمد بن عبد الله البرزيلي شهاب الفتنة، ورؤوس الحجاب

(1) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة 3 / 27، 28.

ابن خزرون وابن نوح وغيرهم الذين قرن رؤوسهم برأس إمامهم الخليفة يحيى بن علي بن حمود، سابقهم إلى تلك الرفعة، فخص رؤوسهم بالوصون بعد إذالة جسومهم الممزقة، وبالع في تطييبها وتنظيفها للاثواء لا للكرامة، وأودعها المصاؤون الحافظة لها، فبقيت عنده ثاوية تجيب سائلها اعتباراً... (1).

ويضيف المؤرخون: أنه لما افتتحت إشبيلية وخلع المعتمد بن عباد، عثر المرباطون علي هذه الرؤوس في جوالق وأوعية، ظن في البداية أن بها أموالاً أو جواهر، فهاهم الأمر لما وجدوا بها رفات من كان قتلهم المعتضد، وسلم كل رأس منها لمن بقي من عقب أصحابها... قال ابن بسام: فلما افتتحت إشبيلية وخلع المعتمد، حدثت أنه وجد جوالق مطبوع عليه، وظن أنه مال أو ذخيرة، فإذا هو مملوء رؤوساً، فأعظم ذلك وهال أمره، فدفع كل رأس منها لمن كان بقي من عقبهم بالحضرة، أخبرني من رأى رأس يحيى بن علي بن حمود يومئذ ثابت الرسم متغير الشكل، فدفع إلى بعض ولده فدفعه... (2).

* * *

المعتمد بن عباد

لما توفي المعتضد بن عباد خلفه يوم وفاته ولده محمد بن عباد، الملقب بالظافر، والمؤيد بالله، والمعتمد علي الله، وهو اللقب الذي غلب عليه واشتهر به طوال حياته. وكان المعتمد يوم جلوسه علي عرش مملكة إشبيلية فتي في الثلاثين من عمره، وكان مولده بمدينة باجة في سنة سنة 431 هـ / 1040 م (3).

وكان أول عمل قام به المعتمد بن عباد عقب ولايته هو الاستيلاء علي قرطبة وفق خطة سرية وضعها، وضم قرطبة إلى إشبيلية سنة 462 هـ / 1070 م ونذب ابنه عباد الملقب بسراج الدولة لحكم مدينة قرطبة نيابة عن أبيه.

ثم سار المعتمد بن عباد بقواته إلى جيان، أهم قواعد مملكة غرناطة الشمالية والتي كانت تحت حكم عبد الله بن بلقين، واستولي عليها سنة 466 هـ / 1074 م، ثم تقدم المعتمد بن عباد للسيطرة علي باقي مناطق غرناطة، فاستعان حاكمها بالنصاري وتعهد لألفونسو السادس ملك قشتالة بدفع الجزية مقابل عقد معاهدة تحالف وصدقة

(1) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، 3 / 27، 28.

(2) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، 3 / 27 - 28.

(3) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 3 / 59.

ودفاع مشترك ضد أطماع المعتمد بن عباد، فخرجت قوات عبد الله بن بلقين مع حلفائها النصاري وهاجمت قوات المعتمد بن عباد واستولت علي بعض الحصون التي كان قد استولى عليها في مملكة غرناطة، وفي نفس الوقت كان المأمون بن ذي النون قد انتزع قرطبة من ابن عباد سنة 467 هـ، ووكان ذلك سببا في تراجع المعتمد بن عباد عن مملكة غرناطة.

غير أن المعتمد بن عباد سارع لإفشال هذا التحالف، بأن عقد حلفا مع ملك قشتالة ألفونسو السادس، علي أن يدفع المعتمد لألفونسو السادس خمسون ألف دينار، مقابل أن يتعاونوا في غزو غرناطة، علي أن تكن المدينة ذاتها للمعتمد في حين يظفر ألفونسو السادس بكنوز القلعة الحمراء، وظهر أثر هذه المعاهدة علي الفور، إذ عمد النصاري إلى تخريب بسائط غرناطة، لاسيما مروجها الخضراء (1).

ومن الأحداث المهمة التي في عهد المعتمد بن عباد، ما كان من وزيره، أبو بكر محمد ابن عمار بن الحسين بن عمار المهري، وكان هذا الوزير من المعروفين بالأدب والشعر، وكثيرا ما مدح الوزراء والخلفاء لاسيما بني عباد، وقد لازم المعتمد بن عباد في شبابه، لاسيما عندما عهد إليه أبوه المعتمد بحكم مدينة شلب، ثم لما توفي المعتمد وآل الأمر للمعتمد بن عباد، جعل هذا الوزير في ركابه، وجعل منه ليس وزيره فقط بل ساعده الأيمن في جميع أموره ولم يكن يقدر علي فراقه طويلا، ونال ابن عمار الحظوة والمكانة لدي المعتمد لسنوات طويلة، وأنجز له الكثير من الأعمال المهمة، إلى أن فسد الجو بينهما بسبب تدخل الرميكية زوجة المعتمد، فكان ذلك إيذانا بنكبتها.

وكانت البداية نجاح الوزير ابن عمار والقائد عبد الرحمن بن رشيق، في الاستيلاء علي مدينة مرسية من قائدها أبو عبد الرحمن بن طاهر، سنة 471 هـ / 1078 م (2) وهنا بدأ النكبة إذ طمع الوزير ابن عمار في حكم المدينة حكما فرديا بعيدا عن سلطة المعتمد بن عباد، وبدأ يستقل بالمدينة بعيدا عن كل سلطة لابن عباد، كما أنه أهمل جانب ابن رشيق الفاتح الحقيقي للمدينة، الذي بدأ يتربص بابن عمار، ويتحين فرصة الوثوب إلى سدة المدينة، واستغل خروج ابن عمار عن مرسية لزيارة بعض الحصون الخارجية، فوثب ابن رشيق واستولي علي المدينة، وأغلق أبوابها في

(1) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 3 / 63.

(2) أعمال الأعلام، ص 160.

وجه ابن عمار، فكانت تلك الضربة خير جزاء له علي خيانتته.

ففر ابن عمار إلى بلاط ألفونسو السادس يطلب المساعدة ولكن ألفونسو رفض ذلك الطلب، فر حل إلى سرقسطة وكان أميرها ابن هود الذي توفي فخلفه ابنه المؤتمن سنة 475 هـ / 1081 م الذي أغري ابن عمار بمهاجمة حصن شقورة مع جماعة من أصحابه، وكان صاحب الحصن رجلاً داهية يدعي ابن مبارك فدعا ابن عمار مع صحبه إلى دخول لحصن، اندخدع لحفاوة الإستقبال، فما كان من ابن المبارك إلا أن ألقى القبض عليه في ربيع الأول سنة 477 هـ / 1084 م.

لما علم المعتمد بن عباد بذلك طلب من ابن المبارك تسليمه ابن عمار لقاء هدية كبيرة من الأموال والخيل، فسلمه لرسل المعتمد وزج به في غياهب السجن، وأخذ ابن عمار يرسل إلى القصائد الوجدانية مستعطفاً. وكاد المعتمد أن يطلق سراحه لولا وشاية أحدثت في البلاط وعلي رأسهم الوزير أبي بكر بن زيدون، وأخرجوا للمعتمد قصيدة يعرض فيها باعتماد الرميكية زوجة المعتمد، عندها أقدم المعتمد علي قتل وزيره بيده سنة 477 هـ / 1085 م (1).

وفي تلك الأثناء كانت قوة ألفونسو السادس في ازدياد وغدا ملوك الطوائف يستنصرونه علي بعضهم البعض، وكان يخطط للاستيلاء علي أملاك ملوك الطوائف الواحدة تلو الأخرى، وكان الفونسو قد استولي علي طليطلة سنة 478 هـ / 1085 م، ثم وضع خطته القاضية بالاستيلاء علي ملوك الطوائف ويلتهم المدينة تلو الأخرى، ومن ثم بدأ يضع خطته لتنفيذ الخطوة التالية، وذلك بالاستيلاء علي مملكة إشبيلية، أهم دول الطوائف وأقواها فوجه رسالة إلى المعتمد بن عباد ملؤها التهديد والوعيد ويطالبه بتسليم أعماله ويحذره من مثل مصير طليطلة ومحنتها، فقد قال ألفونسو في رسالته: "... من الامبراطور ذي الملتين الملك أدفونش بن شانجة، إلى المعتمد بالله، سدّد الله آراءه، وبصره مقاصد الرشاد. قد أبصرت تزلزل أقطار طليطلة، وحصارها في سالف هذه السنين، فأسلمتم إخوانكم، وعطّلتُم بالدّعة زمانكم، والحذر من أيقظ باله قبل الوقوع في الحباله. ولولا عهدٍ سلف بيننا نحفظ ذمامه نهض العزم، ولكن الإنذار يقطع الأعذار، ولا يعجل إلا من يخاف الفوت فيما يرومه، وقد حمّنا الرّسالة إليك السيّد البرهانس، وعنده من التّسديد الذي يلقي به أمثالك، والعقل الذي يدبّر به بلادك ورجالك، ما أوجب استنابته فيما يدق ويجلّ."

ولما ورد الكتاب علي المعتمد بن عباد استشار وزراءه وخاصته فكان منهم من أرجف وارتعدت فرائضه، خوفاً من ألفونسو السادس ومنهم من رأي ضرورة إعلان الجهاد في سبيل الله ضد ألفونسو السادس، في حين كان رأي المعتمد بن عباد هو محاربة ألفونسو والاستتجاد بالمرابطين في المغرب والاستعانة بهم في قتاله. يقول الذهبي: " فلما قدم الرسول أحضر المعتمد الأكابر، وقرئ الكتاب، فبكى أبو عبد الله بن عبد البر وقال: قد أبصرنا ببصائرنا أن مآل هذه الأموال إلى هذا، وأن مسالمة العين قوة بلاد، فلو تضافرنا لم نصبح في التلّاف تحت ذلّ الخلاف، وما بقي إلا الرجوع إلى الله والجهاد. وأما ابن زيدون وابن ليون فقالا: الرأي مهادته ومسالمته. فجنح المعتمد إلى الحرب، وإلى استمداد ملك البربر، فقال جماعة: نخاف عليك من استمداده. فقال: رعي الجمال خير من رعي الخنازير.

ثم أخذ وكتب جواب أدفونش بخطّه، ونصّه:

الذلّ تأباه الكرام وديننا :: لك ما ندين به من البأساء
سمناك سلماً ما أردت وبعد ذا :: نغزوك في الإصباح والإمساء
الله أعلى من صليكَ فادع :: لكيتية خطبتك في الهيجاء
سوداء غابت شمسها في غيمها :: فجرت مدامعها بفيض دماء
ما بيننا إلا التّزال وفتنة :: قدحت زناد الصّبر في الغماء

من الملك المنصور بفضل الله المعتمد على الله محمد بن المعتض بالله، إلى الطّاغية الباغية أدفونش الذي لقّب نفسه ملك الملوك، وتسمّى بذي الملتّين. سلام على من اتّبع الهدى، فأول ما نبدأ به من دعواه أنه ذو الملتّين والمسلمون أحقّ بهذا الاسم لأنّ الذي نملكه من نصارى البلاد، وعظيم الاستعداد، ولا تبلغه قدرتك، ولا تعرفه ملّتك. وإنّما كانت سنة سعدٍ اتّعظ منها مناديك، وأغفل عن الذّطر السّديد جميل مناديك، فركبنا مركب عجز يشحذ الكيس، وعاطيناك كؤوس دعة، قلت في أثنائها: ليس. ولم تستح أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك، وإنّا لنعجب من استعجالك وإعجابك بصنع وافقك فيه القدر، ومتى كان لأسلافك الأخدمين مع أسلافنا الأكرمين يدٌ صاعدة، أو وقفة مساعدة، فاستعد بحرب، وكذا وكذا.. إلى أن قال: فالحمد لله الذي جعل عقوبة توبيخك وتقريعك بما الموت دونه، والله ينصر دينه ولو كره الكافرون، وبه نستعين عليك. ثم كتب إلى يوسف بن تاشفين يستنجده... (1).

(1) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: د. عمر

* * *

الفصل السابع:

المرابطون في الأندلس

(479 - 555 هـ / 1086 - 1160 م)

الجدور التاريخية للمرابطين

القائد الرباني يوسف بن تاشفين 400 - 500 هـ / 1009 - 1106 م

موقعة الزلاقة:

الأندلس بعد الزلاقة

العبور الثالث للأمير يوسف بن تاشفين للأندلس

الجواز الرابع للأمير يوسف في الأندلس

الأندلس في عهد علي بن يوسف:

الأندلس في عهد تاشفين بن علي:

أسباب سقوط دولة المرابطين

* * *

الجدور التاريخية للمرابطين

إن المرابطين هم من قبيلة لمتونة، ولمتونة هذه بطن من بطون صنهاجة، أعظم القبائل البربرية، وهي بدورها فرع من فروع قبيلة البرانس الكبرى، وتعتبر قبائل صنهاجة أقوى قبائل البربر وأشدّها وأمنعها، واشتهرت بقوة شكيמתها، وكثرة رجالها الذين ملؤوا الشّمال الإفريقي وسكنوا جباله، وسهوله وخصوصاً من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى (1).

واعتبر بعض المؤرخين قبائل صنهاجة مثلت شعباً انضوت تحت لوائه أكثر من سبعين قبيلة بربرية، ومن أهم هذه القبائل وأشهرها لمتونة، وجدالة، ولمطة، ومسوفة، وهي التي تكوّنت منها دولة المرابطين (2) السّنيّة.

(1) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 3 / 299.

(1) الرباط: حصن حربى يُقام في الثغور المواجهة للعدو للذود عن ديار المسلمين، وهذه التسمية مقتبسة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة:.

أما القرآن الكريم فمن قوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ} [الأنفال: ٦٠]، ومن قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَاصْبِرُوا وَرَاطِبُوا} وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وفى الحديث النبوى في البخارى جاء فضل الرِّبَاط في سبيل الله تعالى عن سهل بن سعد الساعدي - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَمَوْضِعٌ سَوَاطِئِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَالرُّوحَةُ يَرْوَحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ الْغَدْوَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا — (1). رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير (ج3/295)، حديث رقم (2892).

وأصبحت كلمة رباط تطلق على الشخص الذي خرج إلى الثغور للدفاع عن المسلمين من أعدائهم، وأطلق المسلمون على الثغر أى المحل الذي يقيمون فيه اسم الرِّبَاط.

ويحتوى الرِّبَاط على برج مراقبة وحصن صغير، وقد أقام ولاة الثغور كثيراً من هذه الرُّبُط لحماية حدود الدولة الإسلامية على مرّ التَّاريخ، فكان في بلاد ما وراء النهر عشرة آلاف رباط، وكذلك في ثغور الجزيرة الفراتية، وكانت سواحل المغرب المطلة على البحر المتوسط عرضة لغارات البيزنطيين أكثر من غيرها، فأقيمت فيها الرُّبُط وشحنت بالمجاهدين للدفاع عنها، حتى إن الصَّحَابِيَّ الجليل عقبة بن نافع الفهري عندما أراد بناء مدينة القيروان بلغت الحماسة برجاله فاقترحوا عليه إقامتها على الساحل للمرابطة فيها، وقالوا له: قَرَّبْهَا مِنَ الْبَحْرِ لِيَكُونَ أَهْلُهَا مِنَ الْمُرَابِطِينَ».

وقد توسَّعت الرُّبُط في عهد العباسيين، وبنى والى العباسي هرثمة بن أعين أول رباط في إفريقية عام (179هـ / 795م) وتوسَّع الأغالبة في هذا المجال توسُّعاً عظيماً، وأقام والى زيادة الله الأغلبى رباط سوسة عام (206هـ / 822م).

وكان الأغالبة يسمون هذه الرُّبُط بالقصور والمحاريس، وقد انتشرت من الإسكندرية إلى المحيط الأطلسي، وكان أهالى الشّمال الإفريقي يلجؤون إليها إذا داهمهم الغزاة، وقد قاومت هذه الثغور أساطيل وجيوش البيزنطيين الذين عجزوا رغم تفوقهم البحرى عن احتلال الساحل الإفريقي، وقد التزم المقيمون

وكانت لمتونة، كسائر القبائل البربرية، تدين بالمجوسية، واستمروا علي ذلك حتى ذاع بينهم الإسلام عقب فتح الأندلس، وبدأت رئاستهم منذ ذلك الحين تتخذ نو عا من من الملك، ففي أواسط القرن الثاني الهجري كان ملكهم يدعي تيولوثان بن تيكلان الصنهاجي اللمتوني، ولما توفي سنة 222هـ خلفه في الرياسة حفيده الآثر بن بطين بن تيولوثان، واستطال حكمه زهاء خمسة وستين عاما، حتي وفاته سنة 278هـ فخلفه ولده تميم، واستمر في الحكم إلى أن ثار عليه في سنة 306هـ أشياخ قبيلة صنهلجة وقتلوه، وعندئذ افتقرت كلمة الجماعة، وانقسموا شيعا، واستمروا دون رياسة جامعة زهاء مائة وعشرين عاما، إلى أن قام فيهم الأمير أبو عبد الله بن تيفاوت اللمتوني، المعروف بتار سنا، فالتفوا حوله، واجتمعوا علي رياسته، وبعد وفاته خلفه صهره الأمير يحيي بن إبراهيم الجدالي، زعيم قبيلة جدالة أو كدالة، وهي

في هذه الثغور بالاهتمام بالفروسية والتدريب عليها خاصة، بالإضافة إلى كل التدريبات الجهادية الأخرى التي أهلتهم للقيام بمهماتهم على أكمل وجه من الذود عن دياض المسلمين والجهاد في سبيل الله.

وإلى جانب المهمات الجهادية التي قامت بها الثغور فقد اهتمت بالناحية العلمية، فمع انتشارها أخذت التعاليم الإسلامية تنتشر من خلالها، وقد قام فقهاء أهل السنة والجماعة في تلك الثغور من فقهاء المالكية بدور ريادي عظيم في وجه التيارات الفكرية والمذهبية التي عصفت بالمشرق، وكانت الرُّبُط والثغور والقلاع والحصون هي المنطلق لنشر ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه من عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملة، وأصبحت الثغور في الشمال الإفريقي مدارس علمية تدرّس أمور الدين من فقه وحديث وتفسير وأصول وغيرها، وكانت حياة أهل الثغور تقوم على أساس من التعاون بين أفرادها لتحقيق حياة إسلامية مثالية، وكان الأفراد يجمعون المون بأنفسهم عن طريق الصيد البري والبحري حسب موقع الرُّبُط، وكذلك يقومون بإعداد الطعام، وكل ما تتطلبه عمليات التموين من زراعة وصناعة آلاتها بالإضافة إلى صناعة الأسلحة.

وأما من ناحية العبادة، فالجماعة التي التزمت بالرُّبُط مؤمنة بربها وبرسالة الإسلام، فكانت العبادة تقتصر على الصلوات الخمس جماعة، وقد وضعت عقوبات لمن يتأخر عنها.

وفي أوقات السلم كانوا يحفظون القرآن وتفسيره وكل ما يمت إلى الدين بصلة، ويؤمنون بالمهمات التي تتعلق بحياة الرُّبُط، وبما أن التبشير بهذا الدين والدعوة إليه من أهم واجباتهم؛ فكانوا يخرجون إلى القبائل لهدايتها وترغيبها في الإسلام وتربيتها عليه، وقد أدت الثغور في الشمال الإفريقي خدمات جليلة للإسلام وللمسلمين، فقد عصمت أهل المغرب إلى حد كبير من الفتن التي سادت المشرق، وكان لمنهج أهل السنة والجماعة شوكة وحماة وعلماء وفقهاء في تلك الربوع من عالمنا الإسلامي، وتميَّز أهل الثغور عن غيرهم بالزهد والتقشف والتفاني في سبيل الله، ولا يبتغي أهلها من الدّاس من وراء ذلك جزاء ولا شكورا، وإنما لسان حالهم: {إِنَّا خَافُ مِنْ رَبِّنَا مَوْعِدًا مُّطَرِّدًا} [الإنسان: ١٠]. انظر: المالكي، رياض النفوس، ص 6، دائرة المعارف الإسلامية مادة رباط، ص 19، الصلابي، دولة المرابطين، ص 24، 25.

شقيقة لمتونة يجمعهم أب واحد (1).

كان الأمير يحيى بن إبراهيم سيّدًا مطاعًا في قومه لما عُرف عنه من شجاعة وكرم وجود ومقدرة قيادية عالية، واشتهر برجاحة عقله ونفاذ بصيرته وسداد رأيه وحرصه على هداية قومه.

خرج هذا الأمير الجليل من ديار المُلتَمِّين قاصدًا بيت الله الحرام، لأداء فريضة الحج تاركًا الحكم لابنه إبراهيم عام 427هـ - 1035م.

وكانت العادة أن يقتَرَنَ الحج بطلب العلم، وبعد أداء الفريضة، انطلق الأمير يحيى يبحث عن المعرفة في مدارس المغرب الفقهية طالبًا للعلم لإرواء روحه الظمأى إلى نور المعرفة الإسلامية التي اندرست معالمها في بلاده، ورمّت به أقدارُ الله في حَلَقَةِ إمام المغرب في زمانه في مدينة القيروان «الإمام أبو عمران الفاسي» (2) الذي تعلّقت نفسُ الأمير يحيى بتعاليمه وفقهه، و عرض نفسه على الإمام أبي عمران الفاسي الذي ورث زعامة المدرسة المالكية التي انتصرت على الهيمنة الإسماعيلية العبيدية الباطنية الرافضية، واستردّت حريتها كاملة بعد جهادهم المرير الذي أصبح معلّمًا من معالم أهل السنة في الشّمال الإفريقي.

(1) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 3 / 300.

(1) هو موسى بن عيسى بن أبي حاج بن وليم بن الخير العَفْجُومي، وعَفْجُوم فخذ من زناتة من هوارة، وأصله من فاس، وبيته بها بيت مشهور، يعرفون ببنى أبي حاج، ولهم عقب، وفيهم نباهة إلى الآن. تفقّه بالقيروان عند أبي الحسن القابسي، وسمع بها من أبي بكر الدويلي، وعلى بن أحمد اللواتي السوسي، ورحل إلى قُرْطُبَة، فتفقّه بها عند أبي محمد الأصيلي، وسمع الحديث من أبي عثمان سعيد بن نصر،

وعبد الوارث بن سفيان، وأحمد بن قاسم، وغيرهم، ثم رحل إلى المشرق، فحج ودخل العراق، فسمع من أبي الفتح ابن أبي الفوارس، وأبي الحسن على بن إبراهيم المستملي، وأبي الحسن الخضر، وغيرهم من العراقيين، ودرس الأصول على القاضي أبي بكر الباقلاني، وسمع بالحجاز من أبي الحسن بن أبي فراس، وأبي القاسم السقطي، وبمصر من أبي الحسن ابن أبي جدار، وأحمد بن نور القاضي، ثم رجع إلى القيروان، وسكنها، وأصبح سيدها المطاع، وأقبل عليه طلاب العلم من كل صوب، وطارقت فتاويه في المشرق والمغرب، واعتنى الناس بقوله.

ابتدأ نشاطه العلمي سنة 402هـ، حين عاد من المشرق، فقد جلس للطلبة في المسجد، وفي داره أيضًا، وسرعان ما عُرف قدره، واشتهرت إمامته، وطار ذكره في الآفاق، وقد خلف الإمام القابسي المتوفى سنة 403هـ، في نشر علوم السنة في إفريقية ورئاسة العلم بها، ورحل إليه الدّاس من الأقطار لسماع مروياته واستجازه من لم يستطع الاجتماع به، وكان يجلس في حلقاته العلميّة من بعد صلاة الصبح إلى صلاة الظهر، يحدثهم ويملى عليهم، ويقرأ لهم، فلا يتكلم بشيء إلا كُتِبَ عنه إلى أن مات. انظر: ترتيب المدارك، الطبعة المغربية، 243/7 - 244، الصلابي، دولة المرابطين، ص 15.

وأعجب الشيخ أبو عمران بالأمير يحيى لما لمس فيه من حبه للخير وحرصه على التعلم، وتحدث إليه الأمير عن سوء الأحوال الاجتماعية في بلاده، وجهل قبائلها بأصول الدين وفروع الشريعة، وطلب من أبي عمران أن يبعث معه أحد طلبته ليعلم قومه أصول الفقه والشريعة الإسلامية.

وتذكر بعض كتب التاريخ، أن أبا عمران الفاسي هو الذى وضع الخطوط الأولى مع الزعيم يحيى بن إبراهيم لقيام دولة صحراوية سنية في المغرب على أسس دينية صحيحة، كي تستطيع القضاء على الفوضى السياسية والدينية التى كان المغرب يتخبط فيها منذ سنوات عديدة.

فأحال أبو عمران أمير المؤمنين على تلميذ له في بلاد السوس في أقصى المغرب، وهو الفقيه وجاج بن زلوا اللمطي، الذى كان يقيم في رباط هناك بمدينة نفيس يسمى دار المرابطين، ومن هذا الرباط أرسل وجاج صحبة هذا الأمير الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولى (1) ليفقه هؤلاء الصحراويين في أمور دينهم.

وبدأ الأمير يحيى في شق طريقه المليء بالأشواق من أجل إنقاذ قومه وإعزازهم في الدنيا والآخرة، ورجع إلى أهله وعشيرته الفقيه المالكي الإمام عبد الله ياسين، وقبل الدخول في سيرته نترجم للإمام السني المالكي سيد القيروان في زمانه.

لاقى عبد الله بن ياسين كثيرًا من الصعوبات، فقد وجد أكثر المؤمنين لا يصلون ولا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، وعم الجهل عليهم، وانحرفوا عن معالم العقيدة الصحيحة وتلوثت أخلاقهم وأحكام دينهم، واصطدمت تعاليمه بمصالح الأمراء

(1) عبد الله بن ياسين.

هو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير بن على الجزولي، أصله من قرية (تمامانوت) في طرف صحراء غانة.

درس على فقيه السوس وجاج بن زلوا، رحل إلى الأندلس في عهد ملوك الطوائف وأقام بها سبع سنين، واجتهد في تحصيل العلوم الإسلامية، ثم أصبح من خيرة طلاب الفقيه وجاج بن زلوا فعندما طلب أبو عمران الفاسي من تلميذه وجاج بن زلوا أن يرسل مع يحيى بن إبراهيم فقيهاً عالمًا دينًا تقياً مريباً فاضلاً وقع الاختيار على عبد الله بن ياسين الصنهاجي الذى كان عالمًا بتقاليد قومه وأعرافهم وبيئتهم وأحوالهم.

ودخل عبد الله بن ياسين مع يحيى بن إبراهيم في مضارب ومواطن ومساكن المؤمنين من قبيلة جدالة في عام 430 هـ / 1038م فاستقبله أهلها واستمعوا له، وأخذ يعلمهم، فكان تعليمه باللغة العربية لطلبة العلم، والإرشاد الديني للعامّة بلهجة أهل الصحراء البربرية. انظر: ترتيب المداير (ج2/246)، ابن الخطيب، الخل، ص (191).

والأشراف، فثاروا عليه، وكادوا يقتلوه، إلا أنه ترك قبيلة جدالة، وانتقل إلى قبيلة لمتونة، ومن ثم اختار رباطه المشهور على مصب نهر السنغال، بعد انتشار صيته، وتعلق الناس به، فهرعوا إليه ليربيهم وينظمهم ويعلمهم.

أقام الفقيه ابن ياسين رباطه في الحوض الأدنى لنهر السنغال، وموقعه يدل على أهداف ابن ياسين التي أعد لها، فهو يقع قريباً من مملكة غانة الوثنية، لذلك فهو مهدد دائماً بالأعداء، ولا بدّ للجماعة المقيمة فيه من الجهاد، وهو غير بعيد عن ديار المؤمنين، فيستند إليهم في حالات الخطر، وتشكل تلك الديار مورداً بشرياً لا ينضب لمن يريد الانضمام إليه، وهذا يفسر كثرة عدد رجاله.

دخل ابن ياسين الجزيرة التي في الحوض الأدنى لنهر السنغال عام (433هـ/1040م) ومعه أتباعه المخلصون، ثم بدأ الانضمام إلى جماعته من أبناء المؤمنين، وتكاثر عدده حتى بلغ الألف رجل وذاع صيته بين القبائل.

وفي عام 447هـ/1055م اجتمع فقهاء سجماسة ودرعة وكتبوا إلى ابن ياسين يُرغبونه في الوصول إليهم ليخلص بلادهم مما تعاذيه من الحكام الطغاة الظلمة؛ زناتة المغراويين وأميرهم مسعود بن واندين، فجمع ابن ياسين شيوخ قومه وقرأ عليهم رسالة فقهاء سجماسة، فأشاروا عليه بمد يد المعونة لهم، وقالوا له: «أيها الشيخ الفقيه، هذا ما يلزمنا فسير بنا على بركة الله».

فخرجت جموع المرابطين في شهر صفر سنة 447هـ إلى بلاد درعة، فتصدى لهم الأمير مسعود بن واندين بالقتال، وانتهت المعركة بهزيمة المغراويين ومصرع مسعود وتشتت جيشه، وأسرع ابن ياسين بدخول سجماسة، وأصلح أحوالها، وقدم عليها عاملاً من لمتونة وحامية مرابطية ثم عاد إلى الصحراء»

وفي عام 448هـ/1056م تُوفي الأمير يحيى بن عمر اللمتوني فعين عبد الله بن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر مكانه للقيادة، ثم تاهب أبو بكر لغزو بلاد الأسوس؛ ففي ربيع الثاني سنة 448هـ سار المرابطون صوب بلاد الأسوس، واختار أبو بكر بن عمر ابن عمه يوسف بن تاشفين ليتولى القيادة على مقدمة الجيش المرابطي، وكان ذلك أول ظهور ليوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين وقائد مرحلة التمكن، وتمكنوا من احتلال تارودانت، وقضوا على الروافض والوثنيين، كما قاتلوا اليهود المنتشرين في تلك النواحي فأعادوا بذلك تلك المناطق إلى مذهب أهل السنة والجماعة.

وسار المرابطون إلى مدينة أغمات، وكان أميرها يومئذٍ لقوط بن يوسف بن على المغراوى وحاصروها، واضطر لقوط إلى الفرار عندما أيقن عبث المقاومة، فخرج يتلمس النجاة في أهله وحشمه تحت جناح الظلام، ودخل المرابطون أغمات عام 449هـ / 1057م.

ثم سار أبو بكر بن عمر في جموع المرابطين إلى أرض برغواطة وكان أميرهم يومئذٍ أبا حفص بن عبد الله بن أبي غفير بن محمد بن معاذ، ونشبت بين المرابطين والبرغواطيين وقائع ومعارك حامية الوطيس أصيب فيها ابن ياسين بجراح أودت بحياته إلى الشهادة⁽¹⁾.

واتفق رأى المرابطين على اختيار أبي بكر ابن عمر للرياسة مكان ابن ياسين، وأجمع شيوخ المرابطين على مبايعة أبي بكر، ونستطيع أن نقول أنه ب وفاة عبد الله بن ياسين، وقيام أبوبكر اللمتوني مكانه في الرياسة تبدأ الدولة اللمتونية أو الدولة المرابطية.

فقد جمع أبو بكر بن عمر بين الزعامتين الدينية والسياسية، فأمر بتعبئة جيوشه المجاهدة وخرج لقتال واستئصال الكفر من بلاد المغرب، فأثنى في جنود الدولة البرغواطية، وفرّق جموعهم، وكسر شوكتهم، وأعلنوا الطاعة والولاء للدولة المجاهدة الجديدة، ثم قصد أبو بكر مدينة أغمات، فمكث بها حتى شهر صفر سنة (452هـ / 1060م) ثم تابع سيره في بلاد المغرب، يفتح البلدان والقرى وحصون الجبال، ففتح سائر بلاد زناتة، وفتح مكناسة، وحاصر مدينة لواتة ودخلها عنوة في شهر ربيع الثاني سنة 452 هـ، ثم عاد إلى أغمات التي اتخذها قاعة عسكرية للمرابطين ومقرًا للأمير وإخوته، وعندما امتلأت المدينة اتجه أبو بكر إلى اختيار عاصمة جديدة، فوقع على موضع مدينة مراكش الحالية، وشرع في بنائها، فأتاه رسول من الصحراء يخبره بإغارة قبيلة جدالة على قبيلة لمتونة، فعين ابن عمه يوسف، وأسرع من أجل الإصلاح بين القبائل المتنازعة، وقسّم الجيش إلى فريقين، نصفه مع يوسف الذي شرع في تأديب القبائل المغربية المتمردة من مغراوة وزناتة وبنى يفرن وغيرهم، ووقع اختياره على أربعة من القوادهم: محمد بن تميم الجدالي، وعمر بن سليمان المسوفي، ومدرّك التلكاني، وسير بن أبي بكر اللمتوني، وعقد لكل

(1) تاريخ المغرب والأندلس، ص 44، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 3، 306 - 307، دولة المرابطين، ص 22.

منهم على خمسة آلاف من قبيلته، وسيرهم لتأديب تلك القبائل المتمردة، وسار في أثرهم فغزوا قبائل المغرب قبيلة بعد قبيلة، وبلدًا بعد بلد، وكان بعضهم يفرّون وبعضهم يقاتلونه، والبعض الآخر يدخلون في طاعته.

أما أبو بكر فقد استطاع نشر الأمن في الصحراء، وأزال الخلاف القائم بين لمتونة وجدالة، وتوسع في جهاد قبائل السود الوثنية لتدخل في دين الله؛ حيث صاول وجاول وقاتل الزنوج لتأمين حدود دولة المرابطين الجديدة بعد دعوة الزنوج للدخول في الإسلام.

وبعد أن حقق أبو بكر بن عمر نجاحات هائلة في مهمته الدعوية؛ رجع إلى المغرب الأقصى بجيوشه؛ فأكرمهم يوسف بن تاشفين إكرامًا يليق بالقائد الرباني أبي بكر بن عمر، واختار أبو بكر يوسف نائبًا عنه على حكم المغرب الأقصى، وأمره بالعدل والرفق بالمسلمين، ثم ودَّعه وعاد إلى الصحراء وقد زوّده يوسف بطائفة عظيمة من الهدايا الجليلة، من المال والذيل والبغال والأسلحة المحلاة بالذهب، والجواري والثياب الفاخرة والمؤن والدواب، وهناك استأنف الجهاد والغزو حتى قُتل في إحدى غزواته في سنة (480هـ/1087م) ⁽¹⁾.

القائد الرباني يوسف بن تاشفين

(400 - 500 هـ / 1009 - 1106)

يوسف بن تاشفين بن إبراهيم اللمتوني الصنهاجي، وأمّه بنت عم أبيه فاطمة بنت سير بن يحيى بن وجاج بن وارتقين، وكانت قبيلته قد سيطرت بسيادتها وقيادتها على صنهاجة، واحتفظت بالرئاسة منذ أن جعلها الإمام ابن ياسين فيها بعد وفاة الأمير يحيى ابن إبراهيم الجدالي، فلما عزيزًا كريمًا في قومه.

وظهر نجم يوسف للمرابطين في معركة الواحات 448 هـ - 1056م التي كان فيها قائدًا لمقدمة جيش المرابطين المهاجم، وبعد فتح مدينة سجلماسة عيّنه الأمير أبو بكر واليًا عليها، فأظهر مهارة إدارية في تنظيمها، ثم غزا بلاد جزولة وفتح ماسة ثم سار إلى تارودانت قاعدة بلاد الأسوس وفتحها، وكان بها طائفة من الشيعة البجليين نسبة إلى مؤسسها على بن عبد الله البجلي، وقتل المرابطون أولئك الشيعة، وتحول

(1) محمد عبد الله بن عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 3 / 311 - 312، دولة المرابطين، ص 65، الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ص 65.

مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ إِلَى السَّنَةِ.

وعندما دخل أبو بكر بن عمر بجيوشه إلى الصحراء، وأناب ابن عمه يوسف على المغرب، ظهرت خلالها مواهب يوسف العسكرية والإدارية والتنظيمية والحركية والدعوية، وسلم النَّاسُ بزعامته، وبدأ في تأسيس دولته بالحزم والعلم والجد والمثابرة والبذل والعطاء.

وعندما رجع أبو بكر من الصحراء جمع أشياخ المرابطين من لمتونة وأعيان الدولة، والكَتَّاب والشهود، وأشهدهم على نفسه بالتخلي ليوسف عن الإمارة، وعلَّل الأمير أبو بكر هذا التنازل لابن عمه يوسف لدينه وفضله وشجاعته وحزمه ونجدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويمين نقيبته، وأوصاه الوصية التالية: «يا يوسف إنِّي قد وليتُكَ هذا الأمر وإنِّي مسؤول عنه؛ فاتق الله في المُسْلِمِينَ، وأعتقني وأعتق نفسك من النار، ولا تُضَيِّعْ من أمر رعيتك شيئاً؛ فَإِنَّكَ مسؤول عنهم، والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك، وهو خليفتي عليك وعليهم» (1).

بعد تولي الأمر قام يوسف بن تاشفين نحو المغرب الشِّمَالِي لينتزع من أيدي الزناتيين، واستخدم من أجل تحقيق هذا الهدف المنشود إرسال الجيوش للقضاء على جيوش المخالفين مستفيداً من الخلافات السياسية بين قادة المدن، فحالف بعضها من أجل قتال الباقي، واستطاع أن يدخل مدينة فاس صلحاً عام 455 هـ، ثم تمرَّد أهلها عليه إلا أنه استطاع إخماد جميع الثورات التي قامت ضد المرابطين بجهاده، وكفاحه المستمر، حتى تمَّ له فتح جميع البلاد من الريف إلى طنجة عام 460 هـ / 1067 م.

وأعاد فتح فاس عنوة بدصار ضربه عليها بجيش قوامه مائة ألف جندي عام 462 هـ / 1069 م، ففضى على شوكة مغراوة وبنى يقرن وسائر زناتة، ونظم المساجد والفنادق وأصلح الأسواق، وخرج من فاس عام 463 هـ إلى بلاد ملوية وفتحها واستولى على حصون وطاق من بلاد طنجة.

وبعد أن رجع من تلك الجولة التفقدية الإصلاحية سار بجيوشه عام (465 هـ / 1072 م) لغزو الدمنة من بلاد طنجة وفتح جبل علودان، وفي عام (467 هـ / 1074 م) استولى على جبل غياثة وبنى مكود وبنى رهينة من أحواز تازا، وجعلها حدًّا فاصلاً بينه وبين زناتة الهاربة إلى الشرق، وأبعد عن المغرب كلَّ مَنْ ظنَّ فيه أنه من أهل العصيان، فأصبح خالصاً له مرتاداً إلى طاعته مطمئناً إلى

(1) انظر: روض القرطاس، ص (86).

خلوده إلى السكينة والهدوء غير تواق للثورة عليه.

وأصبحت منطقة تازا ثغراً منيعاً بينه وبين زناته؛ ولذلك اعتبر المؤرخون عام 467هـ / 1074م فاصلاً في تاريخ الدولة المرابطية إذ بسط يوسف ذفوزه على سائر المغرب الأقصى الشمالي باستثناء طنجة وسبتة.

وسير يوسف بن تاشفين إلى طنجة جيشاً من اثني عشر ألف فارس مرابطي وعشرين ألفاً من سائر القبائل، وأسند قيادته إلى صالح بن عمران عام 470هـ، وعندما اقتربت جيوش المرابطين من طنجة برز إليهم الحاجب بن سكوت على رأس جيش وهو شيخ يناهز التسعين، وانتصر المرابطون وفتحوا طنجة وقتل في تلك المعارك الحاجب بن سكوت.

وبعد فتح طنجة استأنف الأمير يوسف توسعته نحو الشرق لمطاردة زناته التي لجأت إلى تلمسان، وكان هدفه القضاء على أي مقاومة تُهدد دولة المرابطين في المستقبل، وبدأت عمليات الهجوم الوقائي التي استطاعت أن تحقق أهدافها وتهزم جيش تلمسان المعادي وتأسر قائده معلى بن يعلى المغراوي الذي قُتل على الفور، ورجعت كتائب المرابطين إلى مراكش، ثم عاد يوسف نحو الريف، وغزا تلك الأراضي وضم مدينة تكرر ولم تعمر بعد ذلك.

ثم رجع بجيوشه نحو وهران وتنس وجبال واندريش ووادي الشلف حتى دخل مدينة الجزائر، وتوقف عند حدود مملكة بجاية التي حكمها بنو حماد فرع من صنهاجة.

وبنى يوسف في مدينة الجزائر جامعاً لا يزال إلى اليوم ويُعرف بالجامع الكبير (1).

وعاد إلى مراكش عام 475هـ / 1081م وبذلك توحد المغرب الأقصى بعد جهاد استمر ثلاثين عاماً، وأصبحت دولة المرابطين في مرحلة التمكن الفعلية، وفي عام 476هـ / 1083م وجه الأمير يوسف ابنه المعز في جيش إلى سبتة لفتحها إذ كانت المدينة الوحيدة التي لم تخضع له، كان يحكمها بعد وفاة الحاجب بن سكوت ابنه ضياء الدولة يحيى، فحاصرها المعز براً وبحراً، ودارت معركة بحرية طاحنة، وفي نهاية المطاف استطاع المرابطون أن يفتحوا سبتة، وقتل ضياء الدولة بعد أن ألقى القبض عليه، وكان ذلك عام 477هـ / 1084م.

(1) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 3 / 313 - 314، دولة المرابطين، ص 50.

بعد هذه الجولة الجهادية الموفقة تم توحيد المغرب الأقصى بجميع نواحيه بعد عمل جاد مستمر، وأصبحت الدولة المرابطية قوة لا يُستهان بها تُشكل خطراً على النصارى في الأندلس، وملجأً وحصناً للمسلمين في الأندلس. المرابطون ودفاعهم عن مسلمى الأندلس.

وفي الحقيقة أنه كانت ميادين الجهاد أمام المرابطين متعددة، فهناك الجنوب وإفريقية السوداء، ولكنهم ألقوا عن الاتجاه بسبب الأمير أبو بكر بن عمر الذي اختار تلك الديار ميداناً لجهاده وكان هناك مجال آخر نو الشرق حيث توقف الفتح عند حدود بجاية، التي يحكمها بنو حماد الصنهاجيين، فآثر يوسف التوقف ولم يتقدم شرقاً بسبب القرابة التي تربطه ببني حماد، وكان بإمكانه بسط نفوذه في تلك النواحي بسهولة خاصة بعد أن دمرتها غارات بني هلال، تركتها في حال من الفوضى والضعف لا تحسد عليه، ولم يكن يطمح إلى ضم أرض جديدة أو إلى أي كسب مادي، بل كان يصبو إلى تحقيق مبادئ إمامه ابن ياسين، في إحياء تراث الإسلام ومحاربة البدع والفساد والذود عن حياض المسلمين (1).

وفي تلك الأثناء كانت الأندلس تترنح تحت وطأة الضربات وأضحت نهايتها قاب قوسين أو أدنى، ومع ذلك لم يهتم حكامها الجدد من ملوك الطوائف بما يجري حولهم، وظلوا منغمسين في ملذاتهم وفسادهم، يتحاربون فيما بينهم وحالفون النصارى ضد إخوانهم في العقيدة، ويؤدون لهم الجزية، مقابل الاحتفاظ بعروشهم التي تهتز تحتهم، ويستخدمون المرتزقة النصارى، لحماية أنفسهم، بعد أن فقدوا الأمل في مواطنهم.

لذلك انهارت الروح المعنوية للشعب الأندلسي، بعدما رأي من أمرائه التخاذل والخيانة حتى كاد هذا الشعب الصابر يفقد القدرة على القتال بما كان يرهقه به حكامه من الضرائب للتنعم بالعيش الرغد ودفع الجزية للنصارى، وأصبح بين حاكم مبتز وعدو متربص، في الوقت الذي إعتلى فيه عرش إسبانيا النصرانية ألفونسو السادس بن فرديناند الذي كان يرغب في إحتلال الجزيرة الأيبيرية، وعادت حرب الاسترداد قوية علي يده (2).

وفى السابع والعشرين من المحرم سنة 478 هـ - الخامس والعشرين من آيار

(1) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 209، 210.

(2) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 212.

«مايو» سنة 1085م استطاع ألفونسو السادس أن يدخل طُلَيْطَلَة «عاصمة القوط القديمة» ودخلت طُلَيْطَلَة بذلك إلى حظيرة النصرانية بعد أن حكمها المُسْلِمون ثلاثمائة واثنين وسبعين عامًا، واتخذها ملك قشتالة حاضرة ملكه من ذلك الحين، وأصبحت بذلك عاصمة إسبانيا النصرانية.

وهكذا انتهت دولة ذى النون في طُلَيْطَلَة لتستمر في بلنسية.

وقد أحدث سقوطها دويًا هائلًا في العالم الغربي وبات المسلمون في حال من الضياع التام، حتي وصل الحد ببعض ملوك الطوائف أن أرسل وفود لتهنئة ألفونسو بسيطرته علي طليطلة، حتى أن ابن رزين حسام الدولة صاحب شنتمرية ذهب بنفسه لتهنئته يحمل إليه الهدايا النفيسة، فجازاه بان أعطاه قردًا احتقارًا له، بينما اعتبر ابن رزين ذلك مفخرة (1). وشعر مسلموا الأندلس بأنهم أيتام علي موائد اللئام، وبدؤوا بمغادرة الأندلس والمناطق القريبة من سيطرة ألفونسو، وفي ذلك يقول عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال الطليطلي:

يا أهل أندلس حشوا مطيكم :: فما المقام بها إلا من الغلط
الشوب ينسل من أطرافه وأرى :: ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا :: كيف الحياة مع الحيات في سفت (2)

وأقفرت مملكة طليطلة من السكان الذين هجروها جماعات إلى بطليوس هرباً من الاضطهاد وحفاظاً علي دينهم، وشعر بقية مسلموا الأندلس أن الدور عليهم، وأحس ألفونسو بالزهو والافتخار وبدأ يتقدم صوب مدن الأندلس، فشن الغارات علي علي جميع البلاد، ونجح في الاستيلاء علي المدن والقرى ما بين وادي الحجارة إلى طليطلة وفحص اللجج وأعمال شنتمرية كلها (3)، ولاح له أن نهاية الطوائف قد دنت وأنه سوف يتبع نصراً بنصر، فبدأ الضغط علي الدول الكبرى المجاورة له أي مملكتي بطليوس وإشبيلية، وأرسل إلى المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس يطلب إليه تسليم الحصون والقلاع المتاخمة لحدوده مع تادية الجزية له، ويتوعد بشر العواقب إذا رفض، وبمثل ذلك للمعتمد بن عباد. ومارس ألفونسو مع المُعْتَمِد أنواعاً من الإذلال والتجنى لتخرج المُعْتَمِد عن طوره ويلغى الاتفاقية الهزيلة بين الطرفين

(1) تاريخ ابن الكردبوس، ص 288، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 213.

(2) المقري، فنج الطيب، 6 / 84، ابن خلكان، وفيات الأعيان، 5 / 28، تاريخ ابن الكردبوس، ص 288، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 213.

(3) تاريخ ابن الكردبوس، ص 87، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 214.

ويجد ألفونسو والنصارى ما يبرّر أفعاله الانتقامية والوحشية (1).

أمام هذا الضياع المفزع الذى وصلت إليه ممالك الأندلس؛ اجتمع علماء وفقهاء وزعماء قرطبة للتشاور فيما يجب عمله لإنقاذ مدينتهم، ووصل رأيهم بعد تبادل الآراء والأفكار إلى استدعاء المرابطين.

ورأى المُعْتَمِد أن هذا الرأى فيه صواب ونفاذ بصيرة؛ فجدّ في تقوية جيشه ورمم الحصون والقلاع، وقرّر أن يطلب النجدة من إخوانه المُسْلِمِينَ، وتشاور في الأمر مع ابنه الرشيد وزعماء إشبيلية الذين أشاروا عليه بمهادنة ألفونسو والخضوع لشروطه، ولكن هذا الرأى لم يجد هوى في نفس المُعْتَمِد الذى خلا بابنه الرشيد وكان ولى عهده وقال له: «أنا في هذه الأندلس غريب بين بحر مظلّم وعدو مجرم، وليس لنا ولى ولا ناصر إلا الله، وإن إخواننا وجيراننا ملوك الأندلس ليس فيهم نفع، ولا يُرجى منهم نصرّة، ولا حيلة إن نزل بنا مصاب أو نالنا عدو ثقيل وهو اللعين أذفونش فقد أخذ طُيْطِلّة وعادت دار كفر وها هو قد رفع رأسه إلينا.

وإن نزل علينا طُيْطِلّة ما يرفع عنا حتى يأخذ إشبيلية، ونرى من الرأى أن نبعث إلى هذه الصحراء وملك العدو نستدعيه للجواز إلينا ليدافع عنا الكلب اللعين إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا، فقد تلف لجأؤنا وتدبرت بل تبردت أجنادنا، وبغضتنا العامة والخاصّة. فأجابه الرشيد: يا أبت أتدخل علينا في أُنْدُلُسنا مَن يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا؟ فقال: أى بنى والله لا يسمع عنى أبداً أنى أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى فتقوم عليّ اللعنة من على منابر المُسْلِمِينَ مثل ما قامت على غيري، والله خُرز الجمال عندى خير من خُرز الخنازير» (2).

ولما عزم على طلب النصرّة من المرابطين؛ كتب رسالة إلى يوسف، هذا نصّها: "لما كان نور الهدى - أيدك الله - دليّك، وسبيل الخير سبيلك، ووضحت في الصلاح معالمك، ووقفت على الجهاد عزائمك، وصحّ العلم بأنك لدعوة الإسلام أعزّ ناصر، وعلى غزو الشرك أقدر قادر، وجب أن تستدعى لما عضل الداء، وتستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء، فقد كانت طوائف العدو المطيف بأنحائها عند إفراط تسلّطها واعتدائها وشدة كلفها واستشرائها تلاطف بالاحتتيال، وتستنزّل بالأموال، ويخرج لها عن كل ذخيرة، وتسترضى بكل خطيرة، ولم يزل دأبها التشكك والعناد،

(1) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 214.

(2) الصلابي، دولة المرابطين، ص 68.

ودأبها الإذعان والانقياد حتى ذفد المطارف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاذ، وأيقنوا الآن بضعف المنن، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن، واضطربت في كل جهة نارهم، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم، ومن أخطئ القتل منهم فإنما هم بأيديهم أسارى وسبايا، يمتدنونهم بأنواع المحن والبلايا، وقد هموا بما أرادوه من التوثب، وأشرفوا على ما أملوه من التغلب، فيا الله ويا للمسلمين أيسطو هكذا بالحق الإفك، ويغلب التوحيد الشرك، ويظهر على الإيمان الكفر، ولا يكشف هذه البلية النصر، ألا ناصر لهذا المهتم؟ ألا حامى لما استبيح من الحرم؟ وإنا لله على ما لحق عرشه من ثل، وعزه من ذل، فإنها الرزية التي ليس فيها عزاء، والبلية التي ليس مثلها بلاء، ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك - أعزك الله - بالنازلة في مدينة قورية أعادها الله وإنها مؤيدة للجزيرة بالخلاء، ومن فيها من المسلمين بالجلاء، ثم ما زال التخاذل يتزايد، والتدابير يتساند حتى تخلصت القضية وتضاعفت البلية وتحصلت في يد العدو مدينة سرية، وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع في الحصانة والامتاع.

وهي من المدينة كنقطة دائرية تدركها من جميع نواحيها، ويستوى في الأرض بها قاصيها ودانيها، وما هو إلا نفس خافت وزمر داهق استولى عليها عدو مشترك وطاغية منافق، إن لم تبادروا بجماعتكم عجلاً، وتداركها ركباناً ورجالاً، وتنفروا نحوها خفاً وثقالاً، وما أحضكم على الجهاد بما في كتاب الله فإنكم له أدلى، ولا بما في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنكم إلى معرفته أهدى، وكتابي إليكم هذا يحملهم الشيخ الفقيه الواعظ يفصلها ويشرحها، ومشمتم على نكتة وهو يبينها وبوضوحها، فإنه لما توجه نحوك احتساباً، وتكلف المشقة إليك طالباً ثواباً، عولت على بيانه، ووثقت بفصاحة لسانه، والسلام».

ثم وجه ألفونسو اهتمامه نحو المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية وقرطبة، فقد كان أقوى ملوك الطوائف، وكان منتظراً منه أن يقوم بحماية الأندلس، ولكن المعتمد لم يفعل ودخل في صراعات داخلية مع ملوك الطوائف الآخرين، أضعفت المسلمين، ثم إنه كان يعتمد في تعامله مع نصاري إسبانيا على مهارته الدبلوماسية - كسائر ملوك الطوائف - أو دفع أذاهم بالجزية، ولما أراد ألفونسو ضرب المعتمد فإنه أراد أن يضرب القوة الرئيسية في صفوف المسلمين فإذا استطاع القضاء عليها يسهل عليه السيطرة على بقية ملوك الطوائف، ولما بدأ في تنفيذ خطته القاضية بالسيطرة على الأندلس من أيدي المسلمين، فقد راعى شروط المعاهدة المعقودة مع المعتمد، فلم يهاجمه مباشرة بل طلب منه أموراً مستحيلة التنفيذ، فسأله أن يتخلى له عن معاقل

وحصون علي الحدود كان الموت عنده أولى من إعطائها (1) وإمعانا في الإذلال والتجني طلب ألفونسو من المُعْتَمِد أن يسمح لزوجته القمطجية أن تلد في جامع قرطبة بناءً على نصيحة الأساقفة، لأن الطرف الغربي كان موقع كنيسة قرطبة القديمة، وسأله أن تنزل بالزهراء مدينة الخليفة الناصر، لتكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة المزعوم، وأرسل إليه بعثة من خمسمائة فارس برئاسة اليهودي ابن شالب لأخذ الجزية، وتجراً السفير وقلّ أدبه إن كان له أدب، وخرج على العرف الدبلوماسي، وأغلظ في القول للمُعْتَمِد وقال: «لا تعتقدوني بسيطاً لأقبل مثل هذه العملة المزيفة، لا آخذ إلا الذهب الصافي، السنة القادمة ستكون مدناً». فأخذت المُعْتَمِد النخوة الإسلامية وصلب اليهودي، وقتل البعثة (2).

وقد أثار هذا حفيظة ألفونسو ويكون قد تحصل على ما يريد، وكان ألفونسو متجهًا لحصار قرطبة فلمّا وصل خبر البعثة أقسم بالهته ليغزون المُعْتَمِد في إشبيلية، وحرك جيوشه نحو غرب الأندلس فدمّر كل القرى والتخوم التي في طريقه نحو إشبيلية، وخرج في جيش من طريق آخر يدمّر ويخرّب ويقتل ويحرق ويسفك ويسبي، حتى وصل إلى جزيرة طريف أقصى جنوب الأندلس على المضيق، وأدخل قوائم فرسه في البحر قائلاً: «هذا آخر بلاد الأندلس قد وطنته» (3).

ومن هناك أرسل إلى الأمير يوسف بن تاشفين: «أمّا بعد.. فلا خفاء على ذي عينين أنّك أمير المُسلمين بل الملة الإسلامية، كما أنا أمير الملة النصرانية، ولم يخف عليك ما عليه رؤساؤكم بالأندلس من التخاذل والتواكل، والإهمال للرعية والإخلال إلى الراحة، وأنا أسومهم الخسف، فأخرب الديار وأهتك الأستار، وأقتل الشبان وآسر الولدان، ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم إن أمكنك معرفة هذا، وأنتم تعتقدون أن الله - تعالى - فرض على واحد منكم عشرة منا، وأن قتلكم في الجنة وقتلانا في النار، ونحن نعتقد أن الله أظفرنا بكم وأعاننا عليكم، ولا تقدرون دفاعاً ولا تستطيعون امتناعاً، وبلغنا عنك وأنك في الاحتفال عن نية الاستقبال فلا يدرى أكان الجبن بك أم التّكذيب بما أنزل عليك، فإن كنت لا تستطيع الجواب فابعث إلى ما عندك من المراكب نجوز إليك، أناظرك في أحب البقاع إليك؛ فإن غلبتني فتلك نعمة جلبت إليك، ونعمة شملت بين يديك، وإن غلبتك كانت لي اليد العليا عليك، واستكملت

(1) المقرئ، نفح الطيب، 6 / 88، ابن خلكان، وفيات الأعيان، 5 / 28.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 10 / 142، ابن خلكان، وفيات الأعيان، 5 / 25.

(3) الاستقصا، 1 / 110، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 217.

الإمارة، والله يتم الإرادة».

ولما قرئ الكتاب علي الأمير يوسف بان له غروره وعوده والاستهانة بقوة المرابطين، فأعلمه يوسف بجوابه أن قوة المرابطين سيراهم ألفونسو في ساحة المعركة لا كما ينقلها إليه أتباعه مزورة بعيدة عن الحقيقة، ثم أمر بالجواب علي ظهر الكتاب ذاته: «ما ترى لا ما تسمع إن شاء الله - تعالى -» وأردف:

ولا كتب إلا المشرفية والقنا :: ولا رسل إلا الخميس العرمم⁽¹⁾

وعاد ألفونسو إلى إشبيلية حيث التقى بجيشه الآخر أمام قصر المُعْتَمِد بن عباد بضفة النهر، وحاصر المدينة ثلاثة أيام، وكتب إلى المُعْتَمِد يسأله أن يرسل إليه مروحة لطرد الذباب، ولم يتحمل المُعْتَمِد هذه الإهانة فردَّ: «قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر إليك في مراوح من الجلود اللطيفة تروح منك ولا تروح عليك»⁽²⁾.

ترك ألفونسو إشبيلية وسار نحو سَرْقُسْطَة وحاصرها، كانت شبه ضائعة تنتظر مصيرها المؤلم، وصاحبها ابن هود لا يستطيع الدفاع كثيرًا، ثم أخذ بلنسية، وأعطاها القادر بن ذى النون صاحب طُلَيْطَلَة السابق، وهاجم مملكة المرية، ووصل القشتاليون إلى نابار قرب غرناطة، كان الخطر على الأندلس شديدًا، وقلة الشجاعة وانهايار الروح المعنوية تثبط العزائم، إذ أن ثمانين قشتاليًا هزموا أربع مائة من المرية. وأصبح الناس بين خيارين أحلاهما مر، الخضوع للذساري أو الهجرة جماعات؟ وكان الخيار الأخير هو المرجح لأن البقاء في شبه الجزيرة من الجنون⁽³⁾.

أمام هذا الضياع المفزع الذي وصلت إليه ممالك الأندلس؛ اجتمع علماء وفقهاء وزعماء قرطبة للتشاور فيما يجب عمله لإنقاذ مدينتهم، ووصل رأيهم بعد تبادل الآراء والأفكار إلى استدعاء المرابطين.

ورأى المُعْتَمِد أن هذا الرأي فيه صواب ونفاذ بصيرة؛ فجدَّ في تقوية جيشه ورمم الحصون والقلاع، وقرَّر أن يطلب النجدة من إخوانه المُسلمين، وبالرغم من

(1) الحل، ص 27، أعمال الأعلام، ص 239 - 240، تاريخ ابن الكردبوس، ص 91، مذكرات الأمير عبد الله بن زيري، ص 104، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 218.

(2) الحميري، الروض المعطار، ص 80، الدلة السيرة، ص 351، الاستقصا، 1 / 113، المقرئ، نفح الطيب، 6 / 91، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 218.

(3) ابن الأثير، الكامل، 10 / 142، ابن خلكان، وفيات الأعيان، 5 / 28، الاستقصا، 1 / 112، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 219.

أن هذا الرأي قد وجد معارضة كبيرة من كثير من ملوك الطوائف وكثير من وزراء المعتمد بن عباد وخاصته وحتى من ابنه وولي عهده الرشيد، ولكن المعتمد بن عباد كان ذو عزيمة كبيرة وبصيرة بأحوال الأندلس.

ولما عزم على طلب النصر من المرابطين؛ كتب رسالة إلى يوسف، هذا نصُّها: «بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.. إلى حضرة الإمام أمير المسلمين وناصر الدين ومحيي دعوة الخليفة، الإمام أبي يعقوب يوسف بن تاشفين، القائم بعظيم أكرامها، الشاكر لأجلالها المعظم لما عظم الله من كريم مقدارها، اللائد بحرامها، المنقطع إلى سُمُو مجدها، المستجير بالله وبطولها مُحَمَّد بن عباد سلام كريم يخص الحضرة المعظمة السامية ورحمة الله تعالى وبركاته.

كتب المنقطع إلى كريم سلطانها من إشبيلية في غرة جمادى الأولى 479هـ/ 1086م وإنه أيد الله أمير المسلمين ونصر به الدين، فإننا - نحن العرب - في هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا، وتفرق جمعنا، وتغيّرت أنسابنا بقطع المادة عنا من ضيعتنا؛ فصرنا شعوبًا لا قبائل، وأشتاتًا لا قرابة ولا عشائر، فقلّ نصرنا، وكثر شَمَاتنا، وتولّى علينا هذا العدو المجرم اللعين ألفونسو وأناخ علينا بطليطلة ووطئها بقدمه، وأسر المسلمين، وأخذ البلاد والقلاع والحصون، ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحد منا طاقة على نصره جاره ولا أخيه، ولو شاءوا لفعلوا إلا أن الهواء والماء منعهم من ذلك، وقد ساءت الأحوال، وانقطعت الآمال، وأنت أيدك الله سيد حمير، ومليكها الأكبر، وأميرها وزعيمها، نزعنا بهمتي إليك واستندت بالله ثم بك، واستغثت بحرمكم لتجوز بجهد هذا العدو الكافر وتدينون على دين مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم، ولكم عند الله الثواب الكريم على حضرتكم السامية السلام ورحمة الله وبركاته ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» (1).

وإلى جانب الكتب الرسمية وردت على الأمير يوسف كتب وأرسلت وفود شعبية من الشيوخ والعلماء رسائل تحث الأمير على إنقاذ الأندلس.. (2).

أطلع الأمير يوسف حاشيته وخاصته ووزراءه على المحادثات لاستشارتهم بالأمر وكان المرابطون متشوقين لدخول الأندلس والجهاد ضد النصاري، فأجمعوا

(1) الصلابي، دولة المرابطين ص (71).

(2) انظر الحل، ص 30.

على نصرة دينهم وإعزاز كلمة التوحيد، وكان وزير يوسف ومستشاره أندلسي الأصـ ل اسـ

عبد الرحمن بن أسبط أو أسباط، فنصحه المستشار بأن يطلب من المُعْتَمِد بن عَبَّاد الجزيرة الخضراء لكي تكون آمنة لعبور الجيش، ولحماية خطوط التموين، وقال له: إن الأمر لله تعالى ولكم، وواجب على كل مسلم إغاثة أخيه المسلم والانتصار له، واقتنع الأمير يوسف برأى وزيره في طلب الجزيرة الخضراء لجعل فيها أثقال جيشه وأجناده ويكون الجواز بيده متى شاء، وقال الأمير يوسف لعبد الرحمن: صدقت يا عبد الرحمن، لقد نبهتني على شيء لم يخطر ببالي، اكتب إليه بذلك.

وكتب ابن أسبط إلى المُعْتَمِد بن عَبَّاد الكتاب التالي نصّه: «بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وآله وصحبه وسلّم:

من أمير المُسْلِمِينَ وناصر الدِّين معين دعوة أمير المؤمنين، إلى الأمير أكرم المؤيد بنصرة الله تعالى المُعْتَمِد على الله أبي القاسم مُحَمَّد بن عَبَّاد أدام الله كرامته بتقواه، ووقفه لما يرضاه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد:

فإنه وصل خطابك الكريم، فوقفنا على ما تضمنه من استدعائنا لنصرتك، وما ذكرته من كربتك، وما كان من قلة حماية جيرانك، فنحن يمين لشمالك ومبادرون لنصرتك وحمايتك، وواجب علينا في الشُّرع، وفي كتاب الله تعالى، وإنه لا يمكننا الجواز إلا أن تُسلّم لنا الجزيرة الخضراء؛ تكون لنا لكي يكون جوازنا إليك على أيدينا متى شئنا، فإن رأيت ذلك فاشهد على نفسك بذلك، وادعنا إلينا بعقودها ونحن في أثر خطابك إن شاء الله تعالى» (1).

ثم جمع المُعْتَمِد القاضي والفقهاء، وكتب عقد هبة الجزيرة الخضراء للأمير يوسف، وتسليمها له بحضورهم، وكان يحكمها يزيد الراضي بن المُعْتَمِد، فبعث إليه أمره بإخلاؤها وتسليمها للمرابطين لتكون رهناً بتصرف الأمير يوسف. وبعد موافقة المُعْتَمِد تجهّز يوسف لتلبية نداء إخوانه في العقيدة راغباً في الأجر والثوبة من الله بتأدية فريضة الجهاد، وكتب أماناً لأهل الأندلس ألا يتعرض لأحد منهم في بلده وقال: «أنا أول مُنْتَدِبٍ لنصرة هذا الدِّين، لا يتولى الأمر أحد إلا أنا بنفسي» وأعلن النفير العام في قوات المرابطين، فأقبلت من مراكش، ومن الصحراء وبلاد الزاب، ومن مختلف نواحي المغرب يتوافدون على قيادتهم الربّانية، وجهزت السفن لتحمل هذه

القوات، وكان أول من نفذ أمر العبور قائد المرابطين النابغ داود ابن عائشة، وتمركز في الجزيرة الخضراء، وتتابع كتائب المرابطين، وكانت معهم الجمال الكثيرة، وقد أثار وجودها دهشة الأندلسيين، لأنهم لم يكونوا يعرفونها من قبل، وقد أثر وجودها على الخيل فأخذت تجمع لدى رؤيتها.

ولما تكامل الجيش المرابطي بساحل الجزيرة الخضراء، ركب الأمير يوسف ومعه قادة من خيرة قادة المرابطين وصلحائهم، ولمّا ركب واستوى على السفينة رفع يديه نحو السماء مناجياً: «اللهم إن كنت تعلم أن جوازنا هذا إصلاح للمسلمين فسهّل علينا هذا البحر حتى نعبره، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا نجوزه». وسهل الله عبورهم، وكان ذلك يوم الخميس بعد الزوال منتصف ربيع الأول 479 هـ حزيران 1086م، وصلى الأمير يوسف بالجزيرة الخضراء صلاة الظهر، وقام أهل الجزيرة بضيافة المرابطين، وظهر فرحهم وسرورهم على وجوههم، وبدأ الأمير يوسف في تحصين الجزيرة الخضراء، ورمّم أسوارها وما تصدّع من أبراجها، وشحنها بالأسلحة والأطعمة وكلف مجموعة من جنوده بحراستها ثم ساروا نحو إشبيلية (1).

* * *

موقعة الزلاقة

سارع المُعْتَمِد مع مئة من فرسانه وقادة قومه وشيوخ مدينته وفقهاء بلاده لاستقبال أمير المرابطين، ولما التقى بيوسف تعانقا طويلاً بمودة وحب وإخلاص وأخوة في الدين، وتذكرا نعم الله عليهما، وتواصيا بالصبر والجهاد في سبيل نصرته دين المسلمين، وكان المُعْتَمِد مُحَمَّلاً بالهدايا، وأصدر أوامره لعمال البلاد بجلب الأرزاق لضيافة الجيش المرابطي، وكان المُعْتَمِد كريماً وجواداً باذلاً للخير.

واستعرض المُعْتَمِد الجيش المرابطي فرأى «عسكراً نقياً ومنظراً بهياً».

وواصل الأمير يوسف سيره نحو إشبيلية حيث كان يستقبل بالترحاب مع جيشه المرابطي على امتداد الطريق حتى وصل حاضرة المُعْتَمِد، فأقام بها ثلاثة أيام للاستراحة، ثم قال للمُعْتَمِد: «إنما جئت ناوياً جهاد العدو حيثما كان توجهت» (2).

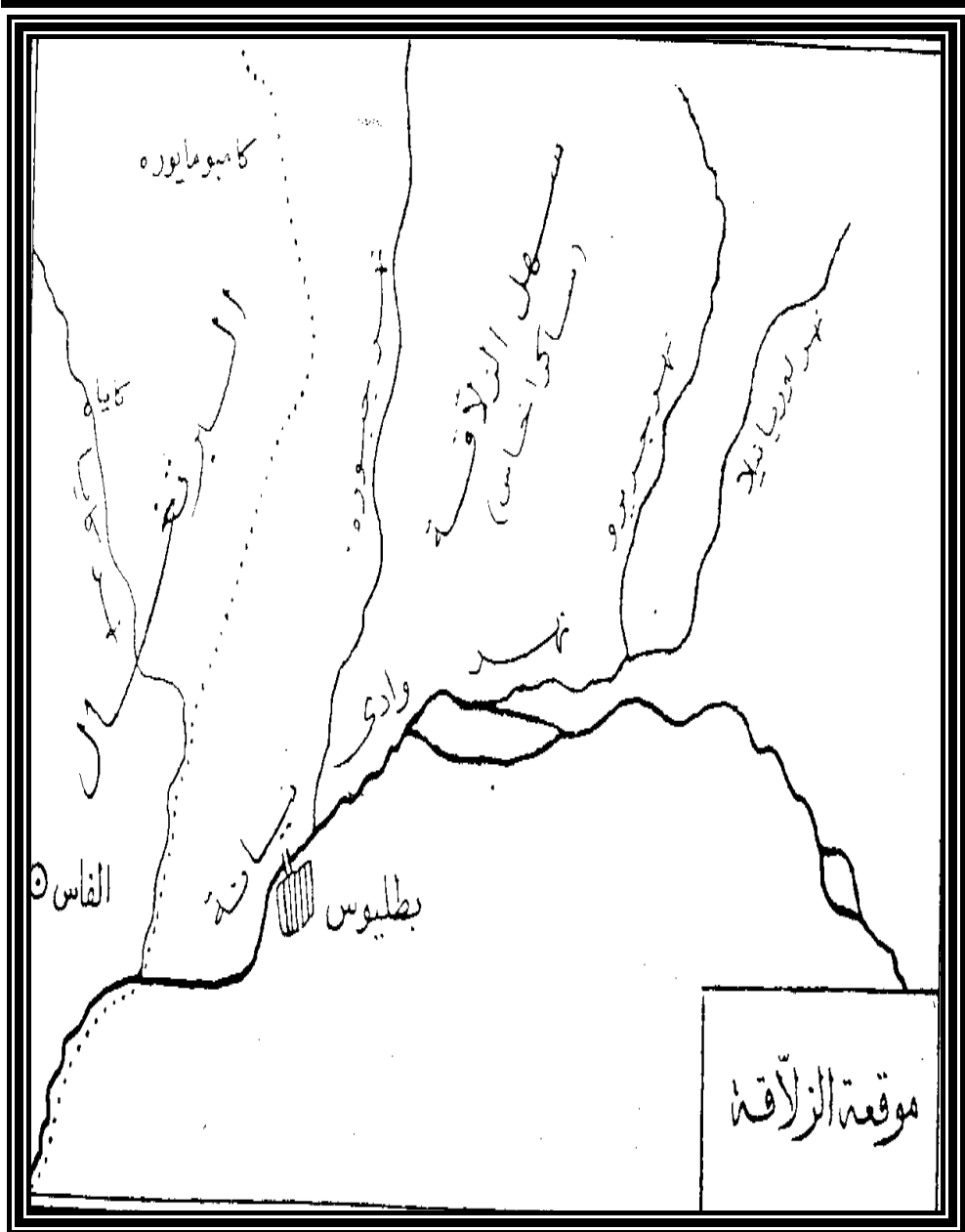
(1) الاستقصا، 1 / 111 - 114، الروض المعطار، ص 87، نفح الطيب، 6 / 93، الحلة السيرة، 352، الحلل، ص 34.

(2) الروض المعطار، ص 87، نفح الطيب، 6 / 95، الحلة السيرة ص 352، الاستقصا، 1 / 114، الحلل ص 35، مذكرات الأمير عبد الله، ص 104.

وأثناء مقام الأمير يوسف في إشبيلية بعث الأمير يوسف إلى ملوك الأندلس يستنفرهم للجهاد فكان أول من لبى الدعوة عبد الله بن بلقين الصنهاجي صاحب غرناطة الذي خرج إليه بأمواله ورجاله، وأخوه تميم صاحب مالقة، وأرسل ابن صمادح ابنه معز الدولة في فرقة من جيشه، وسار الأمير الرباني والقائد الميداني نحو بطليوس، فاستقبلهم صاحبها المُنوَّكَل بن الأفضس على ثلاث مراحل من المدينة، وقَدَّم لهم الهدايا والضيافة وعلف الدواب وظهر منه جود وكرم، وأقام الأمير أيامًا عدة حتى يصل باقي المتطوعين إلا أن أكثرهم لم يصل لانشغالهم بمدافعة النصارى، فتابع سيره الجهادي حتى حطَّ رحاله عند سهل الزَّلَاقَة ⁽¹⁾، وكان يبعد عن بطليوس ثمانية أميال.

(1) الزَّلَاقَة sagrajas.

سهل بالأندلس يقع شمالي بطليوس جرت فيه الوقعة الشهيرة بين البربر بقيادة يوسف بن تاشفين ومن انضم إليه من ملوك الأندلس وبين ألفونسو السادس (الأدْفَنش) ملك (قشتالة) castilla سنة 479 هـ / 1086م وفيها هزم جيش الأسبان وقتل أكثره.



ونظّم يوسف بن تاشفين جيشه، فجعل الأندلسيين جيشاً، مستقلاً بذاته وأسند قيادته إلى المُعتمد بن عباد الذي تولى المقدمة، وأسندت الميمنة إلى المُتوكل بن الأفطس، وجعل أهل شرق الأندلس على الميسرة، وبقي أهل الأندلس في الساقة.

أما الجيش المرابطي فتولى داود ابن عائشة قيادة فرسانه، وأما سير بن أبي بكر فتولى قيادة الحشم، وبقيّة المرابطين مع حرس الأمير يوسف بن تاشفين إلى جانب

قيادته الجيش الإسلامي، وعسكر المرابطون خلف الأندلسيين تفصل بينهم ربة بقصد التمويه، وكان تعداد جيش المرابطين والأندلسيين أكثر من 24 ألف جندي، وتضاربت الروايات في ذلك (1).

كانت أنباء عبور المرابطين إلى الأندلس قد وصلت إلى ألفونسو وهو محاصر سرقسطة ولما وصله الخبر السعيد ارتاع، ولكنه حاول أن ينتهز هذه الفرصة، وطلب من المستعين بن هود حاكم سرقسطة أن يدفع له مالا مقابل فك الحصار، معتقدا أن المستعين لا علم له بالعبور، ولكن الخبر الأسعبد قد عم الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها، وكأنه رحمة نزلت من السماء علي المستعين، الذي رفض إعطائه درهما واحدا خشية أن يتقوي بها علي قتال المسلمين (2).

واضطر ألفونسو لرفع الحصار، ورجع مسرعا إلى طليطلة، وأعلن الاستنفار العام، وحل نزاعه وخلافه مع بعض أمراء النصاري، وأرسل إلى من وراء جبال البربات فأتته أفواج عديدة من النصاري متطاوعة من أجل الحرب المقدسة، وجند ألفونسو كل من يستطيع حمل السلاح صغيرا أو كبيرا، ونظم جيشه وقسمه إلى قسمين كبيرين: أسند قيادة الجيش الأول إلى ابن عمه الكونت غرسيا ورودريك، وما لبث غرسيا أن انسحب قبل بدء المعركة أثر خلاف مع ألفونسو الذي أبقي رودريك في القيادة، واحتفظ بقيادة الجيش الثاني وعين على جناحيه سانتشور أميرز والكونت برنجار ريموند، وتولى هو القلب، «وكان جيش ألفونسو يعتمد على الفرسان كمجموعة، وكان الفارس يلبس الزرد والدروع التي تغطيه من الرأس إلى القدم كأنه حصن من الحديد يتحرك لتزداد شجاعته وجرأته».

ولما استعرض جيشه نفخ فيه الشيطان غروره وكبرياهه، وقال قولة تدل على تجذر كفره وعتوه وفساد معتقده حيث قال: «بهذا الجيش ألقى محمدا وآل محمدا والأنس والجن والملائكة» (3).

«وكانت جموع الرهبان والقسيسين أمام جيش ألفونسو الملعون يرفعون الإنجيل والصلبان لإذكاء الحماس الديني في نفوس الجنود الذين بلغ عددهم أكثر من ستين

(1) روض القرطاس، ص 94، الحلل الموشية ص 41، ابن الكردبوس، ص 93، الصلابي، دولة المرابطين، ص 80 - 81.

(2) روض القرطاس، ص 93، الاستقصا، 1 / 111.

(3) ابن الأثير، الكامل، 10 / 153.

ألفاً» (1).

وخرج ألفونسو بجيشه نحو بطليوس، وكتب إلى المُعْتَمِد بن عَبَّاد كتابًا جاء فيه: «إن صاحبكم يوسف قد تعنَّى من بلاده وخاض البحار، وأنا أكفيه العناء فيما بقي، ولا أكلفكم تعبًا، وأمضى إليكم وألفاكم في بلادكم رفقا بكم وتوفيرا عليكم» (2).

وقصد ألفونسو بذلك أن تكون المعركة خارج بلاده فإذا انهزم ولحقوا به يكون مسيرهم في أرضهم ولا بد من الاستعداد لاكتساح بلاده، وبذلك تنجو من التدمير، وإذا انتصر حدث ذلك في أرض أعدائه.

وصل ألفونسو إلى بطحاء الزَّلَاقَة وخيم على بعد ثلاثة أميال من الجيش المسلم يفصل بينهما نهر بطليوس يشرب منه المتحاربون (3).

كانت الأحوال تنذر بأن المعركة سوف تكون حاسمة بالنسبة للأندلس، فقد بلغت قوي النصرانية ذروة قوتها، تذكيتها نزعة صليبية تهدف إلى طرد العرب من إسبانيا، في المقابل فإن الحماس الذي بثه المرابطون قد جدد عزائم الأندلسيين وأدي موات الآمال فيهم.

وقبل بدء المعركة الفاصلة وجريا علي سنة الإسلام في القتال، أرسل يوسف بن تاشفين إلى ألفونسو كتابًا يعرض عليه الدخول في الإسلام أو دفع الجزية أو الحرب، وهذا من مقتضيات الشريعة الإسلامية في قتال أهل الكتاب، ومما جاء في كتاب الأمير: «بلغنا يا أذفونش أنك نحوت الاجتماع بنا، وتمنيت أن تكون لك فُلُكٌ تعبر البحر عليها إلينا، فقد جزناه إليك، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك، وترى عاقبة ادعائك {وَمَا دُعُوا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} [غافر: ٥٠]» (4).

ولما قرأ ألفونسو الكتاب زاد غضبه وذهب بعقله وقال: «أبمثل هذه المخاطبة يخاطبني وأنا وأبى نغرم الجزية لأهل ملته منذ ثمانين سنة؟» (5) وقال لرسول الأمير

(1) ابن الأثير، الكامل، 10 / 153، الروض المعطار، ص 88، الحلة السيرة، ص 353، نفح الطيب، 96 / 6، وفيات الأعيان، 5 / 29.

(2) الروض المعطار، ص 88، نفح الطيب 6/6.

(3) روض القرطاس، ص 94، ابن الكردبوس، ص 93.

(4) الحلل، ص 35، الروض المعطار، ص 90، الحلة السيرة، ص 354، نفح الطيب، 6 / 97، الاستقصا، 1 / 116 ابن خلكان، وفيات الأعيان (116/7).

(5) الحلل، ص 35، الصلابي، دولة المرابطين، ص 78.

يوسف: «قُلْ للأمير لا تتعب نفسك أنا أصل إليك» (1)، وإذنا سنلتقى في ساحة المعركة، ومعنى ذلك أن ألفونسو اختار الحرب (2).

والحرب خدعة فقد حاول ألفونسو حامى دى النصرانية في إسبانيا أن يخدع المُسلمين ويمكر بهم، فكتب إلى الأمير يوسف في تحديد يوم المعركة فكتب إليه: «إن بعد غد الجمعة لا نحب مقابلتكم فيه لأنه عيدكم، وبعده السبت يوم عيد اليهود، وهم كثير في محلتنا، وبعده الأحد عيدنا، فنحترم هذه الأعياد، ويكون اللقاء يوم الاثنين» فكان جواب الأمير يوسف: «اتركوا اللعين وما أحب» (3).

ولكن المعتمد تنبه لهذه الخدعة وقال للأمير يوسف: «إنها حيلة منه وخديعة إذما يريد غدرنا فلا تطمئن إليه، وقصده الفتك بنا يوم الجمعة فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كل النهار» (4).

واستعد المسلمون لرصد تحركات النصارى وكان حدس المُعتمد صائباً صحيحاً، ورصدوا تحرك العدو نحوهم.

وانقض الجيش الذى يقوده رودريك بمنتهى العنف على معسكر المُسلمين من الأندلسيين فتصدى فرسان المرابطين الذين يقودهم داود ابن عائشة الذين أرسلهم يوسف بن تاشفين على عجل لدعم الأندلسيين، وصمد المرابطون أمام هجوم النصارى، واضطر النصارى إلى الارتداد إلى خط دفاعهم الثانى وظهرت من داود ابن عائشة وجنوده كفاءة قتالية لم يعرف لها مثيل، واختار الله من المرابطين شهداء، واحتدم الصراع، وزحف ألفونسو ببقية جيشه، وأقرن زحفه بصياح هائل أفرع قلوب الأندلسيين قبل خوضهم المعركة، ولانوا بالفرار ووجدوا أنفسهم أمام أسوار بطلابوس للاحتماء بها، ولم يصمد منهم إلا فارس الأندلسيين وقومه «المُعتمد بن عباد وأهل إشبيلية» وأبلى بلاءً عظيماً وعقرت تحته ثلاثة أفراس، وأصيب بجروح بليغة، واستمرت المعركة الرهيبة، وصمد المُعتمد مع داود ابن عائشة حتى فلت السيوف، وتكسرت الرماح، وصبر المسلمون في المعركة صبراً عظيماً سجل في صفحات المجد والعزة والكرامة في تاريخنا المجيد.

(1) روض القرطاس، ص 94.

(2) الأندلس في عصر المرابطين، ص (82).

(3) الحلل الموشية، ص 36.

(4) الحلة السيرة، ص 354، الروض المعطار، ص 90، نفح الطيب، 6 / 98 الاستقصا 1 / 116،

أعمال الأعلام، تحقيق العبادي، ص (243).

وبدأت قوة المُسلمين تضعف وتتقهقر أمام ضربات النصارى الحاقدة، وأيقن ألفونسو ببلوغ النصر مُعتقداً إن هذه هي قوة المُسلمين المقاتلة التي ظهر الإعياء عليها، وأخذت موقف المدافعة، ولم يستغرق ألفونسو طويلاً في أحلامه حتى وثب جيش من المرابطين إلى ميدان المعركة أرسله الأمير يوسف بقيادة سير بن أبي بكر على رأس الحشم لمساندة القوات الإسلامية، فتقوّت بذلك معنوياتهم في معركة مالت إلى هزيمتهم، وزحف الأمير يوسف بحرسه المرابطي، وقام بعملية الذفاف سريعة باغت فيها معسكر العدو من الخلف، ووصل إلى خيامه وأحرقها وأباد حراسها، ولم ينج منهم إلا القليل، وكانت طبول المرابطين تدق بعنف فترتج مذهب الأرض، ورغاء الجمال يتصاعد إلى السماء فبث الذعر في نفوس الأعداء وهلعت قلوبهم. وذهل ألفونسو عندما رأى بعض حرس معسكره فارّين، وأتته الأخبار من داخل المعسكر باستيلاء المرابطين عليه، وأنه خسر حوالى عشرة آلاف قتيل، ووجد ألفونسو نفسه محاصراً من المُسلمين فاضطر للقتال متقهقراً نحو معسكره المحروق، ولكن يوسف لم يترك له الفرصة لالتقاط الأنفاس، فانقضَّ عليه كالسيل، وقاتل ألفونسو عند ذلك قتال المستميت، وكان الأمير يوسف يبث الحماس في نفوس المُسلمين قائلاً: «يا معشر المُسلمين اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين، ومن رُزق منكم الشهادة فله الجنة ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة»، وكان رحمه الله يقاتل في مقدمة الصفوف وهو ابن التاسعة والسبعين، وكان العناية الإلهية كانت تحميه (1)، وكان فقهاء المُسلمين وصالحوهم يعظون الجنود ويشجعونهم على مصابرة أعداء الدّين، وفي هذا الجو الرهيب من القتال الذى دام بضع ساعات وسقط فيه آلاف القتلى، وغمر الدم ساحة المعركة عندما دفع الأمير حرسه الخاص من السودان إلى القتال، فترجل منهم أربعة آلاف كانوا مسلحين بدروع اللط وسيوف الهند ونزاريق الزان.

اندفعوا إلى المعركة اندفاع الأسود فحطموا مقاومة النصرانية، وتكسّرت شوكتهم، وانقض أسد من أسود المُسلمين على ألفونسو وطعنه في فخذيه، ولاذ النصارى بالفرار، وتمنى ألفونسو الموت على العيش، ولجأ مع خمسمائة فارس من فرسانه إلى تل قريب ينتظر الظلام لينجو من سيوف المرابطين.

ومنع يوسف جنوده من اللحاق بهم، وكانت مناسبة لألفونسو الذى تابع سيره مع

(1) الحلل الموشية، ص 42، روض القرطاس، ص 95، ابن الكردبوس، ص 93، نفح الطيب، 6 / 101، الأندلس في عهد المرابطين، ص 85، الصلابي، دولة المرابطين، ص 109.

الظلام إلى طُلَيْطَلَة، وصل إليها مغمومًا حزينًا كسيرًا جريحًا بعد أن فقد خيرة رجاله وجنوده وقادة جيشه.

وفقد ألفونسو في الزَّلَاقَة القسم الأعظم من جيشه، وأمر يوسف بضم رءوس القتلى من النصاري، فعمل المُسْلِمُونَ منها مآذن يؤذنون عليها، واستشهد في تلك المعركة الخالدة جماعة من العلماء والفقهاء، فلما وجود الزمان بمثلهم منهم قاضى مراکش عبد الملك المصمودي، والفقهاء الناسك أبو العباس بن رميلة القرطبي. وجمع المُسْلِمُونَ الأسلاب والغنائم التي تركها النصاري وراءهم في ساحة المعركة، وأثر الأمير يوسف بها ملوك الأندلس، وقد عرّفهم أن هدفه الجهاد في سبيل الله ونصرة الإسلام⁽¹⁾.

وأرسل الأمير يوسف إلى المغرب أخبار النصر المبين وهذا نص خطابه: «أما بعد حمدًا لله المتكفل بنصر أهل دينه الذي ارتضاه، والصلاة والسلام على سيدنا مُحَمَّدٍ أَفْضَل وأَكْرَم خلقه، فإن العدو الطاغية لما قربنا من حماه وتوافقنا بإزائه بلغناه الدعوة، وخيرناه بين الإسلام والجزية والحرب، فاخترنا الحرب، فوقع الاتفاق بيننا وبينه على الملاقاة يوم الاثنين 15 رجب وقال: الجمعة عيد المُسْلِمِينَ، والسبت عيد اليهود، وفي عسكرنا منهم خلق كثير، والأحد عيدنا نحن، فافترقنا على ذلك، وأضرر اللعين خلاف ما شرطناه وعلماه أنهم أهل خدع ونقض عهود فأخذنا أهبة الحرب لهم، وجعلنا عليهم العيون ليرفعوا إلينا أحوالهم، فأتتنا الأذباء في سحر يوم الجمعة 12 رجب أن العدو قد قصد بجيوشه نحو المُسْلِمِينَ، يرى أنه قد اغتنم فرصته في ذلك الحين، فنبذت إليه أبطال المُسْلِمِينَ، وفرسان المجاهدين فتعشته قبل أن يتغشاها، وتعدّته قبل أن يتعدها، وانقضت جيوش المُسْلِمِينَ على جيوشهم كانهض العقاب على عقيرته، ووثبت عليهم وثوب الأسد على فريسته، وقصدنا برايته السعيدة المنصورة في سائر المشاهد مشتهرة ونظروا إلى جيوش لمتونة نحو ألفونسو - فلمّا أبصر النصاري راياتنا المشتهرة المنتشرة، ونظروا إلى مراكبنا المنتظمة المظفرة، وأغشتهم بروق الصفاح، وأظلائهم سحائب الرماح، ونزلت بحوافر خيولهم رعود الطبول بذلك الفياح، فالتحم النصاري بطاغيتهم ألفونسو، وحملوا على المُسْلِمِينَ حملة منكرة؛ فتلقاهم المرابطون بنيات خالصة وهمم عالية، فعصفت ريح الحرب وركبت

(1) ابن الكردبوس، ص 94، الحلة السيرة، ص 356، وفيات الأعيان، 7 / 118، دفع الطيب، 6 / 102، الروض المعطار، ص 92 - 95، ملوك الطوائف، ص 314، الصلابي، دولة المرابطين، ص 111.

دائم السيوف والرماح، بالطعن والضرب، وطاحت المهج وأقابت سيل الدماء في هرج، ونزل من سماء الله على أوليائه النصر العزيز والفرج.

وولّى ألفونسو مطعوناً في إحدى ركبتيه طعنة أفقدته إحدى ساقيه في 500 فارس من ثمانين ألف فارس ومائتي ألف راجل قادهم الله على المصارع والدحف العاجل، وتخلّص إلى جبل هنالك، ونظر الذهب والذيران في محلته من كل جانب وهو من أعلى الجبل ينظرها شذراً، ويحيد عنها صبراً، ولا يستطيع عنها دفعاً ولا لها نصراً، فأخذ يدعو بالثبور والويل، ويرجو النجاة في ظلام الليل، وأمير المسلمين يحمد الله؛ قد ثبتت في وسط المعركة مراكبه المظفرة، تحت ظلال بنوده المنتشرة منصوراً لجهاد مرفوع الأعداء، ويشكر الله تعالى على ما منحه من نيل السؤال والمراد، فقد سرح الغارات في محلاتهم تهدم بناءها، وتصلطم ذخائرها وأسبابها، وتزريه رأى العين دمارها ونهبها، وألفونسو ينظر إليها نظر المغشى عليه، ويعض غيظاً وأسفاً على أنامل كفيه، فتتابعت البهرجة الفرار، رؤساء الأندلس المهزومين نحو بطليوس والفار، فتراجعوا حذراً من الأعداء، ولم يثبت منهم غير زعيم الرؤساء والقواد، أبو القاسم المعتمد بن عباد، فأتى أمير المسلمين وهو مهيب الجناح، مريض عنه وجراح، فهناه بالفتح الجليل، وتسلى ألفنش تحت الظلام فاراً لا يهدى ولا ينام ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربعمئة فلم يدخل طليطلة إلا مائة فارس والحمد لله على ذلك كثيراً.

وكانت هذه النعمة العظيمة والمنة الجسيمة يوم الجمعة 12 رجب 479 هـ/23 شهر أكتوبر 1086م.. العجمي (1).

وأرسل المعتمد إلى ابنه الرشيد في إشبيلية يزفُّ إليه البشرى بالنصر، وكان الناس بانتظار الأنباء على أحرّ من الجمر، وقد حمل الرسالة الحمام الزاجل وهي مقتضبة إذ لا تتعدى السطرين، هذا نصها: «اعلم أنه التقت جموع المسلمين بالطاغية ألفونسو اللعين ففتح الله للمسلمين وهزم على أيديهم المشركين والحمد لله رب العالمين، فأعلم بذلك من قبلك إخواننا المسلمين والسلام»، وقرئت الرسالة بمسجد إشبيلية فعمها السرور، ثم توالى الكتب تفيض بأخبار النصر منها إنشاء الكاتب ابن عبد الله بن عبد البر النمري وفيه يحدد تاريخ المعركة وسيرها وما أظهره ألفونسو

(1) نفح الطيب، 6 / 103، الحلة السيرة، ص 356، الروض المعطار، ص 95، روض القرطاس، ص 97 - 98، الحلل الموشية، ص 45 - 47، الصلابي، دولة المرابطين، ص 112.

من الغدر والآخرة للصالحين (1).

وأصبح يوم الزّلاّقة عند المغاربة والأندلسيين مثل يوم القادسية واليرموك: «يوم لم يسمع بمثله من القادسية واليرموك، فياله من فتح ما كان أعظمه، يوم كبير ما كان أكرمه، فيوم الزّلاّقة ثبتت قدم الدّين بعد زلاقتها وعادت ظلمة الحق إلى إشراقها». نتائج معركة الزلاّقة:

كانت لمعركة الزّلاّقة نتائج مهمة من أهمها:

- 1 - رفع الروح المعنوية لأهل الأندلس، خصوصاً بعد أن أنقذ الله بها سقوط سرقسطة من سقوط محتم، وأزاح عن ملوك الطوائف وأمرائها كابوس النصارى ومتطلباتهم التي لا تنتهى من الجزية وغيرها.
 - 2 - سقوط هيبة ملوك الطوائف أمام رعاياهم خاصّة أنهم قد هزموا في بدء المعركة ولولا أن أكرمهم الله بالمرابطين لضاعت الأندلس.
 - 3 - امتناع الرعية عن دفع الضرائب المخالفة لتعاليم الإسلام وتعلّقهم بالمرابطين.
 - 4 - مهّدت الزّلاّقة إلى إسقاط دول الطوائف فيما بعد على يد منقذهم.
 - 5 - ظهور نجم يوسف بن تاشفين والمرابطين في العالم أجمع.
 - 6 - انصياح قبائل المغرب التي كانت مترددة في ولائها وتنتظر فرصة الوثوب على المرابطين، وبذلك تكون نتيجة معركة الزّلاّقة أن جعلت تلك القبائل تخلد إلى السكينة وأعلنت ولاءها التام.
 - 7 - عمت الأفراح أرجاء العالم الإسلامى في شرقه وغربه وأعتقت الرقاب وسرّ العلماء والفقهاء بهذا النبأ السعيد.
 - 8 - أصيب نصارى الإسبان بهزيمة تعيسة أثّرت في نفوسهم، وتحطمت آمالهم في الاستيلاء على أراضى المسلمين في الأندلس وإبعادهم.
 - 9 - جعلت النصارى يربّون أمورهم ويوحّدون صفوفهم، ويتنازلون عن صراعاتهم الداخليّة.
- وغير ذلك من النتائج المهمة التي غيرت مجرى تاريخ الأندلس وبلاد المغرب

(1).

بعد أن رتب الأمير يوسف أموره بعد معركة الزلاقة عاد إلى إشبيلية، ودعا رؤساء الأندلس إلى اجتماع عام، وطلب منهم الاتفاق والاتحاد ضد عدوهم المشترك الذي نخر فيهم بسبب اختلافهم؛ فأجابه الجميع بقبول وصيته وتحقيق رغبته، وترك ثلاثة آلاف جندي مرابطي للدفاع عن ثغور الأندلس بقيادة سير بن أبي بكر (2).

في نشوة النصر عاد الأمير يوسف فجأة إلى المغرب دون أن يجني ثمار نصره، وعلي الأقل استرجاع مدينة طليطلة، وقد تعددت الأسباب التي حملته على تلك العودة المفاجئة فمنها:

- 1 - وفاة ابنه الأمير أبي بكر الذي استخلفه على سبته وكان مريضاً (3).
- 2 - اضطراب الحدود الشرقية بسبب تحالف بنى حماد مع عرب بنى هلال وحاولوا غزو المناطق الحدودية التابعة للدولة المرابطية (4).
- 3 - أراد أن يتفقد الولاة والحكام الذين تركهم في المدن والقرى، وينظر في أمور الرعية (5).
- 4 - أراد أن يخرج من إلاح مسلمي الأندلس الذين طلبوا منه تعقب ألفونسو وجنوده حيث إنه رأى إن قواته لا تستطيع أن تسيطر على كل الأندلس لاتساع أراضيها (6).
- 5 - خشي من إبراهيم بن أبي بكر بن عمر الذي زعم أنه له حق شرعي في استخلاف والده المجاهد الكبير (7).

(1) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس ص 246 - 247، الصلابي، دولة المرابطين، ص 124.

(2) دفتح الطيب، 6 / 104، الروض المعطار، ص 95، الدلة السيرة، ص 356، وفيات الأعيان، 7 / 122 الحل الموشية، ص 45 - 47، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس ص 246 - 247، الصلابي، دولة المرابطين، ص 124.

(3) روض القرطاس، ص 98، الاستقصا، 1 / 118.

(4) قيام دولة المرابطين، ص 288.

(5) روض القرطاس، ص 98، أعمال الأعلام، ص 249، وفيات الأعيان، 5 / 29.

(6) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس ص 248 - 249، الصلابي، دولة المرابطين، ص 125.

(7) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس ص 248 - 249، الصلابي، دولة المرابطين، ص 125.

* * *

الأندلس بعد الزلافة

بعد رجوع يوسف بن تاشفين إلى المغرب للأسباب التي ذكرتها تولى قيادة المرابطين القائد الميداني سير بن أبي بكر، الذي واصل غاراته الناجحة مع أمير بطليوس على أواسط البرتغال الحالية مما يلى تاجه، وقد أخذت قواته مع قوات المرابطين في تلك البقاع.

كما وجّه المُعْتَمِد بن عَبَّاد ضربات موفقة بقيادته إلى عدة مُدُن حول طُلَيْطَلَة، ثم اتجه نحو أرض مرسية، حيث استقرّت جموع الفرسان النصارى بقيادة الكنييطور في أحد الحصون القريبة التي تشن غاراتها على مُدُن المسلمين، خاصة مدينة المرية، إلا أن المُعْتَمِد انهزم واضطراً أن يلتجئ إلى قلعة لورقة في كنف واليهما مُحَمَّد بن ليون، ثم توجه نحو قرطبة تاركاً مرسية لمصيرها.

وبدأت قوات النصارى تتجمع حول ألفونسو الذى أربك مُدُن شرق الأندلس، متخذين من حصن لبيب المنيع الواقع على مسيرة يوم من لورقة مركزاً لشن الغارات على أراضى المُسلمين.

فلم يمض عام واحد على هزيمة ألفونسو حتى عاد نشاطه وجيشه، ونقل مقر العمليات إلى شرق الأندلس الذى خيمت عليه الفرقة السياسية، بعكس غرب الأندلس الذى كانت تحكمه مملكتان قويتان هما مملكة إشبيلية وبطليوس، تعضدهما فرقة من المرابطين قوامها ثلاثة آلاف رجل على رأسها القائد العظيم سير بن أبي بكر (1).

وهكذا بدأت مناطق شرق الأندلس بعد الزلافة مباشرة وكأنها علي شفير الهاوية والسقوط بيد الأسبان، وأرتفعت أصوات الاستغاثة من جديد تستنجد بالأمير يوسف، وأخذت الوفود الشعبية وعلي رأسها الفقهاء تعبر إلى المغرب مستغيثة مستجدة به لإنقاذ الأندلس من هذه المحنة التي عادت. فتوافدت وفودهم على الأمير يوسف، وخصوصاً أهل بلنسية ومرسية ولورقة، يصفون للأمير يوسف ما نزل بهم على أيدي النصارى الذى يتحكمون في حصن لبيب.

وعبر المُعْتَمِد المجاز إلى المغرب وطلب من يوسف العبور، فاستجاب يوسف

(1) تاريخ المغرب والأندلس، ص 62، الصلابي، دولة المرابطين، ص 125.

لرغبته، وتمَّ جواز يوسف إلى الجزيرة الخضراء في ربيع الأول سنة 481هـ/ 1088م، ومن هناك كتب الأمير يوسف إلى جميع أمراء الأندلس يدعوهم إلى الجهاد، ثم تحرَّك الأمير يوسف إلى مالقة في صحبة أميرها تميم بن بلقين، كما لحق الأمير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة، والمعتصم بن صمادح، فضلاً عن المُعتمد بن عبَّاد، بالإضافة إلى أمراء مرسية وشقورة وبسطة وجيان، ولم يتخلف من ملوك الطوائف سوى ابن الأفطس صاحب بطليوس، وتوجهت تلك الجموع لضرب الحصار على حصن لبيط الذي كان يسكنه ألف فارس واثنًا عشر ألفاً من المشاة من جنود النصاري الحاقدين أصحاب النزعة الصليبية الانتقامية، واستبسل النصاري في الدفاع عن الحصن وكانوا يخرجون ليلاً للانقضاض على المُسلمين وإحراق الخسائر بهم.

واستمرَّ الحصار بدون جدوى وظهرت صراعات ملوك الطوائف فيما بينهم ووصلت للأمير يوسف الذي ساءه ذلك كثيرًا.

وشكى المُعتمد بن عبَّاد للأمير يوسف خروج ابن رشيق صاحب مرسية عن الطاعة ودفعه الأموال لألفونسو السادس تقريبًا إليه، وظهرت المشاكل بين أبناء بلقين عبد الله وتمدِّم للأمير يوسف، وكان لا عمل له إلا حل المشاكل والمنازعات بين الأطراف المتنازعة.

وتضايق الأمير يوسف من خيانة ابن رشيق الذي دفع أموالاً طائلة لألفونسو، وعرض الأمر على الفقهاء والعلماء الذين أفتوا بإزاحته من حكمه وتسليمه للمُعتمد، واستغاث ابن رشيق بالأمير يوسف الذي أجابه بأنها أحكام الدين ولا يستطيع مخالفتها.

وأمر القائد سير بن أبي بكر باعتقاله وتسليمه للمُعتمد مشروطاً عليه إبقاءه حيًّا⁽¹⁾.

ونفذ سير المهمة، وبهذا يكون الأمير يوسف قد وضع فتاوي الفقهاء فوق كل اعتبار مهما تكن النتائج، وضحي بحليف صغير من أجل حليف أكبر.

وفرَّ جيش مرسية وابن رشيق من المعركة، ومنع الزاد على جيش المرابطين ومنَّ معه من الأندلسيين الذين يحاصرون الحصن، فارتفعت الأسعار، ووقع الغلاء

(1) الحل، ص 50، مذكرات الأمير عبد الله بن زيري، ص 111 - 112، الصلابي، دولة المرابطين، ص 126.

واضطربت الأحوال، وعندما علم ألفونسو بالخلافات التي وقعت حشد جيشاً من أجل فك الحصار عن أتباعه في حصن لبيط، فاضطّر الأمير يوسف إلى فك الحصار خوفاً من معركة خاسرة غير مأمونة النتائج خاصة بعد الذي رآه من حُكّام الأندلس وتأمّرهم واتصالهم بالعدو، ورجع الأمير يوسف إلى لورقة وترك أربعة آلاف مرابطي بقيادة داود ابن عائشة للمحافظة على منطقة مرسية وبعث بجنود إلى بلنسية بقيادة مُحَمَّد بن تاشفين.

واستطاع ألفونسو الوصول للحصن وأخرج من نجا من الموت، ورأى أن لا فائدة من الاحتفاظ بالحصن، لأنّه يتطلب حماية كبيرة معرضة لمصير سابقاتها فقرّر إخلاءه وتدميره، واسترجع ابن عبّاد الحصن بعد أن أصبح أطلاً (1).

لقد أيقن الأمير يوسف إن أمراء الأندلس لا يصلحون للحكم ولا يعتمد عليهم في جهاد، وبعد رجوع الأمير يوسف في عام 482هـ/1089م عرض الأمر على الفقهاء والعلماء فأفتوا له بضم الأندلس للمغرب.

وكان فقهاء وعلماء الأندلس يؤيدون ذلك، وكذلك فقهاء وعلماء المغرب والمشرق، وأرسل الإمام الغزالي وأبو بكر الطرطوشي فتوى تؤيد عمله الجليل من أجل توحيد صفوف المسلمين (2).

يقول الغزالي في شأن أمراء الطوائف: فيجب على الأمير وأشياعه قتال هؤلاء المتمرّدة ولا سيما وقد استتجددوا بالنصارى، فقد أفتاه العلماء بجواز خلعهم وإزاحتهم، وبأنه في حل مما تعهد لهم به من الإبقاء عليهم في جوازه الأول، لأنهم خانوا الله بمعاهدتهم ألفونس على محاربة المسلمين؛ وبالتالي فإن عليه أن يبادر إلى خلعهم جميعاً، فإنك إن تركتهم وأنت قادر عليهم، أغاروا بقية بلاد المسلمين إلى الروم وكنت أنت المحاسب بين يدي الله، وكان ممن استفتى في هذا الموضوع الفقيه يوسف بن عيسى المعروف بأبي الملقوم (3).

وطلب القضاة والفقهاء من يوسف أن يرجع ويوحد البلاد بالقوة، لتدخل تحت الخلافة الإسلامية في بغداد.

(1) الدال، ص 50، روض القرطاس، ص 99، مذكرات الأمير عبد الله بن زيري، ص 112، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 257.

(2) ابن خلدون، العبر، 6/ 187.

(3) محمد بن يّيه، الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين، ص 155.

لقد كان ملوك الطوائف يهتمون بمصالحهم الخاصة لا ينظرون إلى عزة أمتهم حتى وصفهم ابن حزم بقوله: «لو وجدوا في اعتناق النصرانية وسيلة لتحقيق أهوائهم ومصالحهم لما ترددوا» (1).

وكان المسلمون في الأندلس يتمنون أن ينضموا إلى دولة المرابطين، وعبر عن ذلك فقهاؤهم وعلماءهم وبرز الفقيه القاضي ابن القلاعي «قاضي غرناطة»، الذي توطدت العلاقة بينه وبين يوسف بن تاشفين منذ ذهاب أول بعثة إلى المغرب لطلب النجدة، إذ كان أحد أعضائها، وكان يرى في الأمير يوسف صلاحاً وعدلاً وحزمًا.

حاول الأمير عبد الله ابن ملك غرناطة أن يتخلص منه فاعتقله، ثم اضطر إلى إطلاق سراحه، فهرب إلى قرطبة، ومن هناك اتصل بالأمير يوسف وأطلعه على خفايا من الأمور، وأفتى بذلع ملوك الطوائف، وتفاعل مسلمو الأندلس مع هذه الفتوى الموقفة (2).

وأرسل الإمام أبو بكر بن العربي المالكي إلى الإمام الغزالي كتاباً يشرح فيه موقف ملوك الطوائف بالأندلس من حركة يوسف بن تاشفين الجهادية، ويطلب منه فتياً في ذلك، قال الإمام أبو بكر بن العربي: «وكان أشهر من لقينا من العلماء في الآفاق، ومن سارت بذكره الرفاق، ولطول باعه في العلم ورحب ذراعه، الإمام أبو حامد بن محمد الطوسي الغزالي، فاستدعينا منه فتياً وكتاباً، واختصرت لفظ الفتيا لوقت ضاق عن تقييدها لكن أنبه على معناها وهو: في علم الإمام ما ذكر في وصف خلال أمير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين أمير المغربين الأندلس والعدوة، وما أوضحت لديه من إعزاز الدين، والذب عن المسلمين، وهو حميرى النسب ومعه المرابطون، وقد وقفوا أنفسهم على الجهاد، وقد كانت جزيرة الأندلس قد تملكها من تاريخ ابتداء الفتنة سنة أربعمائة، عدة ثوار تسوروا على البلاد، فضعف أهلها عن مدافعتهم، وتلقَّبوا باللقاب الخلفاء وخطبوا لأنفسهم، وضربوا النقود بأسمائهم، وأثاروا الفتنة بينهم لرغبة كل واحد منهم في الاستيلاء على صاحبه، واستبانوا الفساق في الأرقاء والصنائع الطلقاء في محاربة بعضهم بعضاً، واستجدوا بالنصارى عندما اعتقد كل واحد منهم أنه أحق من صاحبه، وعند ذهاب شوكة

(1) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 3 / 319.

(2) مذكرات الأمير عبد الله، ص 119، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 261، الصلابي، دولة المرابطين، ص 128.

المُسْلِمِينَ، وحينما انكشف للنصارى ضعف المُسْلِمِينَ، وعلّموا الدماخل والمخارج إلى بلاد المُسْلِمِينَ، طلبوا المعاقل وأخذوا بالحرب كثيراً منها من غير مؤونة ولا مشقة، ثم لجأ الباقي من المُسْلِمِينَ إلى المرابطين واستصرخوهم فلباهم أمير المُسْلِمِينَ ووصل إلى البحر، فاستاء بعض الرؤساء وفاءً للمشرّكين، وحقّداً على المُسْلِمِينَ في استدعائهم له، ووصل الأمير إلى غرب الأندلس فمذحه الله نصرًا، وألجم الكفار السيف، ثم عاود الجواز في العام الثالث من هذا الفتح فتهيّبه العدو، وتحصّن منه، ولم يخرج للقاءه مع تتافل الرؤساء عنه، وعثر لأحدهم على خطاب يشجع العدو على اللقاء، واستولى على من قدر عليه من الرؤساء من البلاد والمعاقل، وبقيت طائفة من رؤساء الثغر الشرقى من جزيرة الأندلس، حالفوا النصارى أو صاروا معه إلبًا، ودعاهم أمير المُسْلِمِينَ إلى الجهاد، والدخول في بيعة الجمهور، فقالوا: لا جهاد إلا مع إمام من قریش، ولست به، أو مع نائب عن الإمام، وما أنت ذلك، فقال: أنا خادم الإمام العبّاسي، فقالوا له: أظهر لنا تقديمه إليك، فقال: أو ليست الخطبة في جميع بلادى له؟ فقالوا: ذلك احتيال. ومردوا على النفاق، فهل يجب قتالهم؟ وإذا ظفر بهم كيف الحكم في أموالهم؟ وهل على المسلم حرج في قتالهم؟ وهل على الإمام العبّاسي أن يبعث بمنشور يتضمن تقديمه له على جهادهم، فإنهم إنّما خرجوا عليه بأن الأمير خادمه، وهو يخطب له على أكثر من ألفي مذبر، وتضرب السكة باسمه إلى غير ذلك، ومتى وصف نفسه قال: لست مستبدًا وإنما خادم أمير المؤمنين المستظهر، وهذا أشهر أن يؤكد بالتحلية، وأظهر من أن يجدد بالتركية.

فللشيخ الإمام الأجل الزاهد والأوحد أبى حامد أتم الأجر، وأعم الشكر في الإنعام بالمراجعة في هذا السؤال إن شاء الله تعالى (1).

فأجاب الإمام الغزالي رحمه الله: «لقد سمعت من لسانه وهو الموثوق به الذي يستغنى عن شهادته عن غيره وعن طبقة من ثقافة المغرب الفقهاء وغيرهم، من سيرة هذا الأمير - أكثر الله من الأمراء أمثاله - ما أوجب الدعاء لأمثاله، ولقد أصاب الحق في إظهار الشعار الإمامي المستظهرى - حرس الله على المستظهرين ظلاله - وهذا هو الواجب على كل ملك استولى على قطر من أقطار المُسْلِمِينَ في مشارق الأرض ومغاربها، فعليهم تزيين منابرهم بالدعاء للإمام الحق، وإن لم يكن بلغهم صريح

(1) د. أحمد العبادي، دراسات في تاريخ المغرب، ص 479 - 480، الصلابي، دولة المرابطين، ص

التقليد من الإمام، أو تأخر عنهم ذلك لعائق، وإذا نادى الملك المستولى بشعار الخلافة العباسية، وجب على كل الرعايا والرؤساء الإذعان والانقياد، ولزمهم السمع والطاعة، وعليهم أن يعتقدوا أن طاعته هي طاعة الإمام، ومخالفته هي مخالفة الإمام، وكل من تمرد واستعصى وسل يده عن الطاعة، فحكمه حكم الباغي، وقد قال تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفَعِّلُوا الْبَغْيَ حَقَّ تَفْعِيلِهِ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ} [الحجرات: ٩]. والفئة إلى أمر الله، الرجوع إلى السلطان العادل المتمسك بولاء الإمام الحق المنتسب إلى الخلافة العباسية، فكل متمرد على الحق فإنه مردود بالسيف إلى الحق، فيجب على الأمير وأشياعه قتال هؤلاء المتمردة عن طاعته، ولا سيما وقد استنجدوا بالنصارى المشركين وأوليائهم، وهم أعداء الله في مقابلة المسلمين الذين هم أولياء الله، فمن أعظم القربات قتالهم إلى أن يعودوا إلى طاعة الأمير العادل المتمسك بطاعة الخلافة العباسية، ويتركوا المخالفة، وجب الكف عنهم، وإذا قاتلوا لم يجز أن يُتَّبَعَ مدبرهم، ولا أن يُذَفَّفَ (1) على جريحهم، بل متى سقطت شوكتهم وانهزموا، وجب الكف عنهم، أعنى عن المسلمين منهم دون النصارى الذين لا يبقى لهم عهد مع التشاغل بقتال المسلمين، وأما ما يظفر به من أموالهم فمردود عليهم أو على ورثتهم، وما يؤخذ من ذرائعهم في القتال مهذرة لا ضمان فيها وحكمهم في الجملة في البغي على الأمير المتمسك بطاعة الخلافة، والمستولى على المنابر والبلاد بقوة الشوكة حكم الباغي على نائب الإمام، فإنه وإن تأخر عنه صريح التقليد لاعتراض العوائق المانعة من وصول المنشور بالتقليد فهو نائب بحكم قرينة الحال، إذ يجب على الإمام المصر أن يأذن لكل إمام عادل استولى على قطر من أقطار الأرض، في أن يخطب عليه، وينادى بشعاره ويحمل الخلق على العدل والنصفة، ولا ينبغي أن يظن بالإمام توقف في الرضا بذلك والإذن فيه.

وإن توقف في كتبه المنشور، فالكتب قد يعوق عن إنشائها وإيصالها المعاذير، وأما الإذن والرضا بعدما ظهر حال الأمير في العدل والسياسة وابتغاء المصلحة للذفويض والتعيين فلا رخصة في تركه، وقد ظهر حال هذا الأمير بالاستفاضة ظهوراً لا شك فيه، وإن لم يكن عن إيصال الكتاب وإنشائه عائق، وكانت هذه الفتنة لا تنطفئ إلا بأن يصل إليهم صريح الإذن والتقليد بمنشور مقرون بما جرت العادة

(1) لا يذفف: لا يجهز.

بمثله في تقليد الأمراء، فيجب على حضرة الخلافة بذل ذلك. فإن الإمام الحق عاقلة أهل الإسلام، ولا يحلُّ له أن يترك في أقطار الأرض فتنة تائرة إلا ويسعى في إطفائها بكل ممكن، قال عمر (: «لو تركت جرباء على ضفة الفرات، لم تطل بالهناء، فأنا المسؤول عنها يوم القيامة»)، قال سليمان بن عبد الملك يوماً وقد أحرق به الناس: «قد كثرت الناس» فقال عمر بن عبد العزيز: «خصماؤك يا أمير المؤمنين»، يعنى أنك مسؤول عن كل واحد منهم إن ضيعت حق الله فيهم أو أقمته، فلا رخصة في التوقيف عن إطفاء الفتنة في قرى تحوى عشرة، فكيف في أقاليم وأقاليم إلا أن يعوق عن ذلك عائق، ويمنع منه مانع، المواقف القدسية الإمامية المستظهرية حرس الله جلالها أبصر بها، ونحن نعلم أن لا نستجيز التوقف عن إطفاء هذه الفتنة إلا لعذر ظاهر وجب على أهل الغرب أن لا يعتقدوا في حضرة الخلافة إلا ذلك، فإن المسافة إذا بعدت وتخللها المارقون عن ربة الحق، ولم يبعد أن يقتضى الرأى الشريف صيانة الأوامر الشريفة عن أن تمد إليها أعين الدولة فضلاً عن أيديهم، وأما من يستجيز التوقف فيها من غير عذر عن التقليد لأمير قد ظهرت شوكته وعرفت سياسته، وتناطقت الألسن بعدله، ولم يعرف في ذلك القطر من يجرى مجراه، ويسد في هذا الحال مسده، فهذا اعتقاد فساد في حضرة الخلافة، حاشاها من أن تنسب إلى قصور، أو تقتضى في نصرة أهل العدل المتمسكين بخدمتها، والمعتصمين بعروتها، والقائمين في أقطار الأرض بإنفاذ شعائرها وأوامرها المعلومة بقرائن الأحوال، فهذا حكم كل أمير عادل في أقطار الأرض، وحكم من بغى عليه، والله أعلم (1).

العبور الثالث للأمير يوسف بن تاشفين للأندلس

بعد طلب العلماء والفقهاء في الأندلس والمغرب والمشرق من الأمير يوسف أن يضم الأندلس إلى دولة المرابطين الفتية التابعة للخلافة العباسية السنية، عبر الأمير يوسف بقوة ضخمة، عبرت من سبتة إلى الجزيرة الخضراء وسار على رأس جيشه إلى طليطلة وأرسل فرقا من جيشه نحو مختلف المدن، وسار بنفسه نحو مدينة غرناطة.

(1) د. أحمد عبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص 484، الصلابي، دولة المرابطين، ص

واستطاع أن يفتح غرناطة بعد شهرين من حصارها واعتقل أميرها، عبد الله بن بلكين الصنهاجي الذي تحالف مع النصارى من أجل أملاكه، ثم أرسله أسيراً إلى المغرب، واستقر في أغمات بالقرب من مراکش (1).

بعد أن فرغ الأمير يوسف من ضم غرناطة إلى مملكته وجه جيشه نحو مالقة وفيها تميم بن بلكين بن باديس - شقيق عبد الله - فأسلم البلد للأمير بلا قتال وضرب الدراهم المرابطية، مما أسبغ عليه رضي الأمير، وهذا ما جعله مفضلاً علي أقرانه، ونقل تميم إلى الدوس، وقد أوصي به الأمير يوسف إلى يزلف وبالغ في إكرامه، وكان في عافية ورغد العيش، وقد أمضي أولاد باديس بقية حياتهما في منفاهما في المغرب (2).

بعد دخول الأمير يوسف إلى غرناطة قدم المعتمد بن عباد والمتوكل بن الأفطس لتهنئته بالنصر، وأرسل المعتمد بن صمادح ابنه كذلك، وكان المعتمد يمني نفسه بامتلاك غرناطة، فاستقبل الأمير يوسف هذا الوفد بفتور مظهره تغيره عليهم، كما اعتقل ابن المعتمد بن صمادح. وهنا أخذ الندم المعتمد وأدرك فداحة الخطأ الذي ارتكبه باستدعاء المرابطين، وقال للمتوكل: " والله لا بد له من أن يسقينا من الكأس التي أسقي بها عبد الله بن بلكين " (3) وانصرفا إلى بلادهما ولسان حالهما يقول: انج سعد فقد هلك سعيد.

وحاول المعتمد بن عباد والأفطس أن يقيما حلفاً من ملوك الطوائف لمواجهة المرابطين ولكنهم فشلوا في إقامة هذا التحالف، ولعبت الوشاية دورها في توتر العلاقة بين الأمير يوسف وبين المعتمد بن عباد، فدعا الأمير يوسف المعتمد للقاء والتشاور فامتنع المعتمد، فطلب الأمير يوسف منه أن يطبق أحكام الشرع، وألا يفرض الضرائب المخالفة لتعاليم الإسلام، وأن يربط في الثغور للذود عن حياض المسلمين، فامتنع المعتمد عن الإجابة، فكان ذلك بمثابة إعلان الحرب (4).

ثم رجع الأمير يوسف إلى سبتة في رمضان سنة 483 هـ / 1090 م، وتولّى القيادة السياسية والعسكرية القائد المدحك سير بن أبي بكر، وبدأ الأمير يوسف في

(1) مذكرات الأمير عبد الله، ص 150 - 160، الكامل، 10 / 155، ذبح الطيب، 6 / 107، الاستقصاء، 120 / 1.

(2) روض القرطاس، ص 100، الاستقصاء، 1 / 120، مذكرات الأمير عبد الله، ص 162 - 163.

(3) الحل، ص 51 - 53.

(4) الحل، ص 52 مذكرات الأمير عبد الله، ص 169.

إرسال الجيوش من المغرب إلى الأندلس للقضاء الكلى على ملوك الطوائف، وأصبحت القوة المرابطة في الأندلس قوة ضاربة لا يستطيع أحد الصمود أمامها، وقسم الأمير يوسف جيش المرابطين إلى أربعة أقسام:

جيش بقيادة سير بن أبى بكر توجه إلى إشبيلية.

وجيش سار إلى قرطبة بقيادة أبى عبد الله بن الحاج وواليتها، آنذاك، ولد المَعْتَمِد الفتح أبو النصر.

وسار جرور اللمتونى إلى أرض رندة بجيش ثالث، وفيها ولد آخر للمَعْتَمِد وهو يزيد الراضى بالله.

وسار أبو زكريا بن واسندوا إلى المرية التى فيها المعتصم بن صمادح، صديق المَعْتَمِد الحميم.

وبقى يوسف بن تاشفين في سبتة على رأس جيش احتياطى لكى يقوم عند الحاجة بإنجاد هذا الجيش أو ذاك (1).

وسقطت قرطبة في يد المرابطين في صفر 484 هـ/1091م بعد مقاومة عنيفة من ابنى المَعْتَمِد الذين قتلوا «المأمون ويزيد الراضى» ووصل المرابطون إلى ضواحي طُلَيْطَلَة مهديين ملوك النصارى، واستولوا على قلعة رباح التى فتحت الطريق أمامهم إلى قشتالة، واشتدَّ الخوف بالمَعْتَمِد بن عَبَّاد الذى أرسل إلى ألفونسو يستجده ضد المرابطين، وعقد الخطر المشترك أواصر الصداقة بينهم (2).

وسقطت قرمونة بعد حصار قصير في ربيع الأول 1091/484م، وأصبح أمير إشبيلية في خطر عظيم، وجاءته إمدادات النصارى التى أرسلها ألفونسو بقيادة الكونت جومز، وعدتها أربعون ألف رجل مرتجل، وعشرون ألف فارس، ووصلت إلى مقربة من قرطبة وتصدَّى لهم القائد الشجاع إبراهيم بن إسحاق في جند الشجعان، ونشبت بين الفريقين معركة حاسمة، أصاب فيها المرابطون بالرغم من خسائرهم نصراً كبيراً مبيئاً، وغدت إشبيلية بعد فرار النصارى تحت رحمة المرابطين، وكانوا قد ضربوا حولها الحصار، وكان سير بن أبى أبكر يقود الجيش المحاصر، وفتحت إشبيلية عنوة في رجب 484 هـ/1091م، واستسلم المَعْتَمِد بن عباد

(1) الصلابي، دولة المرابطين، ص 136.

(2) مذكرات الأمير عبد الله بن زيري، ص 169.

للمرابطين الذين ألقوا القبض عليه هو وأهله، ونهب مقره مثلما حدث في المدينة (1). ولكن المعارك لم تنته بسقوط العاصمة إشبيلية واستمرت المقاومة بقيادة ولدي المعتمد في مارتلة، والراضي في رندة، فقد أنفا الذل وأبيا وضع أيديهما بغير يد أبيهما، وكان وضع الراضي جيذا فرندة محصنة ولم يجرؤ المرابطون علي التقدم نحوها، أمام هذا الوضع عمد القائد سير إلى مضايقة المعتمد لإجباره علي مخاطبة ولديه بالاستسلام وإلا كان الموت نصيب الأسرة، حتى أن أمهما كتبت إليهما مستعطفة راجية “ وإن دم الكل مسترهن باستسلامهما ” ولهما العهود والمواثيق بعدم التعرض لهما بأذي، وقد حرك هذا النداء عواطف الرحمة وحقوق الأبوة في نفسيهما فاستسلما، ولكن القواد المرابطين تذكروا للعهد التي أعطوها للمعتمد بشأن ولديه، فقد قبض القائد جرور علي الراضي وقتله غيلة وأحضر جسده، أما المعتمد فقد استجاب للنداء مباشرة فكان قدره أقل قساوة، فأبقي عليه ديا بعد مصادرة جميع أملاكه (2).

وقد حرك هذا العمل مشاعر المعتمد فرثا ابنيه - اللذين قتلوا بين يديه صبرا - بقصائد رقيقة حزينة:

يقولون صبراً لا سبيل إلى الصبر :: سأكبي، وأكبي ما تطاول من عمري
أفتح لقد فتحت لي باب رحمة :: كما يبيد، الله قد زاد في أجري
هوى بكما المقدار عني، ولم أمت :: فأدعي وفيأ، قد نكصت إلى الغدر
ولو عدتما لاخترتما العود في الثرى :: إذا أنتما أبصرتما في الأسر
أبا خالد أورثني البث خالداً :: أبا نصر مذ ودعت ودعني نصري
وقبلكما قد أودع القلب حسرةً :: تجدد طول الدهر ثكل أبي عمرو (3)

(1) مذكرات الأمير عبد الله بن زيري، ص 17، المعجب، ص 141، روض القرطاس، ص 101، وفيات الأعيان، 30 / 5.

(2) المعجب، ص 143، مذكرات الأمير عبد الله بن زيري، ص 171، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 278، 279.

(3) المعجب، ص 43. وعني ابنه سراج الدولة أبا عمرو عباد بن محمد قتيل ابن عكاشة بقرطبة. وأبو خالد هو ابنه يزيد الملقب بالراضي، وهو الذي قتله قرور اللمتوني غدرأ برندة. وأبو نصر هو ابنه الفتح الملقب بالأمأمون، وقتل أيضاً بقرطبة في آخر دولتهم. وإخوتهم أبو الحسين عبيد الله الملقب بالرشيد، حمل مع أبيه إلى العدو، وأبو بكر عبد الله الملقب بالمعتد، وأبو سليمان الربيع تاج الدولة، وأبو هاشم المعلّى زين الدولة، وكلهم لجاريته هذه الحظية عنده الغالبة عليه “ اعتماد “، وهي أم الربيع، وتعرف بالسيدة الكبرى، وتلقب بالرميكية نسبة لمولاه رميك بن حجاج، ومنه ابتاعها المعتمد في أيام

قال أيضاً فيهما يندبهما بما يوقد الضلوع، ويسكب الدموع:

يا عين عيني أقوى منك تهتانا :: أبكي لحزن وما حملت أحزانا
ونار برقك تخبو إثر وقدتها :: ونار قلبي تلفي الدهر بركانا
نار وماء صميم القلب أصلهما :: متى حوى القلب نيراناً وطوفانا
ضدان ألف صرف الدهر بينهما :: لقد تلون في الدهر ألوانا
بكيث فتحاً فإذ ناديت سلوته :: لقد تلون في الدهر ألوانا
يا فلذتي كبدي يأبى تقطعها :: عن وجدها بكما ما عشت سلوانا
لقد هوى بكما نجمان ما رميا :: إلا من العلو بالألحاظ كيوانا
مخفف عن فؤادي أن ثكلكما :: مثقل لي يوم الحشر ميزانا
يا فتح قد فتحت تلك الشهادة لي :: باب الطماعة في لقياك جذلانا
ويا يزيد لقد زاد الرجا بكما :: أن يشفع الله بالإحسان إحسانا
كما شفعت أخاك الفتح تتبعه :: لقاكما الله غفراناً ورضوانا
مني السلام ومن أم مفجعة :: عليكما أبداً مشى ووحدانا
أبكي وتبكي وبكبي غيرنا أسفاً :: لدى التذكر نسواناً وولدانا⁽¹⁾

وكانت خاتمة المُعتمد بن عباد مأساة حزينة، وكان قتل أبنائه لم يكف، فكبّله المرابطون بالحديد وحشروه مع أهل بيته علي ظهر سفينة، وخرج الناس علي ضفتي النهر لوداع ملكهم الأسير وهم يبكون، ونقلتهم السفينة إلى المغرب، فأقاموا في مراكش، ثم أمر يوسف بنقلهم إلى أغمات حيث ألقي بهم في السجن، وسيم المعتمد بأشد أنواع التعذيب النفسي والجسدي وهو يرقد في غياهب سجنه، وقد أمر يوسف بذلك بسبب ثورة أحد أبنائه في الأندلس.

وفي طريقه إلى منفاة تألم المُعتمد من قيده وضيقة وثقله فقال:

تبدلت من ظل عزّ البنود :: بذل الحديد وثقل القيود
وكان حديدي سناناً ذليلاً :: وعضباً رقيقاً صقيل الحديد
وقد صار ذلك وذا أدهما :: يعض بساقي عض الأسود

لقد كانت معاملة الأمير يوسف للمعتمد وأسرته قاسية جداً لم يسلكها أحد قبله ولا بعده، فلم يجز عليهم من الطعام إلا ما يقيم أودهم، مما دفع بنات المعتمد الأميرات

إلى خدمة الناس، فكن يغزلن الصوف لكسب بعض دريهمات ينفقنها علي الأهل. وحز ذلك في نفس المعتمد وتآلم من حالته الحاضرة فكان عزاءه والوحيد الشعر، وبقي المعتمد سجيناً في أغمات إلى أن وافته المذية فيها في 11 شوال 488 هـ / 1095 م (1).

ولعل معاملة يوسف القاسية للمعتمد تعود إلى تحالف هذا الأخير واستدعائه له بعد أن مناه بالبلاد، وقد أدت حملة ألفونسو ضد المرابطين في حصن المدور إلى استشهاد جماعة منهم، إضافة إلى ما فقده المرابطون من عناصر بشرية في فتح إشبيلية كان يمكن استخدامها في الحرب مع الأسبان، بدل استنزافها داخلياً مما أوغر صدر الأمير يوسف ضد المعتمد، وعامله هذه المعاملة القاسية، التي أضحت نقطة سوداء في تاريخ الأمير يوسف الأبيض (2).

من شعر المعتمد بن عباد:

دخل عليه ولده أبو هاشم والقيود قد عصت بساقيه فخاطب قيده فقال:

قيدي، أما تعلمني مُسَلِّماً :: أبيت أن تشفق أو ترحم
دمى شراب، واللحم قد :: أكلته ولا تهشم الأعظم
يُصِرُّني فيك أبو هاشم :: فيثني، والقلب قد هُشما
أرحم أخياتٍ له مثله :: جرَّعتهن السُّم والعَلَمما
وقال ذات مرة بعد أن أحيط به في إحدى معاركه:

لما تماسكت الدموع :: وتنهَّه القلبُ الصديع
قالوا الخضوعُ سياسة :: فليدُ منك لهم خُضوع
وألذ من طعم الخُضوع :: على فمي السَّمُّ النقيع
أَتَسَلَّبُ عني الدُّنا :: ملاكى وتُسَلِّم القلبُ الضَّلوع
قد رُمْتُ يوم نزالهم :: أن لا تحصَّ ثُنَى الدروع
وبرزت ليس سوى القميـ :: ص عن الحشى شيء دُفوع
أجلى تأخر، لم يكن :: بهوای ذلى والخُضوع

(1) المعجب، ص 145، روض القرطاس، ص 101، وفيات الأعيان، 7 / 123، 1 / 120، الكامل، 10 / 190، مذكرات الأمير عبد الله، ص 171، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 279 - 280.

(2) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 280.

ما سرتُ قطَّ إلى القتال :: وكان في أملَى الرجوع
شيم الأولى أنا منهم :: والأصل تتبعه الفُروع⁽¹⁾

لقد كانت مدنة المُعْتَمِد بن عَبَّاد عظيمة، وتعاطف معه كثير من المؤرخين والأدباء والشعراء، واتهموا يوسف بن تاشفين بالقسوة والغلظة وأنه صحرأوى بدوى نزعت الرحمة من قلبه، واستدلُّوا أنه ذو نزعة توسعية دنيوية، ولذلك أنزل العقوبة المؤلمة على من استطاع من ملوك الأندلس وتخلَّص منهم.

وبسقوط إشبيلية تزعزعت باقي المُدُن والحصون، وأصبحت غرناطة ومالقة وجيان وقرطبة وإشبيلية والمرية تحت حكم المرابطين في وقت لم يتجاوز ثمانية عشر شهراً.

ولما سقطت المرية بيد داود ابن عائشة، واصل سيره الموفق مع جنوده البواسل، وافتتح مرابطر وبلنسية وشنتمرية، ولم تغن أمراءهم معاونة الكمبيادور وفرسانه، فبلنسية كان بها يحيى بن ذى النون «القادر»، وعلى الرغم من أنه كان مذنباً تحت حماية ملك قشتالة، وقد خفت لإنجاده فرقة كبيرة منهم، وقوة من المرتزقة المسلمين من مرسية بقيادة ابن طاهر على الرغم من كل هذا سقطت بلنسية بيد المرابطين أصحاب الأيادي المتوضئة، والقلوب الطاهرة، والضربات الفتاكة لكل جبار عنيد.

واستمرَّ داود ابن عائشة في فتح حصون وقلاع مُدُن شرق إسبانية تحفُّه العناية الإلهية، وتنزل عليه الفتوحات الربَّانية، ويخط للمغاربة وللأمة الإسلامية تاريخاً مجيداً باقياً على مر العصور والأزمان، واضحة معالم العقيدة والإيمان في نحته وكتبه بماء الذهب الصافي.

أمَّا القائد سير بن أبى بكر فكان جهاده الميمون في غرب الأندلس؛ حيث زحف إلى بطليوس وأميرها يومئذٍ مُحَمَّد بن الأَفطس «المُتَوَكِّل» بعد أن فتح إشبيلية كما سلف، فاستولى على شلب ويابرة، ثم احتلَّ بطليوس في صفر 487هـ - آذار (مارس) 1094م.

وفى الوقت الذى سقطت فيه بطليوس، استطاع المرابطون أن يفتحوا جزر البليار، التى كان واليها يومئذٍ من بنى شهيد أتباع أمراء بلنسية ودانية، وأحسن المرابطون صنْعاً بفتح الجزر الشرقية «بليار» في الوقت الملائم،

(1) الصلابي، دولة المرابطين، ص 140.

فقد كانت منعزلة تعيش تحت هيمنة الأسطول النصراني، وقد تم الفتح على يد القائد البحري ابن تافرطست (1).

بذلك أصبحت إسبانيا المسلمة تحت قبضة دولة المرابطين الفتية سنة 487 هـ / 1094م، ونسنتنى من ذلك ولاية سَرْقُسْطَة التى كان واليها أحمد بن هود «المستعين بالله» الذى أبلى بلاءً حسناً في جهاد النصارى، وظهرت فيه شهامة ورجولة أقذعت الأمير يوسف على إبقائه في مُلكه، وتحالف ابن هود مع إخوانه في العقيدة ضد أعدائهم في الدين، وكان سداً منيعاً في الثغور الشمالية وقد كلف النصارى خسائر هائلة في الأموال والأرواح (2).

واستطاع النصارى أن يحتلوا مدينة «بلنسية» عام 487 هـ بقيادة القائد النصراني الكمبيادور الذى أمن قاضيتها «ابن جحاف» ثم أحرقه بالانار، وعمل المرابطون على إرجاع بلنسية والحصون التى وقعت في يد النصارى، وتمكّنوا من تحرير بلنسية عام 495 هـ.

والجدير بالذكر أن بابا الفاتيكان أفتى لأهل إسبانيا ومَن حولهم من الإفرنج إن قتالهم في الأندلس ضد المُسلمين جهاد مقدس، ولذلك لم يشارك الإسبان في حروب النصارى الصليبية في شرق العالم الإسلامى في هذه الفترة.

لقد كانت سياسة الإسبان في حروبهم للمُسلمين صليبية النزعة، همجية الخلق، خالية من الأخلاق، ممزوجة بالغدر بعيدة عن العلم والحضارة.

وكانت سياسة المرابطين في حروبهم وجهادهم مبنية على نشر الإسلام ومكارم الأخلاق في أطر حضارية نابعة من مشكاة الوحيين كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم (3).

* * *

(1) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 281 - 292.

(2) البيان المغرب، 4 / 45، الحل، ص 53، الصلابي، دولة المرابطين، ص 141.

(3) الصلابي، دولة المرابطين، ص 141.

الجواز الرابع للأمير يوسف في الأندلس

لما أصبحت إسبانيا المسلمة تحت حكم المرابطين بما في ذلك سَرَفُودَة التي حكمها بنو هود، عبر أبو يعقوب يوسف بن تاشفين العبور الرابع سنة 496 هـ/ 1103م بعد استرداد بلنسية بعام واحد، ليتغى تنظيم شئونها، وليطلع على حسن سير الإدارة، ودعا القادة والولاة وزعماء الأندلس، وشيوخ القبائل المغربية التي تدين بالطاعة له إلى الاجتماع في قرطبة، وعيّن ولده الأصغر عليّاً «أبا الحسن» وليّاً للعهد؛ فقد ظهرت مواهبه ونجابته ورجاحة عقله ولمس والده فيه الخصال اللازمة لحكم شعوب وأمم كثيرة.

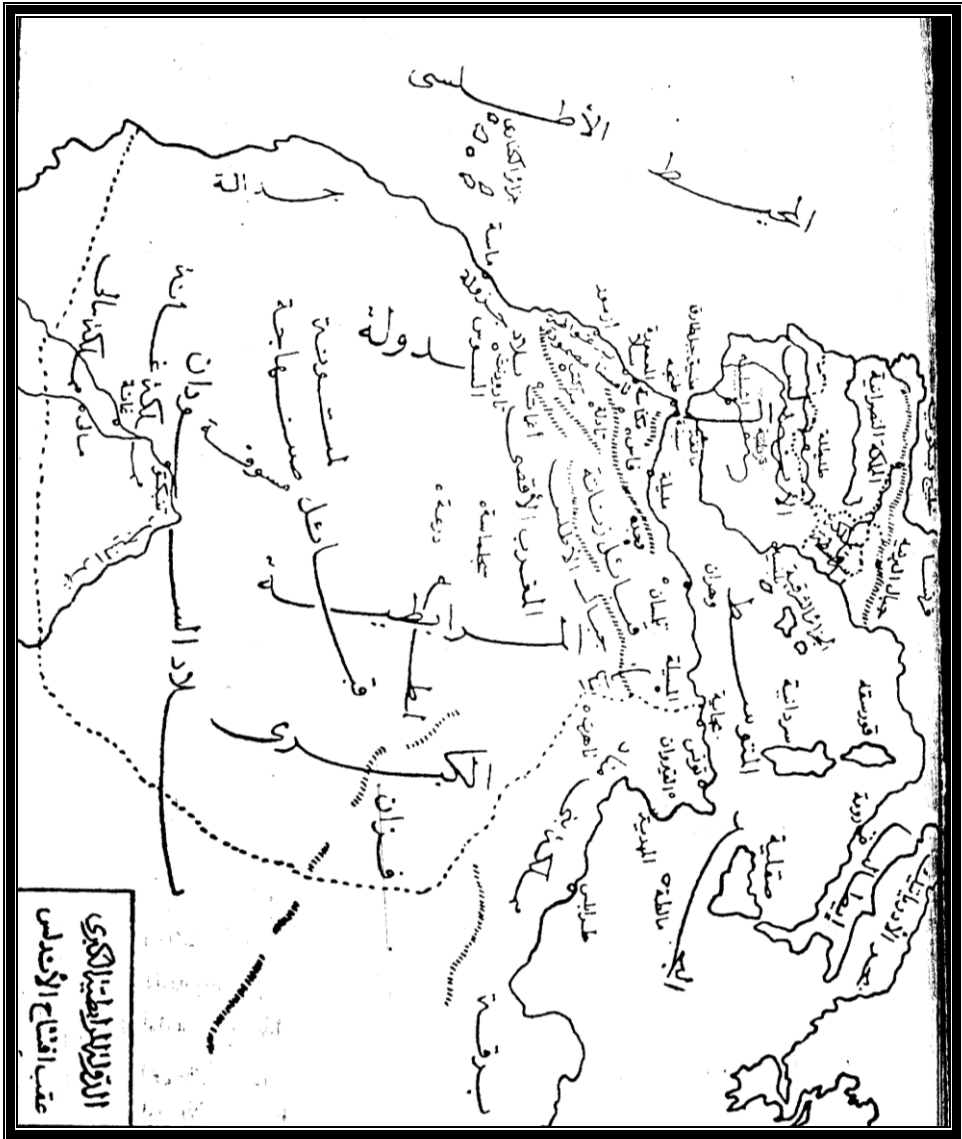
وعهد الأمير يوسف إلى كاتبه الفقيه أبي مُحَمَّد بن عبد الغفور أن يكتب نص ولاية العهد وكان مشهوراً ببلاغته، وهذا هو النص: «الحمد لله الذي رحم عباده بالاستخلاف، وجعل الإمامة سبب الائتلاف، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد بنبيه الكريم الذي أَلَفَ القلوب المتنافرة، وأذل لتواضعه عزة الملوك الجبابرة.

أما بعد: فإن أمير المُسْلِمِينَ وناصر الدِّين أبا يعقوب بن تاشفين لما استرعاه على كثير من عباده المؤمنين، خاف أن يسأله الله غداً عما استرعاه كيف تركه هماً لم يستتب فيه سواه، وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظمة، وجعلها من أكد الأشياء الكريمة، كيف في هذه الأمور العائدة في المصلحة الخاصة والجمهور، وإن أمير المُسْلِمِينَ بما لزمه من هذه الوظيفة وحضه الله بها من النظر في الأمور الدِّينية الشريفة، قد أَعَزَّ الله رماحه وأحد سلاحه، فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياداً إلى المعالي واهتزازاً، وأكرمها سجية وأنفسها اعتزازاً، فاستتابه فيما استرعى، ودعا لما كان إليه ودعا، بعد استشارة أهل الرأي على القرب والناي، فرضوه لما رضى، واصطفوه لما اصطفاه، ورأوه أهلاً أن يسترعى فيما استرعاه، فأحضره مشروطاً عليه الشروط الجامعة بينهما وبين المشروط قبل، وأجاب حين دُعي، بعد استخارة الله الذي بيده الخيرة والاستعانة بحول الله الذي من آمن به شكره، وبعد ذلك مواعظ ووصية بلغت الذصحة مراعى قصية، يقول في ختامه شروطها وتوثيق ربوطها، كتب شهادته على النائب والمستناب من رضى إمامتها على البعيد والقريب، وعلم علماً يقيناً بما وصاه في هذا الترتيب وذلك في عام 495 هـ / 1101م (1).

وأوصى يوسف بن تاشفين ابنه عليّاً بما يلي:

ألا يُعَيَّن في مناصب الحُكَّام والقضاة في الولايات والحصون والمُدن إلا المرابطين من قبيلة لمتونة.

وأن يحتفظ في الأندلس بجيش دائم حسن الأجر من المرابطين، قوامه سبعة عشر ألف فارس، يطعمون على حساب الدولة يوزعون كما يأتي: أربعة آلاف في ولاية سرقسطة، وسبعة آلاف في إشبيلية، وثلاثة آلاف في غرناطة، وألف في قرطبة، والباقي قدره ألفان يحتلون قلاع الحصون كحامية، ويدرسن أن يعهد إلى مسلمى الأندلس بحراسة الحدود النصرانية ومحاربة النصارى، فهم لهم معرفة أوسع وخبرة أكبر على مقاتلة النصارى من المغاربة، وأن يعمل على تشجيع الأندلسيين على روح الجهاد وأن يكافئ المتفوقين في الحرب منهم بالخيول والأسلح والثياب والمال.



ونصح أبو يعقوب ابنه أن يعامل أهل الأندلس وخصوصاً قرطبة بالرفق واللين، وأن يقوى علاقته الأخوية مع بنى هود الذين هم طليعة الأندلسيين في محاربة النصارى⁽¹⁾.

ولما انتهى يوسف بن تاشفين من تنظيم شئون الأندلس وقسمها إلى ست ولايات هي إشبيلية، غرناطة، قرطبة، بلنسية، مرسية، وسرقسطة، عاد ابن

(1) الحل، ص 57 - 58، المعجب، ص 163.

تاشفين إلى مراكش (1).

لقد مرت سياسة المرابطين في الأندلس بمراحل ثلاث:

مرحلة التدخل من أجل الجهاد وإنقاذ المُسلمين، وقد انتهت بانسحاب المرابطين بمجرد انتصار الزُلاّقة.

مرحلة الحذر من ملوك الطوائف، بعد أن ظل وضعهم وضع التنافر والتحاسد والتباعد، ولم يفكروا في الاندماج في دولة واحدة، بل فضل بعضهم التقرب إلى الأعداء للكيد ببعضهم.

مرحلة ضم الأندلس إلى المغرب، فوضعوا حداً لمهزلة ملوك الطوائف.

وهكذا صار الأمير يوسف وابنه من كبار الملوك وسارع القراء إلى مدحه وانقطع إليه من أهل كل علم فحوله، حتى أشبهت حضرته حضرة خلفاء بني العباس في صدر دولتهم (2).

وبعد أن أتم الأمير يوسف أخذ البيعة لخليفته الأمير علي، واطمأن علي حسن سير الإدارة قفل عائداً إلى المغرب واستقر بعاصمته مراكش.

وفي أواخر عام 498 هـ / 1104 م مرض أمير المسلمين وأصابه الضعف، واشتدت به العلة، وبعد مرض دام عاماً وشهرين فاضت روحه إلى بارئها نهار الإثنين الثالث من المحرم سنة 500 هـ / الرابع من سبتمبر 1106 م، بعد أن بلغ من العمر قرناً بكامله 400 - 500 هـ / 1009 - 1106 م، ودفن بحضرة قصره في مراكش (3).

الأندلس في عهد علي بن يوسف

تولي الحكم يوم وفاة أبيه نهار الإثنين أول محرم 500 هـ / 2 سبتمبر 1106 م، وبعد توليه بعده أشهر عبر المضيق إلى الجزيرة الخضراء منتصف 500 هـ / مطلع 1107 م فاستقبله زعماء الأندلس وفقهاؤها، وأكرم الجميع ووصلهم (4).

(1) الصلابي، دولة المرابطين، ص 145.

(2) الحلل، ص 60.

(3) الحلل، ص 60، روض القرطاس، ص 101، الكامل، 10 / 416، نفح الطيب، 6 / 111، وفيات الأعيان، 7 / 125.

(4) البيان المغرب، ص 76، الحلل ص 60.

وبدأ الأمير علي نشاطه في الأندلس بمهاجمة القوي النصرانية، وتعددت هجماته عليهم، ففي سنة 501 هـ أرسل أخيه تميم لمهاجمة ملك قشتالة ردا علي مهاجمته أراضي إشبيلية أثناء مرض الأمير يوسف، وأرسل سير بن أبي بكر إلى غرناطة في نفس العام، وهاجم الأمير تميم إقليش في رمضان 501 هـ / 1108 م، وتصدي محمد بن عائشة ومحمد ابن فاطمة لهجوم سانشو بن ألفونسو السادس في شوال 501 هـ / 1108 م وقتل من القشتاليين الكثير (1).

وفي محرم سنة 503 هـ / 1109 م هاجم الأمير علي بنفسه مدينة طليطلة وحاصرها لمدة سبعة أيام ولكنه لم يستطع فتحها فارتد عنها إلى قرطبة (2).

وهاجم جيش مرابطي بقيادة سير بن أبي بكر أراضي البرتغال واستولي علي يابرة واشبونة وشنترين سنة 504 هـ / 1111 م، وفي سنة 505 هـ / 1112 م سار مزدلي والي قرطبة إلى قشتالة وحاصر طليطلة (3).

وتوفي الأمير سير بن أبي بكر في جمادي الأولي 507 هـ / 1114 م ثم توفي الأمير مزدلي، وفقد المرابطون أشجع قائدين من قادتهم (4).

وفي سنة 503 هـ / 1110 م استولي القائد محمد بن الحاج علي سرقسطة من صاحبها عبد الملك بن هود لممالاته النصاري، وفي سنة 508 هـ / 1114 هاجم القائد محمد بن عائشة برشلونة ولكن دون جدوي (5).

وجاز الأمير إلى الأندلس للمرة الثالثة وافتتح مدينة قلمرية عاصمة البرتغال سنة 511 هـ / 1117، ولكنه لم يحتفظ بها لموقعها النائي و عاد إلى المغرب، ثم جاز للأندلس مرة أخرى سنة 515 هـ / 1121 م بسبب ثورة قرطبة علي المرابطين، وتمت المصالحة مع أهلها، ثم ضبط أمورها وأزال سبب الخلاف، ثم عاد مسرعا إلى المغرب عندما وصلت له أنباء المهدي بن تومرت (6).

وقد تمكن النصاري بقيادة ألفونسو السادس من الاستيلاء علي سرقسطة سنة 512 هـ / 1118 م، وطرسونة وبرجة وحصون الأجون ومالن وجمايون وأبيلا من

(1) البيان المغرب، ص 67، روض القرطاس، ص 104.

(2) روض القرطاس، ص 106.

(3) روض القرطاس، ص 163.

(4) روض القرطاس، ص 162.

(5) روض القرطاس، ص 162.

(6) الحلل، ص 63، الكامل، 10 / 197، روض القرطاس، ص 164.

قواعد الثغر الأعلى سنة 513 هـ / 1120 م (1).

وقد غضب الأمير علي من هذه الأنباء فأسرع بإرسال أخيه الأمير إبراهيم بن يوسف والي إشبيلية لمقاتلة ألفونسو السادس، فالتقي به في ظاهر بلدة كنتدة سنة 514 هـ / 1120 م فانهزم المسلمون وقتل منهم عدد غفير من الفقهاء والعلماء (2).

أدت خسائر المرابطين المتتالية أمام الأسبان إلى ضياع هيبة المرابطين العسكرية، وعلو صوت المعاهدين بالثورة والاتصال بألفونسو السادس وعرض المساعدة له في اجتياح الأراضي الإسلامية، وتزعّم هذا الإتجاه، المعاهدين في غرناطة، الذين عرضوا علي ألفونسو السادس وضع ثرواتهم ومحاصيلهم بتصرفه ويرغبونه بثراء غرناطة وازدهارها وأنها عاصمة المرابطين في الأندلس، فذبي ألفونسو ندائهم وخرج من سرقسطة علي جيش ضخم في أول شعبان 519 هـ / 1125 م، فاستولي علي بلنسية ودمر كل شئ فيها، وتوجه إلى غرناطة، ولكن المرابطين أسرعوا إلى تحصينها، فلم يجد ألفونسو بدا من التراجع عنها، فسار المرابطون في أثره وقاتلوه ولكن دارت الدائرة عليهم وانهزم المسلمون ورجعوا إلى قرطبة، ولكن لم يتحقق هدف ألفونسو من السيطرة علي غرناطة (3).

ولما كان للنصاري المعاهدين دور كبير في إزهاق أرواح المسلمين بسبب خيانتهم واتصالهم بالنصاري الأسبان، فقد أفتي العلماء المسلمين، وعلي رأسهم القاضي أبو الوليد بن رشد بوجوب تغريب هؤلاء النصاري المعاهدين عن الأندلس، وعمل الأمير بهذه الفتوي وصدر أمره بتهجيرهم إلى المغرب إلى مكناسة وسلا وغيرها جزاء لما اقترّفوه بحق المسلمين وكان ذلك في رمضان سنة 521 هـ / 1127 م (4).

ثم عاد ألفونسو لممارسة نشاطه الحربي ضد المرابطين، فأوقع بهم الهزيمة في موقعة القلاعة علي مقربة من جزيرة شقر جنوبي بلنسية سنة 523 هـ / 1129 م واستولي بعدها علي كثير من معاقل الثغر الأعلى فاستولي علي مكناسة الواقعة علي نهري سجري وإبري سنة 527 هـ / 1133 م، ثم توجه نحو مدينتي إفراغة ولاردة، ولكن المرابطون تعاونوا مع كونت برشلونة رامون الثالث ضده، وأوقعوا به الهزيمة

(1) نفح الطيب، 2 / 585، روض القرطاس، ص 163.

(2) الكامل، 8 / 302 - 303.

(3) الحل، ص 66، الكامل، 8 / 319.

(4) روض القرطاس، ص 163.

الساحقة أمام أسوار إفراغة في 23 رمضان سنة 528 هـ / 17 يوليو 1134 م، ولألفونسو بالفرار إلى سرقسطة حيث توفي بعد أيام من المعركة (1).

تولي الأمير تاشفين بن علي حكم الأندلس سنة 522 هـ / 1128 م حتي سنة 532 هـ / 1137 م وخلال تلك الفترة تمكن الأمير تاشفين من مواجهة القشتاليين في عدة مواقع، وتمكن من إيقاع الهزائم المتتالية بالقشتاليين في عدد من المعارك، وتكررت لقاءاته بهم في سنة 523 هـ / 1129 م، وفي سنة 524 هـ / 1130 م، وفي سنة

526 هـ / 1132 م، وفي سنة 528 هـ / 1134 م، وفي سنة 532 هـ / 1137 م (2).

* * *

الأندلس في عهد تاشفين بن علي

تولي الحكم بعد أبيه في شهر رجب سنة 533 هـ / 1139 م، وبعد وفاته في 27 رمضان سنة 539 هـ / 22 فبراير 1145 م انقسمت الأندلس إلى دويلات طوائف من جديد بعد الثورات التي قامت بها علي المرابطيين في عدة مواضع من الأندلس، في الغرب بزعامة أحمد بن الحسين بن قسي، الذي تصوف وأصبح شيخاً من شيوخ الصوفية وكثير أتباعه وتسموا بالمريدين، وثار محمد بن عمر بن المنذر في شلب، واندغم إلى ابن قسي، واندلعت الثورة في قرطبة بقيادة القاضي ابن حمدين، ونشبت ثورة مماثلة لثورة قرطبة في غرناطة تزعمها القاضي أبو الحسن علي بن عمر بن أضحى، وثار في ملقة أبو الحكم الحسين بن الحسين بن عبد الله بن الحسين بن حسون، وثار في وادي آش قرب غرناطة أحمد بن محمد بن ملحان الطائي، وثار محمد بن سعد بن مردنيش في شرق الأندلس، وثار في جيان القاضي يوسف بن عبد الرحمن بن جزي، وثار في رندة رجل علم أخيل بن إدريس الرندي، وثار ابن عزون بشريش واندغم إلى ابن حمدين ولكنه خلع طاعته 541 هـ وعبر إلى المغرب وقابل الخليفة عبد المؤمن، ولما عبر الموحدون إلى الأندلس كان أول المستقبلين لهم (3).

* * *

أسباب سقوط دولة المرابطين

1 - ظهور روح الدعة والانغماس في الملذات والشهوات عند حُكَّام المرابطين

(1) الروض المعطار، ص 525، الكامل، 8 / 351.

(2) البيان المغرب، 2 / 98 - 104، روض القرطاس، ص 106 - 107، الإحاطة، 1 / 46.

(3) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 312، 313.

وأمرائهم في أواخر عصر على بن يوسف، وكان للمجتمع الأندلسي تأثير لا ينكر في قادة وأمراء وحكام دولة المرابطين الذين استجابوا لذنرات شهواتهم وانغمسوا في الحياة الدنيا، فتحقق قول الله تعالى: { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا } [الإسراء: ١٦] (1).

يقول سيد قطب رحمه الله: «والمترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال، ويجدون الخدم، ويجدون الراحة، فينعمون بالذعة والراحة، وبالسيادة حتى تنزل نفوسهم وتأسن، وترتع في الفسق والمجانة وتستهن بالقيم والمقدسات والكرامات، وتلغ في الأرض والحرمان، وهم إذا لم يجدوا مَنْ يضرِبُ على أيديهم عاثوا في الأرض فسادًا، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها، ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها فتهلك وتطوى صفحتها..».

والآية تقرر سنة الله هذه في إهلاك مَنْ انغمس في الشهوات، وأسرف في الملذات، وتحلل من القيم والأخلاق ولازم الفسق والانحلال والفساد.

2 - ظهور السفور والاختلاط بين النساء والرجال، وبدأت دولة المرابطين في آخر عهد الأمير على بن يوسف تفقد طهرها وصفاءها الذي اتصف به جيلهم الأول، مما جعل الرعاية المسلمة تنذر من هذا الانحراف والفساد، وتستجيب لدعوة مُحَمَّد بن تومرت الذي أظهر نفسه للناس بالزاهد والناسك والامر بالمعروف والنهي عن المنكر.

3 - انحراف نظام الحكم عن نظام الشورى إلى الوراثي الذي سبب نزاعاً عنيفاً على منصب ولاية العهد بين أولاد على بن يوسف، كما تطلع مجموعة من الأمراء إلى منصب الأمير على ونازعوه في سلطانه مما سبب تمزقاً داخلياً، فقدت الدولة المرابطية وحدتها الأولى، وكثرت الجيوب الداخلية في كيان الدولة، وتفجرت ثورات عنيفة في قرطبة، وفي فاس وغيرهما ساهمت في إضعاف الوحدة السياسية وإسقاط هيبة الدولة المرابطية.

4 - الضيق الفكري الذي أصاب فقهاء المرابطين وحجرهم على أفكار الناس، ومحاولة إلزامهم بفروع مذهب الإمام مالك وحده، وعملوا على منع بقية المذاهب السنية تعصباً لمذهبهم، وكان لفقهاء المالكية نفوذ كبير مما

جعلهم يوسعون تعصبهم وتحجرهم الفكري.

ويرى بعض المؤرخين أن التعصب الأعمى عند فقهاء المرابطين في زمن الأمير على ابن يوسف كان السبب الأول في سقوط دولة المرابطين، لقد أسهم فقهاء المالكية في دولة المرابطين بقسط وافر في تدمير الرعايا، وإضعاف شأن الإمارة، لقد استغل بعض الفقهاء نفوذهم من أجل جمع المال وبناء الدور، وامتلاك الأرض، وعاشوا حياة البذخ والرفاهية المفرطة، وكان ذلك سبباً في إيجاد ردة فعل عنيفة عند أفراد المجتمع المرابطي، وانبرى الشعراء في تصوير حال الفقهاء في تلك الفترة، فقال أبو جعفر أحمد بن مُحَمَّد المعروف بابن البني:

أهل الرياء لبستم ناموسكم :: كالدُّب أدلج في الظلام العاتم
فملكتم الدنيا بمذهب مالك :: وقسمتم الأموال بابن القاسم
وركبتم شهب الدواب بأشهب :: وبأصغ صبغت لكم في العالم

5 - ومن أهم العوامل التي أسقطت دولة المرابطين: فقدتها لكثير من قياداتها وعلمائها العظام أمثال سير بن أبي بكر، ومُحَمَّد بن مزدلي، ومُحَمَّد ابن فاطمة، ومُحَمَّد بن الحاج، وأبى إسحاق بن دانية، وأبى بكر بن واسينو.. فمن لم يستشهد من كبار رجال الدولة أدركه الموت الطبيعي، ولم يستطع ذلك الجيل أن يغرس المبادئ والقيم التي حملها في الجيل الذي بعده، فاختلفت قدرات الجيل الذي بعدهم واستعداداتهم، وهذا درس مهم لأبناء الحركات الإسلامية في أهمية توريث التجارب والخبرات المتنوعة والمتعددة للأجيال المتلاحقة.

6 - ومن أهم العوامل التي أنهكت دولة المرابطين، أنها مرّت بأزمة اقتصادية حادة، نتيجة لانحباس المطر عدة سنوات، وحلول الجفاف والقحط بالأندلس والمغرب، وزاد من حدة الأزمة الاقتصادية أن أسراب الجراد هاجمت ما بقى من الأخضر على وجه البلاد مما هيأ الظروف لانتشار مختلف الأوبئة بين كثير من السكان، ووقعت هذه الأزمة في الفترة الواقعة ما بين أعوام 524هـ - 530م⁽¹⁾.

* * *

(1) الدكتور مراجع الغناي، سقوط دولة الموحيدين، ص 31.

الفصل الثامن:

الموحدين في الأندلس

(555 - 630 هـ / 1160 - 1233 م)

غرناطة:

استعادة المرية:

آثار حركة ابن مردنيش على دولة الموحدين:

سادساً: أسباب فشل أبي يعقوب يوسف في توحيد الأندلس:

ثالثاً: معركة الأرك:

خطة الموحدين:

رابعاً: نتائج معركة الأرك:

خامساً: أسباب انتصار الموحدين في معركة الأرك:

الخليفة محمد الناصر:

موقعة العقاب:

- حصار قلعة رباح:

- مقتل البطل يوسف بن قادس أبو الحجاج:

المعركة:

ثالثاً: أسباب الهزيمة في العقاب:

يوسف بن محمد المستنصر بالله:

* * *

بعد وفاة المهدي بن تومري في 29 رمضان 524 هـ / 1130 م بويع عبد المؤمن بن علي بالخلافة في رمضان من السنة ذاتها / أغسطس 1130 م، وكان قد تتلمذ علي يد المهدي بن تومرت (1).

وبعد قضائه علي دولة المرابطين ودخوله مراكش في 8 شوال 541 هـ / 1131 م، واستتب الأمر له، وجه عبدالمؤمن نظره الى الأندلس التي عمتها الثورة في آخر عهد المرابطين، وقد آلت السلطة في المغرب إلى الموحدين فلا بد لهم من إخضاع الأندلس، وكانت كثير من مدنها قد استغلت الصراع بين المرابطين والموحدين فأعلنت ثوراتها وانفصالها عن المرابطين وزادت عنفاً هذه الثورات بعد وفياة تاشفين بن علي فاستقل بقادس ودخل 539 هـ وكان علي بن عيسى بن ميمون من بين هؤلاء الثوار، فاستقل بقادس ودخل في طاعة الموحدين، وخطب أول خطبة لهم في قادس سنة 540 هـ كذلك قام أحمد بن قيس الصوفي الثائر في مرتلة، فلما نازعه السيطرة والزعامة أبو محمد سدرائي واستولى على مرتلة أجاز ابن قيس إلى عبدالمؤمن بمراكش عام 541 هـ ورغبه في احتلال الأندلس وضمها الموحدين فسير عبدالمؤمن معه جيشاً بقيادة براز بن محمد المسوفي، في شعبان 541 هـ، ثم أمده بجيش آخر بقيادة موسى بن سعيد وجيش آخر بقيادة عمر بن صالح الصنهاجي. فلما عبروا الزقاق ونزلوا بالأندلس، هاجموا أبا القمر بن عزوز بشريش ورندة، فدخل في طاعة الموحدين، ثم قصدوا لبلة وأخضعوا يوسف بن أحمد البطروجي، ثم مضوا إلى مرتلة، فدخلوها واقتنحوها بعد ذلك شلب، وقصدوا باجة وبطليوس، فدخل أبو محمد سدرائي ابن وزير في طاعتهم، كما انضوت أشبيلية في سنة 541 هـ / 1147 م تحت لوأهم بعد ان اقتحموها براً وبحراً، ثم دخلوا مالقة في هذه السنة. غير أن يوسف البطروجي لم يلبث ان نكث بطاعته للموحدين، وحول الدعوة عنهم، كما ارتد عن طاعتهم ابن قيس في شلب، وعلي بن عيسى بن ميمون في قادس، ومحمد بن علي بن الحجام في بطليوس، بينما بقي أبو القمر بن عزوز على طاعتهم في شريش ورندة (2).

اضطرت أحداث الأندلس عبدالمؤمن إلى إرسال جيش إليها يقوده يوسف بن سليمان، فنزل يوسف بأشبيلية التي اتخذها الموحدون حاضرة لهم في الأندلس،

(1) روض القرطاس، ص 183، أعمال الأعلام، ص 265.

(2) روض القرطاس، ص 189، ابن خلدون، 6 / 233 - 234، الكامل، 11 / 14، نفح الطيب،

206 / 2، 207، المعجب، ص 210.

وتمكن يوسف من بسط نفوذ الموحدين على بطليوس وشنتمرية وقادس وشلب ولبلة، ثم دخلت قرطبة وجيان في طاعة الموحدين سنة 543 هـ ولم تبدأ سنة 545 هـ حتى كان رؤساء الأندلس الذين كانوا قد أعلنوا ثوراتهم على المرابطين، واستقلوا بمدنهم، قد بايعوا عبدالمؤمن بن علي وأعلنوا الدخول في طاعته وبذلك فرض الموحدون طاعتهم على قادس وأشبيلية، وقرطبة، ومالقة، والجزيرة، ولبلة، وشلب، وشريش، ومرتلة، فحاولوا استرجاع المرية في عام 546 هـ وحاصروها، إلا أنهم فشلوا في اقتحامها وتخليصها من العدو بسبب حصانة أسوارها وإن كانوا قد نجحوا في اقتحام المرسى وحرق السفن والأجفان الراسية به، ووصلوا إلى المسجد الجامع (1).

* * *

غرناطة

سيطر الموحدون علي الأندلس وبقيت غرناطة في أيدي المرابطين، واستطاع واليها المرابطي ميمون بن بدر أن يصمد مدة سبع سنوات، وأخيراً شعر ميمون بأن لا طاقة له علي الاستمرار في مقاومة الموحدين، فبعث إلى الخليفة عبد المؤمن يعرض تسليم المدينة فأجابه الخليفة إلى طلبه، وتسلم الموحدون المدينة، ورحل ميمون إلى مراكش حيث استقبله الخليفة، وولي عليها ابنه أبا سعيد وكان دخولهم في 551 هـ / 1156 م (2).

* * *

استعادة المرية

كانت المرية قد سقطت بيد الأسبان سنة 542 هـ / 1147 م، وكان الموحدون يتوقون لاستعادة هذا الثغر الديوي، لاتصالهم بالبحرية، وكان يؤيد هذا المشروع الخليفة، فأرسل إلى ابنه أبو سعيد عثمان بن عبدالمؤمن، والي الجزيرة ومالقة وغرناطة أمراً بمحاصرة المرية براً وبحراً وتخليصها من النصاري، فتقدم أبو سعيد إلى المرية للجهاد بصحبة أخية أبي حفص، ونصب الموحدون المجانيق على القصبه بعد ان احتلوا المدينة وحاصروها حصاراً محكماً. واستتجد النصاري بـ " ألفونسو السابع " الملقب بالسليطين الذي حاول أن ينقذ النصاري من هذا الحصار فأقبل إلى نصرتهم على رأس جيش من 12 ألف مقاتل، وانضم إليه حليفه ابن مردنيش في قوة

(1) ابن خلدون، 6 / 235، روض القرطاس، ص 191، نفح الطيب، 6 / 112، الكامل، 9 / 28.

(2) روض القرطاس، ص 264.

من 6 آلاف مقاتل، فاضطر السيد أبو سعيد عثمان إلى استمداد الخليفة، فوجه إليه القائد الكاتب أبا جعفر بن عطية ومعه الأمير أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن، وإلى اشبيلية فازدادت قوة الموحدين بقدمه واضطر ابن مردنیش امام وخز الضمير ولوم النفس الشديد للرجوع من حيث أتى، إذ رأى "العار على نفسه في قتالهم مع كونهم يقاتلون النصاري فارتحل". وولى عسكر ألفونسو الأدبار تاركين حامية قسبة المرية لمصيرها التعس، ومات ألفونسو في طريقه إلى بياسة سنة 552هـ وخلا الجو للموحدين، فشددوا الحصار على القسبة، واستولوا عليها في سنة 552هـ وهكذا استرد الموحدون المرية، وقد تهدمت أبنيتها، وتغيرت محاسنها (1).

وكانت بلنسية من مدن الأندلس المهمة وقد أولاها المرابطون أهمية كبيرة لقربها من ثغر برشلونة والممالك النصرانية، فقد تولاها كبار القادة المرابطين بعد تحريرها من النصاري، وكان واليها عند إندلاع ثورة عبد الله بن محمد أخ يحيى بن غانية وقاضيه مروان بن عبد الله بن مروان بن عبد العزيز، وعندما اندلعت الثورة ضد المرابطين في قرطبة اتفق الوالي والقاضي علي ضبط الأمور، ولكن الوالي ابن غانية توجس خيفة من نوايا القاضي ففر إلى شاطبة وأجمع سكان بلنسية علي تولية القاضي ابن عبد العزيز بتأييد من عبد الله بن عياض قائد الثغر، وعبد الله بن مردنیش، وهرب الوالي السابق ابن غانية من شاطبة فضمها ابن عبد العزيز لإمارته، ولكنه عجز عن ضبط الأمور فعزله الجند واستدعوا ابن عياض فلجأ ابن عبد العزيز إلى المرية حيث اعتقل بها (2).

بعد فرار ابن عبد العزيز اختار الجند المتمردون لقيادتهم عبد الله بن سعد بن مردنیش صهر ابن عياض، ثم حضر ابن عياض فنظم أمور الولاية وعاد إلى مرسية تاركا صهره ابن مردنیش، وكانت الثورة قد اندلعت في مرسية بزعامة أبي محمد بن الحاج اللورقي ودعا لابن حمدين ثم تخلي ابن الحاج، فأرسل إليهم ابن حمدين عبد الله الثغري واليا في شوال سنة 539هـ فعين علي القضاء الفقيه أبا جعفر محمد بن عبد الله بن أبي جعفر الخشني، الذي نبذ طاعة ابن حمدين وسار إلى شاطبة لقتال ابن غانية المرابطي فثارت العامة وأطلقت سراح عبد الله الثغري وصهره، وكان ابن أبي جعفر قد اعتقلهم، ولكنه قتل في معركة بظاهر غرناطة علي أيدي المرابطين.

(1) روض القرطاس، ص 193، ابن خلدون، 6 / 237، الكامل، 9 / 30، 56.

(2) أعمال الأعلام، ص 256.

وبعد مقتل ابن أبي جعفر قدم أهل مرسية في ربيع الأول 540 هـ محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن القيسي، ولكن بعض أهل مرسية استدعوا ابن عياض من بلنسية، فدخل المدينة وعزل ابن طاهر في جمادي الآخر 540 / 1145 م ثم غادرها بعد أن ولي عليها صهره ابن مردنيش ودعا لابن هود. وكان ابن عياض جنديا شجاعا، وكان النصاري يعدونه بمائة فارس (1).

وخرج لمساعدة ابن مردنيش في قتال النصاري الذين أغاروا على أحواز شاطبه ومعه ابن هود، ودارت معركة في اللج قرب بلدة البسيط نهار الجمعة 20 شعبان 540 هـ / 1146 م فانهزم فيها المسلمون وسقط قتيلان عبد الله بن مردنيش وسيف الدولة بن هود ونجا ابن عياض فكانت ضربة مؤلمة للمسلمين في شرق الأندلس (2).

وفي سنة 555 هـ أمر عبد المؤمن ولده أبا سعيد عثمان ببناء جبل الفتح وتحصينه، فتم بناؤه على يدي الحاج يعيش المهندس، وعلى أثر ذلك جاز عبد المؤمن من طنجة إلى الأندلس، فنزل بجبل الفتح وأقام شهرين أشرف خلالهما على أحوال الأندلس، ووفد إليه قوادها وأشياخها لتحيته ثم أمر بغزو غرب الأندلس، فسير الشيخ أبا محمد عبدالله بن أبي حفص من قرطبة، ففتح حصن مراكش من أحواز بطليوس، واستولى الموحدون على بطليوس وباجة ويابرة وحصن القصر، ثم عاد عبد المؤمن بعد ذلك إلى مراكش.

وكان ابن هود حليفا للنصاري وصنيعة ملكهم القيصر ألفونسو السابع، وكانوا يشجعونه علي التمرد في الأندلس ويمدونه بالمساعدات.

بعد مصرع ابن هود دعا ابن عياض لنفسه بلنسية تاركا ابن مردنيش في مرسية، وامتدت إمارته من شمال بلنسية حتى قرطاجنة جنوبا، استمر في حكمها حتي وفاته في ربيع الأول 542 هـ / 1147 م وخلفه محمد بن سعد بن مردنيش في شرق الأندلس في جمادي الأول 542 هـ / 1147 م وابن مردنيش هو أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن سعد بن مردنيش، وكان والده سعد واليا علي إفراغة أيام المرابطين، واستطاع صد ألفونسو المحارب ملك أراجون 527 هـ / 1133 م وعمه عبد الله بن سعد صهر ابن عياض (3).

(1) المعجب، ص 115، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي، ص 322.

(2) الحلة السيرا، ص 226، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي، ص 323.

(3) أعمال الأعلام، ص 260، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي، ص 323.

وقد أضحي حاكم شرق الأندلس مجاورا للنصارى، وكان يؤثرهم علي المسلمين ويقلدهم في مأكله وملبسه وتصرفاته ويغدق عليهم الأموال التي يغرماها لرعاياه المسلمين، وقد لقبوه بالملك الذئب، فقد رأي أن يعقد المحالفات معهم للحفاظ علي ممتلكاته والوقوف في وجه الموحدين (1).

فعقد صلحا مع كونت برشلونة رامون برنجير الرابع مدته أربع سنون، ثم معاهدة مع ألفونسو السابع ملك قشتالة، وكان يؤدي إلى كل منهما ضريبة سنوية مقدارها 50 ألف مثقال ذهب، وامتدت علاقاته إلى خارج الأندلس، فعقد معاهدة صلح مع جمهورية بيزة 543هـ / 1149 م وأخري مع جمهورية جنوة، تعهد فيها أن يؤدي إلى حاكمها ضريبة مقدارها عشرة آلاف دينار مرابطي (مئة ألف مثقال) مدة أربع سنون، ومع تسهيلات لتجارها في مملكته، وكذلك هادي ملك بريطانيا هنري الثاني، وكان يساعد ابن مردنيش مغامر آخر هو مولد إبراهيم بن محمد بن مفرج بن همشك صاهره ابن مردنيش فأصبح من أخلص قادته (2).

وبدعوة من البابا أوجين الثالث قامت حملة صليبية من أراجونة وقطلونية وبيزة وجنوة وفرسان المعبد بقيادة رامون برنجير كونت برشلونة بمهاجمة قواعد الثغر الأعلى في لاردة وإفراغة ومكناسة وسقطت في أيديهم في 544هـ / 1149 م، ووبالرغم من أن هذه المدن كانت تابعة اسميا لابن مردنيش ولكنه لم يدافع عنها حتى لا تسوء علاقته مع كزنت برشلونة الذي عقد معاهدة معه وكل الذي فعله أنه اتفق مع جنوة بالمحافظة علي رعاياه وعد الإضرار بهم (3).

ثم أخذ ابن مردنيش يهاجم المدن الأندلسية المجاورة له بمساعدة حلفائه النصارى، فهاجم جيان واستولي عليها بدون قتال، وهاجم إشبيلية سنة 554هـ / 1159 م ولكنه فشل في الاستيلاء عليها، وهاجم صهره ابن همشك قرطبة سنة 555هـ / 1160 ولكنه فشل أيضا في السيطرة عليها بعد أن أرسل أبو يعقوب والي إشبيلية نجدة لمساعدتها (4).

وقد حاول ابن همشك صهر ابن مردنيش السيطرة علي غرناطة فاتفق مع أهلها اليهود وابن دهري أن يساعده في دخول المدينة، بأن يفتحوا له أبوابها ليلا فيدخل

(1) نفح الطيب، 8 / 113، وفيات الأعيان، 2 / 492.

(2) أعمال الأعلام، ص 260.

(3) روض القرطاس، ص 176.

(4) أعمال الأعلام، ص 261.

غرناطة ويأخذ الموحدون علي حين غرة، وتمت المؤامرة ودخل غرناطة فتحصن الموحدون في قصبة المدينة، فحاصروهم فيها طويلاً ولكنه عجز عن السيطرة عليها، فطلب إمدادات من ابن مردنيش وحلفائه النصاري، في حين استتجد المرابطون بالخليفة الموحي الذي سارع بإرسال نحو 20 ألف مقاتل بقيادة ابنه أبو يعقوب يوسف ومعه زعيم أشياخ الموحدون يوسف بن سليمان، وسارع ابن مردنيش لنجدة صهره ومعه فرقة من النصاري، ولما التقى الفريقان في 27 رجب 557هـ / 12 يوليو 1162 م دارت الدائرة على ابن همشك وحلفائه النصاري، وقتل منهم أعداداً كبيرة، في مقدمتهم البار ردرجيس وابن كونت أورقلة ومعظم قادة الأندلس المتمردين ودخل الموحدون غرناطة⁽¹⁾.

وبعد أن أتم عبدالمؤمن افتتاح المغرب الأوسط وإسقاط إمارة بني حماد فيه، وافتتاح المغرب الأدنى وإجلاء النورمانديين منه إلى صقلية، وضمها إلى دولة الموحدين، وأصبحت دولة خلافته تمتد من حدود برقة شرقاً حتى البحر المحيط غرباً، ويشمل سلطانه معظم بلاد الأندلس الإسلامية، وبعد أن تم له تعيين ابنه ولياً لعهد، وعقد لأبنائه على أغلب ولايات الدولة وقضى على أغلب المتآمرين ورؤوس الفتنة، وخضد شوكة افراد بيت بن تومرت، وعمل على تقوية جاذبه باصطناع أعراب بني هلال وتقوية ظهره بعصبية قبيلته، شرع في الإعداد للمشروع العسكري الكبير الذي نوى القيام به، ألا وهو دخول الأندلس بجيش لم يسبق له مثيل للقضاء على الممالك والإمارات الأسبانية وكل من تمرد على دولة الموحدين ولذلك استعد عبدالمؤمن لهذه الحملة.

يقول ابن صاحب الصلاة: تم إعداد مائتي قطعة بحرية جديدة في دور الصناعة بمرسى المعمورة عند حلق البحر على ضفاف وادي سبو، وغيره من الدور في بلاد المغرب وسواحل الأندلس وهذه القطع تعتبر إضافة لقطع الأسطول الموحي الزاخر. وكانت الاستعدادات في نفس الوقت تجري لتدريب الرجال على أفانين القتال البحري والتهيئة له. كما أنه: "أعد من القمح والشعير للوفات والمواساة للعساكر على وادي سبو بالمعمورة المذكورة، ما عاينته مكداً كأمثال الجبال بما لم يتقدم الملك قبله.. ونظر في استجلاب الخيل له من جميع طاعاته بالعدو وأفريقية، وانتخاب الأسلحة من السيوف المحلاة والرماح الطوال على أجمل الهيئات والدروع والبيضات والترسة، إلى غير ذلك

(1) نفح الطيب، 6 / 112، الكامل، 9 / 79.

من الثياب والكسا والعمائم والبرانس، ما استغريته الأذهان ولا تقدم بمثله زمان. وقسم ذلك كله على الموحدين “ (1).

خرج عبد المؤمن بن علي من مراكش في جموع الموحدين ومختلف القبائل يوم الخميس خامس عشر من ربيع الأول من عام ثمانية وخمسين وخمسمائة هجرية (558 هـ) وانتهى به السير في رباط الفتح من مدينة سلا. ونزلت الجيوش في الفحوص الواقعة ما بين عين غبولة وأرض بندغل وكان تعداد الجيش حوال مائة ألف راجل ومائة ألف فارس. وتقرر في مجلس الحرب الذي عقده الخليفة، تقسيم الجيش أربعة أقسام، وتوجيهها إلى أربع جهات مختلفة من بلاد أسبانيا:

1 - الجيش الأول: يتجه إلى مدينة قلمرية عاصمة البرتغال.

2 - الجيش الثاني: إلى فرناند ودي ليون.

3 - الجيش الثالث: إلى ألفونسو الثامن ملك قشتالة.

4 - الجيش الرابع: يسير إلى برشلونة.

غير أن الذي غير هذا المخطط وجمّد هذا العمل الكبير، مرض عبدالمؤمن بن علي المفاجئ، وانتظار الموحدين شفائه، إلا أن المرض أصاب قوته وأظهر ضعفه حتى أسلمه إلى منيته مساء يوم الخميس العاشر من جماد الآخرة من سنة 558 هـ. قال ابن كثير في عام ثمان وخمسين وخمسمائة:

“ فيها مات صاحب المغرب عبدالمؤمن بن علي، وخلفه من بعده في الملك ابنه يوسف وحمل أباه إلى مراكش على صفة أنه مريض، فلما وصلها أظهر موته فعزاه الناس وباعوه على الملك من بعد أبيه، ولقبوه أمير المؤمنين، وقد كان عبدالمؤمن هذا حازماً شجاعاً، جواداً معظماً للشريعة، وكان من لايحافظ على الصلوات في زمانه يقتل، وكان إذا أذن المؤذن وقبل الأذان يزدحم الخلق في المساجد، وكان حسن الصلاة ذا طمأنينة فيها، كثير الخشوع، ولكن كان سقاًكاً للدماء، حتى على الذنب الصغير، فأمره إلى الله يحكم فيه بما يشاء... ” (2).

تولي الخلافة بعد وفاة عبد المؤمن ابنه يوسف في رجب 558 هـ، وكان محباً للجهاد، فقد جاء إلى الأندلس مرتين من أجل هذا الغرض.

(1) ابن صاحب الصلاة ص 213 - 215.

(2) البداية والنهاية 264/12، وانظر أيضا الكامل، 81 / 9.

وأبدي الخليفة الجديد اهتماماً كبيراً بالأندلس، فلما أغار ابن مردنيش وحلفائه النصاري علي قرطبة سنة 560 هـ أرسل إليه جيش كبير بقيادة أبي سعيد وأبي حفص فهزما ابن مردنيش في فحص مرسية، ولما هاجم البرتغاليون حصن بطلايوس تمكن الموحدون من رده علي عقبه (1).

كانت سياسة الموحدين بالأندلس في عهد يوسف بن عبدالمؤمن تدور علي ثلاثة محاور:

المحور الأول: استكمال السيادة الموحدية علي الأندلس، ولذلك استهدفوا كل الإمارات الخارجة عن سيادتهم من أجل ادخالها تحت نفوذهم.

المحور الثاني: العمل علي الحد من أطماع الممالك والأمارات الأسبانية.

المحور الثالث: المساهمة في ازدهار الحضارة الإسلامية في الأندلس.

إلا أن الثورات العنيفة التي تعرضت لها دولة الموحدين اثخنتها وكانت وكان محمد ابن سعد بن مردنيش تولى حكم بلنسية بعد وفاة صهره ابن عياض، يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة (542هـ) الموافق 21 أغسطس سنة (1147م). ثم قام علي بن عبيد والي مرسه بالتنازل لابن مردنيش عن حكمها في جمادى الاولى سنة (542هـ). وبذلك أصبح حكم ابن مردنيش يشمل شرق الأندلس، ومن بلنسية شمالاً حتى قرطاجة جنوباً.

وكما أسلفنا فقد استطاع ابن مردنيش أن يحافظ علي وحدة إمارته وتماسكها ودخل في أحلاف وعهود ومواثيق مع ممالك النصارى وإمارتها ضد الموحدين وكان غرض الأسبان النصارى في الوقوف مع ابن مردنيش وشد أزره، أنهم وجدوا فيه خصماً عنيداً للموحدين، كما أنهم رأوا فيه قوة أندلسية مسلمة تستطيع ان تحارب المسلمين بنفس القوة والأسلوب. كما أنه كان من الدوافع الرئيسية لمعاوضة أمراء وملوك النصارى لابن مردنيش، هو أن لا يتيحوا الفرصة للموحدين بالسيطرة علي كل الأندلس الإسلامية، وثانياً إبقاء المسلمين في حالة فرقة وتفكك.

إلا أن توسع الموحدين في بلاد الأندلس وشدة شوكتهم جعلت الكثير من الممالك والإمارات الأسبانية النصرانية توقع معاهدات هدنة وحسن جوار معهم او تحالفهم وبهذا فقد بن مردنيش الكثير من حلفائه الإسبان السابقين الذين كان وجوده يعتمد

عليهم في المقام الأول. ولما أن أخذ سلطان الموحدين يتسع في البلاد الأندلسية، وأن أغلب أماراته وولاياته دخلت في حوزتهم، وأن معظم أمراء الأندلس سلموا ما بأيديهم للموحدين سواء عن طوعية أو كره منهم، رأى ابن مردنيش أن الحلقة أخذت تضيق عليه وأن مال إماراته التي جهد من إقامتها، هو الوقوع في أيدي الموحدين، خاصة وبعد أن فقد الكثير من حلفائه ولذلك أخذ الحقد يملأ نفسه وأخذت نفسيته تشد في تصرفاتها، بل وبدا الشك يختمر عنده تجاه عماله وكبار رجالات دولته الذين يعتمد عليهم، ونتيجة لهذه الأحقاد والشكوك والتبليل الفكري، أخذ يتصرف تصرفات طائشة تكاد لا تصدر إلا عن رجل مجنون. ومذها أنه قتل وزيره ابني الجذع بالجوع، إذ بنى لهما بناء ورماهما فيه ومنع عنهما الأكل حتى ماتا.

كما أنه قتل أخته وطفلهما إغراقاً في البحر، وارتكب الكثير جداً من أمثال هذه الأعمال، ولذلك امتلأت منه النفوس رعباً وخاصة أقرب الناس إليه، وتوالى النكبات على ابن مردنيش، ولم يخلصه من مأساته إلا موته المفاجئ عام 567 هـ وهو لم يتجاوز من العمر الثامنة والأربعين. وبعد موته خلفه ابن هلال الذي قدم طاعته للموحدين وسلم لهم الحصون والقلاع التي كانت خاضعة لأبيه، بلنسية ومربيطر وشاطبة ولورقة وقرطاجنة، وبذلك آل حكم شرق الأندلس كله إلى الموحدين وبذلك شملت سيادتهم كل الأندلس الإسلامية (1).

وأقام الخليفة أربع سنوات في الأندلس قاد أثناءها الحملات ضد الأسبان، ففي سنة 567 هـ هاجم البرتغال، وحاصر شنترين واستولي علي القنطرة، وفي سنتي 568 هـ و569 هـ أغار علي نواحي قلعة رباح، وفي سنة 571 هـ عاد إلى المغرب (2).

* * *

آثار حركة ابن مردنيش على دولة الموحدين

فقد تأثرت دولة الموحدين بحركة التمرد الواسعة في شرق الأندلس وهزت هيبتهم وسلطانهم وقوتهم في نفوس النصارى الأسبان أولاً ثم أمراء الأندلس ثانياً ثم المغاربة ثالثاً وبالرغم من أن الموحدين استطاعوا آخر الأمر أن يقضوا على إمارة ابن مردنيش، وضم أملاكه ضمن حدود خلافتهم، لقد استطاع ابن مردنيش أن يقف فترة طويلة أمام الموحدين وأن يستولي على الكثير من القواعد المهمة التي كانت في

(1) ابن خلدون 6 / 399، 400.

(2) روض القرطاس ص 266.

أيديهم وأن ينزل بهم الخسائر الفادحة، لقد انشغل الموحدون بحربهم مع ابن مردنيش وركزوا جل قواهم أمام ابن مردنيش مما أتاح الفرصة للطامعين والمتذمرين من أهل المغرب لأن ينتهزوا تلك الفرصة ويشقوا عصا الطاعة، وبذا كانت مقاتلة ابن مردنيش الطويلة للموحدين، واستنزافه للكثير من جهدهم ورجالهم ووقتهم، كانت إحدى البذور التي أضعفت دولة الموحدين منذ قيامها (1).

لما استتب الأمر ليوسف بن عبدالمؤمن في بلاد المغرب، انصرف إلى الجهاد في الأندلس وكان أول عبوره لمضيق جبل طارق إلى أسبانية في صفر سنة 655هـ/1171 م، واستطاع أن يوجه ضرباته الشديدة إلى ابن سعد بن مردنيش الذي توفي عام 567هـ فتنازل أبناؤه عن أملاكهم كلها للموحدين، فتفرغ بذلك أبو يعقوب يوسف إلى حرب النصارى، ومكث في الأندلس أربعة أعوام، نظم خلالها عدة غزوات ضد النصارى، حقق فيها نجاحات رائعة، ثم عاد إلى مراكش عام 571هـ/1176 م بعد أن بنى جامع أشبيلية، وأدخل الماء إليها وأقام جسرا على واديها. واستمرت الحرب بين المسلمين والنصارى في الأندلس على شدتها، برية وبحرية ولما رأى أبو يعقوب يوسف ضالة النتائج التي أحرزتها قواته في جهاده ضد النصارى، عبر إلى الأندلس في صفر 580 هـ / 1184 م وصمم على قتال مملكة البرتغال التي كانت أشد الأعداء على المسلمين ووضع خطة تقضي أولا بمهاجمة مملكة البرتغال من البر والبحر، ثم الزحف على ضفاف نهر التاجة إلى قلب مملكتي قشتالة وليون، بينما تنشغل قوات إسلامية أخرى تزحف من الجنوب قوات النصارى القشتالية والليونية، وساعده في تحقيق خطته حشوده الضخمة، وقوى مسلمي الأندلس. سار أبو يعقوب يوسف على رأس الجيش الرئيسي متجها إلى بطليوس، معتزما حصار أشبونة، وكان عليه قبل أن يتمكن من محاصرتها بذجاح، أن يستولي على قلعة شنترين الواقعة على مقربة منها



على ضفة نهر التاجة اليسرى، وعلى ذلك فما كاد يعبر نهر التاجة بجيشه، حتى ضرب الحصار حول قلعة شنترين مؤملاً أن تسقط في يده قبل مقدم الأسطول الذي خصص لمحاصرة أشبونة من جهة البحر.

وبعد أحد عشر يوماً من حصار شنترين بدأ يضربها بآلات الحصار ولم تمض ثلاثة أيام على مهاجمة المدينة، حتى استولى أبو يعقوب عليها، خلا قلعتها، وذلك في 22 ربيع الأول سنة 580 هـ، وكان أبو يعقوب يتولى القيادة بنفسه معتبر القادة الذين معه آلات صماء لتنفيذ مشيئته، وكان ذلك يسبب المرارة الشديدة في نفوس أولئك

القادة المجريين، فاعترضوا على تحويل المعسكر من شرقي شنترين إلى شماليتها وغربيتها، حيث يتعرض الجيش بذلك إلى خطر التطويق من جانب الأعداء ولكن إرادة أبي يعقوب يوسف هي التي نفذت دون سواها، فكان الخطر ولما دخل الليل أمر أبو يعقوب ولده إسحاق والي أشبيلة أن يذكر في صباح اليوم التالي بالسير في قوات الأندلس والقيام بالهجوم في اتجاه أشبونة، وذلك لكي يحمي الهجوم علقلة شنترين من التعرض للمفاجأة، فهل وقع سوء فهم، أم كانت ثمة فتنة؟

إن أبا إسحاق سار في الليل بدلا من أن يسير في الصباح، وبدلا من أن يسير في اتجاه أشبونة عاد فعبر نهر التاجة وسار بقوات الأندلس في اتجاه أشبيلية وما كاد هذا الذبا يذاع بين بقية الجيش، حتى انتشر الاضطراب والروع في أنحاء المعسكر الإسلامي، وتفاقم الأمر، حيث زحف سانو ابن ملك البرتغال على شنترين ليلا في جيش يبلغ خمسة عشرة ألف مقاتل، وفي تلك الأثناء كان أبو يعقوب قد شرع في تنفيذ خطته لمهاجمة مدينة الكوبازة، بيد أنه حينما تحول بمعسكره إلى المواقع الجديدة، ألقى بنفسه أمام الجيش البرتغالي وجها لوجه.

وكان تغيير مواقع المعسكر الذي أمر به أبو يعقوب، خلافا لنصح قواده، ووجود الجيش البرتغالي في مركز يهدد المسلمين ومسير القوات الأندلسية إلى ما وراء نهر التاجة، وهو ما بدا كأنه أمر غير طبيعي، وأخيرا ذبوع ذبا ما لبث أن تأيد بمقدم جيش آخر من النصارى أعظم من سابقه، كل هذه الأمور بثت في معسكر الموحدين نوعا من الرعب العام، ترتب عليه أن غدت أوامر أبي يعقوب لا قيمة لها. وفي صباح اليوم التالي وصل جيش من النصارى يبلغ عشرين ألف مقاتل، وانضم إلى جيش البرتغال الذي يقوده ولي العهد سانشو، وبادر النصارى بمهاجمة الموحدين وهم في اضطرابهم واختلال نظامهم، وساعدت حامية القلعة شنترين جيش النصارى بالخروج من القلعة، ومهاجمة المسلمين ولما كان قسم كبير من الموحدين قد عبر نهر التاجة، فإنه لم يبق لدى أبي يعقوب سوى حرسه الخاص، وقليل من القوات الأخرى، وقوافل العتاد والمتاع التي لم تستطع لحاقا بباقي الصفوف. ورأى زعيم الموحدين وهو يضطرم سخطا، أنه وقع ضحية خيانة، أو ضحية سوء تفاهم، لقد وجد نفسه أمام الأعداء وخاض معركة كانت كفة النصارى فيها أرجح فقد قتل حرس أبي يعقوب وحمل أبو يعقوب على النصارى بسيفه وقتل ستة من الرجال، وأخيرا طعنه أحد النصارى بسيفه طعنة نافذة فسقط على الأرض ملطخا بدمائه.

ولما بلغ خبر اشتباك الخليفة مع النصارى رجع الأمير أبو إسحاق بقواته وهاجم

بها النصارى وسالت دماء الفريقين غزيرة، فتح المسلمون في نهايتها قلعة شنترين. استشهد أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن في 12 ربيع الأول 580 هـ/24 أيار (يوليو) سنة 1184م وكانت مدة حكمه اثنين وعشرين عاما. لقد حمل الجنود خليفتهم إلى أشبيلية، وأرسل منها في تابوت إلى تينمل حيث دفن بجوار أبيه عبدالمؤمن (1). وخلفه ابنه يعقوب.

* * *

سادساً: أسباب فشل أبي يعقوب يوسف في توحيد الأندلس

لم يستطع السلطان يوسف عبدالمؤمن أن يحقق نصراً حازماً على النصارى في الأندلس لعدة أسباب منها:

1 - لم تكن قيادة يوسف بن عبدالمؤمن قد وصلت الى درجة النضج العسكري والسياسي ولذلك نجده يحشد الجيوش الكبيرة التي تحتوي على عناصر مختلفة من قبائل بني هلال وسليم وقبائل الموحدين ومقاتلة الأندلس والجند الموحيدي وليست لهذا الجيش خطة مرسومة يسير عليها، كما حدث عند غزوه لمدينة وبدة عام 567 هـ حيث كان قرار الغزو جاء متأخراً عن وقت وصوله إلى الأندلس بقرار فردي من الخليفة الموحيدي والذي كان هو صاحب الرأي النهائي والقاطع في إدارة قيادة الجيش وكان من سماته أخذه للقرارات بسرعة مذهلة وبدون ترو أحياناً فهو قرر ان تكون وجهة حملته الكبيرة مدينة ونده، بمجرد اقتراح وفد شرق الأندلس ذلك عليه، ثم أنه أثناء مسيره إلى ونده، غير وجهة مسيرة الجيش لافتتاح حصني بلج والكرسي وذلك لمجرد اقتراح ابن همشك عليه بذلك.

2 - ومما يعيب كفاءة خليفة الموحدين، عدم تقديره للظروف وعدم قدرته على الوصول إلى هدفه من أيسر الطرق وعلى سبيل المثال ما حدث من رفضه لعرض أهل مدينة ونده تسليم مدينتهم مقابل حصولهم على الأمان وكان من المشرف له أنه قبل هذا العرض وحصل على المدينة بدون أي جهد كان.

3 - كانت للخليفة الموحيدي ميولات فكرية طغت على الاهتمامات العسكرية والسياسية ولذلك نجد الخليفة الموحد بدلاً من أن يكون مشرفاً على تسيير دفة

(1) المعجب، ص 258، أعمال الأعلام، ص 269، نفح الطيب، 6 / 113، روض القرطاس، ص 269، شوقي خليل، الأرك، ص، 42، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي، ص 329، الصلابي، دولة الموحدين ص 145.

المعارك وهو القائد الوحيد والمسؤول الأول، مشغولا بمناقشة مسائل فكرية لا تمت إلى المواقف العسكرية بصلة، فعندما كانت جيوش الموحيين تحاصر مدينة وندة جاءه أحد قادة الموحيين وطلب من الخليفة إمداده ببعض الجند حتى يتمكن من إحراز النصر، لم يلتفت إليه واستمر في مناقشة تلك المسائل.

4 - لم يكن ولاء المسلمين قوي لدولة الموحيين ولذلك كلما تحين فرصة للطعن فيها والثورة عليها يستغلها خصومهم الذين تعرضوا للظلم والقهر من زعماء الموحيين.

5 - انتشار الخيانة في أداء الواجب والتعدي على أموال الدولة من قبل الولاة في عهد يوسف بن عبد المؤمن ولذلك اضطر الخليفة لمحاسبة الولاة ومعاقبة الجناة في الأموال التي اغتصبوها ونفهم من البلاد ووصل الأمر بالبعض إلى أن أنزل بهم عقوبة الإعدام، لقد شمل ظلم الولاة الكثير من رعايا الدولة وتولدت قاعدة عريضة من المجتمع تعارض سياسة الولاة الظالمة القمعية وواصلوا جهادهم السلمي بمطالبة الدولة بمحاسبة بعض الولاة، واضطر الخليفة لمحاسبة بعض مسؤولي الدولة ومن أشهر هذه الحوادث:

- محاسبة محمد بن أبي سعيد مسؤول الأعمال المخزية في اشبيلية وثبتت عليه خيانتته للدولة فصودرت أمواله وممتلكاته وامتنح في نفسه طويلا ثم ضرب عنقه وكان ذلك عام 573هـ.

6 - انتشار الطاعون في المغرب والأندلس في زمن يوسف بن عبدالمؤمن في عام 571 هـ واستمر لمدة عام تقريبا، بالمغرب الأقصى وامتد إلى الأندلس وإلى المغرب الأوسط والأدنى. وقد قضى على الكثيرين من السكان وعلى بعض زعماء دولة الموحيين منهم أربعة من أبناء عبدالمؤمن بن علي. وقد أصيب الخليفة الموحي نفسه وأخوه السيد أبو حفص عمر، ولكنهما شفيا من المرض وعوفيا، وكاد هذا المرض أن يقضي على من كان بدور الخليفة وأهله، أما أهل مدينة مراكش فقد قضى على الكثيرين منهم وضاق المصلى بالموتى، فأمر الخليفة بأن يصلى عليهم في عامة مساجد مراكش، ونتيجة لهذا الوباء الفاتك، فقد خيم جو من الكآبة والحزن على مراكش الزاهر، ولم يعد يخرج منها أحد أو يأتي وافد إليها.

ومن كبار الشخصيات التي قضى عليها هذا الوباء الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي. وهو أحد طبقة الجماعة، ومن كبار الشخصيات التي ساهمت في إقامة دولة الموحيين وقد كان قادما من قرطبة إلى مراكش فأصيب في الطريق ومات عام

571هـ وكان لهذا الوباء الذي فتك بالكثيرين من أهل المغرب والأندلس، أثره في إضعاف المعنويات، وفي قلة الأيدي العاملة، وتعطل التجارة، وتوقف الحياة الزراعية والصناعية وقد ترتب على ذلك أزمة اقتصادية حادة كانت ذات أثر مادي ومعنوي سيء على الرعية وشجعت هذه الظروف العصبية التي تمر بها دولة الموحدين ممالك وإمارات النصارى من النيل من الموحدين ولذلك نقضت تلك الممالك والإمارات المعاهدات التي بينها وبين الموحدين وأخذت تعيث في بلاد الأندلس بالفساد “ وكان الناس من ضعف المرض لا يستطيعون الحركة “ ونتيجة لهذه الظروف القاسية لم يستطع الموحدون أن يقوموا برد حاسم على التو والحين.

7 - تمرد قبيلة هرغة على الخليفة الموحي: هذه القبيلة ينحدر - منها محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحدين، ففي سنة 578 هـ وصلت الأخبار إلى الخليفة الموحي في مراكش بأن قبيلة هرغة قد استولت على معدن الفضة الذي يستخرج بقربهم من جبل السوس فاهتم الخليفة لهذا الحادث لأمرين: الأمر الأول هو وجوب القضاء على تمرد هذه القبيلة التي تشعر بسموها لانتهاؤها إلى ابن تومرت وخوفا من التفاف قبائل الموحدين حولها. والأمر الثاني: فإن معدن الفضة يمثل مورداً مالياً مهماً لخزنة الموحدين، ولذلك فإن فقدته يصيب هذه الخزنة بضرعة عنيفة.

ولذلك بادر الخليفة بالخروج من مراكش في صفر سنة 578 هـ على رأس قواته. ولما وصل إلى جبل السوس أرغم قبيلة هرغة على تجديد الولاء والتوبة مما ارتكبته واسترجع منها ما كانت اغتصبته من المعدن. ثم بعد ذلك أمر ببناء حصن منيع حول المنجم، ووضع عليه جنداً لحراسته لقد كان لهذه الثورة أثراً في إضعاف شوكة الموحدين واضطراب هيبتهم وتشجيع خصومهم على محاربتهم.

8 - ضعف التكتيك العسكري عند الخليفة الموحي وحرصه على أن يتولى جميع الأمور بنفسه وعدم إصغائه لنصح الناصحين ويظهر ضعف تكتيكه العسكري في حصر جيوشه الضخمة في مهاجمة نقطة صغيرة، كما فعل ذلك في مهاجمته لمدينة وبذة وشنترين على التوالي، مما أتاح لملوك وأمراء الأسبان التحالف فيما بينهم ومواجهة الموحدين وهم في مركز قوة.

ولو اعتمد أسلوب الكر والفر بالجيوش الصغيرة ذات القوة والحركة السريعة لجعل الأسبان يضطرون إلى مدافعة كل فريق عن مملكته وإمارته وإلى مواجهة الموحدين متفرقين مع حالة الضعف تؤدي إلى انهزام النصارى.

9 - استطاع النصارى أن يوحّدوا صفوفهم وجهودهم ضد الموحدين ويتخذوا

موقفاً عدائياً واحداً منهم هذه أهم الأسباب التي مذعت خليفة الموحيين من ضم الأندلس للمغرب و من ثم الانطلاق لتوحيد العالم الاسلامي تحت لوائهم ودفوذهم وسلطتهم لقد كان يوسف بن عبدالمؤمن يتطلع إلى توحيد العالم الإسلامي كله وقد عبر عن تلك الرغبة بوضوح شاعر الموحيين أبو العباس ابن عبدالسلام الجراوي في بعض أشعاره في قوله يمدح خليفة الموحيين يوسف بن عبد المؤمن:

ستملك أرض مصر والعراقا :::: ويجري نحوك الأمم استباقا

إلا أن قدرته ومواهبه كانت محدودة ولم يتح الفرصة لظهور قادة عظام من الذين يستطيعون أن ينظموا ويقودوا الجيوش الضخمة بعكس يوسف بن تاشفين الذي أبدع في صقل قادته ودفعمهم نحو المعالي، فعرفوا كيف ينزلون الهزائم بالأسبان.

وعلى أي حال فأبو يعقوب يوسف كان دائماً رجلاً مريضاً وفي تتبعنا لتاريخه نجده يصاب بالمرض المرة بعد المرة، حتى لقد ظل مرة سنة كاملة مريضاً طريح الفراش، ولهذا يذهب بعض المؤرخين إلى أنه مات أثر مرض أصابه أثناء الحصار.

توفي أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن في السابعة والأربعين من عمره وكان رجلاً شهماً بذل أقصى جهده في بناء الدولة وهو يعد من كبار الخلفاء والسلاطين في تاريخ المغرب الإسلامي (1).

بعد استشهاد السلطان الموحي أبي يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن في الأندلس 580 هـ بدأت الحرب بضعة أعوام لسببين مهمين:

1 - انشغال الموحيين بثورات قامت في أفريقية، ومرض أبي يوسف المنصور في مراكش، فقد كان يرغب في تولي أمر الجهاد بنفسه.

2 - الخلاف الذي وقع بين ملوك الأسبان في تلك الفترة، فحرص الملك ألفونسو على عدم إثارة المسلمين ضده فيغريهم بالسير إلى غزوه ولكن بعد وفاة المطران (جونزالو) وتعيين "مارتن دي بسيرجا" مطرانا لطليطلة، شرع الأخير في زرع الحقد والبغض وتاجيج صدور النصاري الأسبان ضد المسلمين وعمل على إعداد حملة كبيرة في الأندلس مع التنسيق مع القوة السياسية والعسكرية والنصرانية الحاكمة وبالفعل تم للنصاري ما خططوه وقاد ذلك المطران الحاقده حملة دمرت كل شيء في طريقها بالنار والسيف،

(1) سقوط دولة الموحيين، ص 127 - 145، العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص 115، حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 194، الصلابي، دولة الموحيين، ص 146.

وشرعت تلك الحملة الحاقدة في تدمير مدن وقرى المسلمين القريبة منهم، فانتسفت الغلات والكروم، وقطعت أشجار الزيتون، وخربت الضياع والقرى، وسيقت الماشية، وسُبي المسلمون العزل رجالاً ونساءً، وقتل قسمٌ كبير منهم، وزحفت قوى من فرسان النصارى إلى أقصى جنوب الأندلس، وهم يتابعون العبث والتخريب (1).

استاء الخليفة من تقاعس رؤساء الأندلس وتخاذلهم أمام الأسبان، فقام محمد بن يوسف والي قرطبة باستعادة شلب وقصر أبي دانس وباجة ويابرة، ثم عاد إلى قرطبة (2).

وبينما كان الخليفة في مراكز قدم عليه وفد قشتالة لمراجعته في تجديد معاهدة الصلح، وهو في نفس الوقت يضمّر السوء للمسلمين. رفض الخليفة عرضهم وقطع المفاوضات واستعد للحرب. أرسل إلى إشبيلية يطلب من واليها أن يبني حصناً علي الوادي الكبير ليكون مقراً للمجاهدين المغاربة في الأندلس، فكان حصن الفرج.

بلغ ألفونسو عزم الخليفة علي العبور للأندلس، وكان أمد الصلح قد انتهى، جهز جيشه وحدد لهم يوماً للإغارة علي الأندلس، فشنوا الغارات في يوم واحد علي أراضي المسلمين، واجتاحوا أراضي إشبيلية وعاثوا فيها فساداً وتخريباً، فلما وردت هذ الأخبار علي الخليفة وهو يتأهب لقتال بني غازية في إفريقية، فعدل عن قتالهم وقرر الجواز إلى الأندلس لمحاربة القشتاليين (3).

وظهر غرور ألفونسو الثامن ملك قشتالة واعتزازه بالنصرانية ولم يقتنع بالغنائم العظيمة التي رجع بها المطران مارتن إلى طليطلة، فكتب إلى سلطان الموحدين خطاباً يشابه كتاب ألفونسو السادس إلى يوسف بن تاشفين يدعوهُ إلى القتال. وهذا هو نص الخطاب كما ورد في وفيات الأعيان:

“باسمك اللهم فاطر السموات والأرض، وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح. أما بعد.. فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ولا ذي عقل لازب، أنك أمير الملة الحنيفية، كما أنني أمير الملة النصرانية، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية، وإخلادهم إلى

(1) روض القرطاس، ص 269، نفح الطيب، 6 / 114، يوسف أشياخ، تاريخ الأندلس، 2 / 81.

(2) المعجب، ص 280، روض القرطاس، ص 269، ابن خلدون، 6 / 511.

(3) ابن خلدون، 6 / 245، نفح الطيب، 6 / 114.

الراحة، وأنا أسومهم بحكم القهر وجلاء الديار، وأسبي الذراري، وأمثل بالرجال، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة، وانتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا، لا تستطيعون دفاعاً ولا تملكون امتناعاً، وقد حكي لي عنك أنك أخذت في الاحتفال، وأشرفت على ربوة القتال، وتماطل نفسك عاماً بعد عام، تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فلا أدري أكان الجيش أبطأ بك أم التكتيب بما وعد ربك؟ ثم قيل لي إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلاً لعله لا يسوغ لك التقحم معها، وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك وأعتذر لك وعنك، على أن توفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان، وترسل إلى جملة من عبيدك بالمراكب والشواتي والطرائد والمسطحات، وأجوز بحملتي إليك، وأقاتلك في أعز الأماكن لديك، فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت إليك، وهدية عظيمة مثلت بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك، واستحققت إمارة الملتين والحكم على البرين، والله تعالى يوفق للسعادة، ويسهل الإرادة، لا رب غيره ولا خير إلا خيره إن شاء الله تعالى“ (1).

فلما وصل كتابه إلى الأمير أبي يوسف المنصور مزّقه وكتب على ظهر قطعة منه: {أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيِّبَهُمْ بِحُودٍ لَا قَبْلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَهُمْ مِنْهَا أَذَلَّةً وَهُمْ صَغِيرُونَ} [النمل: ٣٧].
الجواب ما ترى لا ما تسمع (2).

لقد اشتد غضب أبي يعقوب المنصور على ألفونسو الثامن وغطرسته، وأخذته غيرة الإسلام، فبادر بالتأهب للجهاد في الأندلس، وأمر أن يذاع الخطاب في جنود الموحدين ليثير غيرتهم، وضج الناس وصاحوا بشعارات الجهاد، وأمر السلطان الموحي بإخراج أخراق القبة الحمراء وسيفه الكبير إيذاناً بالدعوة العامة إلى الجهاد، وأمر الجند الذين اجتمعوا من كل صوب بالسير إلى سبتة، وإلى غيرها من أمكنة العبور إلى الأندلس.

ودوّت صيحات الجهاد في جميع أنحاء المغرب، من مدينة سلا على المحيط الأطلسي، حتى برقة شرقاً على حدود مصر، ضد النصارى الذين غدوا خطراً على الإسلام. في الوقت نفسه الذي كانت أخبار انتصار صلاح الدين على الصليبيين في

(1) وفيات الأعيان 6/7.

(2) وفيات الأعيان 7/7.

حطين واستعادة مدينة القدس من أيدي الصليبيين قد وصلت إلى مسامع المغاربة وأدبت قلوبهم وظهرت نفوسهم وتعلقوا بالشهادة في سبيل الله بل نجد أن بعض المغاربة فضل الذهاب إلى الشام والانصواء تحت لواء الناصر صلاح الدين الأيوبي. لقد استجاب الرجال والشيوخ والشباب وسكان الصحاري والمدن والقرى والهضاب والشواطئ والجبال في أنحاء المغرب الكبير إلى نداء الجهاد وانضموا إلى ألوية الجهاد في أسبانية، وبدأ الخطر الداهم ينذر الغرب في الوقت الذي حاول النصارى فيه أن يرفعوا الصليب في المشرق.

وبعد أن سير أبو يوسف المنصور جميع قواته إلى الأندلس، عبر إلى الجزيرة الخضراء في 20 رجب سنة 591 هـ، ولم يسترح بها إلا قليلاً، ثم بادر بالسير إلى قشتالة خشية من نفاذ المؤن، ولكي يكسب حماسة جنده وظمأهم للجهاد وحبهم للاستشهاد.

وكانت خطة زعيم الموحدين ترمي أولاً إلى اختراق قلب أسبانية وافتتاح طليطلة، ومتى ظفر ببيغيته استطاع أن يحارب الممالك الأخرى بسرعة وسهولة، ولكنه لما علم بأن ملك قشتالة قد حشد قوات شمال قلعة رباح، على مقربة من قلعة الأراك، اتجه بجيشه إلى ذلك المكان. ولما وصل إلى قيد مسيرة يومين من جيش النصارى، ضرب معسكره في يوم الخميس الثالث من شعبان سنة 591 هـ/1195م، وعقد مجلساً من القادة والأشياخ للبحث في الخطط التي يجب اتباعها لخوض المعركة.

ثالثاً: معركة الأرك

(الأرك): حصن على بعد عشرين كيلومتراً إلى الشمال الغربي من قلعة رباح، على أحد فروع نهر وادي أنه، وهي نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس في حينه. تجهز ألفونسو الثامن ملك قشتالة للقاء الجيش الإسلامي منذ سمع بعبور الموحدين وطلب العون من ملكي ليون وونبارة⁽¹⁾ واستقر كل ملوك أسبانيا المسيحية واستصرخ البابا في

(1) شوقي ابوخليل، الأرك، ص 53 - 54.

خطة الموحدين

اجتمع المجلس الحربي الاستشاري للموحدين برئاسة زعيمهم أبو يوسف يعقوب المنصور وتناقشوا في الخطة التي يجب اتباعها في المعركة، واستمع الزعيم لرأي الجميع، ثم التفت إلى زعماء الأندلس، وطلب رأي أبي عبد الله بن صناديد، لقد كان من أعقلهم وأخبرهم بمكائد الحروب، وكان أبو يوسف المنصور يفضل آراء الأندلسيين في معرفة أفضل الخطط لمحاربة النصارى، إذ أنهم يخوضون الحرب مع جيرانهم بلا انقطاع، فهم لذلك أعرف الناس بطرق النصارى ومكائدهم، وكان من رأي ابن صناديد أنه يجب أن توضح خطة موحدة لتسيير دفة الحرب، إذ كان هذا التوحيد والنظام والتنسيق التام ينقص الموحدين في حروبهم السابقة، ولا سيما في معركة شنترين، وأنه يجب أن يختار أمير الموحدين قائدا عاما للجيش كله، فوقع اختيار المنصور على كبير وزرائه أبي يحيى ابن أبي حفص، الذي امتاز بالفطنة وصفاء الذهن والشجاعة في كثير من الحروب والوقائع.

وكذلك يجب أن يتولى قيادة الأندلسيين زعمائهم، وهو ما لم يتبع دائما، فكان يترتب على ذلك اضطراب الصفوف أثناء المواقع، وكانت حماسة الأندلسيين تهبط حينما يتولى الأجانب قيادتهم، على أنه مع ذلك كانوا يؤلفون قسما مستقلا من الجيش ينضوي تحت لواء القائد العام أبي يحيى بن أبي حفص، ولما كان الأندلسيون والموحدون أو الجند المغاربة النظاميون يؤلفون قوة الجيش الرئيسية، فقد نصح عبدالله بن صناديد بأن يتولى هؤلاء لقاء العدو ومواجهة هجومه الأول، وأما بقية الجيش وهي المؤلفة من قبائل البربر، ومعظمهم غير النظاميين، وجمهرة كبيرة من المحاربين والمجاهدين فيجب أن تكون قوة احتياطية للموحدين الأندلسيين، تقوم بالعون والإمداد. أما أبو يوسف المنصور فيستطيع بحرسه أن يرجح كفة الموقعة كلها، ويجب أن يربط بقوته وراء التلال على مسافة قريبة، ثم ينقض فجأة بجنوده المتوثرين على الأعداء المتبعين، ويبادر بحضوره إلى تدعيم النصر المكسوب، كل هذه الآراء أبداها الزعيم الأندلسي، وأعجب أبو يوسف المنصور بها، فوافق عليها، وأمر بتنفيذها.

وفي تلك الأثناء كان ألفونسو يستعد لمهاجمة المسلمين ونتيجة للأعداد الضخمة التي في حوزته رأى أن يترك أساليب الأسبان القديمة في الحرب، وهي تقضي بتجنب الاشتباك في المواقع والامتناع في القلاع، حتى ترغم قوى المسلمين الجرارة

على الانسحاب، إما لنفاد المؤن، أو لتفشي الأمراض، أو لحلول الشتاء، ولكن ألفونسو رأى - وهو سيد جيش ضخم حسن الأهبة - أنه من العار أن ينسحب أمام العدو، خصوصاً وقد كان يؤمل أن يستطيع بقيادته أن يحرز نصراً باهراً على جيش الموحدين.

وفي 9 شعبان 591هـ/8 تموز (يولية) 1195 كانت موقعة الأرك الفاصلة الحاسمة. وفي صباح هذا اليوم، أذاع أبو يوسف يعقوب المنصور بين سائر الجند، لكي يذكى حماسهم للقتال، خبر حلم رآه في الليلة السابقة، مفاده أنه رأى في نومه فارساً بهي الطلعة، على فرس أبيض يخرج من باب فتح في السماء، وبيده راية خضراء، وقد انتشرت في الآفاق، يقوله له: إنه من ملائكة السماء السابعة، وإنه جاء يبشره بالنصر بحول الله.

ونظم أبو يوسف يعقوب المنصور جيشه، الذي قدرته الروايات الأوربية الكذسية بستمئة ألف مقاتل وهذا بالطبع مبالغ فيه، فقد كان في الأغلب يساوي عدد جيش النصاري، فاحتل الموحدون - أو القوات النظامية - القلب، واحتل الجناح الأيسر الجند العرب أو أحفاد فاتحي المغرب المسلمين، ومعهم زناته وبعض القبائل الأخرى تحت ألويتهم الخاصة، واحتل الجناح الأيمن قوى الأندلس بقيادة عبدالله بن صناديد. وتولى أبو يوسف المنصور قيادة القوة الاحتياطية مكونة من صفوة الجند والحرس الملكي، ورفعت صفوف المتطوعين ومعظمها مكون من الجنود الخفيفة، ولا سيما حملة الذبال، تحت أعلامها الخضراء، وهو لون الموحدين، إلى المقدمة، لتفتتح القتال، وهم جميعاً يضطرمون شوقاً إلى الفوز بالشهادة في سبيل الله تعالى.

وحين كمل الحشد قال القائد العام للجند إن المنصور أمير المؤمنين يقول لكم: “اغفروا له - فإن هذا موضع الغفران - وتغافروا فيما بينكم، وطيبوا نفوسكم وأخلصوا لله نياتكم”.

فبكى الناس وأعظموا ما سمعوه من أميرهم المؤمن المخلص، وما جرى من حسن معاملتهم وعدله بينهم.

وقام وخطب وحرص على الجهاد وبين فضله ومكانته وقدره، وأخذ الناس مواقعهم وقد تنورت بصائرهم، وخلصت لله ضمائرهم وسرائرهم، وقويت أنفسهم وعزائمهم، وتضاعفت نجاتهم وإقدامهم.

ونظم ملك قشتالة في تلك الأثناء جنده المتوثبة إلى القتال، وكانت قلعة الأرك

تحمي موقعه من جانب، وتحميه من الجانب الآخر بعض التلال، ولا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة طرق ضيقة وعرة، وكان الجيش القشتالي يحتل موقعا عاليا، وكانت هذه ميزة له في بدء القتال.

ولما تقدمت صفوف المسلمين المهاجمة إلى سفح التل الذي يحتله ملك قشتالة، واندفعت إليه بحاول اقتحامه على اثر كلمات قائدها الملهبة، انقض زهاء سبعة أو ثمانية آلاف من الفرسان القشتاليين المثقلين بالدروع على المسلمين كالسيل الجارف المندفِع من عل.

وفي البيان المغرب في معرض الحديث عن القشتاليين، لما رأوا الجيش الإسلامي في سهل الأرك، وهم في المرتفع المشرف عليه: "فهبطوا من مراكزهم كالليل الدامس والبحر الزاخر، أسرابا تتلوها أسراب، وأفواجا تعقبها أفواج، ليس إلا الصهيل والضجيج والحديد على وقع العجيج، فدفَعوا حتى انتهوا إلى الأعلام، فتوقفت كالجبال الراسيات، فمالوا على الميسرة فتزحزح قوم من المطوعة وأخلط من السوق والأحرجة، فصعد غبارها إلى الجو، فقال "أبو يوسف، المنصور لخاصته ومن طاف به: جددوا نياتكم وأحضروا قلوبكم ثم تحرك وحده وترك ساقته على حالها، وسار منفرداً من خاصته مقدما بشهامته ونجدته، ومر على الصفوف والقبائل، وألقى إليهم بنفسه كلاماً وجزاً في الهجوم على عدوهم والنفوذ إليه، وعاد إلى موضعه وساقته " (1) لقد رد المسلمون هجمات القشتاليين مرتين، ولكن العرب والبربر استنفذوا جميع قواهم لرد هذا الهجوم الشرس، ولما عززت صفوف النصاري بقوى جديدة، هجموا للمرة الثانية، وضاعفوا جهودهم واقتحموا صفوف المسلمين وفرقوها، وقتلوا قسماً منها، واضطر الباقون إلى التقهقر والتراجع، وأكرم الله الآف من المسلمين بالشهادة، منهم القائد العام أبو يحيى بن أبي حفص، الذي سقط شهيداً وهو يقاتل بمنتهى الشجاعة والرجولة والعزة والبسالة، وظن النصاري أنهم أحرزوا النصر بعد أن حطموا قلب جيش الموحدين، ولكن الجناح الأيمن للمسلمين بقيادة القائد الأندلسي أبي عبد الله بن صناديد انقض على النصاري انقضاض الأسد على فريسته وأصابوا قلب جيشه القشتالي إصابة دامغة وكان ملك قشتالة يقود قلب جيشه بنفسه ويحيط به عشرة آلاف فارس، منهم فرسان الداوية وفرسان قلعة رباح، لقد استمرت المعركة وهي حامية الوطيس ساعات متتالية واستبدل المسلمون النقص

في العدد، بالإقدام والشجاعة، حتى أنه لما زحف زعيم الموحدين في حرسه وقواته الاحتياطية، ورد تقدم الفرسان القشتاليين واضطروهم إلى الفرار في غير انتظام، لم يغادر ألفونسو وفرسانه عشرة الآلاف مكانهم في القلب، ذلك لأنهم أقسموا جميعاً بأن يموتوا ولا يتقهقروا، فاستمرت المعركة على اضطرامها المروع، والفريقان يقتتلان تحت سحب كثيفة من الغبار، وأرجاء المكان تدوى بوقع حوافر الخيل، وقرع الطبول، وأصوات الأبواق، وصلصلة السلاح، وصياح الجند، وأنين الجرحى.

وأيقن الموحدون بالنصر حينما انحصرت المقاومة في فلولا من النصارى التفت حول ملك قشتالة. وهجم أمير الموحدين في مقدمة جيشه لكي يجهز على هذه البقية، أو يلجئها إلى الفرار، فنفذ إلى قلب الفرسان النصارى، والعلم الأبيض يخفق أمامه منقوشاً عليه: “ لا إله إلا الله محمد رسول الله، لا غالب إلا الله “. ولم يشأ ألفونسو بالرغم من اشتداد ضغط المسلمين عليه من كل صوب، ومواجهته لخطر الهلاك والسحق المدقق، أن يذق نفسه بالفرار، وأن يتحمل عار الهزيمة، وتساقط معظم الفرسان النصارى حول ملكهم مخلصين لعهدهم، ولكن بقية قليلة منهم استطاعت أن تنجو وأن تقتاد الملك بعيداً عن الميدان، وأن تنفذ بذلك حياته (1).

لقد انتهى يوم الأرك بهزيمة النصارى على نحو مروع، وسقط منهم في القتال ثلاثون ألف قتيل، بينهم زهرة الفروسية الأسبانية، وغنم المسلمون معسكر الأسبان بجميع مافيته من المتاع والمال، واقتحموا عقب الموقعة حصن الأرك، وقلعة رباح المنيعة (2).

وسرعان ما ارتفع نجم الموحدين الحربي في كل مكان بعد انتصارهم في موقعة الأرك، وأمر يوسف المنصور بإذاعة النبأ من منابر المساجد في جميع مملكته الشاسعة، وخصص خمس الغنائم بعد أن وزع باقيها على الجند لبناء مسجد ضخم في أشبيلية، اشتهرت منارته بارتفاعها البالغ مائتي متر، كما بنى حصناً كبيراً في مراكش لتخليد ذكرى الموقعة.

وعامل أبو يوسف يعقوب المنصور الأسرى بالإحسان ومنحهم الحرية دون افتداء وكان عددهم عشرين ألفاً وقد ساء وقع هذا الجود لدى الموحدين واعتبروه

(1) الكامل، 9 / 232 - 233، المقرئ، نفح الطيب، 6 / 115 - 116، روض القرطاس، ص 246، البيان المغرب، 3 / 194، ابن خلدون، 6 / 242، أعمال الأعلام، ص 269، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي، ص 331 - 333، الصلابي، دولة الموحدين، ص 171 - 173 واللفظ له.
(2) نفح الطيب، 6 / 116.

خطأً لكون ذلك العدد الهائل سيكون قوة عسكرية كبيرة ستشدد أزر مملكة قشتالة فيما بعد وستسعى للانتقام من المسلمين.

لقد رأى أبو يوسف المنصور أن ينتهز فرصة انهزام ملك قشتالة وتفرق النصاري، فقام في أوائل سنة 592هـ / 1196 بغزوة جديدة في قلب الأراضي النصرانية واخترق ولاية "استراما دورة" وعبر النهر الكبير "الوادي الكبير" في اتجاه نهر التاجة، وبعد أن فتح عدة حصون وقلاع، ظهر أمام أبواب طليطلة عاصمة قشتالة، فامتنع ألفونسو مع جيشه الصغير بعاصمته ولم يجرؤ أن يحارب المسلمين في ميدان مكشوف نظراً لهبوط معنويات جنده بعد الأرك، ولقلة عددهم، وحاصر أبو يوسف المنصور طليطلة عشرة أيام محاولاً اقتحام أسوارها المنيعة، لكنه لم ينجح، فعاد منسحباً جنوباً بسبب نقص التموين، بعد أن انتسفت الزروع بيد القشتاليين قبيل الأرك، فدب المرض في صفوف الموحدين، وكثر الموت بينهم، فاضطر أبو يوسف المنصور إلى الانسحاب بعد أن وصل إلى مقربة من ضفاف دويرة، الذي لم يقترب من ضفافه منذ مدة طويلة أي جيش إسلامي، وكانت حملتهم هذه آخر حملة إسلامية تهيأ لاحتلال طليطلة.

واستطاع أبو يوسف يعقوب المنصور أن يفرق بين ممالك النصاري بعقد أحلاف معها وساعده على ذلك موقعه القوي ولذلك استجاب لطلب ملك ناغار وليون وعقد معهم حلفاً واضطر ملك قشتالة إلى مقاومة هذه الأحلاف، فعقد في سنة 592هـ / 1196م الهدنة مع الموحدين لكي يستطيع التغلب على أعدائه ورحب أبو يوسف المنصور بعقد هذه الهدنة لأن ثورات جديدة قامت في إفريقية كانت تستدعي عودته إلى مراکش (1).

رابعاً: نتائج معركة الأرك

- 1 - ارتفعت الروح المعنوية لمسلمي الأندلس بعد أن نزل بهم الويل والهلاك والدمار من قبل النصاري الإسبان.
- 2 - سقوط هيبة ملوك النصاري أمام مسلمي الأندلس والمغرب والعالم الإسلامي كله.

- 3 - حقق الموحدون نصراً عظيماً جعلهم يفكرون بجد في توحيد العالم الإسلامي كله تحت سلطانهم.
 - 4 - ارتدّاع نجم السلطان أبي يوسف يعقوب المنصور والموحدين في العالم أجمع.
 - 5 - انصاعت بعض قبائل المغرب التي تفكر في الثورة على الموحدين وكانت تنتظر فرصة الوثوب على دولتهم.
 - 6 - عمت الأفراح أرجاء العالم الإسلامي في شرقه وغربه وأعتقت الرقاب، وسر العلماء والفقهاء والأدباء وعامة المسلمين بهذا النبأ السعيد.
 - 7 - أصيب نصارى الأسبان بهزيمة نفسية أثرت في نفوسهم وتحطمت آمالهم في الاستيلاء على أراضي المسلمين في الأندلس وأبعادهم.
 - 8 - جعلت ملوك النصارى يتسارعون في عقد المعاهدات مع دولة الموحدين وإيقاف الحروب والإذعان للشروط التي يضعها الموحدون.
 - 9 - تفجرت أحقاد القساوسة والرهبان في نفوسهم، فعملوا على توحيد الممالك وترتيب الأمور ورص الصفوف والدعوة إلى التنازل عن صراعات النصارى الداخلية.
 - 10 - دخلت معركة الأرك سجل التاريخ الإسلامي المجيد وسجلت على صفحات الزمان بماء الذهب الصافي.
- وغير ذلك من النتائج.

* * *

خامساً: أسباب انتصار الموحدين في معركة الأرك

لاشك أن النصر العظيم الذي حدث في معركة الأرك له أسباب عدة منها:

- 1 - الاهتمام بتصحيح العقيدة ومحاولة الرجوع إلى الفهم الصحيح والتصور السليم وهذا ما قام به خليفة الموحدين أبو يوسف يعقوب بن يوسف حيث أعلن براءته من الاعتقاد بعصمة ابن تومرت واستخف بمن بالغوا في تقديسه واهتم بالقرآن والسنة وشجع على الاهتمام بكتب الحديث المعتمدة وهذه محاولة جادة في إصلاح المنهج والاقتراب من منهج أهل السنة والجماعة.
- 2 - اهتمام دولة الموحدين بالمرضى والضعفاء والأيتام والفقراء وكان السلطان

أبو يوسف يعقوب المنصور يشرف بنفسه على هذه الأعمال لعلمه أن طريق النصر والتمكين من أسبابه الواضحة الاهتمام بالضعفاء.

3 - محاربة المذكر والتضييق على الفساق وتغليظ العقوبة على أهل الكبائر بإشراف السلطان بنفسه ونشر العدل بين الرعية والسعي لتنفيذ أحكام الشرع ولو على نفسه وأهله وأقاربه وحارب الظلم وعاقب العمال الذين تشكو الرعايا منهم وكان يشدد في إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس.

4 - فتح باب الاجتهاد وحارب الجمود وألغى اهتمام الدولة بفروع الفقه وألزم العلماء بأن لا يفتوا إلا بالكتاب العزيز والسنة النبوية، ولا يقلدون أحد من الأئمة المجتهدين المتقدمين، بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباط القضايا من الكتاب والحديث والإجماع والقياس وبذلك فتح باب الاجتهاد لمن اجتمعت فيه شروطه. وأبطل التقليد ومن هؤلاء العلماء الذين مشوا على هذه الطريقة: أبو الخطاب ابن دحية وأخوه أبو عمر وغيرهم.

5 - احترام العلماء والقضاة والفقهاء في زمن أبي يوسف يعقوب بن يوسف وهذه قصة رائعة تدل على احترام أبي يوسف يعقوب المنصور للقضاة ووقوفه عند الشرع روى ابن خلكان: أن الأمير الشيخ أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص عمر والد الأمير أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد صاحب أفريقية، كان قد تزوج أخت الأمير أبي يوسف المنصور، وأقامت عنده، ثم جرت بينهما منافرة فجاءت إلى بيت أخيها، فسئّر الأمير عبدالواحد لطلبها فامتدعت عليه، وشكا الأمير عبد الواحد ذلك إلى قاضي الجماعة بمراكش، وهو القاضي أبو عبد الله بن علي بن مروان، فاجتمع القاضي المذكور بأبي يوسف المنصور وقال له: إن الشيخ أبا محمد عبدالواحد يطلب أهله، فسكت الأمير أبو يوسف المنصور. ومضى ذلك أيام. ثم إن الشيخ عبدالواحد اجتمع بالقاضي المذكور في قصر الأمير بمراكش، وقال له: أنت قاضي المسلمين، وقد طلبت أهلي فما جاؤوني، فاجتمع القاضي بأبي يوسف المنصور وقال له: يا أمير المؤمنين، كان الأولى أن يفتح باب الاجتهاد لمن توفرت فيه شروطه وترك من أراد أن يقتدي في فتاويه بالأئمة الأعلام من أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والزهري والأوزاعي رحمهم الله.

الشيخ عبدالواحد قد طلب أهله مرة وهذه الثانية، فسكت الأمير يعقوب. ثم بعد ذلك بمدة لقي الشيخ عبدالواحد القاضي بالقصر المذكور وقد جاء إلى خدمة الأمير أبي يوسف المنصور فقال له: يا قاضي المسلمين، قد قلت لك

مرتين وهذه الثالثة، أنا أطلب أهلي وقد منعوني عنهم. فاجتمع القاضي بالأمر، وقال له: يا مولانا إن الشيخ عبدالواحد قد تكرر طلبه لأهله، فإما أن تسير إليه أهله وإلا فاعزلني عن القضاء. فسكت الأمير يعقوب أبو يوسف المنصور، ثم قال: يا أبا عبدالله ما هذا إلا جدّ كبير، ثم استدعى خادما وقال له في السر: تحمل أهل الشيخ عبدالواحد إليه فحملت إليه في ذلك النهار ولم يتغير على القاضي ولا قال له شيئا يكرهه، لقد تبع في ذلك حكم الشرع المطهر وانقاد لأوامراه، وهذه حسنة تعد له، وللقاضي أيضا، فإنه بالغ في إقامة منار العدل.

6 - الحزم والقيادة الرشيدة التي تميز بها أبو يوسف المنصور في قيادته لدولة الموحيدين حيث استطاع أن يوحد البيت المغربي الداخلي والقضاء على ثورات الأعراب وبني غانية والمتمردين وقاد المعارك بنفسه واسند المهام الكبرى لأصحاب خبرة وحكمة ودراية وتجربة واسعة.

7 - الاهتمام بمبدأ الشورى والابتعاد عن التسلط والإعجاب بالرأي وتهميش الآخرين ولذلك استمع أبي يوسف إلى الآراء في مجلس حربه وإعطاء أهل الاختصاص مكانة معنوية واستمع لزعيم الأندلسيين واستفاد من خبرته الطويلة في محاربة النصارى واعتمد خطة أبي عبدالله بن صناديد ذات الأبعاد المتعددة.

8 - الاهتمام بمعرفة نفسية الأقسام المشاركة في الجهاد فمثلاً، الأندلسيين يفضلون أن يكون زعيمهم منهم وترتفع معنوياتهم وتنشط همهم ويندفعون كالأسود عندما يكون قائدهم منهم ويحدث العكس عندما يكون قائدهم من غيرهم ولذلك جعل المنصور قيادة الأندلسيين لزعيمهم العظيم أبي عبدالله بن صناديد.

9 - جودة التخطيط، وظهر ذلك في حشد الألوف من المجاهدين وتوفير العدة والعتاد وتقسيم المواقع وإحكام الخطة في المعركة الفاصلة.

10 - الاهتمام بتوحيد القيادة في المعارك الفاصلة ولذلك عين أبو يوسف المنصور أبا يحيى بن أبي حفص قائداً أعلى لجيوش الموحيدين لما تميز به من حذكة وشجاعة ومهارة في القتال.

11 - اذكاء روح الجهاد في الجنود وكان من عادة الموحيدين من زمن أبي يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن قبل الحرب أن يذكروا المجاهدين بأحاديث الجهاد ولقد أمر السلطان أبو يعقوب العلماء بأن يجمعوا أحاديث في الجهاد لتملى على الموحيدين

من أجل دراستها وحفظها وأصبح ذلك الفعل سنة في دولة الموحدين.

12 - تواضع القيادة، ويظهر ذلك عندما طلب الأمير أبو يوسف المنصور من رعيته أن يغفروا له وأن يتغافروا فيما بينهم، فتأثر الناس وبكوا مما سمعوا من زعيمهم.

13 - سريان روح الأمل والتفاؤل بالرؤى، ويظهر ذلك عندما أخبر أبو يوسف المنصور جيشه بما رأى من نزول فارس بهي الطلعة، على فرس أبيض من باب فتح من السماء ويبيده راية خضراء وقد انتشرت في الآفاق يقول له: إنه من ملائكة السماء السابعة، وإنه جاء ليبشره بالنصر بحول الله وقوته.

وغير ذلك من الأسباب التي ظهرت من خلال دراسة عصر أبي يوسف يعقوب المنصور (1).

وفي ليلة الجمعة 22 ربيع الأول 595 هـ / 1199 م توفي الخليفة المنصور ونقل إلى قصره بالصالحية ودفن هناك ثم نقلت رفاته إلى تينمل (2).

* * *

الخليفة محمد الناصر

وخلفه في اليوم التالي ابن محمد أبو عبد الله وتلقب بالناصر لدين الله، وهو في السابعة عشرة من عمره. عزل أخاه السيد عن ولاية إشبيلية، ثم أعاده إليها في سنة 597 هـ / 1201م، وقد حدث في إشبيلية سيل كبير جرف أحياء من مدينة إشبيلية، وبلغ عدد المنازل المدمرة ستة آلاف وكان وقوعه ظهر يوم الاثنين 19 جمادي الأولي 597 هـ / 1201 م واستمر لمدة ثلاثة أيام (3).

شغل محمد الناصر عند استلامه حكم الموحدين بثورة آل غانية التي نشطت من جديد والتي تمكنت من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد والدعاء فيها للخليفة العباسي جرياً على عادة أسلافهم المرابطين واستطاع عبدالله بن غانية أن ينظم فلول المرابطين ويجعلهم شوكة في حلق الموحدين، لقد كانت أسرة بني غانية لها نفوذ من زمن المرابطين واستعمل السلطان المرابطي علي بن يوسف رجلين منهما في الأندلس وهما محمد ويحيى، وكان يحيى وهو الأكبر من أخيه محمد، حسنة

(1) الصلابي، دولة الموحدين، ص 173 - 175.

(2) روض القرطاس، ص 270، وفيات الأعيان، 2 / 431، نفح الطيب، 6 / 117، الكامل، 9 / 249.

(3) البيان المغرب، 3 / 214.

من حسنات الدهر، اجتمع له من المناقب ما افترق في كثير من الناس، منها أنه كان رجلاً صالحاً شديد الخوف من الله عز وجل، والتعظيم له والاحترام للصالحين، هذا مع علو قدم في الفقه، واتساع في رواية الحديث وكان مع هذا شجاعاً فارساً إذا ركب عدو وحده بخمسة فارس. وكان علي بن يوسف بن تاشفين الملقب بـ"الملك الناصر" يعده للعظماء ويستدفع به المهمات، وأصلح الله على يديه كثيراً من جزيرة الأندلس، ودفع به عن المسلمين غير مرة مكاره كانت قد نزلت بهم، منها انقاذ جزيرة فراغة في شمال شرق الأندلس عام 529 هـ من ألفونسو ملك أراغون، بعد ما احتل هذا سرقسطة وتطليه وقلعة أيوب.

ولي علي بن يوسف بن تاشفين يحيى بن غانية مدينة بلنسية، ثم عزله عنها ليوليه قرطبة، فلم يزل بها والياً إلى أن مات، وبموته كانت أولى الفتنة على المرابطين، فبدأ أخوه محمد بن غانية يجول الأندلس الفتنة تتزايد، ودعوة الموحدين تنتشر، ولما اشتد خوف محمد بن غانية، وصل دانية وعبر عنها إلى جزيرة البليار (منورقة ويابسة مع ميورقة).

ضبط محمد إمارة جزيرة البليار تحت سلطة المرابطين، داعياً للخلافة العباسية. وبعد محمد ملك ابنه إسحاق، فأمره بقايا المرابطين، فأحسن إليهم وأكرمهم حسب طاقته.

وأقبل إسحاق بن محمد على الجهاد في سبيل الله وسجل صفحات عطرة خالدة في جهاده الميمون، وكان في كل عام يغزو مرتين بلاد الروم - غرب إيطاليا جنوب فرنسا - فيغنم وينكي في الأعداء أشد نكاية، وأشدت بذلك عوده وقوى أمره، وتشبه بالسلطين العظام ولم تنزل هذه سيرته إلى أن توفي عام 579 هـ.

وكان إسحاق هذا له سياسة مرنة مع الموحدين، فلاطفهم وارسل لهم الهدايا الثمينة وهدانهم وأشغلهم عنه، ولم يلتفت الموحدون إلى جزر البليار باهتمام يذكر، فلما كان سنة 578 هـ كتبوا إليه إلى الدخول في طاعتهم والدعاء لهم على المنابر ويتوعدونه إن لم يلبي مرادهم، فأعطاهم العهود المؤجلة، واستشار وجوه أصحابه، فاختلّفوا عليه، فمنهم من أشار بعدم طاعة الموحدين والامتناع عنهم بجزر البليار، ومنهم من رأى الدخول أسلم لحماية الأنفس والأغراض وخرج ذلك المجاهد الكبير في غزوة من غزواته، فأكرمه الله بالشهادة، فتولى الأمر من بعده ولده الأكبر علي بعهد من والده، والذي دخل في حرب مع الموحدين طويلة المدى واستطاع الخليفة الموحي المنصور أن يكسر شوكته وجرد الجيوش لحربه وقادها بنفسه واستطاع أن

يخمد ثورة بني غاذية في المغرب الأوسط وأفريقية وطرابلس بحد السنان ومزق تحالف بني غاذية مع قبائل بني سليم وبني هلال وأمراء الأيوبيين.

ومع وفاة الخليفة الموحي المنصور عاد بنو غاذية الميورقيون إلى شن غاراتهم على إفريقية وتمكنوا من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد والدعاء فيها للخليفة العباسي جرياً على عادة أسلافهم المرابطين وكان عبدالله بن غاذية قد حاول في عام 596هـ/1200م أن يسترد جزيرة يابسة من الموحيين إلا أنه فشل في تحقيق ذلك الهدف.

ورأى الخليفة الموحي الجديد أبو عبدالله محمد الناصر لدين الله ابن المنصور أن استقرار نفوذ الموحيين في إفريقية لن يستتب إلا إذا استولى على جزر البليار قاعة بني غاذية ومصدر المتاعب التي يواجهها الموحدون في إفريقية لهذا صمم الناصر على بسط نفوذه في تلك الجزر مصدر القلق المستمر للموحيين وشرع أبو محمد الناصر بتوجيه حملة بحرية كبرى إلى الجزائر الشرقية كان قد أعدها لهذا الغرض في ثغر دانية وأسند قيادة الأسطول إلى عمه أبي العلاء إدريس بن يوسف بن عبدالمؤمن كما أسند قيادة الجيش إلى شيخ الموحيين أبي سعيد عثمان بن حفص.

كانت الحملة تتكون من ألفين ومائتي فارس وسبعمئة من الرماة وخمسة عشر ألف من الرجال وغير رجال الأسطول وكان الأسطول في ثلاثمائة جفن (سفينة) (أو أنواع السفن) وأقلعوا يوم السبت 24 ذي حجة 599هـ/1203م من جزيرة يابسة قاصدين ميورقة ونزلوا فيها وأحاطوا بها وخرج إليهم عبدالله بن غاذية لكنه هزم وقتل وتغلب رجال الأسطول والجيش على المدينة ودخل أبو العلاء إدريس قائد الأسطول والشيخ أبي سعيد عثمان قائد الجيش ثم تحرك الأسطول إلى جزيرة منورقة فدخل البلد عنوة وأرسل حاكمها إلى العاصمة مراكش وبذلك تم للموحيين احتلال الجزر الشرقية أو جزر البليار وتم لهم ذلك 600هـ/1203م وأقيم عليها عبدالله بن طاع الله الكومي والياً عليها وبذلك يكون الموحيين قد قطعوا جذور بني غاذية في الجزر الشرقية (جزر البليار وهي ميورقة ومنورقة ويابسة).

وبقي عليهم أن يقطعوا فروعهم في إفريقية والمغرب الأوسط، فتحرك إليهم الناصر بجيشه وأسطوله عام 601هـ/1204م واستولى على تونس والمهدية وفر يحيى بن غاذية بأهله وولده إلى صحراء ليبيا وأقام الناصر الشيخ عبدالواحد بن أبي حفص الهنتاتي جد ملوك الحفصيين والياً على إفريقية وأعطاه مطلق التصرف في إدارتها.

واستطاع الوالي الموحي الجديد أن يقضي على مقاومة الأعراب وبنى غاذية وأحلافهم في إفريقية ونستطيع أن نقول أن عام 604هـ الذي كانت فيه موقعة الزاب النهاية الحقيقية لنشاط بني غاذية في إفريقية، لقد تعقب أبو محمد الحفصي جيوش يحيى ابن غاذية حتى انهكها وشتت جموعها واحلافها وفي عام 631هـ/1334م أو 1236م توفي يحيى بن إسحاق بن غاذية في مدينة مليانة على نهر شلف في الجزائر وكان هذه نهاية ثوار المرابطين الذين قضوا حياتهم في معارك طاحنة مع الموحيين. وقد أضعفت هذه الحركة قوات الموحيين نحو نصف قرن من الزمان.

لقد كان الدافع العقدي لثورة بني غاذية واضح المعالم، لأنهم رأوا في الموحيين دولة منحرفة عن أصول منهج أهل السنة والجماعة ولأنهم حرصوا على وحدة الأمة تحت لواء الدولة العباسية ولذلك سعى بنو غاذية إلى تأسيس دولة سنية على نهج دولة المرابطين التي كسبت سمعة طيبة عطرة بسبب اخلاصها وصادقها للإسلام الصحيح وهذا يفسر لنا وقوف أهالي المغرب الأوسط وأفريقية لمدة تزيد عن أربعة عقود مع ثورة بني غاذية.

لقد كان فشل تلك المحاولة الجادة التي قام بها بنو غاذية بسبب الضربات الموحّدية القوية والمركزة وبسبب ضعف الخلافة العباسية التي لم تستطع أن تمد بني غاذية بالعدة والسلاح والرجال في حربهم الطويلة مع دولة الموحيين وبسبب انشغال الأيوبيين بمشاكلهم الداخلية بعد وفاة صلاح الدين وبحروبهم مع الحملات الصليبية الحاقدة. (1).

* * *

موقعة العقاب

انصرف الناصر محمد إلى معالجة أوضاع المغرب عن الاهتمام بأحوال الأندلس، وكان القشتاليون قد أخذوا إلى السكنية بعد هزيمتهم في الأرك واجتياح الخليفة المنصور لأراضيهم والعبث فيها، ولما طال الصراع بين الموحيين وابن غاذية وانقطع عبور المجاهدين إلى الأندلس، أدرك الأسبان النصاري أن الفرصة سنحت لاستئناف الغزو لأراضي المسلمين.

(1) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 336 - 337، الصلابي، دولة الموحيين، ص 187، 189.

وكان ألفونسو الثامن القشتالي يتحرق للثأر من هزيمة الأرك، ولما انتهى أجل الهدنة المعقودة بينه وبين الموحيدين جهز حملة سنة 606 هـ / 1209م ومعه فرسان قلعة رباح وسار إلى جيان وبياسة واستولي على عدة حصون، ثم عاد في العام التالي واجتاح أراضي جيان وبياسة حتى وصل أطراف ولاية مرسية، وعاد إلى طليطلة مثقلاً بالغنائم.⁽¹⁾

لقد كانت معركة الأرك من المعارك الخالدة في تاريخنا المجيد ولقد تركت آثاراً عميقة في نفوس النصارى وخصوصاً ألفونس الثامن ملك فشتالة الذي لم يستطع أن يذسى مرارة الهزيمة، فشرع يحصن قلاع بلاده الواقعة على الحدود الإسلامية تحصيناً قوياً عام 1209م ثم نقض القشتاليون الهدنة القائمة بينهم وبين الموحيدين، لذا لم يكن الخليفة الناصر لدين الله يخمد ثورات المغرب حتى سمع باستعداد ألفونسو في الأندلس الذي سعى في توثيق عهوده مع ملكي نافار وأراغون، وحصل منهما على وعد بتأييده وإمداده بالجند حين الخطر لمحاربة المسلمين واعتزم بعد ذلك مدّ و صمة هزيمة الأرك، بإحراز نصر على الموحيدين.

لقد تغيرت الأوضاع السياسية في الأندلس في ذلك الوقت واستطاع الأسبان النصارى أن يوحّدوا جبهتهم الداخلية، وان يدعوا نصارى أوروبا لحرب صليبية باركها البابا أنوسنت الثالث، فحركت تلك الدعوة الحاقدة جموع النصارى في أوروبا وتوافدوا بجيوش جرارة من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا لمناصرة الصليب في الأندلس.

وشرع النصارى الحاقدين في إحراق الزروع والحقول، ونهب القرى وقتل السكان وسبي منهم جموعاً كبيرة⁽²⁾.

وأمام هذه الاعتداءات الهمجية المتكررة على الأندلس، أعلن الناصر لدين الله الجهاد، فحشد قوات كبيرة وشرع في إرسالها من المغرب، وقسمها إلى خمسة جيوش:

- 1 - الجيش الأول من قبائل البربر.
- 2 - والثاني من الجنود المغاربة.
- 3 - والثالث من الجنود الموحدية النظامية.
- 4 - والرابع من المتطوعة من جميع أنحاء المملكة.

(1) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي، ص 337.

(2) شوقي أبوخليل، معركة العقاب، ص23، الصلابي، دولة الموحيدين، ص 191.

5 - والخامس هو جند الأندلس.

وقدر جيش أبي عبدالله محمد الناصر بنصف مليون مجاهد وفي 25 ذي القعدة سنة 607هـ أوائل أيار (مايو) سنة 1211م، جاز سلطان الموحدين بنفسه إلى الأندلس، ونزل في جزيرة طريف، ثم سار بعد أيام إلى أشبيلية وهناك كان الخطأ الفادح.

نتيجة لصغر سنه ولقلة خبرته، واستبداده بالرأي حيث أرسل خيرة جنده إلى حصن سَلْبُطْرَة، فأنهك بذلك قواهم، ولبث الجيش أمام هذا الحصن ثمانية أشهر وهو ممتنع عليه، وأصر أبو عبدالله محمد الناصر نزولاً على نصح حاجبه أبي سعيد بن جامع وكان الموحدون يشكون في صدق نياته - ولكن أبا عبدالله محمد الناصر وضع فيه كل ثقته، وأصر أبو سعيد بن جامع على ألا يتقدم جيش الموحدين قبل الاستيلاء على حصن سلبطرة.

وهكذا استمر الحصار طوال الصيف حتى دخل الشتاء، وعانى المغاربة في الجبال الوعرة المحيطة بالحصن من قسوة الطقس مالا يطاق كما أودى المرض بحياة الآلاف منهم، وأخذت وسائل التموين لهذا الجيش تصعب وتتعثّر يوماً فيوماً. وحاول ملك قشتالة ألفونسو أن ينفذ الحصن ويرغم الموحدين على رفع الحصار ولكن هذه المحاولة لم تفلح، وفجع ألفونسو بفقده لولده الذي قاد الجيش لانقاذ الحصن، وسقطت قلعة سلبطرة أخيراً بيد الموحدين، بسبب الجوع الذي حل بها بعد انتهاء مخزونها من التموين.

لقد فجر سقوط سلبطرة براكين الغضب النصراني في أوروبا وتحرك الرهبان والقساوسة والملوك ليثيروا بذلاقتهم حماسة الشعوب النصرانية لكي ننسأهم في كفاح الصليب المقدس.

وقام البابا أنوسنت الثالث بدور كبير في نفخ روح الحقد في النصارى وطلب من الأساقفة في جنوبي فرنسة (بأن يعطوا رعاياهم بأن يسيروا بأنفسهم وأموالهم لموازرة ملك قشتالة وأنه - أي البابا - يمنح كل من لبي الدعوة الغفران التام).

وتحركات الامواج البشرية النصرانية من أوروبا للوقوف مع نصارى الأسبان وكان الأساقفة يرئسون صفوف المحاربين من المدن المختلفة، وقد تولوا الإنفاق على

حشودهم⁽¹⁾.

ووفدت على أسبانية جموع المحاربين من جميع البلدان الأوروبية ليقاتلوا دفاعاً عن النصرانية متقلدين الصלבان، وكان الفرنسيون أكثر الوافدين عدداً، وقاد أرنولد مطران أريونة جيشاً من لانجدوك وبروفانس وبرجونية يضطرم شوقاً للقاء المسلمين. ووفق أرنولد إلى ماهو أهم من ذلك، وهو أن يحمل بذلاقتة وضراعتة ملك نافار - بعد أن كان غاضباً من ملك قشتالة - أولاً على أن يؤيد قضية أسبانية بالمال والجند، ثم - وهو الأهم - على التعهد بأن يسير في فرسانه، وأن يشترك بنفسه في القتال.

واجتمعت في مملكة قشتالة ما لا يحصى من جنود النصارى المتعطشين لسفك دماء المسلمين وكان في مقدمة تلك الحشود الضخمة ألمان من البارونات مع حاشياتهم، وبيدرو الثاني ملك أراغوان في جيشه الضخم، كما توافدت امدادات لليون وجليقية والبرتغال، وكانت قوات البرتغالية تتكون من عدد من الفرسان والمشاة البارعين، يقودهم أمير برتغالي هو بيورو الثالث، أحد أبناء الملك سانشو الأول.

لقد تجمعت هذه الحشود في طليطلة التي لم تستطع أن تستوعبهم، فأضطرت الألوف الكثيرة أن تقيم في الخيام خارج المدينة، بأنواع من السلاح والملابس واللغات والعادات لقد اشتركت أوروبا فعلياً بأمر من البابا وقامت فرنسا وإيطاليا بأرسال الأموال اللازمة والسلاح والمؤن كل ذلك مكن ألفونسو من أن يمد جيش الوافدين بالمؤن والرواتب المالية المغربية والهدايا النفيسة إلى القادة والزعماء.

وفي روما، أمر البابا أنوسنت الثالث بالصوم ثلاثة أيام، والأكتفاء بالخبز والماء ألتماساً لانتصار الجيوش النصرانية، وأقيمت الصلوات العامة، وعمد الأكليروس والرهبان والراهبات إلى ارتداء السواد والسير حفاة، وسارت المواكب في الطرقات خاشعة متمهلة من كنيسة إلى أخرى، ومن دير إلى آخر، وألقى البابا أنوسان الثالث موعظة صليبية، طلب فيها إلى النصارى أن يتضرعوا إلى الله التماساً لنصر الأسبان.

وفي 20 حزيران (يونية) 1212م، تاهب الجيش النصراني للسير إلى لقاء المسلمين، ونظمت القوات في ثلاثة جيوش، حتى لا يصاب الجند أثناء السير بنقص

(1) شوقي أبوخليل، معركة العقاب، ص28، الصلابي، دولة الموحدين، ص 193.

في المؤمن، وسار في الطليعة جيش القادمين من أوروبا وكان تعدادهم مابين ستين ومائة ألف محارب تحت قيادة إمرة القائد القشتالي (ديجو لوبيز دي هارو) ويقود وحداته المختلفة مطران أربونة، ومطران بوددو (بُرْدَال) وأسقف نانت.

وكان الجيش الثالث بقيادة بيدرو الثاني، وهو مؤلف من الأراغونيين والقطلونيين فقط مع فرسان الداوية.

أما الجيش الثالث، وهو أضخم الجيوش الثلاثة، ويتألف من جنود قشتالة، ويقود وحداته كبير أساتذة جمعيات الفرسان، الأمير الليوني سانشو فرنانديز، والأمير البرتغالي بيورو، وردريك مطران طليطلة، وخمسة أساقفة آخر. وتقدر الرواية عدد الفرسان في هذا الجيش بثلاثين ألفاً، ولكنها لم تحدثنا عن عدد المشاة لحشدتهم الضخم الكبير (1).

* * *

حصار قلعة رباح

وفي اليوم الخامس في بدء السير من طليطلة في الرابع والعشرين من حزيران (يونية) 1212م، هاجم جنود النصارى حصن (مجلون)، وأبادوا جميع من فيه بعد ذلك ساروا إلى قلعة رباح، وكانت بها حامية قوية من الموحدين، ولقي النصارى في عبور وادي يانة الذي تقع عليه المدينة صعاباً فادحة، إذ كان المسلمون قد نثروا على جانبي الوادي الصنانير والخوازيق الحديدية.

(1) شوقي أبوخليل، معركة العقاب، ص31، الصلابي، دولة الموحدين، ص 193.

(1): (وقبل أن يعود النصارى إلى مهاجمة القلعة، عقد مجلس حربي للبحث فيما إذا لم يكن من الأفضل أن يقتصر على تطويق القلعة، دون محاولة افتتاحها، وأن يُبدأ بالسير تواءاً لمهاجمة المسلمين)(2).

لقد تغلب الرأي القائل بمهاجمة القلعة، إذ كان من المعروف أنها تحوي أموالاً هائلة، وكميات عظيمة من المؤن التي بدأ النصارى يشعرون بنقصها.

لقد ضيق النصارى على مسلمي القلعة واضطر قائدها أبو الحجاج يوسف بن قادس بأن يفاوض النصارى وانسحب بجنوده وترك القلعة ووجد ألفونسو في قلعة رباح كميات عظيمة من المؤن.

وسار النصارى إلى لقاء المسلمين بعزم أقوى، وأذكى شجاعتهم استيلاؤهم على حصن الأرك، وهو المكان الذي لقي فيه ملك قشتالة قبل ذلك بسبعة عشر عاماً هزيمته الشنعاء، وأذكى شجاعتهم قدوم شانشو ملك نافار، وقد اشتهروا بالبراعة في الحرب والشجاعة في القتال.

وعلى أثر ذلك تحرك الملوك الثلاثة، ألفونسو الثامن ملك قشتالة، وسانشو ملك نافار، بيدرو الثاني ملك أرغوني نحو مدينة سلبطرة، وهي القلعة التي افتتحها الموحدون في العام السابق بعد حصار طويل.

وعرض الملوك الثلاثة هنا جيشاً لم تخرج أسبانية النصرانية مثله من قبل، بيد أنهم لم يقفوا بسلبطرة لمناعتها واتقاء لحصار لا طائل منه، فاخترقوا ممر "ورادال" في جبال سيارا مورنيا "جبل الشارات" لكي يلقوا المسلمين في ناحيتها الأخرى.

مقتل البطل يوسف بن قادس أبو الحجاج

عندما سقطت قلعة رباح ورجع قائدها الذي بذل ما في وسعه وطاقته من أجل الإسلام والمسلمين غضب السلطان الناصر على أبي الحجاج وبدس من وزيره أبي سعيد ابن جامع أمر السلطان الناصر بقتل هذا المجاهد العظيم جهاراً، فكان لهذا الفعل أثر سيئ في الجيش الإسلامي كله، ولا سيما في جند الأندلس، ذلك لأنهم كانوا يعلمون أن ابن قادس قد بذل كل المستطاع، وأن مقتله لم يقع إلا بتحريض الوزير

(1) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين 113/2.

(2) شوقي أبوخليل، معركة العقاب، ص31، الصلابي، دولة الموحدين، ص 194.

الذميم وهذا خطأ آخر وقع فيه السلطان الناصر.

قلت: وهذا الفعل يدل على ضيق افق السلطان الناصر وعلى ظلمه لقاداته، وعلى تأثره بنصائح لا تنفع الأمة ولا تقوي صفها ووحدها في صفوف الأعداء، ولو كان هذا السلطان لديه فقه في السياسة الشرعية ومعرفة بنفوس جنوده لكان الموقف غير ذلك ونجد في الشريعة الغراء قواعد واضحة المعالم في دفع المفساد وجلب المصالح ومعرفة مقاصد الشريعة.

إن هذا العمل الخاطئ الذي قام به الناصر لدين الله يجر على الأمة الهلاك والدمار والعار (1).

المعركة

قام ملوك الأسبان في صباح 16 تموز "يولية" بترتيب جندهم لخوض المعركة، فربط بعضهم على سفح الجبل، والبعض فوق الرُّبى، تزعم ألفونسو ملك قشتالة قلب الجيش مع احتفاظه بنوع من الإشراف على الجيش كله، وكان القلب يضم أربعة فرق:

- 1 - تتألف الفرقة الأولى من سكان الجبال القشتالية، ويقودها "ديجولوز".
- 2 - وتتألف الفرقة الثانية من فرسان قلعة رباح، وشنب ياقب، والإستبارية والداوية، وبعض جند الحدود القشتالية، ويقود هذه الفرقة الكونت "جونزالو نونيز دي لارا".
- 3 - والفرق الثالثة وتتألف من جند وفرسان من قشتالة القديمة واشنترويش، وبسكونية، ويقودها الكونت "ردريك دياز كاميروس".
- 4 - وتتألف الفرقة الرابعة من الجند الاحتياطي من طليطلة، وبعض قوات ليون، ويقودها ألفونسو نفسه، فهو هنا يقلد تنظيمات المرابطين والموحدين، وكان يرافق القوات الاحتياطية فضلا عن المطران "ردريك الطليطلي"، عدة اساقفة من قشتالة وليون مع جندهم. وكان يقود الجناح الأيمن سانشو ملك نافارا، وفيه فرسان فرنسيون بقيادة أرنولد مطران أربونة، وجند جليقية والبرتغال وعلى رأسهم الأمير البرتغالي. أما الجناح الأيسر، فكان ينقسم أيضا إلى أربع فرق، ويتألف كله من قوات

(1) شوقي أبوخليل، معركة العقاب، ص35، الصلابي، دولة الموحدين، ص 194.

أراغون، ما عدا بعض جند المشاة القشتاليين، ويقوده الملك بيدروا، ومن حوله الأحرار والأراغونيون (1).

أما جيش الموحدين، فقد قسّمه أبو عبدالله محمد الناصر تجاه جيش النصرى في سهل "تولوزا" وفق الأوضاع الموحدية إلى خمس فرق:

كانت الفرقة الأمامية تتألف من المتطوعة، وهم الذين يتطوعون من تلقاء أنفسهم، وبدافع ذاتي محض للجهاد والموت في سبيل الله، ونشر الإسلام. وتقدرهم الرواية العربية بمائة وستين ألف مقاتل. واصطفت القوات الأندلسية في الميمنة، والقبائل البربرية في الميسرة، وأما القلب والقوات الاحتياطية فكانت تتألف من صفوة الجيش، من الجند المغاربة والنظاميين، أو بعبارة أخرى من الجند الموحدين. وضرب أبو عبدالله محمد الناصر قبّته الضخمة الحمراء في وسط الصفوف، ربط أمامها جواده المسرح. وقعد في داخلها على درقته، إيذانا باقتراب المعركة، ومن حوله حرس من مشاة وفرسان. وشهر الجند حراهم في اتجاه معسكر النصرى الأسبان ومن معهم من قوات أوربية صليبية، فكانت سدا منيعا دون اختراقه الموت.

ولما تمّت استعدادات المعركة، خرج سلطان الموحدين من قبّته وهو يرتدي عباءة سوداء من مخلفات جده عبدالمؤمن وقد رفع المصحف الشريف باحدى يديه، وشهر سيفه بالأخرى بينما كان قرع الطبول الضخمة يدوي بشدة في ساحة المعركة وسارع جند المتطوعة المسلمين للقتال وطلب الشهادة في سبيل الله وكان هجومهم عنيفا قويا ولكنهم لم يستطيعوا أن يخترقوا صفوف النصرى التي كانت مدعومة بجماعات الفرسان الدينية - الإستبارية والدواوية - فاستطاعوا أن يردوا جموع المسلمين، وأن يمزقوها. واستشهد ألوف من المسلمين في سبيل الله والإسلام، ولكن القشتاليين حينما عمدوا إلى مطاردة المتطوعة المسلمين، وتقدّموا بذلك ظافرين من قلب الجيش الإسلامي، حيث حُشدت صفوة الجند، لقوا أشد مقاومة، وسرعان ما اضطروا إلى مغادرة مراكزهم الأمامية، وارتدوا فارّين، فتابعهم الفرسان المسلمون في ارتدادهم وفرارهم (2).

ولما رأى ملك قشتالة من الرّبي تطور المعركة على هذا النحو السيئ، أراد أن

(1) يوسف أشياخ، تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، 117/2.

(2) شوقي أبوخليل، معركة العقاب، ص35، يوسف أشياخ، تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، 117/2، الصلابي، دولة الموحدين، ص194.

يسير بنفسه على رأس الجنود اللبنيين والطليليين، وهم جماعة مختارة كانت تؤلف القوة الاحتياطية، وأن يقتحم الميدان ليحاول محاولة اليأس الأخيرة، وكانت كلماته التي قالها لمطران طليطلة وهي: "إن الساعة قد حانت لتلقي الموت المجيد".

تدل على أنه لم يكن يأمل النصر بعد. ولكن اعتراضات المطران ردت ألفونسو عن أن يخوض بنفسه أعظم الأخطار، وأرسلت في الوقت ذاته قوات من أشجع الجند لإمداد الجيش المرتد، وسار الأبحار أنفسهم على رأس الجند إلى قلب المعركة، وهم يرفعون أعلاما عليها صورة المسيح، يثيرون بذلك أعظم الحماسة الصليبية في نفوس جندهم.

وانتهزت جماعات الفرسان والجند الجبليين فرصة تقدم الامدادات الجديدة، ليلموا شعثم، وينظموا جموعهم، ثم عادوا فاستأنفوا زحفهم بمؤازرة القوى الجديدة، وهم يحطمون كل مقاومة في اتجاه قلب الجيش الاسلامي، حيث كان الناصر لدين الله وحرسه، وفي الوقت الذي ضربوا فيه هجومهم على السلاسل الحديدية التي احتشدت من ورائها ألوف مؤلفة من الحراس شاهرين الحراب، كان جناح الجيش الإسلامي قد حُطِّمًا، ذلك أنه ما إن بدأت الموقعة حتى ركن الأندلسيون الذين كانوا يقتتلون مرغمين مع الموحدين إلى الفرار، وترتب على ذلك أن وقع اضطراب عظيم في الجيش الإسلامي، ولم يصمد في ذلك القتال إلا جند الموحدين النظاميين، والحرس المغاربة، فقد صمدوا في مقاومة هجمات النصارى، وصدوهم في كل ناحية بشجاعة فائقة، وبسالة نادرة، ورجولة فريدة، وجلد لا مثيل له، ولكن الدائرة حطمت وأصبح نصر النصارى لا مفر منه وحاول الناصر لدين الله أن يلهب مشاعر جنوده ويذكي حماسهم حتى اللحظات الأخيرة مع نفر من جنوده واتجاه نحو بياسة ولكنه لم يقف بها، بل سار منها إلى أشبيلية.

لقد كانت هذه المعركة الخاسرة للمسلمين السبب في هلاك الأندلس وبداية أفول شمس الإسلام في الأندلس، حيث كانت النهاية، أو نهاية البداية مصرع غرناطة.

لقد كانت حشود النصارى في معركة العقاب ضخمة جدا وكانت التعبئة والنفير العام على مستوى أوربا كلها يدفعهم الحقد الصليبي، للانتقام من المسلمين والقضاء على شوكتهم وإضعاف قوتهم (1).

(1) شوقي أبوخليل، معركة العقاب، ص39، يوسف أشياخ، تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، 118/2، الصلابي، دولة الموحدين، ص195.

لقد استشهد في هذه المعركة الألوف من المسلمين ومن العلماء العاملين المجاهدين ومن أشهر هؤلاء العلماء:

1 - أبو عمر أحمد بن هارون بن عات النضري (542 - 609 هـ). من أهل شاطبة، صاحب التأليف الذي "كان أحد الحفاظ للحديث، يسرد المتون والأسانيد ظاهراً، لا يخل بحفظ شيء منها. مو صوفاً بالدراية والرواية، غالباً عليه الورع والزهد، على منهاج السلف، يأكل الجشب، ويلبس الخشن، وربما اذن في المساجد، وله تأليف دالة على سعة حفظه، مع النظم والذثر.. ثم توجه إثر ذلك غازياً. وشهد وقعة العقاب التي أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها. وكانت السبب الأقوى في تحيف الروم بلادها حتى استولت عليها ففقد حينئذ ولم يوجد حياً ولا ميتاً وذلك يوم الاثنين منتصف صفر سنة تسع وستمائة..".

2 - القاضي الفقيه أبو ابراهيم إسحاق بن يعمر المجابري. من سكان فاس الذي تولى قضاء سبتة ثم بلنسية "فقد في كائنة العقاب يوم الإثنين الرابع عشر لصفر سنة 609".

3 - أبو الصبر أيوب بن عبدالله الفهري. من أهل سبتة، الذي "استوسع في الرواية. وكان معروفاً بالزهد، واستشهد في كائنة العقاب".

4 - أبو محمد تاشفين بن محمد المكتب، من أهل فاس "كان زاهداً، عابداً، معلماً بالقرآن له حظ من قرض الشعر، ودخل الأندلس غازياً وقدم قرطبة في ذي الحجة سنة 608، فاقام هنالك أياماً يلقي الزاهدين.. ثم خرج إلى غزوة العقاب. ذكره ابن الطليسان وقال: أراه استشهد بها فإنه انقطع عني خبره..".

5 - أبو عبدالله محمد بن ابراهيم الحضرمي، من أهل اليُسَّانة عمل قرطبة "ولي قضاء موضعه مدة طويلة، مضافاً ذلك إلى الصلاة والخطبة بجامعة. وله تأليف في رجال الموطأ...، واستشهد في وقعة العقاب منتصف سنة 609".

لقد كان ديدن العلماء المسلمين وفقهائهم وقضاتهم تصدر المقدمة عند الأحداث والملمات وفي المخاطر ويتسابقون في بذل دمائهم وأرواحهم من أجل الإسلام والمسلمين⁽¹⁾.

* * *

ثالثاً: أسباب الهزيمة في العقاب

1 - الإعجاب بالكثرة، وكأن غزوة حنين تتكرر بعد حوالي ستة قرون في هضاب الأندلس. إن الثقة بآلاف الجند، وبمقدرة القادة، وأفقد الجند اعتمادهم على الله سبحانه، وهذا يفسر لنا عبارة الناصر لدين الله التي قالها قبيل اندسحابه، ألا وهي: “صدق الرحمن وكذب الشيطان” (1).

2 - لم يكن التكتيك الحربي على مستواه المطلوب ولم تكن المجالس الاستشارية ذات قيمة بالنسبة للناصر لدين الله ولذلك رفض نصيحة أصحاب الخبرة برفع الحصار على سلبطرة وأخذ براي الوزير أبي سعيد بن جامع الذي أصر على ملازمة الحصار واستمر لمدة ثمانية أشهر، وتعرض الجيش الموحد لأقصى عوامل الطبيعة ونقص التموين والمؤن بسبب الأخذ بالرأي الفردي وترك الرأي الجماعي.

3 - ضعف شخصية الناصر لدين الله الذي أصبح ألعوبة وخاتماً في يد الوزير أبي سعيد بن جامع.

4 - سبب مقتل أبي الحجاج يوسف بن قادس أمير قلعة رباح استياء في الجيش كله ولاسيما بين جند الأندلس لعلمهم أن ابن قادس قد بذل كل المستطاع، وأن قتله لم يقع إلا بتحريض الوزير الذميم، كل هذا مهد للفرار وانسحب الاندلسيون من المعركة وركنوا إلى ترك القتال بعد معارك قصيرة وكان هذا الانفصال الغير متوقع من أسباب وعوامل الهزيمة النكراء.

5 - إصرار ملك قشتالة على الانتقام من هزيمة الأرك وأخذ بكافة الأسباب التي تعين على تحقيق النصر الحاسم، فعمل على توحيد الجبهة الداخلية وطلب إمدادات من البابا ومن ملوك أوربا وجعل الحرب مقدسة من أجل العقيدة.

6 - الثورات التي حدثت في المغرب مع بني غانية جعلت الموحيدين ينفقون فيها نفائس أموالهم ويقدمون خيرة رجالهم.

لقد فقد المسلمون ثلث قواتهم في هذه المعركة وقام النصارى بقتل كل الأسرى الذين وقعوا بين أيديهم وباشر ألفونسو احتلال حصون المسلمين والمدن: فرال، تولوزا، بياسة، بلقيس، بانيوس، وأبدا التي أعملوا السيف في رقاب أهلها وحطموا كثيراً من مبانيها، بنينا كان الرهبان والقساوسة يرتلون الصلوات فرحاً بنكاية

المسلمين، ولولا الأمراض التي فتكت بجيوش النصارى لتابعوا بطشهم بالمسلمين، فاضطروا إلى الرجوع إلى طليطلة حاملين مئات الأسرى من النساء والصبيّة، ولكن بعد ارتكابهم المجزرة الرهيبة (1).

لقد كانت المجزرة اللا إنسانية في مدينة بياسة. يقول أشباخ في تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (2): " ولم يكن في بياسة سوى المرضى والضعاف، والظاهر أنها كانت بمثابة المستشفى للجيش، وكان هؤلاء التعساء قد احتشدوا في مسجد المدينة الكبير ينتظرون مصيرهم جزعين، فشاءة قسوة النصارى أن يجهزوا عليهم جميعا بالسيف، ما عدا قلائل منهم أخذوا أسرى، بل ذهب النصارى الذين أعمتهم نشوى الظفر في قسوتهم وبتشهم إلى أسفل درك، حينما هاجموا مدينة أبدة التي اعتصم بأسوارها القوية بعض فلول الجيش المنهزم وسكانها العزل، وكان المسلمون يأملون نظرا لمناعة المدينة الطبيعية والحربية أن يردوا هجمات أعدائهم حتى يحل فصل الشتاء (3).

ونظّم النصارى في الواقع على المدينة هجوما عاما خسروا فيه كثيرا من القتلى ولم يسفر عن أي نجاح، لولا أن استطاع الأرغونيون أن يتسلقوا الأسوار في أضعف نقطة فيها، وأن يحتلوها، ولكن القلعة وباقي أطراف المدينة بقيت على ثباتها رغم جهود الأسبان، وعندئذ رأى الملوك، أن خير الطُرق وأكثرها إنسانية هي أن يقبل النصارى ما عرضه المسلمون، وكان المسلمون حينما سقطت بعض أجزاء السور في يد الأرغونيين قد خشوا العاقبة، وأرسلوا إلى ملوك النصارى يعرضون عليهم فدية قدرها ألف ألف قطعة من الذهب " مليون دينار "، على أن يتركوا المدينة حرة يسكنها المسلمون وفقا لشريعتهم وشعائر دينهم، وهكذا قبل العرض وعقد الملوك مع المدينة اتفاقات بهذا المعنى نظرا لما أنسوه من صعاب في افتتاحها.

ولكن الأخبار الضامنين إلى دماء المسلمين، أعلنوا بطلان هذا الاتفاق، وطلبوا أن تسلّم المدينة دون قيد أو شرط، فشاء ضعف الملوك أن ينقضوا العهد المقطوع، منتحلين لذلك عذرا هو أن المسلمين بعد أن فتحوا أبواب المدينة للنصارى، لم يؤدّوا الضريبة المضروبة عليهم في الحال، وسرعان ما أطلق النصارى العنان لقسوتهم في معاملة هؤلاء المنكودين، فقتل من في أبدة زهاء ستين ألفا، وسُبي مثل هذا العدد،

(1) انظر: العقاب ص52.

(2) انظر: تاريخ الأندلس ليويسف أشباخ (123/2).

(3) الصلابي، دولة الموحدين، ص 202.

وهُدمت الدور بعد أن خلت المدينة من سكانها، وعندئذ أبدى الأحرار رضاهم، ورتّلوا أناشيد الشكر ضارعين إلى المولى أن يشملهم برحمته “ (1).

أين هذا من سماحة الإسلام ورحمته وإنسانيته ووفاءه للعهود واحترامه للأديان؟!.

قال الشاعر:

ملكنا فكان العدل منا سجية :: فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحللتهم قتل الأسارى وطالما :: غدونا على الأسرى نمّن ونصفح
فحسبكم هذا التفاوت بيننا :: وكل إناء بالذي فيه ينضح (2)

لم تكن موقعة العقاب سببا في تحطيم قوى السلطان الناصر بالأندلس فقط ولكنها أدت فوق ذلك إلى تدمير سلطان الموحدين في المغرب أيضا. فقامت دويلات في المغرب وبدأ عصر ظهور ملوك الطوائف الثاني بعد الموحدين وآل الأمر إلى سقوطها بيد النصارى.

جاء في نفح الطيب: كانت العقاب سبب ضعف المغرب والأندلس، أما المغرب فبِخلاء كثير من قُراه وأقطاره، وأما الأندلس فبطلب العدو لها.. (3). وبعد هزيمة العقاب غادر الناصر لدين الله ميدان الحرب الذي غص بالقتلى من جنده مسرعا إلى أشبيلية، وهناك صب حمام غضبه على شيوخ الموحدين المحليين وسحقهم وأذل القادة والزعماء وفصل وعين ثم رجع إلى الأندلس حزينا وكئيبا ولكي يذسى حزنه وكدره قضى بقية أيامه في الملذات والشهوات ولم يقدّم بشيء من شؤون الحكم سوى أن عين لولاية عهده ولده أبا يعقوب يوسف الملقب بالمستنصر بالله وكان يومئذ طفلا في العاشرة من عمره ولما انتهى من هذا التعيين، ترك شؤون الحكم كلها للطفل ووزرائه واعتكف في قصره وحدائقه بمراكش، وأطلق العنان لأهوائه وملأه وقضى أمدا لا يجاوز العام في هذا اللهو الصاخب ثم دس له خدمه السم وتوفي مسموما بأمر من وزرائه، لأنه كان قد عزم على قتلهم، فعاجلوه بالقتل. فمات ولما يجاوز الرابعة والثلاثين من عمره في 11 شعبان 610 هـ / 25 كانون الأول “ ديسمبر “ سنة

(1) انظر: العقاب ص53.

(2) عبدالله علوان، صلاح الدين بطل حطين، ص84.

(3) المقري، نفح الطيب 420/1.

1214 م، بعد أن حكم خمسة عشر عاما وبضعة أشهر (1).

وبعد موت السلطان الناصر بدأ الانحدار في دولة الموحدين والصراع الداخلي والأهداف الخسيسة تظهر بين زعماء الموحدين.

والذي يقلب صفحات تاريخ تلك الفترة من الدولة الموحدية يدرك مدى الخزي والعار والاستهانة بديار المسلمين من أجل تحقيق مصالح شخصية على حساب الشعوب والعقيدة والمقدرات وهكذا توضع أمور الدول في يد أشخاص يخونون الله ورسوله وقرآنه وشعوبهم بعد أن ماتت ضمائرهم، فجدد هنا إدريس المأمون بن المنصور يزحف من الأندلس ويقرر العبور إلى المغرب معتمدا على محالفة العرب ومعاونة قوات مسيحية من جنود قشتالة يقدر عددها بخمسمائة فارس مقابل التنازل عن عشرة حصون بالأندلس لمملكة قشتالة وقبوله ببناء كنيسة في مراكش تجاور جامع القرويين وهكذا دخلت دولة الموحدين في صراع داخلي عنيف كلف الموحدون دماء وأموالا، وتفككا داخليا وسقطت دولة الموحدين بعد فترة طويلة من الصراع والانحدار والضعف عام 668 هـ/1269م رغم أن الدولة كانت قد انتهت فعلا عام 1212م وليس عام 1269م إذ أن الدولة استمرت تمارس وجودها طوال سبعة وخمسين عاما بعد معركة العقاب ولكنها لم تكن دولة بمعنى الكلمة إذ بدأت عوامل الانهيار والانقسام والتفكك تنتاب الدولة وأخذت تتهاوى مع الأيام حتى كانت أيامها الأخيرة على أيدي بني مرين ومن قبلهم بني عبدالواد في تلمسان وبني حفص في تونس (2).

* * *

يوسف بن محمد المستنصر بالله

خلف والده محمد الناصر في 11 شعبان 610 هـ / 1213م وهو في السادسة عشرة من عمره، وفي عهده حدث أمر لم يكن في الدسبان، فقد وفد علي مراكش اليهودي إبراهيم بن الفخار وزير ملك قشتالة بشأن عقد هدنة رحب بها الخليفة وأرسل الكتب إلى عمال الأندلس يطلب منهم الالتزام بشروط الهدنة مع قشتالة (3).

(1) انظر: العقاب ص57، الصلابي، دولة الموحدين ص 204.

(2) الصلابي، دولة الموحدين ص 204، 205.

(3) المعجب، ص 184، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي ص 343، 344.

وفي عام 614هـ / 1217 م تمكن نصاري الأندلس بالاستعانة بأسطول الألمان الصليبي من السيطرة علي الثغر وقتلوا من به من المسلمين وتقاعس مسلموا الأندلس عن نجدة إخوانهم، فكان المصير السيئ لأهل الثغر.

وتلا ذلك سقوط قاصرش الواقعة في شمال ماردة في يد ملك البرتغال في سنة 622 هـ / 1223 م، بعد أن أجهدتها بالحصار الخانق وكرر هجماته المدمرة عليها، وحدث سنة 618 هـ / 1220 قدوم سفير قشتالة إلى مراكش لتجديد الهدنة، فأبرمت المعاهدة (1).

وتوفي الخليفة المستنصر فجأة نهار السبت 12 ذي الحجة 620 هـ دون وريث فاتفق الموحدون علي مبايعة السيد أبي محمد عبد الواحد بن الخليفة المنصور وهو في الستين من العمر (2).

(1) روض القرطاس، ص 273، الروض المعطار، ص 162.

(2) نفح الطيب، 6 / 117، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 344.



نتيجة لضعف السلطة المركزية داخل الدولة الموحدية، وتناحر عناصرها، اغتصمت المراكز البعيدة الفرصة وانفصلت، فخرجت الأندلس عن طاعة الموحدين وتبعتها أفريقية، وتقلص نفوذ الموحدين بالمغرب الأقصى نفسه حتى سقطت عاصمتهم في يد المرينيين.

ففي فترة الانحلال ازداد ضغط الممالك المسيحية على الأراضي الأندلسية:

أرغون من الشرق وقشتالة من الشمال والبرتغال من الغرب، وظهر في شرق الأندلس أبو عبد الله محمد بن هود في رجب 625 هـ/1228 م في مرسية وحكم تحت شعار العباسيين وسيطر بن هود على معظم الأندلس وخلع أهل الأندلس طاعة الموحدين وقتلهم في كل بلد منها وأجلوهم واستأصلوهم إلا من ستره الله منهم وأخفاه في ذلك الوقت عنهم (1).

ودخلت الأندلس في دور طوائف ثالث فقام 626 هـ/1229 م زيان بن مردنيش وفي سنة 630 هـ/1233 م ثار محمد بن يوسف بن الأحمر بأرجونة ونازع ابن هود على زعامة الأندلس فما جاء عام 636 هـ/1239 م إلا وقد سيطر على غرب الأندلس (2).

زالت هيبة الموحدين من نفوس الأندلسيين وتحولوا شطر تونس حيث القوة الموحدية الجديدة بقيادة الحفصيين واضطرت الأندلس لمجابهة النصاري منفردة، فابتلعوها ماعدا دولة بني نصر في غرناطة، وسقطت حواضر الأندلس واحدة تلو الأخرى، فسقطت قرطبة عام 633 هـ/1236 م وبلنسية في عام 636 هـ/1239 م، ومرسية 644 هـ/1246 م وأشبيلية 646 هـ/1248 م وكان هذا السقوط المريع في مدة قصيرة جداً.

وانفصلت أفريقية سنة 627 هـ/1230 م، وقد ساعد على قيام دولة الحفصيين بها بعدها عن العاصمة، ثم إن الصراع والثورات والفتن جعلت أهل المدن يتشوقون للاستقرار والأمن فوجدوه مع الحفصيين، وبخاصة أن لهم سابقة وفضلاً في الدعوة وبناء الدولة الموحدية بالمغرب، وواتتهم الفرصة لما تنكر المأمون للدعوة المهدية وأزال رسومها، فجاء أبو زكريا بن أبي محمد عبد الواحد الحفصي إلى تونس وسيطر عليها، واستقل بها، واتبع نظم الموحدين وكتب للجهات بطلب البيعات (3).

وفي الوقت نفسه انفصلت فيه الأندلس، وأفريقية بدأت أحوال الخلفاء في المغرب تضطرب والولايات تستقل، فسيطرت قبائل بني مرين على بوادي المغرب، وانفصل بني عبدالواد في تلمسان، واستقل الحفصيون في تونس

(1) البيان المغرب، 269/3.

(2) دراسات في تاريخ المغرب الاسلامي ص108.

(3) دراسات في تاريخ المغرب الاسلامي ص109.

وطرابلس فهذه الانقسامات ساهمت في إضعاف الدولة الموحدية (1).

* * *

(1) دولة الموحدين، ص 205 - 206.

الفصل التاسع:

عصر بني الأحمر (مملكة غرناطة) وسقوط الأندلس
(630 - 897 هـ / 1233 - 1492 م)

محمد بن محمد بن يوسف الفقيه 671 - 701 هـ

السلطان محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن الأحمر: / نصر بن محمد بن
الفقيه:

السلطان أبو الوليد إسماعيل (713 - 725 هـ / 1314 - 1325 م):

السلطان محمد بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف - أبو عبد الله -
(725 - 733 هـ / 1325 - 1333 م):

السلطان أبو الحجاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل (733 - 755 هـ / 1333 -
1354 م):

- موقعة طريف:

السلطان محمد بن يوسف بن إسماعيل: يوسف بن محمد الفقيه - يوسف
الثاني، أبو الحجاج - (793 - 797 هـ / 1391 - 1394 م):

السلطان محمد بن يوسف بن الغني بالله: (797 - 808 هـ / 1394 - 1405 م):

السلطان يوسف بن يوسف بن الغني بالله (811 - 820 هـ / 1408 - 1417 م):

السلطان محمد بن يوسف - الأيسر - (820 - 846 هـ / 1417 - 1442 م):

يوسف بن الحول: محمد بن نصر (الأحنف):

سعد بن محمد (863 - 868 هـ / 1458 - 1463 م):

علي بن سعد - أبو الحسن - (868 - 878 هـ / 1463 - 1482 م):

أبو عبد الله الصغير / وصف حي لتسليم غرناطة: / محاكم التفتيش:

القواعد النصرانية الإسبانية في معاملة من أكرهوا على النصرانية:

أهم أسباب سقوط غرناطة والأندلس عموماً

* * *

بعد وفاة الخليفة يوسف المستنصر بالله سنة 620 هـ دون وريث بايع الموحدون عبدالواحد بن يوسف بن عبد المؤمن، ولكن ثار عليه عبد الله بن يعقوب والي مرسية وأعلن نفسه خليفة وتلقب بالعدل في صفر 621 هـ وبايعه ولاية الأندلس وكانو إخوته، وعين الخليفة الجديد أخاه أبا العلاء إدريس علي إشبيلية، وعبر إلى المغرب سنة 622 هـ ولكن أبو العلاء خلع طاعة أخيه العدل ودعا لنفسه في إشبيلية وتلقب بالمأمون، عندها ثار الموحدون علي العدل وقتلوه وعينوا مكانه يحيى ابن أخيه الناصر سنة 624 هـ، فلجأ المأمون إلى ملك قشتالة فرناندو الثالث طالب منه المساعدة لقاء مبلغ كبير من المال مع منح امتيازات للنصاري في مراكش منها السماح لهم ببناء كنيسة، فأمد فرناندو بقوة نصرانية عبرت معه إلى المغرب سنة 626 هـ / 1228 م، ودارت معركة مع الخليفة يحيى الذي انهزم ودخل المأمون ظافرا إلى مراكش، ثم توفي فجأة في ذي الحجة سنة 629 هـ / 1232 م فخلفه ابنه عبدالواحد وتلقب بالرشيد.

نتيجة لهذا الصراع بين الموحدين انهار حكمهم في الأندلس، وبرز زعيم أندلسي هو محمد بن هود من أحفاد حكام سرقسطة استغل الأوضاع المتردية في الأندلس فأخذ يدعو إلى تحرير الأندلس من الموحدين والنصاري، وهذا ما دفع الأندلسيين إلى تأييده والانضمام إليه، وعندما أنس من نفسه القوة هاجم مرسية سنة 625 هـ / 1228 م وانتزعها من حاكمها الموحد أبي العباس، فاشتد ساعده واتصل بالخليفة العباسي المستنصر بالله ودعا له، فأرسل إليه الخلع والهدايا والرايات، وعندها تلقب بالمتوكل علي الله، ثم دخلت في طاعته جيان وماردة وقرطبة وبطليوس وغرناطة سنة 628 هـ / 1231 م وكانت خاضعة للخليفة الموحد المأمون (1).

وبالرغم من أن ابن هود قد حاول جاهدا إيقاف المد النصراني، وصد الغارات القشتالية، وتكوين أحلاف مع أمراء الطوائف الجدد ولكن كان تيار الفرقة والاختلاف أكبر من أن يقف منفردا في وجهه، وقد خاض مع نصاري الأسبان أكثر من موقعة فاصلة خرج منتصرا في بعضها، ولكن أيام الإسلام في الأندلس كانت مدبرة، والأرض تميد من تحته، وبعد حياة حافلة بالقتال في عدة جبهات، توفي ابن هود في ثغر المرية علي يد وزيره ونائبه فيها أبي عبد الله محمد بن عبد الله الرميي. وتفصيل

(1) روض القرطاس، ص 274، نفح الطيب، 1 / 421، ابن خلدون، 4 / 168، الإحاطة، ص 146، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 348.

ذلك أنه كان لابن هود جارية نصرانية تركها لدي الوزير الذي استأثر بها وخشي العاقبة، فاغتال سيده في 24 من جمادي الأولى سنة 635هـ / يناير 1238 م⁽¹⁾.

وكانت مملكة قشتالة النصرانية الإسبانية تتابع مما يدور في أراضي المسلمين بواسطة أجهزة استخباراتها التي استطاعت أن تجند رجالاً يعملون لحسابها، فرأت أن الفرصة حانت لتوجيه ضربة مميتة للمسلمين في الأندلس، فبدأت هجومها بالفعل، وكان احتلال قرطبة في 23 شوال 633 هـ / 29 حزيران (يونية) 1236م، صحيحة النذير المدوية، لقد كان سبب سقوط قرطبة المعاصي والآثم والابتعاد عن منهج الله العظيم، وبالتالي اصابهم الضعف ودخلوا في الفوضى والنزاع والخلاف، فقادهم ذلك إلى فقد الأوطان والأرض ومن ثم ضاعت الحضارة والتراث والإسلام وبدأت مدن الإسلام الكبرى تتساقط في يد النصارى، فسقطت بلنسية عام 636 هـ / 1238م ثم شاطبة ودانية وفي عام 646 هـ سقطت أشبيلية بعد حصار شديد ودفاع من المسلمين مجيد ودام الحصار ثمانية عشر شهراً، أبدى فيها المسلمون آيات من البسالة والجلد والدفاع عن أشبيلية، وأخيراً جاء مصير أسود محدثوم واستسلمت المدينة لفرديناند الثالث، على أن يُخير المسلمون بين البقاء في أشبيلية، أو يهاجروا وفي الحال حُول مسجدها الجامع إلى كنيسة، وأزيلت منها معالم الإسلام وتوزع أهلها في الحواضر الإسلامية الباقية.

لقد كان سقوط أشبيلية ايذاناً بسقوط سائر المدن والحصون الإسلامية فيما بينها وبين مصب الوادي الكبير فاستولى النصارى تباعاً على: شريش، شذونة، قادس، شلوقه، غليانة، روضة، ثغر شنتمرية، وغيرها.... وتحالف ابن الأحمر مع النصارى وعاونهم في الاستيلاء على قادس وبهذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر الأراضي الإسلامية في غربي الأندلس، وانكشفت رقعة الدولة الإسلامية بسرعة مروعة⁽²⁾.

ويصف الشاعر أبو البقاء صالح بن شريف الرُّندي تلك الأوضاع التي وصل إليها حال الأندلس قائلاً:

لكل شيء إذا ماتم نقصان :: فلا يغربطيب العيش إنسان

(1) ابن خلدون، 4 / 169، نفح الطيب، 6 / 208.

(2) ابن خلدون، 4 / 129، روض القراطس، ص 275، نفح الطيب، 6 / 409 - 422، سقوط غرناطة ص 30، دولة الموحدين، ص 221.

هي الأمور كما شاهدتها دولٌ :: من سرّه زمن ساءته ازمان
وهذه الدار لا تبقي على أحدٍ :: ولا يدوم على حال لها شأن
أين الملوك ذوو التيجان من يمن :: وأين منهم أكليّل وتيجان
أتى على الكل أمرٌ لا مرّد له :: حتى قضوا فكأن القوم ماكانوا
فجائع الدهر أنواع منوعة :: وللحوادث سلوانٌ يسهلها
وهي الجزيرة أمرٌ لا عزاء له :: هوى له أخذٌ وانهد ثهلان⁽¹⁾
أصابها العين في الإسلام فامتعت :: حتى خلت منه أقطار وبلدانٌ
فاسأل بنسبة ما شأن مُرسية :: وأين شاطبة أم أين جيانٌ
وأين قرطبة دار العلوم فكم :: من عالم قد سما فيها له شأنٌ
وأين حمصٌ وما تحويه من نُزّه :: ونهرها العذبُ فياض ومالانٌ
قواعدٌ كُنَّ أركان البلاد فما :: عسى البقاء إذا لم تبق أركان
تبكي الحنفية البيضاء من أسف :: كما بكى لفراق الإلف هيمانٌ
على ديار من الإسلام خالية :: قد أفقرت ولها بالكفر عُمرانٌ
حيث المساجدُ قد صارت كنائس ما :: فيهن إلا نواقيس وصُلبانٌ
حتى المحاريبُ تبكي وهي جامدةٌ :: حتى المنابرُ ترثي وهي عيدانٌ
ياغفلاً وله في الدهر موعظة :: إن كنت في سنة فالدهر يقظان
وماشياً مرحاً يُلْهِيه موطّنه :: أبعد حمص تفرّ المرء أوطان
تلك المصيبة أنست ما تقدمها :: ومالها مع طول الدهر نسيان
يا أيها البيضاء رايتُ به :: أدرك بسيفك أهل الكفر لا كانوا
ياراكبين عتاق الخيل ضامرةً :: كأنها في مجال السبق عُقبانٌ
وحاملين سيوف النهدي مَهْفَةٌ :: كأنها في ظلام النقع نيران
ورائعين وراء البحر في دعة :: لهم بأوطانهم عز ووسطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس :: فقد سرى بحديث القوم رُكبانٌ
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم :: قتلى واسرى فما يهتَزُّ إنسانٌ
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم :: وأنتم يا عباد الله إخوان
ألا نفوس أياتٌ لها همَمٌ :: أما على الخير انصار وأعوان

(1) أحد وثهلان: جبلان.

يامن لِدَلَّةِ قومٍ بعد عزهم :: أحوال حالهم كفر وطغيان
 بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم :: واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
 فلو تراهم حيارى لا دليل لهم :: عليهم من ثياب الذل ألوان
 ولو رأيت بكاهم عند بيعهم :: لهالك الأمر واستهوتك احزان
 ياربُّ أم وطفل حيل بينهم :: كما تفرقت ارواح وأبدان
 وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت :: كأنما هي ياقوت ومرجان
 يقوُّذها العِلج للمكروه مُكرهة :: والعين باكية والقلب حيران
 لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ :: إن كان في القلب إسلام وإيمان⁽¹⁾

وفي هذه الظروف القاسية التي أخذت فيها الأندلس تواجه مصيرها المحتوم بالفناء بعد سقوط قواعدها المهمة قامت دولة عربية في جنوب الأندلس قادت الصراع مع الأندلس مدة قرنين ونصف من الزمان، تلك هي مملكة غرناطة، وكان صمودها واستمرارها يعود إلى عوامل جغرافية وبشرية، إذ أن موقعها إلى جنوب نهر الوادي الكبير الذي يشكل حاجزا طبيعيا بين الأسبان والعرب، وفي الوقت ذاته أن موقعها قريب إلى عدوة المغرب حيث كانت الإمدادات والنجدات تصلها وتدعم صمودها.

وغرناطة مدينة صغيرة من أعمال ولاية البيرة، فتحها العرب سنة 92 هـ / 712م، وقد أقطعها أبو الخطار والي الأندلس في عهد هشام بن عبد الملك إلى جند الشام الذين استقروا بها.

وبعد سقوط الخلافة الأموية وانقسام الأندلس إلى دول الطوائف كانت غرناطة من نصيب البربر الصنهاجيين، فقد استولي عليها زاوي بن زيري الصنهاجي، وحاول المرتضي الأموي أخذها منه لاتخاذها عاصمة له فصدّه ابن أخيه دبوس بن ماكسن، وبعد وفاته سنة 429 هـ خلفه ابنه باديس وتلقب بالمظفر، وظل يحكمها حتى وفاته سنة 476 هـ وخلفه في حكمها حفيده عبد الله بن بلكين بن باديس، ثم ضمها المرابطون سنة 483 هـ، واستمرت تحت حكمهم حتى استولي عليها الموحدون 551 هـ / 1156 م وظلوا يحكمونها حتى كانت ثورة محمد بن يوسف بن هود عليهم بعد انهيار دولتهم فخضعت له⁽²⁾.

(1) نفح الطيب 486/4، 487، 488.

(2) ابن خلدون، 4 / 168.

وابن الأحمر هو أبو عبدالله الغالب بالله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خمسين ابن نصر بن قيس الخزرجي. يرجع في نسبه إلى سعد بن عُبادة الأنصاري، أحد كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان نقيباً شهد العقبة وبدراً (1).

ولد محمد بن يوسف في مدينة أرْجُونة من حصون قرطبة في جهة الشرق سنة 591 هـ، (1195م) وهو عام الأرك. كان جندياً وافر العزم والجرأة، ولما كثرت غزوات الأنصاري لأراضي الأندلس رأى الفرصة سانحة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، فالتف حوله الأنصار في أراجونة والمناطق المجاورة لها، ودخلت في طاعته جيان وبسطة ووادي آش، والحصون القريبة، دعا لهم الشمل، فاجتمع حوله الكثير، ورأى أن يستغل بدعوة خلفاء المسلمين فدعا لأبي زكريا الحفصي حاكم إفريقية وللخليفة العباسي المستنصر، وأيدته قرمونة وقرطبة وإشبيلية سنة 629 هـ ثم عدلت قرطبة وإشبيلية إلى طاعة ابن هود، ودخلت في طاعته شريش ومالقة والحصون القريبة منه، وانضم إليه كثير من المسلمين الذين غادروا المناطق التي احتلها الأسبان، فاستطاع تجهيز جيش كبير ساعده علي تنفيذ مشاريعه (2).

لقد نجح هذا السلطان في تأسيس دولة غرناطة في الأندلس وكان لقيام هذه الدولة وثباتها عدة أسباب منها:

1 - موقعها الجغرافي، حيث كانت في الزاوية الجنوبية لشبه الجزيرة الأندلسية التي قد تبدو منقطعة، حيث البحر من الجنوب والعدو من الشمال فكانت مملكة غرناطة أبعد مكاناً بالنسبة لمدن الأندلس للوقوع في يد عدو الأندلس من حيث الموقع ومن حيث قربها من بلاد المغرب وعدم وجود خط معادٍ أمام مسلمي غرناطة، يقف حائلاً دون إعانة المغاربة في الشمال الإفريقي لإخوانهم في الدين والعقيدة.

2 - ظهور دولة بني مرين في المغرب وكان من أهدافها الكبرى مواصلة الجهاد في الأندلس ولذلك لم تبخل بالوقوف بكل ماتملك من جهد لدعم مملكة غرناطة ضد النصاري في الأندلس، فقامت دولة بني مرين بالمرابطة والجهاد مع مسلمي الأندلس، فكان لهذا العمل الجليل أهمية بالغة في الحفاظ على الأندلس.

3 - هجرات المسلمين في الأندلس من مدنهم التي سقطت إلى مملكة غرناطة وأصبحت لهم ملاذاً يحتمون به ويلجئون إليه، فكثرت في غرناطة أهل المهارات

(1) ابن خلدون، 4 / 17، نفح الطيب، 1 / 280.

(2) ابن خلدون، 4 / 169، روض القرطاس، ص 275، نفح الطيب، 4 / 422.

والكفايات والذين برعوا في كل الميادين العسكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية، فأضافت إلى قوات غرناطة قوات أخرى تتطلع إلى أن تعيش عزيزة أبيه وتضع حضارة منبثقة من دينها وعقيدها وتصورها وفكرها.

4 - حب الجهاد في سبيل الله تعالى فجر طاقات المجتمع الغرناطي المتطلع للصمود أمام الغزاة النصارى، لقد كان للعقيدة الإسلامية والمعاني الإيمانية أثراً مباشراً في بقاء تلك الدول الصغيرة وصمودها وجهادها أمام ممالك النصارى الحاكمة.

5 - براعة حكام غرناطة في الاستفادة من الصراع بين ممالك النصارى وتقوية النزاعات بينها والتدخل في هذه النزاعات ومناصرة فريق على فريق آخر (1).

6 - وكان يساعد ابن الأحمر في تحقيق مشاريعه أصهاره بنو أشقيلولة المولدين. كان زعيمهم أثناء الفتنة أبا الحسن بن أشقيلولة من زعماء الأندلس ومن خصوم ابن هود، فاحاز إلى جانب ابن الأحمر وأيد دعوته منذ قيامها، وتوطدت العلاقة بين الأسرتين بالمصاهرة، وقوي نفوذ ابن أشقيلولة لأنهم كانوا يطمعون بأكثر من حكم المدن التي أسندها لهم ابن الأحمر، مما جعل ابن الأحمر يخشاهم في آخر أيامه (2).

وغير ذلك من الأسباب.

وهكذا ولدت مملكة غرناطة من رحم الفوضى التي سادت الأندلس، وكانت بحاجة إلى الاستقرار بعد أن مزقت الفتنة الأندلس وجعلتها فريسة سهلة بيد الأعداء، فكان علي ابن الأحمر وقد أضحى أمل الأندلسيين أن يعمل علي إنقاذ الأندلس من الحالة التي آلت إليها علي يد حكامها المتخاذلين الذين كانوا يؤثرون الانضواء تحت لواء الملك الأسباني عن مناصرة ابن الأحمر، فكان هؤلاء الحكام الصغار يضحون بمقدساتهم ويخضعون للأسبان ويؤدون لهم الضرائب للبقاء في حكم مدنهم ومقاطعاتهم (3).

لقد غدر النصارى بحليفهم محمد بن يوسف الأحمر، فغزوا أراضيهم وشنوا عليه الحرب، فتغيرت حساباته وطمع إلى جمع كلمة الأندلس تحت لوائه ودمج ماتبقى من

(1) دولة الموحدين، ص 225.

(2) ابن خلدون، 4 / 170، روض القرطاس، ص 275، أعمال الأعلام، ص 287، نفح الطيب، 1 / 422.

(3) سعدون نصرالله، تاريخ العرب السياسي، ص 353.

تراثها وأراضيها في مملكة موحدة تكون ملكاً له ولعقبه، فصانع النصرى، وتجنب الاشتباك معهم، فشهد التهامهم لأشلاء الوطن الممزق وقلبه يفطر حزناً وأسى.

واستطاع هذا الرجل العجيب أن يؤسس دولة في الأندلس في غرناطة في الجنوب الشرقي في الأندلس حاول ابن الأحمر أن يواجه النصرى وخرج عن طاعتهم وأعلن النصرى الحرب عليه في عام 660هـ/1261م، فردّهم بمعاونة المجاهدين الذين قدموا من العدو المغربية، وهذا أول انتصار كبير منذ انهيار الموحدين. وفي عام 662هـ استطاع المرينيون بقيادة الفارس عامر بن إدريس فتح مدينة شريش وتخليصها من يد النصرى.

شدّد النصرى هجماتهم بدءاً من عام 663هـ وبدأت الهزائم تتلاحق على محمد بن يوسف بن الأحمر على يد (دون نوينو دي لارا) صهر ملك قشتالة، فبايع ابن الأحمر المستنصر صاحب تونس فبعث المستنصر لابن الأحمر هدية وعوناً، ولكنها لم تجد نفعاً، فسوء المصير لاح في الأفق، فاضطر ابن الأحمر أن يهادن ملك قشتالة ثانية في أواخر سنة 665هـ/1267م متناًزلاً له عن أكثر من مائة موضع معظمها غربي الأندلس، منها شريش والمدينة والقلعة.

ودخلت غرناطة في حرب داخلية بين ابن الأحمر وبعض أصهاره وهو أبو محمد بن أشقيلولة وكان في مالقة وتحالف ابن الأحمر مع الاسبان عام 665هـ/1267 وحاصروا أبا محمد بن أشقيلولة في مالقة ولكنهم لم ينالوا منه مأرب (1).

وفي عام 668هـ ساءت العلاقات بين ابن الأحمر وملك قشتالة الذي بدأ بالجزيرة الخضراء خراباً، فطلب ابن الأحمر الدعون من أمير المسلمين أبي يوسف المريني، ولكنه مات قبل أن يرى ما حدث، وذلك في 29 جمادي الثانية 671هـ (كانون الأول "ديسمبر" 1272م) إثر سقوطه عن جواده، وقد قارب الثمانين من عمره، ودفن بالمقبرة العتيقة بأرض السبيكة بعد أن وطّد الملك لبني نصر بقي زهاء مائتين وخمسين عاماً أخرى (2).

* * *

محمد بن محمد بن يوسف الفقيه 671 - 701هـ

(1) انظر: مصرع غرناطة ص33.

(2) نفح الطيب، 1 / 423.

تولى الملك في مملكة غرناطة بعد وفاة أبي عبدالله الغالب بالله، ابنه محمد الذي اتصف بخلال حسنة من القوة والعزم وبعد الهمة، وسعة الأفق، مع علم وأدب، وكان شاعراً فقيهاً، حتى أنه دعي باسم "محمد الفقيه"، وفي أول عهده تحركت قوات نصارى قشتالة بقيادة الفونسو العاشر للقضاء على غرناطة وضمها تحت مملكة قشتالة، فاتجهت أنظار المسلمين في غرناطة إلى نصرت المرينيين في المغرب، فأرسلوا إليهم طالبين منهم الغوث والنجدة والمدد وتوالت الكتب على سلطان المغرب (أبي يوسف يعقوب المريني من أهالي غرناطة يستنصرونه ويستدعونه إلى الجهاد، فخرج أبو يوسف من مدينة فاس ملبياً دعوتهم، وقاصداً نصرتهم، في النصف من شهر رمضان المعظم سنة 673هـ فصار حتى نزل مدينة طنجة، فكتب منها إلى الفقيه أبي القاسم العز في صاحب سبته يأمره بعمارة الأجنان⁽¹⁾ الغزواتية حتى يركبها المسلمون المجاهدون لتسير بهم نحو الأندلس، ثم دعا ابنه أبا زيان وجعله على رأس خمسة ألف من خيرة المجاهدين وأعطاه مالاً وبنوداً وطبوعاً وجهزه بكل ما يحتاج إليه، ثم عقد له لواء الجهاد، وأوصاه بتقوى الله في سره وجهره، ودعا له ووجهه، وانصرف الأمير أبو زيان بجيشه من طنجة إلى قصر المجاز، فركب الأمير مع جميع جيوشه من قصر المجاز، فنزل مدينة طريف من سواحل بلاد الأندلس، وكان جوازه في 17 ذي الحجة 673هـ، فأقام أبو زيان بطريف ثلاثة أيام حتى استراح الناس والخيول من هول البحر، ثم قصد منها الجزيرة الخضراء فغنمها وواصل السير في بلاد العدو حتى وصل إلى شريش، وهو يغنم ويفتح مأمراً عليه من القرى والحصون والبروج، وتهاوت مقاومة الأسبان أمام جيشه المظفر وجمع في طريقه غنائم ضخمة وقفل بها إلى الجزيرة فدخلها، ففرح أهلها بدخوله، وارتفعت معنوياتهم وقويت نفوسهم وهكذا استطاع الأمير أبو زيان - حامل راية والده المنصورة - أن يعز الإسلام ويذل النصارى الحاقدين في الأندلس.

وكانت غزوة أبي زيان غزوة ريادة واستطلاع، وعزم أبو يوسف يعقوب سلطان المرينيين على العبور بنفسه مع جيشه، فبعث سفارة يتزعمها حفيده تاشفين ابن الأمير أبي مالك إلى يغمراس بن زيان أمير تلمسان يطلب منه الصلح والألفة واجتماع الكلمة لكي يجاهد في الأندلس وهو مطمئن على بلاده آمن عليها، فوافق يغمراس على مبدأ الصلح فتم الصلح بين بني مرين وبني زيان (بني عبدالواد) وأبعد

(1) أي ببناء السفن.

الله عنهم التحاسد والتنافس والافتتال وجمع الله كلمة الإسلام وألف بين المسلمين.
وسر أمير المسلمين أبو يوسف بذلك سروراً عظيماً، وتصدق بصدقات كثيرة،
وكتب إلى زعماء بني مرين، وأمراء العرب، وشيوخ قبائل المغرب من المصامدة
وجزولة وصنهاجة وغمارة وجاناته يستنقزهم إلى الجهاد ثم ارتحل إلى قصر المجاز
674هـ وأخذ في إرسال المجاهدين إلى الأندلس بالخيال العتاق، والعدة الكاملة
والسلاح، فكان يبعث كل يوم قبيلة من بني مرين وطوائف من المطوعين وقبائل
العرب، فلما فرغ من إرسال بني مرين والعرب أخذ في إرسال أجناده، فكان الناس
يجوزون فوجاً بعد فوج، وقبيلة بعد قبيلة، فكانت السفن والمراكب غاديات ورائحات
أناء الليل وأطراف النهار، من قصر المجاز إلى طريف يزدهمون في ذلك المعبر.
قال الشاعر:

فالمرسلات تسوق العاديات إلى :: غزو العداة وتجويز صباح مَسَا
كأنما البحر أضحي للجياد مَدًى :: وكل غُشْبَة ماء حُولت فَرَسَا
كأنما اقترب البرَّان واتصلا :: فصار ذاك طريقاً للورى يَسَا⁽¹⁾

فلما وصلت عساكر المسلمين بلاد الأندلس انتشرت بين مدينة طريف إلى
الجزيرة الخضرة، جاز أمير المسلمين أبو يوسف في آخرهم في خاصته ووزرائه
وخذام دولته، ومعه جماعة من صلحاء المغرب، وكان جوازه يوم الخميس 21 صفر
674هـ وفي الأندلس تلقاه ابن الأحمر والرؤساء من بني أشقيلولة بعساكرهما،
واهتزت الأندلس فرحاً وسروراً واستبشاراً بقدومه.

وكان بين محمد الفقيه ابن الأحمر وبين أشقيلولة منافسة ومخاصمة وشحناء،
فعمل أبو يوسف على إزالتها وأصلح بينهما، وتصافت القلوب وتعاهدوا على التقوى
والجهاد ورجع محمد الفقيه إلى غرناطة لترتيب أمورها وسار بنو أشقيلولة إلى
مالقة، ومضى المجاهد أبو يوسف بجيشه الجرار قاصداً جهاد النصارى، ولم يعقد،
ولم يبال أو يكثرث بمن سار عنه أو قعد أو أبطأ أو تخلف، ولم تستطع جفونه مناماً،
ولم يلتذ شرباً ولا طعاماً، ولم يزل يجد الرديل، ويوالي المسير، حتى وصل إلى
الوادي الكبير، فعقد هنالك لولده الأمير أبي يعقوب يوسف على مقدمته وقدمه بين
يديه مع الأدلاء في جيش من خمسة آلاف فارس من شجعان بني مرين والعرب،
فتقدم والدّه بمرحلة، وسار أبو يوسف في أثر ابنه في جميع جيوشه، فانتشرت عساكر

(1) مصرع غرناطة ص43.

المجاهدين في أرض الإسبان، ووصل إلى حصن المقورة مابين قرطبة وأشبيلية ودخل حصن (بلمه) عنوة بالسيف، ثم سار إلى أحواز قرطبة ثم إلى إستجه.

ووصلت الأخبار إلى أبي يوسف بتحريك دشود الذصارى بقيادة "دونونة" في جيش كبير في ثلاثين ألف فارس، وستين ألف راجل قاصدين هزيمة جيش المسلمين وأخذ ما في أيديهم من الغنائم (1).

والتقى الجمعان والتحم القتال، واشتد النزال، وعظمت الأهوال، وقسم "دونونة" جيوشه إلى خمسة أجزاء، ليظهروا جموعاً متكاثرة، فكانت تقبل بجموعها، فيدفعهم المسلمون، وتتلقاهم سيوف المجاهدين، وحرايبهم، وقلوب المجاهدين أثبتت من الجبال الرواسي في ساحات الوغى وسيوفهم تحصد رقاب الإسبان، وقتل زعيم الإسبان "دونونة" كما قتل ولده وهزم جيشه وتكسرت أعلامه (2).

لقد استطاعت الجيوش الإسلامية المتحدة بين المغاربة والأندلسيين بقيادة أبي يوسف يعقوب أن تحقق نصراً حاسماً في هذه المعركة التي أعادت ذكريات الزلافة في زمن المرابطين، وذكريات معركة الأرك في زمن أبي يوسف يعقوب المنصور الموحي وبعد انتهاء المعركة رجع السلطان المريني منصوراً مظفراً إلى الجزيرة الخضراء للاستراحة ليعود إلى أراضي قشتالة وحاصر إشبيلية العاصمة التي طلبت الأمان والصلح فأجابهم وعاد إلى الجزيرة الخضراء عبر البحر إلى المغرب في أواخر رجب سنة 674هـ، بعد أن قضى حوالي خمسة شهور في الأندلس، وبعد أن ترك في الجزيرة الخضراء ثلاثة آلاف فارس لمعاونة إخوانهم الأندلسيين في رد اعتداء جند قشتالة ومن معهم (3).

لقد اهتز العالم الإسلامي فرحاً وسروراً بهذه الأخبار السارة، فتحركت قرائح الشعراء لتمجيد ذلك العمل العظيم، حيث أرسل ابن اشقيلولة كتاباً للتهنئة إلى السلطان المريني وفيه قصيدة من أبياتها:

هَبَّتْ بِنَصْرِكُمْ الرِّيحُ الْأَرْبَعُ :: وَسَرَتْ بِسَعْدِكُمْ النُّجُومُ الطَّلَعُ
وَأَتَتْ لِنَصْرِكُمُ الْمَلَائِكُ سُبْقاً :: حَتَّى أَضَاقَ بِهَا الْفُضَاءُ الْأَوْسَعُ

(1) مصرع غرناطة ص45.

(2) انظر: سقوط غرناطة ص48.

(3) انظر: التاريخ الاندلسي ص538.

واستبشر الفلك الأثير تيقناً :: أن الأمور إلى مرادك ترجع⁽¹⁾
 وأمدك الرحمن بالفتح الذي :: ملأ البسيطة نوره المتشعشع
 لم لا؟ وأنت بذلت في مرضاته :: نفساً تُفديها الخلائق أجمع
 وأتيت تنصر دينه متوكلاً :: بعزيمة كالسيف بل هي أقطع
 أين المفر ولا فرار لهارب :: والأرض تُنشر في يديك وتُجمع
 فلقد كسوت الدين عزاً شامخاً :: وليست منه أنت مالا يُخلع
 إن قيل من خير الملوك بأسرها :: فأليك يا يعقوب تومي الأصبع⁽²⁾

علي أن هذا النصر الذي أحرزه السلطان المريني علي القشتاليين لم يلق ترحيباً
 لدي ابن الأحمر، إذ أخذ يرتاب بنوايا السلطان خاصة بعد أن أخذ يقرب إليه بني
 أشقيلولة، وكان السلطان قد بعث برأس نونيو دي لارا فأرسله بدوره بعد أن ضمخه
 بالطيب والمسك والكافور إلى ألفونسو⁽³⁾.

وبعد وفاة محمد بن أشقيلولة سنة 676 هـ صاحب مالقة تنازل ابنه محمد عذها
 للسلطان المريني أبي يوسف يعقوب الذي أرسل بدوره حاكماً لها من قبله، مما زاد
 من شكوك ابن الأحمر بالسلطان، فأرسل وزيره عزيز الداني للاستيلاء علي المدينة
 ففشل⁽⁴⁾.

ومما يذكر أن أبا يوسف المنصور أرسل ابنه الأمير أبا يعقوب في أسطول
 مريني ضخم في أوائل سنة 678 هـ 1279م، وانتصر على الأسطول القشتالي وحرر
 الجزيرة الخضراء. ولما تم الصلح مع ابن الأحمر أصبحت مالقة قاعدة لبني مرين
 ومحطة لعبور جندهم إلى الأندلس للجهاد.

عبر أبو يوسف المنصور - عبوره الرابع - في صفر سنة 684 هـ إلى الأندلس،
 وجاهد في البر والبحر، وأرغم شانجة الرابع ملك قشتالة على طلب السلم، فأرسل
 شانجة وفداً من الأحبار يفوض السلطان المريني على مايراه ووضعت شروط أهمها:
 مسالمة المسلمين كافة وعدم الاعتداء على الأندلس⁽⁵⁾.

توفي أبو يوسف يعقوب المنصور المريني سنة 685 هـ / 1285م، بعد حياة حافلة

(1) ان الأمور مرادها ومرجعها إلى الله تعالى.

(2) مصرع غرناطة ص 51.

(3) روض القرطس، ص 319، ابن خلدون، 7 / 198.

(4) روض القرطاس، ص 324، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي ص 360، 361.

(5) نفح الطيب، 2 / 639، روض القرطاس، ص 341 - 343.

بالجهاد في المغرب والأندلس. وخلفه علي الحكم ابنه يوسف أبو يعقوب نتيجة للمصالح المشتركة بين بني مرين وبني الأحمر ملوك غرناطة استطاعوا ان يصلوا إلى نتائج حسنة ومهمة للتعاون المشترك والتنسيق العريض لرد الخطر النصراني القادم، من مملكة قشتالة ولذلك رأت القيادتان المرينية والغرناطية ضرورة وضع قوات من المجاهدين في الأندلس للإقامة فيها، ليكونوا على أهبة الاستعداد من اجل الجهاد والدفاع عن مسلمي الأندلس، فظهر ما يعرف في تاريخ الأندلس بمشيخة الغزاة وهذا تعريف أطلق على الجنود المرابطين للذود عن العقيدة والدين وأطلق على اسم زعيمها شيخ الغزاة.

وترجم بنو العلاء (من أقارب السلطان المريني) قيادة المشيخة، وهو منصب عسكري تولى رئاسة المشيخة عبدالله بن ابي العلاء حتى استشهد سنة 693 هـ، فكانت لأخيه أبي سعيد عثمان بن العلاء (1).

عن هذه المشيخة يذكر المقرئ في نفح الطيب أنه " لم يزل ملوك بن مرين يُعينون أهل الأندلس بالمال والرجال، وتركوا منهم حصّة معتبرة من أقارب السلطان بالأندلس غزاة، فكانت لهم وقائع في العدو مذكورة، ومواقف مشهورة، وكان عند ابن الأحمر منهم جماعة بغرناطة، عليهم رئيس من بيت ملك بني مرين يسمونه شيخ الغزاة " (2).

وانتهز سانشو ملك قشتالة وفاة السلطان ابي يوسف فنكث عهده، وأغار سنة 690 هـ / 1291 م علي أراض المسلمين فرد السلطان أبو يعقوب بمهاجمة شريش وأعلن الجهاد، فأرسل سانشو أسطوله إلى المضيق ليحول دون وصول المجاهدين من المغرب، ودارت معركة بحرية انهزم فيها الأسطول الإسلامي، ولكن الهزيمة لم تفت في عضد السلطان فأرسل أسطولاً آخر أجبر الأسطول القشتالي علي الانسحاب، وعبر السلطان إلى الأندلس في رمضان سنة 690 هـ / 1292 م وغزا شريش ووصل أحواز إشبيلية ثم عاد المغرب سنة 691 هـ / 1292 م (3).

تخوف ملك قشتالة من سياسة السلطان نحوه، فاتصل بابن الأحمر وحذره من نوايا المغاربة تجاه ثغور الأندلس ولا سيما طريف، وكان سانشو يريد الاستيلاء علي

(1) التاريخ الاندلسي ص540.

(2) نفح الطيب (385/4).

(3) ابن خلدون، 7 / 217، روض القرطاس، ص 379 - 380.

هذا الثغر بمساعدة ابن الأحمر، واستطاع النصراني أن يصانعوا ابن الأحمر زعيم غرناطة وأن يكسوه لجانبهم ودخل معهم في أحلاف أضرت بالمسلمين واضطر سلطان المرينيين أن يرجع إلى المغرب بجيشه واستمر ابن الأحمر في تصرفاته الشاذة وعقد تحالفاً مع ملك قشتالة، فساروا إلى أقصى الجنوب لاحتلال "طريف" مدخل الأندلس كلها، واشترط ابن الأحمر على ملك قشتالة أن يسلمه ثغر طريف.

واستطاعت طريف أن تصمد أربعة أشهر إلا أنها اضطرت للخضوع والاستسلام، فطالب بها ابن الأحمر ملك قشتالة، فامتنع عن تسليمها، مع أن ابن الأحمر تنازل له مقابلها عدد من الحصون الهامة، فأدرك ملك غرناطة محمد الفقيه ابن الأحمر عندئذ خطأه الفاحش والمزلق الخطير في الركون إلى وعود ملك قشتالة، وفي مغاضبة المرينيين حلفائه الطبيعيين، وإخوانه في الدين والمنهج والتصور والاعتقاد، فعاد يخطب ودهم من جديد، فأرسل الوفود من أجل الصلح مع المرينيين واعتذر عن مسلكه في شأن طريف، وأجابهم السلطان أبو يوسف المريني إلى طلبهم وزود ابن الأحمر بقوة لاستعادة طريف ولكنه لم يوفق في ذلك (1) وبقي ملك غرناطة على عهده مع المرينيين حتى توفي - محمد الفقيه - في شعبان سنة 701 هـ / أيار مايو 1302 بعد حكم دام أكثر من ثلاثين سنة (2).

* * *

السلطان محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن الأحمر

وفي عهده ساءت العلاقات مع بني مرين، فقد رأى أن يتحالف مع ملك قشتالة ضد السلطان أبي يعقوب، وبدأ عمله العدائي ضد السلطان المريني بأن أو عز إلى صاحب ملقة أبي سعيد فرج بن إسماعيل أن يحرض أهل سبتة علي خلع السلطان وأن يعود إلى محالفة ملك قشتالة، وجهاز أبو سعيد حملة بقيادة عثمان بن أبي العلاء المريني هاجمت سبتة واستولت عليها في شوال سنة 705 هـ / 1306 م، ثم جاء أبو سعيد إلى سبتة واستبد بأمرها تحت سلطة السلطان محمد بن الأحمر (3).

استاء السلطان المريني لهذا الغدر وبعث علي الفور حملة إلى سبتة حاصرت المدينة ولكنها فشلت في دخولها، فانسحبت وطاردها عثمان بن أبي العلاء وخرب

(1) ابن خلدون، 7 / 217، روض القرطاس، ص 383.

(2) الإحاطة، 1 / 552، مصرع غرناطة ص 53.

(3) الإحاطة، 1 / 552، 560.

أحواز سبتة 706 هـ / 1307 م (1).

عزم السلطان المريني أن يسير بنفسه لاسترداد المدينة، ولكن فتي من خصيانه يدعي "لا سعادة" اغتاله في ذي القعدة سنة 706 هـ / إبريل 1307م. تسلم الحكم بعده ابنه عامر بعد صراع مرير مع أخيه أبي سالم.

وفي تلك الأثناء وقعت بالأندلس ثورة ضد السلطان محمد قادها أخوه أبو الجيوش نصر بن الفقيه، واعتقل الثوار السلطان وخلعوه وقتلوا وزيره أبي حكيم في سنة 708 هـ / 1309 م (2).

* * *

نصر بن محمد بن الفقيه

تولى الحكم أخوه نصر وبويع يوم الجمعة غرة شوال عام 708 هـ. وهو في الثالثة والعشرين من العمر، وكان مجبولا على طلب الهدنة مدحا للعلم وأهله يخط التقاويم الصحيحة، ويصنع بيده الآلات الطريفة، وفي عهده ساءت العلاقات بين غرناطة وقشتالة، ونازل طاغية قشتالة على الجزيرة الخضراء، وطاغية أراغون في ثغر المريّة، فهزم النصارى في المريّة، وانتصروا عليه في الجزيرة الخضراء حيث سقط جبل طارق في أيديهم بعد حصارٍ طويل مضى دام حتى آخر سنة 709 هـ (3).

وفي عهد أخيه، ثم عهده حصل جفاءً وعداءً بينه وبين بني مرين حكّام المغرب بواسطة جواسيس النصارى المندسين بين المسلمين، واستغل النصارى ذلك الذنافر، فشددوا على مملكة غرناطة الخناق، فاضطر السلطان نصر بن محمد إلى دفع الجزية لهم فثار الشعب في وجهه، وكان أن خلع سنة 713 هـ ورشح الخارجون عليه للملك بدلا عنه: أبا الوليد إسماعيل بن فرج، وحفيد إسماعيل بن يوسف أخي محمد يوسف راس الأسرة النصرية، ومؤسس دولتها.

* * *

السلطان أبو الوليد إسماعيل

(713 - 725 هـ / 1314 - 1325 م)

(1) روض القرطاس، ص 387، 388.

(2) الإحاطة، 1 / 560.

(3) ابن خلدون، 7 / 240، نفح الطيب، 1 / 425.

امتاز عصر السلطان أبي الوليد إسماعيل بتوطيد الملك، واستقرار الأمور وإحياء عهد الجهاد، وفي أوائل عهده غزا القشتاليون مناطق غرناطة وكان من ضمن القشتاليين جيش السلطان المخلوع، وهزموا المسلمين في وادي فرتونه سنة 716 هـ / 1317 م واستولى النصارى على بعض القواعد والحصون (1). فحاول الاستتجاد ببني مرين المغاربة على أعدائه النصارى، لكنهم اشترطوا عليه تسليمهم المتمرّد عثمان بن أبي العلاء لقاء المساعدة، فأبى السلطان ابن الأحمر ذلك (2).

ثم هاجموا غرناطة بجيش كبير سنة تسع عشرة وسبعمائة وألب ملوك النصارى على غرناطة، وجاءها (دون بطرة) في جيش لا يحصى كثرة، وكان وصيا على الملك الصبي ألفونسو الحادي عشر ملك قشتالة، ومعه خمسة وعشرون ملكاً أو أميراً بغرض استئصال ما بقي من المسلمين بالأندلس، وكانت حملة قد باركها مرجعهم الكنسي "البابا" في طليطلة وكان من ضمن هذا الجيش فرقة من المتطوعة الإنجليز بقيادة أمير إنجليزي.

كان عدد الجيش الإسلامي حوالي ستة آلاف، منهم ألف وخمسة مئة فارس والباقي رجالة. لكنهم صفوة مختارة بقيادة شيخ الغزاة أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء، وبعد أن يؤس المسلمون من نصرة إخوانهم المغاربة، لجؤوا إلى الله تعالى وأخلصوا نياتهم، ففضى الله تعالى بهزيمة أمم النصرانية التي احتقرت جيش غرناطة حينما رأت التفاوت الكبير بين الجيشين، وكان نصراً عزيزاً، ويوما مشهوداً. زاد عدد القتلى في هذه المعركة على خمسين ألفاً، وبلغ جملة السبي فقط سبعة آلاف نفس، وهلك الأمراء النصارى جميعهم، واستمر البيع في الأسرى، والأسلاب والدواب ستة أشهر، وإنه لنصر ما كان يؤمل لولا لطف الله بعباده لما رأى صدق توجههم إليه (3).

لقد كان السلطان أبو الوليد إسماعيل هذا من خيرة سلاطين بني الأحمر وأصلحهم فما وصف به:

(كان حسن الخلق، سليم الصدر، كثير الحياء، صحيح العقل، ثبتاً في المواقف،

(1) نفح الطيب، 1 / 424، أعمال الأعلام، ص 294.

(2) نهاية الأندلس ص 117.

(3) نفح الطيب، 1 / 424 - 425، ابن خلدون، 4 / 172، أعمال الأعلام، ص 295، التاريخ الأندلسي ص 541 - 542.

عفيف الأزرار، ناشئاً في حجرة الطهارة بعيداً عن الصبوة، برياً من المعاقرة (1).

وفي سنة 721 هـ / 1321م عقد السلطان إسماعيل معاهدة صلح مع ملك أراجون خايمي الثاني، نصت علي عقد صلح مدته خمس سنوات تكون أثناءها أراضي الطرفين آمنة وأن تباح حرية التجارة لرعايا المملكتين وأن يتعهد كل منهما بمعادة من يعادي أي من الفريقين وعدم إيواء أي عدو لهما، وأن تتمتع السفن بحرية الملاحة، وتكون الموانئ آمنة، وأن يطلق كل فريق من يأسر في البحر من رعايا الطرف الآخر، وتعهد ملك أراجون بالسماح للمدجنين بالخروج من أراضيهم وأموالهم (2).

وفي سنة 724 هـ زحف السلطان إسماعيل على مدينة بياسة الحصينة، وحاصرها بشدة، وأطلق المسلمون عليها الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدافع حتى استسلمت المدينة، ونزل أهلها على حكمه.

وفي رجب من عام خمسة وعشرين وسبعمائة دخل مرتش الحصينة التي تقع في جنوب غربي جيان عنوة وكانت من أعظم غزواته وامتلات أيدي المسلمين بالاسبى والغنائم، وعاد إلى غرناطة مكللاً بالنصر (3).

لكنه ما لبث سوى ثلاثة أيام حتى قُتل بباب قصره غيلة من قبل ابن عمه محمد بن إسماعيل لخلاف علي جارية نصرانية فتربص به، وطعنه بخنجر له، وهو بين وزرائه وحشمه، فحمل جريحاً وتوفي على إثر ذلك في 26 رجب سنة 725 هـ / يونيو 1325م (4).

* * *

السلطان محمد بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف

- أبو عبد الله - (725 - 733 هـ / 1325 - 1333 م)

خلف والده إسماعيل وهو في الحادية عشرة من عمره، فقام بأمره وزير أبيه أبو الحسن علي بن مسعود، وكذلك محمد بن أحمد بن المحروق الذي بقي في الوزارة

(1) الإحاطة 377/1، برياً من المعاقرة أي بعيداً عن شرب الخمر.

(2) نهاية الأندلس، ص 120.

(3) نهاية الأندلس ص 120.

(4) أعمال الأعلام، ص 295، نهاية الأندلس ص 121.

حتى اغتيل بتدبير من السلطان في محرم سنة 729 هـ / 1329 م (1).

جدد السلطان الجديد معاهدة الصلح مع ملك أراجون بناء علي طلب هذا الأخير إذ كانت المدة قد انتهت، ووفق السلطان أبو عبد الله محمد علي تجديدها بنصوصها كاملة ووقعت في جمادي الثانية سنة 726 هـ / مايو 1326 م.

وفي عام 733 هـ استطاع الغرناطيون في زمن السلطان محمد الرابع تخليص جبل الفتح - أي جبل طارق - من أيدي النصارى بعد أن ظل تحت سلطانهم من عام 709 هـ وكان للسلطان أبي الحسن علي بن عثمان المريني سلطان المغرب دور يشكر عليه في تخليص جبل طارق الذي كان ذا أهمية بالغة بالنسبة للأندلسيين إذ هو همزة الوصل بينهم وبين إخوانهم في العدو المغربية، ورأي ألفونسو أن لا أمل له بالنصر فأثر الصلح وعقد معاهدة مع ابن الأحمر (2).

وعلي إثر استرجاع جبل طارق عاد ابن الأحمر إلى غرناطة ولكن اغتاله أحد مماليك أبيه يدعي زيان في الطريق بوادي السقائين بتحريض من إدريس بن عبد الله بن أبي العلاء في نهار الأربعاء 13 ذي الحجة سنة 733 هـ / 1333 م وخلفه أخوه أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل (3).

* * *

(1) أعمال الأعلام، ص 296، الإحاطة، 1 / 536.

(2) ابن خلدون، 7 / 255، الإحاطة، 1 / 540، نفح الطيب، 1 / 426.

(3) نفح الطيب، 2 / 6، أعمال الأعلام، ص 304، الإحاطة، 1 / 549.

السلطان أبو الحجاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل (733 - 755 هـ / 1333 - 1354 م)

كان في السادسة عشرة من عمره عندما تولى الحكم، فاستوزر إبراهيم بن عبد البر، وكان عالما وشاعرا، ومن مآثره إنشاء جامعة غرناطة الشهيرة وتحصين المدينة وإنشاء الأبراج.

* * *

د - موقعة طريف

تجلى تحالف ملك المغرب مع ملك غرناطة مرة أخرى في المعركة التي أصيب فيها الملكان بهزيمة فادحة في معركة طريف سنة 741 هـ من قبل النصاري.

منذ ان استعاد الأندلسيون سنة 733 هـ بمساعدة بني مرين - حكام المغرب - جبل طارق بعد أن ظل بأيدي النصاري أربعة وعشرين عاما - إذ سقط في أيدي النصاري سنة 709 هـ توطدت العلاقة أكثر فأكثر بين بني الأحمر من جهة وبني مرين من جهة أخرى.

وكان الأندلسيون كلما احسوا بخطر النصاري يحدق بهم سارعوا إلى الاستجداء بإخوتهم في الدين في العدو المغربية من بني مرين، وكانوا يقومون بالدور الذي كان يقوم به المرابطون والموحدون من الجهاد في أرض الأندلس " وفي عهد أبي الحجاج يوسف (ولايته 733 - 755 هـ) .

كثرت غزوات النصاري لأراضي المسلمين وكان ألفونسو الحادي عشر تحذوه نحو المملكة الإسلامية أطماع عظيمة فكان أن استجد أبو الحجاج بأبي الحسن سلطان المرينين، الذي أرسل ابنه أبا مالك إلى الأندلس، فاخترق سهول الجزيرة الخضراء معلنا الجهاد، فاجتاح أراضي النصاري وحصل على غنائم لا تحصى غير أن النصاري من قشتالة وأرجون والبرتغال كونوا أسطولا بحريا متحدا ليستقر بالمضيق فيمنع الإمداد عن جيوش المغرب وسارت قوى النصاري المتحدة للقاء المسلمين وبارك البابا هذه الحملة، فباغتوا أبا مالك عند عودته بالوادي الذي كان يقع بين حدود النصاري وأرض المسلمين فكانت موقعة عظيمة قتل فيها أبو مالك، وهزم جيشه هزيمة منكرة، وبلغ أبا الحسن المريني الخبر، فاحتسب عند الله ابنه وشرع في الجهاد من جديد على إثر هذه المعركة. تجهز السلطان أبو الحسن واستنفر معه أهل المغرب فتوافقت أساطيل المغاربة بمرسى سبتة تناهز المائة فأخرج الطاغية أسطوله

إلى الزقاق (مضيق جبل طارق) ليمنع السلطان من الجواز إلى الأندلس فوقعت معركة بحرية عظيمة أظفر الله المسلمين فيها بعدوهم وخالطوهم في أساطيلهم واستلحموهم هبراً بالسيوف، وطعنا بالرماح، وألقوا أشلاءهم في اليم، وقتلوا قائدهم، واستاقوا أساطيلهم إلى مرسى سبتة.

ثم بعد أن جلس السلطان للتهذئة وأشدت الشعراء بين يديه، استأنف إجازة العساكر فانتظمت الأساطيل سلسلة واحدة من العدو إلى العدو. ونزل السلطان بعساكره بساحة طريف وأناخ بها ووافاه سلطان الأندلس أبو الحجاج بعساكر الأندلس، وأحاطوا بطريف وأنزلوا بها أنواع القتل ونصبوا عليها الآلات.

غير أن الطاغية جهّز أسطولاً آخر اعترض به المضيق لقطع المرافق والمؤمن عن المعسكر، وطال ثواء المسلمين بمكانهم من حصار البلد، ففئيت أزودتهم وافتقدوا العلوفات فوهن الظفر، واختلت أحوال المعسكر، وحشد الطاغية أمم النصرانية، وظاهره البرتغاليون وبالرغم مما قيل من أن جيش المسلمين كان زهاء ستين ألفاً، فإن طول محاصرتهم للبلد وانقطاع المؤمن عنهم من أول المحرم سنة 741 هـ وإلى أوائل شهر جمادي الأولى من نفس العام، ثم المكيدة التي دبرها لهم أعداؤهم وعدم تلافئها كان وراء انكسار شوكتهم (1) وهذه المكيدة كما يصفها ابن خلدون تتلخص فيما يأتي:

(ولما قرب معسكرهم سرّب الطاغية إلى طريف جيشاً من النصاري أكمّنه بها فدخلوه ليلاً على حين غفلة من العسس المسلمين، الذين أرسدوا لهم غير أنهم أحسوا بهم آخر ليلتهم، فثاروا بهم من مراصدهم، وأدركوا أعقابهم قبل دخول البلد، فقتلوا منهم عدداً ولتبسوا على السلطان بأنه لم يدخل البلد سواهم حذراً من سطوته وزحف الطاغية من الغد في جموعه، وعبأ السلطان مواكب المسلمين صفوفاً وتزاحفوا. كما تولى السلطان يوسف قيادة فرسان الأندلس ولما نشبت الحرب برز الجيش الكمين من البلد وخالفوهم إلى المعسكر، وعمدوا إلى فسطاط السلطان ودافعهم عنه الناشبة الذين أعدوا لحراسته فاستلحموهم ثم دافعهم النساء عن أنفسهن فقتلوهنّ وخلصوا إلى حظايا السلطان فقتلوهن، واستلبوهن وانهبوا سائر الفسطاط وأضرمو المعسكر ناراً وأحسّ المسلمون بما وراءهم في معسكرهم فاختلف مصافهم وارتدوا على أعقابهم بعد

(1) أعمال الأعلام، ص 340، الاستقصا، 2 / 65، نفح الطيب، 1 / 426، ابن خلدون، 7 / 264، نهاية الأندلس ص 128، دولة الموحدين، ص 240 - 241.

أن كان ابن السلطان صمم في طائفة من قومه وذويه حتى خالطهم في صفوفهم فأحاطوا به، وتقبضوا عليه وولّى السلطان متحيزاً إلى فئة من المسلمين واستشهد كثير من المسلمين من سادتهم وقادتهم.

وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون مثلها منذ موقعة العقاب (1) يقول المقري في وصف هذه الفاجعة:

“فقضى الله الذي لامرد لما قدره أن صارت تلك الجموع مكسرة ورجع السلطان أبو الحسن مغلولاً وأضحى دسام الهزيمة عليه وعلى من معه مسلولاً.. وقتل جمع من أهل الإسلام ولمّة وافرة من الأعلام.. واشرب العدو الكافر لأخذ ما بقي من الجزيرة ذات الظل الوريث، وثبت قدمه إذ ذاك في بلد طريف، وبالجملّة فهذه الموقعة من الدواهي المعضلة الداء، والأرزاء، التي تضعع لها ركن الدين بالمغرب، وقرّت بذلك عيون الأعداء “ (2).

استمر السلطان يوسف علي عرش غرناطة حتي إغتاله مذبول بالمسجد نهار عيد الفطر سنة 755 هـ / نوفمبر 1354 م ودفن بمقبرة الحمراء، وخلفه ابنه محمد الغني بالله (3).

* * *

السلطان محمد بن يوسف بن إسماعيل

تلقب بالغني بالله، وكان صغيراً، فتولي إدارة الأمور مولى أبيه رضوان، وفي عهده بزغ نجم لسان الدين بن الخطيب.

وفي عهده ثار عليه ابن أبي منديل المريني في جبل طارق سنة 756 هـ / 1355 م، ولكن تم القبض عليه وأعدم في المغرب، كما ثار عليه أنصار أخيه المعتقل إسماعيل بزعامة الرئيس عبد الله بن أبي الوليد سنة 760 هـ / 1359 م واقتحموا حصن الحمراء ونادوا بإسماعيل ملكاً، ففر الغني بالله إلى وادي آش، ثم اتصل بالسلطان المريني أبي سالم، فاستدعاه إلى المغرب وأقام عنده علي أمل إرجاعه إلى الأندلس ومساعدته في استعادته عرشه المسلوب (4).

(1) ابن خلدون 261/7 - 262.

(2) نفخ الطيب 317/6.

(3) أعمال الأعلام، ص 306، الاستقصا، 4 / 8، نفخ الطيب، 9 / 2.

(4) أعمال الأعلام، ص 307، نفخ الطيب، 2 / 14، الاستقصا، 4 / 9، ابن خلدون، 7 / 306.

لم يطل المقام بالسلطان الجديد كثيرا في منصبه - بالرغم من التأييد القوي له من ملك قشتالة - إذ ثار عليه أهل غرناطة وقتلوه، وعندها أسرع الغني بالله بالعودة إلى غرناطة واستعاد عرشه المسلوب في جمادي الآخرة سنة 763 هـ / 1361م، واهتم الغني بالله بالعمران وبني المستشفى في غرناطة، وعني بتحصين الثغور وبث روح الجهاد في نفوس الأندلسيين، وتوثقت علاقاته بالقاهرة، فجرت سفارات متبادلة مع سلطان مصر الأشرف شعبان، كما عقد باسمه ونيابة عن السلطان المريني صلح مع ملك أراجون مدتها ثلاث سنوات ابتداء من رجب 768 هـ / مارس 1367 م، جاء فيها: تكون أثناءها أراضي الطرفين آمنة وأن تباح حرية التجارة لرعايا المملكتين وأن يتعهد كل منهما بمعادة من يعادي أي من الفريقين وعدم إيواء أي عدو لهما، وأن تتمتع السفن بحرية الملاحة، وتكون الموانئ آمنة، وأن يطلق كل فريق من يأسر في البحر من رعايا الطرف الآخر، وتعهد ملك أراجون بالسماح للمدجنين بالخروج من أراضيهم، بأهلهم وأموالهم⁽¹⁾.

ساد الأمن في عهد الغني بالله واستغل انشغال قشتالة بحروبها الداخلية، فأخذ يشن الغارات علي أراضيهم فأغار سنة 767 هـ / 1366 م علي برغة وجيرة، ثم غزا سنة 768 هـ / 1367 م أحواز إشبيلية وفتح حصن أشر، ثم اقتحم مدينة جيان في أواخر محرم 769 هـ / سبتمبر 1767 م، واقتحم أذناء عودته مدينة باغة ودمرها، ثم افتتح مدينة أبدة شمال شرق جيان عنوة ودمر كنائسها وهدم أسوارها، و عاد إلى غرناطة ظافرا محملا بالغانم والأسلاب⁽²⁾.

وفي أواخر سنة 769 هـ / 1368 ماستولي علي الجزيرة الخضراء وهدم حصونها ومعالمها كي لا تعود سليمة إلى النصاري، وذلك بمساعدة السلطان المريني عبد العزيز، وزحف علي أحواز إشبيلية وحاصر قرمنة وفتح مرشانة القريبة منها. وبذلك هبت رياح الانتصار علي يد الغني بالله التي افتقدها الأندلسيون منذ زمن بعيد⁽³⁾.

توفي الغني بالله سنة 793 هـ / 1391 م بعد عهد عامر بالجهاد والعمران وخلفه ابنه يوسف أبو الحجاج.

(1) نهاية الأندلس، ص 120.

(2) الإحاطة، 2 / 54.

(3) الاستقصا، 4 / 56.

* * *

يوسف بن محمد الفقيه - يوسف الثاني، أبو الحاج -

(793 - 797 هـ / 1391 - 1394 م)

قام بتدبير أمور الدولة خالد مولي أبيه، الذي استبد بالحكم وقتل إخوة السلطان يوسف الثلاثة سعدا ومحمدا ومطرا، وأراد أن يقتل السلطان بالسم، ولكن انكشفت المؤامرة فسخط عليه السلطان وقتله، ثم سالم السلطان يوسف مسالمة ملك قشتالة، وأطلق سراح عدد من الأسري النصاري، فاستجاب الملك لذلك وعقد الصلح بين الدولتين (1).

وحاول ابنه محمد خلعه من الحكم، وزحف هو وأنصاره علي الحمراء يريد احتلالها ولكن السفير المغربي برز إليهم وطلب منهم توحيد الصفوف ومواجهة الخطر الحقيقي وهو النصاري الأسبان الذين يتربصون بهم، والذين يشنون الهجمات المتتالية علي الثغور الإسلامية وعلي غرناطة ذاتها، ولكن تمكن السلطان من ردهم علي أعقابهم.

وتوفي السلطان يوسف في أوائل سنة 797 هـ / 1394 م بعد حكم دام ثلاثة سنوات وبضعة أشهر، بتدبير من السلطان المغربي أبو العباس، الذي أهدي السلطان يوسف بعض الملابس المسمومة التي ما أن إرتداها حتى صارع الموت. فخلفه ابنه محمد (2).

* * *

السلطان محمد بن يوسف بن الفني بالله

(797 - 808 هـ / 1394 - 1405 م)

تولي الحكم بعد وفاة والده بالاتفاق مع رجال الدولة، وكان أول شئ فعله اعتقال أخيه يوسف وسجنه في قلعة شلوبانية قرب ثغر المنكب، ثم استوزر ابن زمرك الذي أساء السيرة فثارت عليه عامة الناس وقتلوه في منزلة مع عائلته سنة 797 هـ / 1395 م (3).

(1)، الاستقصا، 4 / 81.

(2) الاستقصا، 4 / 81.

(3) نفح الطيب، 4 / 309.

وقد ابتدأ السلطان محمد عهده بعقد هدنة مع القشتاليين، الذين لم يلتزموا بها وسرعان ما هاجمو أحوار غرناطة، فرد السلطان محمد بمهاجمة ولايات الغرب واستولي علي أيامونتي، فرد القشتاليون بغزو أراضي غرناطة، وكان الملك هنري الثالث يجيش بنزعة صليبية ضد مسلمو غرناطة، وأخذ يستعد لغزوها، بحشد الأساطيل وتجهيز الجيوش، فاستنجد السلطان محمد بملك تونس وأمير تلمسان، فبعثا إليه بوحدات بحرية، ولكنها انهزمت أمام جبل طارق، ثم عقدت هدنة بين الفريقين، وشكلت لجنة لتقدير الأضرار سنة 808 هـ / 1406 م، ولكن هنري الثالث توفي وخلفه ابنه الطفل يوحنا تحت وصاية أمه وعمه فرناندو الذي نقض الهدنة الموقعة، وغزا أراضي غرناطة. واستولي علي حصن الصخرة قرب رندة وكذلك حصن باغة واستعاد حصن أيامونتي، فرد السلطان محمد بمهاجمة، ثم انتهت حالة الحرب القائمة بين الفريقين بعقد هدنة لمدة ثمانية أشهر سنة 811 هـ / 1408 م، وفي تلك السنة توفي السلطان محمد في غرناطة.

وفي عهد السلطان محمد كانت حالة من الهدوء تسود العلاقات بين غرناطة وأراجون منافسة قشتالة، وعقد المعاهدات بين الدولتين، ففي ربيع الأول سنة 808 هـ / سبتمبر 1405 م عقد السلطان محمد مع ملك أراجون مرتين وابنه ملك صقلية معاهدة صداقة وتحالف مدتها خمس سنوات تنص علي حرية التنقل والتبادل التجاري، وإمداد سلطان غرناطة بـ 400 ألي 500 فارس لمساعدة حلفائه في حروبهم مع عدو لا يكون صديقا لغرناطة، ونفقاتهم تدفعها أراجون، وكذلك إمداد السلطان بـ 5 إلى 14 سفينة مزودة بالرجال والسلاح لمحاربة أعدائه علي ألا يكونوا أصدقاء لأراجون، ويتكفل السلطان بنفقاتهم، وكذلك حرية المرور للأسفن، وكيفية إطلاق سراح الأسري، وتحديد مبلغ مئة دينار ذهبا فداء للأسير (1).

* * *

السلطان يوسف بن يوسف بن الغني بالله

(811 - 820 هـ / 1408 - 1417 م)

خلف أخاه السلطان محمد، وكان حريصا علي تجديد الهدنة مع ملك قشتالة لمدة عامين، ولما حاول تجديدها مرة ثانية رفض القشتاليون، وطلبوا منه الدخول في طاعتهم، فأبى السلطان هذا الشرط التعجيزي، ففشلت الحرب، وعزا القشتاليون

(1) نهاية الأندلس، ص 152، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي، 377 - 378.

أراضي غرناطة بقيادة الوصي فرناندو، وحاصروا أنتقيرة، وأسرع السلطان لنجبتها ومساعدة
حاميتها الصامدة، ولكن ورغم المقاومة الصامدة الباسلة سقطت المدينة سنة 815 هـ / 1412 م، ثم عقدت هدنة أطلق بموجبها السلطان يوسف مئات الأسرى النصاري دون فدية.

بعد إقرار الهدنة سادت بلاط الدولتين علاقات المودة والاحترام وأخذت غرناطة تغص بالفرسان النصاري والأشراف، وكانت تقوم المبارزات الرائعة بين فرسان الدولتين فكانت أيام مشهودة في تاريخ غرناطة قبل سقوطها.
وفي عهده ثار سكان جبل طارق ودخلوا في طاعة السلطان المريني أبي سعيد، الذي أرسل إليهم أخاه عبد الله، ولكن يوسف تصدى للمتأمرين وهزمهم، وأسر عبد الله، وأرسله مكرما إلى المغرب وزوده بالأموال والرجال للانقلاب علي أخيه وقد استطاع انتزاع الملك من أخيه (1).

* * *

السلطان محمد بن يوسف - الأيسر -

(820 - 846 هـ / 1417 - 1442 م)

توفي السلطان يوسف سنة 820 هـ / 1417 م بعد حكم دام 9 سنوات وخلفه ابنه محمد الأيسر، وكان سيئ الخلق بعيدا عن الشعب، وحاول وزيره يوسف بن سراج تخفيف حدة سخط الشعب عليه، ولكن لم يستطع ابن سراج تهدئة الأمور، ولم تفلح محاولات الإصلاح، وكان القشتاليون يشجعون حالات الخروج علي الأيسر لإضعاف مملكة غرناطة، ففي سنة 831 هـ / 1428 م هاجموا مملكة غرناطة ووصلوا إلى وادي آش، ولم يستطع الأيسر ردهم، فثار عليه الشعب وخلعوه وأتوا بالأمير محمد بن محمد ابن يوسف الثالث الذي لقب بالزغير، وفر الأيسر إلى تونس.
عمل السلطان الجديد علي اكتساب محبة الشعب ولكنه لم يوفق في القضاء علي المؤامرات التي كان يحيكها بنو سراج خصومه، فعمل علي سحقهم وطاردهم، فغادر يوسف بن سراج مع أنصاره غرناطة إلى إشبيلية ملتصبا بحماية ملكها خوان الثاني الذي رحب بهم وادفق ابن سراج مع ملك قشتالة علي مساعدة الأيسر لاسترداد

(1) الاستقصا، 2 / 148، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 378، 379.

عرشه، فاستدعاه من تونس، وعاد مع فرقة من الفرسان أمده بها السلطان أبو فارس، ونزل الأيسر المرية فأرسل الزغير قوة لقتاله ولكن الجنود انضموا إلى الأيسر ودخل غرناطة فاستقبله أهلها بالترحاب، وحاصر الحمراء فسلمها له أنصار الزغير، واعتقل الزغير مع أخيه الأمير أبي الحسن علي وأودعاه قلعة شوبانية سجن الدولة الرسمي.

أعاد الأيسر يوسف بن سراج إلى الوزارة وأرسل إلى ملك قشتالة خوان الثاني يطلب تجديد الهدنة، فأرسل إليه سفيره كونثالت دي لونا مشترطاً علي الأيسر أن يؤدي الأموال التي أنفقها ملك قشتالة لإعادته إلى عرشه بالإضافة إلى جزية سنوية مع الخضوع له والإفراج عن الأسري المسيحيين، فرفض الأيسر الشروط، فهدد خوان بالحرب وفي الوقت نفسه أرسل سفراء إلى سلطان تونس أبو فارس الحفصي وإلى سلطان فاس عبد الحق المريني يرجوهما ألا يتدخلوا في شئون الأندلس، فأتاه الرد من السلطانين بالإيجاب، فأغر القشتاليون علي أراضي المسلمين وقصدوا رندة فتصدي لهم الأيسر، ثم جاء خوان علي رأس قوات قشتالية وعاث في المنطقة، ثم عاد محملاً بالغنائم والأسري سنة 1431 م.

* * *

يوسف بن الحول

وعاد الأيسر إلى غرناطة التي أخذت تعمها الفتن والاضطرابات الداخلية وانقسمت المملكة الصغيرة إلى أحزاب متناحرة، وكان للنصاري دور كبير في ذكاء روح الفرقة والاختلاف، ليسهل عليهم الانقضاض علي ماتبقي من المتناحرين، والتف المتآمرون حول الأمير أبي الحجاج يوسف بن الحول، وهو يمت بصلة إلى بني الأحمر بالخوولة فأمه بنت محمد بن يوسف بن الغني بالله، وكان الملك الجديد وافر الثراء قويا، ولنجاح خطته قصد خوان الثاني المرابط قرب غرناطة يترقب سير الأحداث، وتهده له بأن يحكم باسمه ويخضع له، فقبل الملك ذلك ووقع يوسف وثيقة الذل التي أعلن فيها أنه من أتباع الملك القشتالي ومن خدامه وتعهده بإطلاق سراح النصاري، ودفع جزية سنوية مقدارها 20 ألف دينار ذهب، وأن يمده بـ 1500 فارس لمساعدته في حروبه وأن يحضر جلسات مجلس النواب القشتالي بنفسه إذا كان منعقدا جنوب طليطلة وأن يمثله أحد أقاربه إذا كان خارج قشتالة، وبالمقابل تعهد الملك بحماية يوسف طوال حكمه وحكم أبنائه وأن يعاونه علي محاربة أعدائه من مسلمين ومسيحيين. وتم توقيع المعاهدة في السابع من محرم سنة 835 هـ / 16

سبتمبر 1431 م، وذهبت المعاهدة مباشرة فهاجم ملك قشتالة مرج غرناطة وهزم الملك الأيسر الذي ارتد إلى غرناطة، وتقدم عندها يوسف بمعاونه حلفائه النصاري نحو المدينة بعد أن نصبه خوان الثاني ملكا، ودارت معركة شديدة بين الملك الجديد وقوات الأيسر يقودها الوزير ابن سراج، فانهزم جند الأيسر وقتل الوزير، فغادر الأمير الأيسر غرناطة إلى مالقة ودخلها يوسف في ربيع الأول 835 هـ / 1432 م، وكان أول عمل أقدم عليه هو تجديد معاهدة الخضوع لملك قشتالة في 22 جمادى الأولى سنة 835 هـ / 1432 م.

ولكن القدر كان رحيمًا بمسلمي غرناطة، فقد توفي يوسف الحول بعد ستة أشهر، فأجمع الغرناطيون على إعادة الأيسر للمرة الثالثة إلى الحكم، وبادر إلى عقد سلم مع قشتالة لمدة سنة. ولكن القشتاليون نقضوا الهدنة وأغاروا على أراضي غرناطة، فتصدي لهم الوزير ابن عبد البر وهزمهم، موقعا بينهم عددا من القتلى والأسرى سنة 838 هـ / 1436 م.

بعد هذه الهزائم التي لحقت بالقشتاليين أخلدوا إلى السكينة، ورأي الأيسر أن يستعين بسلطان مصر، فأرسل سفارة من أربعة أشخاص إلى السلطان جقمق في رجب سنة 844 هـ. ولكن لم تؤد إلى نتائج ملموسة (1).

* * *

محمد بن نصر (الأحنف)

ثم شهدت غرناطة حربا أهلية مميتة أدت في النهاية إلى سقوطها بيد القشتاليين، ذلك أن خصوم الأيسر من الفرسان اللاجئين إلى قشتالة، وعلي رأسهم الأمير يوسف بن أحمد حفيد السلطان يوسف الثاني ثاروا عليه، وكذلك في المرية، فقد أيد الناقمون عليه الأمير محمد بن نصر بن الغني بالله والملقب بالأحنف، وقد نجح الأحنف دخول غرناطة خلسة، واقتحم الحمراء واعتقل الأيسر سنة 1442 م وتربع علي العرش، ولكن قاومه فريق قوي بزعامة الوزير ابن عبد البر الذي كان يؤيد يوسف المقيم في قشتالة، وزحف يوسف علي غرناطة تساعده قوة من قشتالة واستطاع دخول المدينة، وفر الأحنف الذي عاد واسترد عرشه من يوسف أوائل سنة 1446 م. ورد علي مساعدة القشتاليين ليوسف بأن أغار علي أراضيهم، وهاجم قلعتي بني موريل وابن سلامة، وقتل من بهما من النصاري سنة 1446 م واغتزم فرصة

(1) نهاية الأندلس، ص 160، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 380، 381.

الخلاف بين أراجون وقشتالة فعقد حلفا مع أراجون، وهزم القشتاليين قرب صنجالة سنة 1450م وأرسل قوات إلى قتال يوسف بن إسماعيل. وهكذا عصفت الحرب الأهلية بغرناطة وقربت نهايتها (1).

* * *

سعد بن محمد

(863 - 868 هـ / 1458 - 1463 م)

واستمر الأحنف في الحكم حتي 1458 م، وخلفه الأمير سعد بن محمد حفيد السلطان يوسف الثاني الذي عزل سنة 1462 م وأعيد السلطان يوسف بن إسماعيل الذي حكم من أواخر سنة 1463م، وأثناء حكمه الأخير سقط جبل طارق بيد القشتاليين سنة 867 هـ / 1462م، فقد هاجموه بقيادة الدوق ميدينا سدونا واستولوا عليه، وبذلك فقدت غرناطة الطريق الوحيد الذي كان يربط غرناطة بالمغرب، وتشدد القشتاليون بالضغط علي غرناطة، وقطعوا عنها الإمدادات تمهيدا لاحتلالها.

وأصاب غرناطة ضربة قاسية بسقوط دولة بني مرين بعد مقتل آخر سلاطينها عبد الحق بن أبي سعيد سنة 869 هـ / 1464م، وحل محلهم بني وطاس أعداؤهم القدامى (2) ولكن الدولة الناشئة أحجمت عن العبور إلى الأندلس لمساعدة غرناطة التي شعرت بأنها أضحت وحيدة في مواجهة خصمها اللدود، ورغم ذلك كانت تعمد الفتن الداخلية بين العرش وخصومه من الأسر القوية، مما أجبر السلطان علي قبول ما فرضه ملك قشتالة عليه من خضوع وجزية.

وعاد الأمير سعد فهاجم الحمراء واستعاد العرش سنة 1463م من ابن إسماعيل وبقي في الحكم حتى أواخر سنة 868 هـ / 1463 م، إذ ثار عليه ولده علي، وتلقب بالغالب بالله فأخرجه من غرناطة، وسار سعد إلى مالقة واستقر بها (3).

* * *

علي بن سعد - أبو الحسن -

(868 - 878 هـ / 1463 - 1482 م)

(1) تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 381، 382.

(2) الاستقصا، 4 / 119.

(3) نفح الطيب، 6 / 258.

كان علي أبو الحسن في الثلاثين من عمره عندما تسلم الحكم ولم يستقر حكمه إلا بعد صراع مع أخويه أبو الحجاج يوسف وأبي عبد الله محمد بن سعد الملقب بالزغل. توفي الحجاج بعدد قليل، وبقي الزغل ينازع أخاه. انصرف أبو الحسن إلى تحصين مملكته وتنظيم أمورها تحذره رغبة في الجهاد واستعداد بعض الحصون من النصاري.

ولكن تعرض أبو الحسن لثورة أخيه الزغل في مالقة، وقد لجأ - كعادة الثوار الأندلسيين - إلى ملك قشتالة هنري الرابع يطلب مساعدته ضد أخيه أبي الحسن سنة 874هـ / 1469م فوعده بإعانتة علي تحقيق مطلبه، فرد أبو الحسن علي القشتاليين بأن هاجم أراضيهم سنة 875هـ / 1470م، ثم كرر العملية مرة ثانية واندزع منهم بعض الحصون، ثم انصرف إلى محاربة أخيه الزغل (1).

في تلك الأثناء ثار في مالقة القائد محمد الفرسوطي، فسار أبو الحسن إلى المدينة الثائرة، ولكنه فشل في إخماد ثورتها، وعلي إثر ذلك استدعي الثائرون أخاه الزغل المقيم أثنائها في بلاط قشتالة وتوجوه عليهم ملكا، وبذلك انقسمت الدولة الصغيرة إلى مملكتين، وأخيرا جنح الأخوان للصالح، بعدما تبين لهما عواقب الفرقة والاختلاف، وتم الاتفاق علي احترام الوضع القائم، أبو الحسن في غرناطة والزغل في مالقة (2).

في هذه الظروف الصعبة التي كانت تمر بها غرناطة من حرب أهلية أخوية جزأتها كانت إسبانيا النصرانية تحقق وحدتها وذلك باقتران فرناندو بن خوان الثاني ملك أراجون بإيزابيلا أخت هنري الرابع ملك قشتالة سنة 1479هـ فتم بهذا الزواج توحيد المملكتين بعد مرحلة طويلة من الحروب الأهلية، وأصبحت إسبانيا النصرانية قوة كبيرة عجلت بسقوط الأندلس.

وحاول السلطان أبو الحسن تجديد الهدنة مع القشتاليين وأرسل في أوائل سنة 883هـ / 1478م وفدا لهذه الغاية إلى فرناندو وإيزابيلا وكانا يقيمان في إشبيلية، فوافقا علي الطلب شريطة أن يخضع لهما ويؤدي لهما الجزية السنوية، وأرسل مبعوثا إلى أبي الحسن لإبلاغه الشروط، فرفضها وأنذر السفير القشتالي بالحرب. فأسرع القشتاليون وهاجموا أراضي غرناطة وعاثوا في أحواز رندة فرد عليهم بالهجوم علي مدينة الصخرة شمال غرب رندة واستولي عليها وقتل حاميتها، وأثار

(1) نفح الطيب، 6 / 258، الاستقصا، 4 / 102، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 383.

(2) نفح الطيب، 6 / 259 - 260، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 383.

هذا الانتصار الغبطة في صفوف الغرناطيين ولكنهم تخوفوا من عاقبته.

وكان اقتحام الصخرة ظفراً مؤقتاً. ذلك لأن أبو الحسن تخلى عن الجهاد وركن إلى الهدوء والدعة وأساء التصرف مع القادة وأثقل الشعب بالضرائب يساعده في ذلك وزيره أبو القاسم بن يغش (1).

وفي الحقيقة أن مملكة غرناطة أصبحت في مدّ وجز، واعتورتها حالات الضعف والوهن الشديد، وأصابها الهرم، ولحقها الشيخوخة وأضعفها الانقسام والتناحر الداخلي مع الانغماس في اللذات وفي نفس الوقت توحدت إسبانيا النصرانية وتعضدها البابوية الصليبية واجتمعوا علي ضرب الإسلام من كنانة واحدة.

واندلعت الحرب الأهلية في داخل غرناطة بسبب النساء إذ أن أبا الحسن كان قد تزوج من ابنة عمه عائشة أو التي ولدت له أبنة أبو عبد الله المقلب (الصغير) وكان لأبي الحسن زوجة أسبانية جميلة كانت المفضلة عنده وأصبح ملك غرناطة أسيراً لحب امرأته الإسبانية التي تدعى "ثريا" وأصبح أداة سهلة في يد زوجته الفتية الحسنة وكانت كثيرة الدهاء والأطماع، فقد تطلعت إلى أن يكون ولدها الأكبر السيد يحيى ولياً للعهد، في حين كان المؤهل لولاية العهد ابن عائشة الحرة (2) أبو عبد الله محمد، وتمكنت ثريا من إقناع زوجها أبي الحسن لإقصاء عائشة وولديها حتى أقنعتهم باعتقالهم جميعاً، وفي برج قمارش أ منع أبراج الحمراء وزُجَّت عائشة الحرة مع ولديها، وشدّد الحجر عليهم، وغُوملوا بمنتهى الشدة والقسوة وانقسم المجتمع الغرناطي إلى فريقين.

فريق يؤيد السلطان ومحظيته (سيده غرناطة الحقيقية) المستأثرة بكل سلطة ونفوذ.

وفريق يؤيد الأميرة الشرعية (عائشة الحرة وولديها).

ولم تستسلم عائشة الحرة إلى واقعها المؤلم، واتصلت سراً بمؤيديها وأنصارها، وفي مقدمتهم بنو سراج، وتمكّنت من الهرب من قصر الحمراء في ليلة من ليالي جمادي الثانية سنة 887 هـ / 1482 م بمساعدة بعض المؤيدين المخلصين.

وظهرت في وادي آش حيث مجمع أنصار ولدها.

وقرر فرديناند وإزبيللا البدء بالحرب بعد أن سنحت الفرصة، وبعد أن دخلت

(1) نفح الطيب، 6 / 260.

(2) التعريف بالحرّة لأنها كانت عربية حرة وثريا كانت محظية وجارية.

مملكة غرناطة في صراعها الداخلي وسار القواد القشتاليون إلى جنوب غربي غرناطة إلى مكان اسمه الحمة، لضعف وسائل الدفاع عنها من أجل احتلالها ومن ثم احتلال غرناطة ومالقة معاً، وتم لهم ذلك ولم يستطع أبو الحسن ملك غرناطة استردادها، ولكنه استطاع أن يدعم أمير مدينة لوشة الواقعة على نهر شنيل شمال الحامة وعلى مقربة منها وأن يرداً معاً الإسبان في جمادي الأولى 887 هـ/ تموز " يولييه " 1482 م (1).

وتعاطف الشعب الغرناطي مع الشرعية (عائشة الحرة) وثار مع ابنه أبو عبد الله محمد وعزله، واضطر ملك غرناطة أن يترك كرسي الملك وفر إلى مالقة، وكان فيها أخوه الأمير أبو عبدالله محمد بن سعد المعروف بالزغل يدفع عنها جيشاً جراراً سيّره ملك قشتالة لافتتاحها، وجلس ابن عائشة الحرة أبو عبدالله محمد مكان أبيه على عرش غرناطة أواخر سنة 887 هـ، وعمره 25 سنة وأراد أن يحذو حذو عمه الزغل في الجهاد، وباشر القتال بنفسه وحقق انتصارات على النصاري وانتزع منهم حصوناً وقلاعاً سنة 888 هـ / " أبريل " سنة 1483 م وتعرف هذه المعركة باسم الشرقية، وكان لهذا النصر آثاره، فقد انتعشت آمال الأندلسيين واستبشروا خيراً، وأراد الملك الشاب اغتنام الفرصة وأراد أن يحرز نصراً على النصاري ويرفع مكانته بين الأندلسيين مقلداً عمه، فسار علي رأس جيش نحو قرطبة في ربيع الأول سنة 888 هـ / 1483 م واجتاح عدداً من الحصون وهزم النصاري وعاد محملاً بالغنائم، وطارده النصاري ودارت معركة في قلعة اللسان انهزم فيها الغرناطيون ووقع السلطان نفسه في الأسر وسيق أسيراً إلى غرناطة، وعاد المسلمون إلى غرناطة في حالة من الإعياء الشديد بعد أن فقدوا ملكهم الأسير.

قرر قادة غرناطة بالاتفاق مع عائشة الحرة علي استدعاء علي أبو الحسن من مالقة لإنقاذ الوضع المتردي، فاعتذر لمرضه فتنازل لأخيه الزغل واعتزل الحكم (2). واستطاع فرديناند أن يجعل من أبي عبدالله الصغير وسيلة لتدمير غرناطة من الداخل ولذلك رفض الأموال الطائلة التي عرضت عليه من

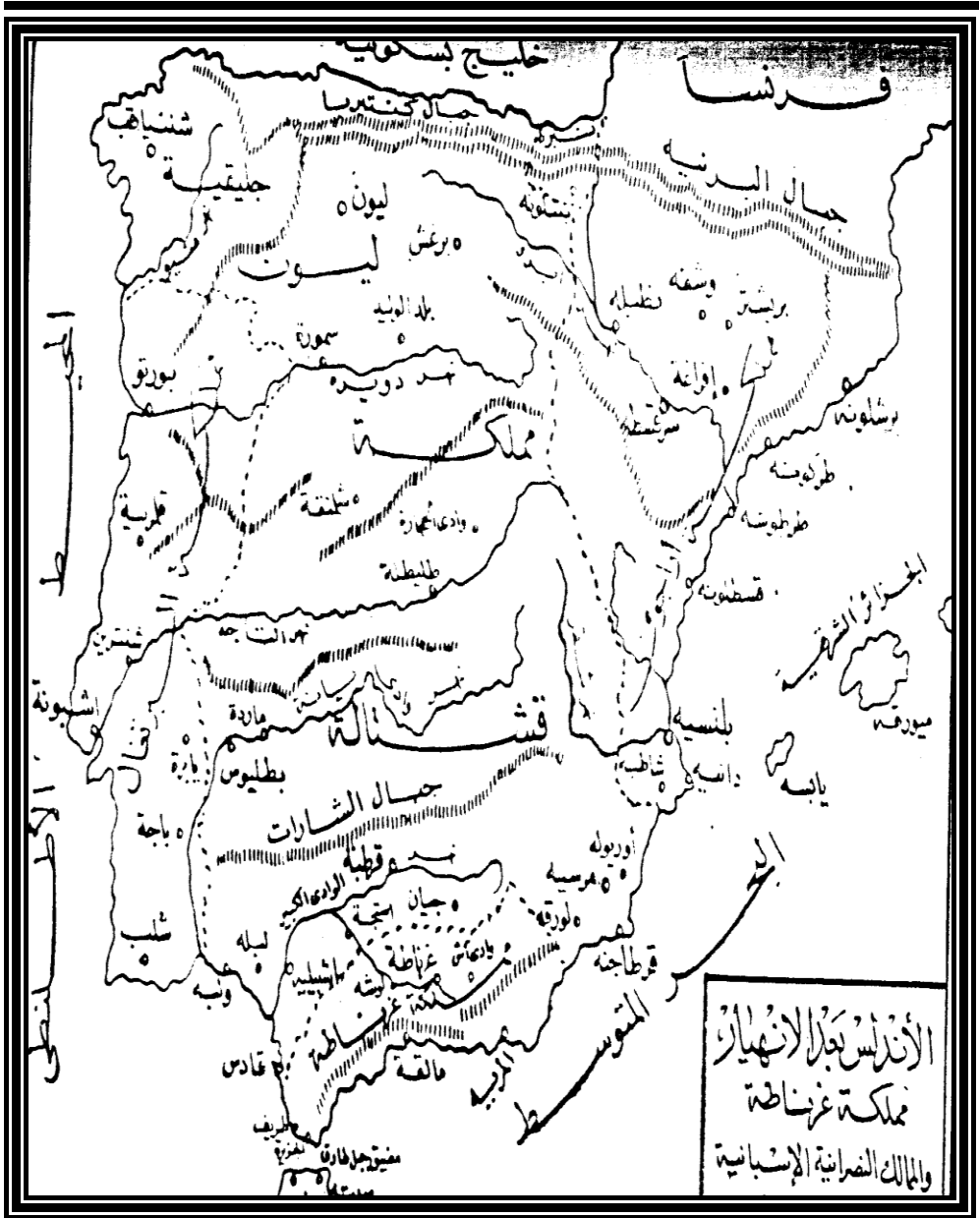
(1) نفح الطيب، 6 / 260، أخبار العصر، ص 11.

(2) نفح الطيب، 6 / 263 - 264، الاستقصاء، ص ص 102.

أجل فك أسره واستغل النصارى قلة خبرة أبي عبدالله الصغير، وانعدام حزمه، وضعف إرادته، وطموحه للحكم.

وظل فرديناند محتقظاً بأبو عبد الله الصغير ولم يطلق سراحه إلا بعد أن وقع لهم على معاهدة أعلن فيها خضوعه وطاعته لملك قشتالة وأن يدفع لهما جزية سنوية مقدارها 12 أوقية من الذهب، وإطلاق سراح 400 أسير نصراني من غرناطة فوراً، وإطلاق سراح 70 أسير سنوياً لمدة خمس سنوات، وأن يقدم رهائن إلى الملكين من كبار زعماء غرناطة من بينهم ابنه الأكبر، ويساعد فرناندو الملك أبو عبد الله بإخضاع المدن الأندلسية الثائرة عليه ومن ثم إخضاعها لتدخل في طاعة ملك قشتالة ومدة هذه المعاهدة عامان، وأن تطبق في جميع البلدان التي تدين بالطاعة لأبي عبدالله الصغير، وأخذ يبيت أبو عبدالله الصغير دعوته في شرق الأندلس، والحرب الأهلية قائمة في غرناطة وزاد الأمر سوءاً سقوط مدينة لوثة بيد النصارى في أواخر جمادى الأولى 891هـ / أيار مايو 1486م، كما استولي الأسبان علي حصني قرطبة وذكوين وغيرهما وقطعت الطريق بين رندة ومالقة، وزحفت علي رندة فاستسلمت في سنة 890هـ / 1485م، وكان موقف أبي عبدالله الصغير أثناء هذه الحوادث الجسام مريباً.

فهو مازال يشيد بمزايا الصلح المعقود مع النصارى. وبقي يستظل بمظاهرته للنصارى وبتأييدهم له. وأنه غدا آلة في يد ملك قشتالة يعمل بوجيهه، فهو الورقة الراجعة بيد فرديناند.



ولما تولى عرش غرناطة أبو عبد الله الزغل واستطاع أن يرد بكل جرأة وشجاعة وبطولة هجمات النصارى، فقد هاجم القشتاليون حصن مكلين شمال غرب غرناطة وكان به الملك الزغل، فاستطاع أن يردهم علي أعقابهم، وقد كبد القشتاليون خسائر فادحة، وذلك في شعبان سنة 890 هـ / يوليو 1485 م وعد الزغل وجنوده مسرورين بهذا الانتصار فقد عمد فرناندو وإيزابيلا إلى إطلاق سراح أبو عبد الله

الأسير لديهما في ذلك الظرف بالذان لإحداث الفتنة والفرقة في صفوف المسلمين الأندلسيين، واستخدام أسلوب تقوية الفتن الداخلية في غرناطة وفي أخرج الظروف أطلق ود عم فرديناند ابا عبدالله الصغير ضد عمه وانقسمت غرناطة إلى شطرين وتحقق لفرديناند ما أراده وسعى إليه، فقد تمزقت دولة الإسلام بالأندلس وستمضي بخطوات سريعة نحو دمارها قبل أن ترجع إلى وحدة صفها مرة أخرى.

وشرع فرديناند في محاربة المناطق الشرقية والجنوبية التي تخضع لأبي عبدالله الزغل، وزحف على مالقة وطوقها براً وبحراً في جماد الثانية 892 هـ/حزيران يونيه 1487م، وخاف الزغل أن يسير إلى انجادهما من وادي آش، خاف غدر ابن أخيه أبي عبدالله الصغير، فاستنجد بسلطان مصر الأشرف قايتباي، ولم يكن من المنتظر أن تقاوم مالقة حتى يأتيها المدد من القاهرة، فسقطت في أواخر شعبان 892 هـ/ آب اغسطس 1478م ونكت فرديناند بوعوده التي قطعها لأهل مالقة، فغدر بهم واسترقهم جميعاً، وهذا مثال لسوء طوية نفس فرديناند تجاه المسلمين (1).

كانت مصر في تلك الفترة لاتستطيع أن ترسل قواتها إلى الأندلس لأسباب عديدة إلا أن حاكمها المملوكي استعمل الضغط السياسي، فأرسل راهبين لسفارة مصرية مملوكية، إلى البابا أنوصان الثامن، وإلى ملوك النصرانية ليبين لهم أن النصارى في بلاد المسلمين في منتهى الأمان والاطمئنان والحرية والحماية، والمسلمون تسفك دماؤهم، وتستحل حرمتهم، وتغزا أراضيهما في الأندلس وتوعد سلطان المماليك فرديناند إن لم يغيّر خطته وسياسته تجاه غرناطة، وإلا اضطر إلى تغيير سياسته حيال النصارى في بلاد المسلمين كمعاملة بالمثل استقبل فرديناند السفيرين، ولم يعبأ بوعيد السلطان الأشرف، ولم يغيّر خطته، ولكنه كتب إليه في أدب المجاملة: "أنهما - فرديناند وزوجه إيزبيلا - لايفرقان في المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارى، ولكنهما لايسـ تطيعان صـ براً على ترك أرض الآباء والأجداد في يد الأجانب، وأن المسلمين إذا شأوا حياة في ظل حكمهما راضين مخلصين، فإنهم سوف يلقون منهما مايلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية" (2).

وفشلت المحاولة الدبلوماسية، وتركت غرناطة تلاقي قضاءها المحتوم، ولم ينفذ

(1) نفح الطيب، 6 / 265 - 268، الاستقصا 4 / 103.

(2) بدائع الزهور، 3 / 246، نهاية الأندلس وتاريخ المنتصرين، ص369.

السلطان تهديده، فلم يضطهد أحداً، لأن الإسلام لا يجيز له ذلك. وأخذت المدن تتساقط تباعاً بيد فرديناند، فسقطت المرية في عام 895 هـ/1890م واستسلمت بشروط هي نموذج لشروط سقوط باقي القواعد الإسلامية وأهمها:

1 - أن يحتفظ المسلمون بدينهم وشريعتهم وأموالهم.

2 - تخفف عنهم أعباء الضرائب.

3 - ألا يولى عليهم يهودي.

4 - ألا يدخل نصراني في " الجماعة الإسلامية ".

5 - وأن يختار الأولاد الذين يولدون من أمهات نصارى الدين الذي يريدون عند البلوغ.. وغيرها من الشروط إلا إن النصارى لا يلتزمون بشيء من ذلك بل يسبون النساء ويسترقون الرجال ويغتصبون الأموال.

وسقطت الثغور التي كانت تصل غرناطة بالمغرب حيث كانت تقف بعض المتطوعة، وانقطعت الصلة نهائياً بعدوة المغرب والشمال الإفريقي (1).

وتطور سير الأحداث وخضع أبو عبدالله الزغل لملك قشتالة على الرغم من شجاعته وبسالته وبقي الزغل يحكم وادي أش تحت حماية ملك قشتالة، ولم تقبل نفسه الأبية هذا الوضع المهين، فترك الأندلس مهاجراً إلى المغرب، ونزل وهران، ثم استقر في تلمسان حزيناً على ضياع الأندلس.

وبقيت غرناطة وعلى عرشها أبو عبدالله الصغير تنتظر مصرعها والاضربة القاضية من النصارى (2).

في سنة 895 هـ/1890م، أرسل الملكان الكاثوليكيان - فرديناند وزوجه ايزابيلا - وفداً يطلب تسليم غرناطة من أبي عبدالله الصغير، فثارت نفس أبي عبدالله الصغير لهذا الغدر والخيانة، وأدرك فداحة الخطأ الذي ارتكبه في محالفة هذا الملك الغادر، ومعاونته على بني دينه وعقيدته ووطنه فرفض الانقياد والخضوع وقرر المقاومة وسار فرديناند بجيش تراوح ما بين 50 - 80 ألفاً، مع مدافع وعُدَد ضخمة، وذخائر وأقوات، وعسكر على ضفاف نهر شنيل على مقربة من غرناطة في 12 جماد الثانية سنة 896 هـ/1491م، وأتلف الزروع والحقول والقرى كي لا تمتد غرناطة بأي

(1) مصرع غرناطة، ص 72 - 77.

(2) مصرع غرناطة، ص 77، دولة الموحدين، ص 251.

طعام، وحاصر غرناطة المدينة الوحيدة المتبقية من عز تليد وملك مديد ضارب في ذاكرة التاريخ السحيق وأصبحت محاطة بالعدو من كل جهاتها. لقد استبسل المسلمون وتحملوا الحصار بل خرجوا لقتال العدو المحاصر وأفسدوا عليه خططه وتدابيره.

وظهر في تلك المقاومة موسى بن أبي غسان والذي قرر الموت دون الاستسلام ومن أقواله في ذلك: (ليعلم ملك النصارى أن العربي قد ولد للجواد والرمح، فإذا طمع إلى سيوفنا فليكسبها، وليكسبها غالية، أما أنا فخير لي قبر تحت أنقاض غرناطة في المكان الذي أموت فيه مدافعاً عنه، من أفرق قصور نغتمها بالخضوع لأعداء الدين “.

وتولى موسى قيادة الفرسان المسلمين، يعاونه نعيم بن رضون، ومحمد بن زائدة، وتولى آل الثغري حراسة الأسوار، وتولى زعماء القسبة والدمراء حماية الحصون.

وحل الشتاء، وقلت المؤن، والذخائر ودخل الوزير المسؤول عن غرناطة “أبو القاسم عبد الملك” مجلس أبي عبدالله الصغير، وقال: إن المؤن الباقية لا تكفي إلا لأمد قصير، وإن اليأس قد دبَّ إلى قلوب الجند والعامّة، والدفاع عبث لا يجدي. ولكن موسى بن أبي غسان قرر الدفاع ما أمكن، فقال للفرسان “لم يبق لنا سوى الأرض التي نقف عليها، فإذا فقدناها فقدنا الاسم والوطن “.

استمر الحصار سبعة أشهر، واشتد الجوع والحرمان والمرض، وأعيد تقويم الموقف في بهو الحمراء، فأقر الملاء التسليم إلا موسى بن أبي غسان الذي قال بحزم: “لم تتضب كل مواردنا بعد.. ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة، وإنه لخير لي أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها.. “ (1).

وكانت هذه الكلمات الصادقة تخاطب أناس انهزموا في داخلهم وخارت عزائمهم، وضعفت معنوياتهم، فقرروا المفاوضة والتسليم، وكلف لهذه المهمة الأليمة الوزير أبو القاسم عبد الملك، جاء في نفح الطيب: “وفي ثاني ربيع الأول من السنة - أعني سنة سبع وتسعين وثمانمائة - استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن

استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهناً خوفاً من الغدر، وكانت الشروط سبعة وستين منها: تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم، ومنها إقامة شريعتهم على ماكانت، ولايحكم على احد منهم إلا شريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لايدخل النصرارى دار مسلم ولايغصبوا أحداً، وأن لايولى على المسلمين نصراني أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم قبل وأن يفتك جميع من أسرى في غرناطة من حيث كانوا، وخصوصاً أعياناً نصّ عليهم، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لاسبيل عليه لمالكة ولاسواه، والسلطان يدفع ثمنه لمالكة، ومن أراد الاجواز للعدوة ولا يُمنع، ويجوزون في مدة عُينت في مراكز السلطان لايلزمهم إلا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم من الكراء، وأن لايؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لايقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، وأن من تنصّر من المسلمين يُوقف أياما حتى يطهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصرارى، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد، ولايعاقب من قتل نصرانيا أيام الحرب، ولا يؤخذ منه ماسلب من النصرارى أيام العداوة، وترفع عنهم جميعهم المظالم والمغارم المحدثّة، ولايطلع نصراني للاسور، ولا يتطلع على دور المسلمين، ولايدخل مسجداً من مساجدهم، ويسير المسلم في بلاد النصرارى آمناً في نفسه وماله، ولايجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن (1).

ولايمنع مؤذن ولا مُصلّ ولا صائم ولاغيره من أمور دينه، ومن ضحك منهم يُعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده ويقول المقرري بعد هذا: “وأمثال هذا مما تركنا ذكره “ من الشروط (2).

يقول الاستاذ محمد عبدالله عنان: (وهذا أفضل مايمكن الوصول إليه في مثل هذه المحنة، لو أخلص النصرارى في عهودهم، لقد ارتضاها المسلمون والشك يساورهم في وفاء أعدائهم، ولما أنسى فرديناند وإيزابيلا ريب المسلمين وتوجسهم أعلنوا في يوم 29 تشرين الثاني “ نوفمبر “ مع قسم رسمي بالله أن جميع المسلمين سيكون لهم مطلق الحرية في العمل في أراضيهم، أو حيث شاؤوا، وأن يحتفظوا بشعائر دينهم

(1) المدجنون: هم الذين بقوا من المسلمين تحت حكم الاسبان.

(2) نفح الطيب 277/6 - 278، دولة الموحدين، ص 253.

ومساجدهم كما كانوا، وأن يسمح لمن شاء منهم بالهجرة إلى المغرب، ولكن سوف نرى أن الإيمان والعهود لم تكن عند ملكي النصارى سوى ستار للخيانة والغدر، وأن هذه الشروط الخلافة نُقِضَتْ جميعاً لأعوام قلائل من تسليم غرناطة، ولم يتردد المؤرخ الغربي بروسكوت نفسه أن يصفها بأنها أفضل مادة لتقدير مدى الغدر الإسباني فيما تلا من العصور “ (1) وهذا ما تنبأ به فارس الأندلس موسى بن أبي غسان حينما اجتمع الزعماء في بهو الحمراء الكبير ليوقعوا على قرار التسليم وقال: “ اتركوا العويل للنساء والأطفال، فنحن رجال لنا قلوب لم تُخْلَقْ لإرسال الدمع، ولكن لتقطر الدماء، وإنى لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن نذق غرناطة وسوف تحتضن أمنا الغبراء أبناءها أحراراً من أغلال الفاتح وعسفه، وإن لم يظفر أحدنا بقبر يستتر رفاته، فإنه لن يعدم سماء تغطيه، وحاشا لله أن يقال إن أشرف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعاً عنها) (2).

وساد سكون الموت في ردهة قصر الحمراء، واليأس ماثل في الوجوه، و غاص كل عزم في تلك القلوب الكسيرة، عندئذ صاح أبو عبدالله الصغير: “ الله أكبر لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولا راد لقضاء الله، تالله لقد كتب لي أن اكون شقياً، وأن يذهب الملك على يدي “، وصاح من حوله على: “ الله أكبر ولا راد لقضاء الله “ وقرروا جميعاً التسليم وأن شروط النصارى أفضل ما يمكن الحصول عليه (3).

نهض موسى بن أبي غسان وصاح: “ لا تخدعوا أنفسكم ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم، إن الموت أقل ما نخشى، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها، وتدنيس مساجدها، وتخريب بيوتنا، وهتك ذسائنا وبناتنا، وأمامنا الجور الفاحش، والتعصب الوحشي والسياسة والأغلال، وأمامنا الأسجون والأنطاق والمحارق وهذا ماسوف نعاني من مصائب الموت الشريف، أما أنا فوالله لن اراه “ (4)، ثم قام وخرج وجاهد حتى استشهد رحمه الله تعالى.

ولقد صاغ الشاعر عدنان مردم بك هذه الصورة على لسان موسى بن أبي غسان فقال:

أنا لن أقرّ وثيقةً :: فرضت وأخضع للعبد

(1) مصرع غرناطة ص85، دولة الموحدين ص 353.

(2) مصرع غرناطة، ص86.

(3) مصرع غرناطة، ص86.

(4) مصرع غرناطة، ص86.

ما كان عذري إن جنت :: وخفت أسباب الردى
والموت حق في الرقاب :: أطال أم قصر المدى
إنني رسمت نهايتي :: بيدي ولن أترددا
كنت الحسام لأمتي :: واليوم للوطن الفدى
أنالن أعيش العمر :: عبداً بل سأقضي سيدا⁽¹⁾

* * *

وصف حي لتسليم غرناطة

وفي الثاني من ربيع الأول 897 هـ، كانون الثاني (يناير) سنة 1492م وفي وقت الصباح تم تسليم المدينة، فما أن تقدم الذصارى الأسبان القشتاليون من تل الرحي صاعدين نحو الحمراء حتى تقدم أبو عبدالله الصغير وهو يلبس أثواب الهزيمة وعلى وجهه العار والشنار وقال للقائد القشتالي بصوت مسموع: “ هيا يا سيدي في هذه الساعة الطيبة وتسلم القصور - قصوري باسم الملكين العظيمين اللذين أراد لهما الله القادر أن يستوليا عليها، لفضائلهما وزلات المسلمين “ (2).

وتم تسليم القصور الملكية والأبراج على يد الوزير ابن كماشة الذي ندبه أبو عبدالله الصغير للقيام بهذه المهمة. وما كاد الكردينال وصحبه يجوزون إلى داخل القصر المنيف حتى صعدوا ووضعوا فوق برجه الأعلى صليباً كبيراً فضياً وبجانبه علم قشتالة وعلم القديس ياقب. وأعلن من فوق البرج ثلاثاً أن غرناطة أصبحت ملكاً للملكين الكاثوليكين.

وأخذ رنين وبكاء يتردد في غرف قصر الحمراء وأبهائه وكانت الحاشية منهمكة في حزم أمتعة الملك المخلوع في ركب قاتم مؤثر يحمل أمواله وأمتعته ومن ورائه أهله وصحبه القلائل وبعض الفرسان المخلصين وكانت أمه الأميرة عائشة تمتطي صهوة جوادها يشع الحزن من محياها الوقور. وحين بلغ الباب الذي سيغادر منه المدينة إلى الأبد ضج الحراس بالبكاء وتحرك الركب نحو منطقة البشرات وفي شعب من الأشعاب المطلة على غرناطة وقف أبو عبدالله الصغير مودعاً لمدينته ومملكه، فأجهش بالبكاء على هاتيك الربوع العزيزة، فصاحت به أمه عائشة الحرة: “ إبك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال “.

(1) د. ناصر الغمر، سقوط الأندلس، ص 65.

(2) دولة الموحدين، ص 257.

إن هذه الكلمة حري بها أن تكون إطاراً لمأساة غرناطة وقد جمعت فيها كل العبر والأمثلة والحكم (1).

و صدقت فالملك لا يحفظه إلا الرجال والدين لا يحفظه إلا الرجال، ولا أعني بذلك الجنس فرب امرأة بألف من الذكران، والعرض لا يحفظه إلا الرجال، والمجد لا يحفظه إلا الرجال، والحرية لا يطلبها إلا الرجال، أما أشباه الرجال فليس هذا ميدانهم ولا بضاعتهم، إنما مكانهم في الخلف مع القاعدين؛ {وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ نِيَعَانَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ} [التوبة: ٤٦].

ولقد صور أحد الشعراء على لسانها قولها:

تذكر الله باكياً هل يرد الدمع :: مجداً ثوى وعاراً أقاما
هذي فوق خطبنا أنك ابني :: يا لأمّ تسقي العذاب تؤاما
لم تصن كالرجال ملكاً فأمسى :: ركنه انذك فابكه كالأيامي (2)

وبعد شهور من مصرع غرناطة غادر أبو عبدالله الصغير إلى الغرب مع أسرته وأمواله، ونزل مدينة مليلة ثم استقر في فاس، مستجيراً بالسلطان أبي عبدالله محمد الشيخ زعيم بني وطاس (3) معتذراً عما أصاب الإسلام في الأندلس على يديه تمهيداً لعذره وتوطئة لمقصده وتطارحاً على تلك الأبواب وتملقاً وتمسكاً بذلك الجنب وتعلقاً وهو في غاية الفصاحة والبلاغة من إنشاء الفقيه الأديب الشاعر الناظم النثر الكتب المجيد البارع البليغ أبي عبد الله محمد بن عبد الله العربي العقيلي رحمه الله وسماه بالروض العاطر الأذفاس في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس ونصه بعد الافتتاح:

مولى الملوك ملوك العرب والعجم :: رعيًا لَمَّا مثله يرعى من الذم
بك استجار ونعم الجار أنت لمن :: حار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلبا :: و أقطع الخطب ما يأتي على الرغم
حكم من الله حتملاً مرد لم :: وهل مرد لحكم منه منحتم
و هي الليالي وقاك الله صولتها :: تصول حتى على الآساد في الأجم

(1) دولة الموحدين، ص 257.

(2) سقوط الأندلس، ص 70.

(3) نفع الطيب 6 / 278، الاستقصا، 4 / 105.

كنا ملوكا لنا في أرضنا دول :::: نمنا بها تحت أفنان من النغم
 فأيقظتنا سهام للردى صيب :::: يرمى بأفجع حتف من بهن رمي
 فلا تنم تحت ظل الملك نومتنا :::: و أي ملك بظل الملك لم ينم
 ييكي عليه الذي قد كان يعرفه :::: بأدمع مزجت أمواهها بدم
 كذلك الدهر لم ييرح كما زعموا :::: يشم بو الصغار الأنف ذا الشمم
 وصل أواصر قد كانت اشتبكت :::: فالملك بين ملوك الأرض كالرحم
 وأبسط لنا الخلق المرجو باسطه :::: و اعطف ولا تنحرف وأعذر ولا تلم
 لا تأخذنا بأقوال الوشاة ولم :::: نذنب ولو كثرت أقوال ذي الوخم
 فما أطقنا دفاعا للقضاء وما :::: أرادت أنفسنا ما حل من نقم
 ولا ركوبا بإزعاج لسابحة :::: في زاخر بأكف الموج ملتطم
 والمرء ما لم يعنه الله أضيع من :::: طفل تشكي بفقد الأم في اليتم
 وكل ما كان غير الله يحرسه :::: فإن محروسه لحم على وضم

{رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: ٢٣].

{أَنْتَ وَلِيْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ} [الأعراف: ١٥٥]. {رَبَّنَا عَلَيْنَا نَوَلِّكَ وَإِلَيْكَ
 أَتَيْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [المتحنة: ٤]. {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ} [محمد:
 ١١]. {نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [الأنفال: ٤٠].

أما بعد حمد الله الذي لا يحمد على السراء والضراء سواء؛ والصلاة والسلام
 على سيدنا ومولانا محمد، الذي طلع طلوع الفجر بل البدر فلاح، يدعوا إلى سبيل كل
 فلاح، أولى قلوب غافلة، وذفوس سواء؛ والرضا عن أصحابه، وعترته الأكرمين
 وأحزابه، الذين تلقوا بالقبول ما أورده عليهم من أوامر ونواه، وعزروه ونصروه في
 حالي وقربه ونواه.

فيا مولانا... هذا مقام العائذ بمقامكم، المتعلق بأسباب ذمامكم لعواطف قلوبكم،
 وعوارق إنعامكم، المقبل الأرض تحت أقدامكم، المتلجلج اللسان عند محاولة مفاتحة
 كلامكم؛ وماذا الذي يقول من وجهة خجل، وفؤاده وجل، وقضيته المقضية عن
 التتصل والاعتذار تجل، بيد أنني أقول لكم لربي، واجترائي عليه أكثر وإجرامي إليه
 أكبر: اللهم لا برئ فأعتذر، ولا قوي فأنتصر، لكني مستقيل مستتيل مستعتب
 مستغفر؛ {وَمَا أَتِرِيْ نَفْسِيْ إِنْ النَّفْسُ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ} [يوسف: ٥٣]... على إني لا أنكر عيوبي،
 فأنا معدن العيوب، ولا أجد ذنوبي، فأنا جبل الذنوب، إلى الله أشكو عجري

وبجري، وسقطاتي وغلطاتي...“ (1).

وكانت شروط تسليم غرناطة لفرناندو وإيزابيلا... سبعة وستين منها: تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحداً، وأن لا يولى على المسلمين إلا مسلم أو يهودي ممن يتولى عليهم من قيل سلطانهم قبل، وأن يفتك جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا، وخصوصاً أعياناً نص عليهم، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لماله ولا سواه، والسلطان يدفع ثمنه لماله، ومن أراد الجواز للعودة لا يمنع، ويجوزون في مدة عينت في مراكز السلطان لا يلزمهم إلا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم والكراء، وأن لا يؤخذ أحد بذنوب غيره، وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياماً حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد، ولا يعاتب على من قتل نصرانياً أيام الحرب، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى، ولا يسفر لجهة من الجهات، ولا يزيدون على المغارم المعتادة، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثّة، ولا يطلع نصراني للسور، ولا يتطلع على دور المسلمين، ولا يدخل مسجداً من مساجدهم، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمناً في نفسه وماله، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن، ولا يمنع مؤذن ولا مصلٍ ولا صائم ولا غيره من أمور دينه، ومن ضحك منه يعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده، وأمثال هذا مما تركنا ذكره...“ (2).

لقد بدأت بمصرع غرناطة مرحلة مؤلمة ومؤسفة لشعب مغلوب، وعدو خائن نقض شروط المعاهدة بنداً بنداً، فمزعوا المسلمين من النطق بالعربية في الأندلس، وفرضوا إجلاء العرب الموجودين فيها، وحرق من بقي منهم، يقول المقرئ: “... إن النصارى نكثوا العهد، ونقضوا الشروط عروة عروة، إلى أن آل الحال لحملهم

(1) هذه الرسالة طويلة جداً أوردنا مقتطفات منها، وقد أوردناها بكمالها المقرئ في كتابه أزهار الرياض في

أخبار القاضي عياض، ص 28 - 32.

(2) المقرئ، نفح الطيب، 2 / 615 - 616.

المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعمائة، بعد أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم أنهم قالوا: إن القسيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجعوا قهراً للكفر، ففعلوا ذلك، وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوة، ثم تعدوا إلى أمر آخر، وهو أن يقولوا للرجل المسلم: إن جدك كان نصرانياً فأسلم فترجع نصرانياً، ولما فحش هذا الأمر قام أهل البيازين على الحكام وقتلوه، وهذا كان السبب للتنصر، قالوا: لأن الحكم خرج من السلطان أن من قام على الحاكم فليس إلا الموت إلا أن يتنصر فينجو من الموت، وبالجملية فإنهم تنصروا عن آخرهم وبادية وحاضرة، وامتنع قوم من التنصر، واعتزلوا الناس، فلم ينفعهم ذلك، وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرهما، فجمع لهم العدو الجموع، واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسيباً، إلا ما كان من جبل بللقة فإن الله تعالى أعانهم على عدوهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة، وأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خف من مالهم دون الذخائر، ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله في خفية ويصلي، فشدد عليهم النصارى في البحث، حتى إنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك، ومنعواهم من حمل السكين الصغيرة فضلاً عن غيرها من الحديد، وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقيض الله لهم ناصراً، إلى أن كان إخراج النصارى إياهم بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشر وألف، فخرجت ألوف بفاس، وألوف آخر بتلمسان من وهران، وجمهورهم خرج بتونس، فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات، ونهبوا أموالهم، وهذا ببلاد تلمسان وفاس، ونجا القليل من هذه المعرة، وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم، وهم لهذا العهد عمرو قراها الخالية وبلادها، وكذلك بتطاوين وسلا ومتيجة الجزائر. ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكرياً جراراً وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن، وحصنوا قلعة سلا، وبنوا بها القصور والدور والحمامات وهم الآن بهذا الحال، ووصل جماعة إلى القسطنطينية العظمى وإلى مصر والأشام وغيرها من بلاد الإسلام، وهم لهذا العهد على ما وصف، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين (1).

وزاد الكردينال "كميندس" على ذلك، فأمر بجمع كل ما يستطيع جمعه من الكتب العربية ونظمت أكادسا في أكبر ساحات المدينة، وفيها علوم لا تقدر بثمن، بل

هي خلاصة ما بقي من التفكير الإنساني وأحرقها، لقد ظن رئيس الأساقفة بفعله ذلك أنه سوف يقضي على الإسلام في أسبانيا وأنى هذا له، وقد تركت حضارة الإسلام في الأندلس من الآثار ما يكفي لتخليد ذكرها على مر الدهور وكر العصور وإن للإسلام جولة وصوله من جديد بإذن الله في ديارنا التي سلبت من أيدينا وسيكون ذلك قريبا عندما يمكن الله لهذه الأمة وإنها لتمر في مراحلها المعاصرة نحو وعد الله بالنصر والفوز والفلاح، " ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا " (1).

* * *

(1) سقوط غرناطة، ص98، دولة الموحدين، ص 263.

محاكم التفتيش

يرجع قيام محاكم التفتيش إلى فكرة الرقابة القديمة علي العقائد، والتدقيق من سلامتها ونقاؤها، وقد ظهرت فكرة التحقيق في أمر العقائد في الكنيسة الرومانية في عصر مبكر جداً، وبدئ بتطبيقها منذ أوائل القرن الثالث عشر، فكان البابا يعهد إلى الأساقفة وإلى الآباء الدومنيكان في تعقب المارقين والكفرة ومعاقبتهم، وطبق هذا النظام في البداية في إيطاليا وألمانيا، وكان مندوبو البابوية يتجولون في مختلف الأنحاء لتقصي أخبار الكفرة والقبض عليهم ومعاقبتهم.

ثم انتقلت محاكم التفتيش إلى إسبانيا، وإلى مملكة أراجون منذ القرن الثالث عشر الميلادي، ثم اندصر نشاطها في مطاردة المسلمين، وهدفت إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية، وبأشد وسائل العنف، ولم تكن الجهود التي قطعت للمسلمين لتحويل دون النزعة الصليبية، التي اسبغت على سياسة أسبانية الغادرة ثوب الدين والورع ولما رفض المسلمون عقائد النصارى ودينهم المنحرف وامتدعوا عنه وكافحوه، اعتبرهم نصارى الأسبان ثواراً وعملاء لجهات خارجية في المغرب والقاهرة والقسطنطينية، وبدأ القتل فيهم وجاهد المسلمون ببسالة في غرناطة والبيازين والبشرات، فمزقوا بلا رأفة ولا شفقة ولا رحمة وفي تموز (يولية) 1501 أصدر الملاك الكاثوليكيان أمراً خلاصته: "إنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال".

فهاجرت جموع المسلمين إلى المغرب ناجية بدينها، ومن بقي من المسلمين أخفى إسلامه وأظهر تنصره، فبدأت محاكم التفتيش نشاطها الوحشي المروع، فعند التبليغ عن مسلم أنه يخفي إسلامه، يزج به في السجن وكانت الأسجون مظلمة عميقة رهيبة، تغص بالحشرات والجرذان، يقيد فيها المتهمون بالأغلال بعد مصادرة أموالهم، لتدفع نفقات سجنهم. ومن أنواع التعذيب، إملاء البطن بالماء حتى الاختناق، وربط يدي المتهم وراء ظهره، وربطه بدبل فوق راحته وبطنه ورفع وخفضه معلقاً، سواء بمفرده أو مع أثقال تربط معه، والأسياخ المحمية، وسحق العظام بآلات ضاغطة، تمزيق الأرجل وفسخ الفك.. ولا يوقف التعذيب إلا إذا رأى الطبيب حياة المتهم في خطر، ولكن التعذيب يستأنف متى عاد المتهم إلى رشده أو جف دمه (1).

(1) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 7 / 329 وما بعدها، سقوط غرناطة، ص 100.

وقرار المحكمة لا يتم إلا عند التنفيذ في ساحة البلدة، وهو إما سجن مؤبد، أو مصادرة أموال وتهجير، أو إعدام حرقاً وهو الحكم الغالب عند الأحرار الذين يشهدون مع الملكين الكاثوليكين حفلات الإحراق (1).

ومما يذكر.. أن هناك عذاباً اختص به النساء وهو تعرية المرأة إلا ما يستر عورتها، وكانوا يضعون المرأة في مقبرة مهجورة ويجلسونها على قبر من القبور، ويضعون رأسها بين ركبتيها ويشدون وثاقها، وهي على هذه الحالة السيئة، ولا يمكنها الحراك، وكانوا يربطونها إلى القبر بسلاسل حديدية، ويرخون شعرها فيجللها وتظهر لمن يراها عن كذب كأنما هي جنيّة لا سيما إذا ما أرخى الليل سدوله، وتترك المسكينة على هذه الحال إلى أن تجن أو تموت جوعاً ورعباً (2).

" لقد قام النصارى بإجبار المسلمين على الدخول في دينهم، وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبق فيها من يقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. إلا من يقولها في قلبه، وفي خفية من الناس وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان، وفي مساجدها الصور والصلبان، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين، وكم فيها من الضعفاء والمعتورين، لم يقدرُوا على الهجرة واللاحق بإخوانهم المسلمين قلوبهم تشتعل نارا، ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان، ويسجدون للأوثان، ويأكلون الخنزير والميتات، ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمذكرات، فلا يقدرُون على منعهم ولا على نهيمهم، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب، فيألفها من فجيرة ما أمّرها! ومصيبة ما أعظمها وطامة ما أكبرها ".

" وانطفاً من الأندلس الإسلام والإيمان، فعلى هذا فليبك الباكون، ولينتحب المنتحبون، فإننا لله وإنا إليه راجعون، كان ذلك في الكتاب مسطوراً وكان أمر الله قدراً مقدوراً ".

لقد كانت محاكم التفتيش والتحقيق مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب.

كانت تلك المحاكم والدواوين تلاحق المسلمين حتى تظفر بهم بأساليب بشعة تقشع لها القلوب والأبدان.

فإذا علّم أن رجلاً اغتسل يوم الجمعة يصدر في حقه حكماً بالموت، وإذا وجدوا

(1) انظر: سقوط غرناطة، ص 100.

(2) انظر: محاكم التفتيش، ص 93.

رجلاً لابساً للزينة يوم العيد عرفوا أنه مسلم فيصدر في حقه الإعدام.

لقد تابع النصارى الصليبيون المسلمين، حتى إنهم كانوا يكشفون عورة من يشكون أنه مسلم فإذا وجدوه مختوناً أو كان أحد عائلته كذلك فليعلم أنه الموت ونهايته هو وأسرته (1).

وكان دستور محاكم التفتيش في ديوان التحقيق يجيز محاكمة الموتى والغائبين وتصدر الأحكام في حقهم وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء. فتصادر أموالهم وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق. أو تنبش قبورهم وتستخرج رفاتهم لتحرق في موكب

“الأوتودافي” وكذلك يتعدى أثر الأحكام بالإدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده فيقضي بحرمانهم من تولي الوظائف العامة وامتهان بعض المهن الخاصة (2).

وكان أعضاء محاكم التفتيش يتمتعون بحصانة خارقة وسلطان مطلق تتدني أمامه أية سلطة وتحمي أشخاصهم وتنفيذ أوامرهم بكل وسيلة وكان من جراء هذه السلطة المطلقة أن ذاع في هذه المحاكم العسف وسوء استعمال السلطة والقبض على الأثرياء بل كثيراً ما وجد بين المحققين رجال من طراز إجرامي لايتورعون عن ارتكاب الغصب والرشوة وكانت أحكام الغرامة والمصادرة أخصب مورد لاختلاس المحققين والمأمورين وعمال الديوان وقضاة. وكانت الخزينة الملكية ذاتها تغنم مئات الألوف من هذا المورد. هذا بينما يموت أصحاب الأموال الطائلة في السجن جوعاً.

وكان العرش يعلم بهذه الآثام المثيرة ولايستطيع دفعاً لها ولأنه كان يرى فيها في الوقت نفسه أصلح أداة لتنفيذ سياسته في إبادة الموريسكيين الذين ظلوا دائماً موضع البغض والريب وأبت إسبانيا النصرانية بعد أن أرغمتهم على اعتناق دينها أن تضمهم إلى حظيرتها وأبت الكنيسة الإسبانية أن تؤمن بإخلاصهم لدينهم الجديد ولبثت تتوجس من رجعتهم وحنانهم لدينهم القديم وترى فيهم دائماً منافقين مارقين.

وإليك مايقوله في ذلك مؤرخ إسباني كتب قريباً من ذلك العصر وأدرك الموريسكيين وعاش بينهم حيناً في غرناطة. وكانوا يشعرون دائماً بالحرَج من الدين الجديد فإذا ذهبوا إلى القدس في أيام الآحاد فذلك فقط من باب مراعاة العرف

(1) سقوط الأندلس، ص72.

(2) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 7 / 329 وما بعدها.

والنظام. و هم لم يقولوا الحقائق قط خلال الاعتراف وفي يوم الجمعة يحتجبون ويغتسلون ويقيمون الصلاة في منازلهم وفي أيام الآحاد يحتجبون ويعملون. وإذا عَمَدُوا أطفالهم عادوا فغسلوهم سرّاً بالماء الحار. ويسمون أولادهم بأسماء عربية وفي حفلات الزواج متى عادت العروس من الكنيسة بعد تلقي البركة تنزع ثيابها النصرانية وترتدي الثياب العربية ويقيمون حفلاتهم وفقاً للأحكام الإسلامية. وقد وصلت إلى المؤرخين وثيقة هامة تلقي ضوءاً أكبر على أحوال الموريسكيين في ظل التنصير وتعلقهم بدينهم القديم وكيف كانوا يتحيلون لمزاولة شعائرهم الإسلامية خفية ويلتمسون من جهة أخرى سائر الوسائل والأعذار الشرعية التي يمكن أن تبرر مسلكتهم وتشفع لهم لدى ربهم (1).

* * *

القواعد النصرانية الإسبانية

في معاملة من أكرهوا على النصرانية

لقد نقل إلى المؤرخين (الدون روني) مؤرخ ديوان التفتيش الإسباني وثيقة من أغرب الوثائق القضائية تضمنت طائفة من القواعد والأصول التي رأى الدين المقدس أن يأخذ بها المسلمون المنتصرين في تهمة الكفر والمروق، وإليك ما ورد في تلك الوثيقة الغريبة.

“يعتبر الموريسكي (2) أو العربي المنتصر قد عاد إلى الإسلام: إذا امتدح دين محمد، أو قال إن يسوع المسيح ليس إلهاً وليس إلا رسولاً. أو أن صفات الأعزراء أو اسمها لاتناسب أمه، ويجب على كل نصراني أن يبلغ عن ذلك. ويجب عليه أيضاً أن يبلغ عما إذا كان قد رأى أو سمع بأن أحداً من الموريسكيين يباشر بعض العادات الإسلامية. ومنها أن يأكل اللحم في يوم الجمعة وهو يعتقد أن ذلك مباح. وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدي ثياباً أنظف من ثيابه العادية. أو يستقبل المشرق قائلاً باسم الله، أو يوثق أرجل الماشية قبل ذبحها، أو يرفض أكل تلك التي لم تذبح، أو ذبحتها امرأة. أو يختن أولاده أو يسميهم بأسماء عربية، أو يعرب عن رغبته في اتباعه هذه العادة، أو يقول إنه يجب ألا يعتقد إلا بالله وبرسوله محمد، أو يقسم بأيمان القرآن، أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله، ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب، أو يتناول

(1) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس 223/3، دولة الموحدين، ص 264.

(2) الموريسكي يطلق على المسلم الذي أكره على الدخول في النصرانية.

الطعام قبل الفجر (السحور) أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر. أو يقوم بالوضوء والصلاة. بأن يوجه وجهه نحو الشرق ويركع ويسجد ويدلو سوراً من القرآن. أو أن يتزوج طبقاً لرسوم الشريعة الإسلامية. أو يذشد الأغاني العربية. أو يقيم حفلات الرقص والموسيقى العربية. أو أن يستعمل النساء الخضاب في أيديهن أو شعورهن، أو يتبع قواعد محمد الخمس، أو يلمس بيديه على رؤوس أولاده أو غيرهم تنفيذاً لهذه القواعد. أو يغسل الموتى ويكفنه في أثواب جديدة أو يدفنه في أرض بكر. أو يغطي قبورهم بالأغصان الخضراء أو أن يستغيث بمحمد وقت الحاجة منعاً إياه بالنبي ورسول الله. أو يقول: إن الكعبة أول معابد الله أو يقول إنه لم يُنصّر إيماناً بالدين المقدس. أو أن آباءه وأجداده قد غنموا رحمة الله لأنهم ماتوا مسلمين..“ (1).

لقد استمرت محاكم التفتيش الظالمة وأصبح لهذا العمل الفظيع والحقير تلاميذ في الديار الإسلامية والعربية، يمارسون القهر والظلم والجور بكل أنواعه على أبناء المسلمين الذين يطالبون بإعادة نظام الحكم الإسلامي في كافة شؤون حياتهم، إنها حلبة الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والعدل، والظلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد استمرت محاكم التفتيش قروناً عدة وعندما احتل نابليون إسبانية بعد قيام الثورة الفرنسية أصدر مرسوماً سنة 1818م بإلغاء محاكم التفتيش في إسبانيا، ولكن رهبان

“الجزويت” أصحاب المحاكم الملغاة استمروا في القتل والتعذيب، فشمّل ذلك الجنود الفرنسيين، فأرسل المريشال “سولت” الحاكم العسكري الفرنسي لمدير الكولونيل “ليمونكي” مع ألف جندي وأربعة مدافع، وهاجم دير الديوان، وبعد احتلال الدير وتفتيشه عنوة لم يعثروا على شيء فقرّر الكولونيل “ليمونكي” فحص الأرض، وعند ذلك نظر الرهبان إلى بعضهم نظرات قلقة أمر الكولونيل جنده برفع الأبسطه، فرفعت، ثم أمر بأن يصبوا الماء بكثرة في أرض كل غرفة على حدة، ففعلوا. فإذا الماء يتسرب إلى أسفل في إحدى الغرف، فعرفوا أن الباب من هنا يفتح بطريقة مأكرة بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جوار رجل مكتب الرئيس. وفتح الباب بقحوف البنادق، واصفرت وجوه الرهبان وكستها غبرة. وظهر سلم يؤدي إلى باطن الأرض ونزل القائد الكولونيل وجنده. ويذكر هذا الإنسان في مذكراته ما يلي.

فإذا نحن في غرفة كبيرة مربعة، وهي عندهم قاعة المحكمة، في وسطها عمود من الرخام، به حلقة حديدية ضخمة، ربطت بها سلاسل، كانت الفرائس تقيد بها رهن المحاكمة وأمام ذلك العمود عرش “الدينونة” كما يسمونه، وهو عبارة عن “دكة” عالية يجلس عليها رئيس الديوان (1)، وإلى جانبيه مقاعد أخرى أقل ارتفاعاً معدة لجلوس جماعة القضاة ثم توجهنا إلى غرف آلات التعذيب، وتمزيق الأجسام البشرية. وقد امتدت تلك الغرف مسافات كبيرة تحت الأرض. وقد رأيت بها ما يستفز نفسي، ويدعوني إلى التقزز ماحييت رأينا غرفاً صغيرة في حجم جسم الإنسان، بعضها عمودي وبعضها أفقي، فيبقى سجين الأفقية ممدداً بها حتى يموت. وتبقى الجثة في السجن الضيق حتى تبلى، ويتساقط اللحم عن العظم، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من الأجداث البالية تفتح كوة صغيرة إلى الخارج، وقد عثرنا على عدة هياكل بشرية مازالت في أغلالها سجيئة.

والسجناء كانوا رجالاً ونساءً تختلف أعمارهم بين الرابعة عشرة والسبعين، واستطعنا فكاًك بعض السجناء الأحياء وتحطيم أغلالهم، وهم على آخر رمق من الحياة، وكان فيهم من جُرَّ لكثرة مالاقي من عذاب، وكان السجناء عرايا زيادة في النكاية بهم، حتى اضطر جنودنا أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها لفيماً من النساء السجينات.

وانتقلنا إلى غرف أخرى فرأينا هناك ما تقشعر لهوله الأبدان، عثرنا على آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم وكانوا يبدؤون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين، وذلك كله على سبيل التدريج حتى تأتي الآلة على البدن المهشم، فيخرج من الجانب الآخر كتلة واحدة.

وعثرنا على صندوق في حجم رأس الإنسان تماماً، يوضع فيه الرأس المُعَذَّب، بعد أن يربط صاحبه بالسلاسل في يديه ورجليه فلا يقوى على الحركة وتقطر على رأسه من ثقب في أعلى الصندوق نقط الماء البارد، فتقع على رأسه بانتظام في كل دقيقة نقطة. وقد جُرَّ الكثيرون من ذلك اللون من العذاب، قبل أن يحملوا به على الاعتراف، ويبقى المعذب على حاله تلك حتى يموت.

وعثرنا على آلة ثالثة للتعذيب تسمى السيدة الجميلة، وهي عبارة عن

(1) رئيس ديوان محكمة التفتيش، دولة الموحدين، ص 269.

تابوت تنام فيه صورة فتاة جميلة مصنوعة على هيئة الاستعداد لعناق من ينام معها، وقد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة. وكانوا يطرحون الشاب المعدب فوق هذه الصورة. ثم يطبقون عليه باب التابوت بسكاكينه وخناجره، فإذا أغلق مُزَّق الشاب وتقطع إرباً إرباً.

كما عثرنا على جملة آلات لسل اللسان، ولتمزيق أثداء النساء وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب فظيعة، ومجالد من الحديد الشائك لضرب المُعذِّبين وهم عرايا حتى يتناثر اللحم عن العظم.

ولما شاهد الناس بأعينهم وسائل التعذيب جُنَّ جنونهم وانطلقوا - كمن به مسّ - فأمسكوا برئيس الدير ووضعوه في آلة التكسير، فدقت عظامه دقاً، وسحقها سحقاً.

وأمسكوا أمين سره، وزفّوه إلى السيدة الجميلة، وأطبقوا عليهما الأبواب، فمزّقته السكاكين شر ممزّق، ثم أخرجوا الجثتين، وفعلوا بسائر العصاة وبقية الرهبان كذلك (1).

قلت: ومن سنن الله الجارية تسليط بعض الظالمين على بعض ولذلك انتقم الله من هؤلاء القساوسة المتوحشين الذين نزعت من قلوبهم أدنى مشاعر وأحاسيس الإنسانية وانقادوا في حزب الشيطان اللعين (2).

* * *

أهم أسباب سقوط غرناطة والأندلس عموماً

- تفتت كيان الشمال الإفريقي بعد سقوط دولة الموحدين حيث تحملت دولة بني مرين حمل الجهاد وحدها في الأندلس إلا أنها ضعفت وعجزت عن أداء رسالتها الجهادية في الدفاع عن ما تبقى للإسلام في الأندلس.

- سعى ممالك إسبانيا نحو الاتحاد وتمّ ذلك في الزواج السياسي الهام الذي تم بين (فرناندوا) الذي أصبح ملكاً لمملكة أرجون، وإيزابيلا التي تبوّأت عرش مملكة قشتالة فيما بعد ثم اتحدت المملكتان النصرانيتان وتعاونتا معاً بعد اتحادهما على القضاء كلية على سلطان المسلمين السياسي في الأندلس

(1) مصرع غرناطة، ص 93، 112، دولة الموحدين، ص 269 - 270.

(2) دولة الموحدين، ص 270.

- الانغماس في الشهوات والركون إلى الدعة والترف وعدم إعداد الأمة للجهاد. يقول المؤرخ النصراني كوندي: (العرب هووا عندما نسوا فضائلهم التي جاؤوا بها، وأصبحوا على قلب متقلب يميل إلى الخفة والمرح والاسترسال بالشهوات).

أما شوقي أبو خليل فيقول: “والحقيقة تقول: إن الأندلسيين في أواخر أيامهم ألقوا بأنفسهم في أحضان النعيم، وناموا في ظل ظليل من الغنى والحياة العابثة، والمجون، وما يرضي الأهواء من ألوان الترف الفاجر، فذهبت أخلاقهم كما ماتت فيهم حمية آبائهم البواسل، الذين كانوا يتدربون على السلاح منذ نعومة أظفارهم، ويرسلون إلى الصحراء ليتمرّسوا على الحياة الخشنة الجافية وغدا التهلك، والإغراق في المجون، واهتمام النساء بمظاهر التبرج والزينة والذهب واللآلئ.

لقد ديسست التقاليد وانتشر المجون، وبحث الناس عن اللذة في مختلف صورها، فكانت الخمر والقيان والمتع، وأقبلوا على الحياة يعبّون في بحرها ويسكرون بعطرها، لقد استنموا للشهوات والسهرات الماجنة، والجواري الشاديات، وبحكم البديهة فإن شعبا يهوى إلى هذا الدرك من الانحلال والميوعة والمجون، لا يستطيع أن يصمد رجاله في الانحلال والميوعة والمجون، لا يستطيع أن يصمد رجاله لحرب أو جهاد، أو يتكوّن منهم جيش قوي، كفاء للحرب والمصالحة⁽¹⁾.

لقد تنافس الولاة والحكام في الجواري حتى أصبحت ساحات للمعارك والقتال، وأصبح الاقتران بالنصرانيات سنة متبعة بينهم، وقف عند هذه الحادثة ذكر المؤرخين أن وفاة ابن هود عام 635هـ كانت على يد وزيره محمد الرميمي بسبب النزاع حول فتاة نصرانية كانت لابن هود، فدبر له مكيدة قتل بها.

أهذه قيادة تستحق أن تحكم رقاب أمة محمد صلى الله عليه وسلم، دخل المسلمون الأندلس وأصبحوا ساداتها عندما كان نشيد طارق في العبور “الله أكبر” وبقينا فيها زمنا، حين كان يحكمها أمثال عبدالرحمن الداخل عندما قدم إليه خمر ليشرب قال إني محتاج لما يزيد في عقلي لا ما ينقصه “⁽²⁾.

(1) مصرع غرناطة ص 94، دولة الموحدين، ص 270.

(2) سقوط الأندلس، ص 27 - 29.

يقول الدكتور عبدالرحمن الحجي عن الفاتحين الأوائل للأندلس: (كانت غيرة هؤلاء المجاهدين شديدة على إسلامهم، فدوه بالنفس وهي عندهم له رخيصة، فهو أغلى من حياتهم أشربت نفوسهم حُبّه، غدا تصورهم وفكرهم ونورهم وربيع حياتهم “ (1).

الاختلاف والتفرق بين المسلمين، ولو نظرت إلى تاريخ العلاقات بين مملكة غرناطة ودولة بني مرين وبني عبدالواد والدولة الحفصية لوجدت أمراً فظيماً، وصل إلى حد الاشتباك والقتال بين المسلمين بل أكثر من ذلك حيث تحالف المسلمون مع النصاري ضد إخوانهم في العقيدة من أجل شهوة السلطة، وكان هذا التفرق الذميمة منذ ملوك الطوائف بل إن التفرق من أبرز سمات عصر ملوك الطوائف.

إن سنة الله تعالى ماضية في الأمم والشعوب لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، وجعل سبحانه وتعالى من أسباب هلاك الأمم الاختلاف وقال صلى الله عليه وسلم في حديث أخرجه إمام المحدثين البخاري رحمه الله تعالى: **﴿إِنْ مِنْكُمْ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا— وفي رواية: ﴿فَأَهْلَكُوا— (2)﴾.**

وعند ابن حبان والحاكم عن ابن مسعود: **﴿إِنَّمَا أَهْلَكَ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الاختلاف— (3)﴾.**

والاختلاف المهلك للأمة هو الاختلاف المذموم وهو الذي يؤدي إلى تفرقها وتشتتها وانعدام التناصر فيما بين المختلفين كل طرف ببطلان ماعند الطرف الآخر، وقد يؤول الأمر إلى استباحة قتال بعضهم بعضاً (4).

- موالاتة النصاري والثقة بهم والتحالف معهم حيث نجد أن تاريخ الأندلس مليء بالتحالف مع النصاري إلى أن بلغ ذروة رهيبة واضطرب بسبب ذلك مفهوم الولاء والبراء والحب في الله والبعض في الله بل هذه المعاني كادت تندثر.

إن الأمة حيث تخالف أمر ربها وتتحرف عن طريقه فلا بد أن يحل بها سخطه وتستوفي أسباب نقمته.

(1) انظر: التاريخ الاندلسي، ص211، دولة الموحدين، ص 271 - 272.

(2) صحيح البخاري بشرح العسقلاني (9/101، 102).

(3) المصدر السابق (9/102).

(4) د. عبدالكريم زيدان، السنن الإلهية، ص139، دولة الموحدين، ص 273.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ} [المائدة: ٥٧].

وقوله عز وجل: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ} [آل عمران: ٢٨].

وقوله تعالى: {لَا يَتَّخِذُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ} [المجادلة: ٢٢].

فإذا كان هذا كله مسطراً في كتاب ربها وسنة نبيها وتخالفه، فلا بد أن تُرى فيها سنة الله التي لا تتغير ولا تتبدل.

فهذا أبو عبدالله الصغير سلطان غرناطة الأخير يفرح لفرح النصراني ويحزن لغضبهم ويصانعهم ويهاديهم ويهادنهم ويراسلهم، حتى لقد بدا وكأنه أخلص العالم لهم، وعلى يد هذا الصغير قدمت الأندلس للنصارى على طبق من ذهب، دون أن يجد النصارى في ذلك عناءً يذكر!

وهل شكر النصارى لهذا، المتخاذل خذلانه لقد طرده من الأندلس إلى المغرب (ثم ارتحل السلطان أبو عبدالله إلى مدينة فاس - حرسها الله - وما زال أعقابه بها إلى الآن من جملة الضعفاء السُّؤال، بعد الملك الطويل العريض، فسبحان المعز المذل، المانع المانع لا إله إلا هو) (1).

- التخاذل عن نصره من يحتاج إلى نصره:

لقد تخاذل ملوك الشمال الإفريقي عن نصره ماتبقى من الإسلام والمسلمين في الأندلس بسبب حروبهم الطاحنة المدمرة فيما بينهم، واذغالهم ببعضهم وانهكت قواهم في حروب مريرة لم يستفد منها إلا أعداء الإسلام.

لقد كان التخاذل في الأندلس من زمن ملوك الطوائف حيث يتخاذلون عن نصره من يستحق النصره وبسبب هذا التخاذل سقطت كثير من الولايات الأندلسية في الفترة الزمنية بين عامي 627 - 655 هـ، كان وكانت فترة سقوط أكثر الممالك الإسلامية في الأندلس في أقل من ثلاثين عاماً تتقلب خارطة الأندلس، ويتمكن منها عبّاد الصليب، وتصبح معظم الأندلس أرض نصرانية تحارب الإسلام بكل ماتملك من أجل سحقه ومحيه من الوجود.

(1) انظر: سقوط الأندلس، ص 67، 68، دولة الموحدين، ص 276.

وكانت نتيجة تخاذل المسلمين كما قال الشاعر:

كم جامع فيها أعيد كيسة :: فأهلك عليه أسى ولا تتجلد
أسفاً عليها أقفرت صلواتها :: من قانتين وراكعين وسجد
كم من أسير عندهم وأسيرة :: فكلاهما يبغي الفداء فما فدى
كم من عقيلة معشرٍ معقولة :: فيهم تود لو أنها في ملحد
كم من تقىٍ بالسلاسل موثق :: يكي لآخر في الكبول مقيّد
ضجت ملائكة السماء لحالهم :: وبكى لهم من قلبه كالجلمد
أفلا تذوب قلوبكم إخواننا :: مما دهانا من ردى أو من ردى
أفلا تراعون الأذمة بيننا :: من حرمة ومحبة وتودد
أكذا يعيث الروم في اخوانكم :: وسيوفكم للشار تتقلّد
ياحسرتي لحمية الإسلام قد :: خمدت وكانت قبل ذلك توقد⁽¹⁾

ولم يكن كثير من حكام الأندلس لا سيما منذ عصر الطوائف أهلاً لقيادة الأمة في عمومهم، واسمع الى ابن حزم وهو يقول عن هؤلاء الحكام: (والله لو علموا أن في عبادة الصليبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنوهم من حرب المسلمين، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه..)⁽²⁾.

ومنها الثورات الداخلية في الأندلس، واقتتال المسلمين فيما بينهم، وتغافلهم عما يحاط بهم من أخطار، وغيرها من الأسباب التي سوف نجمها - إن شاء الله - في كتاب منفرد عن محنة الإسلام في الأندلس وسقوط غرناطة.

(1) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، 3 / 63، دولة الموحدين، ص 274.

(2) مجموع رسائل ابن حزم، 3/176، دولة الموحدين، ص 279.

وأخيراً

فما كان من توفيق فمن الله وحده، وما كان من خطأ أو نسيان فمني ومن الشيطان.

والنقص في أصل الطبيعة كامن :: فبنو الطبيعة نقصهم لا يجحد
 وأسأل كل من قرأ هذا الكتاب وانتفع به أن يسأل الله لي غفران الذنوب وتقبل
 صالح الأعمال وأن يرزقني الشهادة في سبيله ومرافقة نبيه محمد صلى الله عليه
 وسلم في أعلى جنات الخلد.
 ولمن أراد أن يرأسني لمعرفة رأيه في الكتاب، فرحم الله امرأً أهدي إليَّ
 عيوبي.

جمهورية مصر العربية - محافظة البحيرة - مركز إيتاي البارود - عزبة الحكر.

د / رجب محمود إبراهيم بخيت

وعبر الهاتف

045 / 3433959

045 / 9118428

0103844932

* * *

المصادر والمراجع

المراكشي:

المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ط القاهرة 1963 م.

البكري:

جغرافية الأندلس وأوربا، (من كتاب المسالك والممالك) تحقيق عبد الرحمن

علي الحجي، ط بيروت 1968 م.

عبد الرحمن علي الحجي:

التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة، ط دار العلم ببيروت

1976 م

أحمد مختار العبادي:

في التاريخ العباسي والأندلسي، ط دار النهضة ببيروت، 1972 م

حسان حلاق:

العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، الأندلس /

صقلية الشام، ط الدار الجامعية ببيروت، 1986 م،

محمد زيتون:

المسلمون في المغرب والأندلس، ط دار الوفاء للطباعة، القاهرة 1984 م

ابن الكردبوس، عبد الملك:

كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء - القسم الخاص بالأندلس نشر أحمد

مختار العبادي - صحيفة معهد الدراسات الإسلامية.

الحميري:

الروض المعطار في أخبار الأقطار، نشر وترجمة ليفي بروفندسال، ط القاهرة

سنة 1937 م

المقري:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محدي الدين عبد الحميد،

ط القاهرة، 1302 هـ

أزهار الرياض في أخبار عياض، ط القاهرة، 1942 م

ابن عذاري:

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ليفي بروفندسال، ط دار الثقافة ببيروت

ابن عبد ربه الأندلسي:

العقد الفريد، تحقيق الناشر دار إحياء التراث العربي، سنة النشر 1420 هـ - 1999م، مكان النشر بيروت / لبنان

أحمد زكي صفوت،:

- جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية - بيروت،

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النوري

نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مفيد قمدية وجماعة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1424 هـ - 2004 م،

أبو عبد الله بن سعد بن أحمد السلماني (لسان الدين ابن الخطيب)

الإحاطة في أخبار غرناطة، ط الأولى، دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت - 2003 هـ - 1424 هـ، تحقيق: د. يوسف علي طويل،

شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي:

تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، نشر دار الكتاب العربي، لبنان/ بيروت، الطبعة الأولى، 1407 هـ - 1987م

سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت.

أبو الحسن علي بن بسام الشنتيني:

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، نشر الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس

د/ إبراهيم حركات:

النظام السياسي والحربي، في عهد المرابطين، ط الدار البيضاء

د / السيد عبد العزيز سالم:

- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ط مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

د / علي حسن الشطشاط:

- تاريخ الإسلام في الأندلس، من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة، ط دار قباء، القاهرة.

د/ سعدون نصر الله:

تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ط دار النهضة العربية، بيروت.

محمد عبدالله عنان

دولة الإسلام في الأندلس، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001، 2003 م.

د/ محمد كمال شبانة:

الأندلس، دراسة تاريخية، ط القاهرة، 2008 م

ابن الآبار القضاعي:

الحلة السراء، ط بيروت، 1962 م.

ابن الخطيب:

الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط القاهرة، 1977م

أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق ليدي

بروفنسال، ط بيروت 1956م

الحل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ط تونس.

نفاضة الجراب في غلالة الاغتراب.

اللحمة البدرية في الدولة النصرية.

ابن حزم الأندلسي:

رسائل ابن حزم، ط المؤسسة العربية للدراسة والنشر.

ابن حيان القرطبي:

المقتبس من أنباء أهل الأندلس، ط دار الكتاب العربي.

ابن خلكان:

وفيات الأعيان، تحقيق د / إحسان عباس، ط دار صادر.

- أشباخ:

تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، ط

مؤسسة الخانجي، 1958 م.

د / علي محمد الصلابي:

دولة المرابطين.

دولة الموحدين.

الدولة الأموية.

عمر بن عبد العزيز.

أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

المؤلف مجهول:

أخبار مجموعة من فتح الأندلس حتي آخر عهد الناصر، ط دار الكتاب اللبناني.

المؤلف مجهول:

أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر، ط /تطوان بالمغرب.

الأمير عبد الله:

مذكرات الأمير عبد الله، أو كتاب التبيان.

الحميدي:

جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، ط دار الكتاب اللبناني.

السلوي:

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ط الدار البيضاء، 1954 م

د / شوقي أبو خليل

العقاب، دار الفكر، تصوير 1405 هـ، 1985 م عن ط 1 1979 م.

الأراك، دار الفكر، الطبعة الاولى 1979 م.

سقوط غرناطة، دار الفكر، الطبعة الثانية 1981 م.

عوامل النصر والهزيمة، دار الفكر، دمشق الطبعة الثانية 1407 هـ، 1987

د / نجيب زيب:

الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، دار الأمير، الطبعة الاولى

1415 هـ، 1995 م.

د/ عبدالكريم زيدان:

السنن الالهية، مؤسسة الرسالة، الطبعة الاولى 1413 هـ، 1993 م

د / عبدالرحمن الحجري:

تاريخ الأندلس، دار القلم، الطبعة الرابعة 1415 هـ، 1994 م.

د / أحمد مختار العبادي:

دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة.

د / سلامة محمد سلمان الهرفي:

دولة المرابطين، دار الندوة 1405 هـ/1985 م.

د/ناصر العمري:

سقوط الأندلس، مؤسسة المومتمن، دار الوطن، الطبعة الاولى 1412 هـ.

د. سيد بن حسين العفاني:

صلاح الأمة في علو الهمة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الاولى 1417 هـ/1997 م.

د / حسين مؤنس:

- فجر الأندلس، ط القاهرة، 1959 م.

- فتح العرب للمغرب، ط القاهرة 1947 م.

* * *

الفهرس

4.....	المقدمة
9.....	التمهيد
12.....	الفتح الإسلامي لإفريقية والمغرب:
12.....	أولاً: فتح مصر
13.....	مسير الفتح الإسلامي لمصر
13.....	فتح الفرما
15.....	فتح بلبيس
16.....	معركة أم دنين
16.....	معركة حصن بابليون
17.....	فتح الإسكندرية
20.....	فتح إفريقية
24.....	بطولة عبد الله بن الزبير في فتح إفريقية
26.....	فتوحات الشمال الأفريقي في عهد معاوية ☺
27.....	عقبة بن نافع وفتح إفريقية
29.....	بناء مدينة القيروان
31.....	الخصائص المتوفرة في موضع القيروان
35.....	عزل عقبة وتولي أبي المهاجر دينار سنة 55هـ
36.....	فتوحات أبي المهاجر دينار 55 - 62هـ
38.....	إسلام كسيلة
39.....	ولاية عقبة بن نافع الثانية 62 - 63هـ
40.....	جهاده من القيروان إلى المحيط
45.....	استشهاد عقبة بن نافع وأبو المهاجر رحمهما الله تعالى
48.....	أثر معركة تهودة على المسلمين 63هـ
50.....	فتح قرطاجنة
51.....	هزيمة حسان أمام الكاهنة
51.....	استعادة البيزنطيين قرطاجنة وانسحاب حسان إلى سرت بلبيبا
53.....	مقتل الكاهنة 82هـ
53.....	سياسة حسان مع البربر
53.....	أ - إدخالهم في قيادة الجيوش
54.....	ب - المساواة بين البربر والعرب المسلمين

- ج - الاهتمام بالتنظيم الإداري..... 54
- عزل حسان عن ولاية إفريقية..... 54
- فتوحات موسى بن نصير 85هـ..... 55
- نظرة جغرافية علي الأندلس..... 59
- إسبانيا قبيل الفتح الإسلامي..... 59
- فتح جزيرة طريف..... 67
- الفصل الأول: الفتح العربي الإسلامي لبلاد الأندلس..... 70
- فكرة الفتح..... 72
- الخطبة المنسوبة إلى طارق وحرقت السفن..... 80
- الدروس المستخلصة من معركة وادي لكة..... 82
- عبور موسى بن نصير إلى الأندلس..... 84
- فتح إشبيلية وماردة..... 88
- مقتل لذريق..... 89
- استعادة طليطلة..... 91
- الزحف شمالا نحو البرانس..... 92
- ارتياح أهالي الأندلس للحكم الإسلامي..... 94
- موسى وطارق يقابلان الوليد في عاصمة الأمويين..... 96
- سبب رجوع موسى إلى عاصمة الخلافة دمشق..... 99
- خاتمة موسى بن نصير وطارق بن زياد رحمهما الله تعالى..... 100
- الفصل الثاني: عصر الولاة (59 - 138 هـ / 714 - 755 م)..... 104
- عصر الولاة..... 106
- عبد العزيز بن موسى بن نصير (95 - 97 هـ / 714 - 716 م)..... 106
- أيوب بن حبيب اللخمي..... 111
- ولاية الحر بن عبد الرحمن الثقفي (97 - 100 هـ / 716 - 719 م)..... 111
- ولاية السمح بن مالك الخولاني (100 - 102 هـ / 719 - 721 م)..... 113
- ولاية عبد الرحمن الغافقي الأولي (102 هـ / 721 م)..... 115
- ولاية عنبسة بن سحيم الكلبي (103 - 107 هـ / 722 - 726 م)..... 115
- ولاية عبد الرحمن الغافقي الثانية (112 - 114 هـ / 731 - 732 م)..... 117
- معركة بواتييه أو بلاط الشهداء (رمضان سنة 114 هـ / نوفمبر 732 م)..... 117
- وقفة مع بلاط الشهداء..... 123
- ولاية عبد الملك بن قطن الفهري الأولي (114 - 116 هـ)..... 124

- 125 ولاية عقبة بن الحجاج السلولي (116 - 122 هـ).
- 126 ولاية عبد الملك بن قطن الفهري ثانية (122 - 123 هـ / 739 - 740 م).
- 130 ولاية بلج بن بشر القشيري (123 هـ / 740 م).
- 131 ولاية ثعلبة بن سلامة العاملي (124 هـ / 742 م).
- 132 ولاية أبي الخطار بن ضرار الكلبي (125 - 128 هـ / 742 - 745 م).
- 135 ولاية ثواب بن سلامة الجزامي (128 هـ / 746 م).
- 135 ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهري (129 - 138 هـ / 747 - 755 م).
- 143 الفصل الثالث: قيام الدولة الأموية في الأندلس.
- 154 موقعة المصارة والاستيلاء علي قرطبة.
- 154 ولاية عبد الرحمن الداخل.
- 155 ثورة يوسف الفهري علي ابن معاوية ومقتله هو والصميل.
- 158 ثورة رزق بن النعمان الغساني سنة 143 هـ.
- 158 ثورة عبد الغافر اليماني: سنة 144 هـ.
- 159 ثورة حيوة بن ملامس الحضرمي: سنة 144 هـ.
- 159 ثورة العلاء بن مغيث الجزامي (أو اليحصبي أو الحضرمي).
- ثورة المطري بمدينة لبلة وغيث بن علقمة اللخمي بمدينة شذونه وعبد الله بن خراشة
- 161 الأسدي بجيان (سنة 149 هـ / 766 م).
- 163 ثورة أبو الصباح بن يحيي اليحصبي سنة 150 هـ.
- 163 ثورة البربر في شمال الأندلس بزعامة شقنا بن عبد الواحد سنة 151 هـ.
- 165 المؤامرة الكبرى ضد عبد الرحمن بن معاوية.
- 171 بعض مظاهر الحضارة في عهد عبد الرحمن.
- 172 ثانيا أولى العلم والجانب الديني اهتماما بال.
- 172 ثالثا العناية الكبيرة بالجانب الحضاري الما.
- 172 رابعا حماية حدود دولته من أطماع الأعد.
- 173 عبد الرحمن الداخل.. الأمير الف.
- 179 الفصل الرابع: أمراء بني أمية بعد عبد الرحمن الداخل.
- 180 الأمير هشام بن عبد الرحمن - الرضا - (172 - 180 هـ / 789 - 796 م).
- 185 الحكم الأول بن هشام - الربضي - (180 - 206 هـ / 796 - 821 م).
- 187 الثورات الداخلية في عهده.
- 187 ثورة عميه سليمان وعبد الله ابني عبد الرحمن بن معاوية.
- 188 ثورة طليطلة سنة 181 هـ / 797.

188	ثورة إصبغ بن وانسوس
189	ثورة الربض
192	الحروب الخارجية
196	واحكاماه!!
197	عبد الرحمن الثاني الحكم " الأوسط " (206 - 238 هـ / 821 - 852 م)
198	الثورات والفتن الداخلية في عهده
200	الحروب الخارجية في عهد عبد الرحمن الأوسط
206	محمد بن عبدالرحمن بن الحكم (238 - 273 هـ / 852 - 886 م)
207	الثورات الداخلية في عهده
208	ثورة طليطلة
209	ثورة ماردة
210	ثورة سرية
212	ثورة عمر بن حفصون 267 هـ / 316 م
218	الحروب الخارجية في عهده
222	المنذر بن محمد بن عبد الرحمن (273 - 275 هـ / 886 - 888 م)
225	عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (275 - 300 هـ / 888 - 912 م)
226	الثورات في عهده
226	جملة الثوار ببلاد الأندلس في أيام الأمير عبد الله الخارجين عن الجماعة المضرمين ل نار الفتنة
240	الفصل الخامس: عصر الخلافة الأموية في الأندلس (316 - 400 هـ / 929 - 1009 م)
242	عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) (300 - 350 هـ / 912 - 961 م)
244	سياسته الداخلية
244	القضاء علي الثورات الداخلية
246	إتخاذه لقب خليفة
248	سياسته الخارجية
252	الحكم الثاني المستنصر بالله (350 - 366 هـ / 961 - 976 م)
253	الأحداث الخارجية في عهده
254	خلافة هشام بن الحكم وتسلط المنصور بن أبي عامر
258	سقوط الدولة الأموية في الأندلس
261	الفصل السادس: عصر ملوك الطوائف (422 - 484 هـ / 1031 - 1091 م):

265	دولة بني جهور في قرطبة.
275	بنو عباد ومملكة إشبيلية.
284	المعتمد بن عباد.
289	الفصل السابع: المرابطون في الأندلس (479 - 555 هـ / 1086 - 1160 م).
291	الجدور التاريخية للمرابطين.
297	القائد الرباني يوسف بن تاشفين (400 - 500 هـ / 1009 - 1106).
308	موقعة الزلاقة.
319	الأندلس بعد الزلاقة.
325	العبور الثالث للأمير يوسف بن تاشفين للأندلس.
333	الجواز الرابع للأمير يوسف في الأندلس.
336	الأندلس في عهد علي بن يوسف.
339	الأندلس في عهد تاشفين بن علي.
339	أسباب سقوط دولة المرابطين.
342	الفصل الثامن: الموحدون في الأندلس (555 - 630 هـ / 1160 - 1233 م).
345	غرناطة.
345	استعادة المرية.
352	آثار حركة ابن مردنيش على دولة الموحدين.
356	سادساً: أسباب فشل أبي يعقوب يوسف في توحيد الأندلس.
362	ثالثاً: معركة الأرك.
364	خطة الموحدين.
368	رابعاً: نتائج معركة الأرك.
369	خامساً: أسباب انتصار الموحدين في معركة الأرك.
372	الخليفة محمد الناصر.
375	موقعة العقاب.
379	حصار قلعة رباح.
381	مقتل البطل يوسف بن قادس أبو الحجاج.
382	المعركة.
386	ثالثاً: أسباب الهزيمة في العقاب.
389	يوسف بن محمد المستنصر بالله.
	الفصل التاسع: عصر بني الأحمر (مملكة غرناطة) وسقوط الأندلس (630 - 897 هـ /
394	1233 - 1492 م).

- 402 محمد بن محمد بن يوسف الفقيه 671 - 701 هـ.
- 408 السلطان محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن الأحمر.
- 409 نصر بن محمد بن الفقيه.
- 409 السلطان أبو الوليد إسماعيل (713 - 725 هـ / 1314 - 1325 م).
- 733 - 725) السلطان محمد بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف - أبو عبد الله - (725 - 733 هـ / 1325 - 1333 م).
- 411 السلطان أبو الحجاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل (733 - 755 هـ / 1333 - 1354 م).
- 413
- 413 د - موقعة طريف.
- 415 السلطان محمد بن يوسف بن إسماعيل.
- 1394 - 1391 هـ / 797 - 793) يوسف بن محمد الفقيه - يوسف الثاني، أبو الحجاج - (793 - 797 هـ / 1391 - 1394 م).
- 417 السلطان محمد بن يوسف بن الغني بالله (797 - 808 هـ / 1394 - 1405 م).
- 417 السلطان يوسف بن يوسف بن الغني بالله (811 - 820 هـ / 1408 - 1417 م).
- 418 السلطان محمد بن يوسف - الأيسر - (820 - 846 هـ / 1417 - 1442 م).
- 419 يوسف بن الحول.
- 420 محمد بن نصر (الأحنف).
- 421 سعد بن محمد (863 - 868 هـ / 1458 - 1463 م).
- 422 علي بن سعد - أبو الحسن - (868 - 878 هـ / 1463 - 1482 م).
- 422 وصف حي لتسليم غرناطة.
- 433 محاكم التفتيش.
- 439 القواعد النصرانية الإسبانية في معاملة من أكرهوا على النصرانية.
- 442 أهم أسباب سقوط غرناطة والأندلس عموماً.
- 445 وأخيراً.
- 450 المصادر والمراجع.
- 451 الفهرس.
- 456